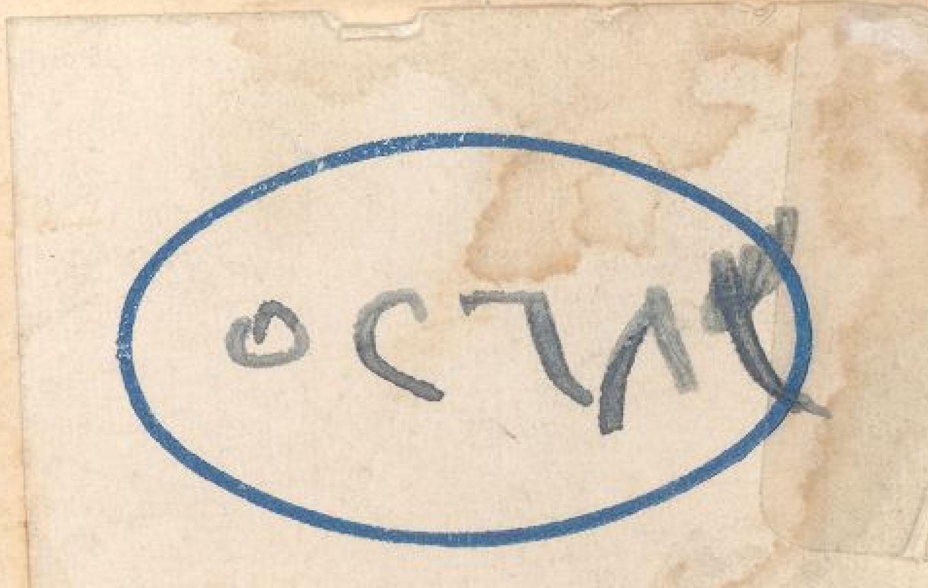
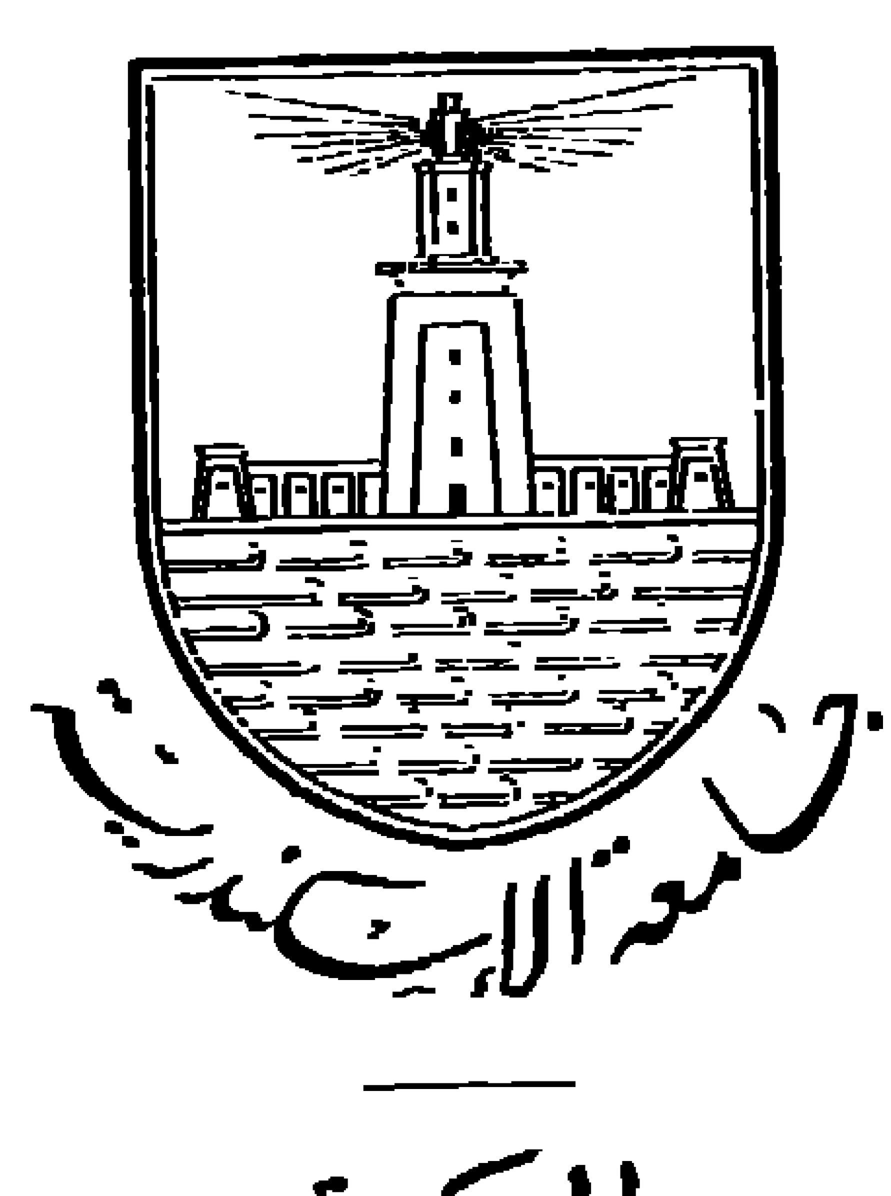
جيفرسون

الرئيس الفيلسوف

أشرف على التحرير : برنارد مايو
ترجمة وتقديم : الدكتور محمد عبد المعز نصر





المكتبة

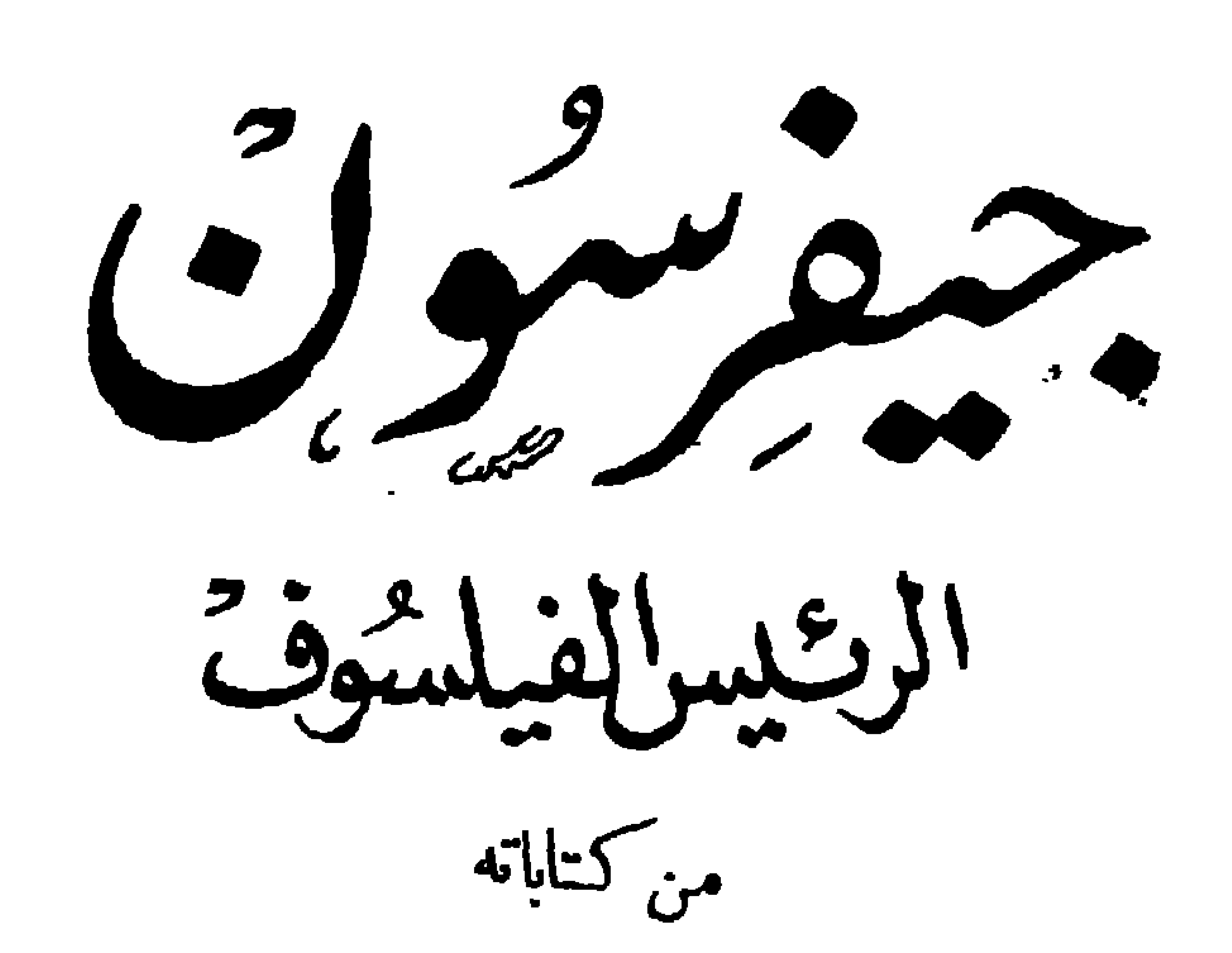
جيفرسون

الرئيس الفيلسوف

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

نشر هـذا الكتـاب بالاشـتراك
مـع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القـاهرة — نيـويورك





من كتاباته

أشرف على التحرير

برنارد مايو

ترجمة وتقديم

الدكتور محمد عبد المعز نصر

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٩٥٩

هـــذه الترجمة مرخص بها وقد قامت مؤسسة فرانكلين
للطباعة والنشر بشراء حق الترجمة من صاحب هـــذا الحق

This is an authorized translation of "JEFFERSON HIMSELF" by Bernard Mayo. Copyright, 1942, by Bernard Mayo. Published by Houghton Mifflin Company.

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

برنارد مايو : تعلم فى جامعة واشنطن بمدينة واشنطن وحصل منها على درجة الليسانس عام ١٩٢٤ ودرجة الماجستير عام ١٩٢٥ . وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز فى مدينة بالتيمور بولاية ماريلاند عام ١٩٣١ .

ظل اهتمامه طوال حياته منصباً على دراسة التاريخ الأمريكى . وعمل أستاذاً مساعداً للتاريخ الأمريكى بالجامعة الأهلية بواشنطن عامى ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ثم أستاذاً للتاريخ الأمريكى فى الجامعة نفسها من عام ١٩٢٧ ، إلى عام ١٩٣٧ ، وكان فى الوقت ذاته عميداً لمدرسة الاقتصاد ونظم الحكم التابعة للجامعة الأهلية .

ومنذ عام ١٩٤٠ وهو يعمل أستاذاً للتاريخ الأمريكى بجامعة فيرجينيا ، وبالإضافة إلى عمله المنتظم فى التدريس بجامعة فيرجينيا ، ألقى الكثير من المحاضرات فى جامعة جورج واشنطن ، وجامعة كولومبيا بمدينة نيويورك ، وعمل أستاذاً زائراً بجامعة هارفارد بولاية ماساشوستس .

ألف كتباً عديدة عن التاريخ الأمريكى من بينها : هنرى كلاى ، توماس جيفرسون ، والفترة الوسيطة فى التاريخ الأمريكى .

المترجم :

الدكتور محمد عبد المعز نصر : أستاذ علم السياسة المساعد بجامعة الإسكندرية ، حصل على درجة الليسانس فى الآداب (قسم اللغة الإنجليزية) من جامعة القاهرة عام ١٩٣٦ ، ودبلوم عال لفن المكتبات من جامعة لندن عام ١٩٣٩ ، وزمالة اتحاد المكتبات البريطانى عام ١٩٤٧ ، وعلى درجة الدكتوراه فى علم السياسة من جامعة لندن عام ١٩٤٩ .

له مؤلفات كثيرة كما نشرت له بحوث عديدة ، ومجموعة من المقالات عن الفكر السياسى البريطانى – ترجم كتابى « الدستور الإنجليزى » تأليف وولتر باجوث و « نظام الحكم فى أمريكا » تأليف إرنست جريفث .

مصمم الغلاف :

المهندس رفيق البابلى : حصل على بكالوريوس الهندسة « قسم العمارة » عام ١٩٥٤ ، يعمل مهندساً بشركة التعمير والمساكن الشعبية . منتدب للتدريس بقسم العمارة بجامعتى القاهرة وعين شمس . حصل على جائزة مؤسسة فرانكلين عن تصميم غلاف كتاب « كيف تتكامل الشخصية » . صمم كثيراً من أغلفة الكتب التى أخرجتها المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

تصدير

فى هذه القصة عن حياة توماس جيفرسون ، التى أقدمها بأسلوبه الشخصى ، حاولت أن أعرض صورة دقيقة كاملة لأمريكى عظيم ذى شخصية متعددة الجوانب. وإن المواد التى جمعت منها مستمدة من كتاباته الضخمة ، خاصة آلاف رسائله التى كتبها (كما قال) « فى حرارة الواقع والإحساس وجدتهما » والتى تؤلف « الصحيفة الوحيدة الكاملة الأصيلة » عن حياته. ولقد صيغت هذه المواد فى أسلوب قصصى عن الرجل ، وحياته الخاصة والعامة ، واهتمامه وأعماله المتنوعة . ولكنها أكثر من تاريخ شخصى لأعظم ديموقراطى عندنا. فامتلاؤها « بتأملاته عن الأشياء التى كانت جارية » قد جعل منها بيان شاهد عيان لمولد الأمة الأمريكية ، ولنصف القرن الأول من تاريخها ، كتبه جيفرسون نفسه .

وأينما يبدأ القارئ فى مطالعة هـذا الكتاب ، فإنه سوف يجد أن جيفرسون ، سواء أكان يتكلم عن السياسة أم الدين أم الاقتصاد أم العلم أم التعليم ، يعنى بهدف عظيم واحد : وهو حرية الإنسان وسعادته؛ إذ أن مؤلف إعلان الاستقلال الأمريكى لم يعط صورة أدبية خالدة لحقوق الإنسان وحسب ، ولكنه خلال حياته العملية الطويلة أعلن الحرب فى جبهات كثيرة ليجعل منها حقيقة واقعة . فديموقراطيته ديموقراطية محاربة ، وكان يدرك إدراكا جيداً أن أجيال المستقبل يجب أن تواصل الصراع الذى لا ينتهى لترجم المذهب الديموقراطى إلى تطبيق ديموقراطى . وإنه ليتكلم إلى جيلنا الحالى بقوة وبلاغة خاصة . فبالنسبة للأمريكيين وجميع الشعوب التى تحارب ذلك الاستبداد الذى أقسم توماس جيفرسون على أن يعلن ضده العداء الأبدى ، يعد البطل الخالد الملهم لحقوق الإنسان التى لا يمكن التنازل عنها .

شارلوتسفيل ، فيرجينيا
٥ من أكتوبر سنة ١٩٤٢

برنارد مايو

مقدمة المترجم

لا يزال عند توماس جيفرسون الكثير من القول الذى يمكن للعالم فى محنته المعاصرة أن يسترشد به فى تنظياته القومية وعلاقاته الدولية على حد سواء . فهو يمثل فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى الاتجاهات المضيئة التى تنبثق من مذهب التحرير والمثالية فى حضارة صناعية مادية قوية . ومن ثم أصبح فى صدق تفكيره وتحرره ملكا للعالم أجمع ، وتراثاً مشتركاً للبشرية يحاول الساسة والمفكرون من شتى أنحاء الأرض إحياءه والاهتداء به . ويرجع الاعتزاز الدولى بتوماس جيفرسون إلى أن الرجل ذو قلب كبير اتسع لأسرته ولإقليمه وأمته والعالم كله ، واستطاع بعقله أن يوجه عواطف ذلك القلب الغنية حتى وفق بين الحياة الشخصية والمصلحة الإقليمية وبين القومية والعالمية . فهو فى صراعه من أجل التعبير عن الروح الأمريكية فى دولة قومية ذات سيادة ، لم يغفل متابعة روح الإنسان ومحاولة التعبير السياسى عنها فى إطار يوفق بين الحرية الفردية والحرية الجماعية وبين التنافس القومى والتعايش السلمى فى العالم بأجمعه .

ومن ثم استطاع جيفرسون –بمحاولته هذا الجمع والتوفيق بين النزعات القومية والعالمية على أسس من الإنسانية – أن يضمن لنفسه شهرة داخل بلاده وخارجها على مرّ الزمن ، وأن تكون أفكاره مصدراً دائماً للإلهام وموضعاً للتفسير المتجدد فى العصور المتعاقبة . ولقد أشار المؤلفان « ناى » و « موريبرجو » إلى ذلك فى قولهما ان جيفرسون وفرانكلين يمتازان من بين القادة الأمريكيين بأن لهما « شهرة يمكن تحويلها بيسر إلى عملة أجنبية » . ولم يقف المؤلفان عند هذا الحد من القول ، بل اختصا جيفرسون بالمكان الأول فى مجال القيادة الداخلية والخارجية بين قواد أمريكاالثوريين . فهما يقرران « أن من بين جميع عظماء القواد فى التاريخ الأمريكى ، لا يستمتع سوى اثنين : فرانكلين Franklin وجيفرسون Jefferson ، بشهرة يمكن تحويلها فى يسر إلى عملة أجنبية . أما بقيتهم ،جاكسون Jacksonولى Lee ولنكولن Lincoln،وحتى إلى حد كبير

فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt ، فقد بلغوا العظمة لأسباب محض أمريكية ، وإن فهم أشخاصهم يتطلب فهم الظروف الأمريكية التى أحاطت بهم ، كما أن تقدير فضائلهم يصبح أمراً ممكناً حين يوضعون وضعاً دقيقاً فى سياق التاريخ الأمريكى. وكان فرانكلين وجيفرسون يجمعان بين الفكر والسياسة ، والفلسفة والحياة العامة ، والعلم النظرى والتطبيق العملى . وكلاهما أسهم كثيراً فى تأسيس الولايات المتحدة ، وكلاهما أسهم بشىء أكثر دواماً من الثورة . ولا شك أن جيفرسون كان أعظم من زميله كمفكر وكشخصية دولية ، فاهتماماته كانت أوسع ، وأعماله أبقى ، وحتى على المسرح السياسى الصغير لأمريكا فى عهد الثورة ، كان الممثل الأقوى . فأكثر من أى زعيم ثورى آخر ، خلق جيفرسون المذهب الأمريكى »[١] .

وإن ما قدمه جيفرسون وما يزال يقدمه للعالم من تراث فكرى مشرق منير إنما يقوم أول ما يقوم على مزجه الرقيق بين حاجات العصر فى حاضره وآمال البشر فى مستقبل الأيام ، واشتمال ذلك التأليف بين الواقعية والرومانتيكية ومطالب الضرورة والأخلاق على ما يخاطب الطبيعة الإنسانية فى حرصها على المصلحة المباشرة وحنينها إلى الأسلوب المثالى الذى يرتفع بها عن الغرق فى ظروف العيش الراهنة . وهو يؤمن بجانبى الصورة إيماناً متسقاً لا تعارض فيه ولا تناقض بين عناصره . فالسياسة عنده أساسها الاقتصاد ، وفى الوقت نفسه ترتكز على الأخلاق ، بل على نظام أخلاقى استلهم مبادئه من أجمل ما كان يسود أمريكا المملوءة بالأمل فى التقدم والتوسع الحضارى ، وما كان ينادى به المفكرون الأوربيون من انجليز وفرنسيين وغيرهم فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر من ثقافة الاستنارة والتحرير ودعوة إلى إعلاء شأن الإنسان وتمجيد حقوقه كإنسان . وقد أخذ ، بهذه النظرة الفلسفية الواسعة ، يضفى على أحداث الثورة الأمريكية وبناء الدولة القومية وعلاقاتها الدولية طابعاً متألقاً ضمن لها الدخول كمرحلة من مراحل الفكر البناءة فى تاريخ البشر والإسهام فى توجيهه عبر البحار .

(1) Nye, R. B. and Morpurgo, J. E. — A history of the United States Penguin Books, 1955 Vol. I. P. 212

وإن هذه الدعوة التى أراد جيفرسون أن يقيم على أساسها الدولة ، على حد تعبير ابن خلدون تتكشف بالتدريج فى رسائله وبياناته التى كان يعكف على كتابتها بمثابرة رائعة وسط أعماله المتعددة ، والتى بلغت الآلاف فى حياته الطويلة ، مما جعله يكتفى بها سجلا لسيرته ، ويتمنى أن يأتى اليوم الذى فيه يستطيع كاتب من الكتاب أن يجمع من أشتاتها صورة حية له . وقد حاول أكثر من كاتب[1] أن يقوم بهذا العمل العظيم الممتع فى عهد إحياء جيفرسون وتجدد العناية بآثاره فى هذه الأيام ، وتفوق من بينهم فى هذا المضمار برنارد مايو Bernard Mayo فى كتابه الذى جمعه من رسائل الفيلسوف باذلا من الجهد العلمى الدقيق والذوق الفنى العميق فى نسج خيوطها والتأليف بين موضوعاتها ما جعل أمنية جيفرسون تتحقق بإظهار صورة قلمية معبرة لحياته من صميم رسائله وكتاباته . وإننا لنرى فى هذه الرسائل نمو جيفرسون ونمو أفكاره وتبلور دعوته فى نظام فكرى خاص نتيجة التفاعل المتصل بين النظر والتطبيق فى مجال السياسة العملية . فحياة جيفرسون العامة هى من أقوى الصور فى تاريخ القادة المفكرين دلالة على أثر الفكر فى بناء الدول والمجتمعات وتشكيل حياة الأفراد فى تفاصيل سلوكهم الخاص وسلوكهم العام ، وهى بهذا الجانب الفكرى الخصب مثل قائم يدحض ادعاءات أولئك الذين يغضون من شأن النظر والتأمل فى هذا القرن الذى اشتهر فى بعض جوانب المعمورة بالتقليل من أهمية العقل والتأمل والإغراق فى تمجيد العمل والتنفيذ إغراقاً يهدد العالم بالدمار .

وإنا لنراه فى كل خطوة من خطوات بناء الدولة الأمريكية يستهدى الفكر الحر ويستهدف ترجمته إلى نظم عاملة فى خدمة المجتمع . ويظهر ذلك من أول الأمر حين أخذ فى مقتبل عمره يقوم بدور فعال فى قيادة الثورة الأمريكية وتوجيهها نحو تأسيس قومية حريصة على الديموقراطية السياسية والاقتصادية حرصها على الوحدة الداخلية والاستقلال فى الشئون الخارجية . فلقد دخل الحياة العامة فى سن مبكرة ، إذ انتخب عضوا فى مجلس نواب مستعمرة فيرجينيا فى سنة ١٧٦٩ وهو فى السادسة والعشرين

---

(١) مثل : Padover, Saul K.—Jefferson

وهو الكتاب المترجم Mayo, Bernard—Jefferson Himself

من سنه ، ووجد نفسه بذلك وسط ظروف سياسية تنذر بهبوب عاصفة تهدد العلاقات التى تربط المستعمرات البريطانية الأمريكية بالوطن الأم . ولكنه وجد كذلك فى نفسه أنه وإن كان مؤمنا بالسلم ومهيأ لحياة الهدوء والاستقرار إلا أنه مزود من عاطفته ومزاجه وثقافته باستعداد مكين لمقابلة ما يتحدى ذلك السلم والهدوء من عواصف الاستبداد ، حتى وان صدرت عن إنجلترا التى أعطت عالمه الجديد الحماية والوجود . فما إن تجددت سياسة إنجلترا المحافظة فى عهد ملكها الرجعى ، جورج الثالث ، بعد انتهاء أزمة قوانين الدمغة وعودة المستعمرات البريطانية الأمريكية إلى سابق عهدها من الولاء ، وما إن أصرت حكومتها على استئناف التدخل بالتشريع فى تقييد حرية المستعمرات من ناحية التجارة الداخلية والخارجية ومن ناحية التوسع نحو الغرب فى استيطان المساحات الشاسعة التى تثير آمال الشرق الأمريكى فى الرفاهية والتقدم ، حتى أدرك جيفرسون أن مصلحة الجنوب فى المستعمرات البريطانية الأمريكية لا يمكن فصلها عن مصلحة الشمال . ومن ثم دعا إلى وجوب وقوف إقليمه ، فيرجينيا ، إلى جانب مساشوستس فى نضالها ضد قوانين الشاى وغيرها من القوانين التى أخذ يفرضها البرلمان البريطانى على المستعمرات بحكم فهمه القانونى لمبدأ السيادة البريطانية وحق إنجلترا فى التشريع لمستعمراتها عبر الأطلنطى ، فالشاب الذى نشأ على الحدود الغربية لمستعمرة فيرجينيا والذى استنشق حرية المجتمع الزراعى الأول وما يشتمله من شوق رومانتيكى وتصميم عملى لغزو الغرب ، أدرك إدراكا بعيدا أن تحالف فيرجينيا ومساشوستس فى دفع طغيان الانجليز هو السبيل إلى تحقيق الحرية والحياة المزدهرة للمجتمع الأمريكى الجديد . ولم يعد موقف المستعمرات البريطانية الأمريكية من الوطن الأم فى نظره أمرا خاصا فرديا محليا يخص كل مستعمرة على حدة ، بل أصبح موقفا قوميا ، لا يبتغى حل مشكلة مؤقتة وإنما يرمى إلى وضع أسس لحياة مجتمع جديد ودولة جديدة . ومن هنا كانت أصالة الفكر السياسى عند جيفرسون التى وضعته فى مركز القيادة فى عصره وكفلت له القدرة على الخلق والابداع فى مجال السياسة العامة .

وإن هذه النظرة الواعية الشاملة إلى المسألة الأمريكية جعلت جيفرسون يعمل على تأييدها فى مجال التنظيم والفكر . فلا بد لأصحاب الأرض من أهل الجنوب أن ينسقوا

الخطط مع أصحاب التجارة من أهل الشمال . ولكن لا بد لكل خطة من واضع ولكل حركة من خالق ومنفذ وأظهر هذا الموقف مواهب جيفرسون التنظيمية فى تدبير الثورة وتوجيهها وتعبئة القوى اللازمة لإنجاحها فانضم إلى مجموعة من شباب فيرجينيا على رأسهم باتريك هنرى ورتشارد هنرى لى وفرانسزل . لى ودابنى كار ، ليؤلفوا لإقليمهم زعامة من الشباب تحل محل زعامة الشيوخ الذين كانوا أميل إلى المحافظة والاعتراف بحقوق إنجلترا فى تنظيمها لشئون المستعمرات الأمريكية ، وكانوا أعجز عن إدراك حقيقة الصراع الذى يوشك أن ينفجر بين الأم المستبدة والبنت التى نضجت وآمنت بالتحرر وكسر الجمود الذى كان يضغط عليها به قالب الاستعمار السادر فى غلوائه وعنفه واحتكاره للسلطة والامتياز . وتم لهؤلاء الشباب ما أرادوا من خلق زعامة قادرة ملهمة ترتفع إلى مستوى ما يتطلبه الموقف من مرونة وحزم . ولكن الثورة الأمريكية العامة تستلزم اتصال الزعامات فى المستعمرات المختلفة وتنسيق ذلك الاتصال ، فاقترح قادة فيرجينيا تكوين لجنة مراسلة فى كل مستعمرة ، وتكوين لجنة مركزية عامة من مندوبى هذه اللجان الإقليمية تشرف على إدارة المقاومة الأمريكية . وتم لجماعة فيرجينيا تبليغ هذه الإجراءات التنظيمية إلى مجلس نواب فيرجينيا وإلى سائر مجالس النواب فى المستعمرات المختلفة . وتحقق بتكوين هذه اللجان إحكام شبكة الاتصال والتفاهم وتوحيد الجهد الثورى وتوجيهه الوجهة المثمرة . ولكن جيفرسون ورفاقه لم ينسوا مع تقديرهم لأهمية القيادة فى الثورة أن ثورتهم الخاصة ثورة قومية شعبية ، ومن ثم ينبغى ألا تقف على رأسها وإنما يجب أن تعتمد على قاعدة شعبية تسند الزعامة فى تدبيرها وتتجاوب معها تجاوبا فعالا . فكانت الخطوة الشعبية التالية التى قصد بها تعبئة الشعور العام عند أهل فيرجينيا ونشر الوعى السياسى بينهم وإيقاظ الرأى العام . فانتهز قادة فيرجينيا قرار حكومة إنجلترا بإغلاق ميناء بوستون فى أول يونية سنة ١٧٧٤ ، وأعلنوا ذلك اليوم الذى يبدأ فيه إغلاق الميناء يوما للصوم والصلاة فى أرجاء فيرجينيا مشاركة من أهلها وعطفا منهم على مساشوستس نضالها مع التشريعات البريطانية المقوضة لحرية السوق والتعامل عند الأمريكيين . وقد وافق برلمان المستعمرة على الإجراء . ويقول لنا جيفرسون ان يوم

الصوم والصلاة قد نجح « فكان تأثير اليوم فى جميع أنحاء المستعمرة أشبه بصدمة كهربية أيقظت كل رجل ووضعته فى وضع مستقيم ثابت على جذعه » وإنه لمن الممتع أن نلاحظ فى هذا التدبير الذى يرسمه جيفرسون وزملاؤه لإثارة الأمريكيين فنا من فنون الثورة التى أخذ جهازها على مختلف العصور يتطور حسب مقتضيات الظروف المحيطة حتى جعل منه لنين فى القرن العشرين ومن بعده هتلر نظاما شعبيا منسوج الحلقات وبالغا من الإتقان الفنى حداً دعا مفكرا سياسيا مثل أرسطو أن يفرد له نوعا خاصا به بين أنواع الثورات التى عددها فى كتابه « السياسة » .

وكان يقود هذه المساهمة — التى شارك بها جيفرسون فى التدبير والتنظيم — ما كان يؤمن به من مبادئ النظرية الطبيعية فى فهم المجتمع والدولة . وما كان يمزجها به من مبادئ مذهب المنفعة والقواعد التى تمليها عليه ظروف السياسة ونتائج العقل والتفكير. فالفكرة الرئيسية عند مفكرى الحقوق الطبيعية تقوم على أن مقياس الحكم على السلطة ومباشرة الحاكم لها وعلى الامتيازات والالتزامات القانونية وحقوق الأفراد العادية إنما يوجد فى مبادئ العدل والحق الخالدة العالمية . ويعنى هذا أن حقوق الإنسان ذاتية فى كيانه وأنها جزء منه فلا تتوقف على عضويته بالمجتمع السياسى ، بل هى مستقلة عنه وسابقة على قيامه من الناحية الزمنية والمنطقية ، وهى من الأهمية بدرجة لا تجيز اخضاعها للسلطة السياسية . وإن هذه الحقوق لاتشتق من قوانين الدولة ولا تعدل بها ، فالكافة جميعا يستمتعون بها وإن اختلفوا فى وجوه أخرى ، وهى بذلك مقياس تتفاوت حسب تطبيقه الدول ويختلف بعضها عن بعض من حيث حمايتها وكفالتها لجميع المواطنين فيها . ويلخص فرانسز كوكر Francis W. Coker ذلك بقوله : « إن خير حكومة هى تلك الحكومة التى تحمى الحقوق التى يملكها الفرد فى استقلال عن الحكومة »(١) . وإن اعتبار النظرية الطبيعية مصدر الحقوق مستقرا فى سلطة خارج سلطة الدولة ، مثل : الله ، أو الطبيعة ، أو العقل المطلق ، أو حاسة العدل ، أو الحق ، هذه السلطة الكامنة فى ضمير الإنسان ، قد جعلها تلتقى فى يسر مع نظرية المنفعة فى السياسة والأخلاق عند جيفرسون بالرغم من الهجوم الذى لقيته النظرية

---

(1) Coker, Frencis W. — Recent political thought, New York, 1934 P. 22.

الطبيعية من قادة مذهب المنفعة مثل جريمى بنثام وتلاميذه فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فنظرية المنفعة ذهبت كذلك إلى أن مقياس الحكم على الدولة ونظامها ، وعلاقة أفرادها بها ، وعلاقتها بهم إنما يقوم خارجها ويعتمد على مصالح الأفراد ، ومن ثم فإن مبدأ المنفعة أو سعادة الإنسان ورفاهيته هو الذى يقرر الحق فى مجال السياسة وغيره من مجالات النشاط الإنسانى المتعددة . ولهذا فخير حكومة هى التى تساعد أعمالها على تحقيق السعادة لأكبر عدد ممكن من الأفراد ، على أن تكون تجربة الفرد مما يستشعره من لذة أو ألم هى أساس الحكم على السلوك الفردى والسلوك العام . وهكذا التقت النظريتان الطبيعية والنفعية فى جعلهما تجربة الفرد هى المقياس فى تقرير الحق والحكم فى الحياة العامة وإنكارهما بذلك الامتيازات السياسية والاجتماعية . وان المتتبع لتفكير جيفرسون يتبين الأسلوب الواقعى الذى جعل به المنفعة هى المحتوى الذى يملأ الحقوق الطبيعية ويزاو به بين النظرية الطبيعية والنفعية فى الصراع الخارجى بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية ، وفى الصراع الداخلى بين حزبه الجمهورى وحزب هاميلتون الفيدرالى بعد قيام الدولة الجديدة .

وإن هذا المنهج الخاص الذى عالج به جيفرسون نظرية القوانين والحقوق الطبيعية جعله يفهم الطبيعة على أنها مصدر للتحرر والمساواة ، لا على أنها دعامة الفروق الفردية والطبقية والعنصرية وتبرير للاستغلال والاستعمار ، كما فسرها وما يزال يفسرها به دعاة الامتياز ، وتفضيل صفوة مختارة من البشر . ويبدو هذا التطبيق واضحا فى الرسالة التى كتبها عن الحقوق الأساسية لأمريكا البريطانية والتى نشرت بعنوان « نظرة موجزة إلى حقوق أمريكا البريطانية » فى سنة ١٧٧٤ . فلقد اتجه نحو القوانين الطبيعية ليستمد منها المطالبة بالحياة والحرية والاستقلال للأمريكيين ويخاطب فيها جورج الثالث ، ملك بريطانيا ومستعمراتها بعد أن عدد نواحى الظلم الذى ينزله الملك وحكومته بهم فى قوله : « هذه هى مظالمنا التى وضعناها أمام صاحب الجلالة بتلك الحرية فى اللغة والعاطفة التى تناسب شعبا حرا يطالب بحقوقه كما تستمد من القوانين الطبيعية لا كهبة من هبات حاكمه الأعلى . ودع أولئك الذين يخشون فيتزلفون ، فالتزلف ليس فنا أمريكيا . فإزجاء الثناء فى غير موضعه قد

يكون مقبولا من الدنئ ولكنه لا يليق بأولئك الذين ينادون بحقوق الطبيعة الإنسانية . انهم يعرفون ، ولذلك يقولون « إن الملوك خدم الشعب لا ملاكه » . وإذ قد أكد فى هذا القول مصدر الحقوق الأمريكية ونسبها إلى سلطة أعلى من سلطة الحاكم ، فقد حاول أن يبين ماهية تلك الحقوق بأن يضع فى مقدمتها حرية السوق والمتاجرة والامتلاك ، ويجعل ذلك الحق صنو الحياة ذاتها وأنه وإياها هبة من هبات الله فهو يواصل مخاطبة الملك فى نفس الرسالة المذكورة ، طالبا إليه أن يكون الحكم بين شعبه فى الجزيرة البريطانية وشعبه فى القارة الأمريكية ، فيقول له : « إنا لا نرغب فى الانفصال عن بريطانيا العظمى ، كما أن ذلك ليس من صالحنا . ونحن على استعداد من جانبنا لأن نضحى بكل شيء يتطلبه العقل لإعادة ذلك الهدوء الذى يجب على الجميع أن يرغبوا فيه . أما من جانبهم ، فدعهم يكونوا على استعداد لأن يقيموا الاتحاد بيننا على أساس خطة كريمة . دعهم يذكروا شروطهم ، ولكن دعهم يكونوا عادلين . اقبل كل تفضيل تجارى فى استطاعتنا أن نعطيه فيما يتصل بالأشياء التى نستطيع إنتاجها لاستعمالهم ، أو يصنعونها لاستعمالنا . ولكن لا تسمح لهم بأن يفكروا فى إبعادنا عن الذهاب إلى الأسواق الأخرى لنتصرف فى تلك السلع التى لا يستطيعون أن يستعملوها ، أو فى تموينتا بتلك الحاجات التى لا يستطيعون تموينتا بها : ولا تدعهم يقترحوا أن تخضع أملاكنا داخل حدود أراضينا لأى سلطة على وجه الأرض سوى سلطتنا فى تنظيمها أو فرض الضرائب عليها . والله الذى وهبنا الحياة وهبنا الحرية فى الوقت نفسه ، وإن يد العنف قد تدمرهما ولكنها لا تستطيع أن تفصلهما » :

ومن ثم نرى فى هذا البيان المضمون الاقتصادى لفكرة الحرية ، وإن لم يستوعب ذلك سائر جوانبها ووجوه التعبير عنها وفق ما ذهب إليه جون ستراتشى فى قوله : « إن الحرية التى من أجلها انفصل هنرى تيودور Henry Tudor عن روما ، ومن أجلها حارب هامبدن Hampden وكرمويل Cromwell ومن أجلها خان هاليفاكس Halifax وتشرشل Churchill وغدرا بجيمز James ، والتى أخذ لوك Locke ينشر

الوعى بها ، والتى من أجلها انتصر جيفرسون وواشنطون على جورج الثالث ، ومن أجلها قام جراى Grey بالإصلاح البرلمانى ، كانت حرية الشراء والبيع » فكل الصراع من أجل الحرية ، الذى يخبرنا المؤرخون بكل شىء عنه ما عدا ما حققه ، كان صراعا من أجل حرية التعاقد : التى هى التعبير القانونى عن السوق الحرة[١] » . ولكن ادموند بيرك[٢] Burke — وهو زعيم الفكر الحر بين الهويج البريطانيين قبل أن تظهر الثورة الفرنسية ماكان ينطوى عليه من محافظة وحرص على القوى الملكية والارستقراطية التى ترمز لها فى السياسة العامة — قد ذهب فى القرن الثامن عشر إلى غير ما ذهب إليه ستراتشى فى القرن العشرين ؛ إذ رأى فى دعوة جيفرسون إلى الحرية أكثر من دعوة اقتصادية ، فقرأ تلك الرسالة عن حقوق أمريكا البريطانية واستخدمها فى دفاعه المتحرر المجيد عن الثورة الأمريكية ومهاجمته للعنف والإيغال فى شهوة السلطة لدى البريطانيين وفى دعوته بنى قومه إلى الاستمساك بالعقل والحكمة والاعتدال فى معالجة المشكلة البريطانية الأمريكية .

ولو أن جيفرسون قد اقتصر على التفسير الاقتصادى وحده للحرية لما كان لتفكيره ذلك التأثير الذى تتردد أصداؤه فى الحياة الأمريكية كلما دعا داع لمخاطبة القوى الغامضة المثالية فى الطبيعة البشرية . فالحرية عنده متعددة الجوانب ، ومفهومها متعدد العناصر ، وإن كان ملؤها الاقتصادى هو الباعث المباشر الذى حرك السياسة الأمريكية لتحطيم الحواجز البريطانية ، ووضع أسس الدولة الأمريكية . وهذا المفهوم المتعدد لفكرة الحرية كان متوقعا فى البيئة الأمريكية فى أثناء الفترة التى شاهدت حرب الاستقلال ، إذ أن فلسفة الحقوق الطبيعية بمعانيها المختلفة ومتضمناتها العديدة كانت جذورها قد استقرت فى الحياة الأمريكية وازدهرت جنبا إلى جنب مع فلسفة التنوير السائدة وما غرسته من إيمان بالتقدم فى الفكر الأمريكى . وان هذه الفلسفة الطبيعية

---

(١) Strachey, John—Coming Struggle for power London, Victor Gollancz Ltd, 1936 P.12.

(٢) Burke, Edmund—Speeches and letters on American affairs.

لم تؤكد حق الامتلاك والتصرف فيه وحسب ، وإنما كانت فى الأغلب الأعم مثلثة الأركان ؛ فقد كانت تذهب إلى أن الإنسان فى الحالة الطبيعية السابقة لحالة المجتمع كان يستمتع بحق الحياة والحرية والامتلاك ، وأنه حين رأى وجوب التعاقد مع أخيه الإنسان فى عقد اجتماعى لم يتنازل عن هذه الحقوق وإنما تنازل عن حقه فى تطبيقها وتنفيذها بشخصه ووكل ذلك إلى السلطة المدنية الجديدة . وإن مثل هـــذا التفسير للحقوق الطبيعية أعطى لفكرة الحرية مدلولا أعم من المدلول الاقتصادى وورثه جيفرسون مع زملائه من المواطنين فى عصره . فلقد استخدمت سلاحا فى نصرة الحرية الدينية والاجتماعية والسياسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وتجاوب فعلها فى إنجلترا وفى مستعمراتها الأمريكية فإننا نرى أن « البيوريتان » فى بريطانيا فى أثناء القرن السابع عشر قد استخدموا فلسفة الحقوق الطبيعية فى صراعهم مع السلطة الملكية والكنسية كما أن أنصار كالفين فى نيو انجلاند والمستعمرات الوسطى والجنوبية قد أخذوا كجزء من تراثهم هذه الفلسفة على النحو الذى شرحت به فى كتابات هارنجتون Harrington وملتون Milton وسدنى Sydney وبعد ذلك فى كتابات لوك Locke. ولم يكونوا ملمين فقط بفلسفة الحقوق الطبيعية ، وإنما وضعوها فعلا موضع التنفيذ فى اتفاقهم الواحد مع الآخر فى المجتمعات الجديدة التى قامت على الحدود المتنوعة فى نيو انجلاند أو فى الإقليم الخلفى للمستعمرات الوسطى والجنوبية . وكثيرا ما استند أيضا إلى هذه الفلسفة فى التنظيم الكنسى . فمثلا فى سنة ١٦٤٨ ، وضع القسيس توماس هوكر Thomas Hooker ، وهو القائد فى تأسيس مسدن نهر كونيكتيكت ، نظرية المساواة الكنسية الأصلية بين الناس جميعا . وإذا كان الناس قد تعاقدوا فيما بينهم على إخضاع أنفسهم ، وبذلك وضعوا الدعامات التى يقوم عليها المجتمع وتحفظه ، فإنهم رغم ذلك احتفظوا بحق الانتقاض على أى موظف يحيد عن شروط التعاقد . وفى بدء القرن الثامن عشر استخدم جون ويز John Wise من ابسويتش مساشوستس فلسفة الحقوق الطبيعية فى تأييد شكل « الكونجراشن » Congregation لنظام الكنيسة الذى هدده أتباع البرسبيتريانزم Presbyterianism[1]

---

(1) Curti, Merle— The growth of American Thought ; Second edition New York, Harper and Brothers Publishers, 1951, p. 118.

ولقد تساند الهدف والوسيلة فى المحاولات الأمريكية الأولى لوقف الاستبداد فى أرجاء الكنيسة وأرجاء الدولة . فلم تجد الحرية الدينية وحدها سنداً فى فلسفة الحقوق الطبيعية ، وإنما وجدت فيها كذلك الحرية السياسية أداة فعالة قوية ، حتى جاء وقت الثورة الأمريكية الكبرى فلم يسعها سوى الاستناد إليها كسلاح معروف معترف به داخل المستعمرات البريطانية الأمريكية ويستطيع فى الوقت نفسه أن يخاطب مصادره الأولى فى القارة الأوربية . فمع أن أتباع كالفن Calvin من رجال الدين هم الذين نشروا الوعى بفلسفة الحقوق الطبيعية واستخدموها لتأييد الاتجاهات الديمقراطية فى المناقشات الكنسية إلا أنها انتقلت من مجال التنظيم الكنسى إلى مجال التنظيم السياسى ؛ إذ أن العنصر الثورى فيها قد اعتمد عليه فى تبرير الانتقاض على النظام الاستبدادى الذى فرضه الحاكم اندروز Andros فى سنة ١٦٨٩ . كما تردد فى خطاب القسيس جوناثان ماهيو Mayhew قبيل منتصف القرن الثامن عشر فى حفل مرور مائة عام على إعدام الملك شارل الأول ، تبرير حق الثورة عليه مستنداً فى ذلك إلى أن من يسرق الشعب ويدمره من الحكام بدلا من العمل على سلامه ورفاهيته إنما ينقلبون قراصنة وقطاع طرق وتنحسر عنهم الصفة التى تجعل منهم رسل الله وخلفاءه ويحق للأمة التى يسيء أمرها الحكم على هذا النحو أن تستعمل حق الدفاع عن حرياتها وحقوقها العادلة بأن تخلعه عن عرشه . ولقد نافس المحامون رجال الدين فى نشر فلسفة الحقوق الطبيعية ، فلقد أكد المحامى جيمز اوتيس James Otis من بوسطون حقوق المستعمرات الطبيعية فى فرض الضرائب على أنفسهم وفى الحرية الشخصية ، وذلك بمعارضته لقوانين الإعانة والدخل التى فرضتها عليها الحكومة البريطانية فى سنة ١٧٦٤ . ومن الطريف عند من يعيش الآن بعد منتصف القرن العشرين ويرى اعتماد أوروبا على أمريكا أن يقرأ دفاع اوتيس ومطالبته أهل المستعمرات الأمريكية بالمساواة فى الحقوق الطبيعية مع الأوربيين »[1] .

ومن ثم نرى أن مذهب التحرير كان راسخ الأساس فى الحياة الأمريكية العامة ، وأنه كان متعدد الجوانب حين جاء جيفرسون وتوجه بتسجيله تسجيلا

---

(1) Ibid P. 119

رائعا فى اعلان الاستقلال الأمريكى ، بأن وسّع مدلول الحرية فيه واستبدل بحق « الامتلاك » الذى يردده أصحاب مذهب التحرير مثل لوك حق « السعادة » . فلقد اختير عضواً فى لجنة صياغة « إعلان الاستقلال » التى تألفت منه ومن جون آدمز Joohn Adams والدكتور فرانكلين Franklin وروجر شيرمان Roger Sherman وروبرت ر . ليفنجستون Robert R. Livingston ، ولكن أعضاء اللجنة الآخرين وكلوا إليه أن يكتب هو مسودة الإعلان . فلما وافقت اللجنة على بيانه وقدم إلى الكونجرس لدراسته رأينا فلسفة الحقوق الطبيعية مضمّنة فيه ومستهلة له فى ألفاظ خالدة ، إذ يقول :

> « إننا نؤمن بأن هذه الحقائق واضحة وضوحا ذاتيا :
> إن الناس جميعا خلقوا متساوين ، وان خالقهم قد منحهم بعض الحقوق التى لا يتنازل عنها ، وإن من بينها حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة ، وإنه لضمان هذه الحقوق أقيمت الحكومات بين الناس مستمدة سلطانها العادل من رضا المحكومين ، وإنه عندما يصبح أى شكل من أشكال الحكم مقوضا لهذه الأغراض فمن حق أفراد الشعب أن يغيروه أو يلغوه ، وأن يقيموا حكومة جديدة ، واضعين أساسها على المبادئ ومنظمين سلطانها فى الشكل الذى يبدو لهم أنه من المرجح أن يحقق أمنهم وسعادتهم » .

ولقد خاطب إعلان الاستقلال بكلماته الواضحة السهلة المستهدفة قلب كل أمريكى فى عصر الثورة ولا يزال يخاطب قلب الإنسان فى جميع العصور والبلدان لا بما يحوى من حقائق عارضة ودفع مظالم استبدادية واقعة وإنما بما يشتمل عليه من هذا التقرير الأخاذ لحقوق الإنسان كإنسان . ولذلك نرى جيفرسون يدافع عن صياغة إعلان الاستقلال إزاء من اتهمه من بنى قومه بأنه ليس صاحب أفكاره أو مبدع العواطف التى تجيش فيه ، ولكنه ناقل لآراء وعواطف ترددت فى المجتمع الأمريكى منذ سنين وقويت خاصة فى السنتين الأخيرتين قبل صدور الإعلان بما أسهم به

أعضاء الكونجرس من بيان فى الجلسات العديدة المتتالية ، بقوله الصادق المتواضع الذى يقرر أنه لم يبتغ الأصالة والابتكار وخلق ما لم يخلق من العدم ، وإنما قصد التعبير عن العقل الأمريكى فى أسلوب عاطفى بليغ . وحقاً فعل ؛ فهو يذكرنا بما فعل بعد ذلك شلى حين أخذ أفكار الفيلسوف جودوين وكساها الكساء العاطفى الجميل فى رواياته التى تخلد الحرية ونداءاتها الساحرة . ويلخص جيفرسون دفاعه عن دوره فى كتابه « إعلان الاستقلال » بقوله :

« ولم يكن الغرض أن يستهدف أصالة المبدأ أو العاطفة ، أو أن يكون نسخة من أى كتابة خاصة وسابقة ، وإنما قصد به أن يكون تعبيرا عن العقل الأمريكى وأن يضفى على ذلك التعبير اللحن المناسب والروح التى تتطلبها المناسبة . فكل سلطته تعتمد إذن على العواطف المنسجمة السائدة فى العصر ، سواء عبر عنها فى الحديث أو الرسائل أو المقالات المطبوعة أو الكتب الأولية عن الحق العام ككتب أرسطو وشيشرون ولوك وسدنى وغيرهم[١] .

وان هذا الاعتراف الذى يسجله لنا جيفرسون عن الغاية التى استهدفها من كتابة وثيقة « إعلان الاستقلال » إنما يكشف لنا عن عبقرية الرجل السياسية فوق عبقريته الفكرية . فهو لم يكن فيلسوفا يكتب للناس ويخاطبهم من برجه العاجى ، وإنما هو قبل كل شىء سياسى يعمل فى الميدان ، يفكر وهو يعمل ، ويبنى عمله على ما يفكر . فهو الفيلسوف السياسى ، وهو السياسى الفيلسوف فى الوقت نفسه . وما كان لسياسى يقود قومه وعصره أن يطير فى أجواز الفضاء وأن يستلهم أفكاره من آفاق غريبة عن الوسط الذى يعيش فيه ويخدمه فى مجال الحياة العامة . ولكن السياسى الذى يطمح إلى أن يلعب دورا فى تاريخ قومه مقيد بتجربة العصر ، ينهل منها ويعيدها إلى مسرح السياسة الشعبية حاملة طابع مواهبه الفذة وقدراته غير العادية . ولقد حرص جيفرسون على أن يكون لقومه ذلك السياسى الفيلسوف ، فلم يعط قومه

---

(١) مايو جيفرسون الفصل الرابع

مالم يتوقعوا ، بل أعطاهم ما توقعوا من عواطف أمريكية سائدة فى قالب عاطفى عميق عمق الإنسانية ذاتها ، خالد ما خلدت وبقيت على الزمن ، وإن هذا الاتصال الوثيق بين الفكر والتجربة عند جيفرسون هيأ له مكانا بارزا فى تاريخ قومه كمشرع وسياسى إلى جانب مكانه كمفكر . ولولا توافر هذه الموهبة المزدوجة عنده لعرف فقط بتأليفه « إعلان الحقوق » . ولكنه كان أمريكيا أصيلا لا يعرف الفكر المجرد ، وإنما يعيش فى العمل والحياة التطبيقية، مثلما فعل أبوه فى جمع ثروته وتكوين شخصيته بالصراع مع الطبيعة على حدود فيرجينيا الغربية ، وهو يحاول غزو المساحات الواسعة التى تغرى بالاستصلاح والزرع . فلقد حاول جيفرسون أن يكون أول ما يكون المشرع المصلح لقوانين إقليمه ونظمه ، وأن يجعل من الأفكار التى صاغ فى إطارها « إعلان الاستقلال » حقيقة حية فى حياة الولاية التى ينتسب إليها ، والتى خصها بنصيب عظيم من الولاء إلى جانب ما استشعر من ولاء نحو « الاتحاد الأمريكى » العام . وإنه لمن الممتع حقاً أن نراقب الصراع بين الفكر والتطبيق فى سياسة جيفرسون المحلية والقومية ، ومدى ما أصابه من فشل ومن نجاح فى هـــذا المجهود الذى أحاطه ضميره وعقله بما يشبه التقديس .

ويبدو النشاط التشريعى الذى حاول به جيفرسون أن يقرن الثورة السياسية بثورة اجتماعية تمتد إلى حياة الأفراد وتفكيرهم ومعتقداتهم فيما قام به من تعديل هو وبعض أعوانه وزملائه فى المجلس النيابى بولاية فيرجينيا لمجموعة القوانين التى تنظم الشئون الدينية والتعليمية والقضائية وقواعد الميراث . فلقد كان يستهدف تقويض دعائم النظام الأرستقراطى الذى ورثه المجتمع الأمريكى عن العهد الملكى ويقيم بدلا منها دعائم مجتمع ديموقراطى متحرر فى ظل الجمهورية الجديدة . وإن الاصلاح الدينى الذى حاول جيفرسون أن يحققه لأمريكا الجمهورية وأن يؤكد به اتجاهاتها التحررية قد كان من الأعمال التى أحدثت أثرا محسوسا فى الحياة الأمريكية مما ضمن لاسمه الثناء وسعة الانتشار فيما وراء البحار . فقانون فيرجينيا للحرية الدينية قد قرر « أنه لا يكره شخص على أن يرتاد أو يعين أية عبادة أو مكان أو كنيسة دينية مهما كانت ، أو يجبر أو يقيد أو يزعج أو يثقل فى بدنه أو ماله ، أو يتعرض لعناء

بسبب آرائه أو معتقداته الدينية . ولكن الناس جميعاً أحرار فى أن يعتنقوا آراءهم فى شئون الدين ، وأن يحافظوا عليها بالبرهان ، وألا تنقص هذه الآراء بأية طريقة من حقوقهم المدنية أو توسعها أو تؤثر فيها »[1] . ولكن هذا القانون الذى فصل بين الكنيسة والدولة وأعفى أصحاب المذاهب المختلفة من المساهمة فى تمويل الكنيسة الإنجيلية استمرارا للالتزامات التى التزم بها المستعمرون الأوائل من قبولهم جميعاً دفع الضرائب لخدمة الكنيسة الإنجيلية الرسمية . وقضى على السلطان المتفرد لرجال الدين فى تلك الكنيسة ، وكفل الحرية الدينية لجميع الملل والنحل : لا يمكن تقديره حق التقدير إلا فى ضوء فلسفة الحرية التى آمن بها جيفرسون فى النظر والتطبيق وعبر عنها تعبيرا حارا صادقا قويا يسلكه فى سلك دعاة حرية الفرد الفكرية فى التراث الإنسانى مثل جون لوك وستيوارت مل وآكتون : فهو يؤكد ثقته بعقل الإنسان وقدرته على البحث والحكم والوصول إلى الحقيقة بتمييز الحق والباطل وتفضيله الأول على الثانى . وهو بهذا يسلك فى فهمه للطبيعة البشرية مسلك المفكرين الأحرار الذين ذهبوا إلى سيادة العقل بين عناصرها ، وجدوى المناقشة العقلية التى تقوم على قرع الفكرة بالفكرة ، والمحاجة بين الأفكار المؤيدة والمعارضة ، واستعداد المتناظرين فى الرأى لقبول وجهة النظر الصائبة واطراح الوجهة الخاطئة . ومن ثم فقد أباح الاختلاف ورأى فيه الطريق إلى الابتكار والتقدم ، وهاجم هجوما عنيفا ساخرا أولئك الذين يفرضون التشابه فى العقائد على الناس ويضطهدون المنشقين على المعتنقين للمذهب السائد . ولم يقتصر دفاعه على المنشقين وحدهم ، بل امتد إلى أصحاب الأديان المختلفة ، ذاهبا إلى أن ما يهمه فى الأديان ما اتفقت فيه جميعا على الدعوة الأخلاقية إليه مثل تحريم القتل والسرقة والنهب وشهادة الزور وأن ما عدا ذلك من تفاصيل لا تمس أصول السلوك والأخلاق أمور خاصة بمعتنقيها وأنها لا تستدعى منا ايثارا لهم أو نفورا منهم . وقد صاغ دفاعه فى صيغ حية وعبارات قوية تجعل منه وثيقة من الوثائق الإنسانية التى ينبغى نشرها بين أهل القرن العشرين لتنشر بينهم التسامح وتخفف من التعصب الذى خلقته المذاهب الاجتماعية عند أنصارها من أبناء الشعوب

---

(١) مايو   جيفرسون   الفصل الخامس

المختلفة . فهو يقول إنه « لا يلحقنى ضرر ان قال جارى إن هناك عشرين إلها أو ليس ثمة إله . فهذا لا يسرق جيبى ولا يكسر ساقى . وإذا قيل إن شهادته فى محكمة من محاكم العدل لا يمكن الاعتماد عليها ، فلترفض إذن ولتكن وصمة فى جبينه . فالإكراه قد يجعله رجلا أسوأ مما هو عليه وذلك بجعله منافقا ، ولكن لن يجعله مطلقاً رجلا أصدق مما هو عليه . فقد يثبته على العناد فى أخطائه ولكنه لا يعالجها . فالعقل والبحث الحر هما العاملان الفعالان ضد الخطأ . فأعط الحرية لهما وسينصران الدين الصحيح بتقديم كل دين زائف إلى محكمتهما ووضعه تحت اختبار الفحص والدرس . فهما العدوان الطبيعيان للخطأ ، والخطأ وحده ، فالم تكن الحكومة الرومانية قد سمحت بالبحث الحر فى عهد الإصلاح لما أمكن تطهير مفاسد المسيحية . وإن حيل الآن دون البحث الحر فإن المفاسد الحاضرة سوف تحمى وتشجع مفاسد جديدة[1] » .

وإن المتتبع لوجوه الدفاع التى عناها جيفرسون لدعم وجهة نظره تبين مدى إدراكه العميق لأهمية التسامح المذهبى بين الناس حتى لقد حرص على أن يعد قانون الحرية الدينية لولاية فيرجينيا من أعماله التى تذكر إلى جانب تأليفه إعلان الاستقلال الأمريكى والتى يسجلها لنفسه على قبره بعد وفاته .

وإن نحن سرنا مع جيفرسون فى تسلسل الترتيب الذى اختاره لأعماله التى ود لو يذكر بها فى التاريخ ، لعرضنا فى هذا المقام لإسهامه فى بناء التعليم ؛ إذ أراد لأجيال المستقبل أن تعرف عنه أنه مؤلف إعلان الاستقلال ، وواضع قانون فيرجينيا للحرية الدينية ، ومؤسس جامعة فيرجينيا[2] . وفى الواقع أن جيفرسون قد سبق فى تقديره لأهمية التعليم ونشره بين الشعب يقظة إنجلترا ذاتها وعنايتها بالتعليم بما يقرب من قرن من الزمان . وإن المطلع على تاريخ التعليم فى انجلترا ليدرك مكانة ذلك السبق الذى تزعمه جيفرسون فى بلاد كان السادة من الحكام الانجليز يعدونها تابعة متأخرة فى المجال الحضارى . ويمكن لنا أن نقف على هذه

---

(١) مايو   جيفرسون   الفصل الخامس

(٢) مايو   جيفرسون   الفصل السادس عشر

الحقيقة إذا ما رأينا اهتمام جيفرسون بتشريع القوانين التي تكفل (أولا) لولاية فيرجينيا نظاما عاما للتعليم يعطي الفرصة لأبناء الشعب ، غنيهم وفقيرهم ، التعليم الأولى ، وتقيم (ثانياً) كليات لدرجة وسطى من التعليم معدة لخدمة أغراض الحياة العامة ، « وتهيئ (ثالثاً) المعاهد العليا للدراسات المتخصصة . وهو فى هذا يحرص على أن يضمن للأمة الأمريكية الانتفاع من جميع « المواهب التي غرستها الطبيعة فى سخاء بين الفقراء والأغنياء على السواء ، ولكنها تضيع دون جدوى إذا لم يبحث عنها وتربى[1] . » ويستهدف جيفرسون من نشر التعليم أن يحقق للمواطنين الغرضين الرئيسيين اللذين سجلهما فى صورة حقوق طبيعية فى إعلان الاستقلال وهما الحرية والسعادة . ففى رأيه أنه « ليس هنالك أساس ممكن آخر يمكن ابتكاره لحفظ الحرية والسعادة . . . وإن الضريبة التي ستدفع لهذا الغرض ليست أكثر من جزء من ألف جزء مما سوف يدفع للملوك والقساوسة والنبلاء الذين سيظهرون بيننا إن نحن تركنا الشعب على جهالة[2] » .

وينظر جيفرسون إلى جهاده من أجل نشر التعليم بين بنى قومه كأنه « حملة صليبية » فى محاربة الجهل ، ولكن جهوده وإن لم تلق النجاح المرتجى فى ميدان التعليم العام — بما ضمن قانون التعليم الأولى من شرط خاص جعل تطبيقه اختياريا فى الأقاليم المختلفة مما عرضه لأهواء أصحاب المصالح والأغراض من دافعي الضرائب الأغنياء ، وما عطل تنفيذه — فإن جهوده فى ميدان التعليم قد لقيت النجاح فى نهاية حياته والتقدير بعد مماته بتأسيسه جامعة فيرجينيا . ولا يزال ما كتبه عن التعليم الجامعى ملهما مضيئا بنور الثقافة الأصيلة التي امتازت بها شخصيته ، والتي تضعه حقاً بين قادة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر وقادة الفكر فى أوائل القرن التاسع عشر . وإن الجامعى الحق فى بلادنا ليجد الشيء الكثير من الإلهام عندما يطلع على الصفحات المشرقة التي لخص فيها جيفرسون تصوره للجامعة والجامعيين ولوظيفة الجامعة فى حياة البلاد . ويزداد الأثر الذى تتركه كتابات جيفرسون

---

(١) مايو　　جيفرسون　　الفصل السادس

(٢) مايو　　جيفرسون　　الفصل السادس

عن الجامعة عندما ندرك أنه ترجم كل كلمة من كلماته إلى واقع ؛ فلقد أشرف في السنين الأخيرة من حياته على اختيار كل حجر وكل لبنة بنيت منها الجامعة ، وعلى تنسيق أبهائها وفصولها وقاعاتها ومساكن طلابها وأساتذتها وحدائقها ، بل وعلى وضع أسلوب معمارى لها يكفل الانسجام بين فخامة المظهر وجلال العمل الجامعى . فهو يرى أن وظيفة الجامعة تقوم على تربية الشباب من أبناء الأمة الذين سيوكل إليهم الإشراف على الجمهورية الجديدة ، وعلى أن تكفل لروادها الحياة الفاضلة الحرة السعيدة . ومن ثم فقد عمل — وهو أبو الجامعة ومديرها الأول — على أن يعوّد الطلاب فيها التزام القانون من وحى ضمائرهم ، واختار لذلك طريق المعاملة الكريمة لهم « فنحن نتجنب الحكم والسلطة المفرطة ؛ إذ نعامل تلاميذنا كرجال وسادة ، يهتدون على وجه الخصوص برأيهم وتصرفهم . وهم ينظرون إلى أنفسهم على هذا النحو ويعملون بفخر على كسب تلك الصفة لمعهدهم[1] » . وإن هو حرص على تكوين الطالب ، فقد حرص فى الوقت نفسه على اختيار الأستاذ « فاقترحنا لهذا أن ندعو إليها شخصيات من الطراز الأول فى العلم من أوروبا ، وكذلك من بلادنا »[2] ، وحرص أيضاً على أن « تكون مؤسسة فاخرة ، وسوف يكون ذلك رأى الأوروبيين فيها ، كما أنها بنقاء معمارها وذوقها الكلاسيكى ستبزّ كل شىء فى أمريكا[3] » ولم يغفل إلى جانب العناية بالطالب والأستاذ والمبنى العناية بالعلوم التى تدرس فى الجامعة . فلقد عنى فوق تدريس العلوم الجامعية التقليدية فى أيامه بأن يجدد فى الإضافة إليها وتوسيع مجال تخصصها ، فأنشأ — وهو المشتغل بالسياسة والفكر السياسى منذ مقتبل العمر — كرسيا لعلم السياسة أطلق عليه اسم « مبادئ الحكم » ليخدم الجمهورية الناشئة فى ميدان الحياة العامة . ولن ندرك السبق العلمى فى تخصيص جيفرسون كرسيا لعلم السياسة فى جامعة فرجينيا إلا إذا أدركنا أن تاريخ تدريس هذه المادة فى الجامعات ملىء بالعقبات التى تقوم فى سبيلها من داخل

---

(١) مايو جيفرسون الفصل السادس عشر

(٢) مايو جيفرسون الفصل السادس عشر

(٣) مايو جيفرسون الفصل السادس عشر

الجامعة وخارجها ، فهى لم تبلغ الازدهار الذى بلغته فى القرن العشرين إلا بعد أن حالفتها التطورات الجوهرية فى المجتمعات المعاصرة . وهو يشير بفخار إلى هذا التوسع الأكاديمى بقوله ان الجامعة « تشتمل على بعض جوانب التجديد ، ففيها أستاذية لمبادىء الحكم ، وأستاذية للزراعة ، وأستاذية للانجلو - ساكسون[١] » ، وهكذا يجعل من الجامعة ميدانا للدراسات النظرية والعملية ، مستهدفا فى ذلك صالح بلاده المتطلعة إلى مستقبل حضارى ينافس أوروبا ويسبقها فى سباق التطور البشرى .

وإن هذا الاهتمام غير العادى الذى وجهه جيفرسون للتعليم العام والجامعى لم يكن مقصده خدمة الفرد لذاته وحسب وإنما خدمته كعضو عامل فى مجتمع سياسى من شكل معين ، ويستهدف تحقيق أغراض معينة ؛ فلقد كان يعمل على أن يجعل من الجمهورية الجديدة حكومة ديموقراطية حقة ، ولن يتوافر ذلك فى رأيه إلا بتسليح المواطنين بسلاح العلم وفتح أبواب المشاركة فى السياسة أمام جميع الأفراد ، لا أن يقصر الدخول فيها على طائفة الملاك وحدهم ؛ فالتعليم عنده ركن جوهرى من أركان الديموقراطية ، لأنه وحده هو الذى ينشر اليقظة والوعى بين أبناء الشعب ويجعل منهم حماة للحرية والصالح العام . ولن يؤتمن على صالح الشعب مثل الشعب ، على غير ما ذهب إليه ملوك أوروبا ونبلاؤها وقساوستها من ادعائهم رعاية المصلحة العامة ، وهم قد استحالوا فى الواقع « ذئاباً » وعاملوا شعوبهم معاملة « الغنم »[٢] .

ومن هنا كان تأكيد جيفرسون لأهمية الحكم فى حياة الأفراد والمجتمعات الإنسانية . وهو إن لم يكن قد كتب لنا مقالات كاملة عن الحكم كما فعل المفكرون السياسيون من قبله وبعده ، إلا أن رسائله تعرض لنا نظرية سياسية متكاملة عن طبيعة الحكم ووظيفته وأهدافه وشكله ، وهى تمتاز بأنها قد انصهرت فى التجربة الواقعية وتشكلت بالآثار الخارجية التى تعاقبت عليه فى حياته العامة منذ ذلك العهد المبكر الذى شاهد دوره فى الثورة الأمريكية والتى استمرت تتفاعل مع تصرفه

---

(١) مايو جيفرسون الفصل السادس عشر

(٢) Jefferson, (A letter to Edward Carrington, Paris, January 16, 1787)

الفردى والجماعى حتى أسلم روحه بعد ذلك بجيلين من الزمان . فهو لا يفصل مطلقاً بين حقوق الفرد الطبيعية وسعادته وبين شكل الحكم الذى يعيش فى ظله . ولم يناد بهذا التلازم بين البؤس فى حياة شعب وبين الحكم الفاسد ، والتلازم بين سعادة الأفراد وبين الحكم الصالح نتيجة لنظريات استمدها من بطون الكتب وحسب ، وإنما جاءت تجربته فى أوروبا حين عين سفيراً لبلاده فى فرنسا مؤكدة للدروس التى استقاها هو وزملاؤه الثوار فى هذا المجال من حياة الأمريكيين فى عهد الظلم والاستبداد الملكى الذى امتد إليهم من بلاط جورج الثالث . فجيفرسون يذهب إلى أن المزايا التى امتازت بها فرنسا قبيل الثورة الفرنسية من خصب فى التربة ، وجمال فى الجو ، وترابط فى الدولة ، لم تمنع حلول الشقاء « بأربعة وعشرين جزءاً من خمسة وعشرين جزءاً من سكان هذه البلاد[1] » ، لما كان الشعب يتلظى به من أثر استبداد الطبقة الاستقراطية الممتازة والملكية المترفة السادرة فى غيها .

ومن ثم اهتم جيفرسون بتفصيل المبادئ التى يقوم عليها الحكم والأشكال التى يتخذها تفصيلا مقارنا وبتقرير الخواص التى يمتاز بها الحكم الجمهورى الأمريكى بين النظم الحكومية فى العالم الأوروبى . فهو يقول ان المجتمعات تعيش فى ظل ثلاثة أشكال من الحكومات يمكن تمييزها تمييزا كافيا . فهنالك : (١) مجتمعات بدون حكومة كما هى الحال بين الهنود الأمريكيين (٢) وأخرى فى ظل حكومات حيث يكون لإرادة كل فرد نفوذ مناسب ؛ كما هى الحال فى انجلترا بدرجة صغيرة وفى الولايات المتحدة الأمريكية بدرجة كبيرة (٣) ومجتمعات ثالثة توجد فى ظل حكومات تقوم على القوة كما هى الحال فى جميع الملكيات الأخرى ، وفى أغلب الجمهوريات الأخرى كذلك . ويأخذ جيفرسون فى المقارنة بين هذه الأشكال

---

(١) Jefferson (A letter to George Washington, Paris, November 14, 1786.)

إن هذه الرسالة والرسائل المشار إليها بعد ذلك باللغة الإنجليزية مأخوذة من :

Dumbauld, Edward The political writings of Thomas Jefferson : Representative Selections, New York, the Liberal Arts Press, 1955.

أما الرسائل باللغة العربية فهى من كتابنا المترجم : Mayo, Bernard — Jefferson Himself

الثلاثة ، فيلاحظ أن حالة المجتمعات الأخيرة حالة بائسة فلا يمكن تقدير اللعنة التى تصيب أهلها إلا بمشاهدة أسلوب حياتهم مشاهدة العين وتجربته تجربة مباشرة ؛ إذ أن حكومتها حكومة ذئاب ترعى غنما ؛ أما عن حالة المجتمعات الأولى ، فإن جيفرسون لا يستطيع أن يقطع فيها برأى ، ويبدو أنه فى هذا كان متأثرا بآراء توماس بين وجودوين وغيرهما ممن كانوا يذهبون فى القرن الثامن عشر إلى أن الحكومات شر لا بد منه ، وأن خير أنواع الحكم ما استند إلى العقل وما سوّد العقل فى الحكم على العلاقات بين الناس . ولكنه ينتهى من تردده إلى أن يقول بأن العيش فى مجتمع من غير حكومة يتناقض مع ازدياد عدد السكان ازدياداً كبيراً لا يمكن معه ترك الناس دون سلطة من بينهم : وهكذا رفض جيفرسون الاعتراف بالشكل الأول والثالث من نظم الحكم ، وأيد الشكل الثانى ، فهو — كما يقول — يشتمل على خير كثير . « فجمهرة الناس الذين يعيشون فى ظله سيتمتعون بدرجة ثمينة من الحرية والسعادة[١] » .

ولا يبرئ جيفرسون هذا النوع من الحكم من المساوئ ؛ فهو يقرر أنه عرضة للاضطراب وحدوث الفتن . ولكنه لا يعد هذا النقص جوهريا ، فأمره هين ان قيس بضروب الظلم التى يلقاها المواطنون فى ظل الملكية . وأبعد من ذلك ، فإن جيفرسون يصطنع أسلوبا جدليا . فيذهب إلى أن هذا الشر كفيل بأن ينتج الخير . فهو يبرر حدوث الثورة الصغيرة من وقت لآخر . ولعله فى هذا يسير سيرة جون لوك الذى كتب مقاليه عن الحكم ليدفع وجهة نظر روبرت فلمر ووجهة نظر هوبز فى تقديسهما للسلطة ، وليبرر الثورة الإنجليزية المجيدة فى سنة ١٦٨٨ . وعلى أية حال فإن تبرير الثورة وتحبيذ حدوثها من حين إلى حين ، دفاعا من الشعب عن حقوقه وتأكيدا لسلطته ازاء استبداد المستبدين ، إنما هى عقيدة الأحرار وتراث من تراثهم منذ أقدم العصور . وقد وجدت من ظروف التحرير فى القرون الخمسة الأخيرة ما يؤكدها بين الساسة والمفكرين من جميع الشعوب المتطلعة إلى حياة جديدة وتطور اجتماعى جديد . « فالثورة تحول دون انحطاط الحكم ، وتغذى الاهتمام العام بالشئون

---

(١) Jefferson (A letter to James Madison, Paris, January 30, 1787)

العامة : وإنى أعتقد أن ثورة صغيرة من وقت لآخر هى شىء محمود ، وضرورية فى عالم السياسة ضرورة العواصف فى عالم الطبيعة . وإن الثورات غير الناجحة ، تثبت على وجه العموم الاعتداءات على حقوق الشعب التى أنتجتها . وإن ملاحظة هذه الحقيقة ينبغى أن تجعل الحكام الجمهوريين الأمناء يرعون الاعتدال فى عقابهم للثورات حتى لا يمعنوا فى صدها عن الوقوع . فهى علاج ضرورى لتوفير الصحة السليمة للحكومة[١] .

ومن الجدير بنا ألا نسىء فهم ما ذهب إليه جيفرسون من تشجيع للثورات الصغيرة من وقت لآخر ، فهو من الساسة والمفكرين الذين مجدوا الحكم ، فلقد رأى أن اقامة الحكومة المدنية انما هى الهدف الوحيد من تكوين المجتمعات ، ومن ثم فإن الادارة الحكومية يجب أن تنفذ بالرضا العام وأن تعتمد عليه فى كل خطوة من خطواتها . وهو من هذه الناحية يفضل نظام الحكم الجمهورى الأمريكى الذى اشترك فى بنائه على سائر الحكومات . فالمبادىء التى يقوم عليها الحكم الأمريكى هى فى رأيه مزاج من أشد المبادىء حرية فى الدستور الإنجليزى ، ومن المبادىء الأخرى المستقاة من الحق الطبيعى والعقل الطبيعى[٢] . وفى ضوء هذه النظرة الممجدة للحكم والمقدرة لدوره فى وجود المجتمعات واستمرارها ، يؤكد أهمية الأهداف منه وضرورة توضيحها . ويخص من بينها جميعاً القول بأن « الغرض الأصيل من نظام الحكم هو العمل على تحقيق أكبر قدر من السعادة الممكنة لجمهرة الناس الذين يعيشون مجتمعين فى ظله[٣] » . وهو لا يترك للحكام وحدهم الحق فى توجيه الحكم بما يمليه عليهم رأيهم كما ذهب إلى ذلك أفلاطون فيما أسند لحكامه الفلاسفة من حق التشريع والتقرير ، وإنما حرص على أن يقيم الحواجز والسدود وأن يرسم المعالم التى تضمن سلامة الحكم وأمن المحكومين . فلا بد فى رأيه لإقامة الحكم الحر من توفير حرية الدين وحرية الصحافة والقضاء بوساطة هيئة من المحلفين وهيئة تشريعية نيابية . وان

---

(١) Jefferson (A letter to James Modison, Paris, January 30, 1787)

(٢) Jefferson, Notes on Virginia, Query VIII

(٣) Jefferson (A letter to Francis A. Vanderkemp, Monticello, March 22, 1812)

تنظيم الهيئة التنفيذية يجب أن يستهدف تحقيق الحكمة والنزاهة فى الإدارة العامة ، ولكن يجب أيضاً ألا يهدد المحافظة على هذه الأسس الجوهرية للحكم الصالح . ومن الطريف أن جيفرسون — وهو الواضع حجراً أساسياً من أحجار النظام الأمريكى — يخرج دائماً من التحدث عن المبادئ العامة للحكم إلى التعليق على النظام الأمريكى واعتباره المثل المحسوس لكمال النظم وصلاحيتها فى العصر الحديث . فهو يرى فيه تجسيما لتساوى الحقوق الإنسانية والسعادة العامة وحكم الشعب بوساطة نوابه .

ولكن هذا التقدير لما ينطوى عليه نظام الحكم الجمهورى الأمريكى لم يدفع جيفرسون إلى مثالية تعميه عن رؤية الصعاب العملية التى تهدد مزايا ذلك النظام بالتدمير والضياع . فمنذ البدء لاحظ أن المجتمع الأمريكى يكاد يشبه المجتمع اليونانى القديم فى اعترافه بالرق واعتماده على الرقيق كأساس لحضارته ، فلم يترك فرصة إلا هاجم فيها نظام الرق ودعا دعوة حارة إلى إلغائه . ولقد أخذ بعض الكتاب والمؤرخين المحدثين يسخرون من هذه الدعوة ويتهمون جيفرسون بالنفاق فى هذا المجال ويستشهدون على ذلك بإبقائه على الرقيق فى خدمته وامتلاكه منهم عدداً ليس بالقليل . ولكن إن كان جيفرسون قد ساير عصره فى الإبقاء على الرقيق فى مزرعته ، إلا أنه كان يعاملهم معاملة إنسانية حببته إليهم وجعلتهم يتعلقون به تعلقاً حاراً مخلصاً بدت مظاهره فى مناسبات عديدة فى أثناء حياته . أما عن الدعوات المتكررة إلى إلغاء الرقيق فقد أخذت تلاحق الواحدة منها الأخرى فى المواقف العامة والتطورات السياسية فى أثناء حياته . فلقد بدأ هجومه على الرق عند ما وكل إليه أن يكتب مسودة إعلان الاستقلال ، فنسب نشر ذلك النظام فى أمريكا إلى السياسة البريطانية على يدى ملكها جورج الثالث الذى « أعلن حرباً قاسية ضد الطبيعة الإنسانية نفسها ، منتهكاً أقدس حقوقها فى الحياة والحرية فى أشخاص شعب بعيد لم يسئ إليهم أبداً ، آسراً إياهم وحاملا لهم أرقاء إلى نصف الكرة الأرضية الآخر ، أو يلاقون الموت التعس فى نقلهم إلى هنالك . وهذه الحرب التى تختص بالقرصنة والتى تعد خزياً للدول الكافرة ، هى حرب ملك بريطانيا العظمى المسيحى[1] » . ولكن هذه الفقرة من

---

(١) مايو جيفرسون الفصل الرابع

سودة إعلان الاستقلال من الفقرات التى ألغيت عند قراءتها فى الكونجرس ، كما أنه اتخذ خطوة عملية لإلغاء الرق بأن ضمن مشروع قانون أساسى لتنظيم عضوية الاتحاد فى سنة ١٧٨٤ مادة تقرر « أنه بعد سنة ١٨٠٠ ميلادية لن يكون هنالك رق أو استعباد غير اختيارى فى أى من الولايات المذكورة[١] » ولكن الاقتراع على هذه المادة فى الكونجرس كان يحتاج إلى صوت واحد ليكفل تنفيذها « وليمنع هذه الجريمة الشنعاء من الانتشار فى ربوع البلد الجديد . ومن ثم ترى مصير الملايين التى لم تولد بعد معلقاً على لسان رجل واحد ، وصمتت السماء فى تلك اللحظة الرهيبة . ولكن نأمل أنها لن تكون دائماً صامتة ، وأن أصدقاء لحقوق الطبيعة البشرية سيتغلبون فى النهاية[٢] » . وأن كل كتابات جيفرسون عن موضوع الرق فى مذكراته عن فيرجينيا إلى أصدقائه تحمل طابعاً تنبؤيا سبق مأساة الحرب الأهلية بعشرات السنين فيما حملت من دروس للمواطنين .

ولم يكن الرق وحده عند جيفرسون هو المشكلة الاجتماعية التى تهدد الاتحاد الفيديرالى الأمريكى بالانحلال ، بل ان تضارب المصالح بين الولايات مما ظهر فى تعارض السياسة بينه وبين الكساندر هاميلتون قد أثار قلقه من ناحية استمرار الاتحاد . وفى الواقع أنه لا يستطاع فهم الحياة السياسية العملية لجيفرسون إلا إذا فهمنا الصراع الحزبى الذى تبلور حول الاتجاهات المختلفة التى ارتبطت باسمى هذين الزعيمين فى العهد الأول من الحكم الفيديرالى ، وحول السياسات الواقعية التى عبرت عنها فى المجال الداخلى والخارجى . ولقد أخذ بعض الكتاب فى العصر الحديث يهونون من أهمية الأسس التى فصلت بينهما وأقامت ستاراً كثيفاً من الخصومة العامة والشخصية تحجب مدى الاتفاق الحقيقى فى وجهتى نظرهما . ولكنهما على أية حال كانا وزيرين لواشنطون : هاميلتون للمالية وجيفرسون للخارجيـــة ، وكانا — على حد تعبير جيفرسون — مثل « الديكين » اللذين لا يهدآن ولا يسكتان عن الشجار . ويلخص جورج سول Gorge Soule مواضع الاتفاق والاختلاف بينهما فى قوله :

---

(١) مايو جيفرسون الفصل السادس

(٢) مايو جيفرسون الفصل السادس

« كثيراً ما اعتبر هاميلتون نصير الأغنياء والأقوياء ، وأنه الرقم المضاد لجيفرسون ، رسول الديموقراطية والحرية والمساواة . وفى الحق أن مشروعات هاميلتون قد اشتملت ، كأداة ضرورية على تغذية طبقة من المستثمرين لأموالهم ، وتيسير استعمال رأس المال الخاص فى تطوير البلاد وتنميتها . وفى الحق كذلك أنه نفسه قد أسهم فى أعمال المصارف « البنوك » والأعمال الأخرى التى تجمع منها رأس مال نقدى . ولكن التحيز للثروة الخاصة لم يكن جوهر الاختلاف بينه وبين أتباع جيفرسون . فإن جيفرسون وأصدقاءه كانوا أيضاً أغنياء وأقوياء ولم يكن لديهم أى اعتراض على الكسب الشخصى من زراعة المزارع الكبيرة أو المضاربة فى الأرض ؛ فالصراع بينهما لم يكن صراعا بين الرأسمالية والاشتراكية ؛ إذ لم يقترح أحد أن تملك الحكومة وتدير جميع الثروة الإنتاجية ، فحالة الاقتصاد لم تبلغ من النضج درجة يدعو معها أحد إلى مثل هذه النظرية أو يؤمن بها ، ولو أن كلا الطرفين كان على استعداد لأن تقوم الحكومات (سواء الحكومة الفيدرالية أو حكومات الولايات) بأشياء كثيرة مما تسمى غالباً اليوم اشتراكية . ولم ينفرد هاميلتون بتقديره للمنافع التى يمكن تحقيقها عن طريق العلم والتكنولوجيا ، فإن جيفرسون كان باحثا مؤمنا بقيمة العلم ، كما أدخل تحسينات كثيرة على الزراعة » .

« وإن الاختلاف بينهما يجب فهمه على أسس أكثر اتصالا بأفكار العصر . فإن جيفرسون كان مناصرا للمصالح الزراعية ضد التجار ورجال البنوك والصناعة فى المدن . وكان يحب أن يعيش فى مزرعته ، وأن ينظمها ويديرها

بنفسه دون تدخل خارجى . وكان يحب رائحة التربة والأشجار . وإن استقلال مالك الأرض كان يبدو له أنه أساس الكرامة والثقافة والإنسانية ؛ فالأمة الأمريكية قد ألقت جانبا عبء الحكم الإنجليزى البعيد السيء ، وهو لم يرد أية سلطة مركزة تحل محله ، سـواء أكانت عامة أم خاصة .

« والحكومة ضرورة ، ولكن جيفرسون رأى أنه ينبغى أن تقيد بدقة وأن تكون موزعة بقدر ما يمكن . فالحكومة القومية ينبغى أن تتدخل فقط لتكمل عمل الولايات ذات السيادة . فهذا كان فى رأيه القصد الذى عناه الدستور ، وينبغى أن تفسر تلك الوثيقة تفسيرا دقيقا . وحين يتذكر الواحد منا المدى الشاسع وعدد السكان القليل الذى كانت تتألف منه الأمة ، فى وقت لم تكن هنالك طرق حديدية أو قوة بخارية أو آلات حديثة ، أو أسواق منتشرة تقوم نتيجة لهذه التطورات وترافقها فى الوقت نفسه ، فإن موقف جيفرسون من الحكومة يبدو موقفا طبيعيا . وإن من أمثلة السخرية فى التاريخ أن هذا الموقف اتخذته بعد مرور قرن من الزمان نفس القوى الصناعية التى كان جيفرسون يمقتها .

« أما هاميلتون فقد كان فى جوهره رجل مدنية ، يهتم بإدارة الاقتصاد القومى وتنميته ككل . وأحس إحساسا جزئيا بالنتائج الهائلة المتوقعة من الثورة الصناعية ولو أنها كانت لا تزال فى المهد ، وأراد لهذه البلاد أن تتبناها وتشجعها . ولم يكن من الدعاة المنظمين لمصلحة صناعية قوية قائمة ، لأنه لم تكن قد قامت هنالك مصلحة من هذا

النوع . فحجته كان قوامها أن الأمة سوف تفيد من الإنتاج الصناعي . ولم يكن كذلك من الدعاة المنظمين لأصحاب رءوس الأموال الذين يريدون استثمار أموالهم فى الصناعة ، فأغلب الأشخاص الذين كان عندهم مال يوفرونه كانوا يفضلون حينئذ استغلاله فى صناعة السفن أو التجارة أو المضاربة فى الأرض . وإن ندرة رأس المال كانت فى الحق عقبة كبيرة فى سبيل نمو الصناعة كما أشار إلى ذلك هاميلتون . وكان يفضل تشجيع جمع رأس المال كأداة لتطور الاقتصاد القومى . وإن كان لهذا كله أن يتدخل فى حماية الديموقراطية كما فهمها جيفرسون ، فإن هاميلتون لم يبد أى اكتراث بذلك ، إذ أنه قد تأثر بالفوضى والنزوع إلى تفكك الاتحاد مما أظهرته الديموقراطية القائمة فى ميلها إلى توزيع السلطة . وإن هذا التوزيع للسلطة كان من الأسباب الرئيسية للمشاكل التى كان يعنى بها ، فبدون تصور أوسع ، ويد أقوى وأثبت فى مركز الحكم الفيديرالى ، لا يمكن أن تحل مشاكل المجتمع القومى التى أثرت تأثيراً سيئاً فى جميع المواطنين [1] » .

وفى الواقع أن هذا التقابل الذى يرسمه جورج سول بين توماس جيفرسون والكساندر هاميلتون لا يمثل تعارضا شخصيا بين سياستيهما وحدهما ، وإنما يمثل التعارض بين المبادئ التى ارتبطت فيما بعد بحزبى الجمهوريين والفيديراليين : فالاتجاهات السياسية التى يمثلها هاميلتون إنما تميز أيضا الاتجاهات الفيديرالية فى إدارة واشنطون وفى إدارة جون آدمز ، وقد ناصبها جيفرسون العداء فى كل شكل اتخذته من أشكال السياسه الداخلية والخارجية حتى ولى هو نفسه الحكم فى سنة ١٨٠٠ ، بل أخذ ينظم

---

(١) Aby, Bower. Alexander Hamilton : Selections edited by Bower Aby, New York, The Liberal Arts Press, 1957 P. 124 — 126

القوى المعارضة لها فى الحزب الجمهورى الذى تزعمه وارتقى به إلى منصب رئيس الجمهورية . ويهمنا فى هذا المقام أن نعرض لثلاث من نقط الصراع بين الفريقين قاد فيها جيفرسون المعركة بمثابرة وقوة ، وهى :

١ — التشريعات المالية التى أصدرها هاميلتون فى عهد ولايته وزارة المالية فى حكومة واشنطون .

٢ — مشكلة الحياد الإيجابى فى السياسة الخارجية .

٣ — القوانين المضادة للحرية .

فالمعارضة بين جيفرسون وهاميلتون التى مثلت الاختلاف فى المصالح الإقليمية ، وفى النظر إلى نظام الحكم المركزى الفيديرالى وإلى الحكم فى الولايات ، قد أخذت تتبلور حول السياسة المالية التى انتهجها هاميلتون فى عهد ادارة واشنطون . واختلف الاثنان فى تفسير الأغراض التى استهدفت تحقيقها تلك السياسة . فهاميلتون أقدم على سن قانون يحمل الحكومة العامة واجب الاضطلاع بالدين العام الذى تجمع اثناء ادارة حرب الاستقلال ، كما أقدم على تشريع قانون بإنشاء بنك الولايات المتحدة فى سنة ١٧٩١ ، وذلك فوق ما وضع من قوانين الضرائب العامة المختلفة . وقد وافق جيفرسون على وجوب اضطلاع الولايات مشتركة بعضها مع بعض فى أداء الدين العام ، ولكن هاله ما نشأ بسبب سندات الدين من تجارة استغلالية وخداع تجارى بين أهل الشمال من أصحاب رءوس الأموال والصناعة والتجارة وبين أهل الجنوب من جمهرة المزارعين مما دعا إلى إثراء طبقة على حساب طبقة أخرى . كما أن جيفرسون عارض انشاء بنك عام للولايات المتحدة على نمط بنك إنجلترا إذ رأى فيه جنوحا من الفيديراليين إلى الأساليب الإنجليزية فى الاقتصاد ، ورغبة منهم فى تركيز السلطة الاقتصادية مثلما يعملون على تركيز السلطة السياسية مما يحول بالتدريج النظام الفيديرالى الأمريكى إلى نظام مركزى بريطانى . وقد دارت مناظرات لا تزال ذات قيمة لعصرنا الحاضر بين الاتجاه الفيديرالى نحو المركزية والاتجاه الجمهورى الذى تزعمه جيفرسون نحو اللامركزية . فهاميلتون يرى وجوب نشاط الهيئة التنفيذية وتدخلها فى الشئون العامة وتوجيهها للسياسة الفيديرالية ، متبعا فى ذلك ما سبق أن

أعلنه فى مقالاته المشتركة مع ماديسون Madison وجاى Jay والتى نشرت فى صحافة نيويورك للدعوة إلى الموافقة على الدستور وجمعت بعد ذلك فى مجلد بعنوان « الفيديرالى » اذ قرر « ضرورة قيام الهيئة التنفيذية النشطة »(١) وعدد عناصرها فى وجوب توافر « الوحدة » و « الاستمرار » و « التأييد الملائم » و « السلطات الكفء » للهيئة التنفيذية حتى تستطيع أن تعمل وأن تنفذ دون توزع أو ضعف . غير أن جيفرسون لا يؤمن بتركيز السلطة فى الحكومة الفيديرالية ويخشى التركيز فى ذاته بما جبل عليه هو والمفكرون الأحرار من سوء ظن نحو السلطة وأصحابها مما خلده اللورد آكتون فيما بعد بقوله : « ان السلطة تفسد ، والسلطة المطلقة تفسد إفسادا مطلقا » . وهو — فوق ظنه السيء بالسلطة — قد ذهب إلى أن هاميلتون انما يريد أن يأخذ للهيئة التنفيذية سلطات اقتصادية موسعة حتى يكفل لنفسه الطاعة من أعضاء الهيئة التشريعية والدائرة الانتخابية عن طريق قدرته على قضاء مصالحهم المادية ، وحكمهم لا « بسيف المعز » وانما بذهبه . ومن الطريف أن القدر قد سخر بجيفرسون فى هذا المجال : فجيفرسون الذى هاجم هاميلتون بشأن مشروعات التمويل التى ابتدعها وتأسيسه مصرف « بنك » الولايات المتحدت المركزى احتفظ بها جميعا حين ولى الحكم كرئيس للجمهورية فى سنة ١٨٠٠ ، وأبعد من ذلك فقد أفاد من سابقة تركيز السلطة الفيديرالية وتقويتها مما وضع أسسه هاميلتون بأن استخدم سلطات رئيس الجمهورية فى شراء لويزيانا وعقد الصفقة فى ظروف لم تخضع للمناقشات البرلمانية التقليدية ، بل وأقدم فى ذلك على تفسير الدستور الأمريكى تفسيرا أوسع مما تحتمله النصوص حتى يعطى لرئيس الجمهورية حق التصرف فى اضافة أقاليم جديدة إلى الولايات المتحدة التقليدية دون تعديل فى الشكل الدستورى للبلاد . ومن يتتبع الأحكام التى ساقها كل من جيفرسون وهاميلتون على أخلاق زميله ، نجد أن كلا منهما قد قسا على الآخر فى الحكم ، ولكن عرف كل لزميله قدره ومزاياه ، فهاميلتون يذهب فى تحليل شخصية جيفرسون إلى أنه ليس بالمتزمت الذى يلتزم المبادىء والنظريات

---

(١) — Gabriel, Ralph H. — Hamilton, Madison and Jay on the Constitution New York, the Liberal Arts Press, 1954 P. 150.

دون تدبر النتائج الواقعية لذلك ، وإنما هو من الذين يلتقون مع خصومهم فى منتصف الطريق وممن يرضون بالحلول العملية ، ويحرصون على كسب الرضا من المواطنين مؤيدهم ومعارضهم على حد سواء . وقد دفع هذا هاميلتون إلى أن يفضل انتخاب جيفرسون على آرون بير كرئيس للجمهورية فى الوقت الذى تآمر غيره من الفيديراليين على أن يكفلوا النجاح لآرون بير عندما تساوت الأصوات التى نالها كل منهما فى انتخابات رئيس الجمهورية ونائبه حسب قواعد الدستور الأولى ، وأفضى به عداؤه لآرون بير إلى أن يدفع حياته فى مبارزة معه بسبب عقده تلك المفاضلة ومغالاته فى الهجوم عليه .

ولكن إن كان الصراع بين جيفرسون وهاميلتون قد اتخذ من السياسة الاقتصادية موضوعاً للتعبير ، إلا أنه وضح كذلك فى ميدان السياسة الخارجية وضوحاً كبيراً ؛ فالثورة الفرنسية قد هددت قيم المحافظين فى العالم بأجمعه وعلى رأسهم المحافظون فى إنجلترا ، ومن يأتم بهم فى العالم الجديد من أمثال هاميلتون وأتباعه من الفيديراليين الذين يؤمنون بالأسلوب البريطانى فى الحكم والحياة . وقد قسم هذا الحدث التاريخى عبر البحار فى أوروبا سكان الولايات المتحدة إلى أنصار الثورة ومعارضيها فكان جيفرسون على رأس الأنصار وهاميلتون على رأس الخصوم . فلم يسع جيفرسون إلا أن يبارك الثورة أول الأمر ويعلن أن أمريكا التى قامت فى سيادتها على ثورة يجب أن تعترف لغيرها من البلاد بحق الثورة طالما يختص ذلك بتغيير نظامها الداخلى وحياتها الخاصة . ولم يزعج جيفرسون سماعه بأنباء سفك الدماء ، فهو يرى أن شجرة الحرية لا بد وأن تروى من وقت لآخر بدماء المواطنين . وكان من بين الأسباب التى جعلته يعطف على الثورة الفرنسية تأييد فرنسا لأمريكا فى ثورتها على بريطانيا ؛ ومن ثم فعلى الأمريكيين إلى جانب وقوفهم فى صف الأحرار أن يقفوا كذلك فى صف الأصدقاء . أما هاميلتون والفيديراليون فلم يكونوا ليتأثروا بمثل هذه الأفكار الجيفرسونية ، بل كانوا من أنصار الإنجليز فى عواطفهم ومن أعداء فرنسا التى أقدمت على قلب نظمها فى الحكم وسفك دماء حكامها . وقد لخص جيفرسون انقسام الأمريكيين إلى فريقين كانا أساس الحزبين الفيديرالى والجمهورى ؛ فأولهما تألف « من الاستقراطيين الطبيعيين ، ومن التجار الذين يتاجرون برأس مال بريطانى ، ومن أصحاب الأوراق

المالية . أما الفريق الثانى فقد تألف من التجار الذين يتاجرون برأس مالهم الخاص ، ومن رجال التجارة الإيرلنديين ، ومن التجار والميكانيكيين والفلاحين وكل نوع آخر من أنواع المواطنين[١] » . ولكن مما هو جدير بالذكر أن جيفرسون لم يذهب مع عواطفه الخاصة مذاهب تبعده عن سياسة الحياد الإيجابى بين الكتلتين المتحاربتين : الفرنسية والإنجليزية . فهو كوزير للخارجية ونائب لرئيس الجمهورية وبعد ذلك كرئيس للجمهورية حرص على أن يجنب بلاده الاشتراك فى حرب مع طرف من الطرفين المتحاربين ، إذ رأى أن مستقبل البلد الجديد فى المحافظة على السلم والتمسك به ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فقاوم أولئك الذين أرادوا دفع أمريكا إلى التحالف مع بريطانيا كما قاوم أولئك الذين ناصروا فرنسا وكادوا يدفعون بيلادهم إلى الاشتباك فى حرب مع بريطانيا نصرة منهم للقضية الفرنسية . وفى الواقع أن مسلك جيفرسون فى مجال العلاقات الدولية يصلح درساً قوياً أخاذاً لأولئك الذين يحرصون على السلم وإقامة الصلات السياسية بين الشعوب على أساس من تبادل المصالح والمنافع ، ويعملون فى الوقت نفسه على تجنب الأحلاف المؤدية للحروب والمثيرة للعداوة والبغضاء على مسرح السياسة الدولية . فهو بالرغم من تحيزه العاطفى لفرنسا أول الأمر لم يسعه إلا أن يطلب من فرنسا استدعاء سفيرها فى أمريكا ، مسيو جينيت ، الذى أساء استخدام مركزه فى الولايات المتحدة وحاول أن ينشر الدعاية وأن يعبئ من القوى الأمريكية ما يدفع به إلى حرب فعلية مع إنجلترا . ولقد كان هذا دليلا واضحاً على أن جيفرسون كان يصدر فى سياسته الخارجية عن مصلحة بلاده وحدها ، لا عن إرادة الأجنبى صديقاً كان أم عدواً . ولم يترك عملا ممكناً إلا وفعله فى سبيل المحافظة على السلم . ويبدو ذلك من فرضه الحظر على إبحار السفن التجارية الأمريكية مع ما فى هذا من خسائر محققة ، حتى يتفادى الاستفزازات البريطانية من تسخير للبحارة الأمريكيين ونهب وسلب للسفن الأمريكية فى أسفارها بين أوروبا وأمريكا دون مراعاة لقوانين الحرب والحياد . فالولايات المتحدة كانت حينئذ دولة صغيرة بالنسبة للعملاقين فى السياسة الدولية : انجلترا دولة البحر ،

---

(١) مايو جيفرسون الفصل العاشر

وفرنسا ، دولة البر . ومن ثم كانت مصلحتها تستدعى الحرص على الحياد بين الجانبين ، فكل يوم من أيام السلام يساعد الدولة الناشئة على الاستقرار والازدهار وتثبيت ما نالت من استقلال وسيادة . ولم تكن المصلحة وحدها عند جيفرسون هى المقرر لذلك المسلك السلمى فى العلاقات الدولية ، بل إن حبه للسلام كان عاطفة مشبوبة الأوار استولت على قلبه وألهمت بيانه وقراراته طوال الحياة .

ولكن المشكلة السياسية التى شغلت جيفرسون لم تكن مقصورة على العلاقات الخارجية وتوجيهها الوجهة القومية ، فالفيديراليون فى تصميمهم على أن يناصروا انجلترا ضد فرنسا لم يكونوا ليقفوا عند هذا الحد ، وإنما كانوا يتجهون فى سياستهم الداخلية إلى أن يعودوا بالجمهورية الأمريكية إلى التقاليد الإنجليزية فى النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى بأن يجعلوا من رئيس الجمهورية رئيسا مدى حياته ، وكذلك من أعضاء مجلس الشيوخ أعضاء مدى الحياة ، وأن يقصروا القيادة والزعامة على طبقة خاصة من أصحاب الامتياز دون تقيد بنتائج المبادئ الديموقراطية التى زاد انتشارها مع إعلان مبادئ سنة ١٧٧٦ . وبلغ منهم التحيز إلى بريطانيا مبلغا جعلهم يعملون على إقحام الولايات المتحدة فى الحرب ضد فرنسا ، ويضربون بيد من حديد على المعارضة بما شرعوا من قانون إبعاد الأجانب ، وقانون قمع الفتن ، وقوانين الضرائب المباشرة ، وزيادة عدد الجيش ، وغير ذلك من تشريعات توحى بأن البلد فى حرب أو يوشك أن يدخل الحرب . وهنا فى مجال السياسة العملية ظهرت كفاية جيفرسون التنظيمية والفكرية ، فقد حارب تلك الاتجاهات الفيديرالية الرجعية بما أخذ ينشره بين المواطنين من حقائق عن الموقف الدولى ، وما أخذ ينظمه من حزب معارض لحزب أبناء « الذوات » والارستقراط . وكان فى دعوته الفكرية قويا عندما شارك فى وضع الفلسفة الثورية ، وأمسك بمشعل الحرية مثلما أمسك به وهو يصور البيانات ويكتب إعلان الاستقلال ؛ فكتب سرا قرارات كنتكى معلنا أن قانونى الأجانب والفتن غير دستوريين وأنهما يقومان على اغتصاب حقوق الولايات وحقوق الأفراد على السواء . وتابع المعركة بأسلحة من الفلسفة التى سخر منها الخصوم ولكنه أدرك أهميتها فى الحرب المذهبية ، ومن التنظيم العملى

الذى قدر ضرورته للتوحيد بين الجماهير والزعماء فى معركة الديموقراطية . وقد ساعده على هذا التوفيق الذى أحرزه باعتلائه منصب رياسة الجمهورية فى سنة ١٨٠٠ ما أوتيه من فهم عميق لحاجات العصر وروحه ، فاتجه بدعوته إلى الفلاحين وأصحاب الأرض والعمال ممن كانت تتألف منهم غالبية الأمريكيين فى أيامه ، وممن كانت الحرية الفردية عندهم عقيدة ثابتة تجاوبت مع شعورهم بالاستقلال وهم يغزون الطبيعة ويتقدمون إلى الغرب الواسع الملىء بالأمل والثقة بالمستقبل . واستطاع بذلك أن يعطى القوى المعارضة للحزب الفيديرالى نظاما سياسيا ديموقراطيا فى الحزب الجمهورى وثقافة أمريكية خاصة بهم وإيمانا بأنفسهم وبرسالتهم فى العالم الجديد ، وأن يعطيهم فوق ذلك زعيما فى نفسه يجمع بين الفلسفة والتجريب ، والتأمل والتطبيق ، ويختلف عن نمط الزعامة الأوروبية التقليدية فى أنه أمريكى[1] يفكر برأسه ويعمل بيده . . .

ولكن جيفرسون السياسى إنما بلغ ما بلغ بين مواطنيه وفى تاريخ بلده والعالم بأجمعه ، بما كانت تقوم عليه صفاته السياسية من تعدد فى المواهب كفل له الإجماع على الإعجاب به فى عصره وما تلاه من عصور كلما أحست النفس البشرية بالحاجة إلى مثل ورواد فى رحلة الإنسان الخالدة . فالمركيز ده شاستلى الذى زاره فى بيته « مونتسلو » فى ربيع ١٧٨٢ ، يصفه بقوله :

> « دعنى أصف لك رجلا ، لم يبلغ الأربعين بعد ،
> فهو طويل وذو وجه لطيف سار ، ولكن عقله وفهمه
> يفوقان كل هبة ظاهرة . إنه أمريكى يجمع بين قدرات
> متعددة دون أن تتاح له فرصة مغادرة بلاده ، إذ أنه فى
> الوقت نفسه موسيقار ، وماهر فى الرسم ، وعالم بالهندسة ،
> وفلكى ، وفيلسوف طبيعى ، ومشرع وسياسى . . . . .
> وله زوجة عذبة محبوبة ، وأطفال ساحرون يتولى تعليمهم
> بنفســـه .

---

(١) Laski — Harold J. : The American Democracy, London, Allen and Unwin Ltd, 1949 P. 12

ولقد وجدت مظهره أول الأمر جادا ، بل ـ أكثر من ذلك ـ باردا ، ولكن لم أقض معه ساعتين حتى كنا على ود كأننا عشنا حياتنا معاً . . . واستمتعت بصحبته بالمشى ، والكتب ، وفوق كل شيء ، بحديث دائم متنوع وممتع[1] » .

سيلى بشر
الإسكندرية ، مايو سنة ١٩٥٩

محمد عبد المعز نصر

(١) Padover, Saul K. : Jefferson
New York, the American Library of World Literature, 1952 P. 56.

الفصل الأول

تعليم طفل من فيرجينيا

كان توماس جيفرسون ، مثل كثير من الأمريكيين ، مولعا بالقول بأن شعار الأسرة ميسور الشراء بثمن بخس مثلما تشترى أية بضاعة أخرى . كما كان مولعا بإظهار عدم مبالاته بالأنساب التى يخلقها العالم الجديد . ولكنه مع ذلك لم ينس أن يتتبع أسرة أمه — وهى أسرة راندولف — إلى سلسلة نسبها فى ماضيها البعيد فى إنجلترا واسكتلندا . وإن كان هذا لايعنى شيئا ما فإن لكل واحد أن يقدر هذا النسب حسبما يرى .

ولو أن صلة القربى بأسرة راندولف المشهورة فى فيرجينيا قد ضمنت لتوماس جيفرسون منزلة اجتماعية عالية إلا أنه آثر فى وصفه لسلفه — الذى يفتتح به هذا الفصل — أن يكتب عن أبيه بيتر جيفرسون المقدام الذى علّم نفسه بنفسه .

كان أبوه أحد المستوطنين الأوائل فى التلال السفلى لسلسلة جبال بلوريدج فخلق من الأراضى الجرداء عدة مزارع للتبغ أهمها مزرعة شادويل حيث ولد توماس فى ١٣ من ابريل الموافق ٢ من ابريل حسب الأسلوب القديم ١٧٤٣ . وخدم مجتمعه — الذى تألف من الرواد الأوائل — فى وظائف عدة كمسّاح للأراضى ، وقاضٍ ، ومدير ، وقائد للحرس الوطنى ، وعضو فى مجلس نواب المستعمرة عن مقاطعة البيمارل Albemarle . وعند موته كان ابنه توماس فى الرابعة عشرة من سنه ، وقد بلغ من العمر مبلغا سمح له بأن يتأثر بالصفات القوية التى جعلت من أبيه زعيما فى منطقة فيرجينيا الداخلية .

وحين دخل توماس كلية وليام ومارى فى وليامزبرج Williamsburg عاصمة المستعمرة ، كان فتى فى السابعة عشرة جذابا حاد الذهن طويلا أنمش ذا عينين رماديتين تميلان إلى الزرقة وشعره يضرب إلى الحمرة . وهنالك خضع لتأثير ثلاثة من الرجال البارزين أسهم كل منهم بطريقته الخاصة إسهاماً عظيما فى تعليم الفتى . فقد

أصبح بفعل المصادقة الحسنة ـ على حد تعبيره المتواضع ـ يعرف البروفسور وليام سمول William Small معرفة وثيقة ، وهو الذى أكسبه اهتماما بالرياضة والعلم لازمه طوال حياته ، وچورچ ويذ George Wythe المحامى العالم ، وصاحب الأفكار الحرة التى ألهمت الجيل الثائر من أهل فيرجينيا ، وفرانسز فوكير Francis Fauquier حاكم المستعمرة الكفء المحبوب زميل الجمعية الملكية فى لندن ، وصاحب البحوث الاقتصادية والعلمية ، والموسيقار البارع الفكاهة ، والرجل الذى هذبته الحياة بتجاربها .

وفى العاصمة الصغيرة وليامزبرج ؛ عزف جيفرسون الناشىء على قيثارته فى الحفلات الموسيقية التى كان يقيمها فوكير فى قصر الحاكم . واستمع فى الكابيتول Capitol إلى الخطب البليغة الثائرة التى كان يلقيها باتريك هنرى Patrick Henry الذى رسم له صورة ذكية حية . وهو كغيره من شباب الطبقة الراقية قد رقص وغازل وغشى المقاهى والحانات والمسرح والمعارض المتجولة ، فأنفق أيام العطلة فى مزارع تيد ووتر مشاركا فى سباق الخيل وصيد الثعلب والاستمتاع « بملاهى المنطقة والموسم » .

والخطابات التى كتبها إلى زملائه من الطلبة تسجل ذكرياته فى ذلك الوقت وأكثر خطاباته إبانة هى تلك التى أرسلها إلى چون بيد John Page بمزرعة روزيل Rosewell على نهر يورك ؛ ففيها يصف مغامراته العابثة فى يوم عيد الميلاد سنة ١٧٦٢ والجرذان التى أكلت رباط الساق الحريرى ، وأنواع الرقص الجديد المتقارب الخطى ، والسقف المثقوب الفاضح الذى أفسد صورة ريبيكا بيرويل Rebecca Burwell المصنوعة من الورق . كما يصف نفوره فى بعض الأحيان من الكتب العتيقة وشوقه للقيام برحلة فى أقطار أوربا ، وكذلك تنهدات محبوبته ومخاوفها وتقدمه بالخطبة إلى ريبيكا فى حفل رقص أقيم فى قاعة ابولو Apollo بحانة رالى Raleigh فى ويليامزبرج وخيبة أمله فى الحب .

وبدلا من الرحلة التقليدية إلى أوربا سافر فى الولايات المتحدة شمالا حتى نيويورك ، وتلهى بالتفكير فى حياة العزوبة التى يتمتع بها فتى شابٌ ، من أبناء مدينة ويليامزبرج .

وبعد عامين فى كلية وليام ومارى قضى خمس سنوات فى المكتب القانونى لجورج ويذ Wythe وليه وناصحه العزيز وأبيه المربى . وقد أثر ويذ فى نشأته تأثيرا عميقا ، فلقد كان معلما عظيما يستحق الثناء الذى صاغه جيفرسون تمجيدا لخلقه وعلمه وولائه « للحرية وحقوق الإنسان الطبيعية العادلة » .

وبإرشاد ويذ وتوجيهه اطلع جيفرسون اطلاعا واسعا عميقا متبعا نظام الدراسة العام الذى وضعه ويذ فى ذلك الوقت لصديقه برنارد مور ،فاستغرق فى دراسة المؤلفات القديمة اليونانية واللاتينية وملأ مذكرته العادية بأقوال مقتضبة من الفلاسفة السياسيين والمؤرخين القانونيين وعظماء الشعراء والفائزين وقراء الفرنسية والإيطالية ، ودرس الألمانية وكتب مقالا اتسم بالاطلاع والتجديد عن لغة الإنجليز السكسونيين ، وأقبل على التخصص فى العلوم الطبيعية التى تفيد فى الحياة اليومية فائدة عظمى والتى اعتبرها « بوجه خاص جذابة وممتعة إلى حد كبير » واكتسب الشاب الفيرجينى قدرة مدهشة على العمل الشاق المستمر جمع فى حكمة بينها وبين الرياضة والترفيه عن النفس . وصار عقله منظما ، شاكا ، وناقدا ، معنيا بالتطبيق العملى للمبادئ العلمية والنظريات الاجتماعية .

وفى سنة ١٧٦٧ — وقد بلغ سن الرابعة والعشرين — رخص له بالاشتغال بالمحاماة فافتتح مكتبا ناجحا كان يدر عليه فى السنين السابقة على الثورة دخلا يقرب من ثلاثة آلاف دولار فى العام . وتهيأ له الاشتراك فى قضايا أمام محاكم الإقليم فتعمق فهمه للطبيعة الإنسانية بمعالجته القضايا العامة . ومنذ البداية ظهر فى القضايا الهامة المربحة أمام المحكمة العامة فى وليامزبرج ، وهى أعلى محكمة فى المقاطعة ؛ فكان مجموع قضاياه فى سنة ١٧٦٧ مائة وأربعا وخمسين قضية ، ثمان وستون منها فى المحكمة العامة . وقد بلغ عدد قضاياه بعد ذلك بعامين أربعمائة وخمسا ، منها مائة وثمان وتسعون أمام المحكمة العالية فى وليامزبرج . ورغم أنه كان محاميا شابا مجدا فى عمله فإن سجلات حساباته لهذه السنين الثلاث تبين فى موادها أنه قد وجد الفراغ الكافى لأن يعزف على قيثارته الجديدة ، وأن يشاهد مباريات الرماية وحفلات الموسيقى ومعارض الدمى وأن يحضر حفلات فى وليامزبرج حيث استمتع بما كانت

فرقة فيرجينيا للتمثيل الكوميدى تقدمه فى ربيع سنة ١٧٦٨ من مسرحيات متنوعة متباينة تشمل « أوبرا المتسول » و « الزوجان الوفيان » و « رحلة إلى اليوبيل » .

وفى ذلك الحين زادت أملاكه حتى بلغت خمسة آلاف فدان ، أى ضعف القدر الذى ورثه عن أبيه ، وحصل منها على دخل يقرب من ألفى دولار فى العام . وفى شادويل أدار شئون مزرعته الخاصة ، وجمع مكتبة ، وبدأ بناء منزل جديد عبر نهر الريفانا من مكان ميلاده . وكان ذلك على قمة جبل أطلق عليه اسم (مونتيشيللو) وهو الاسم الإيطالى « للجبل الصغير » . ولقد دفعته النار التى دمرت شادويل فى سنة ١٧٧٠ إلى أن يعجل العمل فى المسكن الجديد . وفوق ذلك كان يتطلع إلى اليوم الذى يحضر فيه عروسه إلى « مونتيشيللو » وإلى تلال البمارل الزرقاء الجميلة حيث وضع بيتر جيفرسون الحدود لأراضى موطنه من ثلاثين عاما مضت .

أبى ، بيتر جيفرسون

إن الأنباء المتناقلة فى أسرة أبى تقرر أن جدهم وفد على هذه البلاد من ويلز ومن قرب جبل « سنودين » ، ولكن أول ما عرفته من أنباء أى سلف من أسلافى نبأ يتصل بجدى الذى عاش فى الحى المسمى « اوزبورن » Ozborne فى تشسترفيلد Chesterfield وامتلك الأراضى التى أصبحت فيما بعد وقفا على الأبرشية وكان له ثلاثة أبناء : « توماس » الذى مات صغيراً ، و « فيلد » الذى استوطن شواطىء رونوك Roanoke وترك أحفادا عديدين ، و « بيتر » والدى الذى استوطن الأراضى التى لا أزال أملكها المسماة شادويل والمجاورة لمقامى الحالى .

ولد أبى فى ٢٩ من فبراير ١٧٠٧ — ١٧٠٨ وتزوج « جين راندولف » Jane Randolph وهى فى سن التاسعة عشرة ابنة « ايشام راندولف » Isham Randolph وهو أحد سبعة أبناء يحملون ذلك الاسم وينتسبون لتلك الأسرة التى استوطنت « دنجونيس » Dungeoness فى « جوتشلاند » Goochland . وهم يتعقبون سلسلة نسبهم فى الماضى البعيد فى انجلترا واسكتلندا . ولندع كل واحد يمنح ذلك النسب الثقة والجدارة اللتين يختارهما له .

ولقد أهمل تعليم والدى إلى حد بعيد ، ولكنه كان ذا عقل قوى ورأى صائب وشغف بالمعرفة ، فقرأ كثيراً وأحرز من التقدم ما جعلهم يختارونه — مع « جوشوا فراى » Joshua Fry أستاذ الرياضة فى كلية وليام ومارى — ليتمم خط الحدود بين فيرجينيا وكارولينا الشمالية ، ذلك الخط الذى بدأه الكولونل بيرد Colonel Byrd وكلف أبى بعد ذلك مع مستر فراى نفسه بإعداد أول مصورة « خريطة » لفيرجينيا وذلك لأن مصورة « خريطة » الكابتن سميث Captain Smith كانت مجرد رسم عام تقديرى . وكانت لديهما معلومات رائعة عن كثير من الإقليم فيما تحت جبال البلوردج ، إذ لم يكن يعرف حينئذ سوى القليل مما وراء تلك السلسلة الجبلية : فلقد كان أبى المستوطن الثالث أو الرابع حوالى سنة ١٧٣٧ للمنطقة التى أعيش فيها . ومات فى ١٧ من أغسطس سنة ١٧٥٧ تاركا أمى أرملة وقد عاشت حتى سنة ١٧٧٦ ولها ست بنات وولدان كنت أكبرهما . وترك لأخى الأصغر منى ضيعته على نهر جيمز James River المسماة سنودين وهو اسم موطن أسرتنا الأصلى المفترض ، أما أنا فقد ترك لى الأراضى التى ولدت عليها وأعيش فيها .

ولقد أدخلنى المدرسة الإنجليزية فى الخامسة من سنى ، والمدرسة اللاتينية فى التاسعة حيث واصلت تعليمى بها حتى مماته . وعلمنى معلمى مستر دوجلاس Douglas — وهو قسيس من اسكتلندا — الفرنسية ، إلى جانب مبادىء اللغات اللاتينية واليونانية . وعند موت والدى ذهبت إلى القسيس مستر مورى Maury وهو عالم متمكن فى اللغات القديمة وبقيت معه عامين ، وبعدئذ ، أى فى ربيع سنة ١٧٦٠ ، ذهبت إلى كلية وليام ومارى حيث ظللت عامين .

الدكتور سمول العلامة ، وفوكير المرح المهذب

لقد كان من حظى الموفق العظيم ، وربما مما قرر مصاير حياتى ، أن الدكتور وليام سمول الاسكتلندى كان حينئذ أستاذاً للرياضة ، وهو رجل متعمق فى أغلب الفروع التطبيقية للعلم وذو موهبة موفقة فى التعبير ، وعادات قويمة مهذبة ، وعقل حر واسع . ومن حسن حظى أنه شملنى بعطفه واتخذ منى صاحباً له فى كل يوم عندما

؟ يكون مشغولا فى المدرسة . وقد حصلت من محادثته معى على أفكارى الأولى عن قدم العلوم ، وعن نظام الأشياء الذى وضعنا فيه . ولحسن الحظ أيضاً أن كرسى لفلسفة أصبح خالياً بعد دخولى الكلية مباشرة وعين هو ليشغله فى تلك الفترة نكان أول من ألقى فى تلك الكلية محاضرات منتظمة فى الأخلاق والخطابة والآداب.

ثم عاد إلى أوربا فى سنة ١٧٦٢ بعد أن توج فضله علىّ بأن حصـــل لى من صديقه الحميم جورج ويذ على إذن باستقبالى كطالب لدراسة القانون تحت إشرافه ، وبعد أن قدمنى إلى الحاكم فوكير وعرفنى به وبعائدته المألوفة . وكان فوكير أقدر رجل شغل ذلك المنصب ، وقد كون « جماعة رباعية » حوله وحول مائدته مكونة منه ومن الدكتور سمول والمستر ويذ — وهما صديقاه الدائمان — ومنى . وإنى لأدين لهذه المحادثات التى كانت تدور فى مجالسه بكثير من المعرفة .

الحديث اللبق وموسيقى الصالونات الرفيعة

ولقد سمعت فى هـــذه المآدب من الأقوال الحكيمة ومن الأحاديث العقلية والفلسفية أكثر مما سمعته فى حياتى كلها . إذ كانت اجتماعات أثينية حقاً . وكان الحاكم ولوعا بالموسيقى أيضاً ، كما كان عازفاً حاذقاً . وقد جمع بينى وبين اثنين أو ثلاثة من الهواة الآخرين فى حفلات الموسيقى الأسبوعية التى كان يقيمها .

وظل موقف مستر ويذ منى موقف الولى والناصح الوفى المحبوب فى عهد الشباب كما ظل صديقى الودود طوال الحياة . وفى سنة ١٧٦٧ دفعنى إلى ممارسة المحاماة أمام المحكمة العامة ، وواصلت هذا العمل إلى أن أغلقت الثورة محاكم العدل . وإن صداقتى الوثيقة به مدى أربعين عاما هى أهم فترة فى حياته تتيح لى أن أذكر العناصر الجلية فى شخصيته . . . ومع ضآلة ما أستطيع الإسهام به فى تبيان الشهرة الحقيقية لهذا الرجل المتفوق إلا أن ذلك العمل هو أكثر أعمال حياتى إرضاء لقلبى .

ناصحى المحبوب ، وأبى الروحى

لقد ورث جورج ويذ من أبيه ثروة كافية لأن تكفل له الاستقلال وســـعة العيش ولم تتوافر له فرصة التعليم المنتظم فى المدارس ، ولكنه حصل على تعليم ممتاز

بنفسه ودون عون من غيره إلى حد أنه أصبح أحسن عالم فى اللاتينية واليونانية فى الولاية . . . وقد حصل أيضاً باطلاعه الخاص على معرفة وافية فى الرياضة والفلسفة الطبيعية والأخلاقية . . وشغل بدراسة القانون . . وأصبح الأول فى ميدان المحاماة إن أخــذنا فى الاعتبار علمه الممتاز ، وفصاحته البيانية ، وأسلوبه المنطقى فى المجادلة ؛ إذ لم يسمح لنفسه أبدا أن يستعمل فى المرافعة فكرة أو كلمة خطابية أولا جدوى منها . . .

ولقد انتخب فى وقت مبكر عضواً فى مجلس النواب الذى كان حينئذ يسمى مجلس المندوبين عن المدن . . . وعين فى أغسطس سنة ١٧٧٥ عضواً فى الكونجرس ووقع فى سنة ١٧٧٦ إعلان الاستقلال الأمريكى الذى كان من أنصاره البارزين عند عرضه للمناقشة . . وقد اختير فى سنة ١٧٧٧ رئيساً لمجلس المندوبين وذلك لعلمه المحيط بالقوانين والإجراءات البرلمانية ، وعين قبيل نهاية العــام نفسه أحد رؤساء القضاة الثلاثة . . . وعند التغيير التالى لشكل المحكمة عين رئيس القضاة الوحيد وظل يشغل هذا المنصب حتى موته فى يونية سنة ١٨٠٦ .

معلم مخلص لحقوق الإنسان

ولم يترك أحد وراءه شخصية أكثر تبجيلا من جورج ويذ ؛ فقد كان ذا فضل خالص من الشوائب ، ونزاهة فوق الشك . وعدل دقيق ، ووطنية صادقة ملتهبة ، وهو فى إخلاصه للحرية وحقوق الإنسان الطبيعية المتساوية يمكن أن يسمى بحق « كاتو » بلاده مجردا عن جشع الرومانى ، إذ لم يعش أبدا شخص أكثر زهدا منه .

ولقد أكسبه الاعتدال والانتظام فى جميع عاداته صحة جيدة عامة وجعله تواضعه الفطرى ورقة شمائله أثيراً عند كل من عرفه . وكان ذا فصاحة مطبوعة ؛ فلغته مختارة نقية ، وكان منظما فى ترتيب مادته ، عالماً ومنطقيا فى استعمالها ، مهذباً عفيفاً عند المناقشة ، ولم يكن ذا بديهة مواتية ، وإنما بعد وقت وجيز كان يبدو نافذ النظرة ، سديد الحكم . وكان متمكناً فى فلسفته على أنه لم يزعج أحداً بمذهبه الدينى ، أو ربما لم يأتمن عليه أحداً ، فترك العالم يعتقد أن الدين الصالح هو الدين الذى ينتج

حياة على هذا النسق من الفضيلة المثالية . هكذا كان جورج ويذ شرفاً للعصر الذى عاش فيه ، ومثالا مشرفاً للعصور المقبلة .

إغراء الشباب

وحين أذكر أننى فى الرابعة عشرة من سنى ألقى على كاهلى وحدى إلقاء تاما العناية بنفسى وتوجيه شئونى ، من غير قريب أو صديق قادر على أن ينصحنى أو يرشدنى ، وأذكر الأنواع المتباينة من الصحبة السيئة التى اختلطت بهم بين فينة وفينة ، فإنى أدهش أن لم أنحرف مع بعضهم وأصبح مثلهم عديم الجدوى للمجتمع . ولقد كان من حسن حظى أن أتعرف فى سن مبكرة ببعض الشخصيات من أصحاب المكانة العالية ، وأن أشعر بالرغبة المتصلة فى أن أصبح مثلهم وأن أبلغ ما بلغوه ؛ ففى المواقف المغرية أو المحرجة كنت أسأل نفسى : ماذا يفعل الدكتور سمول ومستر ويذ وبيتون راندولف إذا واجهوا ما أواجه ، وأى مسلك يضمن لى استحسانهم ؟ وإنى لواثق أن هذا الأسلوب فى تقرير سلوكى أدى بى إلى الاستقامة أكثر من أى قوى فكرية امتلكتها .

وكثيرا ما وجدت نفسى بحكم ظروف عملى فى صحبة المتسابقين فى سباق الخيل ، ولاعبى الورق ، وصيادى الثعلب ، ورجال العلم ، وأصحاب المهن ، وذوى المهابة من الناس . وساءلت نفسى مرارا كثيرة فى اللحظة الحماسية عند موت ثعلب أو انتصار حصان محبوب أو نتيجة مسألة نوقشت بفصاحة فى قاعة القضاة أو فى مجلس الأمة العظيم : أى نوع من هذه الأنواع فى الشهرة ينبغى أن أفضله ؟ أهو شهرة خيال السباق ، أو صياد الثعلب ، أو الخطيب أو المدافع الأمين عن حقوق بلادى ؟

باتريك هنرى

لقد تهيأت لى معرفة باتريك هنرى فى سنة ١٧٥٩ — ١٧٦٠ إذ تقابلنا فى بيت ناثان داندريدج Nathan Dandridge قرب عيد الميلاد فى ذلك الشتاء وقضينا معا أسبوعين تقريبا فى ملاهى المنطقة والموسم . وكانت شمائله تحمل طابع خشونة المجتمع

الذى تعود ارتياده ، كما كان ولوعا بالعزف على القيثارة والرقص والمزاح . وقد تفوق فى المزاح مما حببه إلى الجميع . وحالت المناسبة التى عرفته فيها قدر ما حال مزاجه الكسول دون اشتراكه فى أى محادثه قد تنم عن مستوى عقله أو معلوماته . ولكن الفرصه لم تضع لأن المستر جون كامبل John Campbell الذى تزوج بمسز سبوتسوود Spotswood أخت الكورنل داند ريدج كان موجودا هنالك هو ورجل من رجال العلم وكثيرا ما افتتح المحادثات فى موضوعات علمية . وكان مستر هنرى قد بلغ بمتجره حدّ الإفلاس قبل ذلك بوقت وجيز أو على الأصح قد بلغ به متجره حالة الإفلاس وفى أثناء الثلاثة الأشهر التى أعقبت ذلك حضر إلىّ وليامزبرج ليحصل على إجازته فى القانون وأخبرنى ، فيما أظن ، أنه درس القانون لمدة لا تزيد على ستة أسابيع .

ولقد بدأ مستر هنرى حياته العملية بقدر قليل جدا من الثروة . فعمل — كما فهمت — بعض الوقت مديرا للحانة التى توجد فى « هانوفر كورت هاوس » Hanover Court House وتزوج فى وقت مبكر جدا من حياته ، وحصل على قرض أقام به متجرا صغيرا ، إلا أنه سرعان ما فشل فحول نظره إلى القانون ، غير أنه كان كسولا جدا فى الاستعداد لممارسته . وحين كانت المحاكم تغلق أثناء دورة الشتاء كان يكون جماعة من الصيادين الفقراء فى حيّه ويذهب إلى غابات فلوفانا الصنوبرية ويقضى الأسابيع فى صيد الغزال الذى كان شغوفا به شغفا قويا وكان ينام حينذاك تحت خيمة أمام نار موقدة ويلبس قميصا لا يتغير طوال الوقت ، ويغطى قذارة لباسه بقميص صيد .

محام بليغ فى مرافعته بلاغة هوميروس فى كتاباته

ولم يقم أبدا بكتابة دفاعه إذا استطاع أن يتجنب ذلك . وكان يصر على تقاضى الرسوم مقدما إذ كان يذكر للطالب أنه لا يحتفظ بحسابات وأنه لايضع مطلقا قلما على ورق وهذا كان حقا . وكان تأثيره فى هيئة المحلفين لايقاوم إلى درجة أنه كان يأخذ أجرا كبيراً مقابل أتعاب المحاماة . . . وبعد ممارسته مهنة المحاماة حوالى

عشر سنوات فى محاكم المقاطعات جاء إلى المحكمة العامة ، ورغم أنه كان غير مؤهل مطلقا لشىء سوى قضايا هيئة المحلفين فحسب فقد تخصص فى هذه القضايا وخاصة ما يتصل منها بالنواحى الجنائية .

وحين اقترحت قرارات ١٧٦٥ المشهورة ضد قانون الدمغة كنت لا أزال طالبا أدرس القانون فى وليامزبرج . ومع ذلك فقد حضرت المناقشة على باب شرفة من شرفات مجلس النواب وسمعت العرض الرائع (فى « خطاب الخيانة ») لمواهب مستر هنرى كخطيب شعبى . فلقد كانت مواهب عظيمة حقا ، وإنى لم أسمع أبداً بيانا مثل بيانه من أى رجل غيره . ويومذاك بدا لى أنه يتكلم كما كان هومر يكتب[٨] .

فى سن التاسعة عشرة ابتليت بالشيطان

إن هذا اليوم (عيد ميلاد سنة ١٧٦٢ فى مزرعة فيرفيلد Fairfield) وهو بالنسبة للآخرين أعظم الأيام طربا ومرحا ، يرانى وقد غمرتنى من الكوارث أكثر وأعظم مما أصاب أى حفيد من أحفاد آدم آلافا من السنين الماضية ، وربما منذ خلق العالم باستثناء أيوب . . . ويجب أن تعرف يا عزيزى بيدج (جون بيدج من روزويل وهو صديق من أصدقاء الكلية) أننى الآن فى منزل محاط بالأعداء الذين يتشاورون معاً ويتآمرون للقضاء علىّ ، فإذا ما أويت إلى النوم والراحة يقولون بين أنفسهم تعالوا دعونا نقض عليه . وإنى لواثق أنه إذا كان هنالك شىء اسمه الشيطان فلا بد أنه كان هنا الليلة الماضية وكانت له يد فى تدبير ما حدث لى .

ألا ترى معى أن الفئران اللعينة بتحريض من الشيطان فيما أظن قد التهمت المذكرة التى كانت فى جيبى على بعد قدم من رأسى ؟ ولم تكتف بما نالت من وفرة فى الوقت الحاضر بل جمعت معها أربطة الساق الحريرية المرصعة وستا من نوت الموسيقى التى حصلت عليها لتكون كما ظننت زادا أعيش عليه مدة الشتاء . ولكنى ما كنت لأتهم الشيطان بهذا لولا أن أمرا حدث أسوأ مغبة مما حدث لأنك تعرف أن الفئران كانت خليقة أن تسلك سلوك الفئران وأن الجوع دون تحريض من الشيطان خليق أن يدفعها لفعل ما فعلت . ولكن أمرا آخر قد حدث ...

الشيطان وصورة ريكا بيرويل

إنك تعرف أن السماء قد أمطرت الليلة الماضية ، أو إذا لم تكن تعرف ذلك فأنا متأكد من أني أعرفه شخصيا ، إذ عندما ذهبت إلى الفراش وضعت ساعتي في المكان المعتاد ولكن حين ذهبت لآخذها بعد أن استيقظت هذا الصباح وجدتها حقاً في المكان نفسه ولكن كم تغيرت عما كانت عليه من قبل ، فقد كانت طافية في الماء الذي تسرب من ثقب في سقف المنزل وكانت في صمتها وسكونها مثل الفئران التي أكلت مذكرة جيبي . والآن لك أن تعرف أكان للمصادفة أي نصيب في هذا الأمر فلقد كان هنالك ألف موضع حيث كان من الممكن أن يتسرب فيها الماء كما تسرب من هذا الموضع الذي كان عموديا فوق ساعتي . ولكني أخبرك أن الشيطان في رأيي قد أتى وخرق ثقبا فوقها عن عمد .

نعم إن ساعتي المسكينة ، كما قلت ، قد فقدت نطقها . ولم أكن لأهتم كثيراً لهذا ، ولكن شيئاً أسوأ قد صاحب ذلك فإن ذرات الماء الدقيقة التي امتلأ بها صندوقها قد تغلبت على تماسك ذرات الورق التي تكونت منه صـــورة محبوبتي وورق ساعتي ، حتى إنني حين حاولت إخراجهما لتجفيفهما استولى الفزع على نفسي .

إن أصابعي اللعينة أحدثت فيهما قطعاً بلغ مبلغا أخشى أنني لن أستطيع معه إصـــلاحه ؛ فصحت عندئذ قائلا إن هذه آخر ضربة كان يبيتها الشيطان لي ، إذ عرف أني ما كنت لأعبأ بأي شيء آخر يستطيع أن يصيبني منه ، فعزم على أن يحاول معي آخر الأمر أشد وسائله فتكا .

ومع ذلك فمهما تنزل الكوارث بالصورة المحبوبة أو بي فإني سأبتهل إلى الله من كل قلبي أن يهب الصحة والسعادة لصاحبة الصورة ، وأن تلقى كل ما هو سار في هذه الدنيا ، أما الآخرة فإني واثق أنها ملاقية فيها كل هناء . والآن بالرغم من أن الصورة قد شوهت فإن رسما حيا لها قد طبع في ذهني بدرجة تجعلني أفكر فيها كثيراً تفكيرا أخشى أن يزعج هدوء عقلي ، ومن المؤكد أنه سيحول دون

تنهانى من دراسة كتاب « كوك » Coke العجوز هذا الشتاء لأن الله يعلم أننى لم أره منذ أن حزمته فى حقيبتى فى وليامزبرج .

ذلك الوغد العجوز البليد اللورد كوك

والآن يابيلدج كنت أتمنى لوكان الشـيطان قد أخذ كوك العجوز ، لأنى متأكد من أننى لم أتعب من وغد بليد عجوز مثله فى حياتى . ما هـذا ! هل هى قليلة تلك الهموم التى تتصل بحياتنا هذه القصيرة التى نعيشها حتى نسعى إلى تحميل أنفسنا بألف هم فوقها !! أوكما يقول الأخ أيوب – الذى أخذ رويدا رويدا على ما أعتقد يئن قليلا تحت وقع مصائبه – : « أليست أيامى قليلة ؟ كفى إذن حتى أرتاح قليلا قبل أن أذهب إلى حيث أبقى ولن أعود . . إلى أرض الظلام وأشباح الموت » :

ولكن الشيوخ يقولون إنه يجب علينا أن نقرأ لنكسب المعرفة ، وأن نكسب المعرفة لتضفى علينا السعادة وتجعلنا موضع الإعجاب . وهذا مجرد لغو ، فهل هنالك شيء يعرف بالسعادة فى هذا العالم ؟ لا . وأما الإعجاب فأنا واثق من أن الرجل الذى يتجمل أعظم التجمل ، ويتعطر أعظم التعطر ، ويتزين باللباس أعظم التزين ، ولا يتكلم إلا لغوا ينال أعظم الإعجاب ! ! ولو أنه فى الحق يوجد بعض الناس لهم قسط وافر من العقل يمنعهم من تقدير حيوانات شبيهة بالقردة كهؤلاء الذين يتقاسم الحائكون والحلاقون حسب القول المعروف تكوينهم مع الله القدير . وإذ أن هؤلاء الشيوخ هم الأشخاص الوحيدون الذين يستحقون منا الحرص على تقديرهم فنصيحتهم وحدهم هى الجديرة بالاتباع .

السيدات الشابات ، وخاصة ريبكا

إذا كانت هنالك أنباء مثيرة فى المدينة أو الريف – مثل الوفيات والمغازلات والزيجات بين من أعرفهم – فإنى أرجو أن تخبرنى بها . اذكرنى ذكرا طيبا لدى جميع الفتيات اللائى أعرفهن ، خاصة الآنسة بيرويلز ، والآنسة بوترز ، وأخبرهما

أنه بالرغم من أن بدنى – وهو الجزء الأرضى الثقيل – منى غائب عنهما فإن روحى وهى الجانب الأفضل منى حاضرة دائما معهما ، وإن أطيب تمنياتى ستصاحبهما أبد الدهر . وأخبر الآنسة أليس كوربين Alice Corbin أننى أومن حقاً أن الفئران قد عرفت أننى سأحظى منها بزوج من رباط الساق . وإلا ما كانت لتقسو فتسرق رباط ساقى . وإن هذا الاعتبار نفسه يجعلنى متأكدا من أننى سأسأل كل شخص أراه ممن يعيشـــون بالقرب منها عمن يكون ذلك الشاب الجذاب الذى يغازلها ويتردد عليها .

وإنه ليسرنى أن أطلب من الآنسة ربيكا بيرويل أن تتفضل بإعطائى ورقة أخرى للساعة من صنعها ؛ إذ أنى سأقدرها رغم بساطتها أكثر من ألطف ورقة للساعة فى العالم تصنعها يد أخرى . ومع ذلك فإنى أخشى أن تظن أن هذا ادعاء بعد أن تلفت منى ورقة الساعة الأخرى . فإذا رأيت أنه فى استطاعتك أن تعتذر عنى لها عن هذا فإنى أكون مسرورا لو أنك طلبت منها هذا الطلب .

قد يخفف السفر من عذاب الحب

كيف نظرت إليك نانسى ياببدج حين رقصت معها فى قاعة ساوثهول ؟ هل عندك أى بارقة أمل ؟ كيف حال ربيكا بيرويل ؟ هل الأفضل أن أبقى هنا فى شادويل دون أن أفعل شيئاً ، أو أن أحضر لديكم ؟ وبتعبير آخر : هل الأفضل أن أستمر فى مقامى هنا ، أو أن أحضر حتى أستمتع بالنزهة فى النهر مرة ثانية فى سفينة مجهزة تجهيزا كاملا . . إن نفسى تراودنى بأن أحضر إليكم لأطلب يدها وأستقبل الحكم علىّ مهما يكن شأنه ولا أظل بعد ذلك معلقاً .

ولكن العقل يقول إنك إذا ذهبت وانتهى مجهودك بالفشل فإن شقاءك سيتضاعف مرات عن الشقاء الذى أعانيه الآن . . . لقد خطر لى أن أذهب إلى بيترزبيرج إذا ذهب الممثلون هنالك فى مايو . فإن تيسر لى ذلك فإنى سأقيم فى وليامزبيرج ؛ إذ أن ليلة ميلادى ستكون قريبة .

هل عندك ميل إلى السفر ياببدج ؟ إذ لو كنت تميل إلى ذلك فإنى سأسر

بصحبتك فينبغى أن تعرف أنه حالما يتم إعداد الـ « ريبكا » – وهو الاسم الذى أعتزم إطلاقه على السفينة التى أعدها فإنى أعتزم أن أرفع الشراع وأن أبحر . وسأزور بوجه خاص انجلترا وهولندا وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا – حيث أشترى لنفسى قيثارة جيدة – ومصر ، وأعود عن طريق الأقاليم البريطانية نحو الشمال إلى الوطن . ومن المؤكد أن هذه الرحلة ستستغرق عامين أو ثلاثة أعوام ، إذا لم يبرأ كلانا من الحب فى أثناء ذلك الوقت فإنى أظن أن الشيطان سيكون ماثلا فى هذا الحب .

الرحلة التقليدية أولا : فهل تنتظر ريبكا ؟

لا أدرى أهذا المنافس الذى ذكرته قوىّ أم لا ؛ إذ كانت لديه فرصة عظيمة مواتية للتقرب من ريبكا حين غيابى . وإنى أقول « كان لديه » لأنى آمل أنه لم يعد له فرصة بعد . وإذ أنك قد اضطلعت بالعمل وكيلا عنى فأنت تنصحنى بأن أذهب مباشرة وأن أقيم الحصار رسميا . ومن المؤكد أنك فى الوقت الذى كتبت فيه هذا لم تفكر فيما ذكرته فى خطابى من اعتزامى الذهاب إلى بريطانيا . . هل يقدر لى أن أنجح ؟ كلما اقترب هذا الأمل تضاءل القلق الذى أعانيه . أم ترانى سألتقى بالفشل ؟ . . . كلما تمثل لى هذا الخاطر طالت أمامى الحياة حتى يبلى أثر الصدمة ؛ إذا كان الفشل نصيبي فإنى أرجو الله صادقا أن تكون هذه هى آخر تجربة لى من نوعها . بل إنى أعتقد اعتقادا راسخا أنها ستكون كذلك .

وهذا موضوع جدير أن تحدثها فيه . . إنى لأرجو أن تفعل ذلك وأن تنقل إلى حديثك كله بالتفصيل ، وإنى لأخاف أشد الخوف أن أتقدم إليها باقتراح مجانب للعقل مثل اقتراح انتظارى حتى أعود من بريطانيا ما لم تتهيأ أولا لاستقباله . وإنى لأخشى أن يضيق هكذا الاقتراح فرصتى فى النجاح إلى حد كبير . ولكن الموقف فى النهاية يجب أن يكون هكذا : إنها إذا رضيت فسأكون سعيداً ، وإذا لم ترض فواجب علىّ أن أحاول أن أكون سعيداً ما استطعت .

التفلسف ، ولكن ليس للمرحين ممن نعرف

إن أكثرنا توفيقا وحظا فى أثناء رحلتنا خلال الحياة كثيراً ما يُصدم بالأرزاء

والنوائب التى قد تؤلمنا ألما عظيما ، وينبغى أن يكون تحصين عقولنا ضد هجمات هذه الأرزاء والنوائب أحد الدراسات والمحاولات التى نعنى بها فى حياتنا . وإن الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا هو أن نأخذ أنفسنا بالاستسلام الكامل للإرادة الإلهية وأن ننظر إلى أى شيء يحدث كأنه واجب الحدوث وأنه بقلقنا لا نستطيع أن نمنع النكبة قبل أن تقع وإنما قد نضيف إلى قوتها بعد أن تقع ... فهكذا يا عزيزى بيدج تكون لغة الرجل الذى يتدبر موقفه فى هذه الحياة ؛ وهكذا ينبغى أن تكون لغة كل رجل يرغب فى أن يجعل ذلك الموقف من اليسر بقدر ما تسمح به طبيعته : فإن أشياء قليلة سوف تزعجه ولن يزعجه شيء إزعاجا كبيراً .

ولو اتفق أن وقع هذا الخطاب فى أيدى بعض المرحين ممن تعرف فإن مرسله وأفكاره الجادة قد تكون موضوعات لقدر كبير من المرح والسخرية ؛ أما بالنسبة لك فإنى أرانى أجروء على إرساله .

عربة ، وجوادان من الخيول الأصائل ، ورييكا

إننى سأحاول الآن أن أنسى آلامى الحاضرة ، وأن أفكر فيما هو أدعى إلى السرور ؛ فلقد غادرت السبت الماضى منزل نيدكارتر Ned Carter حيث كنت سعيداً فى صحبة الآخرين الطيبة خاصة فى صحبة الآنسة بينى تاليا فيرو Jenny Taliaferro وإنى وإن كنت أستطيع أن أنظر إلى حسناوات هذا العالم بعدم الاكتراث الفلسفى فإنه لا يسعنى إلا أن أحس بصدق الوصف الذى أطلقه وليام فلمنج William Fleming زميلنا الطالب عن شخصية هذه الآنسة ، فهى فى رأيى شبيهة أعظم الشبه بنانسى ولتون Nancy Wilton ولكنها أجمل . لقد سررت جداً بعزفها على الـ « سبينيت Spinette » وغنائها حتى إننى لم يسعنى إلا أن أستعيد فى ذهنى تلك الأشعار السامية التى نظمها عبقرى كمبرلاند Cumberland .

آه إنى سحرت إذ أرى

موسيقى اورفيس Orpheus كلها فيك

وعندما ترى باتسى داندريدج Patsy Dandridge قل لها إننى أسأل الله أن

يباركها . إنني لا أحب تقلبات الحياة الريفية بين الارتفاع والانخفاض ؛ فأنت اليوم تمرح مع فتاة جميلة وغدا تحس بالملل فى وحدتك . شكراً لله أنني سأكون قريبا حيث تكون سعادتى أقل تعرضا للإزعاج والانقطاع . إنني سأحيي جميع الفتيات هنالك باسمك خاصة سكى بوتر Sukey Potter

عزيزى وليام . . . لقد فكرت فى أذكى خطة للحياة يمكن تصورها ؛ وهى أن تستبدل أنت أرضا بمزرعة ادجهل Edgehill أو أستبدل أرضى بمزرعة فيرفيلدز Fairfild وأنت تتزوج سكى بوتر وأتزوج أنا ربيكا بيرويل ثم نحصل على عربة وجوادين من أصائل الخيول الجيدة وتمارس المحاماة فى نفس المحاكم ونذهب راكبين إلى جميع محافل الرقص فى الإقليم معاً . ما رأيك فى هذه الفكرة ؟

أمل خائب فى الحب

فى أشد نوبة من نوبات الكآبة التى مرت بأى نفس بائسة أجلس لأكتب إليك (جون بيدج) ؛ فالليلة الماضية وأنا فى غاية من الطرب الذى تستطيع أن تزجيه الصحبة السارة والرقص مع بيلندا — ربيكا — فى قاعة ابولو بحانة رالى ، لم أكن لأظن مطلقاً أن شمس اليوم التالى سترانى من التعاسة مثلما أنا فيه الآن . فلقد كنت على استعداد لأن أقول الكثير فنظمت فى ذهنى قدر ما أستطيع الأفكار التى خطرت ببالى فى لغة مؤثرة وتوقعت أداء هـذا الدور فى أسلوب محمود . ولكن ياالله ! ! فعندما حانت لى فرصة التعبير عنها لم أنطق إلا بعبارات متلعثمة قليلة غير منتظمة تقطعها وقفات طويلة طولا غير عادى وتدل فى وضوح على اضطرابى الغريب .

وسأخبرك بالحديث جميعه كلمة كلمة إن استطعت حين تتاح لى رؤيتك التى أتمنى أن يحققها الله قريبا . . . إن المحكمة قريبة منى الآن ولابد لى أن أحضر جلساتها باستمرار وهكذا أصبح لا بد لك أن تأتى إلى المدينة ، وإلا فاحتمال لقائى فى مكان آخر يكاد يكون معدوما . فربك إلا أتيت .

الزواج؟ لا! وشكراً

أما عن المشروع الذى اقترحته عليك (وليام فلمنج) منذ وقت ما فآسف أن أخبرك أنه قد أحبط تماما باقتران ربيكا بيرويل بـ « جاكيلين آمبلر » . الذى يخبر الناس هنا أنهم يتوقعون حدوثه من يوم إلى آخر . وأقول إن الناس يخبروننى بذلك لأنى — أتصدق ذلك — كنت من الكسل بحيث حالت بينى وبين رؤيتها منذ أكتوبر ، ولذا لا أستطيع أن أؤكد معرفة هذا النبأ منها شخصيا ولو أننى مقتنع بصحته كأنها أخبرتنى به . والآن أقول : « باركها الله » ولكن بوتر لا تزال باقية لك . . .

أنت تقول إنك عازم على أن تتزوج بأقرب ما يمكن وتنصحنى بأن أفعل ما تفعل . لا أشكرك . إننى سأتدبر ذلك أولا . فضروب التسلية عند الأعزب كثيرة وعظيمة ولن يكون لأى حجة من الحجج التى تقدمها أدنى تأثير على مقيم . . . مقيم شاب فى وليامزبرج .

مسالك الريف ولمسات الحب

إن الأمور فى كلية وليام ومارى قد أصبحت مضطربة أعظم اضطراب . فلقد طرد ووكر وما كليرج ووات جونز لفترة معينة ، كما يحاول هورروكس أن يخفف المسألة . . . إنهم قد أبعدوا إلى الريف مدة شهر . ولقد هرب لويس بيرويل ووارنر لويس وتومسون لينجوا من الجلد .

ربما فتح خطابى بتاريخ ١٩ من يناير (١٧٦٤) ويجب أن نبتكر مشروعا لنقل أفكار كل منا إلى الآخر بوسيلة لا يفهمها إلا أنا وأنت . وسأرسل إليك (بيلدج) يوما من هذه الأيام الحروف الهجائية الخطية التى وضعها شلتون Shelton وإرشاداته . إن جاك ووكر Jack Walker قد خطب بتسى مور Betsey Moore وهو يرغب فى أن يبلغ إخوته جميعا نبأ سعادته . . . وقد أرسلت خيولى إلى الريف ولذلك فليس فى مقدورى أن أقوم بنزهة على ظهر جواد فى أى وقت .

إن هذا الخطاب سينقل إليك بمعاونة صديقنا وورنر لويس Warner Lewis ياله من شاب مسكين ! ! . إننى لم أرق حياتى أحدا أشـــد إخلاصا منه فى حبه لقد سار معها أمس إلى المعسكر الهندى ، وبهذه الوسيلة تهيأت له فرصة ضغط يدها فى هيام مرتين أو ثلاثا وقد أصبح مثله مثل فتى الريف السعيد حقاً فهو منذ ذلك الوقت غارق فى بهجته حتى إنه لم يعد صالحا لصحبة أحد(١٧) .

الـكوارث فى أثناء رحلة للنزهة إلى نيويورك

إنه لمن المؤكد أنه لم يجرب بطل صغير كوارث أعظم مما جربته فى أثناء اليومين أو الثلاثة الأيام الأولى من سفرى . فلقد جمح بى حصانى مرتين فى عنف وهددنى تهديداً عظيما بدق عنقى فى اليوم الأول . وفى اليوم الثانى سقت عربتى ساعتين خلال مطر بلغ من غزارته أعلى درجة شاهدتها من قبل دون أن أقابل بيتا واحدا يمكننى أن أتجه نحوه التماسا للمأوى . وفى اليوم الثالث فى أثناء اختراق بامنكى Pamunkey خضت — لعدم معرفتى بمعبر النهر — ماء بلغ من العمق مبلغاً جعله يجرى فوق الوسادة التى جلست عليها وأضيف إلى هذا الخطر أنه فى تلك اللحظة صدمت إحدى عجلات العربة صخرة أنا واثق أنها مرتفعة ارتفاع العمود الذى تدور عليه ، وجعلت من الضرورى بالنسبة إلى أن أمارس كل مهارتى فى نظرية الجاذبية حتى أمنع مركز الجاذبية من أن يترك غير مستند إلى شىء فينتج عن ذلك — حسب رأى بوب كارتر Bob Carter — وقوعى ووقوع العربة وكل شىء فى الماء . . ؟ وإنى لأعترف أنه فى هذا الموقف اعترانى خوف مروع من الماء . . .

إن موقع هذا المكان (أنابوليس Annapolis) على جمال عظيم وهو ملائم جداً للتجارة . . . فالبيوت على وجه العموم أفضل من البيوت فى وليامزبرج ، ولكن الحدائق غير معنى بها العناية التى تراعى فى حدائق وليامزبرج . . . وكنت أود أن أعطيك وصفا للفرح الذى سادهم هنا لإلغاء قانون الدمغة ، ولكن ربما ترى هذا فى الصحف قبل أن يصلك خطابى . وسأواصل رحلتى غدا إلى فيلادلفيا حيث أقيم الإقامة الضرورية للتطعيم ضد الجدرى وبعدئذ أذهب إلى نيويورك ومن هنالك أعود بحرا إلى وليامزبرج حول منتصف يوليه (١٧٦٦) .

جرىء فى متابعة المعرفة

عندما كنت طالباً أدرس القانون (تحت إشراف جورج ويد ١٧٦٢ — ١٧٦٧) تعودت بعد أن انتهيت من دراسة كوك ليتلتون Coke Littleton — الذى لا يمكن تلخيص مادته — أن ألخص ما أراه جديراً بذلك مما أقرأ وأصوغ تلخيصى فى لغة عادية ، وأحياناً أمزج تأملاتى الخاصة حول الموضوع الذى ألخصه . . . وقد كتبت هذه المذكرات فى فترة من الحياة كنت فيها جريئاً على متابعة المعرفة لا أخاف مطلقاً من أن أتتبع الحق والمنطق إلى أى نتيجة يصلان بى إليها وأن أجرد كل صاحب رأى يقف فى سبيلهما من حجته .

ولقد استطعت أن أقدر تقديراً ملائماً دراسة اللغات الشمالية — وخاصة الانجلو — سكسون — عندما كنت طالباً أدرس القانون وذلك لاضطرارى إلى أن أرجع إلى ذلك المصدر من أجل شرح العديد من المصطلحات القانونية . . وخطرت لى بعض الأفكار لتيسير الدراسة بتبسيط قواعد نحوها وصرفها وذلك بإخضاع متفرقاتها غير المحدودة لأشكال واحدة مستقرة تبين فى الوقت نفسه نطق اللفظ بتجاوبه مع الحروف الهجائية فى اللغة الإنجليزية .

فلو أننا ألقينا جانبا المصاعب الفقهية التى تحجب خاصيتها الحقيقية وحررناها من هذه القيود الأجنبية التى تتمثل فى محاولات إعطائها التركيب المعقد الخاص باللغات اليونانية واللاتينية وأخذنا نتخصص فى دراستها باستعداد أكثر توعاً من استعدادنا للدراسة بيرزبلاومان Piers Ploughman أو دوجلاس Douglas أو تشوسر Chaucer؛ فعندئذ أعتقد أن إتقانها سيتطلب وقتاً أو جهداً يسيراً وسيجزل مكافأتنا بما يهبه لنا من فهم دقيق لتركيب اللغة التى نقرؤها الآن ونتكلمها وإدراك طاقاتها ومعانيها الأصيلة . وستطالع عندئذ شكسبير Shakespeare وملتون Milton وأنت فى درجة أعلى من الذكاء والاستمتاع وتقوية ظلال المعانى الجديدة الرقيقة التى تتضح لنا بمعرفة المضمون الأصيل للألفاظ ذاتها . وقد يعد هـــذا الرفض للجهود الفقهية التى يبذلها علماؤنا فى الانجلو — سكسون انتقاصاً على العـــلم . ومع ذلك فأملى أن تتم هذه الثورة .

برنامج شاق من الدراسات

عليك أيها الطالب الزميل برنارد مور قبل أن تدخل فى دراسة القانون أن تضع أساساً كافياً لذلك ، ولهذا فإن معرفة اللغتين اللاتينية والفرنسية أمر ضرورى تماماً وإن الرياضة والفلسفة الطبيعية مفيدتان جداً فى أمور الحياة العادية وهما على وجه خاص من الجاذبية والمتعة بحيث تغريان كل واحد بالرغبة فى معرفتهما . وإلى جانب هذا فقدرات العقل مثلها مثل أعضاء الجسم تقوى وتتقدم بالتدريب . ومن ثم فالاستدلالات الرياضية والاستنتاجات إعداد جميل لاستقصاء التأملات الغامضة فى القانون . . . فإذا ما وضع هذا الأساس فلك أن تدخل بانتظام فى دراسة القانون وأن تأخذ معه من العلوم المتصلة به ما سوف يساعد على التفوق فى تعلمه . . .

فحتى الساعة الثامنة صباحاً خصص وقتك لدراسة الزراعة . . الكيميا . . . التشريح . . الحيوان . . النبات . . الأخلاق والدين الطبيعى . . الدين الطائفى . . القانون الطبيعى . . ومن الثامنة حتى الثانية عشرة اقرأ القانون . . وعند قراءة المقررين سجل فى كراسة عادية كل قضية ذات قيمة ، مركزة فى أضيق حيز ممكن . . وإن هذه العملية ذات نفع مزدوج ؛ إذ تضطر الطالب للبحث عن لب القضية وتعوده على تركيز الفكر ، وعلى اقتناء أكثر المواهب قيمة وهى موهبة عدم استعمال لفظين حيث يكتفى بلفظ واحد . وهذا أدعى إلى تثبيت القضية فى العقل بطريقة لا تمحى .

من الساعة الثانية عشرة إلى الأولى اقرأ السياسة . . وبعد الظهر اقرأ التاريخ ومن الظلام حتى وقت النوم : الآداب ، النقد ، البيان ، الخطابة . . اقرأ أفضل الشعراء ولكن بين هؤلاء يجب أن يعطى شكسبير الأولوية عند من يريد أن يتعلم القوى الكاملة للغة الإنجليزية . انقد أسلوب أى كتاب مهما يكن وسجل النقد كتابة . وترجم إلى الأساليب المختلفة ، أى إلى الأسلوب العالى والمتوسط والمألوف . . وألف أول الأمر موضوعات إنشائية قصيرة . . باذلا اهتماماً عظيما برشاقة لغتك وصحتها . اقرأ خطب ديموستين Demosthenes وشيشرون ، وحلل هذه الخطب واقرأ نماذج جيدة أيضاً للبلاغة الإنجليزية . . درب نفسك بعدئذ على إعداد خطب عن قضايا وهمية..

ولـكن الصحة أكثر قيمة من التعلم

إن الرياضة والنزهة . . ضروريتان مثل القراءة ، بل قد تكونان أكثر ضرورة لأن الصحة أكثر قيمة من التعلم ؛ فالجسم القوىّ يجعل العقل قوياً . أما عن نوع الرياضة فإنى أنصح بالبندقية . فهى كما تعطى رياضة معتدلة للجسم تعطى الجرأة والإقدام والاستقلال للعقل . وإن الألعاب التى تلعب بالكرة وغيرها من الألعاب المماثلة فى طبيعتها عنيفة جداً بالنسبة للجسم ، ولا تطبع العقل بطابع ما ، فدع بندقيتك إذن تكن الصاحب الدائم فى رياضة مشيك . ولا تفكر مطلقاً فى أن تأخذ كتاباً معك . فإن غرض المشى هو الترويح عن العقل . ومن ثم يجب ألا تسمح لنفسك حتى بأن تفكر فى أثناء مشيك ولكن اشغل نفسك بالأشياء المحيطة بك . إن المشى خير رياضة ممكنة . فعود نفسك أن تمشى بعيداً جداً . وإن الأوربيين يفاخرون بإخضاع الحصان لاستعمال الإنسان ولكنى أشك فيما إذا كنا قد فقدنا أكثر مما كسبنا باستعمال هذا الحيوان . فلم يسبب أحد مثلهم انحطاط جسم الإنسان إلى هذا الحد . وأود أن أنصحك أن تقوم برياضتك بعد الظهر لا لأنه خير وقت للرياضة ولكن لأنه خير وقت يمكن توفيره من دراساتك .

محام شاب محب للطرب حبه للعلم

١٧٦٨ — ٥ من إبريل ، دفعت فى مقهى (وليامزبيرج) ٥ر٧ (بنس)
دفعت للكورنل هنرى نصف مبلغ الاشتراك فى خريطة ‎/١٥ (شلنا) .

١١ من إبريل دفعت لرؤية أكبر نوع من الإبل ٥ر٧ — ١٨ من إبريل دفعت فى مسرح ‎/٥ .

٢٧ من إبريل دفعت لتذاكر مسرح ٢٢/٦ — ٢٩ من إبريل دفعت فى مسرح ‎/١٠ .

٣٠ من إبريل دفعت فى حفلة موسيقى ‎/٥ .

٢ من مايو دفعت فى مسرح ‎/٥ .

٥ من مايو دفعت فى حفلة موسيقى ٥/ .

٦ من مايو دفعت فى مسرح ٥/ .

٧ من مايو أعطيت جيوبتر Jupiter (خادمه) ليدفع لبرامر Bramer ثمنا للشموع ٤/ ولماير Mayer ثمنا للعيش ٥ر٧ ولبرديت Burdet ثمنا للشموع ٢/٦ .

٢٥ من مايو دفعت للدكتور باستير Pasteur ثمنا للكمنجه ٥ جنيهات :

٣٠ من مايو دفعت ثمنا لتذاكر مسرح ١٥/٨ دفعت لكارى ويلكرسون Cary Wilkerson ثمنا للكتب ٢٦/ دفعت فى المسرح ثمنا للشراب ٣/٩ .

١ من يونيه دفعت لـ ت . سكينر Skinner ثمنا للاناناس والبرتقال ١٢/٦ .

١٧ من يونيه دفعت لـ بيليز Bailis ثمنا لدهان الشعر ١/٣ .

١٨ من يونيه أعطيت إحسانا ٢٠/ .

٢٠ من يونيه دفعت فى حفلة الموسيقى ثمنا للتذاكر ٢٠/ .

٢٠ من أغسطس دفعت عند ريد Read ثمنا للويسكى ٦/

كسبت فى الصيد ١/٦ .

٤ من سبتمبر دفعت عند هورنزبى Hornsby ثمنا لأوتار القيثارة ٣/ .

١٣ من سبتمبر دفعت عند هورنزبى ثمنا لأوتار القيثارة ٢/٣ .

معرض التشاخيص ، وسباق الخيل والكتب

١٧٦٩ : — ١١ من إبريل ، دفعت لرؤية خنزير يزن أكثر من ١٠٥٠ رطلا ١/ .

١٤ من إبريل دفعت لرؤية معرض التشاخيص ٧/٦ .

١٧ من إبريل دفعت مشاركة فى نشر قصيدة لم أرها مطلقاً ولا أرغب مطلقاً فى أن أراها ٢/٦ ؛ دفعت عند سينجلتون Singleton ثمنا لمشروب بنش ١/٦ ؛ دفعت ثمنا لتذكرتين فى معرض لعب ٥/ .

٥ من مايو دفعت إلى بلهام Pelham للعزف على الأرغون (فى كنيسة ابرشية براتون) ٢/٦ ، دفعت إلى سادن الكنيسة ١/٣ ، دفعت عند شارلتون Charlton ثمنا لمستقطر العنب /٥ .

٣٠ من مايو أعطيت م . مورى M. Maury ليدفع ثمنا لكتب فى إنجلترا ١٠/٧ جنيها .

٢٠ من يونيه دفعت إلى النساء فى ستونتون Staunton من أجل الغناء ٣¾ بنس

٢١ من يونيه فقدت فى الرماية مع ت . بوير T. Bowyer ٥ر٧ بنس ؛

٢٣ من يونيه دفعت عند بوير ثمنا لمشروب البنش /٢ ؛ دفعت للملهى إلى ت . بوير ١/١٩ جنيها ، فقدت مع مستر ماديسون Madisou فى الرماية ٥ر٧ بنس ،

٢٧ من يونيه أعطيت إحسانا /٢٠ .

١١ من أغسطس دفعت فى السباق فى شارلو تسفيل Charlottesville ٩/٥

٢١ سبتمبر أعطيت امرأة لتشترى كعكا /٥ ؛

٣٠ من سبتمبر فقدت فى الصيد فى استعراض مون Moon ٢/٦ ، دفعت فى استعراض مونز ثمنا للنبيذ ١٢/٦ .

١٧ من أكتوبر دفعت إلى كريج Craig لإصلاح الميكروسكوب والزجاج البصرى ٢/٦ ، دفعت للرجل المشعوذ ٢/٦ ، دفعت فى المسرح ثمنا لمشروب بنش ١/٦ .

٢٤ من أكتوبر أعطيت هنديا ¾ ٣ بنس .

٢٧ من أكتوبر دفعت مقابل رؤية نمر ١/٣ .

احتراق شادويل فى سنة ١٧٧٠

إنه نبأ خسارتى الأخيرة وربما يكون جون بيدج قد أنبأك به الآن ، وأقصد بذلك فقدانى لبيت أمى بفعل الحريق ، وفقدانى كل ورقة كانت عندى فى العالم ، وكل كتاب تقريبا بسبب هذا الحادث . وحسب التقدير المعقول أقدر ثمن الكتب التى

أحرقت بمائتي جنيه استرليني وكنت أتمنى أن يكون ما فقدته المال وحسب ، فما كان ذلك حينئذ ليكلفنى آهة واحدة .

ولتكون الخسارة أبعد أثراً نزلت على وجه خاص بكتبي عن القانون العام التى لم يبق لى منها سوى كتاب واحد كان مستعارا خارج البيت فى ذلك الوقت . أما الأوراق على كل أنواعها فقد أصبحت مجردا منها تجردا تاما إذ أن كل هذه الأوراق سواء أكانت عامة أم خاصة ، وسواء أكانت متصلة بعمل أم لهو ضاعت فى لهب النيران . ولقد أحرزت بعض التقدم فى التحضير لجلسة المحكمة العامة التالية ، وكما تعودت صنعت أفكارى فى شكل مذكرات ولم أزعج رأسى بشىء منها بعد ذلك . وقد ذهبت هذه ، مثلها مثل بناء الحكم على غير أساس له ، فلم تترك خلفها أثرا .

ولعلنى كنت أتمتع بسعادة أوفر لو أننى كنت أقرب إلى روزويل وتلال سيفرن إلا أنى أظن أن الآلهة خشيت لو سكنا معا أن نسقط القمر أو نلعب لعبة شيطانية تمس منشآتها .

العودة إلى الدفاع عن الحب

إننى أتأمل غالبا بسرور الأمسية الفلسفية التى قضيتها فى « روزويل » فى أثناء زياراتى الأخيرة هنالك . فقد كنت دائما شغوفا بالفلسفة حتى فى قضاياها الجافة ، ولكنها من الشفاه الحمر تأتى بسحر لايقاوم .

وإن مثل هذا الحفل الذى يفيض بالعاطفة خليق أن يطيل الحياة أو يدخل عليها البهجة على الأقل ، بالقدر الذى يقصرها به الحفل الذى تسوده الشهرة . . . إنى أقدر مثل هذا الاجتماع تقديرا عظيما حتى إنك إذا استطعت فى أى وقت أن تجمع نفس الصحبة الجميلة فمن المؤكد أننى سأعود إلى مكانى كعضو منها إذا أخبرتنى قبل ذلك بثلاثة أيام . فأرجو ألا يتم هذا الاجتماع بدونى .

سأحمل سالى نيكولاس إلى نيوكوارتو فى العربة الخضراء ، وإنى أتوقع أن وليام فونتين William Fontaine — وهو صديق الاثنين — سيتبع القاعدة القديمة

الطيبة التى تقوم على إبعاد عاطفة بالسماح لعاطفة أخرى أن تحتل مكانها فى القلب . وآمل أنك ستراقب استغراقه فى العاطفة عن كثب كأنه أحد أتباع جوبتر Jupiter وأنك سترسل إلىَّ عن ذلك نبأ مباشرا حتى يمكن لى أن أعد له النصح الملائم .

ولا أقصد بالنصيحة أننى سأثنيه عن هذا الطريق، بل على العكس فقد أصبحت مدافعا عن العاطفة :

الفصل الثاني

وجيه مونتيسلو الشاب

انتقل جيفرسون فى أوائل سنة ١٧٧١ إلى مونتيسلو ، وأقام هنالك مركزا لحياة العزوبة من كوخ ذى حجرة واحدة ومبنى بالآجر حتى يصبح البيت الرئيسى صالحا للسكنى . وسرعان ما توافر له كل سبب لأن يدفع إلى الأمام خططه الطموحة لإنشاء مزرعته الجديدة على قمة الجبل ؛ وذلك لأن السيدة الشابة التى شغلت المكان الرئيسى فى كل مشروعات المستقبل ؛ تلك السيدة المحبة للموسيقى والتى طلب لأجلها بيانو من لندن فى ذلك الصيف حين كان فى فترة تودده إليها ومغازلته إياها . . . تلك السيدة قد قبلت أن تكون له زوجة . وهى مارثا ويلز سكيلتون Martha Wyles Skelton الأرملة المحبوبة الهيفاء ذات الشعر المائل إلى الحمرة التى كانت تعيش فى مزرعة والدها القريبة من ويليامزبرج . وكانت تبلغ حينئذ الثالثة والعشرين من عمرها . وعقب حفلات الزواج فى عيد رأس السنة عام ١٧٧٢ قطع الزوجان الشابان فى رحلتهما إلى مونتيسلو أكثر من مائة ميل خلال ثلوج يناير ، وهنالك فى الكوخ الآجر قضيا شهر العسل وأول شتاء فى حياتهما الزوجية . وكانت السنوات العشر التالية كما يخبرنا جيفرسون سنوات سعادة بيتية متصلة .

وبالرغم من الاشتغال بالقانون والسياسة والحرب ، كانت حياته الخاصة فى هذه السنوات العشر حياة الوجيه الشاب المتعددة الجوانب ، أو السيد المثقف من فيرجينيا الذى كان مهندسا معماريا ومزارعا ينتهج فى زراعته النهج العلمى وكاتب مقالات أدبية وهاويا لقراءة علم الفلك . وعالما رائدا فى علم الأرصاد والتاريخ الطبيعى . ولقد كان البيت ـ الذى صممه وبناه ببساطة ونسب كلاسيكية ـ الأول من بين منشآت معمارية كثيرة تركت أثرا عميقا فى مجرى المعمار الأمريكى كله ، إذ كان مبنياً من الآجر ، مؤلفاً من طابقين ، ذا أجنحة ، يدخله الداخل من الأمام والخلف بوساطة أروقة قائمة على أعمدة وتربطه بمبانى المنافع ممرات خفية . ويشرف البيت على

منظر رائع من جبال ريدج إلى الغرب ومزرعة شارلوتسفيل فى الوادى مباشرة إلى الأسفل وإلى الشرق على سلسلة من الأراضى الزراعية ذات الصلصال الأحمر التى كان جيفرسون يسميها منظره البحرى. وهنا فى مونتيسلو العزيز قضى جيفرسون مع زوجته وأطفاله ومزارعه وكتبه أسعد سنى حياته فى « أمسيات فلسفية وأيام ريفية » .

وقد بنى جيفرسون على قمة جبله ممرات دائرية وحدائق مرصوفة ، وغرس أشجاراً وبذوراً محلية ومستوردة ، واحتفظ بسجلات دقيقة ليرى أمن الممكن أن يلائم بين العينات الأجنبية وبين التربة والمناخ الأمريكى كما كان يقارن غالبا مذكراته مع فيليب ما تزى Philip Mazzei وهو وجيه إيطالى أغراه بأن ينشئ كرما فى المنطقة . ودرّب رقيقه وأرشدهم إلى عمليات الزرع والبناء الكثيرة التى تتصل بمزرعة كبيرة تؤلف فى ذاتها مجتمعا صغيراً ببيتها وخدم حقلها وحقولها الخضراء المتموجة وبساتينها ومراعيها وخيولها وماشيتها وطيورها الداجنة ومطحنها ومنشرتها ومصانعها . وإذ كان جيفرسون فارساً جريئاً ماهراً فقد كان يمتطى كل يوم صهوة جواد من جياده الأصيلة ويتجول راكباً فى مزارعه المجاورة فيتحدث مع مديرى أعماله عن التبغ الذى كان يرسـله بطريق نهر ريفانا إلى المستودعات على على نهر جيمس Jmaes للتصدير بالسفن إلى انجلترا وكثيرا ما كان يقف عند حديقة غزلانه حيث كانت الغزلان الأليفة تهرع إليه فى شوق لتأكل الذرة من يده .

وكان يجلس فى مكتبته محوطا بالكتب التى أصبحت فيما بعـد نواة لمكتبة الكونجرس ، ويقرأ الأدب الروائى ، كما كان يقرأ البحوث فى القانون والتاريخ والعلوم ، ويرسم صوره ولوحاته الفنية ، ويراسل رجال العلم والسياسة . وكان يكتب كثيرا لا إلى زملائه السياسيين فحسب الذين كان يخلق معهم فى هذه الأيام الأمة الأمريكية ، ، وإنما كان يكتب كذلك إلى رجال العلم مثل داڤيد ريتنهوس David Rittenhouse عالم الفلك الفيلادلفى الذى أرسل إليه ملاحظاته عن الكسوف العظيم فى ١٧٧٨ . وكان مغرما بالقول أن الطبيعة قد أعدته لأعمال البحث العلمى الهادىء أكثر مما أعدته للأعمال العامة ؛ لأن العلم كان متعته الكبرى . وفى الوقت

نفسه – كما يخبرنا – كانت الموسيقى أحب شيء إلى نفسه وكان يتمنى أن تكون لديه فرقة موسيقية خاصة فى مونتيسلو .

وحين قام شيفاليه دى شاستلى Chevalier de Chastellux – وهو باريسى مثقف وعضو عالم فى الأكاديمية الفرنسية – بزيارة جيفرسون فى ربيع ١٧٨٢ ، أعجب بالتناسب الكلاسيكى والذوق الرفيع الذى كان يبدو فى مونتيسلو . وقد أعجب بصفة خاصة بل سحر بشخصية مستر جيفرسون الأمريكى الأول الذى رجع إلى الفنون الجميلة ليعرف كيف ينبغى أن يحمى نفسه من الجو . ووصف شاستلى مضيفه بأنه رجل طويل لم يبلغ بعد الأربعين ، ذو أخلاق مهذبة وقلب حار وعقل نشط . ولقد لاحظ أنه « متحفظ بعض الشىء أول الأمر ولكن سرعان ما أصبحنا أصدقاءه كأننا قد قضينا حياتنا كلها معاً » وذات مساء لا يُنسى شربنا شراب البنش Punch وقرآ قصائد أوسيان Ossian حتى وقت متأخر من الليل . ولم يقتصر الأمر على الشعر ولكن كانت العلوم والسياسة والفنون موضوعات لحديث دائم التنوع والمتعة . . . فلم يقصر مستر جيفرسون فى أى موضوع للحديث . ويبدو أنه منذ صباه قد وضع عقله – كما فعل مع بيته – على موقع عال يمكنه منه أن يتأمل العالم أجمع .

ولقد قام جيفرسون منذ أيام دراسته بوضع مذكرات وملخصات للموضوعات العديدة التى كان يهتم بها ، ولقد ألف من هـــذه المذكرات سنة ١٧٨١ . كتابه « ملاحظات عن فيرجينيا » وقد أكسبه هذا الكتاب شهرة أدبية وعلمية كبيرة فى الداخل والخارج ؛ ففيه ناقش فن المعمار الجميل المفيد ووصف هاربلز فرى Harpers Ferry والناتشرال بريدج Natural Bridge الذى أصبح مالكه فى سنة ١٧٧٤ ، وكشف عن عبقريته فى الزراعة وحبه للفلاحة وهاجم نظام الرق . وقد وصف محتويات رابية للهنود الحمر على الريفانا وسجل الأشكال الغريبة التى اتخذها جبل مجاور واقتنع بملاحظات جوية كان يسجلها بصبر فى مونتيسلو حيث كان يمكنه – كما قال ذات مرة – أن ينظر إلى أسفل فى مصنع الطبيعة ويرى السحب والبرد والجليد والمطر تصنع تحت أقدامه .

ولقد بدت وطنيته الأمريكية القوية كما بدت معرفته بالتاريخ الطبيعي فى تنفيذه الناجح لآراء الكونت دى بوفون Count de Buffon العالم الطبيعى البارز فى العالم إذ ذاك الذى أعلن أن حيوانات الدنيا الجديدة أقل وأصغر فى الحجم من حيوانات أوربا وأن هنالك شيئاً فى البيئة الأمريكية سبب انحطاط الحيوانات والسكان الأصليين فجمع جيفرسون قوائم طويلة من أنواع الحيوان ليثبت وجهة نظره كما تهيأ له بعد ذلك فى باريس فرصة إعطاء بوفون دليلا محسوساً فى شكل قرون الحيوانات الأمريكية وجلودها : وكذلك قابل فى باريس الأب دى رابنال Abbé de Raynal وبقامته التى تبلغ ست أقدام وبوصتين من اللحم والعظم الأمريكى شمخ على العالم الفرنسى الضئيل الذى طبق نظرية انحطاط الدنيا الجديدة على الأمريكيين البيض . وفى تفنيده لرأى رابنال كتب جيفرسون قطعته البليغة عن عبقرية أمريكا .

ولقد أصيب جيفرسون فى سبتمبر سنة ١٧٨٣ بضربة قاصمة بوفاة زوجته ؛ إذ انتهت حالة القلق التى ألمت به بكارثة على حد تعبيره فى خطاب كتبه إلى شاستلى واشتمل على إشارة من الإشارات القليلة جداً إلى زوجته فى كتاباته . فهو لم يسمح لأى خطاب من الخطابات التى تبودلت بينه وبين مارثا أن تبقى حتى لأطفاله ليقرءوها وقد وصفت ابنته الكبرى فى السنين الأخيرة حزن جيفرسون المقيم فقالت إن الإغماء أصابه عند وفاة زوجته وخشيت أسرته ألا يفيق من ذلك أبدا . ولبث ثلاثة أسابيع فى غرفته يذرع أرضها يكاد لا يتوقف عن ذلك ليلا أو نهارا ، وحين غادر المنزل فى النهاية لجأ إلى ركوب الخيل وحيداً لفترات طويلة .

كانت ابنته مارثا التى وصفت أخيراً هذا « الشهر الأول من الكآبة » هى وأختها مارى الطفلتين الوحيدتين اللتين تخطتا مرحلة الطفولة من أبناء جيفرسون الستة . وبعد موت زوجته بقليل وضع مارثا فى مدرسة فى فيلادلفيا وبدأ يرسل سلسلة من الخطابات إليها ثم أتبع ذلك بخطابات أخرى إلى مارى وقد كانت هـــذه الخطابات جميعها مرآة صافية . ومن ذلك الحين أصبحت هاتان الابنتان اللتان فقدتا أمهما مصدر سعادته . . . مارثا التى كانت تشبهه ومارى التى شبت لتشبه مارثا سكلتن التى غازلها فى العام السعيد سنة ١٧٧١ .

بيانو لزوجة جيفرسون المقبلة

لقد انتقلت أخيرا إلى الجبل الذى أكتب إليك هذا الخطاب منه (مونتيسلو ٢٠ من فبراير ١٧٧١) وليس عندى هنا سوى حجرة واحدة تشبه حجرة الاسكاف ، إذ تستعمل غرفة استقبال ومطبخا و « صالة » ولى أن أقول إنها تستعمل حجرة للنوم وللدراسة أيضا ويتناول أصدقائى أحيانا عشاء معقولا معى ، ثم يفارقوننى ليبحثوا عن أماكن أخرى للنوم . غير أنى آمل فى الحصول على حجرة أوسع هذا الصيف .

إنه لمن الواجب أن أغير سلعة فى قائمة الحساب (كتب جيفرسون فى يونيه سنة ١٧٧١ إلى وكيل أعماله فى لندن) لقد طلبت الكلافيكورد Clavichord ولقد رأيت منذ ذلك الوقت بيانو وسحرت به فأرسل البيانو بدلا من الكلافيكورد . وليكن صندوقه من خشب الماهوجنى الرقيق القوى غير المغشّى . وأن يكون محيطه من G إلى F المكررة وأن ترسل معه عددا وفيرا من الأوتار الإضافية وأن تكون صناعتها جميعا دقيقة جدا وجديرة بأن تهدى إلى سيدة أهفو إلى تقديمه إليها . ويجب أن أضيف كذلك ستة من أجود الجوارب الهندية من الحرير الأبيض لنفسى ومظلة أسلاكها من النحاس الأصفر ومغطاة بالحرير الأخضر ومصنوعة صنعا دقيقاً .

وسأصبح بتغيير الكلافيكورد إلى بيانو وإضافة الأشياء الأخرى مدينا لك ، وسأدفع هذا الدين بأن أصدر إليك من محصول التبغ الأول عند وروده إلى المخازن ؛ وإنى لأتوقع من عام إلى عام بعد ذلك أن أرسل إليك قائمة بمطالب أكثر وسيزداد بذلك حسابنا لأنى آمل أن أكون رب أسرة بطريقة أكثر انتظاما . . . وأختتم هذا بطلب واحد وهو أن ترسل إلى السلع . . حالما يصلك هذا وخاصة البيانو الذى سأنتظره بفارغ الصبر . قدم الصلوات من أجلى . عند ذلك الضريح الذى أقدم إليه رغم بعدى عنه ولائى المتصل . فهى قلب الصورة وشخصيتها الرئيسية فى كل مشروع ألتمس منه السعادة فإن استبعدت منها لم تعد الصورة صورة بالنسبة إلى .

كتب إلى صديق فى أغسطس سنة ١٧٧١ .

الزواج : عشر سنوات من السعادة الصافية

لقد تزوجت فى أول يناير سنة ١٧٧٢ بمارثا سكيلتون وهى أرملة باثرست سكيلتون وابنة جون ويلز وكانت عندئذ فى الثالثة والعشرين وكان مستر ويلز محاميا ذا عمل كثير حصل عليه بجده العظيم ومثابرته واستعداده العملى أكثر مما حصل عليه بتفوقه فى علم مهنته . وقد كان رفيقا محبوبا جدا يمتاز بالمرح والدعابة ويلقى ترحيبا فى كل مجتمع وقد حصل على ثروة كبيرة ومات فى مايو سنة ١٧٧٣ تاركا ثلاث بنات . ولقد كان نصيب زوجتى الذى آل إليها عند وفاته بعد دفع ديونه الكبيرة مساويا تقريبا لتركتى الخاصة (فى الواقع أنه كان مساويا لثروته المكونة من ٥٠٠٠ فدان وحوالى الخمسين من الرقيق) ومن ثم فقد تضاعفت سـعة العيش عندنا .

١٧٧٢ : — ١ يناير أعطيت الأب و. كوتس Revd. W. Coutts خمسة جنيهات — اقترضت من المستر كوتس ٢٠/ — ٢ من يناير أعطيت الأب المستر ديفيز Mr. Dvaies رسم الزواج خمسة جنيهات — ٣ من يناير أعطيت عازفا على الكمنجة ١٠/ .

(لقد كانت زوجتى) الصاحب العزيز لى فى حياتى ، وقد عشت عشر سنوات فى سعادة متصلة فى ظل العواطف التى لم يعترها نقص من الجانبين .

فلاحة الحديقة وبناء مونتيسلو فى سعادة

١٧٧٢ — ٢٦ من يناير نزل أعمق جليد رأيناه . فقد كان عمقه فى البيارسل حول الثلاث الأقدام — ٣٠ من مارس زرعت قطعة أرض بسلّى متأخرة — ١٥ من يوليه جاء الخيار إلى المائدة — زرعت الكرفس — زرعت قطعة أرض « بسلّى » — زرعت الناصوليه — ٣١ من يوليه جمعت بطاطس ايرلنديه من الحديقة — عملاً جوليس شارد Julius Shard عربة النقل ذات العجلتين فى ثلاث دقائق وينقلها ثلاثين ياردة فى دقيقة ونصف دقيقة إلى جانب ذلك . وهذا يعدل أربعة أحمال مما تحمله

عربة النقل العادية ذات العجلة الواحدة — ١ من سبتمبر ان إقامة سياج حول قمة الجبل والحديقة تتطلب ١٤٥٠ ياردة من الأسوار — ٨ من أكتوبر جمعت ثمرتين من ثمار الخوخ فى مونتيسلو — ١٢ من نوفمبر فى صنع ممشى ينجز ثلاثة عمال ٨٠ ياردة فى اليوم فى الحقل القديم ولكن فى الغابات حيث توجد الأجزاء السفلى من جذوع الأشجار التى يجب أن تزال لا يستطيعون أن ينجزوا أكثر من أربعين وأحياناً ٢٥ ياردة.

١٧٧٣ : — ان حرم ويذ تضع عشر مقدار من خمر المالمزى الممتازة المركزة جداً مع خمر الماديرا الخالصة وتصنع بذلك خمراً جميلة — ١٢ من مارس زرعت قطعة أرض « بالبسلَّى » المبكرة وقطعة أرض أخرى ببسلّى المرفات — ٣١ من مارس طعمت خمسة أنواع من القسطل الفرنسى فى جذعين من جذوع شجر القسطل العادى — أول أبريل ان البسلَّى فى كلتا القطعتين من الأرض قد نمت — بدأنا الفراولة — ٢٢ من مايو إن البسلَّى المزروعة فى قطعة الأرض الأولى قد وصلت إلى المائدة — ملاحظة ان هذا الربيع مبكر تبكيراً ملحوظاً . . .

١٧٧٤ — ١٥ من مارس بذرت البذور الآتية وميزتها بعضها عن بعض بوضع عصى مرقمة فى الأحواض الثوم — رقم ١٥ من الفجل . الهندباء — ٢٦ البصل الأسبانى — ٤٦ فجل الحصان — ٢٣ من مارس بذرت البذور الآتية : ٤٨ قرنبيط — ٧٢ قمح من سيبيريا — ٢٩ من مارس إن أشجار الخوخ فى مونتيسلو أزهرت على وجه العموم :

٣١ من مارس لقد مهدت أرضاً لإعدادها كى تكون حديقة فى المستقبل . وطولها ٦٦٨ قدماً وعرضها ٨٠ قدماً وتكون فى كل طرف مثلثاً . وقد زرعت الأشجار الآتية : أربع وعشرون شجرة تفاح وتسع عشرة شجرة كرز — من السهول الجبلية . . . وأشجار كرز مختلفة الأنواع من إيطاليا ، وحوالى ألف وخمسمائة بذرة زيتون . . وبذور الراسبريز فى ثلاثة صفوف .

٥ من أبريل زرعت ثلاثين كرمة فى المنخفض حيث أزمع بناء سور الحديقة الزنجية تجاه الطرف الغربى وإن ثمانياً منها فى أقصى الطرف الغربى للصف هى من الزبيب

لاسبانى وفى أقصى الطرف الشرقى زرعنا ستا من الكروم المحلية فى مونتيسلو . وقد
رعها بعض المرافقين من تسكانيا للمستر فيليب ما تزى .

١١ من أبريل فى بناء جدار حجرى فى حديقتى وجدت بالحساب الدقيق أن سبعة
.تصفا من الاقدام المكعبة يمكن عملها فى يوم واحد بوساطة عامل واحد يحضر
نفسه الحجر اللازم له إلى المكان المعين ويفعل كل شىء .

٤ من مايو إن سلسلة جبال بلوردج مغطاة بالجليد — ٥ من مايو نزل صقيع دمر
كل شىء تقريباً — ١٤ من مايو نضج الكرز — ١٦ من مايو تناولنا الطبق الأول من
لبسلّى المزروعة مبكراً — ٢٣ من يوليه أكلنا الخيار من حديقتنا — ٣١ من يولية
حصلنا على البطيخ من أرضنا .

عن الكتب : دفاع عن الأدب الروائى

٤ من أغسطس ١٧٧٣ . إن مكتبتى تتكون فى جملتها من ١٢٥٦ مجلداً . وايلاحظ
أن هذا لا يشتمل على مجلدات الموسيقى وكذلك على كتبى فى وليامزبرج وسأشترى
للمكتبة ٦٦٩ مجلداً بمبلغ ٢١٨/١٩ جنيهاً .

لقد جلست وعندى فكرة وضع قائمة بكتب تبلغ فى ثمنها نحو خمسين جنيهاً ،
ولكنى لم أستطع مطلقاً إرضاء نفسى بأى اختيار متميز أقوم به . . فالنظر إلى محتويات
العمود الثانى هذه القائمة لابد أن يغتصب ابتسامة من أى وجه جاد . وأفضل
الآن أن أسدل الستار على ما بدا فيه من حكمة وألا أوقظها من سباتها ومع ذلك فأى
دراسة لطبيعة العقل الإنسانى تبين أن مطالعات الأدب الروائى تقدم له غذاء نافعاً وممتعاً
فى الوقت نفسه .

ولكن فيم نفعه ؟ هكذا يسأل الحكيم الوقور المزهو بفكرة أن لا شىء يمكن أن
يكون نافعاً سوى تراث المعرفة اليونانية والرومانية التى ملأت بها المطالعة رأسه .
وإنى لأجيب بأن كل شىء يكون نافعاً إذا ما أسهم فى تثبيت مبادئ الفضيلة وممارستها .
فمثلا حين يعرض لنظرنا أو خيالنا أى عمل أصيل من أعمال الإحسان أو العرفان بالجميل
فإننا نتأثر تأثراً عميقاً بجماله ونشعر برغبة قوية فى أنفسنا نحو فعل أعمال الإحسان

وعرفان الجميل ، وعلى العكس حين نرى أو تقرأ عن أى فعل شرير فإننا نستاء من قبحه ونستشعر المقت للرذيلة . . .

رحلة عاطفية من تأليف ستيرن

وإنى لأسأل كل قارئ ذى شعور وعاطفة عما إذا كان قتل ماكبث Macbeth للدنكان Duncan فى مسرحية شكسبير لا يثير فى نفسه رعباً عظيما يعدل ما يثيره القتل الحقيقى لهنرى الرابع بوساطة رافاياك Ravaillac كما يروى دافيلا Davila الحادثة . كما أسأله عما إذا كان وفاء نلسون Nelson وكرم بلاندفورد Blandford فى مارمونتيل Marmontel لا يشرحان صدره ويسموان بعواطفه مثلما تستطيع فعاله أية حادثة مشابهة يقدمها التاريخ الحقيقى ؟ ألا يحس فى الواقع أنه رجل أفضل مما كان عليه وهو يقرؤها فيعاهد نفسه بأن يستهدف المثل العليا ؟ إننا لا نعرف ولا نحفل سواء أذهب لورنس ستيرن Laurence Sterne حقيقة إلى فرنسا وسواء دنا منه الفرانشيسكان وزجره فى أول الأمر بقسوة ثم قدم له بعدئذ قرباناً للسلام سواء كان كل ذلك أسطورة أو حقيقة فإننا على أية حالة من الحالتين نشعر بالأسى لما جرى من زجر ونعتزم سرا أننا لن نفعل مطلقاً مثلما فعل . كما نشعر بالبهجة بالتكفير الذى تلا ذلك ونقتدى بالنفس التى اعترفت اعترافا صادقا بخطئها وقدمت تعويضا عادلا .

وإذا ما نظرنا إلى التاريخ باعتباره رياضة أخلاقية فإن دروسه تكون محدودة الأثر إن هى اقتصرت على الحياة الواقعية . فمن بين الحوادث التى سجلها المؤرخون نجد أن عدداً قليلا منها قد أحيط بالظروف التى تحرك بدرجة عالية هذا الشعور العطوف بالفضيلة ؛ ولذلك فقد ركبنا تركيبا حكيما يجعلنا على استعداد لأن نهتم بالشخصية الخرافية فى حرارة تعدل اهتمامنا بالشخصية الحقيقية . ومن ثم فميدان الخيال أصبح مفتوحا لاستعمالنا ونفعنا ويمكن أن تصاغ الدروس لتوضيح كل قاعدة أخلاقية للحياة وتقرها فى أعماق القلب . وهكذا فإن الإحساس الحى المستمر بواجب البنوة ينطبع انطباعا فعالا فى عقل الابن أو الابنة بقراءة كنج لير King Lear أكثر مما ينطبع بقراءة جميع المجلدات الجافة التى كتبت عن الأخلاق واللاهوت .

وهذا هو رأيي عن الجيد من الأدب الروائى والتراجيدى والكوميدى وشـعر الملاحم ؟

وهج فكرة واحدة حارة

أعتقد أن اليونان والرومان قد تركوا لنا النماذج الحاضرة التى توجد للتأليف الجميل سواء أدرسناها كمؤلفات للفكر ، أم الأسلوب أم الخيال . ومن المحتمل أننا ندين لها بهذه الخصائص التى يتميز بها التأليف الحديث . . . ولكل هذا أرى أن قراءة المؤلفين اللاتين واليونان فى مؤلفاتهم الأصلية ترف رفيع ، وأن الترف فى العلم يمكن على الأقل تبريره كما يبرر الترف فى فن العمارة أو التصوير أو تهذيب الحدائق أو الفنون الأخرى . إننى أستمتع بقراءة هومر فى لغته الأصلية استمتاعا أعمق مما أحسه عند قراءتى له فى ترجمة بوب Pope ؛ وأستمتع بها أكثر مما أستمتع بالرواية البليدة التى صاغ بها داريس فريجيس Dares Phrygius نفس الحوادث . وهو استمتاع برىء ، وإنى لأشكر ساجدا ذلك الأب — والد جيفرسون — الذى وجه تعليمى فى طفولتى إذ وضع تحت تصرفى هذا المصدر الفنى للمتعة ولن أبتغى استبدال أى شىء به مما لم أستطع حينئذ الحصول عليه ولم أحصـل عليه حتى الآن .

إن قصائد اوسيان Ossian كانت وستظل كما أعتقد بالنسبة إلى مصادر سرور يومى عظيم . فشاعر العقل الرقيقة والسامية لم تصغها من قبل يد إنسان مثلما صاغتها يده . ولست خجلا من أن أعترف بأنى أرى أن شاعر الشمال الخشن هو أعظم شاعر عرفه الوجود . ولمجرد السرور الذى أجده فى قراءتى لمؤلفاته أصبحت راغبا فى تعلم اللغة التى أنشد بها قصائده حتى أحصل على أغانيه فى لغتها الأصلية (الغالية Gaelic) وإن النسخ المخطوطة لأية أغنية من أغانيه المطبوعة ستهب لى أى وقت من الأوقات أعظم سعادة أنالها ، فالوهج المنبعث عن فكرة واحدة فى دافئة تفوق قيمته عندى كل مال فى الوجود .

الكسوف المظيم فى سنة ١٧٧٨ من مونتيسلو

لقد خاب أملنا كثيراً فى فيرجينيا على وجه العموم فى أثناء اليوم الذى حدث فيه الكسوف العظيم إذ كان يوما غائما . فنى وليامزبيرج حيث كان الكسوف كاملا لم يظهر سوى بدئه فقط . أما فى هذا المكان الذى يقع على خط عرض ٣٨/٨ وخط طول قرابة ١/٤٥ غربى وليامزبرج فقد هدانا التخمين إلى أن إحدى عشرة عقدة فقط حجبت عن الرؤية . فهو لم ير مطلقاً حتى تقدم القمر بمقدار الثلث تقريبا فوق قرص الشمس . وقد رئى بعدئذ بين وقت وآخر خلال الكل . فالخروج خاصة كان مرئيا .

ومع ذلك فقد أثبت أنه قليل الجدوى بالنسبة إلى ، وذلك لافتقادى ساعة يمكن الاعتماد عليها . وقد أغرانى هذا الظرف بأن أزعجك — دافيد ريتنهوس — بهذا الخطاب لأذكرك بوعدك الكريم أن تصنع لى ساعة دقيقة . إذ أن المقصود بها خدمة أغراض فلكية فقط ، فإنى أفضل تجريدها من جميع الأجهزة الخاصة بالدق أو بأى غرض آخر حتى لا يكون ازدياد تعقيدها سبباً فى إزعاج دقتها . ولو صنع معها جهاز يدل على الثوانى ويتحرك فى يسر فإن ذلك يزيد من قيمتها . أما عن مقياس الأبعاد الذى كلمتك عنه فإنى أستطيع الآن الاستغناء عنه إذ اشتريت فى هذه الأيام مقياسا رائعا جداً .

الموسيقى هوى فؤادى

إن الموسيقى هوى فؤادى ؛ وقد ألقى بى القدر فى بلد ؛ الموسيقى فيه على حالة بربرية يرثى لها . . . ولن تسمح حدود الثروة فى أمريكا بترف الاحتفاظ بفرقة منزلية من الموسيقيين ومع ذلك فقد رأيت أنه من الممكن التوفيق بين إرضاء هوى الموسيقى وبين ذلك الاقتصاد الذى نضطر لمراعاته .

وإنى أحتفظ بين خدمى المنزليين ببستانى ونساج ونجار وحجار وأود أن أضيف إليهم Vigneron . وفى بلد مثل إيطاليا حيث تأخذ كل طبقة من الناس

بحظ فى تعلم الموسيقى ومزاولتها أظن أنه يمكن وجود أشخاص من هذه الحرف يستطيعون العزف على النفير الفرنسى وأنواع المزمار مثل الكالرينت والهوتبوى والباسون ، ولذلك قد نجد فرقة مؤلفة من سبعة عازفين دون توسع فى نفقاتهم المنزلية : اثنين يعزفان على النفير الفرنسى . واثنين على الكلارينيت ، واثنين على الهوتبوى ، وواحد على الباسون . وإذا ما وثقوا أن عملهم سيدوم لمدة ستة أعوام وضمنوا العودة إلى بلادهم عند نهاية هذه المدة إن شاءوا فإن ذلك قد يغريهم بأن يأتوا إلى هنا بأجور معقولة ، ومن الأفضل أن يكون الاتزان والطبيعة الصافية عنصرين أصيلين فى شخصياتهم .

مذكرات عن فيرجينيا

تسلمت فى سنة ١٧٨١ خطاباً من المسيو دى ماربوا M. de Marbois الذى يعمل بالمفوضية الفرنسية فى فيلادلفيا . . موجهاً إلى عدداً من الأسئلة المتصلة بولاية فيرجينيا ، ولقد اعتدت دائماً أن أسجل أى معلومات قد تكون مفيدة لى عن بلدنا حين تتهيأ لى فرصة الحصول عليها . ولقد كانت هذه المذكرات مسجلة على ورق مفكك ... وظننت أن هذه فرصة طيبة لأجمع مادتها فقمت بذلك وفق ترتيب أسئلة المستر ماربوا حتى أجيب رغبته وأنظمها لاستعمالى الخاص . وقد رغب بعض الأصدقاء فى الحصول على نسخ منها ولذلك صححتها وأضفت إليها وطبعت منها مئتى نسخة تحت عنوان « مذكرات عن فيرجينيا » .

وقد أعطيت نسخاً قليلة جداً لبعض الأصدقاء فى أوربا . . فحصل تاجر من تجار الكتب على نسخة من النسخ الأوربية عند وفاة صاحبها وكلف مترجماً بترجمتها ولما أعدها للطبع بعث إلىّ برغبته فى نشرها وبالنسخة المخطوطة مقترحاً على أن أصححها دون أن يسألنى إذناً خاصاً للنشر . فلم أر مطلقاً مجهوداً غير موفق مثل هذا المجهود فى الترجمة ؛ إذ اكتشفت أنها مجموعة أخطاء من أولها إلى آخرها وأن المترجم قد لخصها وشوهها وكثيراً ما قلب المعنى الأصلى . فصححت بعض الأخطاء الكبيرة ونشرت بالفرنسية فى ذلك الشكل . وعندما رأى تاجر من تجار الكتب فى لندن النسخة المترجمة طلب إلىّ أن تنشر النسخة الأصلية باللغة الإنجليزية . ولقد اعتقدت أن ذلك أفضل

حتى يرى العالم أن مذكراتى عن فيرجينيا ليست فى الحقيقة من السوء كما تظهرها الترجمة الفرنسية .

المعمار فى فيرجينيا : تقدير نقدى

إنه لمن النادر جداً أن تشيد المبانى الخاصة من الحجر أو الآجر ؛ فأغلبها مبنى من قطع الخشب وألواحه التى تطلى بالجير . ومن المستحيل أن تصمم أشياء أقبح وأدعى إلى عدم الراحة من هذه المبانى ومن حسن الحظ أنها أيضاً أسرع المبانى إلى الفناء . فهنالك تصميان أو ثلاثة تصميمات تبنى أكثر المنازل فى الولاية وفق واحد منها . فأفقر الناس يبنون أكواخاً من كتل الخشب التى توضع أفقياً فى حظائر وتملأ فجواتها بالطين . وهذه الأكواخ أدفأ فى الشتاء وأرطب فى الصيف ، وهكذا نجدها أكثر راحة من البناء الأعلى المركب من قطع الخشب وألواحه . وان المبانى العامة الوحيدة الجديرة بالذكر هى الكابتول والقصر والكلية ومستشفى الأمراض العقلية وكلها فى وليامزبرج وان الكابتول مبنى زاه طلق الهواء ذو رواق قائم على أعمدة من طابقين أسفلهما مبنى على الطراز الدوريكى وهو منسجم انسجاماً معقولا فى نسبه وزخارفه إلا فى المساحات التى تفصل ما بين الأعمدة فهى واسعة سعة مفرطة . والطابق الأعلى مشيد على الطراز الأيونى ؛ فهو صغير جداً بالنسبة للطابق الذى ركب عليه ، وزخارفه لا تتناسب والطابق ، كما لا تتناسب فيما بينها . وهو متوج بمثلث فى أعلاه مرتفع ارتفاعاً زائداً بالنسبة لسعته . ومع ذلك فهو على وجه العموم ألطف قطعة معمارية عندنا . أما القصر فهو ليس جميلا من الخارج ولكنه فسيح ومريح فى الداخل وموقعه ظريف ، ومن الممكن أن يكوّن بالأراضى الملحقة به موقعاً أنيقاً . وأما الكلية والمستشفى فهما بناءان كبيران بدائيان مشوها الشكل ولولا وجود أسقف لهما لظننا قمائن آجر .

ولا توجد مبان عامة غير ذلك سوى الكنائس ومراكز المحاكم التى لا يبذل فيها أى جهد لتوفير الأناقة . وفى الحق إنه ليس من السهل القيام بمثل هذا الجهد لأنه من النادر أن يوجد عامل فنى قادر على أن يصمم طرازاً معمارياً . ويبدو أن عبقرية المعمار قد صبت لعناتها على هذه البلاد . . . وربما يهبط قبس من نور على بعض المواطنين

الشبان من أصحاب الذوق الطبيعى ويذكى عبقريتهم وينتج نهضة فى هـــذا الفن النافع الرفيع .

هاربرز فيرى : حرب بين الأنهار والجبال

ان ممر نهر البوتوماك Potomac خلال سلسلة جبال البلوريدج قد يعد منظراً من أروع المناظر فى الطبيعة . فإذا ما وقفت على نقطة عالية جداً من الأرض فعلى يمينك يصعد نهر الشيناندوه Shenandoah بعد أن طاف حول قاعدة الجبل مائة ميل ليبحث عن منفذ . وعلى يسارك يقترب نهر البوتوماك باحثاً أيضاً عن ممر . وفى لحظة اتصالهما يندفعان معاً ضد الجبل ويشقانه نصفين ويجريان بعيداً إلى البحر . وإن أول نظرة إلى هذا المنظر تدفع بحواسنا إلى الاعتقاد أن هذه الأرض قد خلقت فى الوقت المناسب ؛ فالجبال تكونت أول الأمر ، والأنهار بدأت تفيض بعد ذلك وقد أقيم فى هذا المكان خاصة سد فى وجهها من سلسلة جبال البلوريدج فكونت محيطاً ملأ الوادى كله وظلت ترتفع حتى اجتازت الجبل آخر الأمر فى هذه البقعة وشقته من قاعدته . وإن أكداس الصخور على كلا الجانبين وخاصة على جانب الشناندوه دلالات واضحة على انشقاقها ونزعها من مواضعها بوساطة أقوى العوامل الطبيعية .

ولكن الملامح البعيدة التى أكملت بها الطبيعة الصورة تمتاز بخاصية مختلفة . فهى نقيض حقيقى للملامح التى تبدو فى صدر المنظر ؛ إذ أنها تبلغ من الهدوء والمتعة ما تبلغه الأخرى من الوحشية والروعة . لأن انشقاق الجبل نصفين يهيئ لك أن تبصر خلال انفلاقه جانبا صغيراً من الأفق الأزرق الناعم على بعد غير محدود فى الإقليم البسيط داعيا إياك من أثر الزئير الصاخب اللجب حولك أن تعبر خلال الكسر وتشارك فى الهدوء تحتك . وإن هذا المنظر لجدير برحلة عبر الأطلنطى . ومع ذلك فيوجد هنا كما يوجد فى منطقة الناتشورال بريدج (القنطرة الطبيعية) أناس قد أنفقوا حياتهم فى نطاق ستة أميال ولم يذهبوا ليشاهدوا هذه الآثار التى نشأت عن الحرب بين الأنهار والجبال التى لا بد من أنها قد هزت الأرض حتى أعماقها .

ما أجملها من قنطرة

إن قنطرة النتشورال بريدج – وهى أعظم منشآت الطبيعة جلالا – تقع على مطلع تل يبدو أنه انشق طولا نتيجة حدوث هزة عنيفة ، وهذه الفجوة التى توجد عند القنطرة تماما تبلغ حسب بعض المقاسات مئتين وسبعين قدما فى العمق ، وحسب بعضها الآخر مئتين وخمس أقدام فقط . وتبلغ فى سعتها حوالى خمس وأربعين قدما عند القاع ، وتسعين قدما عند القمة . ويقرر هذا بالطبع طول القنطرة وارتفاعها من الماء . . . ولو أن جوانب هذه القنطرة مزودة فى بعض الأجزاء بسور من الصخور الثابتة إلا أن قليلا من الناس يتوافر لديهم العزم على أن يذهبوا إليها ويطلوا على الهوة . فأنت تسجد ، دون إرادة ، على يديك وقدميك وتزحف نحو السور وتطل من فوقه . ولقد أصابنى النظر إلى أسفل من هذا الارتفاع بدوار عنيف استمر مدة دقيقة تقريبا . وإذا ما كان المنظر من القمة مجلبة لدوار محتمل فإن المنظر من أسفل ممتع جداً كذلك ، وإنه لمن المستحيل أن يحس المرء بالمشاعر التى تصدر عن الجلال والروعة فى عمق أبعد مما يحسها به فى هذا المكان لجمال هـذه القنطرة وصقلها وارتفاعها فى أجواز الفضاء .

الفلاحون شعب الله المختار

إن الذين يعملون فى الأرض هم شعب الله المختار – إن كان هنالك شعب مختار عند الله – تنطوى صدورهم على الصفاء النقى الخالص ، فكأنما اختار الله هذه القلوب لتكون المركز الذى يحفظ فيه النار المقدسة حية أن تختفى من وجه الأرض . ومع ذلك ففساد الأخلاق بين جمهرة الصناع المقيمين مع المزارعين ظاهرة ليس لها مثال فى أى عصر من العصور أو أمة من الأمم . وما هى إلا سمة من سمات أولئك الذين لا يتوجهون مثل الفلاح بأبصارهم إلى السماء وإلى أرضهم وكدهم التماسا لأقواتهم ، بل يعتمدون فى ذلك على أهواء عملائهم . فالاتكال يلد الصغار والدناءة ويخنق جرثومة الفضيلة ، ويعد الأدوات المناسبة لتدبيرات الطمع .

وبالإجمال فإن النسبة التى تقوم بين مجموع طبقات المواطنين الأخرى فى أى دولة وبين فلاحيها هى النسبة القائمة بين أجزائها غير السليمة وأجزائها السليمة ، وهى مقياس تكفى صلاحيته لتقدير درجة فسادها . ومن ثم فطالما لدينا أرض فمن الخير لنا ألا نرغب مطلقاً فى رؤية مواطنينا وهم يشغلون أنفسهم بالعمل فى مصنع أو إدارة مغزل .

إن فلاحة الأرض لفى حاجة إلى النجارين والبنائين والحدادين ؛ ولكن من ناحية الأعمال العامة للصناعة دع مصانعنا تظل فى أوروبا .

الرق : إنى أرتعد من أجل بلادى

لاريب أن وجود الرق بيننا لا بد له أن يترك أثرا سيئاً فى أخلاق شعبنا ؛ فكل وجوه التعامل بين السيد والرقيق هى ممارسة دائمة لأشد العواطف عنفا ؛ وللاستبداد المتصل من ناحية والخنوع المهين من ناحية أخرى . فأطفالنا يرون هذا السلوك ويتعلمون كيف يقلدونه إذ سيشتط الأب غضبا ويشاهد الطفل ذلك فيأخذ عن أبيه ملامح السخط ويسلك فى دائرة الرقيق الصغار نفس المسلك الذى يسلكه أبوه بين الكبار منهم ويطلق العنان لأسوأ العواطف ، وهكذا يربى الطفل ويتعلم ويتدرب كل يوم على الاستبداد ، ومن ثم لا يسعه إلا أن يتطبع بخصائص بغيضة من أثره . . . هل يجوز لنا أن نطمئن إلى أن حريات أمة فى مأمن حين نزيل أساسها القوى الوحيد وهو اعتقاد الشعب أن هذه الحريات هبة من الله وأنها لا تنتهك إلا بسخط منه ؟

الحق أنى أرتعد فرقا من أجل بلادى حين أفكر فى أن الله عادل ، وأن عدله لا يمكن أن ينام إلى الأبد ، وأننا إذا نظرنا إلى مشكلة الرق من حيث نسبة العدد والطبيعة والوسيلة الطبيعية وحسب ؛ فإن انقلاب عجلة الحظ وتبادل المركز بين السادة والرقيق حدث من الأحداث المحتملة الوقوع وقد يساعد على وقوعه دخل من العوامل الخارجة عن الطبيعة .

فالله القدير ليس له صفة من الصفات التى تؤيدنا وتتحيز معنا فى مثل هذا

الخصام . ولكن من المستحيل أن نجمع بين ضبط النفس وبين دراسة هذا الموضوع من ناحية اعتبارات السياسة والأخلاق والتاريخ طبيعيا ومدنيا . وعلينا أن نقنع بالأمل فى أنها ستفرض نفسها على عقل كل فرد ، وأعتقد أن تغيرا فى وجهة النظر إلى هذه المشكلة قد أخذ فعلا فى الظهور ، فروح السيد أخذت تهبط وروح الرقيق أخذت تصعد من التراب ، كما أن حالته بدأت تستكين استعدادا للتحرر الكامل فى ظل عناية الله . وآمل أن يتحقق هذا وفق منطق الحوادث برضا السادة لا بإبادتهم .

مناخ فيرجينيا

لما كانت سجلات الملاحظة لمقدار المطر ودرجات الحرارة مطولة ومضطربة ومحدودة بدرجة تحول دون الوصول إلى أفكار عامة متميزة عمدت إلى تدوين الملاحظات لمدة خمس سنين من سنة ١٧٧٢ إلى سنة ١٧٧٧ فى وليامزبرج ومنطقتها وحولتها إلى متوسط لكل شهر فى السنة وسجلت متوسطاتها ثم أضفت دراسة تحليلية للرياح فى أثناء تلك المدة ، أما الفرق بين درجة حرارة الهواء عند ساحل البحر أو على خليج تشيزابيك Chesapeake Bay وبين درجة الحرارة عند الليجهانى Alleghany فلم يثبت ، ولكن الملاحظات المعاصرة التى جمعت فى وليامزبرج . . وفى مونتيسلو الذى يقع فى أبعد طرف شرقى للجبال المسماة السوثوست Southwest حيث يقطعها الريفانا Rivanna قد زودتنا بمعدل يستطاع بوساطته التنبؤ إلى حد ما بذلك الفرق .

وتجعل هذه الملاحظات الفرق فى درجة الحرارة بينهما بمتوسط ست درجات ونصف درجة فى ترمومتر فهرنهيت . . . فالفرق المتوسط والذى يكاد لا يختلف ارتفاع الزئبق فى البارومتر عند هذين المكانين هو ٧٨٤ ر من البوصة ؛ فالجو فى مونتيسلو أخف كثيراً لأنه يبلغ جزءاً من سبعة وثلاثين من وزنه كله . وينبغى أن نلاحظ مع ذلك أن تل مونتيسلو يرتفع خمسمائة قدم عمودية عن النهر الذى يجرى عند قاعدته . ولما كان هذا الموقع يكاد يكون مركزيا بين حدودنا الشمالية والجنوبية

وبين الخليج والليجهانى فيمكن اعتباره الموقع الذى يقدم لنا خير متوسط لدرجة الحرارة فى مناخنا .

ولكن هنالك فرقا ملحوظا فى الرياح . . . فبدراسة الملاحظات التى جمعت عنها فى تسعة أشهر فى مونتيسلو ، وبدراسة عدد مماثل من الملاحظات أى أربعمائة وواحد وعشرين . فى وليامزبيرج ، يمكن أن نرى أن الرياح الجنوبية الغربية تسود فى كلا المكانين على حد سواء ، وأن الرياح الشمالية الشرقية بعد ذلك هى الرياح الرئيسية نحو ساحل البحر ، وأن الرياح الشمالية الغربية هى الرياح السائدة فى الجبال .

وإن الفرق بين هذين النوعين من الرياح بالنسبة للحس وفى الواقع فرق عظيم جداً . فالرياح الشمالية الشرقية محملة بالبخار إلى درجة أن صانعى المسلح قد اكتشفوا أن البلورات لا تصلح فى أثناء هبوبها فهى تجلب معها بردا قارسا مقبضا كما أنها ثقيلة ومتعبة للروح . أما الرياح الشمالية الغربية فهى جافة وباردة ، مرنة منعشة . والنسائم الشرقية والجنوبية الشرقية قد تقدمت داخل الإقليم بطريقة محسوسة يذكرها أناس يعيشون الآن وكلما خلصت الأرض مما عليها أصبح من المحتمل أن تستمر فى امتدادها أبعد من ذلك نحو الغرب .

الجبل الغريب الأطوار

إن مونتيسلو يهيئ الفرصة لرؤية ظاهرة نادرة فى الأرض وإن كانت كثيرة الحدوث فيها . ويسميها البحارة « المظهر الوهمى » ولا تزال الفلسفة متخلفة عن البحارة فيما يتصل بهذه الظاهرة فقد عجزوا عن تفسيرها ، بل إنهم عجزوا حتى عن إعطائها اسما . وأثر هذه الظاهرة الرئيسى هو جعل الأشياء البعيدة تبدو أكبر مما هى عليه فى الواقع وذلك يتعارض مع قانون البصر العام ، بل إنه يناقضه . ولقد عرفت حالة فى يوركتون Yorktown يبدو منها أن منظر الماء فى اتجاه الشرق غير نهائى وأن منظر القارب الصغير الذى يحمل ثلاثة رجال على بعد عظيم يظهر

كأنه سفينة ذات ثلاثة صوار : وقلما تبدو لى هذه الظاهرة كما شاهدتها فى البحر وإن كانت مألوفة لى فى مونتيسلو .

وهنالك جبل منفرد يبعد حوالى الأربعين ميلا فى الجنوب وشكله الطبيعى كما يبين للبصر هناك مخروط منتظم . ولكن بتأثير المظهر الوهمى يكاد أحياناً يهبط هبوطا تاما فى الأفق وأحياناً يصعد فى شكل حاد ومرتفع وأحياناً يبدو نصف كروى وأحياناً تصير جوانبه عمودية وقمته مسطحة وتبلغ فى سعتها مبلغ قاعدته . وبالايجاز فهو يتشكل فى بعض الأحايين بأكثر الأشكال غرابة وربما تتعاقب تباعا فى صباح واحد .

رابية هندية على الريفانا

لقد كانت هنالك (رابية هندية) فى المنطقة التى أعيش فيها ووددت أن أقنع نفسى بصحة أى رأى من الآراء العديدة المتعارضة التى سيقت إلى عن أصلها . وهكذا قررت أن أقتحمها وأن أدرسها دراسة تامة . فهى تقع على أراضى الريفانا المنخفضة على قرابة ميلين من أعلى فرعه الرئيسى مقابل بعض تلال كانت عليها مدينة هندية . وكان شكلها شبه كروى ويبلغ قطر قاعدتها حوالى أربعين قدما وارتفاعها حوالى اثنتى عشرة قدما ولو أنه قد انخفض الآن بوساطة المحراث إلى سبع ونصف .

ولقد عثرت على مجموعات من العظام الإنسانية على أعماق مختلفة تتراوح بين ست بوصات وثلاث أقدام تحت السطح ، وكانت هذه العظام فى أشد حالات الاضطراب : فبعضها عمودى ، وبعضها مائل وبعضها أفقى ، قد كانت متجهة فى كل اتجاه متشابكة ومشدود بعضها إلى بعض فى عناقيد بوساطة الأرض . وظننت أن هذا المكان يشتمل على ألف هيكل إنسانى وأن الحالة التى ذكرتها معروفة للجميع وهى تعارض الرأى القائل بأن هذه الرابية تغطى عظام الذين سقطوا فى الحرب فقط ، وتعارض كذلك الفكرة المتواترة بأن الأجسام فى هذا المدفن كانت موضوعة فى وضع مستقيم فإن كلا منها ملقى على الآخر .

تاريخ أمريكا الطبيعى

إن الرأى الذى قدمه الكونت بيفون يقوم على ما يأتى : (١) إن الحيوانات المشتركة بين العالم القديم والعالم الجديد أصغر فى العالم الجديد منها فى العالم القديم (٢) إن الحيوانات الخاصة بالعالم الجديد توجد فى نطاق أصغر . (٣) إن الحيوانات التى استؤنست فى كلا العالمين قد انحط مستواها فى أمريكا : (٤) إنه على وجه العموم تعرض أمريكا أنواعا من الحيوانات أقل عدداً . ودعنا إذن ننظر نظرة مقارنة إلى الحيوانات (ذوات الأربع) فى أوربا وأمريكا .

وتتيجة لهذه النظرة يتبين لنا أن من بين كل ستة وعشرين من الحيوانات المشتركة بين البلدين نجد سبعة منها أكبر فى أمريكا وسبعة ذات حجم متساو وأن اثنى عشر لم تدرس دراسة كافية . . . وإذا ما انتقلنا إلى الحيوانات التى ينفرد بها أحد هذين البلدين نجد أن ثمانى عشرة بهيمة تحيا فى أوربا وأن أكثر من أربعة أضعاف هذا العدد أى أربع وسبعين بهيمة تختص بها أمريكا . . أما أن بعض البهائم المستأنسة فى كلتا القارتين قد أصبحت فى بعض أجزاء أمريكا أقل من البهائم الأصلية فهذا أمر لا شك فى صحته والسبب واضح جداً ، ففى بلد سكانه قليلون تكفى المنتجات الطبيعية للغابات والحقول المهملة لتغذية حيوانات الفلاح المستأنسة بغير اكتراث . ، ولكن عند أولئك الأفراد فى أمريكا الذين أنتجت الضرورة لديهم أو أنتج حب الاستطلاع اهتماما مساويا لما فى أوربا من اهتمام بتغذية الحيوانات نجد أن الخيل والماشية والأغنام والخنازير فى كل قارة من القارتين تبلغ من الحجم ما تبلغه الحيوانات فى القارة الأخرى .

ولنا أن نذهب إلى أن الجزء الثالث من قول المسيو دى بيفون قد يكون خاطئا كما كان الجزءان الأول والثانى خاطئين خطأ مؤكدا . أما الجزء الأخير الذى يؤكد أن أنواع البهائم الأمريكية أقل نسبيا منه فى أوروبا فهو أمر واضح الخطأ .

إن إنسان العالم الجديد ليس أحط من الأوروبى

لقد ناقشت حتى الآن هذا الافتراض كما يطبق على الحيوانات العجمى فقط ،

لا كما يطبق على إنسان أمريكا سواء أكان من السكان الأصليين أم النازحين إليها .
ويرى مسيو دى بيفون أن السكان الأصليين ليسوا مستثنين من هذا الحكم . إلا أننى لا أعرف شيئاً عن هنود جنوب أمريكا إذ أنى لا أرفع إلى مرتبة المعرفة ما أستقيه من الأساطير المنشورة عنهم ، وأعتقد أن هذه الأساطير صادقة صدق أساطير أيسوب Aesop ، وأما هنود شمال أمريكا فإنى أستطيع لوجودهم بالقرب منا أن أتكلم عنهم كلاما مناقضا لهذا التصوير الذى يصوره دى بيفون .

ولو أننا قابلنا بينهما فى حالتهم الحاضرة وبين الأوربيين شمالى الألب Alps حين عبرت أسلحة الرومان وفنونهم أول ما عبرت تلك الجبال فإن المقابلة ستكون غير متساوية لأنه فى ذلك الوقت كانت تلك الأجزاء من أوربا تعج بأعداد عديدة من السكان ولأن كثرة التعداد تخلق التنافس وتفسح من فرص التقدم وكل وتقدم يلد تقدما آخر . ومع ذلك فلى أن أتساءل عن عدد الشعراء البارزين وعلماء الرياضة ذوى الكفاية والمخترعين العظماء فى الفنون والعلوم الذين أنجبتهم أوربا شمالى الألب فى ذلك الوقت . لقد انقضى ستة عشر قرنا قبل أن يتكون نيوتن Newton .

ولا أقصد أن أنكر أن هنالك أنواعا مختلفة فى عنصر الإنسان وجنسه تتميز بقواها فى كلا الجسم والعقل وأعتقد أنه توجد أجناس فى بنى الإنسان كما هى الحال فى أجناس الحيوانات الأخرى ، وإنما أقصد فقط أن ألقى بعض الشك فيما إذا كانت مجموعة الحيوانات وقدراتها تعتمد على أنواع الغذاء التى تنمو على جانبى الأطلنطى وفيما إذا كان هذا الغذاء هو الذى زودها بالعناصر التى تتركب منها وفيما إذا كانت الطبيعة قد جعلت من نفسها عاملا متحيزا عبر الاطلنطى . وإنى لأميل إلى الظن أن هذه النظرية تستند إلى بلاغة أكثر مما تستند إلى تفكير سليم ، وأنها حالة من الحالات التى يضل فيها الرأى بوساطة القلم البليغ اللامع . وعلى حين أننى أقدم كل آيات الشرف والتقدير لعالم الحيوان المشهور الذى أضاف ولا يزال يضيف أشياء ثمينة كثيرة إلى كنوز العالم إلا أنه لا بد لى أن أشك فى مقدار ما دعم به الحالة الخاطئة التى عرضها بأسانيد أساسها خياله القوى ولسانه الساحر .

عبقرية أمريكا

ولقد وقف الكونت دى بيفون عند هذا الحد فى استخدامه تلك النظرية الجديدة عن نزوع الطبيعة إلى أن تقلل من شأن منتجاتها على هذا الجانب من الأطلنطى ، أما تطبيقها على جنس البيض المنقولين من أوروبا فقد ترك القيام به إلى الأب راينال . لقد قيل إن « أمريكا لم تنتج شاعراً واحداً ممتازا » فعندما نعيش كشعب زمنا قدر الزمن الذى عاشه اليونان قبل أن ينتجوا هومر أو ينتج الرومان فرجيل Virgil أو الفرنسيون راسين Racine وڤولتير Voltaire أو الإنجليز شكسبير وملتون ، واستمر هذا اللوم قائما صحيحا فإننا حينئذ سنبحث الأسباب غير الملائمة التى أدت إلى قصور بلاد أوروبا وأنحاء العالم الأخرى عن تسجيل أى اسم فى قائمة الشعراء .

وقيل ان أمريكا لم تنتج أيضاً « عالما رياضيا واحدا قديرا أو عبقريا واحدا فى فن من الفنون أو علم من العلوم » إلا أننا أنتجنا فى الحرب « واشنطون » Washington الذى ستعبد ذكراه طالما بقى للحرية عابدون ، والذى سينتصر اسمه على الزمن ويحتل فى العصور المقبلة مكانته المناسبة بين الأجلاء من مشهورى العالم وذلك فى الوقت الذى ستنسى فيه تلك الفلسفة المتكودة التى قد كانت تضعه بين مظاهر انحطاط الطبيعة . وفى علم الطبيعة أنتجنا فرانكلين Franklin الذى لم يقم أحد فى العصر الحاضر باكتشافات أهم مما قام به ، والذى لم يعد أحد الفلسفة بمثل الغنى الذى أغناها به ، والذى لم يصل أحد إلى حلول للظواهر الطبيعية أكثر ذكاء مما وصل إليه . وكذلك ترى أن مستر دافيد ريتنهوس لا يلى فى الترتيب أى عالم حى من علماء الفلك وأنه فى العبقرية لا بد أن يكون الأول لأنه قد علم نفسه بنفسه ؛ ولقد أظهر ، كفنان ، دليلا عظيما على بلوغه فى العبقرية الآلية أرفع مما أنتجه العالم فى هذا المضمار . وفى الحق أنه لم يصنع عالما ولكنه بنموذجه عن النظام الكوكبى قد اقترب بالمحاكاة من صانعه أكثر من أى رجل عاش منذ الخلق حتى اليوم .

وكما بينا فى الفلسفة والحرب فكذلك يمكن أن نبين فى الحكم والخطابة والتصوير والفن التجسيمى ، أن أمريكا ولو أنها طفل ولد بالأمس إلا أنها قد أعطت أدلة

مشجعة عن العبقرية وعن الأنواع النبيلة التى تثير خير المشاعر فى الإنسان وتدفعه إلى العمل وتؤكد حريته وتقوده إلى السعادة وكذلك عن الأنواع الثانوية التى تقوم بتسليته فقط . ومن ثم فنحن نرى أن هذا اللوم غير عادل كما أنه غير رحيم وأن أمريكا تسهم بنصيبها الكامل بين العباقرة الذين يزينون العصر الحاضر .

أطفالى : المولودون والموتى

ولدت مارثا جيفرسون Martha Jefferson فى ٢٧ من سبتمبر ١٧٧٢ الساعة الواحدة صباحا .

ولدت جين رانلولف جيفرسون Jane Randolph Jefferson فى ٣ من إبريل سنة ١٧٧٤ الساعة الحادية عشرة صباحا . وماتت فى ٤ من سبتمبر سنة ١٧٧٥ .

ولد ابن فى ٢٨ من مايو سنة ١٧٧٧ الساعة العاشرة صباحا ومات فى ١٤ من يونيه الساعة العاشرة والدقيقة العشرين مساء .

ولدت مارى جيفرسون فى أول أغسطس سنة ١٧٧٨ الساعة الواحدة والنصف صباحا . وماتت فى ١٧ من إبريل سنة ١٨٠٤ بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحا .

ولدت لوس اليزابث جيفرسون Lucy Elizabeth Jefferson فى ٨ من مايو سنة ١٧٨٢ الساعة الواحدة صباحا . وماتت سنة ١٧٨٤ .

انتظار رهيب ينتهى بمأساة

لقد أضافت مسز جيفرسون (زوجته) بنتا أخرى إلى أسرتنا فى ٨ من مايو سنة ١٧٨٢ . ولقد مرضت وظلت مريضة مرضا خطيراً منذ ذلك الوقت .

إن تاريخى كان ينبئ بأن يكون سعيداً قدر ما كنت أتمنى لو أن أحبابى كانوا خالدين . ولكن جميع النعم التى ساقها إلى القدر قد كدرتها الخسائر المنزلية . فمن بين ستة أطفال خسرت أربعة وفى النهاية خسرت أمهم (ماتت مسز جيفرسون فى ٦ سبتمبر سنة ١٧٨٢) .

إن خطاباتك الرقيقة (خطابات شاستلى) قد وصلتنى وأنا أخرج قليلا من

ذهول العقل الذى صيرنى ميتا بالنسبة للعالم كمونت التى سبب فقدانها ذلك الذهول .
ولقد أعاد خطابك إلى ذاكرتى أن هنالك أشخاصا أقدرهم كل التقدير لا يزالون يعيشون . فلو أنك قد ظننت أننى متهاون فن المؤكد أنك ستعزو ذلك إلى سببه الحقيقى وهو حالة الانتظار الرهيب التى لبثت فيها طوال الصيف والمأساة التى اختتمتها . فقد كان نظام حياتى قبل تلك الكارثة قد تقرر . وقد بنيت كل آمال السعادة فى المستقبل على حياتى المنزلية والأدبية . ولكن حادثة واحدة قوضت جميع خططى وتركت لى فراغا لا أجد فى نفسى من الهمة ما يكفى لملئه .

نصيحة حب إلى ابنة فقدت أمها

إن الاعتقاد بأنك (مارثا) ستتحسنين فى المكان الذى وضعتك فيه أكثر مما لو ظللت معى ، وقد عزانى ذلك عن فراقك الذى زاد من ألمه حبك لى وحبى لك . فالعلم الذى آمل أن تكتسبيه بتوجيه المربين الذين زودتك بهم سيجعلك أكثر جدارة بحبى وإن هم لم يستطيعوا أن يزيدوا منه فسيحولون دون نقصانه . واعتبرى السيدة الطيبة التى أخذتك تحت سقفها ، كأمك ، أى اجعليها الشخص الوحيد الذى تستطيعين الآن أن تتطلعى إليه بعد المصاب الذى شاءت السماء أن تصيبك به ، وإن سخطها أو استنكارها فى أية مناسبة سيكون سوء حظ جسيم . فإن أنت جلبته على نفسك بأى عمل تأتينه فى غفلة فلا تظنى أن أى تنازل أو اعتذار من جانبك يعتبر أمرا كبيراً فى سبيل استعادة ثقتها بك .

أما فيما يتصل بتوزيع وقتك فإنى أوافق على النظام الآتى :

من ٨ — ١٠ تدربى على الموسيقى .

من ١٠ — ١ ارقصى يوما وارسمى يوما آخر .

من ١ — ٢ ارسمى فى اليوم الذى ترقصين فيه واكتبى خطابا فى اليوم التالى

من ٣ — ٤ اقرئى الفرنسية .

من ٤ — ٥ دربى نفسك فى الموسيقى .

من ٥ حتى وقت النوم اقرئى الإنجليزية واكتبى . . . الخ .

وإنى لأتوقع أن تكتبى إلى بكل بريد . أخبرينى عن الكتب التى تطالعينها والألحان التى تتعلمينها وأرسلى مع ذلك خير نسخة لكل درس فى الرسم واحترسى من أن تخطئى فى هجاء أية كلمة . فقبل أن تكتبى كلمة فكرى فى كيفية هجائها وإذا لم تذكريه فارجعى إلى معجم لغوى إذ مما يجلب الثناء العظيم إلى سيدة أن تحسن الهجاء .

ولقد وقفت سعادتى على رؤيتك صالحة ومثقفة ولن يستطيع هذا العالم أن يصيبنى الآن بحزن يساوى حزنا يصيبنى إذا خيبت آمالى . فإن كنت تحبيننى فحاولى إذن أن تكونى طيبة فى كل موقف ومع جميع الأحياء من البشر وأن تحصلى على ضروب المعرفة والتهذيب التى فى مقدورك والتى ستذهب إلى حد بعيد فى أن تكفل لك أحر الحب من والدك العطوف :

الذوق الحسن والعلوم الجادة

لقد أغفلت (يا عزيزتى مارثا) نصحك عن موضوع الزى . . إنى لا أقبل أن تلبسى ملابس خليعة فى سنك هذه (كان عمرها حينئذ أحد عشر عاما) ولكن ينبغى أن يكون ما تلبسين جيداً فى نوعه . ولكن فوق كل شىء وفى كل الأوقات احرصى على أن تكون ملابسك نظيفة كاملة ومناسبة . . وليس هنالك ما يشمئز منه الذوق عند الرجال مثل فقدان النظافة والرقة فى النساء . ولذلك آمل أن يكون عملك الأول فى اللحظة التى تستيقظين فيها من النوم أن تلبسى بأسلوب يسمح بأن يراك أى رجل فلا يكشف دبوسا فى غير موضعه ، أو مجافاة للأناقة فى ملبس أخذته لنفسك .

إن نظام المطالعة الذى وضعته (لمارثا) يختلف اختلافا كبيراً عن أى نظام يكون أعظم تناسبا مع جنسها فى أى بلد آخر غير أمريكا . وقد اضطررت إلى التطرف فى تعليمها لأنى أنظر إليها كرئيسة لأسرة صغيرة . فإنى أقدر أن احتمال زواجها برجل غبى مرجح بنسبة ١٤ إلى ١ ، وهكذا يصبح من الطبيعى فى مثل هذه الحالة أن يكون اعتماد أسرتى فى التعليم قائما على أفكارها وإرشاداتها الخاصة دون مساعدة من زوجها . ولهذا فسأضيف إلى قراءة الشعراء وكتاب النثر قدراً معينا من القراءة فى العلوم الجادة . ومن ذلك فإن وقتها فى فيلادلفيا سيشغل على

وجه خاص فى اكتساب بعض الذوق والآ اء فى أنواع الفنون الجميلة التى لا تستطيع تحصيل مثلها فى مكان أكثر انعزالا من هذا المكان :

مصدر السعادة من الآن فصاعدا :

إنك تطلبين إلىّ أن أكتب إليك خطابات طويلة . وسأفعل ذلك يا عزيزتى (مارثا) على شرط أن تقرئيها من وقت إلى آخر وتمارسى ما بها من تعاليم : فإن تعاليمها ستملها التجربة والمعرفة التامة بالمركز الذى ستوضعين فيه كما سيمليها الحب القوىّ الذى أكنه لك . وهذا هو ما يجعلنى أرغب فى أن أراك مؤهلة أعظم التأهيل العادى . وإن آمالى فيك آمال عالية ولكنها ليست أعلى مما تستطيعين بلوغه ، فالجو والعزم هما كل ما تحتاجين إليه . ولن يستطيع أحد فى هذا العالم أن يجعلنى سعيداً أو شقيا مثلما تستطيعين أنت ... وإنى لأتطلع إلى أختك (مارى) وإليك لأجعل مساء حياتى هادئا راضيا . فإن صباحها قد تلبد بغيوم خسارة بعد خسارة حتى لم يترك لى شيئاً سواكما .

الفصل الثالث

الثائر

لقد بدأ توماس جيفرسون حياته السياسية فى سنة ١٧٦٩ وبدأها بطريقته الخاصة ، إذ وجه أول ما وجه ضربة من أجل الحرية . فكان عمره ستة وعشرين عاماً ، وقد انقضى على عمله بالمحاماة عامان حين حاول فى الجلسة الأولى التى حضرها فى مجلس نواب المستعمرة أن يجعل من الممكن قانوناً لأصحاب الرقيق أن يحرروا رقيقهم . ولم ينجح جيفرسون . وفى الحق أنه لم يكن لشىء حر أن يتوقع النجاح – كما يخبرنا جيفرسون – فى ظل النظام الاستعمارى فى عهد جورج الثالث ووزرائه المحافظين الذين يرجع إلى مزاعمهم التى لا مبرر لها نشوء الحرب الثورية ، تلك الآراء التى كانوا بها يعطون الحق لبريطانيا أن تفرض نفوذها على أمريكا .

وفى نفس هذه الجلسة اتخذت خطوة نحو الثورة الأمريكية حين ألزم جيفرسون وزملاؤه من النواب فيرجينيا وهى أكبر المستعمرات وأكثرها سكاناً بمناصرة مساشوستس فى معارضة قوانين الدخل التى فرضها عليها تونزهند فهذه الرسوم الجمركية البرلمانية على الشاى والواردات الأخرى قد أعادت فتح المناقشة عن الضرائب التى بدأت بقانون الدمغة فى سنة ١٧٦٥ . ففى وليامزبيرج أعلن النواب حقهم فى فرض الضرائب على أنفسهم والحق فى الشكوى لإنصافهم . ولقد حل اللورد بوتيتورت – الحاكم الملكى – المجلس مباشرة . ولكن فى اليوم التالى اجتمع جيفرسون الشاب وزملاؤه فى قاعة أبولو فى حانة رالى وهنالك تعاهدوا على مقاطعة الواردات البريطانية حتى تلغى القوانين المعتدية عليهم :

وكان هذا الاجتماع الأول من بين اجتماعات ثورية مشابهة كثيرة أقيمت فى حانة رالى حيث رقص جيفرسون مع ربيكا بيرويل فى الأيام المرحة . وفى أثناء سنى الاحتجاج ضد الاعتداءات المتصلة من بريطانيا فى عهد حكومة المحافظين كان النواب الأكثر شباباً وتطرفاً يقادون بوساطة باتريك هنرى بخطابته الهومرية وجيفرسون الشاب

بقلمه البليغ العالم : وإن رسالة جيفرسون المشهورة التى كتبها فى سنة ١٧٧٤ بعنوان « نظرة موجزة لحقوق أمريكا البريطانية » كانت أجرأ إعلان كتب حتى ذلك الوقت عن الحقوق الأمريكية . حتى لقد اعتبرها مؤتمر فيرجينيا نفسه شديدة التطرف . ومع ذلك أتيح لجيفرسون قبل مرور عامين أن يعطى فلسفتها تعبيراً كلاسيكياً فى إعلان الاستقلال الأمريكى .

ففى الرسالة « نظرة موجزة » اخترق المحامى الشاب من البمارك الضباب المظلم الذى نسجته المغالطات القانونية وأنكر فى خشونة على البرلمان أى سيطرة مهما كانت على المستعمرات . فأعلن أن المستعمرين فى ممارستهم لحقوقهم الطبيعية قد هاجروا إلى العالم الجديد وهنالك أقاموا حكومات مستقلة عن البرلمان البريطانى . وإذ أن الرابطة الوحيدة التى تربطهم ببريطانيا تقوم على الهيئة التنفيذية المشتركة فى شخص الملك فإن جميع القوانين البريطانية التى تمس التجارة والصناعات الأمريكية كانت هجمات عابثة على الحقوق الطبيعية والدستورية وعدد جيفرسون هذه الاغتصابات البرلمانية وأحصى من المظالم ضد الملك جورج نفسه ما ظهر بعدئذ فى « إعلان الاستقلال » وفى لغة فصيحة واضحة أنذر جورج الثالث وحذره وهدده بأنه ما لم تلغ هذه القوانين وما لم تمتنع هذه المظالم فإنه سيتعرض لفقدان ممتلكاته الأمريكية .

ولقد أتبع جيفرسون هذه الرسالة التى قرئت على نطاق واسع برسالته « الرد على اللورد نورث » Lord North وهى تعبير رائع كذلك عن الحقوق الأمريكية وقد رفض فيها اقتراحات رئيس وزراء الملك جورج غير المرضية . وقد دفعت به هذه الكتابات إلى المقدمة فى ميدان السياسة الثورية . فحين دخل « مؤتمر القارة » فى فيلادلفيا سنة ١٧٧٥ طلب إليه زملاؤه مباشرة أن يساعد على صياغة مسودة الإعلان عن أسباب حمل السلاح وضرورة ذلك ، وكان الدم قد أريق فى الدفاع عن الحقوق الأمريكية وكان فلاحو نيوا نجلاند New England المجهزون للقتال يحاصرون حينئذ الجيوش البريطانية فى بوستون . ومع أن أفكار جيفرسون كانت تعد شديدة التطرف إلا أن بعضها ضُمِّن فى المسودة التى أعدها فى النهاية جون ديكنسون John Dickinson من بنسلفانيا وأن الفقرات الختامية التى زعم ديكنسون أنها من

كتابته كانت تحمل طابع جيفرسون فى اللهجة والأسلوب والقوة وهذه الفقرات الختامية هى التى أوحت إلى الجيوش الأمريكية المعسكرة حول بوستون أن تصيح بتأييدها فى هتافات مدوية .

وفى الوقت نفسه أعقبت معركة « بنكر هل » Bunker Hill المناوشات فى لكسنجتون Lexington وكونكورد Concord وقد ابتدأ الحاكم الملكى لورد دنمور Lord Dunmore أعمال العداء فحاول تحريض الرقيق على الثورة وسلك هو نفسه مسلكاً وحشياً واستفزازياً أثار الأمريكيين حتى « الجنون الكامل » . وقد عبر جيفرسون فى خطابات قوية إلى أحد أقاربه من المحافظين عن أمله فى أن تضع حكمة بريطانيا العظمى قبل مرور وقت طويل حداً لهذا النزاع غير الطبيعى . ولكن جميع آمال الصلح قد حطمت فى قسوة فإن حملة دامية كانت توشك أن تبدأ . إذ « تحت رعاية » جورج الثالث أخذت المعركة لرفع المظالم تتحول بسرعة إلى حرب من أجل الاستقلال . وكانت هذه هى الحال فى نهاية سنة ١٧٧٥ كما يصفها شاب من فيرجينيا دخل قبل ذلك بست سنوات مجلس نواب المستعمرة ووجه ضربته الأولى إلى النظام الاستعمارى فى عهد جورج الثالث .

السياسة فى مستعمرة فيرجينيا الملكية

أصبحت فى سنة ١٧٦٩ عضواً فى الهيئة التشريعية باختيار المقاطعة التى أعيش فيها وظللت كذلك إلى أن أغلقت الهيئة بوساطة الثورة . وقمت بمحاولة واحدة فى تلك الهيئة لإجازة تحرير الرقيق ولكنها رفضت وفى الحق أنه لم يكن لشىء تحررى أن ينتظر النجاح فى عهد الحكومة الملكية . فعقولنا كانت محصورة فى حدود ضيقة وذلك بالاعتقاد التقليدى أنه من واجبنا أن نكون تابعين للبلد الأم فى جميع شئون الحكم وأن نوجه كافة جهودنا لخدمة مصالحها حتى لقد طلب إلينا أن نرعى عدم التسامح المتعصب نحو كل الأديان ما عدا دينها .

وان المصاعب التى واجهها نوابنا كانت ناشئة عن العادة واليأس لا عن التأمل والاعتقاد وسرعان ما أثبتت التجربة أن فى استطاعتهم أن يصححوا تفكيرهم عند

أول نداء لاسترعاء انتباههم . ولكن الأعضاء في مجلس الملك الذي كان يعمل كمجلس من الهيئة التشريعية كانوا يشغلون مناصبهم بإرادة الملك وكانو يطيعون طاعة متضعة تلك الإرادة . كما أن الحاكم الذى كان له حق الرفض لقوانيننا كان يستمد منصبه من نفس المصدر ويمنحه ولاء أعظم . وقد أغلق الرفض الملكى الباب الأخير أمام كل أمل فى الإصلاح .

بذور الحرب

إننا نقتفى هنا أثر بذور الحرب ونتتبعها إلى مصدرها الحقيقى : فالتعليم المحافظ الذى تلقاه الملك كان الإعداد الأول لذلك التغيير الذى طرأ على الحكومة البريطانية والذى لم يكف حزب المحافظين أبدا عن الرغبة فى حدوثه . وبالطبع فإن هذا قد أمن الوزارات من حزب المحافظين فى أثناء حياة الملك . ففى اللحظة التى تولى فيها العرش بدأت بوادر السيطرة على أمريكا باسم الحق الذى لبريطانيا عليها وهو حق لا يدعمه مبرر واحد ، وقد كانت سيطرة صارخة . وتبع الواحد الآخر بشكل يثبت أنها جزء من نظام يقصــــد به إما إخضاع أمريكا تحت الحكم المطلق وجعلها أداة لمحاولات الاعتداء على بريطانيا نفسها أو فصلها عن بريطانيا حتى لا ترجح كفة ميزان حزب الهويج من الأحرار . ولكن الاحتمال الأخير لم يعتبر الاحتمال القريب الحدوث ، إذ كانت معرفتهم بأمريكا محدودة جدا حتى لقد كانوا يظنون أنها غير قادرة على أن تواجه الإصبع الصغيرة لبريطانيا العظمى .

أما السؤال : من بدأ الثورة ؟ فهو صعب صعوبة السؤال عن المخترعين الأوائل لكثير من الأشــياء الطيبة . فمثلا من اكتشف أولا مبدأ الجاذبية ، لم يكن نيوتن المكتشف لأن جاليليو الذى مات فى السنة التى ولد فيها نيوتن قاس قوتها فى هبوط الأجسام .

والواقع أن فكرة جديدة تؤدى إلى فكرة جديدة أخرى ، وأن الثانية تؤدى إلى ثالثة ، وهكذا يستمر ذلك مدة من الزمن حتى يأتى شخص لا يبدع فكرة من هذه الأفكار وإنما يجمعها جميعا وينتج ما يسمى بحق اختراعا .

وإنى أظن أنه من الصعب تعقب ثورتنا إلى جرثومتها الأولى كما هى الحال مع المخترعات . . . والحقيقة فيما أظن أن المقاومة فى كل مستعمرة بدأت عندما ووجهت بالاعتداء على حقوقها . وأن مسألة الأسبقية أشبه بالبحث عن الشخص الأول الذى قدم اسمه إلى ليونيداس Leonidas من بين الثلاثمائة الإسبرطى ؟

أحرار الشباب يتولون القيادة

لقد دعا الحاكم اللورد بوتيتورت المجلس العام للانعقاد فى مايو سنة ١٧٦٩ ... وفى هذا الاجتماع أعلن الخطاب والقرارات المشتركة التى أقرها مجلس اللوردات والعموم فى سنة ١٧٦٨ — ١٧٦٩ بشأن الإجراءات التى اتخذت فى مساشوستس . وقد وافق مجلس النواب مع معارضة قليلة على قرارات مضادة وعلى خطاب الملك وتجلت روح تستهدف اعتبار قضية مساشوستس قضية عامة مشتركة . فحل الحاكم المجلس ولكنا اجتمعنا فى اليوم التالى بقاعة أبولو فى حانة رالى وعقدنا أنفسنا على هيئة مؤتمر اختيارى ووضعنا شروط الاشتراك ضد استعمال أية بضائع مستوردة من بريطانيا العظمى ووقعنا عليها وزكيناها إلى الشعب وعدنا إلى أقاليمنا المختلفة ثم أعيد انتخابنا دون أى استثناء آخر سوى أولئك القلة الذين رفضوا الموافقة على إجراءاتنا .

وإذ أنه لم يحدث شىء مثير لمدة طويلة فقد بدا أن مواطنينا أصبحوا فى حالة من عدم التأثر بموقفنا . فلم تكن الضريبة على الشاى قد ألغيت بعد وما يزال القانون يخل البرلمان يلزمنا بقوانينهم فى جميع الحالات مهما تكن مجحفة بنا ، ولكن أقيمت محكمة تحقيق فى رود ايلاند فى سنة ١٧٧٢ لها السلطة فى أن تبعث بأشخاص إلى انجلترا ليحاكموا لجرائم ارتكبت هنا فاعتبرت فى جلستنا فى أثناء ربيع سنة ١٧٧٣ أمراً يستوجب الانتباه .

ولما كنا نرى أن الأعضاء القدماء وأصحاب الزعامة فينا قد بلغوا من الجرأة والحماسة ما يكفى لمواجهة الأيام التى نخوضها ، فقد اتفق مستر (باتريك) هنرى وريتشارد هنرى لى وفرانسيس لى ومستر داتنى كار وأنا على أن نلتقى فى المساء فى

غرفة خاصة من غرف حانة رالى لنتشاور فى ظروف الموقف. وربما كان معنا عضو أو عضوان آخران لا أذكرهما .

من أجل وحدة التصرف فى القارة الأمريكية

لقد أدركنا جميعا أن الإجراء الأول بين كل الإجراءات التى نحن محتاجون إلى تنفيذها هو أن نصل إلى تفاهم مع المستعمرات الأخرى كافة على أن ننظر إلى المطالب البريطانية كقضية مشتركة خاصة بنا جميعاً وأن نحقق وحدة فى التصرف والعمل . وقد رأينا لأداء هذا الغرض أن وجود لجنة مراسلة فى كل مستعمرة هو خير أداء لتبادل الاتصال ، وأن الإجراء الأول الذى تقوم به قد يكون اقتراح اجتماع للمندوبين من كل مستعمرة فى مكان مركزى وأن يكلف هؤلاء المندوبون بالإشراف على الإجراءات والتدابير التى يتخذها الجميع .

ولذلك وضعنا القرارات واقترح الأعضاء المستشارون علىّ أن أقدمها إلى المجلس ، ولكنى طلبت فى إصرار أن يقوم بذلك المستر كار Carr صديقى وصهرى إذ كان حينئذ عضوا جديدا ووددت أن أهيئ له فرصة ليعرف المجلس جدارته ومواهبه العظيمة . فوافق المجتمعون على ذلك ومن ثم اقترح تلك القرارات وتمت الموافقة عليها بالإجماع وعينت لجنة مراسلة على رأسها بيتون راندولف Peyton Randolph رئيس مجلس نواب المستعمرة . فأصدر الحاكم حينئذ (اللورد دنمور) أمراً بحل مجلسنا ولكن اللجنة اجتمعت فى اليوم التالى وأعدت خطاباً دورياً إلى رؤساء مجالس النواب فى المستعمرات الأخرى مرفقة مع كل خطاب نسخة من القرارات وتركتها فى عهدة رئيسها ليرسلها بالبريد السريع ...

فن الثورة

وكان الحدث التالى الذى أثار عطفنا على مساشوستس هو قانون ميناء بوستون Boston Port Bill الذى تقرر به أن يغلق ذلك الميناء فى أول يونيه سنه ١٧٧٤ ، وقد بلغنا نبؤه حين كنا مجتمعين فى مجلس النواب فى ربيع ذلك العام .

ولما كانت الزعامة في المجلس بشأن هذه الموضوعات لم تعد متروكة للأعضاء الكهول فإنني ومستر هنرى و ر . ه . لى R. H. Lee وثلاثة أو أربعة من الأعضاء الآخرين الذين لا أذكرهم اتفقنا على أن نقف بشجاعة موقفا لا يتزعزع إلى جانب مساشوستس وقررنا أن نلتقى ونتشاور فى التدابير المناسبة بغرفة المجلس للإفادة من المكتبة الموجودة بتلك الغرفة . وكنا على اعتقاد بضرورة إيقاظ شعبنا من الخمول الذى اعتراه فى موقفه من الحوادث الجارية ورأينا أن تعيين يوم للصوم والصلاة العامة سيكون أدعى إلى إثارة اهتمامهم وهزه هزة عنيفة .

لم يكن بين أيدينا شبيه لهذه الأعمال التى تتسم بالخشوع والقداسة منذ أيام متاعبنا فى حرب ١٧٥٥ ، وقد شب جيل جديد منذ ذلك الوقت يجهل هذه السوابق ، ولذلك فإننا بحثنا عن رشورث جامع الوثائق المتصلة بالحرب الأهلية الإنجليزية من ١٦٤٢ — ١٦٤٩ بين شارل الأول والبرلمان كى يعهد بنا إلى السوابق والنظم الثورية التى أخذ بها البيوريتان فى ذلك الوقت وكان رشورث قد حفظ سجلاتها حتى إذا وجدناه صغنا قراراً فى أسلوب حديث لتعيين أول يونية الذى يبدأ فيه تطبيق قانون الميناء يوما للصوم والخشوع والصلاة لندعو الله أن يجنبنا شرور الحرب الأهلية وإن يلهمنا الثبات فى نصرة حقوقنا وأن يهدى قلوب الملك والبرلمان إلى الاعتدال والعدل .

ولنضفى تأكيدا أعظم على قرارنا اتفقنا على أن ننتظر فى الصباح التالى مستر روبرت كارتر نيكولاس الذي تناسب شخصيته الجادة المتدينة صفة قرارنا وأن نرجوه أن يقوم باقتراحه فى المجلس . فذهبنا إليه فى نفس هذا الصباح . وقدم القرار فى نفس اليوم واقترح أول يونية موعدا لتنفيذه فووفق عليه دون معارضة . وقد حل مجلسنا الحاكم كالعادة .

أشبه بالصدمة الكهربية

ولقد أوينا إلى صالة أبولو كما فعلنا من قبل ، واتفقنا على إقامة اجتماع ، وأخبرنا لجنة المراسلة أن تقترح على اللجان المماثلة فى المستعمرات الأخرى أن تعين

مندوبين ليجتمعوا على هيئة مؤتمر فى المكان الذى يتيسر لهم سنويا ليوجهوا من وقت إلى آخر التدابير التى تستلزمها المصلحة العامة .

وقد قررنا أن أى هجوم على مستعمرة من المستعمرات يعد هجوما على كل المستعمرات . وكان هذا فى مايو سنة ١٧٧٤ واقترحنا أيضاً على الأقاليم المختلفة أن تنتخب مندوبين عنها ليجتمعوا فى وليامزبيرج أول أغسطس المقبل للنظر فى حالة المستعمرة وخاصة لتعيين أعضاء وفد إلى المؤتمر العام ان وافقت لجان المراسلة عامة على ذلك الإجراء . وقد ووفق عليه وعينت فيلادلفيا مكانا للاجتماع والخامس من سبتمبر زمانا لانعقاده .

ثم عدنا إلى بيوتنا ودعونا فى الأقاليم المختلفة رجال الدين ليقابلوا اجتماعات الشعب فى أول يونيه ليؤدوا طقوس اليوم وليلقوا عليهم خطبا تناسب الموقف : واجتمع الناس جميعهم وقد بدا على وجوههم القلق والذعر فكان تأثير اليوم فى جميع أنحاء المستعمرة أشبه بصدمة كهربية أيقظت كل رجل ووضعته فى وضع مستقيم ثابت على جذعه . واختاروا فى كل مكان مندوبين عنهم للمؤتمر . وإذ أننى اخترت مندوبا عن إقليمى فقد أعددت مسودة تعليمات تعطى للمندوبين الذين نرسلهم إلى المؤتمر الذى قصدت اقتراحه فى اجتماعنا .

الحقوق الأساسية لأمريكا البريطانية

ولقد أخذت فى هذا الأمر بالرأى الذى اعتقدت من أول الأمر أنه الرأى الصائب الخليق بأن يدافع عنه وهو أن العلاقة بين بريطانيا العظمى وهذه المستعمرات هى نفس العلاقة التى كانت بين إنجلترا واسكتلندا بعد اعتلاء جيمز العرش واستمرت حتى الاتحاد وهى نفس العلاقة التى تقوم بين انجلترا وهانوفر فى الوقت الحاضر فكلاهما يشترك فى نفس الرئيس التنفيذى ولكن دون رابطة سياسـية ضرورية أخرى . وإن هجرتنا من انجلترا إلى هذه البلاد لم يعطها أية حقوق علينا أكثر مما أعطته هجرات الدينز Danes والسكسون من حقوق للسلطات القائمة الآن فى البلاد التى نزحوا منها على انجلترا

ومع ذلك فلم أستطع مطلقاً أن أقنع أحداً بالاتفاق معي على هذه النظرية سوى المستر ويذ فقد وافق عليها من اللحظة الأولى التي سألنا فيها أنفسنا هذا السؤال: «ما هي الصلة السياسية بيننا وبين انجلترا ؟» أما مواطنونا الآخرون راندولف و ر . هـ . لي وف . ل . لي ونيكولاس Nicholas وبندلتون Pendelton فقد وقفوا عند منتصف الطريق مع جون ديكنسون الذي أقر بأن انجلترا لها الحق في تنظيم تجارتنا وفرض الضرائب عليها لأغراض التنظيم لا لأغراض الحصول على موارد للدخل . ولكن ليس هنالك أساس لهذا الرأي في التعاقد حسب أي مبدأ معترف به من مبادئ الاستعمار أو العقل؛ فالمهاجرة حق طبيعي وقد سارت عليه جميع الأمم في جميع العصور .

ولقد بدأت الرحلة إلى وليامزبيرج قبل اليوم المحدد لاجتماعنا ببضعة أيام ولكن أصابني المرض بالدوسنتاريا في الطريق وعجزت عن مواصلة السفر . ولذلك أرسلت إلى وليامزبيرج نسختين من مسودتي : إحداهما إلى بيتون راندولف الذي كنت أعرف أنه سيرأس المؤتمر ، والأخرى إلى باتريك هنري . وسواء أوافق المستر هنري على الرأي الذي ناديت به أم بلغ به الكسل درجة حالت دون قراءة المسودة (لأنه كان أكسل رجل عرفته في القراءة) فإنه لم يخبر بها أحداً ، ولم أعرف مطلقاً ما دفعه إلى ذلك .

وقد أخطر بيتون راندولف المؤتمر بأنه تسلم هذه المذكرة من عضو منعه المرض من تقديمها ووضعها على المائدة للاطلاع عليها . وقد قرأها الأعضاء على وجه العموم ووافق عليها الكثيرون ولو أنه رئي أنها جريئة إلى درجة تتجاوز الحالة الراهنة للأشياء ولكنهم طبعوها في شكل رسالة تحت عنوان « نظرة موجزة إلى حقوق أمريكا البريطانية » .

إن الله الذي وهبنا الحياة وهبنا الحرية

وقد اختتم جيفرسون « النظرة الموجزة » قائلا إن هذه هي مظالمنا التي وضعناها أمام صاحب الجلالة بتلك الحرية في اللغة والعاطفة التي تناسب شعباً حراً يطالب بحقوقه وانها تستمد عناصرها من قوانين الطبيعة ولا تستمنحها كهبة من هبات حاكمه الأعلى :

ودع أولئك الذين يخشون ويتزلفون فالتزلف ليس فناً أمريكياً . فإزجاء الثناء فى غير موضعه قد يكون مقبولا من الدنئ ولكنه لا يليق بأولئك الذين ينادون بحقوق الطبيعة الإنسانية . انهم يعرفون ولذلك يقولون إن الملوك خدم للشعب لا ملاكه . افتح صدرك ياسيدى للفكر التحررى المنبسط ولا تدع اسم جورج الثالث يكون نقطة سوداء فى صفحة التاريخ . . ففن الحكم كله يقوم على الفن فى أن يكون الواحد أميناً . واستهدف فقط أداء واجبك وسينصفك الناس وإن فشلت . ولا تعمل على تضحية حقوق جزء من الامبراطورية من أجل الرغبات المتطرفة لجزء آخر : ولكن أعط للجميع حقاً متساوياً غير متحيز . ولا تدع قانوناً تضعه هيئة تشريعية معينة ينتهك حقوق هيئة تشريعية أخرى وحرياتها .

إن هذا هو المنصب الهام الذى وضعك فيه القدر لتمسك بالميزان لامبراطورية عظيمة إن أحسن توازنها . وهذه يا سيدى نصيحة مجلسك الأمريكى العظيم وقد تتوقف على اتباعها سعادتك وشهرتك فى المستقبل وصيانة ذلك الانسجام الذى يستطيع أن يضمن لكل من بريطانيا العظمى وأمريكا استمرار المزايا المتبادلة التى تصدر عن ارتباطهما .

إنا لا نرغب فى الانفصال عن بريطانيا العظمى ، كما أن ذلك ليس من صالحنا ، ونحن على استعداد من جانبنا لأن نضحى بكل شىء يتطلبه العقل لإعادة ذلك الهدوء الذى يجب على الجميع أن يرغبوا فيه . أما من جانبهم فدعهم يكونوا على استعداد لأن يقيموا الاتحاد بيننا على أساس خطة كريمة . دعهم يذكروا شروطهم ولكن دعهم يكونوا عادلين . اقبل كل تفضيل تجارى فى استطاعتنا أن نعطيه فيما يتصل بالأشياء التى نستطيع إنتاجها لاستعمالهم أو يصنعونها لاستعمالنا . ولكن لا تسمح لهم بأن يفكروا فى إبعادنا عن الذهاب إلى الأسواق الأخرى لنتصرف فى تلك السلع التى لا يستطيعون أن يستعملوها أوفى تموينا بتلك الحاجات التى لا يستطيعون تموينا بها ، ولا تدعهم يقترحوا أن تخضع أملاكنا داخل حدود أراضينا لأى سلطة على وجه الأرض سوى سلطتنا فى تنظيمها أو فرض الضرائب عليها . فالله الذى وهبنا الحياة وهبنا الحرية فى الوقت نفسه، وإن يد العنف قد تدمرهما ولكنها لا تستطيع أن تفصلهما ؛

وإن هذا يا سيدى هو قرارنا الذى صممنا عليه ، وإن الدعاء الحار الذى تردده أمريكا البريطانية هو أن يسرك أن تتدخل بنفوذك وجهودك لتحصل على إنصاف مظالمنا الكبيرة ولتنشر الاطمئنان بين رعاياك فى أمريكا البريطانية وتؤمنهم من مخاوف الاعتداء عليهم فى المستقبل . وأن يسرك كذلك أن تقيم الحب والانسجام الأخوى فى جميع أنحاء الامبراطورية وأن يستمر ذلك إلى آخر عصور الزمن .

من أجل هذه الرسالة نال شرف اعتباره زعيم المتمردين

ولقد وجدت هذه الرسالة طريقها إلى انجلترا وتبنتها المعارضة فعدلها المستر ادموند بيرك Edmond Burke ليجعلها تجيب أغراض المعارضة وقد نشرت فى تلك الصورة بسرعة فى عدة طبعات . . ولقد أبلغنى بعد ذلك بيتون راندولف أنها قد كسبت لى شرف قيد اسمى فى قائمة طويلة للمحرومين من حماية القانون وضعت فى مشروع قانون بالإعدام وفقدان الحقوق المدنية وقد بدأ عرضه فى مجلس من مجلسى البرلمان البريطانى ، ولكنه قمع فى مهده بتدفق الحوادث السريع الذى أنذرهم بأن يكونوا حذرين إلى حد ما . وأظن أن الأسماء التى ذكرها لى كانت حول العشرين ولكنى أذكر فقط أسماء هانكوك Hancock وآدمز Adams وبيتون راندولف نفسه وباتريك هنرى وأنا .

ولقد اجتمع المؤتمر فى أول أغسطس وجدد أعضاؤه اتحادهم وعينوا مندوبين عنهم إلى الكونجرس الممثل للقارة وأعطوهم تعليمات عبروا عنها باعتدال ولباقة فيما يتصل بالأسلوب والموضوع ثم ذهبوا إلى فيلادلفيا فى الوقت المعين . وان الأعمال الرائعة لذلك الكونجرس فى اجتماعه الأول أصبحت من التاريخ العام ، وهى معروفة لكل واحد ولا حاجة إذن لتدوينها هنا وقد انتهوا من اجتماعهم فى ٢٦ من أكتوبر ليجتمعوا مرة ثانية فى ١٠ من مايو الذى يليه .

ولقد وافق أعضاء المؤتمر فى اجتماعهم التالى فى مارس سنة ١٧٧٥ على أعمال الكونجرس وشكروا مندوبيهم وأعادوا تعيين نفس الأشخاص ليمثلوا المستعمرة فى الاجتماع الذى سيعقد فى مايو ، وإذ رأوا احتمال استدعاء بيتون راندولف رئيسهم ورئيس مجلس النواب كذلك فقد أضافونى كذلك إلى وفد المندوبين .

ألتقى بالكماب « فصوص النرد » فى لكسنجتون وكونكورد

ولقد بلغتنا فى هذا الأسبوع (٧ من مايو سنة ١٧٧٥) الأنباء غير السارة عن اشتباك ذى أهمية كبيرة بين جيوش الملك وإخواننا من أهل بوسطون قيل إنه قتل فيه خمسمائة من جنود الملك ومن بينهم إيرل برسى Earl of Percy فقطع هذا الحادث أملنا الأخير فى الصلح ، وبدا أن جنون الانتقام قد استحوذ على جميع طبقات الشعب ، وإنها لحالة محزنة أن السلطة التى يعترف بها الطرفان ويمكن لها أن تقوم بالتوسط قد تخلت عن مهمتها وسارت فى الطريق المتفجر بأن أخذت تنفخ فى اللهب فذلك ما يفعله الملك دائما فى كل خطاب وتصريح بدلا من أن يقود شعبه المنقسم إلى الصلح وربما كان القصد من ذلك تخويف الأمريكيين حتى يسلموا ولكن الأثر لسوء الحظ كان غير ذلك . . .

وعندما رأيت قانون اللورد تشاتام Lord Chatham أحسست بأمل كبير فى أنه من الممكن الوصول إلى صلح ، ولكن يبدو أن كرامة البرلمان البريطانى ما كانت لتحتمل وتصبر على أية معارضة لسلطتها . ومن الغريب أن جماعة من الناس ممن باعوا فضيلتهم لرئيس الوزارة يتحدثون مع ذلك عن احتفاظهم بالكرامة ! !

منتصر على الأشخاص المترددين المثبطين للهمم

واضطر مستر راندولف Randolph كما توقعنا لأن يترك رياسة الكونجرس الممثل للقارة ليحضر المجلس العام فى مستعمرتنا الذى دعاه اللورد دنمور للانعقاد فى اليوم الأول من يونية سنة ١٧٧٥ . إذ تسلم حاكم المستعمرة مقترحات اللورد نورث الاسترضائية كما كانت تسمى وقدمها لتكون موضوع المناقشة الذى من أجله انعقد هذا الاجتماع . ومن ثم حضر مستر راندولف ؛ فقد كان من المعروف أن هذه المقترحات أرسلت إلى جميع الحكام وحرص على أن تكون إجابة مجلسنا ، وهى المحتمل أن تكون الأولى ، منسجمة مع ما عرف أنه العواطف والرغبات التى عبر عنها الكونجرس

الذى تركه حديثا وخشى أن يعد الإجابة مستر نيكولاس الذى لم يرتفع فكره إلى مستوى الظروف ولذلك ضغط علىّ فى أن أعد الإجابة بنفسى .

وقد فعلت ذلك وبمساعدته وافق المجلس على الإجابة بعد شكوك طويلة ومريبة من المستر نيكولاس وجيمز ميرسر James Mercer وألقى عليها « دش » ماء بارد صب عليها من هنا وهناك فأضعفها قليلا ولكن ووفق عليها بالإجماع أو بأغلبية تقرب منه . وعندما انتهينا عدت مباشرة إلى فيلادلفيا وحملت إلى الكونجرس أول نبأ بلغهم عن ذلك . ووفق على هذه الإجابة موافقة تامة ؛

وأخذت مكانى معهم فى ٢١ من يونية . وفى ٢٤ من يونية قدمت اللجنة التى سبق تعيينها لإعداد بيان بأسباب حمل السلاح تقريرها . (وأعتقد أن جون رتلدج John Rutledge هو الذى أعده) ولما لم يلق قبولا أعاده المجلس إلى لجنة أخرى فى ٢٦ من يونيه وأضافنى أنا ومستر جون ديكنسون إلى اللجنة . فأعددت مسودة للبيان الذى عهد به إلينا ولكنها بدت متطرفة بالنسبة للمستر ديكنسون لأنه كان لا يزال يحتفظ بأمل الصلح مع البلد الأم وكان غير راغب فى أن يضعف هذا الأمل بالبيانات الهجومية . ولقد كان رجلا أمينا جدا ، وذا كفاية إلى درجة جعلته مقدرا حتى من الذين لا يستطيعون استشعار شكوكه . ولذلك رجوناه أن يأخذ الورق وأن يضع البيان فى صورة يستطيع الموافقة عليها ففعل ذلك وأعد بيانا جديدا كاملا واحتفظ من مسودة البيان السابق الذى أعددته ، بالفقرات الأخيرة الأربع ونصف الفقرة فقط . فوافقنا وقدمنا البيان الجديد إلى الكونجرس فقبله .

لماذا نحمل السلاح

ولقد وجدنا أنفسنا أمام اختيار موقف من موقفين : الخضوع غير المشروط لاستبداد الوزراء الحانقين ، أو المقاومة بالقوة . وقد اخترنا الموقف الثانى . (وهكذا وضحت فقرات جيفرسون فى « البيان عن أسباب وضروة حمل السلاح فى ٦ من يولية سنة ١٧٧٥ ») ، لقد أحصينا ثمن هذا النزاع ولم نجد شيئاً أشنع من الرق الاختيارى ؛ فالشرف والعدل والإنسانية تمنعنا من أن نسلم دون دفاع عن تلك

الحرية التى تسلمناها من أجدادنا الشجعان والتى لأحفادنا الأبرياء الحق فى أن يتسلموها منا . ولن نستطيع أن نتحمل العار وجريمة تسليم الأجيال المقبلة لتلك التعاسة التى لا مفر من أن تنتظرهم لو أننا فرضنا الاستعباد الوراثى فى وضاعة عليهم .

إن قضيتنا عادلة . وإن اتحادنا تام ومواردنا الداخلية عظيمة كما أن من الممكن الحصول على العون الأجنبى إذا كان ذلك ضرورياً . وإنا لنعترف بحمد الله لرعايته لنا إذ أن العناية الإلهية لم تسمح بأن نستدعى لهذا الصراع الشاق أجنبياً حتى نمونا وبلغنا قوتنا الحاضرة وتدربنا من قبل فى الأعمال الحربية وامتلكنا وسائل الدفاع عن أنفسنا . وبقلوب محصنة بهذه التأملات المقوية نعلن فى جد أمام الله والعالم أننا فى استخدامنا إلى أقصى حد ممكن تلك القوى التى أنعم بها الخالق المحسن علينا سنستخدم الأسلحة التى أجبرنا أعداؤنا على أن نحملها للمحافظة على حرياتنا فى تحد لكل خطر وبثبات ومثابرة لا تهن وذلك لأننا برأى واحد قد عقدنا العزم على أن نفضل الموت أحراراً على أن نعيش أرقاء .

إنا لا نحارب من أجل المجد أو الغزو

وحتى لا يزعج هذا البيان عقول أصدقائنا وزملائنا المواطنين فى أى جزء من أجزاء الإمبراطورية فإننا نؤكد لهم أننا لا نقصد إلى حل ذلك الاتحاد الذى ظل بيننا طويلا موفقا والذى نرغب صادقين فى أن نراه يعود . فالضرورة لم تدفعنا بعد إلى اتخاذ ذلك الإجراء اليائس كما لم تغرنا بأن نحرض أية أمة أخرى على الحرب ضدهم . ولم نجمع الجيوش عن تدبير طامح إلى فصلنا عن بريطانيا العظمى وإنشاء ولايات مستقلة . إنا لا نحارب من أجل المجد أو الغزو ولكننا نعرض على العالم المنظر الرائع لشعب يهاجمه أعداء لم يستفزهم ، دون أى اتهام أو حتى شك فى الاعتداء منهم : إنهم يفاخرون بامتيازاتهم وحضارتهم ومع ذلك فهم لا يقدمون إلا شروطا تتأرجح بين الرق والموت .

فنى أرض وطننا للدفاع عن الحرية التى هى حق الميلاد والتى استمتعنا بها دائما حتى الاعتداء الأخير عليها ولحماية ملكنا الذى حصلنا عليه فقط بالجهد الأمين الذى بذله آباؤنا وبذلناه نحن ولمقاومة العنف الذى لقيناه فعلا قد حملنا السلاح . وسنضع هذا السلاح حين تقف أعمال العداء من جانب المعتدين ويزول كل خطر من تجددها وليس قبل ذلك .

وفى ثقة متواضعة برحمة قاضى العالم وحاكمه الأعلى النزيه نبتهل فى قداسة وتبجيل إلى مكارمه الإلهية أن تحمينا ، فى توفيق ، خلال هذا الصراع العظيم ، وأن تميل بأعدائنا إلى الصلح بشروط معقولة وبذلك ننقذ الإمبراطورية من مصائب الحرب الأهلية .

بنكرهيل وأولئك الأمريكيون البواسل

إن معلوماتنا عن وصف المعركة قد أصبحت واضحة ومرضية لنا إلى حد كبير. فعلى عكس ما يحدث غالبا كانت المعلومات الأولى أقل من الحقيقة ومن المؤكد الآن أن الجنود النظاميين قد قتل وجرح منهم بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ فى ذلك الاشتباك، وأن خمسمائة من هؤلاء قتلوا . وكان الصاغ بيتكيرن **Pitcairn** بين القتلى ففرح كل واحد لهذا النبأ لأنه كان الضابط القائد فى لكسنجتون **Lexington** وكان أول من أطلق النار هنالك وأعطى الأمر بإطلاق النار . . .

ويجهز سكان نيوانجلاند قوارب حرب صغيرة نأمل أن نستطيع بوساطتها أن تنظف البحار والخلجان هنا من كل شيء أصغر من سفن الحرب الكبيرة ، بل انها ستزور شواطىء أوربا وتضايق التجارة البريطانية فى كل جزء من أجزاء العالم . ان العبقرية والبسالة المغامرة لهؤلاء الناس مدهشة ، وهم الآن مصممون على حرق بوسطون كخلية تهيىء مكمنا لجنود بريطانيا النظاميين ، وليس هنالك من هم أكثر تصميماً على هــذا من نفس الأشخاص الذين أتوا منها والذين يوجد رخاؤهم فيها .

إلى صديق من المحافظين : هل سينتهي الشقاق إلى انفصال أبدى ؟

كتب جيفرسون إلى جون راندولف فى أغسطس سنة ١٧٧٥ :

إنى آسف إذ أن حالة بلادنا قد جعلت من غير المناسب لك أن تبقى أكثر من ذلك فيها وآمل أن تعود بريطانيا العظمى وتضع — قبل وقت طويل — حدا لهـذا النزاع غير الطبيعى. وهناك من الناس من يرضى النزاع أخلاقهم وميولهم ويرغبون من أجل ذلك فى استمرار الاضطراب ، أما بالنسبة لى فهذه الحالة أشنع شىء عندى فرغبتى الأولى هى عودة حقوقنا العادلة ورغبتى الثانية عودة العهد السعيد حين أستطيع بعد أداء واجبى أن أسحب نفسى كلية من المسرح العام وأن أقضى بقية أيامى فى راحة وهدوء بيتى مبعداً كل رغبة فى استماع ما يجرى فى العالم . وربما — لأن الرغبة الثانية تضيف كثيراً إلى حرارة الرغبة الأولى — ولأنى أرتقب بشغف الصلح مع بريطانيا فإنه لا يسعنى إلا أن آمل أن تستطيعوا المساهمة فى تيسير هـذا العمل الطيب .

وإنى أود ألا يغرى الوزارة أى إحساس زائف بالشرف ، أو أى جهل بمقاصدنا الحقيقية ، أو أى أمل لا جدوى منه فى قبولنا لمنح جزئية بأن تعبث بفرصة التوفيق حتى تفوت تلك الفرصة ويصبح الوصول إلى توفيق أمرا خارجا عن قدرتها . وإذا ما كانت بريطانيا العظمى وهى منفصلة عن مستعمراتها ندا لأقدر أمم أوروبا حقاً فإن تلك الأمم ستظل آمنة إن انضمت إليها المستعمرات . ولكن إن كانت غير واثقة من هذا فمن المؤكد أنه ليس من الحكمة أن تدفعنا بريطانيا بشنها حملة أخرى إلى أن نقبل العون الأجنبى الذى قد لا يمكن الحصول عليه إلا بشرط الانفصال الدائم عن بريطانيا العظمى ؟

وإن هذه الحالة صعبة لدى أولئك الذين لا يزالون يرغبون فى العودة إلى الوحدة مع الموطن الأب ، وأنا بكل إخلاص واحد من أولئك ، وأوثر أن أكون تابعا لبريطانيا العظمى — إذا كانت تلك التبعية محددة تحديدا مناسبا — عن أن أكون تابعاً لأية أمة فى الأرض أو ألا أتبع أمة على الاطلاق ، ولكنى أيضاً واحد من

أولئك الذين يؤثرون المشاركة فى إغراق الجزيرة البريطانية فى المحيط عن أن يخضعوا لحقوق التشريع التى يمارسها البرلمان البريطانى والتى أبانت التجربة الأخيرة أنه يمارسها فى قسوة عنيفة .

إننى أعبر عن عواطف أمريكا

(كتب جيفرسون إلى جون راندولف فى نوفمبر سنة ١٧٧٥) :

إنك ستسمع قبل أن يصلك هذا أن اللورد دنمور قد بدأ الأعمال العدائية فى فرجينيا ، وصبر الناس على كل شىء حتى حاول أن يحرق مدينة هامبتون Hampton فقاوموه وردوه بخسارة كبيرة لحقت به ، ودون أية خسارة تلحق بنا . وقد استثارهم هذا الاعتداء إلى حد الجنون التام . وإنه لسوء حظ عظيم للإمبراطورية جميعها أن يكون لها ملك على مثل هذا الخلق فى مثل هـــذا الوقت : إننا علمنا — وأثبت كل شىء صدق ما علمنا — أنه ألد أعدائنا وقد أخبرته ظلاماتنا فى بدء هذا النزاع أن ملكنا هو السلطة التى نستأنف إليها قضايانا ، وإنه إذا ما تخلى عن انصافنا فلن يكون أمامنا سوى الاستئناف فى نزاعنا إلى سلطة السلاح . ولكن نصيحتنا انتهت وفرض علينا ذلك الاستئناف وليس أمامه الآن سوى حقيقة واحدة يتعلمها ليقضى على امبراطوريته وهى أن المستعمرات بعد أن امتشقت الحسام ليس أمامها سوى خطوة واحدة تستطيع أن تأخذها بعد ذلك وأن تلك الخطوة قد فرضت علينا بالإجراءات التى اتبعت كأن الملك ووزراءه فى خوف من ألا نقدم على اتخاذها :

وصدقنى يا سيدى العزيز أن ليس هنالك فى الامبراطورية شخص يحب فى ترحيب أكثر من الاتحاد مع بريطانيا العظمى ، ولكن أقسم بالله الذى خلقنى إننى سأزول من الوجود قبل أن أسلم برابطة تقوم على مثل الشروط التى يقترحها البرلمان البريطانى ، وأعتقد أننى فى هذا أعبر عن عواطف أمريكا .

ولسنا فى حاجة إلى تحريض أو قوة لنقرر الانفصال ونعلنه ؛ فالإرادة وحدها

هى التى نفتقدها وتلك تنمو نموا كبيراً تحت رعاية ملكنا . وإن حملة دامية واحدة ربما تقرر إلى الأبد طريقنا فى المستقبل وآسف إذ أجد أن حملة دامية قد تقررت :

وإذا لم تتحد رياحنا ومياهنا لإنقاذ شواطئها من الرق وصلت القوات المنجدة للجنرال هاو General Howe فى أمن فلدينا آمال فى أنه سيتحمس ويخرج من بوسطون وينال ضربة ثانية . وعلينا أن نضربه ضربا قويا قبل أن يعرف الطاغية المتوج أننا لسنا مجرد بهائم نجثو تحت يده ونقبل العصا التى يعتزم أن يجلدنا بها .

الفصل الرابع

الحرية والسعى لبلوغ السعادة

وقد تقدمت الحركة الاستقلالية وقويت فى شتاء سنة ١٧٧٥ — ١٧٧٦ تحت ضغط الحوادث الاستفزازية ؛ إذ أعلن الملك جورج ووزراؤه من المحافظين أن أهل المستعمرات الأمريكية فى حالة ثورة دون احتفال بما أرسله الأمريكيون إليهم من ظلامات يطلبون فيها السلام .

وقد حرم الملك والوزراء كل تجارة معهم ، وضربوا مدنهم البحرية بمدافعهم وأحرقوها ، واستأجروا جنودا مرتزقة من الألمان ليساعدوا على قمعهم حتى يخضعوا . ولم يكن الأمريكيون أقل عدوانا . فقد استولوا على حصون « تيكونديروجا » Ticonderoga وكرون بوينت Crown point ، وغزوا كندا ، وأجبروا السير وليام هاو William Howe على أن يخلى مدينة بوسطون . وقبل مايو سنة ١٧٧٦ ، كانت المستعمرات البريطانية بقيادة فيرجينيا تقطع آخر الروابط السياسية مع بريطانيا العظمى وتحول نفسها إلى ولايات أمريكية .

وبعد عام من الحرب الأهلية ، وبعد عهد من الاحتجاج غير المجدى ، عمل جيفرسون والأعضاء الراديكال الآخرون فى الكونجرس الممثل للقارة الأمريكية والمنعقد بفيلادلفيا على إصدار إعلان واضح المعالم عن الاستقلال الأمريكى . ودفع وفد فيرجينيا هذا الموضوع العظيم إلى الأمام فى ٧ من يونيه سنة ١٧٧٦ حين اقترح « أن هذه المستعمرات المتحدة ولايات حرة ومستقلة ولا بد لها أن تظل كذلك لأن هذا حق طبيعى لها » . ولما كانت المناقشات أوضحت أن بعض هذه المستعمرات « لم يكن ناضجا للسقوط من الجذع الأم » كما لاحظ جيفرسون ، فإن هذا القرار الحائل لم ينفذ حتى الثانى من يوليه . وعينت فى هذه الأثناء لجنة من خمسة أعضاء لإعداد صورة رسمية لإعلان الاستقلال . وكان من بين أعضاء هذه اللجنة رجال مشاهير مثل الرجل الوقور بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin ، وجون

آدامز John Adams عضو الهويج المتوقد حماسة من مساشوستس . وكان رئيسها توماس جيفرسون الذى كان قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر فى ذلك الوقت .

فلماذا وضع شاب مثل جيفرسون على رأس لجنة لها هذه الأهمية الكبيرة ، ولماذا صمم زملاؤه بالإجماع على أن يضطلع بصياغة مسودة « الإعلان العظيم » ؟ أجاب جون آدامز على هذا السؤال بقوله « إن جيفرسون كان حينئذ قد اشتهر بأن له قلما رائعا ، كما اشتهر بالأدب والعلم والموهبة الموفقة فى التأليف » . وقال آدمز إن الشاب الطويل النحيف صاحب العيون الصافية الذى أتى من فرجينيا ودخل الكونجرس فى العام السابق كان متواضعا ، متحفظا ولم يكن خطيبا . ولكن « كان صريحا جداً وواضحا جداً وحاسما فى اللجان وفى الحديث ، حتى إنه سرعان ما استولى على لبى » ، وكانت رسالة جيفرسون الشاب « نظرة موجزة عن حقوق أمريكا البريطانية » وكتاباته الأخرى دليلا بليغا على مبادئه الراديكالية . وفوق كل هذا فإن أى شىء كتبه امتاز « بسلاسة خاصة فى التعبير » .

وفى نثرسلس أعلن « التصريح » الذى كتب مسودته جيفرسون ووافق عليه الكونجرس فى الرابع من يوليه سـنة ١٧٧٦ « مولد أمة » وقد عدد الأسباب التى أتت بها إلى الوجود ، ووضع الفلسفة الديموقراطية التى لم تبرر أعمال الوطنيين المحاربين فى سنة ١٧٧٦ وحسب ، وإنما أخذت منذ ذلك الوقت تلهم الأمريكيين وجميع الشعوب المحبة للحرية الذين يؤثرون أن يحاربوا ويموتوا عند الضرورة من أجل « حقوق الإنسان التى لا يمكن التنازل عنها » . فى وضوح وإيجاز صاغ جيفرسون « الحقائق الجلية » الأساسية التى قامت عليها الثورة والجمهورية الأمريكية الجديدة . وقد عبر عن هذه المبادىء الأساسية فى عبارات رنانة حركت وستحرك دائما الروح الأمريكية حتى أعماقها .

وقام الكونجرس بتغييرات قليلة فى صيغة « الإعلان » وحذف فقرات عدة من هجوم جيفرسون الطويل على جورج الثالث ، ومن بينها اتهامه الملك بالعمل على استمرار تجارة الرقيق الأمريكية . ويخبرنا المؤلف الشاب أنه تألم قليلا من أثر النقد ، ولكنه وجد عزاء فى القصة الممتعة التى ذكرها الدكتور فرانكلين عن جون تومسون

تاجر القبعات . وهى حكاية كان جيفرسون يحب أن يقصها فى سنيه المتأخرة ، عندما كان الشعب الأمريكى الفخور الشاكر يقدر كل حدث وكل شىء مرتبط « بإعلان الاستقلال » .

ويمكن فهم حياة جيفرسون اليومية فى أثناء هذا العهد مما يدونه فى سجل حساباته ، من بيانات عن شراب « البنش » فى الحانات ، وأوتار لقيثارته ، ولعب ودمى لابنته ، وخرائط ، وورق كتابة ، وترمومتر جديد لملاحظاته اليومية عن الجو ، وقبعة قش ليحتمى بها من شمس يونية . وان مذكراته عن كتابة مسودة لإعلان الاستقلال التى يقول إنه كتبها على نضد صغير من تصميمه الخاص ، فى حجرة استأجرها من رجل بناء فى فيلادلفيا ، توضح مع هذه الأشياء الصغيرة كيف كان يعيش فى تلك الأيام الخطيرة ، حين كان ميثاق الحرية الأمريكية يكتب ويناقش ، وكان الناس يعاهدون ببذل حياتهم وأموالهم وشرفهم المقدس .

وعندما قال بعدئذ جون آدمز وتيموثى بيكرنج من مساشوستس إن العواطف التى اشتمل عليها إعلان الاستقلال ظلت مدة عامين « مألوفة فى الكونجرس » ، قال جيفرسون إن غرضه لم يكن ابتكار المبادئ ، بل كان « التعبير عن العقل الأمريكى » . ولقد نجح فى هـــذا نجاحا رائعاً . فمواده الخام كانت أفكار الحقوق الطبيعية التى كثيراً ما عبر عنها من قبل جون لوك وجيمز أوتيس ، وكثير من الكتاب الآخرين ، وقد مزج بمهارة أدبية عظيمة المواد الخام من النظريات والمبادىء ، والمذاهب والمثل الأمريكية ، فكان حقا « الفيض الحقيقى لروح بلادنا » . كما كان مطبوعا بطابع جيفرسون وشخصيته . فحق الإنسان فى « الحياة والحرية والملكية » ، مثلا قد أصـــبح تعبيراً شائعاً فى نشرات كتاب الثورة ودعاتها . ولكن فى « الإعلان العظيم » الذى كتب توماس جيفرسون مسودته ، تحول التعبير تحولا ذا مغزى إلى « الحياة والحرية والسعى وراء السعادة » ، وذلك لأن جيفرسون كان يضع الحقوق الإنسانية فوق حقوق الملكية .

هل لأمريكا أن تعلن الآن أنها مستقلة

لقد أصدر مؤتمر فيرجينيا إلى مندوبيه فى الكونجرس تعليمات فى ١٥ من مايو سنة ١٧٧٦ بأن يقترحوا على تلك الهيئة أن تعلن استقلال المستعمرات عن بريطانيا العظمى ، وعين لجنة لتعد إعلانا عن حقوق الحكم ونظامه .

وفى الكونجرس ، الجمعة ، ٧ من يونية سـنة ١٧٧٦ : اقترح المندوبون من فيرجينيا ، تنفيذاً للتعليمات التى تلقوها من أعضاء مؤتمرهم فى فيرجينيا ، أن يعلن الكونجرس أن هذه « المستعمرات المتحدة » ولايات حرة ومستقلة ، وإنما ينبغى أن تكون عن حق كذلك ، وأنها تتحلل من كل ولاء للتاج البريطانى ، وأن كل رابطة سياسية بينها وبين دولة بريطانيا العظمى قد انحلت وينبغى أن تنحل تماما ، وأنه ينبغى اتخاذ إجراءات مباشرة للحصول على مساعدة من الدول الأجنبية ، وأن يتكون اتحاد كونفيديرالى ليربط المستعمرات بعضها ببعض برباط أوثق .

ولما كان المجلس مضطرا لأن يعنى فى ذلك الوقت بموضوع آخر ، فقد تأجل الاقتراح إلى اليوم التالى ، وطلب إلى الأعضاء أن يحضروا فى الساعة العاشرة بالضبط .

السبت ٨ من يونية : انتقلوا إلى دراسـة الإعلان ، فحولوه إلى لجنة من المجلس كله اجتمعوا فيها مباشرة ، وقضوا ذلك اليوم ويوم الاثنين ١٠ من يونية فى مناقشة الموضوع .

وذهب ولسون (Wilson) وروبرت ر . ليفنجستون Robert R. Livingston وإدوارد رتلدج Edward Rutledge وديكنسون Dickinson ، وآخرون إلى أنه بالرغم من أنهم يعطفون على الإجراءات ذاتها ويرون استحالة الاتحاد مع بريطانيا العظمى ثانية ، إلا أنهم ضد الأخذ بها فى هذا الوقت . . .

ومن ناحية أخرى ، ذهب جون آدمز ولى Lee ويذ وآخرون إلى أنه لم يعارض أحد سياسة أو حق الانفصال عن بريطانيا ، أو يفترض أنه من الممكن أن نجدد صلتنا بها وإنما يعارضون فقط إعلان ذلك الآن . . :

كتابة مسودة إعلان الاستقلال

وقد ظهر فى أثناء هذه المناقشات أن مستعمرات نيويورك NewYork ونيوجيرسى New Jersey وبنسلفانيا Pensylvania وديلاوير Delaware وماريلاند Maryland وسوث كارولينا South Carolina لم تبلغ بعد النضج لتسقط من الجذع الأب ، وإن كانت تتقدم بسرعة نحو تلك الحالة ، لذلك رئى أنه من الحصافة أن ننتظر فترة من أجلها ، وأن نؤجل القرار النهائى حتى أول يولية . وحتى لا ينتج عن هذا التأجيل إلا أقل تعطيل ممكن عينت لجنة لإعداد « إعلان الاستقلال » . وتألفت اللجنة من جون آدمز والدكتور فرانكلين وروجر شيرمان Roger Sherman وروبرت ر . ليفنجستون ومنى . وتألفت أيضاً لجان فى الوقت نفسه لتعد مشروعا للاتحاد الكونفيديرالى بين المستعمرات ، ولتضع الشروط الملائمة لتكون أساساً للتحالف الأجنبى .

وقد رغبت لجنة صياغة « إعلان الاستقلال » أن أقوم به ، فقمت به حسب رغبتهم ، وعندما وافقوا عليه ، قدمته إلى « المجلس » فى يوم الجمعة ٢٨ من يونية ، فقرئ وطلب أن يترك على المائدة .

اجتمعت لجنة الخمسة ، ولم يقترح تأليف لجنة فرعية ، ولكن ضغطوا علىّ بالإجماع أن أضطلع بإعداد المسودة وحدى . فوافقت ، ووضعتها ، ولكن قبل أن أعرضها على اللجنة ، أبلغتها على انفراد إلى كل من الدكتور فرانكلين ومستر آدامز ، راجيا تصحيحاتهما ، لأنهما العضوان اللذان كنت حريصاً على أن أنتفع بآرائهما وتعديلاتهما قبل عرض المسودة على اللجنة . فكانت التغييرات التى اقترحا ادخالها اثنين أو ثلاثة فقط ، وهى مجرد تغييرات لفظية . وحينئذ كتبت النسخة النهائية وقدمتها إلى اللجنة ، ومنها — دون تعديل — إلى الكونجرس ؟

تقرر الاستقلال فى ٢ من يولية سنة ١٧٧٦

فى يوم الاثنين أول يولية . انعقد « المجلس » فى لجنة عامة واستأنف دراسة

الاقتراح الأصلى الذى تقدم به المندوبون من فيرجينيا ، والذى أعيدت مناقشته ثانية فى نفس اليوم ، وتمت الموافقة عليه بأصوات نيوهامبشير New Hampshire وكنكتيكت Connecticut وماساشوستس Massachusetts ورود ايلاند Rhode Island ونيوجيرسى وماديلاند وفيرجينيا ، ونورث كارولينا وجورجيا Georgia . أما ثوث كارولينا وبنسلفانيا فقد اقترعتا ضده . ولم يكن لمستعمرة ديلاوير سوى عضوين حاضرين ، وكانا منقسمين . وأعلن المندوبون من نيويورك أنهم أنفسهم يؤيدونه ، وأنهم متأكدون من أن أعضاء الهيئة النيابية فى المستعمرة يؤيدونه كذلك ولكنهم يرون أنفسهم مكلفين بعدم فعل شىء يعوق الصلح مع بريطانيا لأن التعليمات قد صدرت إليهم قبل ذلك باثنى عشر شهراً حين كان الصلح لا يزال الهدف العام .

فوافقت اللجنة وقدمت قرارها إلى « المجلس » وحينئذ طلب مستر إدوارد رتلدج من سوث كارولينا إرجاء القرار حتى اليوم التالى ، لأنه اعتقد أن زملاءه ، بالرغم من عدم موافقتهم على القرار ، سوف يشتركون فيه ليكملوا الإجماع ، ومن ثم فقد أجل طرح الموضوع النهائى الخاص بموافقة المجلس على قرار اللجنة إلى اليوم التالى (٢ من يولية) ، حيث أعيد اقتراحه ، فوافقت سوث كارولينا على تأييده . وقد أتى فى الوقت نفسه مباشرة عضو ثالث من مقاطعات ديلاوير وحول صوت تلك المستعمرة لصالح القرار . وإذ حضر فى ذلك الصباح من بنسلفانيا أعضاء ذوو عاطفة مختلفة ، فقد تغير صوتها ، ولذلك فإن المستعمرات الاثنتى عشرة جميعا التى خولت حق الاقتراع ، أعطت أصواتها لصالحه ، ووافق عليه مؤتمر نيويورك خلال أيام قليلة . وهكذا استدرك الموقف الذى أحدثه انسحاب مندوبيها من التصويت .

الموافقة على إعلان الاستقلال فى ٤ من يولية

وواصل الكونجرس فى نفس اليوم دراسة « إعلان الاستقلال » ، الذى كان قد قدم إليه ووضع على المائدة فى يوم الجمعة السابق ، وأحيل فى يوم الاثنين إلى لجنة من المجلس كله .

وإن الفكرة المثبطة للهمم التى تذهب إلى أن لنا أصدقاء فى انجلترا جديرين بالمحافظة على صداقتهم لم تزل تساور عقول الكثيرين . ولهذا السبب حذفت الفقرات التى تضمنت اللوم لشعب انجلترا ، خشية أن تسيء إليهم . كما أن الجملة التى تستهجن استرقاق سكان أفريقيا حذفت مجاملة لسوث كارولينا وجورجيا ، اللتين لم تحاولا مطلقا أن تحدا من استيراد الرقيق ، واللتين على العكس من ذلك ، لا تزالان ترغبان فى مواصلة ذلك . وإن إخواننا الشماليين أيضاً فى اعتقادى أحسوا بقليل من التأثر من جراء هذا اللوم ، لأنه بالرغم من أن أهل الشمال لم يكن عندهم أنفسهم سوى أرقاء قليلين جدا ، إلا أنهم كانوا يقومون بنقلهم إلى الآخرين :

وقد استغرقت المناقشات الجزء الأعظم من اليوم الثانى والثالث والرابع من شهر يوليو ، وأقفلت فى مساء اليوم الأخير ثم قدمت اللجنة « الإعلان » ووافق عليه « المجلس » .

إعلان الاستقلال كما كتب وكما ووفق عليه

إن عواطف الناس لا تعرف فقط عما تقبله ، بل بما ترفضه أيضاً ، ولهذا سأضع صورة « الإعلان » فى نسخته الأصلية التى قدم بها . وإن الأجزاء التى حذفها الكونجرس ستتميز بوضعها بين (قوسين) وتلك التى أضافها بوضع خط تحتها .

إعلان من نواب ولايات أمريكا المتحدة المجتمعين فى كونجرس عام ١٧٧٦

حين يصبح من الضرورى فى مجرى الحوادث الإنسانية أن يحل شعب الروابط السياسية التى تربطه بشعب آخر ، وينحدر مركز كل شعب منهما على حدة : وقد وضحت حوله المعالم التى تربطه بكل دولة من دول الأرض ، والتى تربطه بقوانين الطبيعة وقوانين رب الطبيعة ، حينئذ يدعونا الاحترام العميق لآراء البشرية أن نبدى الأسباب التى دعت إلى هذا الانفصال ودفعت إليه دفعا لا سبيل إلى الإغضاء عنه .

إننا نؤمن بهذه الحقائق إيمانا ينبعث من أعماق نفوسنا . أن الناس جميعا

خلقوا متساوين ، وأن خالقهم قد منحهم بعض الحقوق التى لا يجوز التنازل عنها ، كما منحهم بعض حقوق ذاتية أخرى ، وإن من بينها حق الحياة والحرية والسعى وراء السعادة ، وإنه لضمان هذه الحقوق أقيمت الحكومات بين الناس ، مستمدة سلطانها العادلة من رضا المحكومين ، وإنه عندما يصبح أى شكل من أشكال الحكم مقوضا لهذه الأغراض ، فمن حق الشعب أن يغيره أو يلغيه ، وأن يقيم حكومة جديدة ، واضعا أساسها على المبادئ ، منظما سلطانها فى الشكل الذى يبدو له أنه من المرجح أن يحقق أمنه وسعادته . ولا شك أنه من الحصافة ألا تغير الحكومات التى أسست منذ زمن طويل نظام حكمها لأسباب هينة عابرة ، ومن ثم فالتجارب جميعها أثبتت أن البشر أميل لأن يتحملوا حين تكون الشرور محتملة ، عن أن ينصفوا أنفسهم بإلغاء الأشكال التى تعودوها . ولكن عندما تتصل سلسلة طويلة من المساوىء والاغتصابات (بدئت فى عهد بارزو) وتظل متواصلة الحلقات فى ثبات جامد لاغرض لها إلا التدابير ، لا لإخضاع الشعب تحت الاستبداد المطلق ، فمن حقه بل من واجبه أن يخلع مثل هذه الحكومة وأن يزود نفسه بحراس جدد لأمنه فى المستقبل . وهكذا كان احتمال هذه المستعمرات فى صبر ، وهكذا تتضح الآن الضرورة التى تجبرهم على أن يغيروا نظمهم السابقة فى الحكم . فتاريخ الملك الحاضر لبريطانيا العظمى هو تاريخ الأضرار والاغتصابات (غير المنقطعة) المتكررة ، التى لا يبدو بينها أى حقيقة واحدة تناقض الاتجاه الذى اندفعوا فيه ، ولكنها جميعا ، بل لها جميعا ، غرض مباشر واحد وهو إقامة استبداد مطلق على هذه الولايات . وحتى نثبت ، نقدم الحقائق إلى عالم مخلص (وإنا لنشهد على صحتها فى إيمان لم يدنسه الباطل) .

فلقد رفضت بريطانيا الموافقة على قوانين هى أنفع ما تكون للصالح العام ، وقد كانت أمريكا أحوج ما تكون إليها ، ولكنها منعت حكامها من أن يشرعوا هذه القوانين ذات الأهمية المباشرة والملحة ، وأوقف التشريع الذى كان يحتاج إلى السرعة حتى يتم الحصول على موافقته وان تأخيره هذا يدل على أنه يهمل إهمالا تاما العناية بشئون أمريكا كما أنه امتنع عن أن يشرع قوانين أخرى لاسكان مناطق كبيرة

من الناس ، ما لم يتنازل هؤلاء الناس عن حق التمثيل النيابى فى الهيئة التشريعية ، وهو حق لا يقدر بالنسبة لهم ، وقد أرادوا وقفه على الطغاة فقط .

واستدعى هيئات تشريعية فى أماكن غير عادية ؛ وغير مريحة ، وبعيدة عن مراكز سجلاتها العامة ، لغرض وحيد وهو إرهاقها حتى تستجيب لإجراءاته .

وحل مجالس نيابية بطريقة متكررة (ومستمرة) لمعارضتها بثبات قوى اعتداءاته على حقوق الشعب .

وبعد هذا الحل ظل رافضا لفترة طويلة أن يسمح بانتخاب مجالس أخرى حيث تعود السلطات التشريعية التى لا يمكن القضاء عليها إلى الشعب ليباشرها ، وبذلك تبقى الولاية فى أثناء هذا الوقت معرضة لأخطار الغزو من الخارج والاضطرابات من الداخل .

وحاول أن يمنع إسكان هذه الولايات ، معطلا لذلك الغرض قوانين إعطاء الجنسية للأجانب ، وممتنعا عن أن يشرع قوانين أخرى ليشجع هجرتهم إلى بلادنا ، ومضاعفا شروط الامتلاك الجديد للأرض .

ولقد عطل إدارة العدالة برفضه الموافقة على قوانين الإقامة للسلطات القضائية .

وجعل قضاتنا معتمدين على إرادته وحدها فى بقائهم فى مناصبهم ، وفى مقدار مرتباتهم ودفعها.

وأنشأ عدداً كبيراً من المناصب الجديدة ، وأرسل هنا جموعا من الموظفين الجدد ليقلقوا شعبنا ويأكلوا ثماره .

واحتفظ بيننا فى أوقات السلام بجيوش قائمة من غير رضا هيئاتنا التشريعية .

وفضل أن يجعل السلطة العسكرية مستقلة عن السلطة المدنية ومتفوقة عليها .

واشترك مع آخرين ليخضعنا لسلطان أجنبى عن دستورنا وغير معترف به من قوانيننا ، مانحا موافقته لما يعملون من تشريع مصطنع لإقامة مجموعات كبيرة من الجيوش المسلحة بيننا ، ولحمايتهم بالمحاكمة المموهة من العقاب على ما يقترفون من قتل لسكان هذه الولايات ، ولقطع تجارتنا مع جميع أجزاء العالم ، ولفرض الضرائب علينا دون رضانا ، ولحرماننا فى قضايا كثيرة من منافع المحاكمة بهيئة المحلفين ، ولنقلنا

وراء البحار لتحاكم من أجل اعتداءات مصطنعة ، ولإلغاء نظام القوانين الإنجليزية الحر فى إقليم مجاور ، مقيمين هنالك حكومة تحكمية ، وموسعين حدودها حتى يجعلوا منها مثالا ، وفى الوقت نفسه أداة مناسبة ، لإدخال نفس الحكم المطلق فى هذه المستعمرات ، ولتجريدنا من وثائق الامتياز التى منحتها مستعمراتنا ، وإلغاء أهم قوانيننا وتغيير أشكال حكومتنا تغييرا جوهريا ، وتعطيل هيئاتنا التشريعية معلنين أنفسهم أصحاب السلطة فى أن يسنوا لنا ما يشاءون من القوانين .

ولقد تخلى الملك عن الحكم هنا ، بإعلانه أننا خارج حمايته ، وإعلانه الحرب علينا .

وسلب بحارنا ونهب شواطئنا وأحرق مدننا وحطم أرواح شعبنا .

وهو ينقل فى هذا الوقت جيوشا كبيرة من المرتزقة الأجانب ليكمل أعمال الموت والدمار والطغيان التى قد بدئت فعلا فى ظروف من القسوة والغدر غير خليقة مطلقاً بأمة متمدينة ، بل إنها تضارع ما كان يرتكب فى أعظم العصور همجية .

وقد أجبر زملاءنا من المواطنين الذين أسروا فى أعلى البحار على أن يحملوا السلاح ضد بلدهم ، وأن يصبحوا الجلادين لأصدقائهم وإخوانهم ، أو يقتلوا أنفسهم بأيديهم .

ولقد أثار الفتن الداخلية بيننا وحاول أن يجلب سكان حدودنا ، المتوحشين الهنود الذين لا رحمة عندهم ، والذين تقوم قاعدتهم المعروفة فى الحرب على التدمير الذى لا تمييز فيه لجميع الأعمار والأجناس ، والحالات .

وحرض الفتن الخائنة بين زملائنا من المواطنين ، بإغراءات نزع ثروتنا وفقدانها .

وأعلن حربا قاسية ضد الطبيعة الإنسانية نفسها ، منتهكا أقدس حقوقها فى الحياة والحرية فى أشخاص شعب بعيد لم يسئ إليهم أبدا ، آسرا أفراده وحاملا إياهم فى أغلال الرق إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية حيث يلاقى الطريق معظمهم بالموت فى أثناء نقلهم إلى هناك . وهذه الحرب التى تختص بالقرصنة ، والتى تعد خزيا للدول الكافرة ، هى حرب ملك بريطانيا العظمى المسيحى :

وإزاء عزمه على أن يحتفظ بفتح سوق حيث يباع الناس ويشترون ، أساء استخدام حقه فى رفض القوانين لخنق كل مجهود تشريعى لمنع هذه التجارة الممقوتة أو الحد منها . ولما رأى مجموعة هذه الأهوال قد لا تحتاج إلى حقيقة ذات صبغة متميزة ، راح يستثير نفوس هؤلاء الناس ليقوموا بعصيان مسلح بيننا ، وليشتروا تلك الحرية التى حرمهم منها بقتل الشعب الذى أقحمهم عليه ، وهكذا يدفع ثمن جرائم سابقة ضد حريات شعب ، بجرائم يحفزهم على أن يرتكبوها ضد أرواح شعب آخر .

وفى كل مرحلة من مراحل الاضطهاد ، قدمنا ظلامات طلبا للإنصاف فى أشد صور التعبير تواضعا ،وان ظلاماتنا المتكررة لم يكن الجواب عليها إلا العدوان المتكرر .

وإن أميرا تتميز شخصيته بكل عمل لا يصدر إلا عن طاغية ، أمير غير صالح ليكون الحاكم لشعب حر (يقصد أن يكون حرا) . وقلما تؤمن الأجيال المقبلة أن صلابة رجل واحد خاطرت فى المدى القصير لاثنى عشر عاما فقط بأن تضع مثل هذا الأساس الواسع غير المستور لطغيان على شعب ربى على مبادىء الحرية ورسخ فيها .

كما أننا لم نقصر فى اهتمامنا بإخواننا البريطانيين . إذ حذرناهم من وقت إلى آخر من محاولات هيئاتهم التشريعية فى أن تبسط سلطانا لا مبرر له علينا . وذكرناهم بظروف هجرتنا واستقرارنا هنا (ولن يمكن لأى ظرف من هذه الظروف أن يبرر مثل هذا الادعاء الغريب ، وان هذه الظروف قد تمت على حساب دمنا وثروتنا ودون عون من ثروة بريطانيا العظمى أو قوتها ، وان فى تأليفنا لأشكال الحكم المتعددة عندنا ، اتخذنا لنا ملكا مشتركا واحدا ، واضعين بذلك أساسا للاتحاد الدائم والصداقة معهم ، ولكن الخضوع لبرلمانهم لم يكن جزءا من دستورنا أو حتى من ناحية الفكرة إن نحن صدقنا التاريخ) وخاطبنا عدالتهم وسماحتهم الطبيعية وتوسلنا إليهم بروابط القربى المشتركة بيننا وبينهم أن ينكروا هذه الاغتصابات التى لا مندوحة من أنه تقطع صلتنا وتراسلنا . ولكنهم ظلوا صماً عن نداء العدل والنسب (وحين أتيحت لهم الفرص ، بالمجرى المنتظم لقوانينهم ، ليزيلوا من مجالسهم المزعجين لانسجامنا ، أعادوهم إلى السلطة بانتخابهم الحر ، وفى نفس هذا الوقت أيضاً ،

يسمحون لحاكمهم الرئيسى أن يرسل إلينا جنوداً لا من دمنا المشترك ، ولكن اسكتلنديين ومرتزقة أجانب ليغزونا ويدمرونا . وان هذه الحقائق قد صوبت آخر طعنة إلى الود المعذب ، وتملى على روح الرجال فينا أن تتبرأ إلى الأبد من هؤلاء الاخوة المجردين من الحس . وواجب علينا أن نحاول أن ننسى حبنا السابق لهم ، ونعاملهم كما نعامل بقية البشر ، أعداء فى الحرب ، وفى السلم أصدقاء . وكان من الممكن أن نكون معا شعبا عظيما حرا ، ولكن يبدو أن اتصال العظمة والحرية وتبادلهما تحت مستوى كرامتهم أمر لا يسعون إليه فليكن هذا كذلك إذا ، فسيكون لهم ما يشاءون . وان طريق السعادة والمجد مفتوحة لنا أيضاً . وسنسلكها بعيداً عنهم) ويجب علينا لذلك أن نقبل الضرورة التى تستدعى انفصالنا (الأبدى) وأن نعاملهم كما نعامل بقية البشر ، أعداء فى الحرب ، فى السلم أصدقاء !

ولهذا فنحن ممثلى ولايات أمريكا المتحدة المجتمعين فى كونجرس عام ، مبتهلين إلى الحكم الأسمى للعالم أن يهدى مقاصدنا سواء السبيل ، نحن هنا نقوم باسم وسلطة الشعب الطيب لهذه المستعمرات (الولايات برفض ونبذ كل ولاء وخضوع للملوك بريطانيا العظمى وكل الملوك الآخرين الذين قد يدعون الملك بعد ذلك بوساطتهم أو عن طريقهم أو تحت اسمهم ، ونحن نحل حلا كليا كل رابطة سياسية قد تكون قائمة بيننا وبين شعب بريطانيا العظمى أو برلمانها . وفى النهاية نصرح ونعلن أن هذه المستعمرات ولايات حرة ومستقلة) بالنشر والإعلان فى قداسة وجلال أن هذه المستعمرات المتحدة تكون ، وينبغى لها عن حق أن تكون ، ولايات حرة مستقلة ، وأنها قد تحللت من كل ولاء للتاج البريطانى ، وأن كل رابطة سياسية بينها وبين دول بريطانيا العظمى قد انحلت تماما ، وأنها كولايات حرة ومستقلة ، لها سلطة كاملة فى أن تعلن الحرب وتعقد محالفات السلم وتقيم التجارة والعلاقات وأن تقوم بكل الأفعال والأشياء الأخرى التى قد تفعلها عن حق الدولة المستقلة .

ولتأييد هذا الإعلان ، معتمدين فى قوة وإيمان على حماية العناية الإلهية ، نتعهد بيننا وكل على أخيه شهيد أن نبذل أرواحنا وأموالنا فى سبيل شرفنا المقدس .

تعبير عن العقل الأمريكى

لقد اتفق رأى جميع الهويج الأمريكيين على هذه الموضوعات . ولذلك حين أجبروا على أن يلجأوا إلى حمل السلاح لإنصاف أنفسهم ، رئى أن مخاطبة محكمة العالم اجراء ملائم لتبرير موقفنا . وهذا هو الغرض من « اعلان الاستقلال » . ولم يكن الغرض أن نكشف مبادئ جديدة أو حججا جديدة لم يفكر أحد فيها من قبل ، ولم يكن كذلك مجرد قول أشياء لم يقل أحد بها من قبل ، ولكن كان يتمثل فى أن نضع أمام البشر الرأى البسيط للموضوع ، فى عبارات تبلغ من الوضوح والحزم مبلغـا يضمن موافقتهم ، ويبرر أنفســنا فى الموقف المستقل الذى اضطررنا لاتخاذه .

ولم يكن الغرض أن يستهدف أصالة المبدأ أو العاطفة ، أو أن يكون نسخة من أى كتابة معينة سابقة ، وإنما قصد به أن يكون تعبيرا عن العقل الأمريكى وأن يضفى على ذلك التعبير اللحن المناسب والروح التى تتطلبها المناسبة . فكل سلطته ينبغى لها أن تعتمد على العواطف المنسجمة السائدة فى العصر الذى تفرض فيه ، سواء عبر عنها فى الحديث أو الرسائل أو المقالات المطبوعة أو الكتب الأولية عن الحق العام ككتب أرسطو وشيشرون ولوك وسيدنى Sidney وغيرهم .

أما عن ملاحظات (تيموثى) بيكرنج ومستر جون آدمز التى تذهب إلى « أنه لا يشتمل على آراء جديدة وأنه تجميع عادى ، وأن عواطفه قد ترددت فى الكونجرس مدة عامين قبل ذلك ، وأن جوهره موجود فى رسالة أوتيس ، أما هذه الملاحظات فقد تكون جميعا صادقة ، ولن أكوّن الحكم فى ذلك . واتهم رتشارد هنرى لى الاعلان بأنه منسوخ من مقالة لوك عن الحكومة . وإنى لم أر أبداً رسالة أوتيس ، ولا أعرف إن كنت جمعت أفكارى من القراءة أو من التأمل .

وأعرف فقط أننى لم ألجا إلى كتاب أو رسالة فى أثناء كتابته . ولم أعتبر جزءاً من مهمتى أن أبتكر أفكارا جديدة تماما أو أن أقدم عاطفة مبتكرة لم يعبر عنها الشعب من قبل . ولو أن مستر آدمز كان قد تقيد فى تعبيره ، لفقد الكونجرس فائدة

دفاعه الجرئ المؤثر عن حقوق الثورة ، فلم تشجعنا وتشد أزرنا خطابات واثقة حارة خلال المصاعب التى أحاطت بنا أكثر مما فعلت خطابات مستر آدمز التى كانت أشبه فى أثرها بفعل الجاذبية المتصل مسلطا علينا بالليل والنهار . ومع ذلك ، فعلى نفس الأساس ، قد نسأل ما هو الجديد بين هذه الأفكار الرفيعة ، وما هو الذى يمكن التأكيد بأنه لم يدخل منها أفكار الإنسان من قبل ؟

يتلوى قليلا من أثر النقد

وسواء أكانت أيضاً عواطف الاستقلال وأسباب إعلانه التى تؤلف مثل هذا القدر العظيم من البيان الرسمى أمرا تكرر قوله فى الكونجرس لمدة عامين قبل ٤ من يوليه سنة ١٧٧٦ ، أم أن القول الذى قاله أيضاً مستر آدمز هفوة أخرى من هفوات الذاكرة ، على أية حال من الحالين ستدع الفصل فى هذا للتاريخ ولكن لا بد لى أن أقول عن مستر آدمز إنه أيد « الإعلان » بحماسة ومقدرة ، محاربا دون خوف عن كل لفظ من ألفاظه .

أما أنا ، فلقد رأيت واجبا على فى تلك المناسبة أن أكون مستمعا سلبيا لآراء الآخرين الذين هم قضاة أكثر نزاهة مما أستطيع أن أكون فى تعرف مزاياه ونقائصه . وكنت حين المناقشة جالسا بجوار الدكتور فرانكلين ، فلاحظ أنى أتلوى قليلا من أثر الانتقادات اللاذعة لبعض أجزائه ، وأخبرنى فى تلك المناسبة من قبيل التعزية لى قصة جون تومسون صانع القبعات وتاجرها وإعلانه الجديد .

الدكتور فرانكلين العجوز يروى قصة معزية

قال : « اتخذت لنفسى مسلكا وهو أن أتجنب القيام بكتابة موضوعات تراجع بهيئة عامة كلما كان ذلك فى استطاعتى . وأخذت درسى من حادثة سأقصها عليك :

« حين كنت عامل طباعة أجيراً ، كان أحد أصحابى ، وهو صبى عند تاجر قبعات ، على وشك أن يفتح متجرا لنفسه بعد أن قضى فترة التمرين . وكان همه الأول أن تكون له لوحة إعلان بعنوان ملائم فألفها من هـــذه الكلمات « جون

تومسون ، صانع القبعات ، يصنع ويبيع القبعات بنقود حاضرة » . وألحق بها صورة قبعة : ولكن رأى أن يقدمها لأصدقائه من أجل تعديلاتهم . فرأى أول من عرضها عليه أن كلمة « صانع قبعات » متكررة لأنها متبوعة بالكلمات « يصنع القبعات » التى تبين أنه صانع قبعات : فحذفها . ولاحظ الثانى أن كلمة « يصنع » يمكن حذفها كذلك ، لأن عملاءه لن يهمهم من صنع القبعات . فإن كانت جيدة ومقبولة عندهم ، فسيشترونها مهما يكن صانعها . فحذفها . وقال ثالث إنه يرى الكلمات « بنقود حاضرة » غير مفيدة ، لأنه ليس من عادة المنطقة أن يبيع التاجر بالدين . فكل واحد يشترى يتوقع أن يدفع . فاستغنى عنها . وأصبح العنوان الآن كالآتى : « جون تومسون يبيع القبعات » . فتعجب صاحبه التالى قائلا « يبيع القبعات ! » لماذا ، ان أحدا لا ينتظر منك أن تعطيها دون مقابل . فما هى فائدة تلك الكلمة إذن ؟ » فحذفت ، وكلمة « القبعات » تبعتها كذلك فى الحذف ، إذ أغنى عنها وجود قبعة كانت مصورة على اللوحة : ومن ثم فقد نزل العنوان فى النهاية إلى « جون تومسون » مع صورة قبعة ملحقة به ! .

أمور صغيرة وكبيرة

١٨ من مايو سنة ١٧٧٦ ، دفعت عند سمث ثمنا لشراب بنش ٢ شلن و٦ بنسات .

٢٠ من مايو دفعت ثمنا للورق ، ٩ بنسات . دفعت ثمنا لفرشة أسنان ٨ شلنات و ٦ بنسات. تسلمت من ويلنج Willing وموريس Morris ٣٠٠ دولار وهى مكافأة المندوب . . . دفعت إلى جفريز Jefferies لإصلاحه الساعة وغيرها ٢١ شلنا .

٢٣ من مايو استأجرت سكنا عند جراف Graf .

٢٤ من مايو دفعت للحلاق ١٣ بنسا . دفعت إلى هيليجاس Hillegas ثمنا لأوتار القيثارة ٢٧ شلنا .

٢٧ من مايو دفعت ثمنا للعب شلنا و ٧ بنسات — دفعت إلى راندولف إيجار سكن لثمانية أيام ٤٠ شلنا . — دفعت ثمن توابل عند كلارك ٢ شلن .

٢٨ من مايو : دفعت ثمن لعبة ٢ شلن .

٣١ من مايو أعطيت ساقيا ٤ بنسات . — دفعت ثمن غطاء فضى لكتاب عاجى ٤٥ شلنا .

أول يونيه ، دفعت ثمن ورق ٢ شلن و ٦ بنسات . — دفعت إلى برادفورد Bradford ثمن خريطة ٨ شلنات و ٦ بنسات . — دفعت لرؤية قرد شلنا .

٤ من يونيه ، دفعت إلى جراف إيجار سكن أسبوع ٣٥ شلنا . — دفعت ثمن نصف رطل شاى وعلبة من القصدير ٢٠ شلنا . — دفعت ثمن رقاق ٤ بنسات — دفعت عند دف Duff ثمنا لشراب البنش ٢ شلن .

٥ من يونيه ، دفعت عند جرينترى Greentree ثمنا للعشاء واشتراكا للنادى ٧ شلنات .

٧ من يونيه ، دفعت ثمن أحذية لبوب Bob (خادمه) ٨ شلنات .

دفعت ثمن جوارب لبوب ٧ شلنات . — دفعت إلى زوجة جراف إيجار سكن لأسبوع واحد ٣٥ شلنا .

١٩ من يونيه ، دفعت إلى جرينترى ثمن خمر ٦ شلنات .

٢٠ من يونيه ، دفعت إلى آتكين Aitkin لتبطين خريطة ٥ شلنات .

٢٢ من يونيه ، دفعت إلى سبارهوك Sparhawk لزوج من المهاميز ٢٥ شلنا .

٢٥ من يونيه ، دفعت ثمن قبعة قش ١٠ شلنات .

٢٧ من يونيه ، دفعت إلى بيرن Byrne أجر ستة أسابيع حلاقة وتزيين شعر ٣٠ شلنا .

٣٠ من يونيه ، دفعت إلى سبارهوك ثمن قلم رصاص شلنا و٦ بنسات وثمن خريطة ٧ شلنات و ٦ بنسات .

٤ من يوليه ، دفعت إلى سبارهوك ثمن ترمومتر ٣ جنيهات و١٥ شلنا . — دفعت ثمن سبعة أزواج قفازات نسوية ٢٧ شلنا . — أعطيت إحسانا شلنا و ٦ بنسات .

كتب إعلان الاستقلال فى بيت بنّاء

إن موضوع ٤ من يوليه ١٧٧٦ لم يكن سوى إعلان الاستقلال ، وهو الفيض الحقيقى لروح بلدنا فى ذلك الوقت . وإن الأشياء الصغيرة ربما تساعد مثل مخلفات القديسين على أن تغذى ولاءنا لهذا الرباط المقدس لاتحادنا وتحفظه زمنا أطول حيا ودافئا فى عواطفنا . وان مثل هذا التأثير قد يعطى أهمية لظروف معينة مهما تكن صغيرة . ففى وقت كتابة تلك الوثيقة الرسمية سكنت فى بيت مستر جراف ، وهو بيت جديد من الآجر ، مكون من ثلاثة طوابق فى الارتفاع ، أجرت منها الطابق الثانى وهو يتألف من غرفة استقبال وغرفة نوم مجهزتين بالفراش . واعتدت أن أكتب فى غرفة الاستقبال التى كتبت فيها هذا الموضوع على وجه خاص .

وإنى لأدون ما أدون من مسودات مكتوبة محفوظة عندى . فمالك هذا البيت ، جراف ، كان شابا ، ابن ألمانى ، وكان حينئذ حديث الزواج . وأظن أنه كان صانع آجر ، وقد كان بيته يقع فى الجانب الجنوبى لشارع السوق وربما بين الشارع السابع والثامن ، وإن لم يكن البيت الوحيد فى ذلك الجزء من الشارع ، فإنى واثق أن هناك بضعة بيوت أخرى قريبة منه .

على درج للكتابة بسيط يمكن حمله

لقد تسلمت خطابا من صديق فى فيلادلفيا أخيرا فى (سنة ١٨٢٥) يطلب معلومات عن البيت وعن الحجرة من البيت ، التى كتبت فيها « إعلان الاستقلال » ، وذلك للاحتفالات المقبلة لتخليد ذكرى ٤ من يوليه . . . وإن كانت الأشياء تكتسب قيمة خرافية بسبب ارتباطها بأشخاص معينين ، فمن المؤكد أن الارتباط بالميثاق العظيم لاستقلالنا قد يعطى قيمة خاصة لما اتصل به ، وهذه هى فكرة الذين يستفسرون عن الحجرة التى كتب فيها .

لقد تصادف فى ذلك الحين أننى كنت أملك نضد الكتابة الذى كتبت عليه ،

وقد صنع من رسم صممته أنا وقام بتنفيذه بن . راندال ، وهو نجار نزلت ببيته أول ما نزلت عند وصولى إلى فيلادلفيا فى مايو سنة ١٧٧٦ واستخدمته منذ ذلك الوقت . وليس لهذا النضد أى مزية من مزايا الجمال الخاصة : فهو بسيط ودقيق ومريح ، مع أنه يعرض نفســـه عرضا كافيا لأى كتابة . . . وستزداد قيمته الخيالية على مرّ السنين . . . وإن نصف قرن آخر قد يراه محمولا فى احتفال ميلاد أمتنا كما تحمل مخلفات القديسين فى احتفالات الكنيسة .

مجمل القول : القضية ضد جورج الثالث

إن البيان الآن هو مجمل للست عشرة السنة الأولى من حكم الملك جورج الثالث . فلقد كان يفرض الضرائب على المستعمرات فى الداخل والخارج ، وكانت مصالحها الجوهرية تضحى من أجل أفراد فى بريطانيا العظمى ، وكانت هيئاتها التشريعية تعطل ، وتلغى وثائق إنشائها وامتيازها ، ويحرم أفرادها من المحاكمة أمام هيئة محلفين ، ويتعرض أشخاصها للنفى عبر المحيط الأطلسى ؛ ويحاكم أفرادها أمام هيئات قضائية أجنبية ، وكانت تعد التماساتهم للإنصاف دون مرتبة الإجابة عليها ، وكانت تنشر أسماؤهم كأشخاص جبناء فى مجالس بلدهم الأصلى وفى مجالس أوربا ، وكانت ترسل الجيوش المسلحة إليهم لتفرض عليهم الخضوع لهذه الأعمال العنيفة ، كما كانت أعمال العداء الفعلية توجه ضدهم . ولم يكن أمام أهل المستعمرات من بديل سوى المقاومة أو الخضوع بلاقيد ولا شرط . ولم يكن فى اختيارنا لأحد هذين الموقفين أى تردد . فلقد انتهت المستعمرات إلى اللجوء للسلاح ؛ إذ أعلنت نفسها ولايات مستقلة . وتعاهدت على التحالف بعضها مع بعض على تكوين جمهورية واحدة عظيمة .

إننى أرجو الله أن تبقى هذه المبادئ خالدة

ويرى تيموثى بيكرنج أن البيان الرسمى عن الاستقلال سيكون أفضل إذا ما مزق ... وفى عبارة أخرى ، انه ينبغى أن يدفن إعلان الاستقلال فى طى النسيان ، حتى لا يسىء إلى مشاعر أصدقائنا الإنجليز وزملائنا المواطنين الذين ينحدرون من أصل

انجليزى ، وذلك لأنه قذف فى الحكومة البريطانية ، كما ألف فى أوقات العاطفة والحماسة .

ولكننا لا نريد أن نحتفظ بذكره لنجرح مشاعرهم ، وإنما لنحيي مبادئ الميثاق الرسمى فى أفئدة مواطنينا . وإنها لراحة سماوية أن نرى المواطنين لا يزالون يشعرون بهذه المبادئ شعوراً قويا . . . وإنى لأبتهل إلى الله أن تكون هــذه المبادئ خالدة .

الفصل الخامس

الكفاح فى سبيل حقوق الإنسان التى لا يتنازل عنها

لقد كانت الثورة الأمريكية عند توماس جيفرسون أكثر من حرب لأجل الاستقلال عن بريطانيا العظمى . فبعد ثلاثة أشهر من كتابة إعلان الاستقلال ، عاد إلى فيرجينيا ليحارب فى الجبهة الداخلية من أجل حقوق الإنسان التى لا يتنازل عنها . وكان فى هذا جادا غاية الجد ؛ فقد كان يؤمن إيمانا حارا بالفلسفة الديموقراطية التى قام عليها إعلان الاستقلال ، وعمل دون انقطاع لتحقيق الاصلاحات الاجتماعية التى « يقتلع بوساطتها كل جذر من جذور الأرستقراطية القديمة أو المستقبلة » . وأصبح المثالى الآن رجل عمل وتنفيذ وقائد ثورة اجتماعية سلمية .

وصوب جيفرسون الشاب هجومه إلى الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها أرستقراطية تضمن لنفسها الاستمرار حين اقترح إلغاء وقف العقار وحق البكر فى الميراث . فالأسرة الكبيرة فى مستعمرة فيرجينيا تمكنت من أن تنقل ثروتها غير مقسمة أو منقوصة من جيل إلى جيل آخر ، وذلك بامتلاك ضياعها الواسعة عن طريق الوقف لا عن طريق الامتلاك العادى وبتوريثها إياها بالتوصية إلى أكبر الأبناء . فعزم جيفرسون على أن يحطم هذه الضياع الوراثية صاحبة الامتياز ، وأن يحقق توزيعا أوسع للثروة ، ومن ثم يتيح المجال « لأرستقراطية الفضيلة والموهبة » وبالرغم من العداء العميق الذى لقيه جيفرسون من ملاك الأرض الكبار الذين كانوا يعدون سيد « مونتيسلو » خائنا لطبقته لأنه كان داعية متطرفا إلى المساواة ؛ فقد نجح فى محو هذه العمد التى كان يقوم عليها الامتياز الاقتصادى ، والحكم الاوليجاركى .

وأثار المصلح الشاب أقسى أنواع النزاع التى اشترك فيها بمطالبته بانتهاء الاستبداد الروحى كما يتمثل فى كنيسة الدولة التى تعان بالضرائب العامة . واستغرق

التغلب على الكنيسة الانجيلية ثلاثة أعوام من الصراع الدائب . وتحقق الفصل بين الكنيسة والدولة ولكن كان لا بد من صراع آخر قبل الموافقة على سن قانون جيفرسون المشهور لإقامة الحرية الدينية الكاملة . وإن حججه ضد الغباء فى إرغام عقول الناس وضمائرهم ، تمتاز بالبلاغة والقوة اللتين تضمنان لها مكانا رفيعا بين أنصار الحرية العقلية والروحية . ولقد اعتبر هو مشروع قانونه للحرية الدينية معادلا فى الأهمية « إعلان الاستقلال » .

ولقد كان هـــذا القانون أحد القوانين الكثيرة التى كونت مجموعة القوانين المعدلة ولم يكن سوى واحد من الاصلاحات الكثيرة التى كانت تشغل بال جيفرسون حين دعا إلى إعادة تنظيم البنيان القانونى بأكمله وتكييفه فى جميع أجزائه بالنظر إلى العقل وصالح أولئك الذين وضع من أجل حكمهم .

ومن أبرز مشروعاته فى هذا الإصلاح العام مشروعه لإدخال نظام واسع للتعليم العام يشتمل على مدارس أولية حرة ومجامع علمية ، وجامعة ، مع تعليم نوابغ الشباب على نفقة الدولة . وكان هذا موضوعا حبيبا إلى قلب جيفرسون . فطوال حياته كان « يدعو إلى حرب ضد الجهل » ، مؤكدا الأهمية الحيوية للتعليم العام ؛ فليس هناك أساس أثبت من التعليم للمحافظة ، على حرية الشعب وسعادته ؛ إذ الشعب المتعلم وحده هو الذى يستطيع أن يفهم حقوقه ويحافظ عليها ، ويهيئ العمل الناجح لجمهورية ديموقراطية ، يجب أن يتقاسم فيها جميع الشعب سلطة الحكم .

وهذه هى بعض الأهداف الكبرى للحملة التى قام بها جيفرسون فى مستعمرة فيرجينيا الملكية السابقة ليدخل « التغيير الجمهورى على مبادىء ديموقراطية » ولو أن برنامجه الشامل لم يتحقق تحققا كاملا ، إلا أن هذه السنين كانت من أعظم سنى حياته جلالا وإثمارا . فمن ١٧٧٦ إلى ١٧٧٩ جمع قوى التقدم وقادها ، ونمّى وطبق فلسفة سياسية قائمة على « الحقائق الواضحة وضوحا ذاتيا » فى إعلان سنة ١٧٧٦ ، ولم ينجح فى القيام بثورة اجتماعية فى فيرجينيا فحسب ، بل تمكن من خلق حافز عظيم للحركة الديموقراطية فى أرجاء الجمهورية الأمريكية الجديدة .

فتحت الطريق أمام ثورة اجتماعية عظيمة

إن ثورتنا قد قدمت لنا سجلا نحن أحرار فى أن نكتب فيه ما نشاء . فلم تكن هنالك مناسبة لأن ندرس السجلات العتيقة أو أن نبحث عن الوثائق الملكية المكتوبة على الجلد ، أو أن نقلب النظر فى القوانين والنظم التى ورثناها عن أجداد شبه متوحشين . فلقد اتجهنا إلى قوانين الطبيعة ووجدناها محفورة فى قلوبنا . ومع ذلك فلم نتفع بجميع مزايا موقفنا . فلم يسمح لنا مطلقا بأن نباشر الحكم الذاتى . وحين اضطررنا إلى أن نضطلع به كنا مبتدئين فى علمه : فمبادئ الحكم الذاتى وأشكاله لم تدخل إلا قليلا فى تعليمنا السابق . ومع ذلك فقد أسسنا بعض مبادئه الهامة إن لم يكن جميعها .

وكنت أعرف أن تشريعنا فى ظل الحكومة الملكية كان يشتمل على نقط كثيرة ضارة جدا تتطلب الإصلاح السريع ، ورأيت أننى أستطيع أن أكون ذا نفع أكثر فى تقديم ذلك العمل . ولذلك تركت مكانى فى الكونجرس فى اليوم الثانى من سبتمبر (١٧٧٦) واستقلت منه وأخذت مكانى فى الهيئة التشريعية لولايتى فى السابع من أكتوبر ، فطلبت فى اليوم الحادى عشر الإذن باقتراح مشروع قانون لإقامة محاكم العدل ، التى كان تنظيمها ذا أهمية كبيرة ووضعت مشروع القانون ووافقت عليه اللجنة وقدم إلى الهيئة التشريعية فوافقت عليه بعد أن مر فى مراحله اللازمة : وحصلت اليوم الثانى عشر على إذن بتقديم مشروع قانون يعلن أن الذين يملكون أرضهم بطريق الوقف سيملكونها بنظام التوريث العادى .

ضربة قاضية ضد الارستقراطية الوراثية

لقد حصل بعض الأفراد اليقظين فى الأزمان الأولى للمستعمرة على منح كبيرة من الأرض حين كان من الممكن الحصول على الأراضى بمقابل يسير أو دون مقابل ، وإذ كانوا يرغبون فى أن يؤسسوا أسرا عظيمة لأنفسهم فقد وقفوها على أحفادهم . وإن انتقال هذه الأملاك من جيل إلى جيل بنفس الاسم قد أقام مجموعة من الأسر التى جعلها امتيازها القانونى من ناحية دوام ثروتها تتكون فى طبقة نبيلة تنفرد

بتألق مؤسساتها وترفها . وكان الملك أيضاً يختار مستشارى الدولة من هذه الطبقة فأصبح الأمل فى نيل هذا الامتياز دافعا لجميع أعضائها لأن يمنحوا ولاءهم لمصالح التاج وإرادته . فرئى من الجوهر لجمهورية منظمة تنظيما حسنا أن يلغى هذا الامتياز وأن يفتح ذلك المجال ، وأن تستبدل بالأرستقراطية الثروة التى تضر المجتمع أكثر مما تنفعه ، أرستقراطية الفضيلة والموهبة ، التى توجه مصالح المجتمع التوجيه الحكيم. وقد اتجه القانون إلى توزيع الأرض بالعدل والمساواة دون التجاء إلى أى عنف فى تطبيق ذلك مكتفين بإلغاء قانون الامتياز . لأن هذا سيخول المالك فى الحال أن يقسم ملكه بين أطفاله بالتساوى ، كما تتقسم عواطفه وسيؤدى التناسل الطبيعى إلى وضع هذه الطبقة على مستوى واحد مع زملائهم من المواطنين .

ادموند بندلتون ، عارض قدير

ولكن هذا الإلغاء قوبل بمعارضة قوية من المستر بندلتون (Mr. Pendleton) الذى كان متعلقا فى حماسة بالنظم القديمة ، والذى كان فى الجملة أقدر رجل فى المناقشة قابلته وإن لم يكن فى الواقع له تصور مستر باتريك هنرى الشاعرى وخياله السامى ، وأسلوبه الرفيع الذى لا يقاوم إلا أنه كان هادئا لينا ومقنعا ، وكانت لغته فياضة ، نقية ، مزدانة ، وأفكاره سريعة حادة غنية ، ولم يكن ليهزم أبدا ، لأنه إن فقد المعركة الأساسية عاد عليك واستعاد منها الكثير ليجعلها معركة متساوية النتيجة ، بحركاته الحكيمة ومناوشاته التفاصيل ، واسترداد المزايا الصغيرة التى إن كانت ضئيلة بمفردها فهى هامة فى مجموعها . فأنت لا تعرف أبدا متى تخلص منه . ولكنك تهاجم بمثابرته حتى ينهار صبر جميع من هم أقل منه صبراً . وأضف إلى هذا أنه كان واحدا من أعظم الناس فضلا وإحسانا وكان أشد الأصدقاء عطفا وأكثر الأصحاب وداً وإمتاعا ، مما ضمن استقبالا محببا لكل ما صدر عنه .

وإذ أنه وجد أن المبدأ العام للتوريث بوقف العقار على أكبر الأبناء لا يمكن الاحتفاظ به ، واتخذ موقفه على تعديل اقتراحه ، فبدل الإلغاء التام طالب بالسماح للمالك عن طريق الوقف أن ينتقل إلى الامتلاك بالطريق العادى إن اختار ذلك ،

وقد أوشك أن يحصل على الأصوات اللازمة لإنقاذ الكثير من القانون القديم . ولكن مشروع القانون للإلغاء التام قد ووفق عليه فى النهاية .

وفى أحد مشروعات القوانين لتنظيم نظامنا القضائى الذى تضمن اقتراح إقامة محكمة عليا عملت على تقرير المحاكمة بوساطة هيئة من المحلفين فى جميع الأمور الواقعية سواء أكان ذلك فى المحكمة العليا أم فى غيرها من محاكم القانون . فهزمه بإدخال أربعة ألفاظ فقط « إن اختار أى طرف » وكانت النتيجة أن هيئات المحلفين لا ترى إلا نادراً ، ويجوز لى أن أقول إنها لا ترى أبداً فى تلك المحكمة إلا إذا استدعاها رئيس المحكمة العليا من تلقاء نفسه ، وذلك لأن أى متقاض لا يقول لقاضيه « سيدى إنى لا أثق بك ، أعطنى هيئة محلفين » .

تحريم استيراد الرقيق

إن أول مؤسسة أصبحت دائمة فى فرجينيا أقيمت فى سنة ١٦٠٧ . ولم أجد ذكراً للزنوج فى المستعمرة ، حتى قرابة سنة ١٦٥٠ ، وان أوائل الذين جلبوا هنا كرقيق أحضروا بوساطة سفينة هولندية ، وبدأ الإنجليز بعد ذلك هذه التجارة وواصلوها « حتى الحرب الثورية » وقد عطلت تلك الحرب بالأمر الواقع الاستمرار فى استيرادهم فى أيامنا هذه . فإن مهام الحرب قد ظلت تضغط على الهيئة التشريعية وتشغلها إلا أن هذا الموضوع لم يكن مجال تشريع حتى سنة ١٧٧٨ حين قدمت مشروع قانون لمنع الاستمرار فى استيرادهم . وقد تمت الموافقة عليه دون معارضة وأوقف ازدياد شر الاستيراد ، تاركا للجهود فى المستقبل استئصاله النهائى .

الكفاح ضد الطغيان الروحى

إن المستوطنين الأوائل لهذه المستعمرة كانوا إنجليزاً ، ورعايا موالين لملكهم وكنيستهم واشتمل قرار المنح للسير والتر رالى (Walter Raleigh) على شرط صريح وهو أن قوانينهم « ينبغى ألا تكون ضد العقيدة المسيحية الحقيقية التى تعتنق الآن فى كنيسة انجلترا » . وحالما سمحت حالة المستعمرة ، تقسمت إلى ابراشيات أقيم فى

كل منها قسيس تابع للكنيسة الإنجليزية الأسقفية ، وله مرتب ثابت من التبغ وبيت وأرض موقوفة عليه مع الملحقات الضرورية الأخرى ولدفع هذه التكاليف فرضت الضرائب على جميع سكان الإبراشـيات سواء أكانوا أعضاء فى الكنيسة الرسمية أم غير أعضاء .

وما إن حل وقت الثورة حتى أصبح أكثرية السكان منشقين على الكنيسة الرسمية ولكنهم كانوا مجبرين على أن يدفعوا نصيبا فى العطاء ليعينوا قسيسى الأقلية . وكانوا يحسون إحساسا أليما بهذا الإجبار الذى يجافى العدل كل المجافاة ، ويجعلهم يضطرون إلى دفع أجور لمعلمين يعتقدون أن وجودهم خطأ دينى اضطروا لقبوله اضطرارا فى أثناء الحكم الملكى دون أن يكون له مجرد أمل فى أن ينقذوا منه ، ولكن الهيئة التشريعية الجمهورية الأولى التى اجتمعت فى سنة ١٧٧٦ ازدحمت بالظلامات التى تطالب بإلغاء هذا الاستبداد الروحى .

وقد كانت هذه الظلامات السبب الأعظم فى المنازعات التى اشتركت فيها الهيئة . وكان خصمانا العظيمان مستر بندلتون وروبرت كارتر نيكولاس ، وهما رجلان أمينان ولكنهما من رجال الكنيسة الغيورين . وحولت الظلامات إلى الذى اجتمع على شكل لجنة لتنظر إلى حالة البلد ، وبعد ضروب من النزاع اليائس الذى كاد يكون يوميا فى تلك اللجنة منذ الحادى عشر من أكتوبر إلى الخامس من ديسمبر وصلنا بعد جهد جاهد إلى مجرد إلغاء القوانين التى تعتبر اعتناق أى آراء دينية منشقة ، أو الامتناع عن الإنابة إلى الكنيسة ، أو ممارسة أى أساوب آخر للعبادة ، جرما ، وفوق ذلك أعفينا المنشقين من دفع مساهماتهم المالية لإعانة الكنيسة الرسمية ولم نستطع سوى تأجيل دفع الضرائب المفروضة على أعضاء تلك الكنيسة من أجل مرتبات أصحاب المناصب فيها إلى انعقاد دورة المجلس القادمة . فبالرغم من أن أكثرية مواطنينا كانوا منشقين ، كما سبق ملاحظته إلا أن أكثرية الهيئة التشريعية كانوا من رجال الكنيسة الرسمية ، ومع ذلك فبين هؤلاء كان يوجد بعض الأشخاص العقلاء والتحرريين الذين مكنونا فى بعض النقط من أن نحصل على أغلبيات ضعيفة .

فصل الكنيسة عن الدولة

ولكن خصومنا نجحوا فى الحصول بين القرارات العامة للجنة ١٩ من نوفمبر على ترخيص بأن المجامع الدينية ينبغى أن تنظم وأن يتخذ إجراء لاستمرار تعاقب رجال الدين والإشراف على سلوكهم . وضمن مشروع القانون الذى ووفق عليه إذ ذاك تحفظا صريحا عن موضوع فرض ضريبة عامة ينبغى أن يقرر بوساطة القانون على كل شخص لإعانة رجل الدين الذى يختاره أو أنه ينبغى أن يترك الجميع للمساهمة الاختيارية ، وقد نوقش هذا الموضوع فى كل دورة تشريعية من سنة ١٧٧٦ إلى ١٧٧٩ (إذ بعد أن نال بعض حلفائنا المنشقين غرضهم الخاص تركونا وأيدوا أنصار فرض ضرائب عامة) ولم نستطع إلا أن نحصل على تأجيل من دورة إلى دورة حتى سنة ١٧٧٩ حيث ووفق فى النهاية على عدم فرض ضرائب عامة . وبذلك قمعت مؤسسة الكنيسة الإنجليزية الأسقفية قمعا تاما .

ولكن الحرية الدينية لم تتم بعد

ولما كانت الاضطهادات التشريعية فى الدين قد محيت فنحن نعيش فى الوقت الحاضر (١٧٨١) فى ظل التشريعات المفروضة فقط بوساطة القانون العام أو بتشريعاتنا الخاصة فى مجلسنا . وحسب القانون الذى أصدره مجلسنا فى سنة ١٧٠٥ ، الفصل ٣٠ ؛ إذا أنكر شخص منشأ فى الدين المسيحى وجود الله أو الثالوث أو أعلن أن هناك آلهة أكثر من إله واحد أو أنكر صحة الدين المسيحى أو صدور الإنجيل عن سلطة سماوية ، فإنه يعاقب على الجرم الأول بالحرمان من تولى أى منصب أو عمل دينى أو مدنى أو عسكرى ، وعلى الجرم الثانى بالحرمان من المقاضاة أو تسلم أية هدية أو ميراث ، أو من أن يكون حارسا أو وصيا أو مديرا ، وبالسجن ثلاثة أعوام دون كفالة .

ولما كان حق الأب فى كفالته لأطفاله قائما فى القانون على حقه فى الإنفاق عليهم ، فإنه إذا ما حرم من هذا الحق ؛ فإنهم بالطبع يفصلون منه ويوضعون

بسلطة المحكمة فى أيدى من هو أكثر استقامة فى الاعتقاد . وهذه نظرة موجزة إلى ذلك الرق الدينى الذى كان الناس راغبين فى أن يبقوا فى ظله ، مع أنهم أضاعوا أرواحهم وأموالهم لإقامة الحرية المدنية .

حماقة إكراه عقول الناس وضمائرهم

ويبدو أن الخطأ الذى ينتج عن العمليات العقلية المؤدية إلى الأفعال البدنية خاضع لسلطان القوانين ، ولم يكن هذا الخضوع كافياً لإقلاع الناس عن ارتكاب الجرائم . ولكن حكامنا لا يمكن أن تكون لهم سلطة على الحقوق الطبيعية إلا فيما نسلم به إليهم فقط . أما حقوق الضمير فلم نسلم بها أبداً ولا نستطيع أن نفعل ذلك . فنحن مسئولون عنها أمام ربنا . وتمتد السلطات التشريعية للحكومة إلى الأعمال الضارة بالآخرين فقط . ولكن لا يلحقنى ضرر إن قال جارى إن هناك عشرين إلها أو ليس هناك إله . فهذا لا يسرق جيبى ولا يكسر ساقى . وإذا قيل إن شهادته فى محكمة من محاكم العدل لا يمكن الاعتماد عليها فلترفض إذن ولتكن وصمة فى جبينه . فالإكراه قد يجعله رجلا أسوأ مما هو عليه وذلك يجعله منافقاً ، ولكن لن يجعله مطلقاً رجلا أصدق مما هو عليه . فقد يثبته على العناد فى أخطائه ولكنه لا يعالجها .

فالعقل والبحث الحر هما العاملان الفعالان ضد الخطأ . فأعط الحرية لهما وسينصران الدين الصحيح بتقديم كل دين زائف إلى محكمتهما ووضعه تحت اختبار الفحص والدرس . فهما العدوان الطبيعيان للخطأ ، والخطأ وحده ، فما لم تكن الحكومة الرومانية ، قد سمحت بالبحث الحر لما أمكن إدخال المسيحية أبداً . وما لم يسمح بالبحث الحر فى عهد الإصلاح لما أمكن تطهير مفاسد المسيحية . وإن حيل الآن دون البحث الحر فإن المفاسد الحاضرة سوف تحمى وتشجع مفاسد جديدة .

تستطيع الحقيقة أن تصمد وتقف وحدها

ولو أن الحكومة وصفت لنا دواءنا وغذاءنا لكانت أجسامنا فى نفس الحالة التى عليها أنفسنا الآن ، وهكذا أصبح المقيىء فى فرنسا محرما يوما ما كدواء ،

وكذلك البطاطس كمادة من مواد الغذاء . والحكومة معرضة للخطأ أيضاً حين تقرر النظم فى الطبيعة . فجاليليو أرسل إلى محكمة التفتيش لتأكيده أن الأرض دائرة : وقد قررت الحكومة أنها مسطحة مثل الطبق ، واضطر جاليليو لأن ينكر خطأه . ومع ذلك فإن هذا الخطأ قد ساد فى النهاية وأصبحت الأرض كرة ، وقرر ديكارت (Descartes) أنها تدور بسرعة حول محورها بوساطة زوبعة . وكانت الحكومة التى عاش فى ظلها من الحكمة إلى حد جعلها ترى أن هذا الموضوع لا يدخل فى نطاق السلطة المدنية ، التى لا تريد لنفسها أن تتدخل فى هذه الرياح من الزوابع . وفى الواقع أن الزوابع قد ثبت عدم صحتها ، وأصبحت نظرية نيوتون عن الجاذبية مستقرة وثابتة الآن على أساس من العقل أكثر مما كان يمكن لها لو أن الحكومة تدخلت وجعلتها مبدأ من مبادئ الإيمان الضرورى . إذ أعطى العقل والتجربة مجالا واسعاً هرب الخطأ أمامهما . فالخطأ وحده هو الذى يحتاج إلى تأييد الحكومة ، أما الحقيقة فتستطيع أن تصمد وتقف وحدها .

سخافة التناسق فى الرأى وما تسببه من مآس

فإن أنت أخضعت الرأى للقهر والإكراه فمن من الناس تجعلهم أعضاء التحقيق لديك ؟ إن الناس معرضون للخطأ وغير معصومين ، تحكمهم العواطف السيئة ، كما تحكمهم الدواعى الخاصة والعامة . ولماذا تخضع الرأى للقهر والإكراه ؟ هل لتحقق التناسق ؟ ولكن هل التناسق فى الرأى أمر مرغوب فيه ؟ كلا ، فليست الرغبة فى ذلك أكثر من الرغبة فى توحيد أشكال الوجه والقوام .

فادخل إذن فراش بروكرستيز (Procrustes) فإنما هنالك يكمن الخطر فى أن يضرب الرجال الكبار الصغار فاجعلنا جميعاً من حجم واحد ، بتشذيب الأوائل ومد الأواخر . إن الاختلاف فى الرأى يفيد فى الدين ، فالطوائف المتعددة تقوم بوظيفة الرقيب الأخلاقى كل منها على الآخر . وهل التناسق ممكن البلوغ ؟ إن الملايين من الرجال والأطفال الأبرياء منذ نشر المسيحية قد أحرقوا وعذبوا وضربت عليهم الضرائب وسجنوا ، ومع ذلك لم نتقدم بوصة واحدة نحو التناسق .

فماذا كانت نتيجة القهر والإكراه ؟ إنها تقوم على أن تجعل نصف العالم أغبياء والنصف الآخر منافقين ، وأن تؤيد الوقاحة والخطأ فى جميع أرجاء الأرض . ودعنا نتأمل أرض يسكنها ألف مليون من الناس يعتنقون ألف مذهب مختلف من الدين ليس مذهبنا بينهم سوى واحد من الألف المذهب ، فإذا لم يكن هنالك غير مذهب واحد صحيح ، هو مذهبنا ؛ فإنه ينبغى أن نرى المذاهب التسعمائة والتسعة والتسعين جميعها ضالة عمياء عن الحق . كيف لنا أن نحقق هذا بالعنف وهم الأكثرية ؟ لا سبيل إلى ذلك إلا بالعقل والإقناع ، فهما وحدهما الوسيلتان . ولكى نفسح الطريق أمامهما ، يجب أن نسمح بالبحث الحر ، وكيف نرغب فى أن يباشره الآخرون بينما نرفضه نحن أنفسنا .

دعنا نجرب

ولكن قد يقول محقق من رجال الدين إن كل دولة قد أقرت دينا ما . وإنى أقول إنه لم تجتمع دولتان على إقرار نفس الدين . أهذا دليل على عصمة الكنائس ؟ إن الولايتين الشقيقتين بنسلفانيا ونيويورك قد ظلتا مع ذلك طويلا دون إقامة أية مؤسسة دينية وكانت التجربة جديدة ومريبة حين قامتا بها . فنجحت نجاحا ما كان أحد ليتخيله . وانهما لتزدهران ازدهارا لا حد له ، فالدين معان إعانة طيبة ، وهو فى الواقع ذو أنواع مختلفة ولكنها جميعا ممتازة . وكلها تكفى لحفظ السلام والنظام . وإن ظهرت فرقة تهدم مبادئها الأخلاق فإن العقل الراجح يلعب دوره ويقدم الحجج التى تأتى عليها وتثير السخر بها حتى تخرج من الأبواب دون السماح للولاية بأن تنزعج بها . . . فلقد وصلنا إلى الاستكشاف السعيد وهو أن الطريق إلى إسكات المنازعات الدينية هو عدم الالتفات إليها . فدعنا نحن أيضاً نعط هذه التجربة مجالا نزيها ونتخلص فى الفترة التى نستطيع فيها ذلك من تلك القوانين المستبدة .

وفى الحق اننا بروح العصر السائدة حتى الآن فى مأمن من هذه القوانين المستبدة . وإنى لأشك فى أن سكان هذا البلد سيسمحون بالإعدام من أجل الضلال فى الدين ، أو بالسجن ثلاثة أعوام لعدم فهم مسائل الثالوث الغامضة . ولكن هل

ح الشعب معصومة دائما ؟ وهل هى حكومة ؟ وهل هذا هو نوع الحماية
ى نحصل عليه مقابل الحقوق التى نتنازل عنها ؟ وإلى جانب ذلك فإن روح العصر
. تتغير ، وستتغير ، وإن حكامنا سيصبحون فاسدين ، وشعبنا غير مكترث
قد يبدأ متعصب واحد الاضطهاد ويكون خيار الناس ضحاياه ؛

ويهمنا أن نؤكد أن الوقت المناسب لإقرار كل حق جوهرى على أساس قانونى
و الوقت الذى يكون فيه حكامنا أمناء ونكون أنفسنا متحدين . فمن انتهاء هذه
لحرب سنكون متجهين نحو أسفل التل ولن يكون حينئذ ضروريا لأن نلجأ كل
لحظة إلى الشعب طلبا للتأييد . ولذلك سينسى الشعب وتلقى حقوقه التجاهل ،
سينسى الشعب نفسه إلا فيما يتصل بجمع المال . ولن يفكر أبدا فى الاتحاد لتحقيق
حترام مناسب لحقوقه . ومن ثمن فإن الأغلال التى لن تكسر فى نهاية هذه الحرب
ستبقى فى أعناقنا طويلا ، وستصبح أثقــل وأثقل حتى تحيا حقوقنا أو تموت فى
اضطراب من الاضطربات .

هجوم عام على النظام القديم

وإنى فى إعطائى هذا البيان عن القوانين التى اقترحتها وصغتها . لا أعنى مطلقا
أن أدعى لنفسى ميزة الحصول على مرورها فى الهيئة التشريعية والموافقة عليها ،
فلقد كان لى معاونون كثيرون بذلوا جهدا كبيرا فى المناقشة وقد كان إلى جانبى
جورج ويذ وجيمز ماديسون وهو شاب شديد العزم والكفاية والخبرة ، وكان فى
نفسه أشبه بحشد كبير . كما كان يعاوننى جورج ماسون وهو من الطراز الأول
فى الحكمة بين أولئك الذين عملوا على مسرح الثورة ، ذو عقل متسع ورأى عميق
قوى فى المحاجة ملم بما يشتمل عليه دستورنا السابق على معرفة تامة بما حققه التغير
الجمهورى من أسس ديموقراطية .

وكان علمنا حتى الآن مقصورا على تناول تفاصيل الإصلاح فقط ؛ إذ كنا
نختار فقط التشريعات الواضحة النفع ذات المبادئ المسلم بفائدتها والتى تدل على قوة
النبض العام للإصلاح . وحين تركت الكونجرس فى سنه ١٧٧٦ كان ذلك لاقتناعى

بأن مجموعة قوانيننا كافة يجب أن تراجع ، وأن تكيّف لتناسب الشكل الجمهورى لحكومتنا . وبما أننا قد أصبحنا وليس علينا لها حق الرفض مثل المجالس والحكام والملوك تمنعنا من فعل مانراه صوابا فإنه ينبغى أن تصحح مجموعة قوانيننا فى جميع أجزائها وفقا للمعقول وصالح أولئك الذين أقيمت الحكومة من أجلهم ، وهكذا اقترحت فى مستهل دورة انعقاد الهيئة التشريعية فى سنة ١٧٧٦ التى عدت إليها ، مشروع قانون لمراجعة القوانين ووفق عليه فى ٢٤ أكتوبر وقد عينت لجنة للقيام بهذا العمل فى ٥ من نوفمبر من مستر بندلتون ومستر ويذ وجورج ماسون وتوماس ل . لى ومنى .

ضربة أخرى لأرستقراطية الأرض

وحين أخذنا فى توزيع العمل اعتذر مستر ماسون لشعوره بأنه غير كفء لأنه لم يدرس القانون واستقال بعد ذلك مباشرة . واعتذر مستر لى لنفس السبب ثم مات بعد ذلك بوقت قصير . ومن ثم فقد قسمنا — السيدان الآخران وأنا — العمل بيننا ؛ فالقانون العام واللوائح الى الفصل الرابع جيمز الأول (حين صار تشريعنا منفصلاً) وكلت إلىّ ، والقوانين البرلمانية من ذلك العهد حتى الوقت الحاضر وكلت إلى مستر ويذ ، وقوانين فيرجينيا إلى مستر بندلتون .

ولما كان قانون المواريث والقانون الجنائى وقعا بالطبع من نصيبى ؛ فلقد رغبت إلى اللجنة أن تقرر المبادئ الرئيسية لها لتكون رائدا لى فى صياغتها . وأما بالنسبة إلى القوانين الأولى فقد اقترحت إلغاء قانون حق البكر فى تنظيم التوريث وجعل العقار الحقيقى قابلا للتوارث بالاشتراك بين الأقربين كملكية شخصية بوساطة قانون التوزيع .

ورغب مستر بندلتون فى أن يحتفظ بحق البكر فى التوريث ولكنه ما لبث أن تبين أن ذلك لا يمكن أن يسود فاقترح أنه ينبغى أن نأخذ بالمبدأ العبرى ونعطى قدرا مزدوجا للابن الأكبر ولاحظت أنه إذا كان أكبر الأبناء يستطيع أن يأكل ضعف ما يأكل غيره أو يعمل ضعف ما يعمل غيره فقد يكون من حقه حينئذ أن ينال ضعف ما ينال هذا الغير ولكن بما أنه يستوى فى قواه وحاجاته مع

إخوته وأخواته فإنه ينبغى إذن أن يكون متساويا فى تقسيم تركة الأبوين ، وكان هذا قرار الأعضاء الآخرين .

إتمام مجموعة القوانين المعدلة

أما القانون الجنائى فقد اتفق الجميع على أنه ينبغى أن تلغى عقوبة الإعدام إلا للخيانة والقتل ، أما بالنسبة للجرائم الأخرى فإنه ينبغى أن تحل محلها عقوبة الأشغال الشاقة فى الأعمال العامة . . . . ورأيت أنه من النافع أيضاً أن نصلح أسلوب القوانين البرلمانية البريطانية الأخيرة وتشريعاتنا الخاصة فى مجلسنا التى أصبحت حقيقة مضطربة وغير مفهومة لا للقراء العاديين بل بالنسبة للمحامين أنفسهم بسبب مالابس صياغتها من إطناب وتكرار لفظى لا نهاية له أدى إلى تداخل الأقضية بعضها فى بعض ، يعترض أسلوبها عبارات اعتراضية تلاحق عبارات اعتراضية مما لا بد له من جهود مضاعفة للوصول إلى التأكد مما تعنيه أغلب الفقرات التى تشير إلى « المذكورة » و « المذكورة سابقاً » و « أو » « و » « و » .

واشتغلنا بهذا العمل حتى فبراير سنة ١٧٧٩ حين اجتمعنا فى وليامزبيرج ، أى مستر بندلتون ومستر ويذ وأنا ، وواصلنا اجتماعنا يومياً ودرسنا بطريقة نقدية الأجزاء التى قام بها كل منا جملة فجملة ، فاحصين ومعدلين ، حتى اتفقنا على الشكل النهائى ورجعنا عندئذ إلى بيوتنا وأعددنا نسخاً نهائية بأجزاء عملنا المتعددة التى قدمت إلى المجلس العام فى ١٨ من يونيو سنة ١٧٧٩ . . . ولقد جمعنا فى هذا المؤلف ما رأينا أخذه ، وضرورة تعديله من القانون العام وجميع القوانين البريطانية من الماجنا كارتا (Magna Charta) إلى الوقت الحاضر وجميع قوانين فيرجينيا منذ تأسيس هيئتنا التشريعية ، التى رأينا أنه ينبغى المحافظة عليها فى نطاق مائة وستة وعشرين مشروع قانون مكونة مجلداً مطبوعاً من الحجم الكبير فى تسعين صفحة فقط .

وأخذت من هذه المجموعة بعض مشروعات القوانين من وقت إلى آخر وعرضت على الهيئة التشريعية فووفق عليها ولكن لم تعالج الهيئة التشريعية الجانب الرئيسى من هذا العمل إلا بعد انعقاد الصلح العام فى سنة ١٧٨٥ حين وافقت على معظم هذه

التشريعات بتغيير قليل وذلك بفضل الجهود المتصلة التى بذلها مستر ماديسون (Madison) فى وجه ضروب المراوغة والخداع والتحريف والإزعاج والتعطيل التى أثارها المحامون وأشباه المحامين .

رداء واسع يحمى العقل والضمير

ولقد صغت مشروع القانون الخاص بالحرية الدينية الذى سبق أن شرحت مبادئه إلى حد ما صياغة تستند إلى كل ما يمليه العقل والحق . ومع ذلك فقد قوبل بالمعارضة ، ولكن ووفق عليه نهائياً (فى سنة ١٧٨٦) مع بعض التشويه فى الديباجة وإن اقتراحاً فريداً أثبت أن حمايته للرأى قد قصد بها أن تكون عامة شاملة .

فحيث تقرر الديباجة أن القهر والإكراه خروج على النظام الذى وضعه الصاحب المقدس لديننا ، اقترح تعديل تضمين الكلمتين « يسوع المسيح » لكى تقرأ على النحو الآتى : « خروج على النظام الذى وضعه يسوع المسيح ، الصاحب المقدس لديننا » فرفض التضمين بأغلبية عظيمة دليل على أنهم قصدوا أن يشملوا داخل رداء حمايته اليهودى ، والأمى ، والمسيحى ، والمسلم ، والهندوسى ، والكافر بكل ملة وطائفة .

قانون فيرجينيا للحرية الدينية

ولقد كنت مدركاً أن آراء الناس وعقائدهم لا تتوقف على إرادتهم الخاصة ، ولكنها تتبع دون اختيار الدليل المقدم إلى عقولهم ، وأن الله القادر على كل شىء خلق العقل حراً وأظهر أن إرادته السامية ستبقى حرة بجعلها غير خاضعة بتاتاً للتأثر بالضغط ، وأن كل المحاولات للتأثير عليها بالعقوبات الزمنية أو الأعباء أو ضروب الحرمان من الأهلية المدنية إنما تنزع إلى أن تلد عادات النفاق والوضاعة ، وأنها خروج على النظام الذى وضعه الصاحب المقدس لديننا . .

وإن إكراه أى شخص على أن يقدم مالا لنشر آراء ينكرها ويمقتها أمر خاطىء واستبدادى ، وان حقوقنا المدنية لا تعتمد على آرائنا الدينية أكثر مما تعتمد على آرائنا فى الطبيعة أو الهندسة . وان آراء الناس ليست واقعة تحت سلطان الحكم

المدنى ، وإنه يكفى لتحقيق الأغراض العادلة للحكم المدنى أن يتدخل أولو أمره حين تشتعل المبادئ والعقائد وتدفع المؤمنين بها إلى اقتراف أفعال ضد السلم والنظام ، وأخيراً إن الحقيقة عظيمة وستسود إن تركت لنفسها ، وانها الخصم الملائم والكافى بذاته لمقابلة الخطأ ، وليس لديها ما تخافه من الصراع ما لم تجرد بالتدخل الإنسانى من أسلحتها الطبيعية القائمة على المحاجة والمناقشة الحرة : ولن تصبح الأخطاء خطرة حين يسمح للحقيقة أن تعارضها معارضة حرة .

فنحن المجلس التشريعى العام لولاية فرجينيا نسن قانونا بأنه لايكره شخص على أن يرتاد أو يعتنق أية عبادة أو مكان أو كنيسة دينية مهما كانت أو يجبر أو يقيد أو يزعج أو يضغط عليه فى بدنه أو ماله أو يتعرض لعناء بسبب آرائه أو معتقداته الدينية ، ولكن الناس جميعا أحرار فى أن يعتنقوا آراءهم فى شئون الدين : وأن يحافظوا عليها بما يشاءون توضيحه من براهين وألا تنقص هذه الآراء بصورة من الصور حقوقهم المدنية أو توسعها أو تؤثر فيها .

نظام شامل للتعليم العام

ولقد رأينا أنه ينبغى فى هذا الموضوع أن يقترح مشروع منظم للتعليم العام وطلب إلى أن أقوم به . ولهذا أعددت ثلاثة مشروعات قوانين مقترحا ثلاث درجات متميزة من التعليم تشمل جميع الطبقات .

(أولا) مدارس أولية لجميع الأطفال على وجه العموم : الأغنياء منهم والفقراء .

(ثانياً) كليات لدرجة وسطى من التعليم معدة لخدمة أغراض الحياة العامة وستكون هذه الكليات منفصلة عن جميع من يكونون فى أحوال ميسرة .

(ثالثاً) درجة نهائية لتعليم العلوم على وجه العموم ، وفى أعلى درجتها .

فمشروع القانون الأول اقترح تقسيم كل مقاطعة إلى أقسام ذات مساحة وعدد مناسب من السكان لإقامة مدرسة تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب العادى وإن الولاية كلها تقسم إلى أربع وعشرين منطقة تقوم فى كل منها مدرسة للتعليم الكلاسيكى والنحو والجغرافيا والفروع العليا للحساب العددى واقترح مشروع القانون الثانوى

تعديل نظام كلية وليام ومارى وتوسيع دائرة العلم فيها وجعلها فى الواقع جامعة . وكان مشروع القانون الثالث خاصا بإنشاء مكتبة (مكتبة عامة تشتمل على معرض فن عام) .

النوابغ يجمعون من العناصر المهملة

ويقترح مشروع القانون (الأول) أن تقسم كل مقاطعة إلى مناطق صغيرة من خمسة أو ستة أميال مربعة ، وأن تقام فى كل منها مدرسة لتعليم القراءة والكتابة والحساب . وتقوم المنطقة بدفع نفقات المعلم ، ولكل شخص الحق فى أن يرسل أطفاله لمدة ثلاثة أعوام مجانا وأن يبقيهم بعد ذلك حسبما يشاء على أن يدفع أجر تعليمهم وتكون هذه المدارس تحت اشراف مشرف يختار كل عام صاحب أعظم التلاميذ عبقرية فى المدرسة ، ممن يكون آباؤهم فقراء لدرجة تحول دون مواصلة تعليمهم بعد ذلك ، ويرسله إلى إحدى المدارس الثانوية التى اقترحت إنشاء عشرين منها فى أجزاء المقاطعة المختلفة لتعليم اليونانية واللاتينية والجغرافيا والفروع العليا من الحساب العددى .

أما الأولاد الذين يرسلون إلى المدارس الثانوية على هذا النحو فهم تحت الاختبار لمدة عام أو عامين وينتخب من بينهم أكثرهم تفوقا ويستمر لمدة ستة أعوام ويفصل الباقون ، وبهذه الطريقة يعد عشرون طالبا من خيرة النابغين من بين المعوزين المهملين كل عام ويتلقون التعليم على نفقة الخزانة العامة فيما يتصل بالمدارس الثانوية وعند نهاية التعليم ست سنوات ، يقف نصفهم عن الاستمرار (وقد تزود المدارس الثانوية منهم بالمدرسين فى المستقبل) ، أما النصف الآخر الذى يختار أعضاؤه لعلو شمائلهم وأخلاقهم فيرسلون إلى كلية وليام ومارى ويستمرون هنالك لمدة ثلاث سنوات فى دراسة العلوم التى يختارونها .

ادع إلى حملة صليبية ضد الجهل

أغراض هذا القانون تقوم على تهيئة التعليم المناسب لسن كل واحد وقدرته وحالته والذى يستطيع أن يوجهه إلى حريته وسعادته ، ونأمل من ذلك

لجانب من مشروعنا الذى يعين انتخاب الشبان النابغين من بين طبقات الفقراء أن نفيد الدولة من تلك المواهب التى غرستها الطبيعة فى سخاء بين الفقراء والأغنياء على السواء ولكنها تضيع دون جدوى إذا لم يبحث عنها وترب ؛ ولكن من بين الآراء التى دعت إلى تشريع هذا القانون ليس هنالك أهم أو أكثر شرعية من الرأى الذى ينادى بجعـــل أفراد الشعب حراسا أمناء على حريتهم لأنهم فى النهاية هم حراسها .

ولتحقيق هذا الغرض يقترح أن تكون قراءة التلاميذ قائمة على دراسة التاريخ على وجه الخصوص فى المرحلة الأولى حيث يتلقون كل تعليمهم . فالتاريخ إذ يقفهم على الماضى يمكنهم من أن يحكموا على المستقبل وسيفيدهم بتجربة الأزمان الأخرى والأمم الأخرى وسيؤهلهم للحكم على أفعال الناس وتدبيراتهم ؛ وسيمكنهم من أن يعرفوا الطمع تحت كل ستار يتخذه وإذ يعرفونه فهم يستطيعون أن يهزموا مقاصده .

ويوجد فى كل حكومة على وجه الأرض أثر من آثار الضعف الإنسانى وبذرة من بذور الفساد والانحلال يكشفها المكر ويفتحها الخبث بقسوة ويربيها وينميها ، وكل حكومة تنحل وتفسد حين يعهد بها إلى حكام الشعب وحدهم ، والشعب نفسه لهذا هو وحده الموئل المأمون . ويجب تحسين عقول أفراد الشعب إلى درجة معينة حتى يصبحوا مأمونين على حريتهم .

وأعتقد أن أهم مشروع قانون فى كل مجموعة قوانيننا هو الخاص بنشر المعرفة بين الشعب وليس هناك أساس مكين آخر يمكن ابتكاره لحفظ الحرية والسعادة . فادع ياسيدى العزيز (جورج ويذ) إلى حملة صليبية ضد الجهل ؛ وأقم وحسن قانون تعليم عامة الشعب . ودع مواطنينا يعلموا أن الضريبة التى ستدفع لهذا الغرض ليست أكثر من جزء من ألف مما سوف يدفع للملوك والقسس والنبلاء الذين سيظهرون بيننا إن نحن تركنا الشعب فى جهل .

•

حكومة من الشعب تعمل لصالح الشعب

ويجب علينا أن نقوم بتعديل دستورنا لنصرة التعليم العام . فينبغى أن نشارك الشعب جميعاً فى سلطة الحكم بأن نوسع حق الاقتراع المحدود القائم الذى يعجز عن التمثيل الحقيقى فى الهيئة التشريعية ويعطى حق الانتخاب لأغلبية الناس فى الدولة ممن يدفعون ويحاربون لنصرتها ، فقائمة أصحاب الأملاك الذين يحق لهم أن يعطوا أصـــواتهم لا تشمل على وجه العموم نصف من توجوا أسماءهم فى قائمة المحاربين أو جامعى الضرائب .

فلو أن كل فرد ممن يؤلفون جمهور الشعب اشترك فى السلطة النهائية فإن الحكومة ستكون مأمونة ، لأن إفساد جماهير الشعب كافة سيفوق أية موارد خاصة للثورة ؛ ولا يمكن جمع الموارد العامة إلا بفرض الضرائب على الشعب . وسيكون لزاماً على كل شخص فى هذه الحالة أن يدفع نفقته الخاصة . ولقد فسدت الحكومة البريطانية إذ ليس إلا لواحد من عشرة حق انتخاب أعضاء البرلمان ولقد كان يظن أن الفساد يحد بوقف حق الانتخاب على قلة من أغنياء الشعب ولكن يمكن أن يحد بطريقة أكثر نفاذاً بإعطاء ذلك الحق إلى عدد من المواطنين يكفى لتحدى وسيلة الفساد .

تعطيل تنفيذ القوانين من أثر الحسد والأنانية

ولم تنفذ هذه القوانين حتى سنة ١٧٩٦ ولم ينفذ منها عندئذ سوى ما يتصل بالمدارس الأولية . فكلية وليام ومارى كانت مؤسسة خالصة من مؤسسات كنيسة انجلترا وكان من أغراضها الأساسية المقررة إعداد القسس لتلك الكنيسة ، ولهذا فإن ضروب الغـــيرة الدينية عند المنشقين على الكنيسة الإنجليزية قد استثيرت لأنهم خافوا من أن يهيئ هذا التشريع سيادة الطائفة الإنجيلية ورفضوا العمل بهذا القانون كما أن موقعها المحلى غير الملائم وجو الخريف غير الصحى أضعف هذا الميل العام نحوها .

وقد ضمنوا قانون التعليم الأولى مادة عطلت تنفيذه تعطيلا تاماً لأنهم تركوا لحكمة كل إقليم أن تقرر لنفسها الوقت الذى ينبغى أن تنفذ فيه القانون داخل إقليمها ، فمن مواد هذا القانون مادة تقرر أن نفقات هذه المدارس يجب أن يقوم بها سكان الإقليم كل بنسبة الضريبة العامة المفروضة عليه . ويلقى هذا الإجراء على عاتق أصحاب الثروة تعليم الفقراء ، ولما كان القضاة على وجه العموم يأتون من الطبقة الغنية ، فقد كانوا غير راغبين فى أن يتحملوا ذلك العبء ، وأعتقد أنه لم يسمح لهذا التشريع أن ينفذ فى إقليم واحد وسأعود مرة ثانية إلى هذا الموضوع قبيل انتهاء قصتى .

قضية التحرير المقدسة

إن مشروع القانون الخاص بموضوع الرقيق كان مجرد تلخيص للقوانين الخاصة بهم دون أية إشارة إلى مشروع يتضمن تحريرهم العام فى المستقبل ، فلقد رئى أنه من الأفضل ألا يقوم مثل هذا المشروع وأن يحاول تحريرهم فقط عن طريق التعديل كلما يقدم مشروع القانون إلى الهيئة التشريعية . ومع ذلك فإن المبادئ التى يقوم عليها هى حرية جميع المولودين بعد يوم محدد ، وإبعادهم عن البلاد فى سن مناسبة ، ولكن وجد أن الرأى العام سوف لا يحتمل هذا الاقتراح . . . إلا أن اليوم ليس ببعيد حين يجد الرأى العام نفسه ملزما أن يتحمله وأن يتبناه ، أو هو معرض لأن يحدث ما هو شر من ذلك .

وليس فى كتاب القدر شىء مكتوب بتأكيد أكثر مما هو مكتوب أن هؤلاء الناس سيكونون أحراراً ، كما أنه ليس أقل تأكيدا من هذا أن العنصرين وهما متساويان فى الحرية لن يستطيعا أن يعيشا فى ظل حكومة واحدة ؛ فالطبيعة والعادة والرأى قد رسمت خطوطا لا تمحى للتمييز بينهم . ولا يزال فى مقدورنا أن نوجه عملية التحرير والإبعاد بطريقه سلمية وبدرجة بطيئة حتى إن الشر سيزول بالتدريج ، ونملأ المكان الذى يشغله الرقيق بيننا بالعمال البيض الأحرار . ولو أن الأمر على

النقيض من ذلك قد ترك يستفحل ويفرض نفسه فإن الطبيعة البشرية لا بد أن تبتعد عند تصور هذا الموقف .

ولما كان شمال تشيز ابيك (Chesapeake) لا يظل سوى عدد قليل من الأرقام ، فإن الأهلين يستطيعون فى يسر أن يخلصوا أنفسهم منهم . وفى فيرجينيا تكسب قضية التحرير المقدسة كل يوم أنصارا من أفواج الشباب الناشئين الذين أخذوا يشغلون المناصب العامة ، وقد ارتشف هؤلاء مبادئ الحرية مع ارتشافهم لبان أمهاتهم . فكلية وليم ومارى هى المكان الذى تجمع فيه جميع شباب فيرجينيا للإعداد للحياة العامة . فإن أغلبهم هناك يتعلم على يدى مستر ويذ صاحب العواطف الواضحة المعالم فى موضوع الرق .

إله عادل ورعد مبيد

الإنسان آلة ما أعظمها وأشدها غموضا ؛ فهو يستطيع أن يحتمل الكدح والمجاعة والجلد والسجن والموت نفسه دفاعا عن حريته الخاصة ، وفى اللحظة التالية يصم أذنيه عن جميع تلك الدوافع التى أيدته قوتها خلال محنته ويوقع بزملائه من بنى الإنسان نوعا من العبودية . الساعة الواحدة فى ظله مفعمة ببؤس يفوق البؤس الذى عاناه عصورا ثم قام فى ثورة ليقاومه . ولكن يجب علينا أن ننتظر فى صبر أعمالا وعناية إلهية سائدة ، أو نأمل أنها إنقاذ هؤلاء المعذبين من إخواننا الأرقاء وحين يذرفون من الدمع غايته وحين تملأ أناتهم السماء نفسها بالظلام ، لا شك أن إله العدل سيستيقظ لضائقتهم ، وسيظهر بأمور هذا العالم فيريهم أنهم ليسوا متروكين لرعاية قدر محتوم أعمى ، وحينئذ يفيض عليهم عطفه بنشره النور والسماحة بين مضطهديهم أو بإطلاق الرعد المبيد لإهلاكهم فى النهاية .

كل هذا أساس جمهورى خالص

إننى كنت أعد أربعة من هذه القوانين التى قدمت إلى الهيئة التشريعية أراعى فى تأليفها نظاما أقتلع به كل خيط من نسيج الأرستقراطية القديمة أو المستقبلة ،

وأضع به أساس حكومة جمهورية خالصة . فإلغاء قوانين وقف العقار يمنع تجمع الثروة واستمرارها فى أيدى أسر مختارة ، ويحفظ أرض البلاد من تحولها يوما بعد يوم إلى أوقاف . وإلغاء حق الابن الأكبر فى الاستئثار بالميراث ، وتقسيم الميراث بالتساوى قد محا الفروق الإقطاعية وغير الطبيعية التى جعلت عضوا واحدا من أعضاء كل أسرة غنيا وجميع الباقين منهم فقراء ، وأحل محله قانون التقسيم المتساوى وهو خير القوانين الزراعية جميعا ، وعودة حقوق الضمير وحرية الاعتقاد أراحت الشعب من دفع الضريبة لتأييد دين ليس بدينهم لأن الكنيسة الإنجيلية كانت كنيسة تابعة لدين الأغنياء وحدهم . وكانت الطوائف المنشقة مؤلفة من الناس الأقل ثراء : وقانون التعليم العام كان يقصد به أن يؤهل غير الأغنياء لفهم حقوقهم والمحافظة عليها وممارسة مواهبهم بذكاء فى حكم أنفسهم حكماً ذاتياً . ويراد بهذه القوانين الأربعة أن تنفذ دون انتهاك حق طبيعى واحد لأى مواطن فرد من المواطنين .

ثورة اجتماعية بيضاء

يبدو أن الشعب قد وضع جانباً نظام الحكم الملكى وأخذ بنظام الحكم الجمهورى فى يسر مثلما يفعلون وهم يخلعون ثوبا قديما ويلبسون ثوبا جديداً بدلا منه . فلم يصاحب هذا التحول الهام أى ألم . وقد جرؤ أحياناً بضعة أفراد من السادة الارستقراطيين وهم يتوجعون من أثر خسرانهم لامتيازهم أن يسخروا من تحولنا السياسى ، ولكن رئى أنهم أجدر بالرثاء منهم بالعقاب . ونحن فى الوقت الحاضر نمارس حكمنا المنظم ممارسة تامة هادئة .

وإنه لمما يدعو إلى راحة النفس أن يسود فى النهاية لواء العقل بعد انقضاء أجيال كثيرة استعبد فى أثنائها العقل الإنسانى بوساطة الملوك والقسس والنبلاء . وإنه لمن دواعى الشرف لنا أننا أقمنا الهيئة التشريعية الأولى التى كانت لديها الشجاعة فى أن تعلن أن عقل الإنسان يمكن أن يوثق به فى تكوين آرائه الخاصة .

الفصل السادس

الحكم فى عهد الحرب

كان جيفرسون فى السادسة والثلاثين من عمره وزعيم القوى الديمقراطية حين انتخب حاكما لفيرجينيا فى سنة ١٧٧٩ : وكان مركزه محفوفا بالمصاعب الاستثنائية ، خاصة بعد إعادة انتخابه فى سنة ١٧٨٠ : فمنذ بدء الثورة أعطت ولايته الإمدادات بسخاء إلى جنود جيش واشنطون فى الشمال . وعندما كان البريطانيون تحت قيادة لورد كورنواليس يغزون ولايتى كارولينا ويتقدمون نحو فيرجينيا اضطر الحاكم الشاب إلى أن يستنزف من مساهماته فى حرب الشمال رجالا ومعدات أكثر للجيش المدافع فى الجنوب . وفوق ذلك فقد كان الحد الغربى لفيرجينيا مهدداً بالبريطانيين والهنود ، ولم يكن شاطئها البحرى مهاجما فقط بقوات البعثة البريطانية ، وإنما أيضاً بالغزو الناجح الذى قام به الخائن الذى تسرب على طول نهر جيمز حتى مدينة ريتشموند العاصمة الجديدة .

ولقد كافح جيفرسون كحاكم لولاية مغزوة مرهقة بالحرب على خير ما يستطيع ضد عقبات هائلة تتمثل فى نقص الأسلحة والمال والإمدادات الجوهرية ، وفى نفور المحافظين الثورى من المواطنين ، وفى الاعتماد على جند الرديف غير المجربين الذين يعملون لفترة قصيرة وأصبح موقف فيرجينيا يائساً حين استطاع كورنواليس فى مايو سنة ١٧٨١ أن يحقق الاتصال بارنولد . ولما لم يجد البريطانيون فى لقائهم إلا ثلة من جند الرديف فصيلة ضئيلة من الأوربيين تحت قيادة لافاييت فقد دمروا الولاية بالنار والسيف فى الشهور التى سبقت استسلامهم الذى تم فى يوركتون .

وعانى جيفرسون نفسه ، كما يخبرنا ، خسائر شديدة فى أملاكه ، وكاد يقع فى الأسر حين قام الكولونيل تارلتون بغزوته المشهورة على شارلوتسفيل فى سنة ١٧٨١ .

وفى هذه الأزمة ، عند ما كانت الفترة الثانية لحكمه تكاد تنتهى : صدم بالمطالبة حوله بإقامة دكتاتور ذى سلطة غير محدودة فاحتج غاضباً على هذه الصيحة وعد مجرد التفكير فى هذا خيانة ضد الديمقراطية ، وخيانة ضد البشرية على وجه العموم . وقد قابل بالسخط العنيف النقد الموجه إلى إجراءاته العسكرية فى أثناء الغزو ، واستمر سخطه حتى بعد أن أثنت الهيئة التشريعية بالإجماع وفى حرارة على خدماته كحاكم فى أثناء الحرب .

وإن المرارة التى شعر بها فى ذلك الوقت والتى ازدادت بموت زوجته فى ١٧٨٢ جعلته يصرح بألا يدخل مطلقاً السياسة مرة أخرى ولكنه ما لبث أن أقنع بأن يعمل كعضو فى الكونجرس الكونفديرالى . ولقد أسهم وهو فى الكونجرس بعملين هامين من الناحية القومية . إذ أعد نظاماً للعملة للجمهورية الجديدة كما أوضح فى تقريره عن الأقاليم والأراضى القومية المبدأ الحيوى الذى يقوم عليه الاتحاد الفيديرالى وهو أنه ينبغى أن تضاف الولايات الجديدة إلى الثلاث عشرة الولاية الأصلية على أساس المساواة المطلقة . أما محاولته أن يطرد الرق إلى الأبد من جميع الأقاليم من البحيرات إلى الخليج فقد هزمت بصوت واحد فقط . وكانت هذه حادثة روائية فى تاريخ أمريكا ، مفعمة بالمغزى الرهيب لمستقبلها ، فمصير الملايين الذين لم يولدوا توقف على لسان رجل واحد « وكانت السماء صامتة فى تلك اللحظة المرعبة » .

واتجهت أفكاره مرة ثانية إلى اعتزال الحياة العامة والإقامة فى مسكنه المحبوب مونتيسيلو ، وألح على أصدقائه جيمز مونور (James Monroe) ووليام شورت (William Short) وجيمز ماديسون (James Madison) فى أن يقيموا بالقرب منه ولكنه استجاب مرة ثانية أيضاً إلى نداء الواجب العام . ففى سنة ١٧٨٤ أبحر إلى فرنسا كوزير فوق العادة . وهنالك أمكنه آخر الأمر أن يستجم استجماماً كاملا من عناء سنى الحرب .

حاكم فيرجينيا

عينت فى أول يونيه سنة ١٧٧٩ حاكماً لولاية فيرجينيا ، واستقلت من الهيئة

التشريعية . . وإذ أنى كحاكم قد ارتبطت حياتى الخاصة بالحياة العامة ، فإن كتابة تاريخى الخاص فى هذين العامين من إدارتى للولاية ستكون كتابة للتاريخ العام لذلك الجانب من الثورة الأمريكية داخل هذه الولاية . ولقد قام بهذا آخرون خاصة المستر جيراردين (Girardin) الذى كتب مؤلفه « استمرار لتاريخ بيرك » (Burke) عن فيرجينيا « أثناء إقامته فى ملتون » (Milton) بهذه المنطقة ، والذى كانت له الحرية فى الاطـــلاع على جميع أوراقى ومذكراتى حينما كان يؤلف ذلك الكتاب وأعطى بياناً أميناً مثلما كنت أفعل ذلك بنفسى .

جنود بدون أسلحة

(كتب جيفرسون إلى الجنرال جورج واشنطون فى يونية سنة ١٧٨٠)

ليس هنالك فى الحقيقة شيء يقاوم تقدم العدو نحو الشمال سوى مبادئ الحذر التى يأخذ بها العدو والتى يقوم عليها الفن العسكرى . فإن كارولينا الشمالية ليس لديها سلاح . كما أنه ليس لدينا وفرة منه . فلقد أرسلنا ما عندنا فى سخاء إليهم ، ولكن حالة مواردهم على درجة كبيرة من النقص حتى انهم لم يستطيعوا حتى الآن أن يقدموا بندقية واحدة من هذه الولاية إلى قواتهم ، وكل العربات التى استطعنا جمعها قدمت إلى الماركيز دى كالب (Marquis de Kalb) ونحن نتجمع لنقدم ألفين وخمسمائة من جند الرديف تحت قيادة الجنرال ستيفنز (Stevens)

ولقد كتبت إلى الكونجرس ليبادروا بإمدادات الأسلحة والذخائر العسكرية للولايات الجنوبية وخاصة ليساعدونا بورق لفافات البارود وصناديقها ، فنقصان هذه السلع وإن كانت صغيرة يجعل ذخائرنا عديمة الجدوى ؛ وإن قلة المال تعرقل كل مجهود .

إن عدد الجنود النظاميين والرديف الذين طلبوا من هذه الولاية للالتحاق بالخدمة فى الجنوب يقدر بسبعة آلاف تقريباً ، وأعتقد أن خمسة آلاف وخمسمائة جندى سيتقدمون فعلا ، ولكن لدينا أسلحة لثلاثة آلاف فقط ، ولا نزال فقراء فى الملابس والخيم والعربات التى تحتاج إليها جيوشنا . ويعانى جيش الجنوب من نقص المؤن التى نستطيع أن نقدمها إليه بوفرة لو توافرت لنا وسائل النقل .

البريطانيون يغزون والمحافظون الأمريكيون يثيرون الاضطراب

لقد تسلمت هذا الصباح (٢٢ من أكتوبر سنة ١٧٨٠) بعض المعلومات عن وصول أسطول معاد فى خليجنا مكون من ستين سفينة ، ونحن نحاول أن نجمع أكبر عدد يمكن لنا أن نسلحه لمقاومته ، وسيكون جيشنا للأسف غير ملائم إذا كان العدو مجهزاً بقوة كبيرة ، وإنه لمن دواعى الذل أن نرى شعباً قادراً ومتحمساً لينازل العدو مضطراً لأن يثنى أذرعه لفقدان وسائل الدفاع ، وليس من بين الجيوش التى سنجمعها رجل واحد رأى وجه عدو .

* * *

منعت منذ أيام قليلة فتنة خطيرة فى بنسيلفانيا وذلك باكتشافها قبل وقوعها بثلاثة أيام . وقد ألقى القبض على مدبريها وزعمائها وهم نيام وان هذه النار الخطيرة قد خمدت فقط ، ويبدو أن اشتعالها فى المستقبل رهن بالحوادث ، أما باقى المواطنين فى الولاية فقد ظهروا بروح متحمسة بعثت إلى نفسى غاية السعادة فلو أن لديهم الأسلحة لما استطاع أى جهد من الأعداء أن يخيفنا . إلا أن جميع أسلحتنا فى أيدى القوة التى تتجمع الآن أو ستكون فى أيديها . ولو أن أية كارثة نزلت بهؤلاء ، فلن يكون عندنا أى مورد آخر سوى قليل من المدافع والبنادق المنتشرة فى أيدى الأهالى الغربيين .

مبعوث بريطانى يقبض عليه ، دفاع هجومى

ألقى القبض منذ يومين أو ثلاثة أيام على مبعوث بريطانى من بورتسموث (فيرجينيا) وهو يحاول الاتجاه نحو كارولينا ، وعند اقتراح تفتيشه لوحظ أنه يضع يده فى جيبه ويضع شيئاً فى فمه مثل مضغة التبغ ، وعند تفتيشه اكتشفنا أنه خطاب مرفق مع هذا نسخته ، وهو مكتوب على ورق حرير ومغلف فى جلد ومربوط بدقة فى كل طرف ، وجميعه لا يزيد فى حجمه عن ريشة الإوزة .

وبهذا ترى أن تقديراتنا قد تأكدت من أنهم توقعوا أن يقابلوا اللورد كورنواليس على الأقل فى هذه المنطقة من بلادنا .

إن الجيش القوى الذى كونه أعداؤنا فى الجنوب يجعل من الضرورى لنا أن نحتفظ بأكبر جانب ممكن من جيشنا حرا للعمل فى تلك المنطقة ، ولدينا من الأدلة فى الوقت نفسه ما يحملنا على الاعتقاد بأن حشدا كبيراً جداً من البريطانيين والهنود المتوحشين يعد العدة لمحاصرة حدنا الغربى ولنمنع القتل والتخريب القاسى الذى يصاحب النوع الآخر من الحرب ولنمنع فى الوقت نفسه إفضاءها إلى تحول كبير لقوتنا العسكرية عن المنطقة الجنوبية حيث يقصدون أن يقوموا فيها بجهدهم الرئيسى ، حيث فيها وحدها يستطيع النجاح أن يقرر غرضهم النهائى ، فإنه يصبح من الضرورى أن نوجه الضربة الأولى فى الإقليم الغربى وإن نعرض العدو لارتباكات حرب دفاعية قبل أن نعانى نحن من أثرها وقد قررنا لهذا السبب أن تقوم بعثة تحت قيادة (جورج روجرز كلارك) وتتوغل فى الإقليم المعادى وراء الاوهايو (Ohio) وغرضها الرئيسى قمع المركز البريطانى فى ديترويت « Detroit » والاستيلاء إلى جانب ذلك على بحيرة أرى « Lake Erie » .

ولو قمع ذلك المركز فسنكون هادئين فى المستقبل على حدنا وبذلك نحقن كنوزاً عظيمة من الدم والمال وسنكون أحراراً فى أن نوجه قوتنا جميعا نحو إنقاذ إقليمنا الشرقى من الاستعباد ، وسنحول عبر إقليمنا فرعا من تجارة الفراء الذى عدته الدول الأوروبية جديرا بأهم أنواع الكفاح والتضحية ، وفى حالة تحقيق السلم بشروط معينة فإننا سنقيم للاتحاد الأمريكى حاجزا ضد التوسع الخطر لإقليم كندا البريطانى . ونضيف إلى إمبراطورية الحرية إقليما واسعا خصبا وبذلك نحول الأعداء الخطرين إلى أصدقاء لهم قيمتهم .

بنيديكت ارنولد « Benedict Arnold » يضايق فيرجينيا

لقد دخلت سبع وعشرون سفينة (فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٧٨٠) : : : :

فأرسلنا مباشرة الجنرال نلسون « Nelson » إلى الإقليم المنخفض على رأس قوة ليزور جيش الرديف فى تلك المنطقة ، وأصبح من المؤكد أنهم كانوا أعداء وتقدموا إلى أعلى نهر جيمز :

فقد ساروا من وستوفر « Westover » فى الساعة الثانية بعد ظهر الرابع من يناير ودخلوا ريتشموند فى الساعة الواحدة بعد ظهر ٥ من يناير . وواصلت السير فرقة من المشاة وقرابة ثلاثين من الخيل دون توقف إلى المسبك فأحرقوه كما أحرقوا مصنعا ومتجرا وبيتين آخرين ، واستمروا فى تقدمهم إلى وستهام Westham ، ولكنهم عادوا إلى ريتشموند لعدم وجود شيء هنالك فى قبضتهم . وفى اليوم التالى أحرقوا بعض المبانى الخاصة والعامة مع ما بقى فيها من مستودعات ، ودمروا قدراً كبيراً من المستودعات الخاصة وانسحبوا حوالى الساعة الثانية عشرة ظهراً نحو وستوفر حيث عسكروا .

ويبلغ عددهم حسب أحسن مصادر الأخبار حوالى ألف وخمسمائة من المشاة ، أما عن فرسانهم فتختلف الاحصاءات من خمسين إلى مائة وعشرين . وجميعهم تحت قيادة قاتل أبويه ، أرنولد .

خمسة آلاف جنيه لمن يأسره

إنه لمن المرغوب فيه فوق كل شيء أن يسحب بنيديكت ارنولد من أولئك الذين يحتمى تحت جناحهم ، وإنى لمتأكد أن هذا قد كان من الممكن القيام به فى يسر بوساطة رجال من ذوى الإقدام والعزم فى أثناء ذهابه إلى ريتشموند وعودته منها ؛ وأعتقد أنه لا يزال القيام به ممكنا ولو أن ذلك لم يعد سهلا كما كان من قبل ، وإذ أن لى ثقه خاصة بالرجال الذين يعيشون فى الجانب الغربى من الجبال فقد قصدت أن أقترح المشروع على عدد مختار منهم حالما ينزلون عندنا وأكلفهم بأن يتولوا القبض على أعظم الخونة جميعاً ويحضروه إلينا :

وسواء أنفذ هذا على خير وجه بدخولهم كأصدقاء وانتظارهم فرصتهم ، أم بغير ذلك من الأساليب فالأمر متروك لهم . وكلما كان العدد أصغر كان ذلك أفضل ويجب أن يتخذ كل احتياط ضرورى لأنه إن اكتشف تدبيرهم وقبض عليهم فإن قوانين الحرب سوف تبرر ضدهم أشد العقوبات صرامة . وسأتعهد إن هم نجحوا فى إحضاره حيا بأنهم سيتسلمون خمسة آلاف مكافأة يتقاسمونها بينهم :

وإنه لإغراء عظيم لرجال مهيئين لمثل هذا المشروع أن يعرفوا أن أسماءهم ستسجل بالمجد فى التاريخ .

طرق باب الكونجرس

إن حالة الأمور هنا وفى كارولينا قد بلغت مبلغا لا بد أن تنشأ عنه أحداث هامة بطريقة ما ، فقد علمت أن اللورد كورنواليس أحرق مركباته الحربية الخاصة ليهيىء لنفسه التحرك بسهولة ، وأخذ يغذّ السير وما زال يتقدم نحو فيرجينيا . . . وإنى مستمر فى طرْق باب الكونجرس منذ منتصف الصيف طالباً مساعدات من كل الأنواع خاصة الأسلحة . . . وإن العدالة تقضى حقاً أن تقدم إلينا المساعدات بقوة . ومع ذلك فإن هم أعادوا إلينا الأسلحة التى أقرضناها إياهم فقط دون عون آخر ، فإننا سنسبب للعدو المتاعب ؟

إن كل لحظة تجلب لنا أدلة جديدة على أنه يجب مساعدتنا بوساطة إخواننا الشماليين . ولعلهم الآن يقومون بمساعدات لنا لا ندريها . وأعتقد أن ما يقرب من نصف قوة العدو يوجد الآن فى فيرجينيا والولايات التى تقع إلى جنوبها . فهل يقع نصف عبء المقاومة على فيرجينيا وكارولينا الشمالية ؟

الميليشيا العارية ، والمتمردون

إن عرى جنود الميليشيا الذين يرابطون قرب وليامزبيرج وفقدان الإخاء بينهم قد وصل إلى درجة أحدثت تذمرا يكاد يبلغ مرتبة العصيان ، وليس هنالك أمل فى القدرة على إبقائهم فى الخدمة مدة أطول من ذلك . وإن قيام سابقة للعصيان الفعلى سيكون بالغ الضرر حتى ليدعونا هذا إلى الاعتقاد أن إرضاءهم فى الوقت الراهن من أحصف الأمور .

وإن القوانين المعتدلة ، والشعب الذى لم يتعود الطاعة السريعة ، ونقصان مؤن الحرب ووسائل الحصول عليها ، تجعل أوامرنا غالباً غير نافذة ، وتضطرنا إلى أن

مجارى الظروف ، وعند ما لا نستطيع أن ننجز عملا بطريقة ما نحاول إنجازه بطريقة أخرى .

وإنى لآسف إذا ظهرت روح العصيان ، ويجب أن تقمع ؛ فالقوانين التى وضعت برضا الشعب يجب ألا تداس بوساطة الأفراد . وإنه لمن الخير أن يجبر الحقراء على أن يقدموا نصيبهم فى العون العام ، وإلا فسيصبح العبء عليهم ثقيلا حقاً ، والخيالة هم بالتأكيد خير أداة لتوقيع العقاب العام . وقد تكون خير وسيلة لهم ألا يندفعوا ضد المتمردين عندما يجتمعون ؛ إذ ربما يؤدى هذا إلى ثورة مكشوفة أو إراقة الدماء على وجه أكيد ، ولكن يحسن أن يذهبوا إليهم حين يتفرقون وأن يأخذوهم من فراشهم كلا على حدة ، ودون ضجيج وإن لم يوجد من يريدون فى المرة الأولى فيحسن أن يذهبوا إليه مراراً حتى يظلوا على حال من القلق لا يقرون معه على قرار .

شجاعة جند الميليشيا غير المدربين

إن العدو قد اتجه بعد تركه وليامزبيرج إلى بيترزبرج (Petersburg) حيث استقبله الماجور جنرال بارون ستوبين (Steuben) على رأس قوة من جيش الميليشيا الرديف يقل عددها عن ألف . وبالرغم من أن العدو كان يبلغ عدده ألفين وثلاثمائة فإن قوتنا نازعته الميدان فى معركة رائعة مدة ساعتين كسب فى أثنائهما العدو ميلا فقط ، وذلك بالتقدم بوصة بوصة . وأمر جنودنا عندئذ أن ينسحبوا فوق جسر فقاموا بذلك الانسحاب فى نظام تام . وكانت خسائرنا بين الستين والسبعين بين قتيل وجريح وأسير ، أما خسائر العدو فغير معروفة ، ولكن لا بد من أنها مساوية لخسائرنا . ويجب عليهم أن يعترفوا بهذا من أجل شرفهم ، لأنهم هاجموا مرتين وجروا مثل الأغنام حتى أعينوا بجنود جدد .

وما علم الماجور جنرال ماركيز فاييت (Fayette) بالخطر الذى أحدق بنا حتى شق لنفسه الطريق غصباً وأتى هنا بفصيلة من الجنود الأوروبيين ، وجاءت أيضاً نجدات من جنود الميليشيا فلما وجد العدو أننا قادرون على أن نقابله على قدم المساواة ،

رأى أنه من المناسب أن يحرق المستودعات والتبغ فى مانشستر وأن ينسحب إلى واورويك (Warwick) حيث فعل نفس الشىء .

وإن جنود الميليشيا الذين كانوا تنقصهم الأسلحة والخبرة ولم يروا من قبل وجه عدو قد أعطوا أعداءنا فى بعض الأوقات فى أثناء مجرى هذه الحرب فرصاً للنشوة والابتهاج . ولكنهم أمدونا فى أثناء وجودهم فى واورويك بشىء من الرضا كذلك فستمائة أو ثمانمائة من خيرة جنود المشاة عند العدو تحت رياسة الجنرال ارنولد قد فروا بعد أن عبروا النهر من واورويك أمام قوة خفر مؤلفة من ستة عشر فارساً ، واستقل كل واحد منهم زورقه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ثم اندفع بعضهم نحو الشمال وبعضهم نحو الجنوب حسبما ساقتهم مخاوفهم .

ورطة فيرجينيا اليائسة

إن الخطة القوية التى دبرها الهمج الشماليون أرغمت هذه الولاية على أن يكون لها جيش بين ألفين وثلاثة آلاف رجل مجتمعين الآن فى الأوهايو . وأن الشيروكيز (Cherokees) على الزاوية الجنوبية الغربية لحدودنا تستنفد العون الذى تقدمه أقاليمنا القيمة فى تلك المنطقة . فلنؤازر الجنرال جرين ونمنع العدو من دخول بلادنا فى الجنوب نجد أنفسنا مضطرين لأن نرسل كل جنودنا النظاميين ونجدات جند الميليشيا المستمرة ، وعلى شاطئنا البحرى يعسكر فى ثبات عدو قوته ثلاثة آلاف رجل ، وقد أغلق تماماً الباب الوحيد الذى لدينا للتجارة سواء لأغراض خاصة أو عامة ، واضطررنا للاحتفاظ بجيشين من جنود الميليشيا لمنعهم من تخريب الاقليم المتاخم . وبالرغم من هذا فإنى أعتقد مما رأيته أخيراً أننا سنكون فى مأمن لو أن مواطنينا مسلحون ولكن ليس لدينا أسلحة عددها مثل عدد أعدائنا فى الولاية .

ولو أن الأسطول (الفرنسى) أحرز تفوقا فى بحار القارة ، فإنه سينقذ كل شىء من الشمال إلى الجنوب ، ولو أمكن عزل فصائل الجيش البريطانى حالا ، فإن جنود الميليشيا ستسحقها كما ستسحقها المجاعة والمرض والفرار . واعتقادى أن

هذا سيتم حتى وإن وضعت العوائق أمام جيش طائر على أجنحة الريح لينقذ الجزء المكافح منه وهو الجيش الذى يعمل فى نيويورك هذا الأسبوع ، وفى بورتسماوث فى الأسبوع التالى ، وفى تشارلستون فى الأسبوع الثالث . وإن تم هذا فإن حرب القارة ستتغير تغيراً تاماً ، ويمكن لحملة واحدة أن تجرد البريطانيين من الجهود والمفاخر التى كسبوها فى ست حملات .

أهل فيرجينيا يتطلعون الى واشنطون

كتب إلى الجنرال واشنطون :

ليس عندى شك فى أنك قد سمعت عن الاتصال الذى تم بين الجنرال كورنواليس وبين القوة التى تعسكر فى بيترزبيرج تحت قيادة أرنولد . . . وستحكمون سيادتكم — من حالة الأشياء ، ومما تعرفونه عن بلدنا — على ما قد تعانيه فى أثناء الحملة الحاضرة .

وإذا ما عجز العدو عن القضاء على فصيلة لافاييت (Lafayette) الصغيرة من جنود القارة فإن قسما صغيراً من قوته يستطيع مع ذلك أن يعرقل حركات العدو بطريقة فعالة ، على حين أن الجزء الأكبر يستعمل منفصلا ليخرب بلداً غير مسلح ، ويقود عقول الناس إلى التسليم والطاعة تحت تلك الحوادث التى يرون أن ليس هنالك سلطة إنسانية مستعدة لدفعها .

وآمل أن يبرر هذا الظرف لدى سيادتكم العزم على أن تمدنا بعونكم الشخصى ، إذ أن الواضح من الرأى العام أن الناس هنا يرغبون فى وجود مواطنهم المحبوب ، الذى استخدمت مواهبه وقتاً طويلا بنجاح فى إقرار حرية الولايات الشقيقة . وهم لا يزالون يرون أن لهم الحق فى شخصه فقد اعتبروه دائماً موئلهم الأخير فى الشدة : وأعتقد أن ظهوركم بينهم سيعيد إليهم الثقة التامة فى النجاة ، ويجعلهم ذوى كفاية لكل ما ليس بمستحيل :

الجنرال نلسون Nelson يصبح حاكما

ولما كان اتصال اللورد كورنواليس قد تم حوالى منتصف مايو سنة ١٧٨١

بالجيوش الجنوبية الرئيسية فقد اضطر مسيو دى لافاييت (Lafayette) أن ينسحب ، فالعدو عبر النهر وتقدم صعداً فى البلاد حوالى خمسين ميلا ، وكان على بعد ثلاثين ميلا من شارلوتسفيل وهى المكان الذى كانت تنعقد فيه الهيئة التشريعية فى يونيه ، كما كان الحاكم (جيفرسون نفسه) قد ذهب إلى مقره فى مونتيسيلو ، على بعد ميلين أو ثلاثة أميال منها .

وإذ أوشكت الآن فترة قيامه بالحكم على الانتهاء ، وكانت البلاد مغزوة بجيش قوى ولا جدوى هنالك من أية خدمات سوى العسكرية منها ، ولم يكن مستعداً بأسلوب حياته وتعليمه لقيادة الجيوش ، فقد اعتقد أنه من الصواب ألا يقف فى طريق مواهب أصلح من مواهبه الخاصة للظروف التى أحاطت بالبلاد . ولهذا اقترح هو نفسه على أصدقائه فى الهيئة التشريعية تعيين الجنرال (توماس) نلسون (Thomas Nelson) — الذى تولى قيادة جند الميليشيا فى الولاية — حاكماً ؛ لأنه كان يدرك أن جمع السلطة المدنية والعسكرية فى يد واحدة فى هذا الوقت يسهل الإجراءات العسكرية تسهيلا كبيراً . وقد تم هذا التعيين طبقاً لذلك الاقتراح فى ١٢ يونيه سنة ١٧٨١ .

إن تولى دكتاتور الحكم سيكون خيانة

ولما ساءت أحوالنا كثيراً ، اقترح بعض الأعضاء تعيين دكتاتور يخول كل سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية ومدنية وعسكرية ، وفى الحياة والموت ، وعلى أشخاصنا وأملاكنا ، ولم يحتج هذا الاقتراح إلا لأصوات قليلة فقط ليوافق عليه . وإن الشخص الذى دخل هذ الصراع بدافع من الحب الخالص للحرية والإحساس بالحقوق المنتهكة ، والذى صمم على أن يقدم كل تضحية وأن يقابل كل خطر من أجل إعادة تلك الحقوق على أساس ثابت ، والذى لم يقصد إلى إنفاق دمه وماله من أجل الغرض التعس القائم على تغيير سيد بسيد ، وإنما ليضع سلطات حكيمة فى كثرة من الأيدى يختارها بنفسه حتى لا تضطهده الإرادة الفاسدة كرجل واحد فى المستقبل ، لا بد وأن يقف حائراً ومرتاعاً حين يخبره جانب كبير من هذه

الكثرة أنهم فكروا فى أن يسلموا قيادهم إلى يد واحدة ، وأن يقدموه إلى ملك مستبد بدلا من ملك مقيد ! :

فهل هذا التفكير من إملاء ضرورة الموقف ؟ . . . إن الحوادث كذبت ذلك . . . فإن هذا التفكير وحده كان خيانة ضد الشعب ، وخيانة ضد البشرية على وجه العموم فكأنى بالناس يثبتون جميعاً بالسلاسل التى تحنى رقابهم ، وذلك باعطاء المستبدين بهم دليلا يذيعونه فى العالم بأجمعه عن خرق نظام الحكم الجمهورى فى أوقات الخطر الداهم ، وعجزه عن حمايتهم من الأذى ، وأن أولئك الذين يضطلعون بحق التنازل عن مقاليد الحكم فى أية حال يجب أن يتأكدوا من أن القطيع الذى يسلمونه إلى صوبجان الدكتاتور وفأسه سيضع رقابهم على خشبة الإعدام عند ما يومىء إليهم بذلك . ولكن إذا كانت جمعياتنا النيابية تفترض وجود مثل هذا التسليم فى الشعب ، فإنى آمل أنهم قد أخطأوا فهم خلقه .

غزوة تارلتون (Tarleton) . . . لم أكن دون كيشوت

ولما علم (اللورد كورنواليس) أن الهيئة التشريعية مجتمعة فى شارلوتسفيل ، أرسل الكولونيل تارلتون (Tarleton) بفرقة من الفرسان ليفاجئها . ولكن عند مروره فى لويزا (Louisa) مساء الثالث من شهر يونيه ، رآه مستر جويت (Jouett) أحد المواطنين الذى فهم غرضه ، فرحل مباشرة إلى شارلوتسفيل ، مستعينا بمعرفته للمسالك الخاصة فى المنطقة ، ليتفادى معسكر العدو ، وظل راكبا طوال الليل ، وقبل طلوع الشمس ، جاء إلى مونتيسيلو بإشارة عما رأى ثم توجه إلى شارلوتسفيل ليعلن بذلك أعضاء الهيئة التشريعية . وكان يقيم معنا رؤساء المجلسين وبعض الأعضاء الآخرين . فأمرت بإعداد عربة لنقل أسرتى . وقد تناولنا الإفطار فى هدوء مع ضيوفنا ، وبعد الإفطار ذهبوا إلى شارلوتسفيل . وعندئذ وفد علينا أحد الجيران بسرعة فائقة ليخبرنا بأن جماعة من الفرسان تصعد التل إلى منزلنا ، فأبعدت أسرتى فوراً ، وبعد تأخير يسير للقيام ببعض الترتيبات العاجلة امتطيت جوادى . ولما كنت أعرف أننى سوف أكون فى الطريق العام عرضة للسقوط فى يد العدو اخترقت الغابات واتصلت بأسرتى فى منزل صديق حيث تناولنا الغداء .

وهل يصدق أحد ، إذا لم يكن قد عرف الآن ، أن هذا القرار الذى اتخذته لتجنب فرقة من الفرسان كان جيشها جميعه على مقربة لنجدتها ، كان موضوعا لمجلدات من اللوم لى وجهه إلى كتاب حزبيون سواء أكان جادا هذا اللوم أم ساخرا ؟ فلقد أخذ على أننى تجنبت معركة أخوضها وحدى ضد فرقة من فرق الجيش ينتظر النصر فيها المجيد وأننى نسيت المثل النبيل لبطل لامانشا ذلك الذى كان ينشد الشعر ويصوغ النثر . وقد نسوا هم فى الوقت نفسه أننى لم أكن مزودا بالأسلحة السحرية التى كانت لذلك الفارس ولم أكن حتى مزودا بخوذة مابيرينو التى كان يلبسها . إن هؤلاء الأبطال فى المخادع كانوا جديرين بجعل الغابات مساكنهم إذا وجدوا أنفسهم فرادى وغير مسلحين ضد فرقة من الأعداء المدججين بالسلاح .

تارلتون كان مهذبا ، أما كورنواليس فقد كان سلابا فاجرا

إننى لم أقاس شيئاً على يدى (باناستر تارلتون) .

وعلى العكس فقد سلك معى سلوكا مهذبا . . إذ أرسل فرقة من الفرسان تحت قيادة كابتن ماكليود (Captain McLeod) لتحقيق غرض مزدوج بأخذى أسيرا . . وبالبقاء هنالك للنظر وكشف ما يجرى فى المنطقة لأن بيتى على مرتفع يهيئ فرصة رؤية عشرة أو اثنى عشر إقليما حوله . وأعطى أوامر صارمة إلى الكابتن ماكليود بألا يسمح بإحداث أى ضرر لشىء فى منزلى . . . فحافظ ماكليود على كل شىء بعناية مقدسة فى أثناء ما يقرب من ثمانى عشرة ساعة قضاها هنا .

وعسكر اللورد كورنواليس وجيشه على طول المجرى الرئيسى لنهر جيمز حتى مقرلى يسمى « الك هل » (Elk Hill) واختار بيتى فى ذلك المكان مركزا لقيادته وقد دمر كل محصولاتى النامية من الحبوب والتبغ ، وأحرق جميع أجرانى المشتملة على نفس مواد العام الماضى بعد أن أخذ أولا ما احتاج إليه . واستعمل ، كما كان منتظراً منه ، كل ما عندى من ماشية وأغنام وخنازير لتزويد جيشه ، وحمل معه جميع الخيل القادرة على الخدمة . وقطع رقاب الخيول الصغيرة التى لم تكن تصلح للعمل بعد ، وأحرق السياج المضروب على المزرعة حتى يتركها فى خراب مطلق ؛

وحمل معه كذلك حول الثلاثين رقيقا . ولو كان غرضه من هذا أن يمنحهم الحرية لكان ما فعله صوابا . ولكن كان قصده أن يسلمهم إلى الموت المحتوم من مرض الجدرى والحمى العفنة اللذين كانا منتشرين فى معسكره . ولقد علمت بعد ذلك أن هذا كان مصير سبعة وعشرين منهم .

خربت فيرجينيا بالنار والسيف

وإنى أقص هذه الأشياء معتمدا على معرفتى الخاصة إلى حد كبير ؛ لأنى كنت فى المكان الذى نزل به البريطانيون حالما تركوه . فقد عامل اللورد كورنواليس بقية المنطقة بطريقة متشابهة ، ولكن من غير روح الإبادة التامة التى كانت تدفعه إلى تدمير ممتلكاتى . فحيثما ذهب ، كانت المساكن تسلب من كل شيء يمكن نقله ؛

وستحول شخصية اللورد كورنواليس فى انجلترا دون الاعتقاد بأنه شارك فى السلب ، ولكن يستطاع إثبات أن الطعام كان يقدم إليه فى طبق نهب من البيوت الخاصة على هذا النحو بوساطة مئات كثيرين من الشهود الذين رأوا ذلك بأعينهم ؛

وأعتقد من تقدير قمت به فى ذلك الوقت بناء على خير معرفة استطعت جمعها أن ولاية فيرجينيا فقدت تحت أيدى اللورد كورنواليس ذلك العام حوالى ثلاثين ألف رقيق ، وإن من بين هؤلاء قد مات حوالى سبعة وعشرين ألفاً من الجدرى وحمى المعسكر . . . ولن يقص التاريخ مطلقاً قصة الأعمال الفظيعة التى اقترفها الجيش البريطانى فى الولايات الجنوبية الأمريكية . وقد هاجوا فى فيرجينيا ستة أشهر فقط ، من منتصف ابريل إلى منتصف أكتوبر سنة ١٧٨١ ، عندما أخذوا جميعاً أسرى (فى يوركتون) وإنى أعطيك نموذجاً دقيقاً لأعمالهم مدة عشرة أيام فقط ؛ من ذلك الوقت وفى بقعة واحدة فقط ، فمن الجزء يعرف الكل . وأعتقد أن مجموع خسائرنا فى أثناء تلك الستة الأشهر بلغت حوالى ثلاثة ملايين جنيه استرلينى .

خدماته كحاكم فى عهد الحرب يثنى عليها بالإجماع

لم يكن بعض أعضاء (الهيئة التشريعية) موجودين فى ريتشموند فى الوقت الذى

قام فيه أرنولد بعمله التخريبي . وكان من هؤلاء جورج نيكولاس Gearge Nicholas وهو رجل أمين جداً وكفء ولو أنه كان حينئذ شاباً ومتحمساً . وإذ أعتقد أنه وقع بعض الإهمال فى إجراءات الهيئة التنفيذية فى ذلك الموقف . فقد اقترح القيام بتحقيق . . . إلا أن المستر نيكولاس قبل اليوم المحدد أصبح مقتنعاً بما فعلته الهيئة التنفيذية وأغفل إثارة موضوع التحقيق . كما أنه فى منشور نشره بعد ذلك بعدة سنين ، سجل اعترافا مشرفاً بالآراء الخاطئة التى كان يعتنقها فيما يتصل بتلك الإجراءات . ومن ثم فقد قرأت فى مكانى التحقيقات التى أقترح أن يقوم بها ، وذكرت تبريرات الهيئة التنفيذية ووافق كل من مجلسى الهيئة التشريعية العامة فى فيرجينيا ، فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٨١ على الاقتراح التالى :

قرر أن يقدم الشكر الخالص من الهيئة التشريعية العامة إلى حاكمنا السابق ، توماس جيفرسون المحترم ، لإدارته النزيهة المستقيمة اليقظة حين توليه منصبه . وأن ترغب أن تعبر أوضح تعبير عما يكنه أعضاؤها من تقدير كبير لكفاية المستر جيفرسون واستقامته ونزاهته كحاكم رئيسى لهذه الولاية ويسرها أن يعلن الاعتراف رأى أعضائها الذى استقر على إزالة ومحو كل ما ذكر عن لومه ويهمها أن تحيل هذا اللوم شكراً .

بعد يوركتون — أمريكا كما آمل أن أراها

لما كنا فى مقتبل العمر ، وأمامنا بلد ينتظر أن نملأه بالسكان والسعادة . فإنه يجب علينا أن نوجه كل القوة الخلاقة للطبيعة إلى تلك الوجهة وألا نضيع شيئاً منها فى جهود التدمير المتبادل . وينبغى أن يقوم مجهودنا على أن نتمنى السلم والصداقة بيننا وبين كل دولة ، حتى تلك التى ألحقت بنا أشد الضرر . . . وستكون مصلحتنا فى أن نفتح أبواب التجارة وأن نحطم جميع أغلالها ، بأن تمنح حرية تامة لجميع الأشخاص من أجل ضمان منفذ لكل ما قد يختارون إحضاره إلى موانئنا . والمطالبة بنفس المعاملة لنا فى موانيهم . ولم يستعمل حساب مزيف فى أى موضوع مثل ذلك الذى استعمل لإغراء الأمم بأن مصلحتها تتحقق بدخولها الحرب . ولو أن المال الذى

كلفها لتكسب . مدينة صغيرة ، أو إقليماً صغيراً ؛ أو حق قطع الخشب هنا أو صيد السمك هناك : قد أنفق فى تحسين ما تملكه فعلا بإقامة الطرق ، وفتح الأنهار ، وبناء المرافئ ، وتحسين الفنون ، وتوفير العمل للفقراء العاطلين من أبنائها ، لأدى ذلك إلى جعلهم أقوى كثيراً ، وأعظم غنى وأسعد حالا . وإنى لآمل أن يكون هذا الرأى هو الحكمة التى تهدى أعمالنا فى المستقبل .

فى الكونجرس : ١٧٨٣ — ١٧٨٤ — نظام جديد للعملة

لقد عينتنى الهيئة التشريعية فى ٦ من يونيه سنة ١٧٨٣ مندوباً عنها إلى الكونجرس ، على أن يكون بدء التعيين فى أول نوفمبر القادم . ومن ثم غادرت البيت فى ١٦ أكتوبر ، ووصلت إلى ترنتون (Trenton) حيث كان الكونجرس مجتمعاً ، فى الثالث من نوفمبر وأخذت مكانى فى الرابع منه وقد تأجل اجتماع الكونجرس فى اليوم نفسه لنجتمع فى أنابوليس (Annapolis) فى يوم السادس والعشرين من الشهر .

وقد سبق أن اهتم أعضاء الكونجرس منذ ٧ من يناير سنة ١٧٨٢ بعملات النقود المستعملة فى الولايات العديدة وطلبوا إلى المالى روبرت موريس (Robert Morris) أن يقدم إليهم جدولا بنسبة قيمتها . . . فأخذ ذلك الموظف فى دراسة ضرورة وضع أساس لمقياس القيمة عندنا ، وتبنى وحدة للعملة . . . ولقد كانت آراء المالى العامة سديدة ، وكان المبدأ الذى اقترح أن يقيم عليه الوحدة ذكياً ، ولكنه كان صغيراً جداً بالنسبة للاستعمال العادى ، كما كان مرهقاً جداً بالنسبة للإحصاء والعد ، سواء بالرأس أو فى الأرقام .

فثمن رغيف من الخبز $\frac{1}{20}$ من الدولار ، سوف يساوى ٧٢ وحدة . ورطل الزبد يساوى $\frac{1}{5}$ من الدولار أى ٢٨٨ وحدة . وإن حصاناً أو عجلا قيمته ٨٠ دولاراً سوف يتطلب رمزاً مكوناً من ستة أرقام أى ٢٠٠ر١١٥ ، والدين العام إذا افترضنا أنه ثمانون مليوناً سوف يتطلب اثنى عشر رقماً : أى ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ر١١٥ وحدة ؛ وان مثل هذا النظام من حساب النقود سوف لا يضبط مطلقاً فى استعماله لأغراض المجتمع العادية .

ومن ثم اقترحت بدلا من هذا أن نأخذ الدولار كوحدة للحساب والدفع وأن تكون أقسامه وفروعه بالنسبة العشرية . وكتبت بعض المذكرات عن الموضوع ، فاختلف معى المالى . . . . ورددت على هذا وطبعت مذكراتى وأجابنى على فرخ من الورق وضعته فى أيدى أعضاء الكونجرس للدراسة ، فوافقت اللجنة على أن تقدم اقتراحها على أساس مبدئى وقد ووفق على هذا فى العام التالى ، وأصبح النظام الذى يسود الآن :

الحاجة إلى حكومة قوية

كتب إلى چورچ واشنطون :

إن حالة شلل الكونجرس وعجزه عن التصرف ليست جديدة بالنسبة إليك فلدينا تسع ولايات حاضرة ، ثمان منها ممثلة بعضوين عن كل واحدة ، وليس من الضرورى للموافقة على جميع المسائل العظيمة إجماع جميع الولايات وحسب ، وإنما إجماع الأعضاء وهو إجماع لايستطاع الحصول عليه مطلقاً فى أى مسألة ذات أهمية . والنتيجة أننا نضيع وقتنا وجهدنا فى محاولات غير مجدية للقيام بالعمل .

وإنى لأرى خير النتائج فى إرسالنا ساستنا الشبان إلى الكونجرس ، فهم يرون شئون الاتحاد الكونفيديرالى من موقع عال ويتعلمون أهمية الاتحاد ويعطفون على الإجراءات الفيديرالية حين يعودون إلى ولاياتهم . أما أولئك الذين لا يذهبون إلى الكونجرس فإنهم ينظرون إلى إجراءاتنا نظرة انعزالية، ويتبعون سياسة الحسد والمصلحة الذاتية ويزعجون الاتحاد بقدر ما يستطيعون .

وأرى الاعتقاد ينمو نمواً قوياً بأنه لا يستطيع شىء أن يحفظ نظامنا الكونفيديرالى إلا إذا قويت رابطة الاتحاد المتمثلة فى المجلس المشترك (وهو الكونجرس) .

المبادئ الأساسية للاتحاد الفيديرالى

ولقد وافق أعضاء اللجنة على (مشروع جيفرسون) الذى يذهب إلى أن ما ترك من أقاليم للولايات المتحدة أو ما سيترك بعد ذلك سوف يقسم إلى ولايات منفصلة . :

على شرط أن تقام الحكومات المؤقته والدائمة على المبادئ الآتية كأساس لها :

١ — أن تبقى إلى الأبد جزءاً من الاتحاد الكونفيديرالى للولايات المتحـــدة الأمريكية .

٢ — انها فى أشخاصها وملكيتها وإقليمها ستكون خاضعة لحكومة الولايات المتحدة المجتمعة فى الكونجرس ولقوانين الاتحاد الكونفيديرالى فى جميع تلك الحالات التى ستكون فيها الولايات الأصلية خاضعة على هذا النحو .

٣ — انها ستكون خاضعة لأن تدفع جزءا من الديون الفيديرالية المتعاقد عليها أو التى سيتعاقد عليها وأن تقسم عليها بوساطة الكونجرس طبقا لنفس القاعدة والمقياس العام الذى به تقرر أنصبة الولايات الأخرى منها .

٤ — ان حكوماتها الخاصة ستكون فى أشكال جمهورية ، وسوف لا تسمح لأى شخص يحمل أى لقب وراثى بأن يكون مواطنا فيها .

٥ — انه بعد سنة ١٨٠٠ ميلادية لن يكون هناك رق أو استعباد غير اختيارى فى أى من الولايات المذكورة .

إنه حين يتهيأ لأية ولاية من الولايات المذكورة عدد من السكان الأحرار يساوى ما يوجد منهم فى أية ولاية من أقل الولايات الثلاث عشرة الأصلية عددا ، فإن مثل هذه الولاية ستقبل على أساس متساو مع الولايات الأصلية المذكورة .

إن صوتاً واحداً فقط أبقى الرق فى الأقاليم

إن تشريع الكونجرس (القانون الأساسى لسنة ١٧٨٤ الذى يمس جميع الأقاليم من البحيرات العظمى إلى خليج المكسيك) يبين كيف ومتى تصبح هذه الأقاليم أعضاء فى الاتحاد . . . وستلاحظ أن مادتين قد حذفتا من التقرير : أولاهما الخاصـــة بالألقاب الوراثية ، والثانية بالرق . وقد حذفت الأولى لا للموافقة على مثل هذه الألقاب ولكن لأنه رئى أن هذا المكان غير ملائم لمعالجتها . أما المادة الثانية فقـــد ضاعت بصوت واحد فقط . فعشر ولايات كانت حاضرة وأيدت تلك المادة الأربع الولايات الشرقية ونيويورك وبنسيلفانيا . وقد كانت جيرسى (Jersey) لتؤيدها ، ولكن

لم يكن هناك سوى عضوين ، كان أحدهما مريضاً فى حجرته أما كارولينا الجنوبية وماريلاند وفرجينيا فقد اقترعت ضدها . وكانت كارولينا الشمالية منقسمة ، كما كانت فرجينيا خليقة أن تنقسم لولا أن كان أحد مندوبيها مريضاً فى الفراش .

وإن صوت فرد واحد من الولاية التى كانت منقسمة ، أو صوتا من أصوات الولايات المعارضة ، قد كان ليمنع هذه الجريمة الشنعاء من الانتشار فى ربوع البلد الجديد . ومن ثم نرى مصير الملايين التى لم تولد بعد معلقاً على لسان رجل واحد : وصمتت السماء فى تلك اللحظة الرهيبة ! ولكن نأمل أنها لن تكون دائماً صامتة وأن يتغلب أصدقاء الحقوق الطبيعية للبشر فى النهاية .

يفكر فى اعتزال الحياة السياسية والمعيشية فى مونتيسيلو

(كتب إلى ماديسون) :

إن مونرو يشترى أرضا تكاد تكون ملاصقة لى . وسيفعل (وليام) شورت نفس الشىء ، وما أظننى أبخل بشىء إذا فكرت أنت الآخر أن تنضم إلى الدائرة . فإننى مثل هذه الجماعة ، أستطيع مرة ثانية أن أجرؤ على العودة إلى بيتى وأن أعتكف بقية الحياة تاركا جانبا جميع منازعاتها التى تصبح يوماً فيوماً غير محتملة . فكر فى هذا . ولا يتطلب هذا المشروع ، لكى يكون عملياً وممكن التطبيق ، إلا أن تفكر فيه كما أفكر .

فما للحياة أية قيمة إلا إذا جلبت معها دواعى الرضا والسرور . وإن المجتمع الفكرى أهمها جميعاً . فهو ينير العقل ، ويهذب الخلق وييسر أرواحنا ويقوى الصحة .

ولو أنك جعلت منا مجموعة رباعية بانضمامك إلينا فإن لى أن أعتقد أن الحياة لا تزال تختزن لى بعض السعادة ، إذ المجتمع الملائم هو العنصر الجوهرى الأول فى بناء سعادتنا وقيمة وجودنا . وهو شرط جدير بالانتباه العظيم حين نقدم على اختيار مسكن لنا . فزن جيداً قيمة هذه الحياة الاجتماعية مقابل الفرق فى النفع المالى واسأل نفسك أيهما يضيف أكثر إلى مقدار هناءتك خلال الحياة . وأعتقد أنك إن وزنتهما

بهذا الميزان فإن قرارك سيتفق ورجاءنا . . . وإنى أرى أن الأمل المرتقب من هذا المجتمع لا يمكن تقديره .

ولكن يذهب إلى فرنسا كوزير مفوض فوق العادة

قرر الكونجرس فى ٧ من مايو سنة ١٧٨٤ أنه يجب أن يعين وزير فوق العادة بالإضافة إلى مستر آدمز والدكتور فرانكلين للمفاوضة فى معاهدات التجارة مع الأمم الأجنبية ، وقد وقع الاختيار علىّ للقيام بهذا الواجب . ولذلك غادرت أنا بوليس (Annapolis) فى اليوم الحادى عشر . وأخذت معى ابنتى الكبرى التى كانت عندئذ فى فيلادلفيا وواصلت السير إلى بوسطون للبحث عن باخرة للسفر . ولقد حرصت فى أثناء مرورى خلال الولايات المختلفة على أن ألم بحالة التجارة فى كل ولاية ، وذهبت إلى نيوهامبشير بنفس القصد وعدت إلى بوسطون .

وأبحرت من هنالك فى الخامس من شهر يوليه على « سريز (Ceres) وهى سفينة تجارية يملكها مستر ناثانييل تراسى (Nethaniel Tracey) فكانت متجهة إلى كاويز (Cowes) . وكان هو نفسه راكبا معنا وبعد رحلة سارة استغرقت تسعة عشر يوماً من البر إلى البر ، وصلنا إلى كاويز (Cowes) فى السادس والعشرين . وقد حجزت هنالك بضعة أيام بسبب مرض ابنتى ، وفى الثلاثين من الشهر ركبنا إلى هافر (Havre) ووصلنا هنالك فى الحادى والثلاثين ، وتركناها فى الثالث من أغسطس ، ووصلنا باريس فى السادس منه . فزرت مباشرة الدكتور فرانكلين فى باسى (Passy) وأبلغته ما كلفنا به ، وكتبنا إلى المستر آدمز الذى كان حينئذ فى لاهاى (The Hague) ليلحق بنا فى باريس .

الفصل السابع

أمريكى فى باريس

منذ أن وصل توماس جيفرسون إلى باريس فى أغسطس سنة ١٧٨٤ حتى مغادرته إياها فى خريف سنة ١٧٨٩ خدم بمقدرة كدبلوماسى وكمبعوث أول خاص ، ثم بعدئذ كوزير أمريكا إلى فرنسا خليفة لبينيامين فرانكلين ، وقد ظل فى هذه الوظيفة مدة أربعة أعوام . وكانت واجباته الدبلوماسية ، كما يخبرنا ، موجهة بصفة خاصة إلى كسب معاملة طيبة لتجارة أمريكا . ولو أن فرنسا كانت تستشعر صداقة كافية نحو أمريكا ، إلا أن كبرياءه الأمريكية الحساسة جعلته يحس بالألم من أثر الازدراء الحالى الذى تظهره أمم أوروبا نحو « جمهورية العالم الجديد » الحديثة .

وكانت بريطانيا العظمى بصفة خاصة معادية لأمريكا ، كما اكتشف ذلك عندما ذهب إلى لندن فى سنة ١٧٨٦ ليعاون جون آدمز فى مفاوضاته ببلاط جورج الثالث « الشبيه بالبغل » . أما موقفه من قراصنة البربر فقد ألح جيفرسون على محاربتهم مفضلا ذلك على دفع الجزية لهم ، ولكن الولايات المتحدة كانت حينئذ ضعيفة جداً حتى إنها كانت غير قادرة على أن تقدم سفينة واحدة لتنفيذ سياسته الخاصة بحماية الملاحة لتجارة أمريكا وبحارتها .

وكان قراصنة شمالى أفريقيا مصدراً للقلق عندما قام بإبحار بنته الصغيرة بولى (مارى) من فيرجينيا لتلحق به وببنته باتسى (مارثا) فى باريس ولقد كان يرعى بنتيه الصغيرتين باهتمام ملؤه الحنان . ولم يظهر عصبيته الأمريكية المتحمسة فى نصح باتسى أن تتغلب على دراساتها بالاعتماد الأمريكى على النفس فقط ، وإنما فى مقابلته ضروب الهناءة المنزلية فى بلاده بأنواع النشاط اليومى الذى تقوم به الباريسية ، وفى تعداد مساوئ التعليم الأوروبى بالنسبة لمواطنيه . ومع ذلك فقد أحب الشعب الفرنسى بكل قلبه واستمتع بالدوائر الفكرية والفنية التى قدمه إليها فرانكلين ولافاييت لقد أحب باريس بمسارحها وحفلاتها الموسيقية وحوانيتها (التى اشترى منها كورسيه

لابنه جون آدمز) وغابة بولونيا التى كان فى أثناء مشيه أو ركوبه اليومى فيها يفكر بحرارة فى أصدقائه الغائبين عنه ويتأمل أمورا أخرى مثل آخر اختراع قام به هودون (Houdon) أو دافيد (David) أو التحسين فى تثنية البيانو ، أو مقالا عن علم العروض الإنجليزى كان يكتبه لصديقه القديم شاستيلى الذى قضى معه مرة ليلة فى مونتيسيلو يناقش شعر أوسيان حول كأس من شراب البنش .

وقد أرسل من باريس بعض المعلومات عن « لباب العلم » لأصدقائه من العلماء فى أمريكا . وكان يعد الكبريت الفسفورى اكتشافاً جميلا ، واختلف مع الكونت دى بيفون بشأن مستقبل الكيمياء ، ولاحظ أعمال الكشف الأولى فى الملاحة الجوية ، وتأثر بفوائد استخدام طرق الإنتاج الكبيرة فى الصناعة . وأجبر بيفون على أن يغير آراءه عن التاريخ الطبيعى ، وجمع نباتات وحيوانات نافعة لنقلها إلى أمريكا . ووجد أيضاً وقتا ليبتكر مطبعة تسخ سهلة الحمل والنقل ، وأن يصمم مركبة مكشوفة (فيتون) ، وأن يصنع خريطة لولايته الأصلية لترفقها مطبعة باريس بكتابة « مذكرات عن فيرجينيا » ، وأن يرسم المشروعات المعمارية لدار حكومة فيرجينيا فى ريتشموند .

وهكذا وفق فى تنمية رغباته العلمية والفنية واستمتع بفرص الرقة الاجتماعية فى باريس . ولكن مثل هذه المسرات لم تعمه عن مصير الرجل العادى فى « العالم القديم » الملكى إذكان جيفرسون طوال إقامته فى الخارج ، ملاحظا ناقدا ، وما رآه من « منظر التباهى فى أوروبا » لم يزده إلا عمقا وقوة فى عصبيته الأمريكية الديمقراطية .

على مسرح أوروبا

هأنذا آخر الأمر على مسرح أوروبا المزدهى فخارا ! إنه ليس من الضرورى لك أن أدخل فى تفاصيل خاصة به ولكن ربما تتطلع إلى معرفة كيف أثر هذا المنظر الجديد فى متوحش من جبال أمريكا . وأؤكد لك أنه لم يكن تأثيراً نافعا ؛ فإننى أجد مصير البشرية العام أدعى ما يكون إلى الرثاء ؛ فحقيقة ملاحظة ڤولتير (Voltaire)

قائمة أبداً ، وهى أن كل شخص هنا لا بد من أن يكون إما المطرقة وإما السندان . وهذه صورة صادقة لذلك البلد الذى يقولون اننا سنبلغه آخر الأمر حيث نرى الله وملائكته فى سناء ، وجماهير الذين أصابتهم اللعنة قد وطئتهم أقدامهم .

وعلى حين أن الجمهرة العظيمة من الشعب تعانى — على هذا النحو — الاضطهاد المادى والمعنوى . . . فإن مؤامرات الحب تشغل الشباب ، ومؤامرات الطمع تشغل الشيوخ من عظماء القوم . ولما كان الحب فى الزواج لا وجود له بينهم ، فإن السعادة البيتية التى تقوم على ذلك غير معروفة تماماً . وبدلا من هذا قد حلت الأعمال التى تغذى وتقوى جميع مواقفنا السيئة ، والتى تهب فقط لحظات من النشوة وسط أيام وشهور من القلق والعذاب .

وإن هذه الحالة لأدنى كثيراً ، وكثيراً جداً ، من السعادة الهادئة الدائمة التى يبارك بها المجتمع المنزلى فى أمريكا معظم أفراده تاركاً إياهم يتابعون بانتظام تلك الأعمال التى تقرها الصحة والعقل ، وجاعلا فترات تلك المساعى لذيذة حقاً .

الأخلاق الحميدة والفنون الجميلة

وإن جمهرة الشعب تتخلف عن جمهرتنا قرنين فى العلم ، أما أهل الأدب فيسبقوننا ستة أعوام ، والكتب الجيدة حقاً تحوز الشهرة التى تستحقها ، ومن ثم تصبح معروفة لنا وتنقل إلينا كل ما يحرزونه من تقدم فى المعرفة .

ولكن ألا يعوض هذا التأخير بوجودنا بعيدين عن نطاق ذلك الحشد من المطبوعات اللاغية التى تصدر كل يوم من آلاف المصانع وتهلك تقريباً فور صدورها ، وأما فيما يتصل بما يسمى العادات المهذبة ، فإنى أتمنى دون تضحية كبيرة بتخليص اللغة ونقائها أن يأخذ بنو وطنى بدور من التهذيب الأوربى ، يهيئهم لبذل جميع التضحيات الصغيرة للذات مما يجعل العادات الأوروبية محببة حقاً وينقذ المجتمع من المناظر المؤذية التى كثيراً ما تعرضه الخشونة لها . فهنا يبدو أن الشخص قد يقضى حياة كاملة دون أن يقابل مظهراً واحداً من مظاهر الخشونة . وهم يتقدموننا إلى حد بعيد فى آداب المائدة ومسراتها ، لأنهم يجمعون إلى حسن الذوق العفة والاعتدال . . . فهم

لا يضعون حداً لحفلات الطعام الاجتماعية بتحويل أنفسهم إلى وحوش . ولم أر مطلقاً حتى الآن شخصاً ثملا فى فرنسا حتى بين أدنى الناس .

ولو أننى أخذت أصف لك كيف أستمتع بعمارهم ونحتهم وتصويرهم وموسيقاهم لاحتجت إلى ألفاظ للتعبير . ففى هذه الفنون يتمتعون فى موسيقاهم على وجه خاص متعة لا يمكن تقدير الخسارة التى تصيبنا إذا حرمناها . وإنى لأكاد أكون على استعداد للقول إنها الشىء الوحيد الذى أحسدهم عليه من قلبى ، والذى أشتهى امتلاكه بالرغم من كل ما للوصايا العشر من سلطة . ولكن أجد نفسى مسوقاً إلى تقدير للأشياء مشوب بما أحضرته معى من أهواء الوطن والعادة والعصر .

إعداد المعاهدات وعقدها مع جون آدمز ودكتور فرانكلين

لحق بنا على الفور المستر آدمز إلى باريس ، وكان عملنا الأول أن نعد مذكرة عامة لنقترح على الأمم التى تميل إلى التعامل معنا ، إنشاء مادة تقضى بإعفاء جميع المراكب التجارية وما تحمل من بضائع ، عندما تستخدم فى نقل التجارة بين الأمم ، من الأسر بوساطة السفن المسلحة الخاصة أو العامة لأى من الطرفين المتحاربين ، وقد ضمناها شرطاً يحول دون ازعاج صيادى السمك والفلاحين والمواطنين غير المسلحين الذين يباشرون أعمالهم فى أماكن غير محصنة ، كما طالبنا أن يعامل أسرى الحرب معاملة إنسانية ، وأن تلغى محظورات الحرب التى تعرض المراكب التجارية لمثل ما تتعرض له عادة من حجز وإساءة مثيرة مدمرة ، وطالبنا أيضاً بإقرار مبدأ « سفن حرة » ، و « بضائع حرة » .

ولقد اختبرنا فى رقة اتجاهات وزراء الأمم الأوروبية العديدة فى بلاط فرساى « Versailles » عن ميولهم نحو التجارة المتبادلة وملاءمة تشجيعها بعقد معاهدة لحمايتها فقابلنا فردريك الأكبر ملك بروسيا وكانت مقابلة ودية ، ودخلت دنمارك وتسكانى معنا فى مفاوضات ، أما الدول الأخرى التى بدت غير مكترثة فلم نر من الملائم أن نضغط عليها . ويبدو فى الواقع أنهم لا يعرفون عنا إلا القليل وأننا لسنا سوى ثوار نجحنا فى التخلص من نير موطننا الأم . وكانوا فى جهل تام

بتجارتنا التي كانت تحتكرها إنجلترا ، وبتبادل السلع التي قد تعرضها إنجلترا لمنفعة الطرفين . وكانوا لذلك أميل إلى أن يقفوا عازفين حتى يستطيعوا أن يروا في ضوء أوضح نوع العلاقات التي يفيدهم إنشاؤها معنا .

ينجح ولكنه لا يحل محل بنيامين فرانكلين

ولما كان المستر آدمز قد عين وزيراً فوق العادة للولايات الأمريكية في لندن فقد تركنا الدكتور آدمز في يونية وعاد الدكتور فرانكلين في يوليه سنة ١٧٨٥ إلى أمريكا وعينت خلفاً له في باريس .

وبدا لى أن الإحترام والاجلال اللذين حاطا الدكتور فرانكلين في فرنسا يفوقان ما حاطا أي شخص آخر في البلد نفسه سواء أكان أجنبياً أم من أهله .

ولقد أتيح لى أن أقف على مقدار العواطف التي تجيش بها نفوس السفراء والوزراء الأجانب في بلاط فرساى نحو فرانكلين ، ولم تثر الأسطورة التي أذاعتها الصحف الإنجليزية عن أسره بوساطة الجزائريين أي قلق ، إذ رئى أنها طبق من الطعام أعد طهيه ليناسب ذوق قرائها . ولكن قلق إخوانه من الدبلوماسيين بلغ أقصاه عند سماعهم خبراً جاء بعد هذا عن موته وكان يحمل بعض علامات الصدق ولو أنه كان سابقاً لأوانه . . . وحين غادر فرانكلين باسي « Passy » بدا كأن القرية قد فقدت راعيها ، وعند استئذانه البلاط أمر الملك أن يجامل بأرق الثناء ، وزوده بمحفة وبغال من مقتنياته الخاصة ، وهو النوع الوحيد من النقل الذي تستطيع حالته الصحية أن تحتمله .

وإن تعييني بعد الدكتور فرانكلين في بلاط فرساى كان مدرسة رائعة للخشوع والتواضع . فكلما قُدِّمت إلى أي أحد كوزير لأمريكا كان السؤال العادي في مثل هذه الحالات هو : « أنت يا سيدي الذي حل محل الدكتور فرانكلين ؟ » وكنت أرد عادة بقولي ، لن يستطيع أحد أن يحل محله يا سيدي فأنا خليفته فقط ؟ » .

وكانت واجباتى فى باريس محصورة فى موضوعات قليلة : تتسلم ما نحتاج إليه من زيوت التمساح والسمك والملح واللحوم المملحة بشروط مناسبة ، والسماح لأرزنا ومعاملته بشروط مساوية لما يعامل به أرز بيدمونت « Piedmont » ومصر والليڤانت ، وتخفيف احتكارات تبغنا بوساطة مجلس المزارعين والسماح الحر لمنتجاتنا فى جزائرهم كانت وحدها الأهداف التجارية الرئيسية التى تتطلب الاهتمام ، وقد عاونني الماركيز دى لافييت معاونة قوية مستخدماً نفوذه ونشاطه فى هذه المناسبات وأثبت أنه متحمس لرفاهية كلتا الأمتين وصداقتهما على السواء . وإقراراً للعدل ، يجب على أن أقول أيضاً إنى وجدت الحكومة ميالة تمام الميل إلى أن تصادقنا فى جميع الحالات وأن تقدم لنا كل تساهل لا يضر بمصالحهم ضرراً كبيراً .

مؤلف إعلان الاستقلال الأمريكى يقابل جورج الثالث « الفظ »

كتب إلى مستر آدمز « Adams » فى فبراير سنة ١٧٨٦ ملحاً فى أن ألحق به فى لندن على الفور ، إذ ظن أنه اكتشف هناك بعض علامات ميل أفضل نحونا . . . . ومن ثم تركت باريس فى أول مارس وعند وصولى إلى لندن اتفقنا على صورة موجزة جداً لمعاهدة ، وقد اقترحنا تبادل الجنسية لمواطنينا وسفننا ومنتجاتنا على وجه العموم فيما عدا ما يتصل بتولى المناصب العامة . وعند تقديمى كالعادة إلى الملك والملكة فى استقبالهما الرسمى كان من المحال أن يوجد شىء أبعد عن الكرم من ملاحظتهما عن مستر آدمز وعن نفسى . ورأيت فى الحال أن التقرح فى العقل الضيق لذلك الكائن الشبيه بالبغل لم يترك خيراً نتوقعه من موضوع هذا الاستقبال ، وقد غادرت لندن فى السادس والعشرين ، بعد أن بقيت هناك سبعة أسابيع « دون جدوى » ووصلت إلى باريس فى الثلاثين من أبريل .

ان تلك الأمة تكرهنا ، ووزراءها يكرهوننا ، وملكها يكرهنا أكثر من الآخرين جميعاً . وهم من عدم الحصافة بحيث يعترفون بهذا . . . كما أن عرضنا بإقامة تنظيمات تجارية قد قوبل بازدراء يبين رأيهم الثابت فى أننا لن نتحد أبداً لقمع تجارتهم ، أو حتى لتعطيلها وأعتقد أن عداوتهم نحونا تأصلت فى الوقت الحاضر أكثر

مما كانت حين الحرب ، ونحن فى مقتبل العمر ، وتستطيع أن نبقى أحياء دونهم ، ولكن نظامهم الفاسد لابد أن يتحطم فى المحنة . . . ولن أعجب حين أرى مناظر روما القديمة وقرطاجنة تتجدد اليوم .

وان السلم والصداقة مع جميع البشر هما أحكم سياسة لنا وآمل أن يسمح لنا بمتابعتها . ولكن مزاج أعدائنا وحماقتهم قد لا يتركان الخيار لسلوك هذه السبيل .

الحرب ، لا الجزية لقراصنة البربر

إننا بذلنا بعض الجهود لنكتشف المبالغ التى تعطيها أمم أوربا إلى دول البربر لتشترى سلامتها . ولم يقولوا شيئاً عن هذا ، إلا أنه يبدو من بعض التلميحات أنها تدفع مبلغاً كبيراً ، وأتوقع أن دول البربر ستفرض علينا أن ندفع سنوياً مائة أو مائتين وربما ثلاثمائة ألف دولار . ومن المؤكد أن شعبنا لن يدفع هذا ، وفى هذه الحالة أليس الأفضل أن نقدم إليهم معاهدة تقوم على المعاملة بالمثل ، وإذا رفضوا ذلك ، فلماذا لا ندخل فى حرب معهم ؟ . وينبغى أن نبدأ ببناء قوة بحرية إذا كنا نريد مواصلة تجارتنا . وهل نستطيع أن نبدأها فى مناسبة أشرف من هذه المناسبة أو مع عدو أضعف من هذا العدو ؟ فإنى أرى أن بول جونز (Paul Jones) بستة بوارج سيحطم تجارتهم تحطيما كاملا .

ولدينا خطتان نتبعهما : الأولى تقوم على عدم نقل أى شىء لأنفسنا ، وذلك يجعل أنفسنا غير معرضين لإيذاء الدول الأوروبية . والثانية (وهى ما سوف يؤيدها بلدنا) تقوم على أن ننقل أكبر قدر ممكن . ولكن سيحتاج هذا إلى قوة حامية على البحر وإلا فإن أصغر دولة فى أوروبا وكل دولة تملك سفينة واحدة من سفن الحرب ، قد تملى علينا مطالبها وتنفذها بأعمال الاستيلاء على تجارتنا . ولهذا فإن وجود قوة بحرية ضرورى إذا أردنا أن نكون أمة تجارية . . وثق من أن ما تظهره أمم أوروبا فى الوقت الحاضر من عدم احترام لنا لا مفر من أن يفضى إلى اعتداءات تورطنا فى حرب لا محيد عنها .

والجبان دائماً أكثر تعرضاً للمعارك من الرجل الجرىء .

وكنت غير راغب فى أن نخضع للمذلة الأوروبية التى تتمثل فى دفع جزية لقراصنة أفريقيا الشمالية وحاولت أن أكوّن اتحاداً للدول الخاضعة لمثل هذا السلب المعتاد منها . ومن ثم فقد أعددت واقترحت شروطاً للعمل المشترك بين الدول المتحاربة مع دول القراصنة من البربر مبتدئين بالجزائريين . . وكان من المتوقع أن الاتحاد الكونفيديرالى الأمريكى سوف يساهم ببارجة وتكاليفها لتكون فى طواف مستمر ، ولكن سلطاته الاستشارية للحصول على مساهمات لهذا الغرض لم تستطع أن تصل إلى هذا بسبب تعدد الولايات فاضطر إلى النكوص عن هذا التعهد مرتئياً أنه لن يستطيع المثابرة على تحقيقه ، ولهذا أخفق المشروع .

حماية ابنتى العزيزة من أسر القراصنة

لا بد لى الآن من أن أردد رغبتى فى أن ترسل إلى بوللى (مارى) فى الصيف المقبل ومع ذلك فإن هذا يتوقف على إبحار سفينة جيدة من فيرجينيا فى شهر ابريل أو مايو أو يونية أو يولية . وأفضل أن تبدأ رحلتها أولا أو آخراً بسبب اعتدال الفصول . ويجب أن تكون السفينة قد قامت برحلة واحدة على الأقل ، ولكن يجب ألا يزيد عمر هذه السفينة عن أربع أو خمس سنين . . وإن جوانب قلبى حول هذا الموضوع تغرينى بالاستطراد فى تفاصيل لا نهاية لها . . وأضيف فقط أننى أفضل العيش عاماً أطول بدونها عن أن يعهد بها إلى سفينة لا أثق بها ، أو جو لا أطمئن إليه . وأن باتسى (مارثا) فى صحة حسنة وهى تتكلم الفرنسية بيسر كما تتكلم الإنجليزية ، لم أستطع أنا ولا (دافيد) همفريز David Humphreys سكرتير المفوضية ولا وليام شورت السكرتير الخاص أن نزيد معلوماتنا فى هذه اللغة عما كانت عليه حين هبطنا أرض فرنسا .

وإنى مضطر إلى أن أضيف احتياطاً آخر إلى الاحتياطات المقترحة ؛ فالجزائريون فى هذا الخريف أخذوا منا سفينتين وأصبح لديهم الآن اثنان وعشرون من مواطنينا فى رق ، ولا أعتقد أن التأمين ضدهم على المراكب الآتية إلى فرنسا سيساوى نصفاً فى المائة ، ولكن من الذى يستطيع أن يقدر قيمة نصف فى المائة على مصير

طفل ؟ إن عقلى يثور عند ما أتصور أن الاستيلاء على المركب الذى يقل ابنتى قد يكون ممكناً ، ولذلك ما لم تسمع منى أنا دون وثوق بأنباء أى شخص آخر على الأرض أن السلام قد عقد مع الجزائريين ، فلا ترسلها إلا فى سفينة فرنسية أو إنجليزية ، لأن هذه السفن وحدها هى التى تأمن أن يأخذها البربر غنيمة لهم .

إن عزيزتى بوللى Polly وصلت سالمة هنا وفى صحة طيبة ، وقد تعلقت بالكابتن رامزى Ramsay إلى حد جعلهم يضطرون إلى أن يخدعوها عنه وظلت ثلاثة أسابيع فى لندن مع زوجة جون آدمز وتعلقت بها تعلقاً ساقها إلى أن ترفض المجىء مع الشخص الذى أرسلته إليها ، وبعد بضعة أيام أقنعوها بالحضور ولم تعرف أختها كما لم تعرفنى ولكن سرعان ما عرفتنا وسرعان ما تعلقت بنا ، وهى الآن فى نفس الدير ـ بانتيمونت « Panthemont » مع أختها وستأتى لترانى مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهو بيت للتعليم ، ويعد خير ما يوجد فى فرنسا ، ويحاضر فيه خير المعلمين . وفيه من البروتستانت قدر ما فيه من الكاثوليك وموضوع الدين هناك مستبعد فى أحاديثهم .

تغلبى على ليفى « Livy » يا عزيزتى باتسى بعزم أمريكى

إننى لا أحب قولك إنك غير قادرة على أن تقرئى الكتابة القديمة لمؤلفات ليفى « Livy » إلا بمساعدة معلمك . فنحن دائماً كفاة لما نضطلع به فى عزم ، وإن قليلا من هذا العزم سيساعدك على أن تفهمى كتابة ليفى . وإذا أنت اعتمدت دائماً على معلمك ، فلن تتمكنى أبداً من التقدم بدونه . وإنه لمن الخلق الأمريكى ألا نعتبر شيئاً أمراً يائساً مستحيل المنال ، ومن الخلق الأمريكى أن نتغلب على كل صعوبة بالعزم والتدبير ، ففى أوروبا توجد حوانيت لكل حاجة ، ولهذا فإن أهلها ليس لديهم فكرة عن إمكان تلبية حاجاتهم عن الطريق الوعر ، أما نحن فلبعدنا عن كل عون آخر ، نجد أنفسنا مضطرين لأن نبتكر وأن ننفذ ، وأن نجد الوسيلة داخل أنفسنا وألا نعتمد على الآخرين . فاعتبرى إذن التغلب على دراسة ليفى كتدريب فى عادة التغلب على الصعاب ، وهى عادة ستكون ضرورية لك فى البلد الذى ستعيشين فيه ، وبدونها ستظلين حيواناً عاجزاً كل العجز ويضمحل تقديرك

للأمور فالموسيقى والرسم والكتب والابتكار والرياضة ستكون وسائل تسلية لك ضد الملل ولكن هنالك آخرين يضيفون المنفعة إلى التسلية : ويتمثل هـذا فى عمل الإبرة والتدبير المنزلى : أما عن التدبير المنزلى فأنت لا تستطيعين أن تتعلميه هنا .

يوم باريسية

إن اليوم يبتدىء فى الساعة الحادية عشرة عند السيدة الباريسية . فترفع الستائر والوسائد وتصفف شعرها تصفيفاً قليلا ثم تقرأ نشرات المرضى وبطاقات الأصحاء . وتكتب إلى بعض معارفها وتستقبل زيارات صديقات أخريات ، وإذا لم يكن الصباح مزدحماً فإنها تستطيع أن تخرج وتسير متثاقلة حول القصر الملكى ، ولكن عليها أن تتعجل السير آخر الأمر لأن دور الحلاق قد جاء ، وما أعظمه من دور ! ويصاحبه التوفيق إن هو جعلها تصل إلى دارها عند ما يكون الغداء قد انتهى نصفه ؟ وحين ينقضى كسل الهضم قليلا تهفو نصف ساعة فى الشوارع لرد الزيارات : وبعدئذ ترد دور المناظر فإذا ما انتهت من هذا خصصت نصف ساعة لاختلاس الدخول والخروج من أبواب صديقاتها المخلصات جداً ، وبعدئذ تذهب لتناول العشاء . وبعد العشاء تلعب الورق ، وبعد الورق تنام لتستيقظ ظهر اليوم التالى وتلوس مثل حصان الطاحون نفس الدائرة التى داستها مرة ثانية من جديد .

وعلى هذا المنوال نستهلك أيام الحياة اليوم بعد الآخر ، دون هدف وراء اللحظة الحاضرة إلا الفرار من الملل الذى يلازمنا مع ذلك لأننا نحمله فى نفوسنا ، ونسعى دائماً لتحصيل السعادة التى تظل أبد الدهر أمامنا . وإن صادف أن الموت أو الإفلاس أسقطنا من الدائرة ، فإن هذا يكون موضوعاً لطنين المساء ، ثم هو إلى نسيان تام فى اليوم التالى . أما فى أمريكا من الناحية الأخرى ، فإن مجتمع زوجك : والرعاية الشفوق بأطفالك وترتيبات البيت ، وتحسينات موقعه ، تملأ كل لحظة بنشاط صحى نافع . وإن كل جهد يجمع إلى المتعة الحاضرة التمهيد إلى تحقيق بعض الخير فى المستقبل جهد جدير بالتشجيع : كما أن فترات القراءة تملأ بمجتمع الأصدقاء الحقيقيين الذين

ترق عواطفهم حتى تصبح أوهى من خيوط عنكبوت وذلك لأنها تعنى بألف شىء .
وهذه هى الصورة فى الضوء الذى تعرض فيه لذهنى .

التعليم الأجنبى : « اغفر لى عصبيتى الأمريكية المتحمسة »

دعنا نستعرض مساوئ إرسال شاب إلى أوروبا . ولما كان إحصاؤها جميعاً يتطلب مجلداً ، فإنى سأختار القليل منها . فإن ذهب إلى انجلترا ، فإنه يتعلم شرب الخمر وسباق الخيل والمصارعة . فتلك هى خصائص التعليم الإنجليزى . أما الظروف الآتية فهى شائعة فى التعليم فى انجلترا وفى بلاد أوروبا الأخرى . فهو يكتسب ولعاً بالترف الأوروبى والانهماك فى الملاذ وازدراء البساطة التى تميز بلده . ويفتن بامتيازات الارستقراطيين فى أوروبا . وينظر بالمقت إلى المساواة الجميلة التى يستمتع بها الفقراء مع الأغنياء فى موطنه الأصلى ، ويصاب بعدوى التحيز للارستقراطية الملكية ، ويكوّن صداقات أجنبية لن تكون نافعة له أبداً ، ويفقد فصول الحياة التى يقضيها فى وطنه ، ويفقد أيضاً تلك الصداقات التى تمتاز من بين الصداقات جميعاً بأنها أعظم وفاء ودواما . ويقاد بأقوى العواطف البشرية إلى روح التآمر النسوى وهى مدمرة لصحته الخاصة وسعادة الآخرين ، أو هو يساق فى شهوته نحو البغايا ، وهى مدمرة لصحته . وفى كلتا الحالتين ، يتعلم كيف يعتبر الوفاء لفراش الزواج عملا لا يتسم بسمة السعادة ؛ بل لعله يعتبر هذا الوفاء مناقضاً للسعادة .

وهكذا يبدو لى أن الأمريكى الذى يأتى إلى أوروبا للتعلم يخسر فى معرفته وفى خلقه وفى صحته وفى عاداته وفى سعادته . وقد كانت تساورنى أحياناً شكوك حول هذا الموضوع قبل أن آتى إلى أوروبا ، ولكن ما رأيت وسمعت منذ أن أتيت إلى هنا يثبت أن ما كنت أعتقده أقل من الحقيقة . . فهل توقعت (جون بانستر الصغير John Bannister Jr وهو شاب من فرجينيا) بمثل سؤالك القصير أن تجلب على نفسك مثل هذا الوعظ ؟ أظن أنك لم تتوقع هذا . ولكن نتائج التعلم الأجنبى مفزعة لى كأمريكى حتى ليخيل إلىّ أننى مرتكب خطيئة التحيز كلما عالجت الموضوع . ولكننى أمريكى إلى الحد الذى يجعلك تصفح عنى لما اقترفت .

إنى أحب الشعب الفرنسى من كل قلبى

(كتب جيفرسون إلى زوجة جون آدمز وهى زوجة وزير أمريكا فى انجلترا) :

إننى أعد مفاخرتك ببهاء مدينتك وعرباتها القديمة الرائعة سخرية وازدراء .

إننى أوثر ألا أستبدل إقامتى مع هذا الشعب المهذب ، المنكر للذات ، الحساس الكريم ، المرح ، ولا أرضى أن أستبدل حسن معشرهم من كل وجهة – لو أنه من الواجب الاعتراف بأن شوارعنا قذرة إلى حد ما ، وعرباتنا غير معتنى بها العناية الكافية – لا أرضى أن أستبدل بها عشرا من سلالات هذه الحيوانات الغنية الفخورة المشاكسة المحبة للخلاف ، الهجاءة الضارية الذين يُدعون إنجليزاً ،ممن تعيشين بينهم . . . . إننى أحب هذا الشعب الفرنسى من كل قلبى ، وأعتقد أنه يدين اليوم بدين أفضل ويتمتع بشكل أفضل من الحكم وأنه بفضل حكامه الحاليين ، ستصبح حالهم وبلدهم أشد ما تكون إثارة للحسد ، وأرجو أن تلاحظى أننى استخدمت اصطلاح « شعب » وأن هذا اسم يشمل الجنس المذكر والمؤنث .

وإنى لأتصور أنه لا بد من أن كمية الطعام الحيوانى الذى يأكله الإنجليز هى التى تجعل خلقهم غير قابل للتأثر بالحضارة ، وأظن أن إصلاحهم يجب أن يبدأ بإصلاح مطابخهم لا كنائسهم ، وانه من الآن فصاعدا يتعين على المبشرين أن يصلحوا المطابخ فإن هذا أجدى عليهم من محاولة استئناسهم بمبادئ الدين والفلسفة ، ومن المؤكد أن الميكانيكيين منهم يفوقون من عداهم فى بعض أنواع التخصص ، ولكن كونى عادلة مع (الفرنسيين) . وفى الحق أنه ليس لديهم صبر ليقوموا بمسح قطعة من الصلب من الصباح حتى المساء ، كما يفعل الرجل الإنجليزى الخامل وهو ممتلىء امتلاء تاماً بالجعة السوداء . ولكن ألا يعوض إحساتهم ومرحهم وحسن معشرهم عن افتقادهم الصبر ؟

إن عمال باريس يتقدمون بخطى سريعة نحو بلوغ الكمال البريطانى .

(كتب إلى زوجة وليام بنجهام وهو صديق أمريكى) :

كلفنى زوجك بأن أوصى لك هنا بصنع مركبة مكشوفة (فيتون) ، وإذا لم تكن

أجمل من مثيلتها المصنوعة فى لندن أعيدها إلىّ . وسأرسل إليك صندوقاً مليئاً بالقبعات المتنوعة وغــير ذلك ؟ ولن تكون من اختيارى ، ولكن أوشكت أن أقول ، من اختيار مادموازيل برتين (Bertin) ، ناسياً أنها قد أفلست . فسيختارها إذن من تريدين ، أو إذا كنت قد اضطربت لما أصابها فإننا سنعقد « مجمعا من العلية » ليساعدك على الخروج من المشكلة ، كما هو الأسلوب المتبع الآن .

يقدم زوجين من المشد « الكورسيه »

إن مستر جيفرسون له الشرف أن يقدم تحياته إلى السيدة قرينة سمث (بنت جون آدمز) وأن يرسل إليها زوجين من المشد « الكورسيه » اللذين طلبتهما وهو يرجو أن يكونا مناسبين إذ أن السيدة قرينة سمث أغفلت إرسال مقياسها . وقد تغيرت الأزمان منذ أن كان لى شرف التعرف بالمدموازيل دى سانسون (Sanson) فإذا كانا مع ذلك صغيرين جداً ، فلتتفضل بأن تنحيهما جانبا . لأن هنالك موجات مد وجزر فى هذا العالم . ويتمنى مستر جيفرسون للسيدة سمث عاما جديدا سعيداً ، ووفرة من الأعوام السعيدة فى المستقبل . وهو يرجو الإذن فى أن يؤكد لها تقديره واحترامه ، وأنه سيكون دائماً سعيداً بأن تتاح له فرصة خدمتها بأن يكلف بأداء أوامرها .

قلبي الأحمق — الموسيقى والفنون

إن دوافع كثيرة يا سيدتى العزيزة ، السيدة أنجيليكا شيرش Mrs. Angelica Church ، وهى صديقـــة فى لندن كانت تزور ابنتها الصغيرة كيتى Kitty أسرة جيفرسون » تخول لى الحق فى أن أكتب إليك ، ولكن دافع تقديرى لك تقديراً لا نهاية له يفوقها جميعاً . ومع ذلك فقد رأيت من الأسلم أن أجعل كيتى تكتب أيضا حتى يبدو خطابها جواز سفر لخطابى ويسكب عليــه الرائحة العطرة لتلك العواطف الحارة التى سوف يثيرها فى صدرك ؛ فعند ما كنا ننتظر طويلا زيارة صديق عزيز كنا نرحب به حين يأتى ونرحب بجميع من يأتى معه . وإنى لأقدم نفسى إذن

تحت جناح كيتى ، ولو أنها تظن أنها تحت جناحى . وهى هنا فى هذه اللحظة فى صحة حسنة وسرور وتتحدث بالفرنسية إلى لعبتها وصديقتها بوللى . وإنا نريد حضورك لتكملى دائرة الأسرة الصغيرة ، وتباركى غداء يوم الأحد ، الذى أسعد بأجازته قدر ما تسعد الفتيات . ونحن نتكلم عنك ، ونفكر فيك ونحاول أن نستمتع بصحبتك بقوة الخيال الذى لو كانت قوته كافية لكنت معى كل يوم . وإذ أجد نفسى مرهقاً كل صباح بالكتابة عن شئون العمل فإنى أبادر فى الساعة الثانية عشرة بالذهاب إلى غابة بولونيا وأبدد متاعبى بالتفكير فى أصدقائى ، ولو استطعت أن أكتب وأنا راكب ، وأنقل إليهم أفكارى حارة كما تدفق من قلبى ، فإن أصدقائى سيرون مدى الغباء الذى ينطوى عليه قلبى .

إن مسرحاً جديداً يقام . . . وهو مسرح « أوبرا بيفون » (Opera Buffons) حيث تعرض الأوبرات الإيطالية والموسيقى الجيدة . . . وان باريس تكبر وتجمل كل يوم . . . فالشوارع الجميلة داخل الأسوار وخارجها ستهيئ الفرصة للركوب والتنزه الجميل حول المدينة فى محيط بين خمسة عشر وعشرين ميلا ... أما عن التصوير فليس لدينا فيه شيء جديد يعتبر رائعاً . وفى الواقع ، لاأحس باستمتاع فى أعمال أى قلم سوى قلم دافيد .

أما عن اختيار زى حديث لتمثال هودون للجنرال واشنطون فقد وجدت أن ذلك هو الرغبة القوية عند ويست (West) وكوبلى (Copley) وترمبول (Trumbull) وبرون (Brown) فى لندن ، وليس لى بعد رأى هؤلاء أن أقول إن ذلك رأيى أيضاً وأعتقد أن شخصاً حديثاً فى زى قديم يكون موضعاً للسخرية مثلما يكون هيركليز (Hercules) أو ماريوس (Marius) بشعر مستعار أو قبعة حديثة . . ولم يتوقف هودون إلا لحظة ، ولذلك لم تتهيأ لى فرصة السؤال عن رأيه فى إجراء التحسين المقترح إدخاله على البيانو القديم فهو أحد مشاهير الفنانين فى العالم إن لم يكن أشهرهم .

الشعر وفتات من العلم

إن عادة المشى يومياً فى غابة بولونيا قد أعطتنى فرصة تدبر هذا الموضوع (وزن

النظم الإنجليزى) فى ذهنى . . . إن الخطأ هو المادة التى ينسج منها نسيج الحياة ، وذلك الذى يعيش حياة أطول وأحكم إنما هو وحده القادر على أن ينسج منه نسيجاً أكثر ، فبدأت بفكرة تحويلك (شاستيلى) إلى رأيى وإقناعك بأن ترتيب المقاطع الطويلة والقصيرة فى وزن شعرى منتظم قد كون الإيقـاع والاتساق فى النظم الإنجليزى . وانتهيت باكتشاف أنك على حق فى إنكار ذلك الرأى . وكان غرضى الثانى أن اكتشف الحالة الحقيقية التى تمنح الإيقاع للشعر الإنجليزى والقوانين لأولئك الذين ينظمونه . وإنى أقدم إليك النتيجة (وهى مقال طويل ، أفكار فى علم العروض الإنجليزى التى ذهب فيها جيفرسون فى معارضته للدكتور صمويل جونسون (Samuel Johnson) إلى أن الأساس الحقيقى للشعر الإنجليزى ليس الكم ولكن التشديد والحركة) .

وإذ يبدو أنك (مدير كلية وليام ومارى) راغب فى أن تقبل فتات العلم الذى تعيش عليه هنا ، فإنى أواصل بسرور إرساله إليك . . . لاشك فى أنك سمعت عن هرشل (Herschel) والبركان فى القمر ، ووضعت هذه الفكرة بين الأوهام الأخرى التى تصدر عن رأس غير مركب للاستقراء السليم . . . واكتشف الدكتور انجنهوس (Ingenhouse) كما يفترض ، من التجربة أن الخضرة قد تزكو إذا أنت عملت على أن تمر تيارات من السائل الكهربى خلال النبات . . . بينما كنت أتكلم يوماً مع مسيو دى بيفون عن الحماسة الحاضرة للبحث الكيموى ذهب إلى أنه يعتبر أن الكيميا ليست إلا كالطهى وأنه يضع جهود المعمل على قدم المساواة مع مجهود المطبخ . أما أنا فأعتقد — على العكس — أن علم الكيميا من أعظم العلوم النافعة ، وهو يبشر بكشوف فى المستقبل لنفع الجنس البشرى وسلامته .

إن الكبريت الفسفورى اكتشاف جميل ونافع جداً خاصة للرؤوس التى تشبه رأسى فى أنه لا يستطيع أن يركن إلى النوم فى جميع الظروف . فأنواع الراحة التى تنجم من إنارة شمعة دون الخروج من الفراش وختم الرسائل دون النداء على خادم ، وإشعال النار دون حيوان وصلب وخشب وغير ذلك ، أمور ذات قيمة .

وقعت حادثة هنا ربما تضعف الحماسة التى باشر الناس بها الملاحة الجوية . . . فالمسيو بيلاتر دى روزيير (Pilatre de Roziere) كان ينتظر شهوراً كثيرة فى بولونى

(Boulogne) هبوب ريح ملائمة ليعبر المضيق فى بالون مركب من الهواء غير القابل للاشتعال ، وآخر يسمى (مونتجولفير) (Montgolfier) بهواء ممدد فقط . وظن أخيراً أن الريح ملائمة وصعد مع رفيق . وبعد أن استمرا فى اتجاه مناسب حوالى فرسخين ، تغيرت الريح وجذبتهما ثانية فوق الساحل الفرنسى . وإذ كانا على ارتفاع حوالى ستة آلاف قدم : فجرت حادثة غير معروفة بالون الهواء غير القابل للاشتعال ، ولما لم يكن « المونتجولفير » غير قادر وحده على حمل وزنيهما فقد سقطا من ذلك الارتفاع إلى الأرض وتهشما وتحولا إلى ذرات . .

ويقوم نحن هنا فى تركيب البنادق على صنع كل جزء منها صنعاً مشابهاً تماماً لأى جزء قد يستعمل لأية بندقية أخرى فى مخزن البارود . . . وإذ ظننت أن هذا قد يكون نافعاً فى الولايات المتحدة فقد ذهبت إلى الصانع . فقدم إلى أجزاء خمسين زنادا مقطعة ومرتبة فى أقسام . وقمت بنفسى بتركيب عدة منها ، أخذت قطعاً بالمصادفة حسب وصولها إلى يدى فتألفت فى تناسب على أكمل وجه ، وان فوائد هذا واضحة .

يجب أن تكون أمريكا عظيمة فى الناحية العلمية

ما أكبر الميدان الذى يوجد الآن على أبوابنا لنظهر أنفسنا فيه ! فإن نبات أمريكا لم تستكمل دراسته بعد ، وإن علم المعادن لم يمس ، وتاريخها الطبيعى وعلم الحيوان قد أسيء فهمه أو شوه عرضه . . . وهذا هو العمل الذى ينبغى أن يبدأ القيام به الشباب الذى نشرف على تكوينه (فى هارفارد) ، ولقد أنفقنا فجر حياتنا فى الحصول لهم على نعمة الحرية الثمينة : فدعهم ينفقوا فجر حياتهم فى إظهار أنها الأب العظيم للعلم والفضيلة وأن عظمة الأمة فى كليهما دائماً متناسبة مع حريتها .

إن مسيو دى بيفون لم يعرف نمرنا ؛ لقد أعطيته الجلد المسلوخ لنمر اشتريته فى فيلادلفيا ، وهو يقدم له نوعاً جديداً سيظهر فى مؤلفاته التالية . وقد أقنعته أن غزالنا ليس شفروى (Chevreuil) . وهو لم ير مطلقاً قرون ما تسميه عندنا « الك » (Elk) وهو الأيل الأكبر .

إنى سعيد إذ أقدم إليك (المسيو دى بيفون) فى هذه اللحظة مجموعة من عظام وجلد

(موس) (Moose) ، وهو الأيل الكبير ، وقرون حيوان آخر من نفس النوع ، وقرون « كاريبو » (Caribou) وهو نوع من الوعل ، وأيل أكبر ، وغزال : وتيس ذى قرون وأيل أصغر من أمريكا . . . . . وأظن حقاً أنك سوف تجد الأيل الكبير (Moose) والأيل الكبير اللك (Elk) صاحب القرون المســتديرة والغزال الأمريكى أنواعه غير موجودة فى أوربا .

نقل النباتات والحيوانات الأوربية

إننا قد نكون حتى الآن بعيدين عن امتلاك جميع موارد الفلاحة التى هيأت الطبيعة بلادنا لها . وسيحتاج اكتشافها إلى وفرة من التجارب غير الناجحة . . . وإنى أرسل بعض البذور لكلأ وجد أنه نافع جداً فى الأجزاء الجنوبية من أوروبا . . . ويطلق عليه اسم سولا (Suila) وسانت فوان الاسبانى (St. Foin) .

وإننى مقتنع بأن أرز لومباردى (Lombardy) من نوع مختلف عن (أرز كارولينا الجنوبية) ولما كان تصديره فى غلافه محرما فإننى لم أستطع أن أحضر معى إلا مقدار ما تسعه جيوبى ؛ وقد أرسلته إلى الجمعية الزراعية (كارولينا الجنوبية) . فقد يصلح لأن يستخدم بذوراً .

إن المسيو مالشرب (Malsherbes) يقوم من أجلى بجمع مجموعة من الكروم التى تصنع منها أجود الخمور فى هذه البلاد . كما أن شخصاً آخر يجمع لى أفضل أنواع عنب الأكل وأقترح أيضاً أن نوطن أرنبهم البرى وأرنبهم الأليف وحجلتهم (Partridge) الحمراء والرمادية ودراريجهم (Pheasents) بأنواعها المختلفة وبعض الطيور الأخرى .

وأعتقد أن هنالك أجزاء كثيرة من بلادنا المنخفضة حيث يمكن زراعة شجرة الزيتون التى هى بالتأكيد أغنى منحة من السماء . ولا أكاد أستثنى العيش .

آلة للنسخ وتصميم لفيتون

(كتبه إلى ماديسون)

لما كنت شغوفاً بامتلاك آلة صغيرة للنسخ واقتنعت من بعض التجارب أن المبدأ

الذى تقوم عليه الآلة الكبيرة يمكن تطبيقه فى صنع آلة صغيرة ؛ فقد وضعت تصميم واحدة حين كنت فى إنجلترا وأوصيت بصنعها . ولما تمت أدت وظيفتها أداء كاملا ؛ ولقد كلفت صانعاً منذ ذلك الوقت بعملها هنا ، وهى الآن مطلوبة إلى درجة شغلت وقته وملأت جيبه . وإن تأكدى من أنك ستسر بامتلاك واحدة حين تجرب راحتها يدفعنى إلى أن أرسل إليك واحدة .

(كتبه إلى بارون دى جيسمر « Baron de Geismer » وهو صديق أوربى)

إن لديك يا سيدى العزيز ما يبرر عجبك من أنك قد انتظرت طويلا قبل أن تتسلم إجابة إلى رجائك الخاص بوضع تصميم لمركبة حقيقية يجرها حصان واحد ومركبة مكشوفة (فيتون) . وكان غرضك أن تكون هذه التصميمات والرسوم بشكل يسمح للصانع أن يهتدى بها فى عمله وما كان لرسم مسودة عابرة يقوم به مصور أن يحقق هذا الغرض ، وفى الواقع لكى أتأكد من عملها بالدقة الضرورية لهواية صانع لم أستطع أن أعتمد على أى شخص آخر سوى نفسى وكان لا بد لهذا العمل حتى يتم على وجه مرض أن تتهيأ له ساحة مكشوفة ولكن أتى شهران أو ثلاثة أشهر من البرد القارس الذى جعل هذا أمراً مستحيلا ، ومنذ أن أصبح الفصل أكثر اعتدالا خصصت ما عندى من فترات الفراغ القصيرة لهـــذا الموضوع . وإنى أبعث إليك مع هذا بالرسوم التى صنعت بدقة تامة فى كل جزء منها حتى إن صانعك قد يعتمد عليها وهو مطمئن .

« خريطة » مصورة لفيرجينيا — وتصميم للكابيتول

لقد وقعت نسخة من « مذكراتى عن فيرجينيا » فى يد تاجر كتب أوشك أن ينشر ترجمة سيئة جداً لها بالفرنسية عند ما حال الأب موريليه (Abbé Morellet) بينه وبين ذلك بأن تعهد بترجمتها له ترجمة ملائمة ، وهكذا ستظهر هذه المذكرات باللغة الفرنسية رغم احتياطى . وكلفنى « الأب » بعمل مصورة « خريطة » . . . ولونها بحجم بوصة واحدة لكل عشرين ميلا ، وإنها دقيقة دقة الخريطة الكبيرة التى أخذت عنها ، وإنى مسئول عن دقة التصغير . وقد أضفت بعض الأماكن الجديدة ، ولو أن الغرض الأول الذى أغرانى بالاضطلاع بها كان صنع خريطة لكتابى .

كتب إلى « فى سنة ١٧٨٥ المديرون المعنيون بالإشراف على بناء دار الحكومة (الكابيتول) فى ريتشموند » وإذ رأيت أن هذه فرصة ملائمة لأن تدخل فى الولايات نموذجاً للمعمار على النمط الكلاسيكى القديم ، ولما كان مبنى « مايزن كواريه فى نيزم » (Maison Quarreé of Nismes) — وهو معبد رومانى قديم — يعد أكمل مثال قائم لما قد يسمى المعمار الكيوبيك (المكعب) ، فقد تقدمت بطلب إلى المسيو « كليريسو » (Clerisseau) : الذى نشر رسومات لآثار نيزم ليعد لى نموذجاً للبناء مصنوعاً من الجصى ، على أن يغير فقط النظام من « الكورنثى » إلى الأيونى « بسبب صعوبة رؤوس الأعمدة الكورنثية » . . . ; ولكى يكيف المظهر الخارجى لاستعمالنا رسمت تصميما للداخل بالقاعات الضرورية معدة فى حجمها وتوزيعها لتناسب شكل البناء وحجمه . وقد أرسلت هذه الرسومات إلى المديرين فى سنة ١٧٨٦ وتم تنفيذها .

الفصل الثامن

رأسي وقلبي

لقد قابل جيفرسون في صيف سنة ١٧٨٦ عن طريق جون ترمبول John Trumbull الفنان الأمريكي ريتشارد كوزواي Richard Cosway وزوجته الشابة الجميلة ماريا Maria وقد كانا رسامين إنجليزيين مشهورين . وقد ولدت ماريا كوزواي ونشأت في إيطاليا وكانت موهوبة وساحرة ، وممتازة لا كرسامة فحسب وإنما كموسيقارة أيضاً. وأصبح جيفرسون متعلقاً بها كثيراً جداً في أثناء الإقامة القصيرة لأسرة كوزواي في باريس . وحين عادت إلى إنجلترا في أكتوبر سنة ١٧٨٦ كتب إليها خطاباً طويلا ودياً في شكل من مقال عن الصداقة وأسماه « محاورة بين رأسي وقلبي » ومن بين آلاف خطاباته يعد هذا الخطاب إلى ماريا كوزواي — بتفصيله الأخبار عن سيرة حياته ووصفه الصراع بين الجوانب العاطفية والفكرية في شخصه — من أمتع خطاباته وبالتأكيد أعظمها بياناً عن نفسه .

وقد كتب جيفرسون خطابه الطويل بيده اليسرى فقد شج معصم يده اليمنى عند وقوعه عليه في الشهر السابق . وظل يسبب له الألم ، وبناء على نصيحة الأطباء قرر أن يجرب مياه ايكس (Aix) في بروفانس (Provence) فترك باريس في ربيع سنة ١٧٨٧ وقام برحلة استغرقت ثلاثة أشهر في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا ، وكما كانت عادته في أثناء سفره ملأ مذكراته بالملاحظات عن كل ما قد يكون نافعاً في أمريكا . ولكن تخلل خطاباته رغم ذلك كثير من الحديث عن متعته بجمال الريف والسماوات الصافية وتغريد البلابل الشادية وآثار العظمة الرومانية مثل « ميزون » كاريه في نيزم (Maison Qarrée at Nismes) الذي اتخذه نموذجاً لدار الحكومة في فيرجينيا والذي كان يرنو إليه في افتتان ساعات طويلة « كما يرنو المحب إلى محبوبته » .

وكان في هذه الرحلة وفي أثناء إقامته في الخارج مهتماً اهتماماً عميقاً برفاهية الشعب وأحوال المواطنين العاديين منه . وان ملاحظاته الشخصية عن الحالة التعسة للكثرة

ومقابلتها بالمكانة الممتازة للقلة جعلته يكيل الذم للملوك والنبلاء والقسس «كحلف مهجور ضد سعادة جماهير الشعب» وحين أصيب المحافظون بانزعاج عميق لثورة فلاحى «ساشوستس» الغارقين فى الديون وأعلنوا عدم ثقتهم بالديمقراطية احتفظ جيفرسون بثقته فى قدرة الشعب على أن يحكم نفسه بنفسه حتى قرر أن قيام ثورة صغيرة من وقت إلى آخر أمر محمود . وقد رحب بالإصلاح الذى تم فى أمريكا دون إراقة دماء عن طريق دستور سنة ١٧٨٧ ولو أنه لم يوافق على الصلاحية المستمرة لإعادة انتخاب رئيس الجمهورية لمنصبه وأصر على «إعلان الحقوق» ورحب بحركة الإصلاح فى فرنسا ورأى أن الاضطرابات الدموية يمكن تجنبها لو أن لافاييت Lafayette والزعماء الآخرين اتبعوا نصحه فى أن يأخذوا بالاعتدال والتوفيق والمكاسب الثورية ولكن هـذا لم يكن ليتحقق . فعشية رحيله إلى الولايات المتحدة فى ١٧٨٩ حدث الهجوم على الباستيل Bastille فى باريس وبدأت الثورة الفرنسية التى حطم مجراها العنيف العالم أجمع .

وعندما ترك فرنسا بعد أن قضى جيفرسون خمس سنين فى ذلك «البلد العظيم الطيب» وجه شكراً خالصاً إلى شعبها وتمنى من أعماق قلبه النجـاح لثورتها . وقد عاد إلى أمريكا وإلى قصره «مونتيسلو» الذى وصفه وصفاً حياً لماريا كوزواى ، وهو ممتلئ بالتقدير السامى لموطنه الأصلى والدور الذى قدر له أن يلعبه فى تاريخ البشر .

ماريا كوزواى الساحرة تغادر باريس

إننى ما إن قمت بالعمل الأخير المحزن بأن ودعتكما وأنتما تركبان عربتكما عند سرادق سانت دنيس St. Denis ورأيت العجلات تأخذ فعلا فى الحركة حتى درت على عقبى ومشيت وأنا أقرب إلى الموت منى إلى الحياة نحو الباب المقابل حيث كانت عربتى تنتظرنى . وكان مستر دانكرفيل Danquerville مفقوداً فبحث عنه ووجده ودفع به إلى أسفل السلم وحشرنا داخل العربة مثل سجناء الباستيل ، وإذ لم تكن لدينا روح كافية لأن نعطى أوامر لسائق العربة فقد افترض أن باريس هى وجهتنا فاتجه نحوها . وبعد مضى فترة طويلة انكسر الصمت بالقول «إنى متألم حقاً لرحيل هذين الشخصين الطيبين» .

وكان هذا إشارة للاعتراف المتبادل بالأسى . وأخذنا من فورنا نتحدث عن المستر كوزواى والسيدة زوجه وعن طبيعتهما ومواهبهما ولطفهما . ولو أننا لم نتكلم عن أى شيء آخر إلا أننا لم نكد ندخل فى الموضوع حتى أعلن سائق العربة أننا بلغنا شارع سانت دنيس وأننا مقابل بيت مستر دانكرفيل ، وقد أصر على النزول هناك وعبور ممر قصير إلى مسكنه وذهبت بالعربة إلى بيتى وإذ جلست إلى جوار مدفأتى وحيداً وحزيناً حدثت المحاورة الآتية بين رأسى وقلبى .

محاورة بين رأسى وقلبى

الرأس — يبدو أنك فى حالة حسنة

القلب — بل إننى على التحقيق أبأس المخلوقات جميعاً على وجه الأرض . فما يغمرنى من أسى وما أحسه من توتر فى كل نسيج فى كيانى فوق ما تحتمل قواه الطبيعية يجعلنى أوثر أن أقابل أية نكبة لا تترك لى ما أشعر به أو أخشاه بعد اليوم .

الرأس — إن هذه هى النتائج الخالدة لعواطفك الحارة واندفاعك ، وهذه هى إحدى الورطات التى تقودنا إليها دائما ، وأنت حتماً تعترف بحماقاتك ولكن لا تزال تحتضنها وتعزها وليس هناك أمل فى إصلاح حيث لا يوجد ندم .

القلب — آه يا صديقى ، ليس هذا وقتاً مناسباً لتلوم ضعفى . إننى مقطع إربا بقوة حزنى فإذا كان لديك أى بلسم فصبه على جراحى ، وإذا لم يكن عندك منه شيء فلا تثرها بعذاب جديد وكف عنى فى هذه اللحظة الرهيبة : وإنى سأصغى فى أى لحظة أخرى بصبر لمواعظك .

الرأس — إن الأمر على عكس ما تقول ، فإننى لم أجد أبداً أن لحظة النصر معك هى لحظة الإصـــغاء لمواعظى . فبينما تعانى من حماقاتك قد يمكن حملك على أن تدرك مداها ولكن إذا ما انتهت النوبة يخيل إليك أنها لن تعود أبدا ، ومهما كان الدواء قاسياً فإن وظيفتى أن أقدمه ، وقد يسرك أن تتذكر أنه حين كان صديقنا ترمبول يخبرنا عن مزايا ومواهب هذين الشخصين الطيبين لم أمسك أبداً عن الهمس إليك

بأنه ليست لدينا أية فرصة لمعارف جدد وأنه كلما عظمت مزاياهم ومواهبهم عظم خطرهم على هدوئنا لأن الأسى عند فراقهم سيكون أعظم .

القلب يزدرى الرسوم الهندسية والمنعرجات

القلب — ومن ثم يا سيدى فهذا التعرف ليس نتيجة لأفعالى . فمشروع من مشروعاتك هو الذى رمانا فى طريقه . ولتذكر أنك أنت ، لا أنا ، الذى مال إلى المقابلة فى « ليجراند وموتينوز » Legrand & Motinos فأنا لا أشغل نفسى مطلقاً بالقباب أو بالأقواس . وان « هال بليد » Halle aux Bleds قد كادت أن تبلى قبل أن أذهب لرؤيتها . ولكنك أنت حقاً الذى تحملنا دائماً على النوم برسومك الهندسية ومنعرجاتك ، ولا بد لنا من أن نذهب ونختبر هذه القطعة الرائعة من المعمار وحين تراها تصيح متعجباً : « إنها أروع شيء على الأرض » فإن ما رأيته هنالك يعدل كل ما رأيته فى باريس . وقد كان هذا رأيى أيضاً . ولكن كنت أعنى بذلك السيدة وزوجها اللذين قدمنا لهما ؛ ولا أعنى غير ذلك فأنت إذن يا سيدى ولست أنا الذى كنت السبب فى هذه الكارثة الحاضرة .

الرأس — لقد كان من التوفيق لك لو أن رسومى الهندسية ومنعرجاتى حملتك على النوم فى ذلك اليوم كما يحلو لك أن تقول إنها دائما تفعل هذا ، وإن زيارتى إلى « ليجراند وموتينوز » كانت ذات نفع عام فى غرضها ، فإن سوقا ستبنى فى ريتشموند ، وما أنسب رسم « ليجراند وموتينوز » لهذا الغرض خاصة إذا وضعنا عليه القبة السامية التى تختص بها « هال أو بليد » وإذا كان من الممكن إقامة كوبرى مثل الذى رأيناه عبر « شولكيل » Schuylkill فى فيلادلفيا ورفع الجسور « الكبارى » العائمة وفتح ملاحة النهر ، فما أغنى المورد الذى سنحصل عليه من خشب ومواد تموينية ليمنح الدفء والطعام للفقراء فى تلك المدينة .

وبينا كنت مشغولا بهذه الأغراض كنت تسهب فى القول مع معارفك الجدد وتدبر الوسائل لمنع الانفصال عنهم . وكان كل واحد منكم مرتبطا بميعاد فى ذلك اليوم ولكن جميع هذه المواعيد قد ضحى بها حتى يمكن لهم أن يتناولوا الغداء معا .

وبعث بالرسل الكاذبين إلى كل حي فى المدينة باعتذارات عن كسر تعهدكم وأنت بخاصة بلغت بلك الوقاحة أن أرسلت تعتذر إلى الدوقة دانفيل Danville فى اللحظة التي كنا ذاهبين فيها إلى تناول الغداء معها واعتذرت إذ ذاك بأن مراسلات قد وصلت تتطلب العناية المباشرة . وقد أردتنى أن أبتكر فوراً عذراً أكثر ذكاء ولكن عرفت أنك مقبل على الدخول فى ورطة وفضلت ألا يكون لى أى اتصال بها ثم ذهبنا بعد الغداء إلى سان كاود St. Clud ومن سان كلود إلى روجيرى Ruggieri ومن روجيرى إلى كرمفولتز Krumfoltz ولو كان اليوم طويلا طول يوم الصيف فى لابلاند Lapland لدبرتم من الوسائل بينكم ما يساعد على ملئه .

ذلك اليوم الجميل الذى قضيناه فى سان جرمان

القلب — آه يا صـــديقى العزيز شد ما أحييتنى بإعادتك إلى ذهنى أعمال ذلك اليوم . إننى أذكرها جميعا وأذكر أننى حين عـــدت إلى بيتى فى الليل وتذكرت الصباح المنصرم بدا كأنه قد كان منذ شهر مضى . فاستمر إذن كمعزّ رحيم وصوّر لى اليوم الذى ذهبنا فيه إلى سان جرمان St. Germains ما أجمل كل شيء رأيناه — « بورده رولى » Port de Reuilly والتلال على طول السين Seine وأقواس قزح والقصور والحدائق وتماثيل مارلى Marly وفسطاط لوسين Lucienne وتذكر أيضا مادريد Madrid وباجاتيل Bagatelle وحديقـــة الملك والديسر Dessert وما أروع الفكرة التى أثارتها بقايا مثل هذا العمود ، والسلم الحلزونى كان أيضا جميلا . إن كل لحظة كانت ممتلئة بشيء سار. وتحركت عجلات الزمن بسرعة لم تعط عنها حركة عجلات عربتنا إلا فكرة خافتة . ومع ذلك فحين تأملت فى المساء نشاط اليوم هالنى عظم السعادة التى حققناها فى هذه النزهة . فأعد إلىّ ذكر جميع تلك المناظر يا صاحبى الطيب وسأغفر القسوة التى كنت تزجرنى بها . إن اليوم الذى ذهبنا فيه إلى سان جرمان كان فياض الدفء كما أرى ، ألم يكن كذلك ؟

الرأس — إنك لأشد الكائنات التى أخطأت استعصاء على الإصلاح والتقويم ، لقد ذكرتك بحماقات اليوم الأول قاصداً بذلك أن تستخلص منها بعض الدروس

النافعة لك ولكن بدلا من الإصغاء إليها تشتعل عند الذكرى وتتعقب السلسلة كلها بشغف يبين أنك لا تحتاج إلى شيء سوى الفرصة لأن تفعل ما سبق أن فعلت مرة ثانية .

آلام الفراق

وكثيراً ما أخبرتك فى أثناء ذلك اليوم أنك تشغل فى غير حصافة عواطفك فى ظروف لابد أن تسوق إليك قدراً عظيما من الألم وأن الشخصين حقا كانا من أصحاب أعظم المواهب وممن يمتازون بالعقل السليم ، والمرح الطيب البرىء ، والقلوب الأمينة ، والخصال الشريفة ، والتفوق فى فنٍّ محبوب . وأن السيدة فوق ذلك ذات صفات فاتنة وسلوك بارع التهذيب يشرف جنسها أجمع ويمكن أن تكون وحدها فصلا مستقلا مثل الموسيقى والتواضع والجمال ودماثة التصرف التى هى زينة جنسها وسحر جنسنا . ولكن جميع هذه الاعتبارات تزيد من ألم الفراق وان بقاءهم هنا كان لوقت قصير فإنك تعذب كل كياننا حين تفارق الذين تحبهم شاكيا فإن مثل هذا الفراق أسوأ من الموت فإن الموت ينهى آلامنا على حين يبدؤها الفراق . وان الفراق قد يكون فى هـــذه الحالة أبلغ فى القسوة إذ أنك ربما لا تراهما أبدا مرة ثانية .

القلب — ولكنهما أخبرانى أنهما سيعودان فى السنة القادمة .

الرأس — ولكن انظر ما تقاسى بين الفراق والتلاقى ، كما أن عودتهما أيضا تتوقف على ظروف كثيرة جداً حتى إنه لو كانت لديك ذرة من الحصافة لما أدخلتها فى الحسبان . وعلى وجه العموم فهذا أمر غير محتمل ، ومن ثم ينبغى أن تهجر فكرة رؤيتهما مطلقا مرة ثانية بعد اليوم .

القلب — فلْيَدَعْنى الله إن فعلت ذلك .

الرأس — حسناً جداً . ولتفترض إذن أنهما سيعودان ، إنهما سيبقيان شهرين فإذا انتهيا فماذا يحدث ؟ انك ربما تطمئن نفسك بأنهما قد يأتيان إلى أمريكا ؟

ماريا قد تزور قصرنا العزيز مونتيسيلو

القلب ـ ان الله وحده يعرف ماذا يحدث ، ولا أرى شيئاً مستحيلا فى ذلك الافتراض وإنى لأرى الأشياء تدبر تدبيراً عجيباً أحياناً لتجعلنا سعداء . فأين يجدان مثل هذه الأشياء كما يجدانها فى أمريكا لممارسة فنهما الباهر ؟ وخاصة السيدة التى ترسم المناظر بطريقة لا تحاكى . إنها تحتاج فقط إلى موضوعات جديرة بالخلود لتجعل قلمها خالدا .

ان « فولنج سبرنج » Fallin Spring وشلالات نياجارا Cascade of Niagara وممر « بوتوماك » Potomacg خلال « بلومونتيز » وناتشورال بريدج . كلها أشياء جديرة برحلة عبر الأطلنطى لرؤيتها ، وأكثر من ذلك لرسمها وجعلها وجعل أنفسنا نتيجة لذلك معروفين لجميع العصور . ولن ننسى فى مجال ذكرنا لنواحى الجمال الخاص فى أمريكا أن نذكر مركزنا العزيز « مونتيسيلو » ، إذ أين نشرت الطبيعة مثل هذا الرداء الفنى تحت بصر العين من جبال وغابات وصخور وأنهار ؟ وما أعظم الجلال الذى نستشعره ونحن نركب مقتحمين العواصف ، وما أسمى إحساسنا حين نلقى البصر على مصنع الطبيعة لنرى سحبها وبردها وجليدها ومطرها ورعدها مصنوعة جميعها تحت أقدامنا ، وكذلك الشمس الرائعة وهى مشرقة كأنها تصور من ماء بعيد وتحيط قمم الجبال بإطار ذهبى وتمنح الحياة لكل الطبيعة .

وآمل فى الله ألا يجعل للحزن مكانا فى نفس أيهما وإلا فما أخلص العطف الذى أفتح به كل خلية من كيانى لأستقبل فيض أحزانهم ، وسأسكب دموعى فى فى جراحهم ، وإن أمكن أن توجد نقطة من البلسم على قمة « كورديليراز Cordilleras أو فى أنأى منابع الميسورى Messouri فإنى سأذهب هنالك بنفسى لأبحث عنها وأحضرها .

ولما كنت قد تدربت فى مدرسة العذاب فإن القلب الإنسانى لا يعرف سرورا لم أفقده أو حزنا لم أشربه ، وإن القدر لا يستطيع أن يقدم أسى فى شكل غير معروف لى ، ومن اذن يستطيع أن يضمد جرحا آخر فى رقة ذلك الذى شعر بنفس الجرح ؟

ولكن وقاهما الله من أن يعرفا حزنا أبد الدهر . ودعنا نقلب صفحة أخرى لأن هذا الخاطر قد شتت ذهنى .

الأمريكيون ليسوا قطاع طرق خارجين على القانون

الرأس — دعنا إذن نضع هذا الإمكان موضع الاختبار فى موضوع آخر . فحين نتدبر الخلق الذى تصوره صحف لندن الكاذبة وكتابها السذج عن بلادنا ، وحين نتأمل أن أوروبا جميعها قد حملت على أن تعتقد أننا قطاع طرق خارجون على القانون ، وفى حالة فوضى مطلقة يقطع كل منا حلق الآخر ونقوم بالسلب دون تمييز . حين تتعمق هذا فإنك مدرك أن أى مخلوق عاقل لن يجرؤ على أن يخاطر بالشخوص إلينا ؟

القلب — ولكنك أنت وأنا نعرف أن هذا ادعاء كاذب ، وأنه ليس هنالك بلد على وجه الأرض يستقر فيه هدوء أعظم مما تتمتع به حيث القوانين أكثر اعتدالا ، وحيث تطاع خيراً مما تطاع بيننا ، وحيث كل واحد أكثر اهتماما بعمله الخاص أو أقل تدخلا فى عمل غيره ؛ وحيث الغرباء يستقبلون بطريقة أفضل ويعاملون بكرم أغزر واحترام أكثر قداسة .

الرأس — حقاً أنت وأنا نعرف هذا ولكن أصدقاءك لا يعرفونه !

القلب — ولكن الذين يفكرون لأنفسهم هم أناس عقلاء . فسوف يستفسرون من الأجانب النزيهين الذين كانوا بيننا عما إذا كانوا قد رأوا أو سمعوا فى مقامهم هنا عن أى مثال للفوضى . وسيحكمون أيضاً بأن الشعب الذى يشغل كما نشغل بشق الأنهار وحفر القنوات الملاحية وصنع الطرق وبناء المدارس العامة وتأسيس المعاهد الأكاديمية وإقامة التماثيل النصفية والكاملة لعظماء رجالنا وحماية الحرية الدينية وإلغاء العقوبات الدموية وإصلاح قوانيننا وتحسينها على وجه العموم — سيحكمون فيما بينهم وبين أنفسهم إن كانت هذه هى أعمال شعب فى سعة من العيش وإن لم يكن هذا دليلا على حالتنا الحقيقية أفضل من الدليل الذى تقدمه صحيفة لندنية مأجورة للكذب ولا يمكن استخراج أى حقيقة منها إلا بقلب كل شىء تقوله .

الرأس يحاضر فى برود عن الصداقة

الرأس — إننى لم أبدأ هذه المحاضرة يا صديقى بقصد أن أتعلم منك ما تقوم أمريكا بفعله . فدعنا نعد إذن إلى موضوعنا . وإنى لأود أن أجعلك تدرك كيف أنه من عدم التبصر بالعواقب أن توجه عواطفك دون تحفظ نحو أشياء لا بد أنك ستفقدها فى الحال ، وأن فقدها حين يأتى لا بد أن يكلفك مثل هذه الآلام القاسية ؛ وتذكر الليلة الماضية . فأنت كنت تعرف أن أصدقاءك كانوا قد اعتزموا أن يغادروا باريس اليوم ؛ وكان هذا كافياً لأن يلقى بك فى آلام مبرحة ، فتقلبنا طول الليل من أحد جانبى الفراش إلى الجانب الآخر ولم ننعم بنوم أو راحة . ولم يترك كذلك الرسغ المسكين المعطوب أبداً لحظة واحدة فى نفس الوضع ، فتارة هو فى أعلى وتارة هو فى أسفل وحينا هنا وحيناً هناك . وهل يستغرب إذن من أن تعود آلامه ؟ واستدعى الجراح عندئذ وقد عد جاهلا لأنه لم يستطع أن يتكهن بسبب هذا التغير غير العادى .

وبالاجمال يا صديقى يجب أن تصلح سلوكك فليس هذا عالماً نعيش فيه بالمصادفة كما تفعل ، ولتتجنب تلك الضائقات الخالدة التى تعرضنا لها دائماً ؛ يجب عليك أن تتعلم كيف تنظر إلى الأمام قبل أن تتخذ خطوة قد تمس سلامنا ؛ فكل شىء فى هذا العالم موضع تدبير ، ولتتقدم إذن بحذر والميزان فى يدك . وضع فى كفة اللذات التى قد يمنحها أى شىء ، ولكن ضع بنزاهة فى الكفة الأخرى الآلام التى تتبع ذلك ، وانظر أيهما ترجح الأخرى . وإن التعرف إلى شخص جديد ليس أمراً غير جدير بالاكتراث . فإذا اقترح عليك أحدهم ذلك فانظر إلى الأمر من كل جانب ، وادرس المزايا التى يقدمها والمتاعب التى قد يعرضك لها : ولا تعض على طعم اللذة حتى تعرف أنه ليس هنالك « شص » تحته . فإن فن الحياة هو فن تجنب الألم ، وخير ربان هو من يقود سفينته بعيداً عما يعترضها من صخور أو مياه قليلة الغور : وإن اللذة دائماً أمامنا ولكن سوء الحظ قريب منا ، وبينا نجرى وراء اللذة يستولى علينا الألم .

وأنفذ وسيلة لتوفير أمننا ضد الألم أن ننطوى على أنفسنا وأن نكتفى اكتفاء ذاتياً من ناحية سعادتنا الخاصة. وإن اللذات الوحيدة التى يأخذها الرجل العاقل فى الاعتبار هى تلك التى تعتمد على أنفسنا لأننا لا نملك شيئاً يستطيع آخر أن يحرمنا منه. ومن ثم كانت القيمة التى لا تقدر للذات الفكرية. وإذ هى فى مقدورنا ودائماً مؤدية إلى شىء جديد ولا تحول دون إقبالنا واشتهائنا. فإننا نركب فى هدوء وجلال فوق هموم هذا العالم الفانى متأملين الحقيقة والطبيعة والمادة والحركة والقوانين التى تربط وجودها وذلك «الكائن الخالد» الذى خلقها ووصل بينها بتلك القوانين ؛ فدع هذا يكن شغلنا. واترك حركة المجتمع وضوضاءه لأولئك الذين ليست لديهم المواهب ليشغلوا أنفسهم بدونها.

إن الصداقة ما هى إلا اسم آخر لتحالف مع حماقات الآخرين وكوارثهم. وإن نصيبنا الخاص من ألوان البؤس كاف، فلماذا إذن ندخل كمتطوعين فيما يصيب شخصاً آخر منها؟ وهل ما صُب فى كأسنا من المرارة قليل حتى يصبح لزاماً علينا أن نساعد على تجرع كأس جارنا المرة؟ فإذا ما مات صديق أو تركنا، شعرنا كأن عضواً قد بُتر منا. وإذا مرض يجب علينا أن نسهر عليه وأن نشاركه فى آلامه. وإن دمرت ثروته يجب أن توضع ثروتنا تحت المساهمة. وعندما يفقد طفلا أو أباً أو شريكا يجب أن نحزن على الفقد كأنه مصابنا الخاص.

القلب يدافع عن نفسه دفاعاً حارّا

وهل هنالك سرور أسمى من أن نمزج الدموع مع شخص لطمته السماء وأن نسهر على فراش المرض ونسلى لحظاته الثقيلة المؤلمة، وأن يشترك فى خبزنا شخص لم تترك له النكبة شيئاً؛ فهذا العالم يفيض حقا بالبؤس ويجب علينا أن نتقاسم بؤسه حتى نخفف عبئه. ولكن دعنا الآن نجرب فضيلة ميزانك الرياضى، وكما وضعت فى كفة أعباء الصداقة دعنى أضع ألوان عزائها فى الكفة الأخرى. فحين تخور قوانا تحت وطأة المرض ما أعظم تقديرنا لعزاء الأصدقاء وما أشد تأثرنا بملازمتهم ورعايتهم وما أقوى العون الذى نحسه بتشجيعاتهم وخدماتهم الرحيمة. وحين تأخذ السماء منا

شيئاً أو أحداً يكون موضع حبنا ، ما أحلى أن نجد صدراً نسند إليه رءوسنا ، وقد نصب فيه سيل دموعنا ، إن الأسى مع مثل هذا العزاء يكاد يكون ترفاً .

وإن حياة تتعرض فيها دائماً للعوز والحوادث تجد أن اقتراحك رائع بأن نعزل أنفسنا ونتخلى عن كل عون ونلف أنفسنا فى رداء الاكتفاء الذاتى ، فمن المؤكد أنه لن يعنى أحد بمن لا يعنى بأحد . ولكن الصداقة ثمينة لا فى الظل وحسب وإنما فى ضوء شمس الحياة كذلك . وإن التدبير الخير للأشياء قد جعل الجزء الأعظم من الحياة منيراً بالشمس وسألجأ للتدليل على ذلك إلى الأيام التى قضيناها أخيراً ؛ ففيها حقاً أشرقت الشمس إشراقا زاهراً . فما أشد ما بدا وجه الطبيعة مبتهجاً إذ التلال والوديان والقصور والحدائق والأنهار قد لبس كل منها أزهى ألوانه : فمن أين استعارته ؟ من وجود صاحبتنا الساحرة . وقد كانت سارة لأنها كانت مسرورة . وقد كان المنظر خليقاً أن يبدو مملا كئيباً بغيرها فقد أضفى عليه وجودها من بهائها بهاء ، ومن إشراقها إشراقاً .

ودع الناسك الكئيب المنعزل عن العالم يطلب اللذات غير الاجتماعية فى قاع صومعته ، ودع الفيلسوف المتسامى يمسك بالسعادة الوهمية ملاحقاً خيالات مؤثرة متسربلا لها بلباس الحقيقة ، فإنهما سينتهيان أخيراً إلى أن حكمتهما العليا حماقة عليا . دعهما وشأنهما فإنما يخطئان السعادة ويعنيان بها مجرد انعدام الألم ، ولو أنهما شعرا مرة باللذة الحقيقية لخفقة كريمة واحدة من خفقات القلب لاستبدلوها بجميع التأملات الباردة فى حياتهم التى يتباهون بها فى مثل هذه الاصطلاحات الرفيعة . وصدقنى إذن يا صديقى أن ذلك الحساب الذى يستطيع أن يقــدر الصداقة بلا شىء أو بأقل من لا شىء حساب تعس .

وإن احترامى لك قد أغرانى بأن أدخل فى هذه المناقشة وأن أستمع لإفصاحك عن مبادئ أمقتها وأنكرها . وأما احترامى لنفسى فيضطرنى الآن لأن أردك إلى الحدود المناسبة لوظيفتك . فنحن خصصت لنا الطبيعة نفس السكن منحتنا عليه سلطاناً مقسما ، إذ خصتك بميدان الفهم وخصتنى بميدان الأخلاق . وعندما تلف الدائرة أو يرسم مدار نجم مذنب ، وعندما تدرس قوس أعظم قوة أو جسم أقل مقاومة ، فتول أنت المسألة فهى لك ، فإن الطبيعة لم تهب لى علماً بها . وكذلك حين أنكرت منك الحديث عن

مشاعر العطف والإحسان والاعتراف بالجميل والعدل والحب والصداقة حرمتك فى الوقت نفسه من السيطرة عليها . فإن هــذه المشاعر أمر مختلف عن التركيب الآلى للقلب ، وإن الأخلاق جوهرية لسعادة الإنسان إلى درجة أنه لا يسمح لتصرفات الرأس التى يشك فى نتائجها أن تتحكم فيه . ومن ثم فقد ارتكز أساسها على العاطفة لا على العلم . وهكذا وهبت الطبيعة تلك العاطفة للجميع لأنها ضرورية للجميع وأعطت هذا العلم لقلة ، لأنه كاف لقلة .

الجندى المرهق والمرأة السائلة

وإنى لأعرف حقا أنك تدعى حق السيطرة العليا على سلوكنا فى كل جوانبه ، وإن احترامى لمن هم مثلك ولأحكامك الجادة وحرصى على أن أفعل ما هو صواب ، أغرانى بأن أتبع نصائحك . ومع ذلك فإن حقائق قليلة أستطيع الآن أن أعيدها إلى ذاكرتك وأعتقد أنها كافية لتثبت لك أن الطبيعة لم تكونك لتوجهنا الأخلاقى : فعندما توسل إلينا الجندى المسكين المرهق الذى لحقناه فى تشيكاهومينى Chickahominy بحمله على ظهره ، أن ندعه يركب خلف عربتنا بدأت تفكر فى أن الطريق ملىء بالجنود وأننا لو حملناهم جميعاً فإن خيولنا ستعجز عن تكملة رحلتها . ولهذا واصلنا سوق خيولنا ولكن عندما أدركت أنك حملتنى على أن أرتكب خطأ ، وأنه رغم أننا لانستطيع أن نخفف عناء جميع البائسين ينبغى أن نريح أكبر عدد نستطيع إراحته ، عدت أدراجى لأخذ الجندى ، ولكنه كان قد دخل طريقا جانبيا ولم يكن من الممكن مقابلته بعد ذلك ، ومنذ تلك اللحظة حتى الآن لم أستطع العثور عليه لأسأله الصفح عنى .

وأذكر أيضا حين أتت المرأة المسكينة لتطلب إحساناً فى فيلادلفيا همست قائلا : إنها أشبه بالسكيرة وإنها إن أخذت نصف دولار فسيكون ذلك من أجل حانة الخمور . فأولئك الذين يفقدون الميل لأن يعطوا فى يسر يجدون الأعذار لتبرير عدم الإعطاء . وحين بحثت عنها ووجدتها بعد ذلك وفعلت معها ماكان ينبغى أن أفعله أول الأمر تعرف أنت أنها استخدمت المال مباشرة فى إدخال طفلها المدرسة .

القلوب لا الرءوس هى التى كسبت ثورتنا

ولو أن بلدنا حين أثقلته المظالم تحت تهديد من أسنة الحراب قد حكمته رءوسه بدلا من قلوبه فأين كنا نكون الآن ؟ كنا معلقين على مشنقة عالية علو مشنقة « هامان » Haman . لقد بدأ يحصى ويقارن الثروة والأعداد ؛ ولكنا قذفنا بضع اختلاجات من دمنا وقدمنا الحماسة مقابل الثروة والأعداد ، وعرضنا قلوبنا للمخاطرة حين كانت تبدو المخاطرة ضدنا ، وأنقذنا بلدنا مبررين فى الوقت نفسه طرق العناية الإلهية التى تقوم حكمتها على أن نفعل دائماً ما هو حق ونترك النتيجة لله .

وبالإيجاز ياصديقى إننى لا أعرف — على قدر ما تسعفنى ذاكرتى — أننى منذ عرفتك فعلت شيئاً طيباً باقتراح منك ، كما أننى لم أفعل شيئاً قذراً من غيره . . . ولذلك فإنى أتخلى دائماً عن تدخلك فى ميدانى . واملأ الورق كما تحب بالمثلثات والمربعات ، وحاول من الطرق الكثيرة ما تستطيع به أن تعلقها وتركبها بعضها على بعض . فلن أحسدك أبداً على ذلك أو أسيطر على مسراتك السامية . ولكن اتركنى لأقرر متى وأين تعقد الصداقات .

إنك تقول إننى أعقدها مصادفة واتفاقاً . ولذلك قلت إن المرأة التى قابلناها فى فيلادلفيا كانت امرأة سكيرة . إننى لا أقدر أحداً حتى أعرف أنه جدير بهذا التقدير . فالثروة واللقب والمنصب ليست دواعى تزكية لكسب صداقتى ، وعلى العكس فإن الصفات الطيبة العظيمة ضرورية لتكمل الثروة واللقب والمنصب . وإنك تعترف أن فى حالة الصداقة الحاضرة بأسرة كوزواى لم أكن لأستطيع أن أقوم باختيار أجدر من هذا . وأنت تعترض فقط بأننى سأفقدهم بسرعة . فنحن يا صديقى لسنا أنفسنا خالدين فكيف ننتظر من متعنا أن تكون خالدة ؟ إننا لا نحصل على وردة دون شوكها ، أو لذة دون اختلاطها بألم . وهذا قانون وجودنا يجب أن نخضع له ، وهو الحالة المرافقة للذاتنا التى لا نفرضها نحن الذين نستقبلها ، وإنما يفرضها الله الذى يعطها .

مباهج الصداقة تفوق آلامها

حقا إن هذه الحالة تضغط علىّ فى قسوة فى هذه اللحظة . وإنى أشعر أننى أصلح للموت منى للحياة . ولكن حين أعود بنظرى إلى اللذات التى تنجم عنها أدرك أنها تستحق الثمن الذى أقوم الآن بدفعه . وبالرغم من جهودك أيضاً أن تثبط آمالى فإنى أعزى نفسى بتوقع عودتهما التى وعدا بها . فالأمل أحلى من اليأس ، وقد بلغت طيبتهما مبلغاً يمنعهما من قصد خداعى . فالسيد قال إنهما سيعودان فى الصيف وقالت السيدة إنهما سيعودان فى الربيع وإنى سأحبهما إلى الأبد لو أن الأمر اقتصر على ذلك .

فاعلم إذن يا صديقى أننى قد أحللت هذين الشخصين الطيبين فى قلبى وأننى أسكنتهما فى أكرم خلية عثرت عليها ، واننى سأحبهما وسأظل أحبهما طوال الحياة ، وإن القدر لو وضعهما فى جانب من الكرة الأرضية ووضعنى فى الجانب الآخر فإن عواطفى ستحيط بالكرة الأرضية جميعاً لتصل إليهما . وإذ عرفت الآن تصميمى فلا تحاول أن تزعجه ، وإن استطعت فى أى وقت أن تقدم مادة لتسليتهما فإن إقدامك على ذلك سيكون عمل الجار الطيب . وإنى كذلك سأنتهز أية فرصة تعرض لى لأرد لك هذا الجميل حين تكون مشغولا بكوندورسيه Condorcet وريتنهوس Rittenhouse وماديسون Madison ولاكريتيل La Cretelle أو أى شخص آخر من أبناء العلم الأجلاء الذين تقدرهم أنت بحق .

فلتكن رسائلك فياضة بالود

لقد رأيت أن هذا اقتراح ملائم نبنى عليه نتيجة المحاورة . ولهذا وضعت حداً لها بطلبى طاقية النوم . ويبدو لى أننى أسمعك وأنت تتمنين من السماء ؛ أننى كنت قد طلبتها بأسرع من هذا قليلا وأنقذتك من ضجر مثل هذا الوعظ . وإننى لم أقف المحاورة بين قلبى ورأسى بأسرع من ذلك لأننى كنت فى حالة استعداد لسماع المواعظ . وقد كنت أنت أيضاً موضوع المحاورة ولا أعتقد أن فى مثل هذا المقام يطول

المقال أبداً حتى لو كان على أن أكتبه فى بطء وعدم لباقة باليد اليسرى . ولكن لكيلا تثبط عزيمتك من مراسلة تبدأ بمثل هذه القوة سأعدك بشرفى أن رسائلى المقبلة ستكون ذات ترسُّل معقول . وسأوافق حتى على أن أعبر لك عن نصف تقديرى فقط خشية أن تضيقى بالتعبير الكامل عنه . أما من ناحيتك فلا توجزى ، إذ لو بلغت رسائلك طول الإنجيل فإنها ستبدو قصيرة لدىّ . ودعيها تكن فياضة بالعاطفة . وسأقرؤها وأنا مغمور بالمشاعر التى جعلت آرليكين Arlequin فى الخطابين Les deux billets يتهجى كلمتى « أنا أحبك » ، ويتمنى لو كانت الحروف الهجائية جميعها قد دخلت فى تركيبهما .

لقد هطلت الأمطار باستمرار عندنا منذ رحيلك . وإن هذه الأمطار تجعلنى أخاف على صحتك كما أخشى أن تكونى قد قمت برحلة متعبة . وإن السبب نفسه منعنى من القدرة على أن أعطى أى بيان عن أصدقائك هنا . . . ويأتى دى لاتود De la Tuda أحياناً ليتناول حساء الأسرة معى ، ويسلينى بقصص عن الخمس والثلاثين السنة التى قضاها فى السجن . وما أخصب عقل الإنسان الذى يستطيع أن يجعل الباستيل وسجن فينسين Vincennes يقدمان قصصاً ممتعة وأنت تعرفين أن هذا قد حدث نتيجة لتأليف أربعة أبيات من الشعر عن مدام دى بومبادور Madame de Pompadour وقد قرأت مذكراته عن المرات الثلاث التى هرب فيها .

أما عن نفسى فإن صحتى جيدة ما عدا رسغى الذى يشفى ببطء ، وعقلى الذى لا يشفى أبداً ، وإنما يفكر باستمرار فى رحيلك ! وإن تأخر الموسم يضطرنى لأن ألغى رحلتى فى جنوب فرنسا . وقدمينى بأصدق تعبيرات الود إلى المستر كوزواى واستقبلينى فى خاطرك بولع وحرارة لا يتناسبان مع جدارتى المتواضعة وإنما مع عواطف الود والتقدير الخالص التى لى الشرف بها يا سيدتى العزيزة أن أكون خادمك المطيع المتواضع .

وعند ما انتهيت مباشرة من الخطاب المرافق تسلمت خطاباً طويلا نسبياً ومؤرخاً بتاريخ انتوريب باسمك Mrs. Cosway فى أسفله ، وقد أعددت نفسى للأدبة . . . فوجدت اسمك خاصاً بأربعة أسطر فقط بدلا من أربع صفحات . ومع ذلك فإنى

أشكرك على الأسطر الأربعة لأنها تثبت أنك تفكرين فىّ ، وهى قليلة حقاً ولكن القليل أفضل من لا شىء . ولأبين لك كم أفكر فيك فإنى أرسل إليك الخطاب المرافق من ثلاث صفحات من الورق وهو تاريخ المساء الذى فارقتك فيه . ولكن كيف أنتظر أن تقرئى خطاباً من ثلاث صفحات فانية من الورق ؟ سوف أخبرك بذلك . قسميه إلى ست جرعات ، تتألف كل واحدة منها من نصف صفحة ، وخذى جرعة كل يوم عند ما يبتدىء التجمل ، أى اقرئى نصف صفحة ، وبهذه الطريقة يستطيع أن تكون له المزية الوحيدة التى يطمح إليها طوله وركوده ، كما أنه يتيح للسـيدة التى تقوم على تجميلك أن تحصل لك على ست غفوات طيبة من النوم . وإنى سأسمح لك حتى باثنى عشر يوماً لتتمى قراءته بإلزامك فى صرامة بشرط واحد فقط وأعنى بذلك أنك فى أية ساعة تتسلمين هذا فلا تفضى خاتم الخطاب المرافق حتى موعد التجميل التالى .

وإن يدى اليمنى تقدم إليك فروض ولائها وترى فى حنق عظيم اليد اليسرى وهى تحل محلها فى مراسلة لها مثل هذا التقدير العظيم .

رحلة إلى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا

لقد تحدثت فى خطاب سابق عن خلع رسغى فإننى لا أستطيع أن أقوم بأقل استعمال له فيما عدا موضوع الكتابة الوحيد رغم أنه ظل على هذه الحالة خمسة أشهر منذ أن وقعت الحادثة . وإنى لقلق قلقاً عظيما خشية ألا أستعيد أبداً مقدرتى الكاملة على استعماله . وسأقوم بناء على نصيحة الجراحين الذين يعالجوننى برحلة بعد أسبوعين إلى مياه ايكس فى بروفنس ، وقد اخترت هذه المياه من بين عدة اقتراحات اقترحوها على لأنها إذا عجزت عن أن تكون فعالة فإن رحلتى لن تذهب دون جدوى ، فستعطينى فرصة لدراسة قناة لانجيدوك Languedoc والقيام بزيارة الموانى المعنية بالتجارة معنا .

فى نيزم — وقد وقع فى حب ميزون كواريه

إننى هنا يا سيدتى (كونتيس ده تيسيه Tesse وهى من أقارب لافاييت) انظر ملياً

ساعات كاملة إلى « ميزون كواريه » مثلما ينظر المحب إلى عشيقته . ويعدنى نساجو الجوارب وغزالو الحرير حوله إنجليزياً سوداوى المزاج يكاد يكتب بغدارته الفصل الأخير من تاريخه . وهذه هى المرة الثانية التى أحببت فيها منذ أن تركت باريس . وكانت المرة الأولى مع « ديانا » فى قصر دهلاى – ابيناى فى بوجوليه -Laye Epinaye in Beayjolais وهى قطعة لذيذة من النحت قام بها سلودتس M.A Soldtz وسوف تقولين إن هذا يسير مع قاعدة الوقوع فى حب مع أنثى حسناء : ولكن حب بيت أمر خلو من كل سابقة . وإنى لأجيب على هذا بقولى لا يا سيدتى ، فإن هذا لا يخلو من سابقة فى تاريخى الخاص فبينما كنت فى باريس فتنت فتنة غامرة بأوتيل دى سالم Hotel de Salm واعتدت أن أذهب إلى التويلرى Tuileries كل يوم تقريباً لأنظر إليها ، ولم تعر مؤجرة الكراسى أى اهتمام بعاطفتى . كما لم تظهر لى رعاية كافية ، حتى لقد امتنعت أن تضع لى كرسياً هنالك فلم أجد وسيلة إلا الجلوس على السور ولى عنقى لأرى موضوع إعجابى ، فكنت أترك المكان عادة بألم فى عنقى .

ولقد غذيت من ليون Lyons إلى نيزم Nismes بآثار الجلال الرومانى ، وسوف لا تتوقعين أنباء من مراسل لك فى نيزم ولو أننى حاولت أن أعطيك أنباء فإنه يجب على أن أخبرك بقصص عمرها ألف سنة ، فأروى فى تفصيل مؤامرات بلاط القياصرة وكيف تؤثر فينا هنا ، واضطهادات حكامهم وولاتهم وغير ذلك . وإنى لغارق فى الآثار من الصباح حتى المساء وبالنسبة لى تمثل روما بالفعل كل بهاء إمبراطوريتها ويملؤنى الذعر للهجمات المفاجئة التى يشنها علينا كل يوم القوط Goths والفيزيقوط Visigoths والأوستروقوط Ostrogoths والفاندال Vandals خشية أن يغزونا مرة ثانية ويعيدونا إلى بربريتنا الأولى وإن كنت أحيانا أنظر نحو الأمام إلى القرن الثامن عشر فذلك فقط حين استدعى إليه بذكر طيبتك وصداقتك .

السماوات الصافية والبلابل الشادية فى فرقة موسيقية

إننى أكتب إليك يا عزيزتى باتسى Patsy من قناة لانجيدوك Languedoc التى أبحر عليها فى الوقت الحاضر ولم أزل أبحر عليها منذ أسبوع والسماء صافية من فوق ،

والمياه رائقة من تحت وعلى كل جانب صف من البلابل بغرد فى فرقة موسيقية كاملة . ولقد أعطانى هـذا الطائر الممتع ولمية غنية من قبل عند نبع فوكليوز Vaucluse ؛ فبعد زيارة مقبرة لورا فى آفينيون Laura at Avignon ذهبت لأرى هذا النبع وهو نبع نبيل فى ذاته وأصبح مشهوراً إلى الأبد بأناشيد بترارك Petrarch الذى عاش بالقرب منه . وقد وصلت هنالك مجهداً بعض الشيء وجلست إلى جانب النبع لأريح نفسى . وإنه يتفجر فى حجم نهر من واد منعزل من وديان الجبال وآثار قصر بترارك تجثم على صخرة على ارتفاع مائتى قدم عمودية . ومما يضيف إلى سحر المنظر كانت كل شجرة وشجيرة ممتلئة بالبلابل المنطلقة فى الشدو الكامل .. وإذ أن لديك أشجاراً فى حديقة الدير فقد توجد فيها البلابل وهذا هو فصل شدوها ، فحاولى يا عزيزتى أن تلمى بموسيقى هذا الطير حتى يمكنك عندما تعودين إلى وطنك أن تقدرى مزيته بمقابلته بغناء الحداء .

الطبقات الممتازة وبؤس الجماهير

إننى أتجول باستمرار لأرى ما لم أره من قبل وما لن أراه مرة ثانية ؛ فى المدن الكبيرة أذهب لأرى ما يعتقد الرحالة وحدهم أنه جدير بأن يرى ولكنى أبذل جهداً فى دراسته وألتهمه كله عادة فى يوم واحد . ومن الناحية الأخرى لا أشبع مطلقاً من التجوال فى الحقول والمزارع وأنا أدرس الزراعة والزراع بفرط من حب الاستطلاع تجعل بعضهم يعدنى أبله والآخرين يعدوننى أحكم مما أنا عليه . وكثيراً ما تمنيت لك أن تفعل ما أفعل (لافاييت) وسوف يكون من دواعى الراحة العظيمة لك أن تعرف من بحثك الخاص حالة جميع الأقاليم فى وطنك . . . ولتفعل ذلك بنجاح يجب أن تكون متنكراً تنكراً تاماً ويجب أن تعيش مع الناس فى أكواخهم كما فعلت ، وأن تبحث فى قدورهم وتأكل خبزهم ، وتستلقى على فرشهم مدعياً طلب الراحة لنفسك ، ولكن فى الواقع لتكشف أهى ناعمة . وسوف تشعر بلذة سامية من بحثك ودراستك ولذة أسمى بعد ذلك حين تستطيع فى المستقبل أن تطبق معرفتك وتستخدمها فى تليين فراشهم وإلقاء قطعة من اللحم فى قدور خضراواتهم .

وإن ملكية هذا البلد مركزة تركيزاً مطلقاً فى أيد قليلة جداً . . . وإن نتائج هذا التفاوت العظيم وعدم المساواة قد انتهت إلى البؤس الأليم الذى حاق بجمهرة الناس ، ومهما ابتكر المشرعون من النظم لتقسيم الثروة وتوزيعها بين المواطنين فلن يتهموا بالمغالاة ؛ فحينما يوجد فى أى بلد أراض غير مزروعة وفقراء عاطلون يتضح أن قوانين الملكية قد امتدت إلى حد جعلها تنتهك الحق الطبيعى ؛ إذ الأرض أعطيت مالا مشتركاً للإنسان يكد عليها ويعيش منها . ولو أننا سمحنا بامتلاكها من أجل تشجيع الجد والعمل فإنه يجب علينا أن نوفر عملا آخر لأولئك المحرومين من الامتلاك ، فإذا لم تفعل ذلك فإن حق استثمار الأرض يعود إلى العاطلين .

ولو أن أحدا من الناس يرى أن الملوك أو النبلاء أو القسس هم حفظة أمناء على سعادة الشعب فليرسلهم إلى هنا . فهذا المكان هو خير مدرسة فى العالم لشفائه من ذلك الجهل ؛ إذ سوف يرى هنا بعينه أن هذه الألقاب التى خلعوها على أنفسهم ما هى إلا تحالف مرذول ضد سعادة جمهرة الناس وأن قدرة تأثيرهم لا يمكن أن تبين أكثر مما تبين خاصة فى هذا البلد حيث يثقل الملوك والأمراء والقسس وحدهم الشعب بالبؤس ، وذلك بالرغم من توافر أجود تربة على وجه الأرض ، وأجود جو تحت السماء ، وشعب امتاز بخير خلق وألطفه وأكثره مرحاً مما يستطيع أن يستشعره الكيان الإنسانى . وقد حاطه الله بمثل هذه النعم العديدة من الطبيعة وان كل مزية أرضية مجتمعة ليست كافية لأن تمنع هذا العقاب من جعل الحياة لعنة على أربعة وعشرين من خمسة وعشرين جزءا من سكان هذا البلد .

إن ثورة صغيرة من وقت لآخر شىء حسن

لقد حدث بين الشعب اجتماعات ثورية فى الولايات الشرقية (اضطرابات الفلاحين المثقلين بالديون فى مساشوستس فى ١٧٨٦ المعروفة بـ ثورة شاى Shay's Rebellion) وكان مطلبهم الأساسى هو الحصول على مهلة فى الإجراءات القضائية ولم يقع أى ضرر . . . كما أن الاضطراب لم يستمر مدة أربع وعشرين ساعة فى أية حالة من الحالات . . . ولا يخلو عمل هؤلاء الناس من مبرر . وان الطريقة لمنع هذه

الاعتراضات الثورية من الشعب تقوم على إعطائهم معلومات كاملة عن شئونهم : . .
وإذ أغفلوا فى مرة من المرات الشئون العامة فإن الكونجرس والمجالس النيابية والقضاة والحكام سوف يستحيلون جميعاً ذئابا . ويبدو أن هذا هو قانون طبيعتنا العامة بالرغم من الاستثناءات الفردية . وتقرر التجربة أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يلتهم أبناء نوعه ؛ لأنى لا أستطيع أن أصف حكومات أوروبا وافتراس الأغنياء للفقراء بتعبير أكثر اعتدالا من هذا التعبير : وأعتقد أن ثورة صغيرة من وقت لآخر شيء محمود وضرورى فى عالم السياسة ، ضرورة العواصف فى عالم الطبيعة . . .
وهى دواء ضرورى لتمتع الحكومة بصحة جيدة .

ووقانا الله من أن نظل عشرين سنة من غير ثورة على هذا النحو . فالشعب لا يمكن أن يكون جميعه وأن يكون دائما على علم تام بشئونه إذا لم يقم بمثل هذه الثورات الصغيرة . وان الذين يخطئون فى فهم الأمور العامة سوف يسخطون على قدر أهمية الحقائق التى يسيئون فهمها . ولو استمروا فى هدوء فى ظل مثل هذه الآراء الخاطئة فإن هذا يكون خمولا ورائد موت للحرية العامة . . . فدعهم يحملوا السلاح . .
وان العلاج لذلك هو تصحيح أفكارهم بالحقائق والصفح عنهم وتهدئتهم . وما هى أهمية ضياع أنفس قليلة فى قرن أو قرنين ؟ فان شجرة الحرية يجب أن تنتعش من وقت إلى آخر بدم الوطنيين والطغاة ، إنه سمادها الطبيعى .

فعلموا أفراد الشعب جميعه ، وأرشدوهم بالمعرفة ، ومكنوهم من أن يروا أن فى مصلحتهم حفظ السلام والنظام ، وهم سوف يحافظون عليهما ، ولن يتطلب ذلك درجة عالية جداً من التعلم لإقناعهم بهذا . فهم العماد الوحيد الأكيد لحفظ حريتنا .
وبعد كل هذا فإن مبدئى يقوم على أن إرادة الأكثرية يجب أن تسود . فإذا وافقوا على الدستور المقترح بجميع أجزائه فسأوافق على ذلك بسرور ، وأنا آمل أنهم سيعدلونه عند ما يكتشفون أنه يعمل خطأ .

دستور سنة ١٧٨٧ : الإصلاح دون إراقة دماء

لقد وافقت منذ اللحظة الأولى على المواد الكثيرة التى يشتمل عليها الدستور الجديد

من تقوية الحكومة وتنظيمها فى هيئات تنفيذية وتشريعية وقضائية وتقسيم الهيئة التشريعية ، وتوفيق فى المصالح بين الولايات الكبيرة والصغيرة باختلاف طريقة التصويت فى المجالس النيابية المختلفة والاقتراع بوساطة الأشخاص بدلا من الولايات ومنح الهيئة التشريعية حق الرفض المشروط للقوانين ، وإن كنت أفضل مع ذلك أن تشترك معها الهيئة التشريعية فى هذا الحق كما هو متبع فى نيويورك : وسلطة فرض الضرائب ، وكنت أرى فى أول الأمر أن تحدد هذه السلطة .

أما ما لم أوافق عليه منذ اللحظة الأولى أيضا فهو فقدان بيان للحقوق ليحمى الحرية ضد فرعى الحكومة من الهيئة التشريعية والتنفيذية ، وأعنى بذلك ضمان الحرية فى الدين وحرية الصحافة والحرية من الاحتكارات والحرية من السجن غير القانونى والحرية من تأليف جيش دائم والمحاكمة بوساطة هيئة المحلفين فى جميع القضايا التى يمكن الفصل فيها بقوانين البلاد . ولم أوافق أيضا على الإعادة المستمرة لترشيح رئيس الجمهورية . وإنى لأستمسك بنقط الخلاف التى ذكرتها . . . وأرى أن أكثرية الولايات المتحدة توافقنى على رأيى من أن بيانا بالحقوق يجب أن يلحق الآن بالدستور . . . أما فيما يتصل بحق إعادة ترشيح رئيس الجمهورية فإنى فى الواقع إزاء تقريره وقيامه لا أود تغييره فى أثناء حياة زعيمنا العظيم واشنطون .

ومن المؤكد أننا نستطيع أن نفاخر بأننا أقمنا للعالم مثلا جميلا لحكومة أصلحت بالعقل وحده دون إراقة دماء . ولكن العالم مضطهد إلى حد يمنع إفادته من هذا المثال . ففى هذا الجانب من المحيط الأطلسى أصبح دم الشعب ميراثاً وسوف لا يتخلى عنه بيسر أولئك الذين يسمنون عليه . وإن الصراع فى هذا البلد لا يزال مشكوكاً فى نتيجته .

ثورة دامية تبدأ فى فرنسا

يبدو أن الحرب الأمريكية قد أيقظت أول الأمر الجزء المفكر من هذه الأمة على وجه العموم من نوم الطغيان الذى كانوا فيه غارقين . كما كان الضباط الذين ذهبوا إلى أمريكا فى الأغلب شباناً أقل تقيداً بالعادة والهوى وأكثر استعداداً لقبول

ما يمليه العقل الراجح والحق الواضح . وقد عادوا متأثرين بهما . وبدأت الصحافة — بالرغم من قيودها — تنشرهما ، واتخذ الحديث كذلك حرية جديدة وأصبحت السياسة موضوع المجتمعات كافة من ذكر وأنثى ، وتكون حزب كبير وحماسي جداً ويمكن تسميته الحزب الوطني الذي أحس بالحكومة المستبدة التي يعيش فى ظلها فتطلع إلى فرص لإصلاحها .

ولقد تعرفت كثيراً بقادة الوطنيين من الجمعية الوطنية . وإذ أنى أنتسب إلى بلد مر بنجاح فى حركة إصلاح مشابه فقد كانوا يميلون إلى التعرف بى وكانت لهم بعض الثقة فىّ ، فطالبتهم فى جهد كبير أن يصلوا إلى توفيق مباشر بين رغباتهم ورغبات الحكومة ، وذلك بأن يحصلوا على ما كانت الحكومة (فى يونيه ١٧٨٩) مستعدة لإجابته والتنازل عنه ، وأن يتركوا للمناسبات المقبلة ما قد يظل ناقصاً . وكان من المفهوم جيداً أن الملك سوف يمنح فى هذا الوقت :

١ — أحقية المسجون فى المحاكمة .

٢ — حرية الضمير .

٣ — حرية الصحافة .

٤ — المحاكمة بوساطة هيئة المحلفين .

٥ — هيئة تشريعية نيابية .

٦ — اجتماعات سنوية .

٧ — اقتراح القوانين .

٨ — الحق الخاص فى فرض الضرائب والامتلاك .

٩ — مسئولية الوزراء .

ومع ممارسة هذه السلطات يمكن لهم فى المستقبل أن يحصلوا على ما قد يكون بعد هذا ضروريا لإصلاح دستورهم والمحافظة عليه . ومع ذلك فقد رأوا غير ذلك وأثبتت الأحداث خطأهم الذى يؤسف له .

سقوط الباستيل

كان الملك (فى ١١ من يولية سنة ١٧٨٩) فى قبضة رجال اشتهر زعماؤهم طوال

حياتهم بنزعة الاستبداد التركى فى أخلاقهم . . وإن أنباء هذا التغيير (فى الوزارة ومشروع قمع الثورة بجنود أجانب) قد بدأت تعرف فى باريس حوالى الساعة الأولى أو الثانية . وتألفت فرقة يبلغ عددها حوالى مائة فارس ألمانى واصطفت بعد الظهر فى ميدان لويس الخامس عشر واتخذ ما يقرب من مائتى جندى سويسرى أماكنهم على مسافة قليلة فى مؤخرتهم . وقد جذب هذا الجماهير إلى البقعة ؛ ومن ثم وجدوا أنفسهم بالمصادفة أمام الجند كمتفرجين فقط أول الأمر ولكن زاد سخطهم مع تكاثر أعدادهم . فارتدوا خطوات قليلة واتخذوا لأنفسهم مركزا خلف كومات كبيرة من الأحجار الصغيرة والكبيرة التى جمعت فى ذلك الميدان لبناء جسر فى موقع مجاور له .

ولقد صادف أننى كنت راكباً عربتى فى أثناء زيارة واخترقت الممر الضيق الذى أقاموه فى هذا المكان دون تعطيل . ولكن فى اللحظة التالية بعد مرورى هاجمت الجماهير الفرسان بالأحجار فأطلقوا النار ؛ غير أن موقع الجماهير الممتاز وانهمار الأحجار أجبر الفرسان على الانسحاب ومغادرة الميدان مغادرة تامة ، تاركين واحداً منهم على الأرض والسويسريين فى المؤخرة غير متحركين لنجدتهم . وكان هذا العمل هو الإشارة لبدء التمرد العام ؛ وانسحبت فرقة الفرسان نحو فرساى لتتجنب تعرض أفرادها للذبح .

ولقد سلح الشعب نفسه مما استطاع أن يجد من أسلحة فى حوانيت صناع الأسلحة وتجارها وفى المنازل الخاصة ، وبالمراوات ، وكانوا يطوفون طوال الليل فى جميع أجزاء المدينة دون هدف مقرر . وفى اليوم التالى (الثالث عشر) ضغطت الجمعية الوطنية على الملك ليبعد الجند ويسمح للبورجوازيين فى باريس أن يتسلحو لحفظ النظام فى المدينة ، واقترحوا أن يرسلوا وفداً من هيئتهم ليهدئوا الشعب ولكن اقتراحاتهم قد رفضت . . فقررت لجنة المدينـــة أن تجند ثمانية وأربعين ألف بورجوازى ، أو بالأحرى أن تقصر عددهم على ثمانية وأربعين ألفا . وفى اليوم الرابع عشر أرسلوا أحد أعضائهم (مسيو دى كورنى Corny) إلى أوتيل ديزانفاليد Hotel des Invalides ليطلب أسلحة لحرسهم البورجوازى . فتبعه ، كما وجدت هنالك مجموعة كبيرة من الشعب وخرج حاكم الأنفاليد وأعلن استحالة تسليم أسلحة دون تلقى أوامر من أولئك الذين تسلمها منهم . فنصح دى كورنى الشعب

حينئذ بأن ينسحب ، وانسحب هو نفسه ، ولكن الشعب استولى على الأسلحة ، ومن الملاحظ أن حرس الانفاليد ليسوا وحدهم الذين لم يقاوموا بل إن فرقة مؤلفة من خمسة آلاف جندى أجنبي كانت ترابط على بعد يقرب من الأربعمائة الياردة لم تتحرك هى الأخرى مطلقاً ، فأرسل عندئذ المسيو دى كورنى وخمسة آخرون يطلبون أسلحة من مسيو دى لونى Launay حاكم الباستيل فوجدوا مجموعة كبيرة من الشعب متجمهرة أمام القصر وأقاموا مباشرة علماً من أعلام المدنة فأجيب بعلم مشابه رفع على السور ، وقد أقنع الوفد جماهير الشعب بأن يتراجعوا قليلا وتقدموا بأنفسهم ليرفعوا طلبهم إلى الحاكم ، ولكن فى تلك اللحظة قتلت طلقة نارية من الباستيل أربعة من أولئك الأشخاص الأقرب إلى النواب أعضاء الوفد . فانسحب النواب وصادف أننى كنت فى منزل مسيو دى كورنى عند ما عاد إليه وسمعت منه قصة هذه الأحداث .

وعند انسحاب النواب اندفع الجمهور إلى الأمام وفى لحظة كانوا قد استولوا على موقع محصن ذى قوة لا حد لها ؛ وكان يدافع عنه مائة رجل ، وقد احتمل فى أوقات أخرى عدة حصارات منظمة ولم يؤخذ أبداً ؛ أما عن كيفية اقتحامهم هذا الحصن ودخوله فلم تشرح أبداً . فأخذوا جميع الأسلحة وأطلقوا سراح المسجونين ومن بقى من أفراد الحامية الذين لم يقتلوا فى لحظة الغضب الأولى ، وحملوا الحاكم ونائب الحاكم إلى ميدان دى جريف Place de Greve (ميدان الإعدام العام) وقطعا رأسيهما وأرسلا بهما خلال المدينـــة فى انتصار إلى القصر الملكى .

ولقد كان لقطع رأس دى لونى De Launay أثر قوى أثناء الليل فى جميع أعضاء الحزب الأرستقراطى . حتى إنه فى الصباح تقدم أصحاب النفوذ الأكبر على الكونت دى آرتوا Count d' Artois إليه بالضرورة المطلقة فى أن يتنازل عن كل شيء إلى الجمعية الوطنية ، وإذ التقى هذا المطلب مع رغبة الملك فقد ذهب حوالى الساعة الحادية عشرة مصحوباً فقط بإخوته إلى الجمعية Assembly وهنالك قرأ عليهم خطاباً طلب إليهم فيه أن يتدخلوا ليعيدوا إقرار النظام .

مارى انتوانيت

لقد أصبح الملك الآن أداة سلبية فى أيدى الجمعية الوطنية ، ولو أنه كان قد قد ترك لنفسه لوافق برغبة واختيار على أى شىء يدبره أعضاؤها لصالح الأمة . ولكن كانت عنده ملكة ذات سلطان مطلق على عقله الضعيف وفضيلته المترددة ، وذات شخصية هى نقيض شخصيته فى جميع النواحى ، إذ كانت فخوراً مزدرية للقيود حانقة على كل العقبات التى تعترض إرادتها ، متحمسة فى البحث عن اللذة وحازمة حزماً كافياً لأن تتمسك برغباتها أو تهلك تحت الأنقاض . وكانت مغامرتها المتطرفة وملاهيها سبباً محسوساً فى إرهاق مالية الدولة مما استدعى تدخل الأمة للإصلاح ، وأدت بها مقاومتها لذلك الإصلاح وانحرافها الثابت وروحها الجسورة إلى المشنقة ، وجرّت الملك معها وأغرقت العالم فى جرائم وكوارث سوف تلطخ إلى الأبد صفحات التاريخ الحديث . ولقد كنت دائم الاعتقاد بأنه لو لم تكن هنالك ملكة لما وقعت الثورة .

ولا تزال حتى الآن فى الفصل الأول من تاريخها . فقد كان الفرنسيون أول من أخذ من بين الأمم الأوربية عن الولايات المتحدة مخاطبتها حقوق الإنسان . ومن فرنسا انتشرت هذه الروح ، ولقد تحالف الطغاة حقاً ضدها ولكنها لا تقاوم وسوف تتقدم أحوال الإنسان فى العالم المتمدين جميعه فى النهاية تقدماً عظيما .

تحية الفراق إلى الفرنسيين

لقد كنت أطلب منذ أكثر من عام الإذن فى أن أذهب إلى الوطن بقصد أن أضع بنتىّ فى مجتمع أصدقائهم ورعايتهم وأن أعود لوقت قصير إلى مركزى فى باريس . ولكن لم أتسلم الإذن الذى طلبته إلا فى نهاية أغسطس ١٧٨٩ ولا أستطيع هنا أن أغادر هذا البلد العظيم الخيّر دون التعبير عن إحساسى بتفوق خلقه بين أمم الأرض . فلم أعرف شعباً أكثر منه إحساناً أو أعظم حرارة وولاء فى صداقات أفراده المختارة . وإن عطفهم على الغرباء وخدمتهم لهم لا نظير لهما ، وإن كرم باريس فوق ما أستطيع

تصور ممارسته فى مدينة كبيرة . كما أن تفوقهم أيضاً فى العلم وميول علمائهم للمشاركة فى ميدانهم وتهذيب عاداتهم العامة وسهولة حديثهم وحيويته كلها تعطى سحراً لمجتمعهم لا يوجد فى مكان آخر ، وعندما نقارن هذا بالبلاد الأخرى نجد عندهم برهان الأولوية الذى أعطى إلى ثميستوكليس Themistocles بعد موقعة سلاميس Salamis فكل قائد اقترح لنفسه الجائزة الأولى للشجاعة والثانية لثميستوكليس . ومن ثم فلتسأل المواطن الرحال فى أية أمة عن أى البلاد على وجه الأرض يفضل العيش فيها فسوف يجيب « بالتأكيد فى وطنى حيث يوجد جميع أصدقائى وأقاربى وأولى عواطف حياتى وذكرياتها الحلوة » وإذا ما سألته أى الأوطان يقع عليه اختياره الثانى أجابك « فرنسا » .

أين آمل أن تنتهى أيامى

إن مزاجى وحشى إلى درجة تجعلنى أفضل الغابات والقفار واستقلال مونتيسلو على كل اللذات اللامعة فى هذه العاصمة البهيجة . ولهذا فإنى سأعود إلى وطنى الأصلى بعواطف جديدة وتقدير زائد لمزاياه لأنه بالرغم من أن هنالك ثروة أقل فإنه توجد حرية أكثر وراحة أكثر وبؤس أقل . وإننى لا أحس فى أى مكان أو مجتمع آخر بمثل ما أحس به من السعادة فى وطنى وتنتهى جميع أمانى حيث آمل أن تنتهى أيامى فى مونتيسلو فإن كثيراً من مناظر السعادة تختلط بجميع ذكرياتى عن الغابات والحقول فى وطنى اختلاطاً يحول دون تركها أو استبدالها فى عواطفى بمناظر أخرى .

ولقد غادرت فى ٢٦ من سبتمبر (١٧٨٩) باريس إلى هافر Havree حيث حجزتنى الرياح المضادة حتى الثامن من أكتوبر . وعبرت فى ذلك اليوم وفى اليوم التاسع إلى كاويز Cowes ولكن الرياح المضادة حجزتنا مرة ثانية حتى الثانى والعشرين ونزلنا فى نورفولك Norfolk فى الثالث والعشرين من نوفمبر ووصلت إلى مونتيسلو فى الثالث والعشرين من ديسمبر .

الفصل التاسع

وزير الخارجية لواشنطون

لقد قبل جيفرسون تعيينه وزيرا للدولة فى الحكومة الجديدة التى أقيمت فى ظل الدستور عند عودته من فرنسا فى ديسمبر سنة ١٧٨٩ ، وذلك استجابة منه لتصميم الرئيس واشنطون . وحين اضطلع بواجباته فى مارس سنة ١٧٩٠ صدمته الآراء « الملكية » المعادية للديموقراطية التى كان يعتنقها أمريكيون ذوو نفوذ ممن وجدوا فى ألكساندر هاميلتون Alexander Hamilton وزير واشنطون للمالية زعيما كفئاً ميالا للعدوان . أما عن ولاء واشنطون لفكرة الجمهورية فلم يكن لديه فيه شك كما يخبرنا فى تصويره الموجز الرائع لذلك الرجل العظيم . ولكن هاميلتون فى رأيه الذى تأثر بالطبع بالنضال الحزبى الناجم « لم يكن ملكيا وحسب ، وإنما كان من أنصار ملكية مؤسسة على الفساد » .

وحين وصل إلى نيويورك ، كان قد ووفق فعلا على مشروع هاميلتون لتمويل دفع القيمة الأصلية للدين . ولو أن مشروع التمويل كان عظيم النفع فى إقامة الثقة المالية للحكومة الجديدة على أساس ثابت ، إلا أنه مكن المضاربين من أن يجنوا محصولا ذهبيا ، ونشأت معارضة قوية فى الجنوب الزراعى للمصالح التجارية المالية لمدن الشمال . وقد هددت هذه المعارضة مشروعاً آخر من مشروعات هاميلتون : وهو أخذ الحكومة العامة على عاتقها ديون الولايات . فعند وصول جيفرسون طلب هاميلتون منه العون . وإذ تأثر جيفرسون بحجة أن الاتحاد الأمريكى نفسه فى خطر ولم يكن حينئذ مدركا إدراكا تاما لآراء هاميلتون السياسية الاقتصادية فقد نظم المساومة المشهورة فى سنة ١٧٩٠ التى بها ووفق على اضطلاع الحكومة العامة بديون الولايات وأقيمت عاصمة الاتحاد على ضفاف البوتوماك Potomac بعد بقائها عشر سنين فى فيلادلفيا ، وعندما رخص لبنك الولايات المتحدة بمباشرة أعماله المالية فى سنة ١٧٩١ وقدم جيفرسون إزاء هذا الإجراء تفسيره البنائى الخالص للدستور اتخذ

الانقسام الحزبى شكله فى الجمهورية الجديدة بين أتباع جيفرسون من الجمهوريين الديموقراطيين وأتباع هاميلتون من الفيديراليين « الملكيين » .

أما فى الشئون الخارجية فإن الوزير جيفرسون راقب باهتمام عظيم النضال من أجل حقوق الإنسان فى فرنسا ودعا إلى اتخاذ إجراءات انتقامية تجارية ضد الأمم التى تحتفظ بالحواجز التجارية فى وجه الولايات المتحدة ، ولم يحاول أن يحصل من اسبانيا على حق الملاحـــة الحرة فى نهر المسيسيبى (وقد كان حينئذ الحد الغربى للجمهورية) وإنما أصر على أن تتنازل عن نيو أورليانز الاسبانية New Orleans وفى أسلوب رائع عرض الاتهام الأمريكى لبريطانيا العظمى لعجزها عن أن تنفذ معاهدة الصلح لسنة ١٧٨٣ خاصة بعدم جلائها عن الحصون البريطانية الواقعة على الحدود فى أرض أمريكية من بحيرة تشامبلين Lake Champlain إلى بحيرة ميتشيجان Lake Michigan . ولقد قامت مشكلة شاقة أمام الأمة الناشئة المحصورة بين كندا البريطانيـــة من الشمال وممتلكات اسبانيا فى فلوريدا ومنطقة لويزيانا الواسعة من الجنوب وتتمثل هذه المشكلة فى المساعدة والتحريض اللذين كان يمنحهما عملاء هاتين الدولتين للهنود الأعداء . وحين بدا من المرجح أن تقوم حرب بين بريطانيا وفرنسا (ولو أنها لم تحدث) أظهر جيفرسون كفاءته الدبلوماسية بخطته الجريئة المحكمة لكسب المزايا من « حماقات العالم القديم » .

وفى أثناء هذا الوقت اشتدت معارضته لسياسة هاميلتون . وإذ لاحظ أن الانقسام بينهما ليس صادراً فقط عن عاطفة سياسية ومصلحة اقتصادية وإنما عن اعتبارات جغرافية ، كذلك فقد حث جيفرسون الرئيس واشنطون على أن يتنازل عن فكرته فى اعتزال منصب رياسة الجمهورية فى نهاية فترته الأولى ، ولقد شعر براحة عظيمة جداً عندما قبل رئيس الجمهورية أن يرشح نفسه مرة أخرى لانتخاب الرياسة فى ١٧٩٢ لأن مجرد التأكد من بقاء واشنطون فى رياسة الجمهورية لمدة أربع سنين أخرى هو الذى يمحو تهديد ذلك « الشر المستطير » المنطوى على تحطيم الاتحاد الأمريكى الجديد الذى لا يزال مزعزع الأركان .

وزير الخارجية

لقد تسلمت فى طريقى إلى الوطن خطابا من الرئيس الجنرال واشنطون بالبريد السريع مشتملا على تعيينى وزيراً للدولة . فتسلمته بأسف حقيقى ، إذ كنت راغبا فى أن أعود إلى باريس حيث تركت أثاث بيتى كما لو كنت موجوداً به ، كما كنت أتوق أن أرى نهاية الثورة التى ظننت حينئذ أنه من المؤكد انتهاؤها انتهاء موفقاً فى أقل من عام . وكنت أنوى حينذاك أن أعود إلى الوطن وأنسحب من الحياة السياسية وأستمتع بأسرتى وأصدقائى وأهب نفسى للدراسات أكثر ملاءمة لعقلى . وقد عبرت بإخلاص فى إجابتى فى ١٥ من ديسمبر إلى الرئيس عن هذه الميول ولكنى أكدت له أننى سوف أضحى بميولى الخاصة دون تردد وتركت هذا لقراره . ووصلت إلى مونتيسلو فى ٢٣ من ديسمبر حيث تسلمت خطاباً ثانياً من الرئيس يؤكد فيه رغبته فى أن أتولى منصبى هنالك . . . وقد وضع هذا حداً لإحجامى وقبلت المنصب الجديد .

ولقد تزوجت فى فترة بقائى فى البيت ابنتى الكبرى زواجا سعيداً بالابن الأكبر لفرع تكاهو Tuckahoe من أسرة راندولف وهو سيد ناشئ (توماس مان راندولف) صاحب عبقرية وعلم وعقل سام ، وقد شغل بعد ذلك منصباً جليلا فى الحكومة العامة وأجل منصب فى ولايته الخاصة . وغادرت مونتيسلو فى أول مارس سنة ١٧٩٠ إلى نيويورك . وزرت فى فيلادلفيا فرانكلين الوقور المحبوب . وقد كان حينئذ على فراش المرض الذى لم ينهض منه أبداً . وإن عودته الحديثة من بلد ترك فيه أصدقاء عديدين والاضطرابات الخطرة التى تعرضوا لها أحيت جميع أشواقه لأن يعرف الدور الذى لعبوه ، والسياسة التى اتبعوها ، والمصير الذى لاقوه . وقد استعرض كل هذا فى تتابع سريع وحيوية متدفقة لا تتفق والمرض الذى صار إليه .

ووصلت إلى نيويورك فى ٢١ من مارس حيث كان الكونجرس منعقداً .

مدينة نيويورك فى مارس سنة ١٧٩٠

لقد وصلت هنا بعد رحلة أسبوعين من ريتشموند Richmond بلغت فى مشقتها ما بلغته أية رحلة قمت بها من قبل ولم أسترح إلا يوماً واحداً فقط فى الإسكندرية

وآخر فى بالتيمور. ووجدت عربتى وخيولى فى الإسكندرية ، ولكن سقوط جليد عمقه ثمانى عشرة بوصة فى نفس الليلة جعلنى أرى استحالة استمرار السفر فى عربتى الخاصة ، ولذلك تركتها هنالك لترسل إلى بطريق الماء . وواصلت رحلتى فى مركبة السفر العامة ولو أننى كنت أريح نفسى قليلا أحياناً بامتطاء حصانى الذى صحب المركبة ، وكانت الطرق خلال الرحلة جميعها سيئة إلى درجة أننا لم نستطع أن نقطع أكثر من ثلاثة أميال فى الساعة ، بل إننا أحياناً لم نكن نقطع أكثر من ميلين بل ميلا واحداً فى الليل . وكان هدفى الأول أن أبحث عن بيت فى شارع برودواى **Broadway** إن أمكن ذلك لأنه كان مركزاً عملياً . ولما لم أجد بيتاً خالياً إذ ذاك استأجرت بيتاً صغيراً فى شارع ميدين لين **Maiden Laine** .

انظر إلى يا صديقى العزيز (لافاييت) وقد اخترت وزيراً للدولة بدلا من عودتى إلى المنصب الذى كان أكثر ملاءمة لى والذى كان ييسر لى الاستمتاع اليومى بصداقتك . . . فحيثما أكون أو سوف أكون على الإطلاق فسأحافظ على الإخلاص فى صداقتى لك ولأمتك . وإنى أعتقد مع الآخرين أن الأمم التى تحكمها مصالحها الخاصة لا بد أن تعرف طريقها آخر الأمر ، ولا بد أن ترعى الجميل ، وتحتفظ بعهودها فى أسوأ الظروف شريفة كريمة على الدوام . ولو لم أكن أعرف أن رئيس حكومتنا على هذه العواطف وأن أخلاقه القومية هى نفس أخلاقه الشخصية لما كنت أبداً حيث أنا الآن . . . وإن آخر الأنباء التى وصلتنا من باريس ترجع إلى الثامن من شهر يناير وقد بدا أن ثورتكم حتى ذلك الوقت تسير إلى الأمام بخطى ثابتة ، وأنها تقابل حقاً مصاعب وأخطاراً عارضة ، ولكن ما كان لنا أن ننتظر التحول من الاستبداد إلى الحرية فى يسر ولين :

أصابه الغم من النزعات الملكية

لقد وجدت هنا الأمور على حالة لم أكن أتصورها أو أتوقعها قط . وقد غادرت فرنسا فى العام الأول من ثورتها وسط الحماسة للحقوق الطبيعية والغيرة على الإصلاح . وكان ولائى المخلص لهذه الحقوق بالغاً غايته ولكنه تيقظ واستثير

بالمرانة اليومية . وقد استقبلني رئيس الجمهورية بحرارة وود ، كما استقبلني زملائي وزعماء المواطنين بترحيب ظاهر . وأدخلني إلى مجتمعهم العادي ما قدموه إلى من مجاملات ممثلة في حفلات الطعام كغريب وصل حديثاً بينهم . ولكن لا أستطيع أن أصف العجب والمدم اللذين ملأتني بهما أحاديث الموائد .

وكانت السياسة هي الموضوع الرئيسي وكان من الواضح أن تفضيل نظام الحكم الملكي على الجمهوري هو العاطفـــة المحببة . وما كنت لأستطيع أن أكون مرتداً أو منافقاً ، ووجدت نفسي أغلب الوقت المدافع الوحيد عن الجانب الجمهوري من الموضوع ما لم يصادف أن يكون بين الضيوف عضو من أعضاء ذلك الحزب في المجلسين التشريعيين . وأبعد ما يذهب إليه أي واحد في نصرة المظاهر الجمهورية في حكمنا الجديد هو أن يقول « إن الدستور الحاضر حسن كبداية ويمكن أن يعطي فرصة مناسبة للتجريب ولكنه في الواقع ليس سوى مقدمة لشيء أفضل .

وقد انتهزت الفرصة في أوقات عديدة لأعبر للجنرال واشنطون عن خيبة أملي لهذه المظاهر التي تدل على تغير في المبدأ . كما أبنت له رأيي في هذه الطقوس التي وجدتها سائدة من استقبالات رسمية وأعياد ميلاد وركب فرسان إلى بيت الدولة عند اجتماع الكونجرس وخطاب رسمي من العرش وموكب الكونجرس في هيئة ليعيد إلقاء الخطاب إجابة عليه وغير ذلك من الأمثلة التي لا تتفق وبساطة الحكم الجمهوري والتي تتطلع فيما يشبه الشوق إلى مراسم قصور البلاط الأوربية والتي تعتبر تشجيعاً للروح التي كانت تدعو للملكية حينذاك .

ولقد أشرف على تنظيم حفل الرقص الأول الذي أقيم بعد وصول رئيس الجمهورية هنالك الكولونيل همفريز Humphreys والكولونيل و . س . سميث W.S. Smith ومسز نوكس Mrs. Knox (زوجة وزير الحرب) . وقد كانت الترتيبات كما يلي :

أريكة في رأس الحجرة مرتفعة على عدة درجات حيث يجلس الرئيس واشنطون وزوجه . ويرقص علية القوم بالسيوف . وحين يذهب كل منهم إلى الرقص ، يقود رفيقه إلى أسفل الأريكة ويقوم بانحناءة منخفضة للرئيس وزوجه ثم يذهب ويرقص ،

وعند الانتهاء يحضر رفيقه ثانية إلى أسفل الأريكة لأداء انحناءات جديدة ويعود بعدئذ إلى كرسيه . .

ودبرت مسز نوكس قدومها مع الرئيس وتبعته هو ومسز واشنطون إلى مكانهما المعد لهما ، وكانت تقصد بذلك اضطرار الرئيس إلى دعوتها للجلوس على الأريكة فصعدت الدرجات بعدهما دون إذن ، ولكن كانت الأريكة الشريرة لسوء الحظ قصيرة إلى درجة لم تترك فراغا لشخص ثالث عند ما جلس الرئيس ومسز واشنطون واضطرت لذلك أن تنزل أمام الحاضرين وأن تجلس حيثما تستطيع . وانفض الحفل متسما بصرامة فرضتها عليه الترتيبات الموضوعة . وقضى الرئيس مساء أعلمه أن رجاحة عقله جعلته يحس بمقدار بؤسه .

مشروع ألكساندر هاميلتون للتمويل

لقد ووفق عندئذ على مشروع هاميلتون المالى ، وكان لهذا المشروع غرضان : أولهما أن يكون غامضا ليتفادى فهم الشعب واستفساره ، وثانيهما أن يقوم أداة لإفساد الهيئة التشريعية لأنه كان يذهب إلى أن الإنسان يمكن حكمه بواحد من دافعين فقط : القوة أو المصلحة . أما القوة فقد لاحظ أنه لا مكان لها فى هذا البلد ، ومن ثم فإن مصالح الأعضاء يجب أن يسيطر عليها لضمان وحدة الرأى بين الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية ، ويجب الاعتراف مع الأسى والعار بأن أداته لم تكن خلواً من التأثير وانه حتى فى عهد ميلاد حكومتنا ظهر أن بعض الأعضاء قد بلغوا من الخسة مبلغا أدى بهم إلى أن يتبعوا واجبهم لمصالحهم وأن يؤثروا رعاية صالحهم الخاص على الصالح العام .

ومن المعروف جيدا أن أعظم مشكلة واجهتنا فى أثناء الحرب كانت الحاجة إلى المال أو الوسيلة لدفع أجور جنودنا الذين حاربوا أو رجال الزراعة والصناعة والتجارة فى بلادنا الذين قدموا المؤن الضرورية من الغذاء والكساء لهم . فبعد أن استنفدت وسيلة إصدار النقود الورقية أعطيت سندات دين لأفراد الدائنين مع تأكيد الدفع حالما تقدر الولايات المتحدة على ذلك . ولكن الضائقات التى وقع فيها هؤلاء الناس

كثيرا ما أجبرتهم على أن يتنازلوا عن هذه السندات مقابل نصف قيمتها أو خمسها أو حتى عشرها . واتخذ المضاربون تجارة باختلاسها من حاملها بأشد الطرق خداعا وبالإغراءات أنه لن تدفع قيمتها أبدا ، ولم يفرق هاميلتون فى قانون تمويل هذه السندات ودفع قيمتها بين حامليها الأصليين ومشتريها المخادعين. فنشأ نفور عظيم وعادل بين هاتين الطبقتين من الدائنين وبذلت جهود كى يدفع للطبقة الأولى القيمة كاملة وللطبقة الثانية الثمن الذى دفعوه فقط مع الفائدة . ولكن كان هذا يمنع اللعبة التى دبر لعبها والتى دربت وأعدت من أجلها عقول الأعضاء الشرهين .

وحين أبانت هذه الجهود العديدة الشكل الذى سوف يتخذه القانون عند الموافقة النهائية عليه وعرف هذا فى الأوساط الداخلية بأسرع مما عرف فى الأوساط الخارجية ، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين كانوا فى أجزاء بعيدة من الاتحاد الأمريكى — بدأ التسابق الوضيع . فالرسل والخيول المتناوبة بالبر ، وقوارب القبطان الشراعية السريعة بالبحر ، كانت تجرى طائرة فى جميع الجهات ، وجمع الشركاء والوكلاء النشيطون واستخدموا فى كل ولاية ومدينة ومنطقة ريفية ، واشتريت هذه الورقة المالية بخمسة شلنات ، بل لقد انخفض ثمنها حتى بلغ شلنين فى الجنيه قبل أن يعرف حاملها أن الكونجرس قد أعد العدة لتعويض أصحابها بدفع قيمة مساوية لقيمتها الأصلية . فاختلست بهذه الطريقة مبالغ هائلة من الفقراء والجهلاء وجمعت ثروات بوساطة أولئك الذين كانوا هم أنفسهم فقراء من قبل . ومن ثم فالناس الذين أثروا عن طريق مهارة قائد ما سوف يتبعون بالطبع الرئيس الذى كان يقودهم إلى الثروة ويصبحون الأدوات المتحمسة لجميع مشروعاته .

الاضطلاع بديون الولايات

وانتهت هذه اللعبة وكانت هنالك أخرى على البساط فى لحظة وصولى ، وقد استخدمت عن جهل وبراءة فى حمل الشمعة . وإضاءة الطريق أمامها . وعرفت هذه المناورة المالية جيدا باسم « الاضطلاع » فقد عقدت الولايات فى أثناء الحرب ديونا منفصلة ثقيلة مستقلة عن ديون الكونجرس . . . وكلما جمع هاميلتون من دين

زاد السلب لأجرائه المرتزقين . فهذا المال سواء أنفق بحكمة أو جهالة ادعى أنه أنفق في الأغراض العامة وينبغي لذلك أن يدفع من خزانة الدولة العامة . ولكن اعترض على ذلك بأن أحدا لا يعرف ماهية هذه الديون أو قدرها أو طريقة أدائها . ولم يحفل بهذا وقدرت الديون بعشرين مليونا . ولكن لم يعرف من بين هذه الديون المقدار الذى يدفع لولاية ما والمقدار الذى يدفع لأخرى ولم يحفل بهذا أيضا وبدأ التخمين . ولهذا فقد بدأ تسابق آخر بين الولايات المختلفة وحصل بعضها على كثير ، وبعضها على قليل ، وبعضها على لا شيء . ولكن الهدف الرئيسى قد تحقق إذ تأيدت كتيبة وزارة المالية بجند جدد . وأحدث هـــذا الإجراء أشد وأعنف نزاع عرف فى الكونجرس قبل إنشاء اتحاد الولايات أو منذ إنشائه . وقد وصلت وسط هذا النزاع . ولكن لم أبذل أى عناية به لأنى كنت غريبا بالنسبة للميدان والممثلين عليه وغائبا مدة طويلة أفقدتنى كل إلمام بالموضوع .

هاميلتون يطلب العون

ومع هذا فإن الموضوع العظيم الشاق لم يوافق عليه فى مجلس النواب . وقد بلغ الخصام الذى أثاره هذا الموضوع من الشدة مبلغاً أدى إلى وقف العمل عند رفضه فأعضاء الولايات الشرقية على وجه الخصوص وهم المقامرون الأساسيون فى هذه المشاهد هددوا بالانفصال وحل الاتحاد . وكان هاميلتون فى حالة يأس . وبينما كنت ذاهباً إلى رئيس الجمهورية ذات يوم قابلته فى الشارع . فسار بى إلى الخلف والأمام أمام دار رئيس الجمهورية لمدة نصف ساعة ووصف وصفاً مؤثراً الحالة الأخلاقية التى كانت عليها الهيئة التشريعية والبغض الذى ساور الولايات المسماة بالولايات الدائنة وخطر « انسحاب » أعضائها وانفصال الولايات . ولاحظ أنه ينبغى لأعضاء الوزارة أن يعملوا فى تضامن وأنه بالرغم من أن هذا الموضوع ليس من اختصاص وزارتى إلا أن الواجب المشترك ينبغى أن يجعله جديراً بالاهتمام المشترك ، وأنه من المحتمل أن نداء منى يخاطب رأى بعض أصدقائى وتمييزهم قد يحدث تغييراً فى نتيجة التصويت ، وأن أداة الحكم المعطلة الآن قد تعود إلى الحركة .

وقد أخبرته بأنني أجنبي بالنسبة للموضوع كله ، وأن عدم إلمامي حتى الآن بنظام المالية المتبع لا يساعدني على أن أعرف إلى أي حد كانت تصل ضرورة ندائي هذا إلا أنه إذا كان في الرفض تهديد بحل الاتحاد الأمريكي في هذه المرحلة الأولية فإني أرى أنه يجب التسليم بجميع الشرور الجزئية والوقتية في سبيل تجنب أشد النتائج شؤماً . واقترحت عليه مع ذلك أن يتناول معي العشاء في اليوم التالي وأن أدعو صديقاً آخر أو صديقين وأجمعهم للمناقشة معاً ، ورأيت أنه من المستحيل أن يعجز العقلاء من الرجال وهم يتشاورون معاً في هدوء عن أن يصلوا بشيء من تضحيات متبادلة في الرأي إلى حل موفق ينقذ الاتحاد الأمريكي .

تحلية الدواء المر

ولقد حدثت المناقشة . ولم يكن في وسعي أن أشارك فيها إلا بالنصح لأني كنت أجهل الظروف التي ينبغي أن توجهها . ولكن اتفق في النهاية على أن الاحتفاظ بالاتحاد الأمريكي والوفاق بين الولايات أكثر أهمية ، وأن من الأفضل لهذا السبب أن ينقض قرار الرفض وأن يغير بعض الأعضاء آراءهم لتنفيذ هذا النقض . ولكن لوحظ أن هـــذا الدواء سوف يكون مراً على وجه الخصوص بالنسبة للولايات الجنوبية ، وانه ينبغي اتخاذ إجراء مرافق لجعل هذا الدواء حلواً قليلا في أفواهها : ولقد سبق أن كانت هنالك اقتراحات لتثبيت مركز الحكم إما في فيلادلفيا أو في جورجتون على البوتوماك ، ورئى أنه بإعطائه إلى فيلادلفيا لمدة عشرة أعوام . وإلى جورجتون بعد ذلك على الدوام فإن ذلك قد يكون له تأثير المسكن فيهدئ إلى حد ما الاضطراب الذي قد يثور بسبب الإجراء الآخر وحده .

ولهذا فإن عضوين من أعضاء البوتوماك (هويت White ولى Lee) قد وافقا على تغيير أصواتهما وإن كان هويت قد وافق بانفعال يكاد يكون تشنجاً وتعهد هاميلتون بتنفيذ النقطة الأخرى . وقد مكنه من تنفيذ هذا الجانب من الاتفاق ما استقر له من نفوذ على أعضاء الولايات الشرقية وما كان لروبرت موريس Robert Morris من تأثير في أعضاء الولايات الوسطى . ولهذا فقد ووفق على

اضطلاع الحكومة العامة بالدين وقسمت قيمة الأسهم وهى عشرون مليوناً من الجنيهات بين الولايات المفضلة وألقيت كطعام لقطيع المضاربين بالأسهم والأوراق المالية . وأضاف هذا إلى عدد أنصار وزارة المالية وجعل رئيسها (هاميلتون) سيد كل صوت فى الهيئة التشريعية مما قد يعطى للحكومة التوجيه المناسب لآرائه السياسية .

الانقسام إلى جهوريين وفيدراليين

لم تستسلم الأكثرية من أعضاء الكونجرس لهذا الفساد . ولكن حدث فعلا انقسام يكاد يتعادل جانباه فى الجزء الأمين من تلك الهيئة بين الحزبين المسميين الجمهورى والفيديرالى . ولما كان الحزب الفيديرالى مؤلفا من الملكيين فى المبدأ فقد انحازوا بالطبع إلى هاميلتون كزعيمهم فى ذلك المبدأ وإن انضمام هذه العصابة المرتزقة إليهم ضمن له دائماً أغلبية فى كلا المجلسين حتى أصبح الآن عمل الهيئة التشريعية جميعه موجها من قبل وزارة المالية . ومع ذلك فأداة العمل ليست كاملة ، فتأثير نظام التمويل واضطلاع الحكومة العامة بالدين سوف يكون مؤقتا وسوف يضيع بفقدان الأعضاء الذين أغناهم هذا الإجراء ، وإزاء ذلك يجب تدبير أداة للنفوذ أكثر دواما فى أثناء وجود هؤلاء الأعضاء المأجورين ليساعدوا على الموافقة عليــه فى الكونجرس ضد كل معارضة . ولقد كانت هذه الأداة بنك الولايات المتحدة (المؤسس على نمط بنك انجلترا والذى أعطاه الكونجرس الامتياز فى سنة ١٧٩١) .

وإن هذا هو الأساس الحقيقى للمعارضة التى وجهت إلى سياسة الوزارة ؛ فلقد كانت تستهدف الاحتفاظ بالهيئة التشريعية نقية ومستقلة عن الهيئة التنفيذية كما تستهدف تقييد الوزارة بالتزام الأشكال والمبادىء الجمهورية وعدم السماح للدستور بأن يفسر تفسيراً ملكياً وأن يحول فى التطبيق إلى جميع المبادىء والدنايا التى ترتبط بنموذجهم الإنجليزى المفضل . ولم يكن هذا أيضاً معارضة للجنرال واشنطون ؛ إذ كان مخلصاً للواجب الجمهورى الذى عهد إليه وأعلن لى فى جد مراراً فى أثناء أحاديثنا أنه سوف يفقد آخر قطرة من دمه فى سبيل نصرته ، وقد دأب على أن

يفعل هذا بكثرة وإمعان فى الجد ، لأنه كان يعرف شكوكى فى تدبيرات هاميلتون ضد النظام الجمهورى وكان يرغب فى تهدئتها . فهو لم يكن مدركا لاتجاه مشروعات هاميلتون أو تأثيرها . ولما لم يكن عالما بالمشروعات المالية والحسابات والميزانيات فقد كانت موافقته عليها مبنية على ثقته فى الرجل :

صورة قلمية لواشنطون

وقد تكون الحصافة أقوى صفة فى خلق واشنطون ، فهو لم يكن يتصرف مطلقا قبل أن يزن كل ظرف وكل اعتبار وزنا ناضجا ، فيحجم إن رأى شكا ولكن عندما يستقر رأيه على أمر فإنه يحاول تحقيق غرضه مهما قابله من عقبات . ولقد كانت نزاهته أنقى ما تكون وعدله أثبت ما عرفت فلم تكن دوافع المصلحة أو القرابة أو الصداقة أو البغض لتستطيع أن تؤثر فى قراره . وكان حقاً رجلا حكيما خيراً عظيما بكل معنى من معانى هذه الكلمات . وكان مزاجه بالطبع حاداً سريع الغضب ولكن التفكير والحزم قد أحرزا تفوقاً أكيداً معتاداً عليه . وإذا ما حدث أن حطم القيود التى يضعها حول نفسه كان غضبه بالغ الرهبة . وكان فى نفقاته شريفاً دقيقاً وكان فى منحه كريماً يغدق على كل ما يعود بالنفع وإن يكن عابساً غير مستسلم للمشروعات الخيالية والتماسات إحسانه غير الجديرة . ولم يكن قلبه حاراً فى عواطفه ولكنه كان يحصى بدقة قيمة كل شخص ويمنحه تقديراً ثابتاً متناسباً معها .

وقد كان شخصه رقيقاً ، وقامته غاية ما يتمنى المرء ، وحركته سهلة معتدلة نبيلة ، كما كان أفضل فارس فى عصره ، وصاحب أرشق قوام يمكن أن يرى على ظهر حصان . وبالرغم من أنه كان يأخذ بنصيب حر فى الحديث حين يوجد فى حلقة أصدقائه — حيث كان من الممكن ألا يتحفظ وهو آمن — فلم تكن مواهبه فى الحوار الدارج فوق المتوسط إذ لم تتوافر لديه غزارة الأفكار أو سلاسة الألفاظ . وحين كان يطلب إليه فجأة أمام الجمهور أن يبدى رأياً كان يبدو عليه الاضطراب والاقتضاب وعدم الاستعداد ، ومع ذلك فقد كان على استعداد لأن يكتب بإسهاب فى أسلوب سهل صحيح . ولقد اكتسب هذا من اتصاله بالعالم لأن تعليمه كان

مقصوراً على القراءة والكتابة والرياضة العامة ثم أضاف إلى ذلك الإلمام بمسح الأرض فى سن متأخرة : فكان يصرف جل وقته فى العمل ولا يقرأ إلا قليلا فى الزراعة والتاريخ الإنجليزى .

وعلى وجه العموم فإن خلقه كان فى جملته كاملا لا ينتقص منه شيء وإن كان فى بعض نواحيه غير مكترث . ويمكن القول عن صدق إن الطبيعة والحظ لم يجتمعا أبداً اجتماعاً أكثر كمالا لتصنع رجلا عظيما ويضعاه بين صفوف البشر الذين استحقوا خلود الذكر مثلما اجتمعا له . فلقد شاء له القدر أن يتفرد بميزة قيادة جيوش بلاده بنجاح خلال حرب شاقة لبناء استقلالها ، وإدارة مجالسها فى أثناء مولد حكم جديد فى أشكاله ومبادئه حتى استقر فى سياق هادئ منتظم وطاعة القوانين بدقة خلال عمله كله مدنياً وعسكرياً مما لم يزود تاريخ العالم بمثال آخر شبيه به . . وإنى لمقتنع بأن الجمهرة الغالبة للجمهوريين ترى فيه ما أراه . . فلقد عرفنا أمانته وما يحيط به من حيل ، وأن تقدم السن قد بدا يوهن استمساكه بأغراضه ، وإنى لمقتنع كذلك بأنه يحتل فى حب الجمهوريين وتقديرهم للجميل مكاناً أعمق مما يحتله فى الولاء المرائى الذى يظهره نحوه الملكيون الاتحاديون : فقد أبت له رجاحة عقله أن يكون ملكياً . وإن سداد رأيه هذا قد أعطاه آراء صحيحة عن حقوق الإنسان وعدله الصارم جعله يستمسك بها .

شخصية هاميلتون

ولكن هاميلتون **Hamilton** لم يكن ملكياً وحسب ، وإنما كان مؤمناً بملكية مؤسسة على الفساد . وإثباتاً لهذا سأروى قصة أشهد على صدقها الله الذى خلقنى ؛ فنى حفل عشاء أقمته فى سنة ١٧٩١ بدأ الحديث وأفضى بنا إلى التعليق عن الدستور البريطانى الذى أشار إليه جون آدمز — وقد كان حينئذ نائب رئيس الجمهورية — بقوله : « طهر ذلك الدستور من فساده وزد على ناحيته الشعبية المساواة فى التمثيل النيابى فسوف يكون أكمل دستور ابتكره ذكاء الإنسان » . وتوقف هاميلتون قليلا وقال : « طهره من فساده وزد عليه المساواة فى التمثيل النيابى وسوف يصبح

حكماً غير عملى ؟ إنه كما يقوم الآن بكل عيوبه المفترضة يعد أكمل نظام للحكم وجد حتى الآن » .

ووقعت حادثة أخرى فى نفس المناسبة توضح أكثر من ذلك مبادئ هاميلتون السياسية . فلقد كانت هنالك مجموعة من صور مشاهير الرجال معلقة على جدران الحجرة من بينها صور بيكون Bacon ونيوتون ولوك Locke وقد سألنى هاميلتون عن أصحابها فأخبرته أنهم ثالوثى المكون من أعظم ثلاثة رجال أنجبهم العالم . وذكرت أسماءهم . فسكت بعض الوقت وقال : « إن أعظم رجل عاش كان يوليوس قيصر » Julius Caesar .

إن هاميلتون كان حقاً شخصية فريدة . فلقد كان ذا إدراك نافذ . نزيهاً ، أميناً ، شريفاً فى جميع الأعمال الخاصة ، محبوباً فى المجتمع ، مقدراً الفضيلة تقديراً مناسباً فى الحياة الخاصة ؛ ومع ذلك فقد كان مفتوناً ومضللا بنمط الحكم البريطانى إلى درجة جعلته يعتقد اعتقاداً تاماً أن الفساد أمر جوهرى بالنسبة لحكم الأمة .

الدستور يفسر — المزارعون ضد المضاربين فى البورصة

إننى أرى أن أساس الدستور قائم على هذه القاعدة وهو أن « جميع السلطات غير المفوضة إلى الولايات المتحدة بوساطة الدستور أو غير المحرمة بوساطته على الولايات تحتفظ بها للولايات أو للشعب » (التعديل الثانى عشر) . أما اتخاذ خطوة واحدة وراء الحدود المرسومة خاصة حول سلطات الكونجرس فهو استيلاء على ميدان سلطة لا حد له ولا يخضع لتعريف .

وإن تأسيس بنك والسلطات التى اصطنعها القانون الذى منح الامتياز لبنك الولايات المتحدة بوساطة الدستور ليست بين السلطات التى أحصيت فيه بصفة خاصة .. ولم يشملها أى بيان من البيانات الخاصة . كما أنها لا تدخل فى مدلول أى عبارة عامة من العبارتين الآتيتين : (١) فرض الضرائب لتوفير الرفاهية العامة للولايات المتحدة أى « فرض الضرائب لغرض توفير الرفاهية العامة » ففرض الضرائب هو السلطة والرفاهية العامة هى الغرض الذى تمارس من أجل تحقيقه السلطة . وليس لأعضاء

الكونجرس أن يفعلوا أى شيء يشاءونه لتوفير الرفاهية العامة ، ولكنهم يفرضون الضرائب فقط من أجل ذلك الغرض ؛ . (٢) والعبارة العامة الثانية هى « وضع جميع القوانين الضرورية والمناسبة لتنفيذ السلطات المذكورة » ولكنها جميعاً يمكن تنفيذها من غير بنك . . . وإن الحالة الراهنة هى حالة حق باق تماماً مع الولايات ، ومن ثم فهو حق من الحقوق التى قصد الدستور أن توضع تحت حمايته .

وماذا يقال فى بلادنا عن التنظيمات المالية التى تجرى الآن ؟ إننى حقاً أخشى أثرها حين أنظر إلى حالة الغضب التى تبدو على « الولايات الجنوبية . . . » ومع ذلك فكل شيء سيوافق عليه : سيوافق على الضريبة ، وسيوافق على البنك ؛ وإن الإصلاح الوحيد لما هو فاسد سوف يقوم على زيادة التمثيل النيابى للمشتغلين بالزراعة مما قد يضع مصلحتهم فوق مصلحة المضاربين فى البورصة بالأسهم والأوراق المالية .

موجة من المضاربات المالية

ولقد امتلأ البنك وفاض فى اللحظة التى افتتح فيها . وبدلا من عشرين ألف سهم قُدم أربعة وعشرون ألفاً ، ولم يقدم عدد عظيم جداً لأن أصحابه لم يظنوا أن هنالك ضرورة لمثل هذه السرعة الكبيرة ومن ثم فسوف ندفع ثلاثة عشر فى المائة لثمانية ملايين من النقود الورقية بدلا من حصولنا على ذلك التداول للذهب والفضة دون مقابل . فلقد أثبتت التجربة لنا أن دولاراً من الفضة يختفى مقابل كل دولار يصدر من الورق . ويحصل المساهمون عن الورق الذى يصدر من البنك سبعة فى المائة ربحاً عنه كورق بنك وستة فى المائة عن الورق العام الذى يعد ممثلا له . . . ومن المستحيل أن نقول أين ستقف شهوة المقامرة فمن المرجح أن تتحول مصلحة الأراضى ، والمدينة الفيديرالية وبعض مشروعات الصناعة إلى غذاء لتلك الرغبة الجامحة .

ماذا ترى فى إصدار البنك لهذه الأوراق المالية ؟ إن السفن ترقد عاطلة فى الأرصفة ، والمبانى وقفت ، ورءوس الأموال سحبت من التجارة والصناعة والفنون والزراعة لتستخدم فى المقامرة ونشر الرفاهية العامة الذى يكاد لا يضارع فى أى بلد

قد توقف فى مجراه بالرغبة الجامحة فى الإثراء فى يوم واحـــد . ولا يستطيع مخلوق أن ينبئ عن الوقت الذى سيقف عنده هـــذا التيار لأن روح المقامرة إذا ما استولت على شخص لا يمكن الشفاء منها . فالخياط الذى كسب الآلاف فى يوم واحد إن خسرها فى اليوم التالى لا يستطيع مطلقاً أن يرضى بمكاسب إبرته البطيئة والمعتدلة . وما كان فى وسع شىء أن يفوق سعادة الشعب لو صدقت صحفنا لأن صحفنا تأتمر بأوامر أصحاب الأسهم فى بلادنا . ومع ذلك فإنى أتخيل أننا سنسمع أن جميع النقد سيغادر أطراف الأمة ويتجمع هنا وأن المحصولات والأملاك ستنزل إلى نصف ثمنها هنالك وترتفع إلى ضعف ثمنها هنا .

وإن هذه التجارة المقيتة تصبح شيئاً فشيئاً موضع بغض الشعب ولن تعجز حين تنتشر معرفتها انتشاراً كافياً عن أن تقلب أصحابها على رءوسهم من مرتفعاتهم . فالنقود تترك أجزاء « الاتحاد » البعيدة وتنساب إلى هذا المكان لتشترى الورق ، وإذ تحل مكانها أداة تعامل ورقية ، فهى تصدر هنا لمبادلتها بسلع الترف . وإن قيمة الملك آخذة بالضرورة فى الهبوط فى البلاد التى تركت عارية من النقود . ففى فيرجينيا مثلا هبط الملك ٢٥ فى المائة فى الأشهر الاثنى عشر الأخيرة .

التضخم المالى أدى إلى انفجار فى سوق الأوراق المالية

وأخيراً تفجرت فقاعة الورق : فإفلاس « دوير » Duer فى نيويورك قد جر الإفلاس على آخرين ، وهؤلاء كذلك جروه على غيرهم ، مثلهم فى ذلك مثل تسعة دبابيس يهدم كل منها الآخر حتى أصبح الإفلاس فى ذلك المكان أمراً عاماً ؛ فكل شخص متصل بتجارة الورق قد أفلس ، وأغلب التجار والزراع الذين كانوا يوفرون المال وقد أغراهم هؤلاء المضاربون بإقراضه لهم بفائدة تتراوح بين ٣ و ٦ فى المائة شهرياً ، فقدوا جميع مالهم . وقدر أن هنالك خسارة حقيقية فى نيويورك تعدل حوالى خمسة ملايين دولار ، وهى تساوى قيمة جميع مبانى المدينة ، ولذلك إن كانت المدينة كلها قد أحرقت حرقاً تاماً فإن هذا يبلغ مجرد تطور النكبة الحاضرة . . . وفى الوقت نفسه توقفت المبانى والإصلاحات الأخرى وفصل العمال ولم يكن من

الممكن بيع محصول الريف بأى ثمن . . . ورغم جسامة هذه النكبة فقد كادت كل صحيفة تلتزم الصمت عنها .

وما كان ليعجز أى رجل مفكر عنى « بفقاعة البحر الجنوبى فى إنجلترا » أو « فقاعة لو Law فى فرنسا » وطبق دروس الماضى على الوقت الحاضر عن أن يتنبأ بالنتيجة ولو أنه لم يكن ليحدد اللحظة التى تحدث فيها . أما حجج الدين العام فهى قوية ومقدسة . وأظن أنه ليس هنالك فى الولايات المتحدة رجل لا ينزل عن آخر شلن معه فى سبيل دفعها . ولكن جميع تلك المادة المسماة بالأوراق المالية مهما كان وصفها ما هى إلا حماقة وخديعة .

السمن على حماقات العالم القديم

إننى أتطلع بقلق عظيم إلى تدعيم أساس نظام الحكم الجديد فى فرنسا ، وذلك لأنى مقتنع تماماً بأنه لو استقر هنالك فإنه سوف ينتشر عاجلا أو آجلا فى جميع أرجاء أوربا . وعلى العكس من ذلك فإن منع قيامه هنالك سوف يؤخر إحياء الحرية فى البلاد الأخرى . وإننى أعتبر تأسيس نظام حكمهم ونجاحه ضرورياً ليسند نظام حكمنا ويحول بينه وبين نكسته ورجعته إلى ذلك النوع من البيت الذى يقام فى منتصف الطريق ، ألا وهو الدستور الإنجليزى .

إننى أشارك مشاركة تامة فى السخط على القيود المفروضة على تجارتنا مع بريطانيا العظمى . فإن جهوداً قد بذلت فى الكونجرس ولا تزال تبذل جهود أخرى لمقابلة قيودهم بقيود فعالة من جانبنا وقد اقترح أن نضاعف رسوم الجمارك على البضائع الأجنبية بعض الوقت وبعد ذلك نحرم تصدير سلعنا فى سفن الأمم التى لا ترتبط بمعاهدة معنا . وقد رفض هذا الاقتراح . . . ولو أن الحرب بين اسبانيا وانجلترا حدثت (بشأن المطالب فى شمال الهادى الغربى) فإنى أرى أنه لا مندوحة عن اشتراك فرنسا فيها . وفى تلك الحالة آمل أن العالم الجديد سوف يسمن على حماقات العالم القديم .

يجب على اسبانيا أن تمنحنا الاستعمال الحر للمسيسبي

إن البوادر الحاضرة للحرب بين جارتينا اسبانيا وانجلترا لا يسعها إلا أن تثير كل اهتمامنا ؛ فإن الحالة غير المستقرة لنزاعنا مع اسبانيا (عن الملاحـــة فى المسيسبي) قد تعطيها اتجاهاً مختلفاً جداً عما كنا نود . . . وأنت (القائم بالأعمال الأمريكي فى مدريد) تعرف أن الملاحة لا يمكن أن تمارس من غير ميناء حيث يمكن للسفن البحرية والنهرية أن تتقابل وتتبادل حمولاتها . . . وإن الاتفاق على ميناء مناسب ودرجة الحرية التى تستمتع بها فى عملياتها سوف يتطلب المفاوضة وتقرره الحوادث . وفى الحق أن هنالك خطراً من أن التأخير الذى لا يمكن تجنبه إرسال مفاوض إلى هنا قد يقضى على فرصة المفاوضة فى حفظ السلام . وإنه لمن المستحيل أن نجيب عن مدى حلم مواطنينا الغربيين ورحابة صدرهم . فنحن نحاول أن نهدئهم بارتقاب الحصول على حقوقهم بوسائل سلمية . ولكن إن هم جازفوا بها فى لحظة من لحظات نفاد الصبر فسوف يتقرر سلوكنا بذلك ؛ لأننا لن نتخلى أبداً عنهم أو عن حقوقهم .

وسوف يسرك أن تلاحظ أننا نطالب بهذه الأمور بحرارة وعزم مدفوعين فى هذا بفكرة أن الحرب بين اسبانيا وبريطانيا العظمى ستبدأ قبل أن تتسلم هذا وأن مثل هـــذه اللحظة يجب ألا نضيعها . ولكن إن حدث اتفاق بينهما فإننا نحتفظ حقاً بالغرض نفسه والقرارات نفسها دون تغيير ولكن حكمتك سوف تقتضى أنه فى تلك الحالة يجب أن تطالب بها فى أسلوب أكثر ليناً وأن يلطف الصبر والإقناع مناقشاتك إلى أن يسودا أو أن ينشأ ظرف قد يمكننا من استعمال وسيلة أخرى لبلوغ غرض نحن مصممون فى النهاية على الحصول عليـــه مهما عرضنا ذلك للمخاطر .

هل تساعدنا فرنسا فى الحصول على نيو أورليانز الاسبانية ؟

وسوف تدعى فرنسا إلى الحرب كحليف ، وليس على أساس أى ادعاء بأن المعركة معركتها الخاصة بأى حال . وأنها قد تطلب بحق عندئذ من اسبانيا أن تفعل

كل شيء من قبلها لتقلل عدد أعدائها . ولن تستطيع الشك فى أننا سوف نكون من بين ذلك العدد إن هى لم تسلم بحقنا فى الاستعمال العام للمسيسبى ووسيلة استعماله وضمانه . وأنت (القائم بالأعمال الأمريكى فى باريس) ستلاحظ أننا لا نقصر طلبنا عامة على ضرورة حصولنا على ميناء قريب من مصب النهر (مما لا نستطيع بدونه أن نقوم بالملاحة مطلقاً) بل نؤكد ضرورة انفصاله انفصالا تاماً عن أقاليم اسبانيا ودائرة سلطانها حتى نتفادى خلق المنازعات والمخاصمات اليومية التى سوف تنتهى بالحرب بيننا . ومن ثم كانت ضرورة الفصل الواضح المعالم . ولقد قررت الطبيعة ما سوف تكون عليه جغرافية ذلك فى النهاية مهما كان فى البداية بما قامت به من قطع شريط طويل ضيق من الأرض يسمى جزيرة نيوأورليانز وفصله عن الإقليمين المجاورين فلوريدا Florida ولويزيانا Louisiana

وإن فكرة التنازل عن هذه الجزيرة لا يمكن أن تترك لتصرف اسبانيا وحدها فسوف لا تقبل ذلك لأول وهلة لأن هذه الجزيرة بمدينتها تكون فى الوقت الحاضر وطنهم الرئيسى . ومع ذلك فإن العقل والحوادث قد تعودهم قبول هذه الفكرة شيئاً فشيئاً . . . وانى أظن أن هذه الفكرة كبيرة جدا أول الأمر حتى على الكونت دى مونتمورين Count de Montmorin وزير خارجية فرنسا . . . وعلى وجه العموم ففى حالة الحرب ، يترك لرأى المركيز دى لافاييت Marquis de Lafayette ولك مدى توضيح الأفكار المرسلة اليك الآن للكونت مونتمورين ومدى سماحك بتوضيحها للبلاط الاسبانى

المعاملة العادلة من بريطانيا إن نحن بقينا محايدين

بناء على اقتراح بريطانيا العظمى الخاص بأن نتبادل رسميا التمثيل السياسى بمرتبة وزير أرسلنا إليهم واحدا . ولكنهم لم يأبهوا لذلك وهم يتحدثون عن الاتفاق على تبادل وزير الآن كأن الفكرة جديدة . وإلى جانب ذلك فإن ما يقولونه لك (الوكيل الأمريكى فى لندن) يتحدثون به إلينا عن طريق كويبيك Quebec ولكن بطريقة غير رسمية حتى يمكنهم أن يدحضوه عندما يشاءون . . . وإنهم يتحدثون عن تبادل وزير وعقد معاهدة تجارية وحلف . وإذا كان غرض الاقتراح الأخير شريفا فهو

غير مفيد وإن كان غير شريف فهو غير مقبول . وتثبت هذه الاتصالات أنهم يرون أن قيام حرب أمر ممكن جدا ، وتدل بعض الدلائل على وجود تدبيرات ضـد الممتلكات الاسبانية المجاورة لنا (فلوريدا من كى وست إلى نيو أورليانز وإقليم لويزيانا العظيم من المسيسبي إلى روكيز) وإن نتائج حصولهم على جميع الإقليم على حدنا من سانت كروا إلى سانت مارى لواضحة لك وضوحا لا يحتاج إلى تفصيل وسوف ترى مباشرة الأخطار التى تطوقنا فى تلك الحالة . ولهذا فنحن نرغب فى أن تخبرهم بأننا لا نستطيع أن نقابل مشروعات من هذا النوع بعدم اكتراث ، وأننا سننظر إلى تغيير جيراننا بقلق بالغ ، وأننا لسنا أقل رغبة فى توفير توازن القوى على حدودنا من الأوربيين فى حرصهم دائما على تحقيق ذلك . ونحن نريد أن نكون محايدين وسوف نكون كذلك إذا نفذوا المعاهدة (معاهدة الصلح سنة ١٧٨٣) بنزاهة ولم يحاولوا أية غزوات مجاورة لنا .

ولقد اشترطت المعاهدات المؤقتة والنهائية فى المادة السابعة « أن على جلالة ملك بريطانيا أن يسحب جميع جيوشه وحامياته وأساطيله من الولايات المتحدة المذكورة ومن كل ميناء ومكان ومرفأ داخل حدودها على أن يكون ذلك بأقصى سرعة ممكنة ، وعلى ألا يحدث أى تدمير أو استيلاء على زنوج أو أى أملاك أخرى لسكان أمريكيين .
ولكن الحاميات البريطانية لم تسحب بأقصى سرعة ممكنة ، كما لم تسحب حتى الآن من متشيليما كيناك Michilimackinac على بحيرة متشيجان وديترويت على بوغاز بحيرات ارى وهيرون ، وحصن ارى على بحيرة ارى ونياجارا ، وازويجو على بحيرة اونتاريو ، وأوزويجاتشى على نهر سانت لورنس وبونت ـ أو ـ فير ، ودتشمانز بوينت على بحيرة تشامبلين . (وثانيا) ان الضباط البريطانيين اضطلعوا بمباشرة السلطة على الإقليم والسكان فى المناطق المجاورة لهذه الحصون . (وثالثا) استبعدوا مواطنى الولايات المتحدة من الملاحة حتى على جانبنا من الصف الأوسط للأنهار والبحيرات المعتبرة حدا بين الأمتين .

ولقد حيل بهذه الإجراءات تماما بيننا وبين تجارة الفراء مع الأمم الهندية إلى الشمال منا ، وهى تجارة كانت دائما ذات أهمية عظيمة للولايات المتحدة ، لا لقيمتها الجوهرية فقط ، ولكن كوسيلة لرعاية السلام مع أولئك الهنود وحلولها محل ضرورة

تلك الحرب الباهظة التكاليف التى اضطررنا لأن نواصلها معهم فى أثناء العهد الذى كانت فيه هذه المراكز فى أيد أخرى .

هنود الشمال الغربى والبريطانيون

إن الأنباء التى تصلنا من الجهات الغربية غير سارة ؛ فالهنود يقترفون القتل باستمرار ويزداد عدد القتلى بدرجة تهدد باتساع نطاقه أكثر فأكثر . وإنى لآمل أن نضربهم هذا الصيف ضربا مبرحا ونحول حينئذ فأسنا التى نعاقبهم بها إلى سلسلة ذهبية للصداقة . وإن أعظم أنواع السلوك ربحا وإنسانية نحوهم هو تقديم الرشوة إليهم ليلتزموا السلام والاحتفاظ بهم فى سلام بالرشاوى الخالدة . وإن بعثتنا هذا العام كانت لتقدم إليهم هدايا على أكرم نطاق لمدة مائة عام وإلا فسوف لا نستطيع أن نتخلص من الجيش أو من ديننا العام ؛ إذ أن أدنى خرقة يسلبها الهنود ستكون عذرا لتعبئة الجيوش بالنسبة لأولئك الذين يحبون أن تكون لهم جيوش ولأولئك الذين يرون أن الدين العام شىء حسن .

وإن الحرب الهندية تتطلب جهوداً محسوسة . وما كانت لتكلفنا شيئا لو أننا ووجهنا بأعداء معروفين فقط ؛ فالبلاط البريطانى نفى تقديم كل عون للهنود ، ومهما كانت أوامر البريطانيين فى ذلك الاتجاه فوكلاء الهنود يمدونهم بكل شىء ضرورى لمواصلة الحرب مدداً كاملا وشائنا ، وسيبين الزمن كيف ينتهى كل هذا .

هنود الجنوب الغربى والاسبان

ولقد حاولنا دائماً بكل وسيلة ممكنة أن نحافظ على السلام مع الكريك Creeks وجدنا المحاولة دائماً لنبقيهم فى سلام مع المستعمرات الإسبانية أيضاً . أما إسبانيا فعلى العكس من ذلك — أو على الأقل موظفو حكومتها — فقد أثاروهم وزودوا هنود الجنوب ليبدءوا حرباً ضدنا . . . وزودوهم بالأسلحة والذخائر من أجل الغرض الواضح لمواصلة تلك الحرب ومنعوا الكريك من اجتياز الحد الذى كان من الممكن أن يقضى على سبب الخلاف بيننا :

إننا نحب السلم ونقدره ونعرف نعمه من التجربة . ونمقت حماقات الحرب ولسنا غير ممتحنين فى نوازلها ونكباتها . وإذ أننا لا نتدخل فى شئون الأمم الأخرى فكنا تأمل أن ما نمتاز به من بعد وميول يتركنا أحراراً نستمتع بالسلم مع جميع العالم ونكون له مثالا . فلقد خطبنا ود اسبانيا وتمنيناه بروح صادقة مخلصة . . . ولكن إن خاب أملنا فى هذا التقرب ، وإن نحن اضطررنا لأن نسلك سلوكا مضادا لذلك فإن رأينا قد استقر ، وعزمنا قد انعقد . وسوف نقابل ذلك بثبات وحزم . فضرورة موقفنا ستأخذ مكان كل دعوة إلى التريث والتقدير الآن كما فعلت من قبل . وإنا لنثق فى قوتنا الخاصة دون تفاخر بها ، ونحترم قوة الآخرين دون خشية منها . فإذا لم نستطع أن نقنع الكريك بأن يعدلوا عن تخريباتهم فسوف نهاجمهم فى قوة . وإن آثرت اسبانيا أن تنظر إلى دفاعنا ضد أعمال التوحش كسبب من أسباب الحرب بالنسبة لها جب علينا أن نقابلها هى الأخرى فى الحرب بأسف ولكن دون خوف وإن كان يسعدنا لآخر لحظة أن نعود معها إلى محكمة السلام والعقل .

الغزو والتجارة

إن كان هنالك مبدأ أعمق تأصلا من أى مبدأ آخر فى عقل كل أمريكى فهو ذلك الذى يقوم على تجنبنا كل مايتصل بالغزو . أما عن التجارة فنشعر حقاً نحوها بإحساسات قوية . فإذا ما ألقينا البصر على الأرض جميعا فإننا لا نرى مثالا لأمة محرومة مثلنا بوساطة الدول الأجنبية من التعامل مع الجيران (المستعمرات الأوربية فى أمريكا) ومجبرة معها على أن تحمل إلى نصف الكرة الآخر مواد التموين الضرورية لتيسر الحاجات المتبادلة . . . وإن تبادل المواد الفائضة والحاجات بين الأمم المتجاورة هو حق وواجب معاً فى ظل القانون الأخلاقى . . . وتتطلب الظروف أحياناً أن تعالج الحقوق التى لا نزاع فيها وأن تقدم برفق . وقد يبدو أن الحق الذى نتحدث عنه الآن يحتاج فقط إلى مجرد الذكر ليوافق عليه أى عقل غير متحيز ، أما فيما يتصل بأمريكا فإن الأوربيين على وجه العموم قد تعودوا طويلا خلط القوة بالحق . . . وتقضى السياسة — إن لم تكن العدالة — بأن يكونوا ميالين لتجنب الظلم الذى قد يغرينا

بوقوعه علينا ووقوعه كذلك على مستعمراتهم بأن نعمل معاً .

فبدلا من إحراج التجارة بأكداس من القوانين التنظيمية والرسوم الجمركية والتحريمات ألا يمكن إنقاذها من جميع قيودها فى جميع أجزاء العالم ، أو لا يمكن استعمال كل بلد فى إنتاج ما هيأته له الطبيعة أن ينتجه من تلك الأشياء التى تسهم فى الحياة الإنسانية والسعادة الإنسانية وبذلك تزداد أعداد البشرية وتحسن حالها . . . ولكن إن افترضت أية أمة ضد رغباتنا أنها قد تجد منافعها بمواصلة نظامها فى التحريمات والرسوم والتنظيمات فإنه يليق بنا أن نحمى مواطنينا وتجارتهم وملاحتهم بتحريمات ورسوم وتنظيمات مضادة كذلك .

ينبغى أن يتولى واشنطون الحكم فترة أخرى

حين ذكرت (واشنطون) لى أول مرة غرضك فى اعتزال الحكم التزمت الصمت إلى حد كبير رغم أنى شعرت بعظم الحدث . فلقد كنت أعرف أن محاولة الإغراء بالاستمرار فيه أمر فضولى لا جدوى فيه بالنسبة لعقل مثل عقلك ، وإنك قبل تكوين قرارك قد وزنت جميع الأسباب التى تؤيد اتخاذك ذلك الإجراء والأسباب التى تعارضه ، وأنك اقتنعت وصممت بعد التقدير الكامل لها ، وأن هنالك أملا ضئيلا فى تغيير النتيجة . وإذا تابعت تأملاتى أيضا عرفت أن علينا أن نحاول يوما ما أن نمشى وحدنا ، وإذا ما قمنا بهذه المحاولة وأنت حى تراقبنا فإننا سوف نستمد الثقة من ذلك الظرف والمدد إن فشلت المحاولة . ولقد كان الرأى العام أيضاً هادئاً ومطمئناً ولهذا كان فى حالة ملائمة للقيام بالتجربة . ولو لم يكن قد جدّ تغير فى الظروف فما كنت بأى أمل فى النجاح أن أجرؤ الآن على أن أقترح عليك تغيير الغرض . ولكن الرأى العام لم يعد مطمئنا ساكنا وذلك ناشئ عن أسباب لست شخصيا متصلا بها .

فلقد حملت الحكومة على أن تخلق بطريقة مصطنعة دينا عاماً أكبر مما نستطيع دفعه قبل أن تحدث أسباب أخرى تدفعنا إلى أن نضيف إليه دينا جديداً وذلك بجمع المبلغ المكون من جانبى الحسابات الدائن والمدين بدلا من أخذ رصيد حسابهما الباقى فقط الذى كان من الممكن أن يدفع فى وقت قصير ؛ وإن هذا الجمع للدين قد

أخذ إلى الأبد من مقدرتنا تلك الموارد السهلة للدخل التى لو أنها استخدمت للوفاء بضرورات الحكم ولوازمه العادية لكانت كافية ، وحمتنا من التذمر المعتاد ضد الضرائب ومحصلى الضرائب واحتفظنا بطرق التمويل الاستثنائية (القروض) لمواجهة المناسبات الاستثنائية التى سوف تهيب بالشعب لمقابلتها . وإنا قد اضطررنا فعلا لأن نرهق الرسوم الجمركية حتى أحدث ذلك احتجاجاً وضجيجاً مما سوف يؤدى إلى التهرب من دفعها واستخدام العنف فى جمعها وحتى إلى اللجوء إلى سن قانون لرسوم الإنتاج ذى صبغة بغيضة عند الشعب ، جزئى فى تطبيقه : غير منتج ، ما لم يفرض بوسائل تحكمية ومزعجة ويتطلب الاعتماد على سلطة الحكومة فى أجزاء من بلادنا حيث تكون المقاومة متوقعة والإجبار غير عملى .

إننى أرتعد للتهديد بحل الاتحاد الأمريكى

فهم يرون أن العشرة أو الاثنى عشر فى المائة وهى الربح السنوى المدفوع لمقرضى هذه الأداة الورقية إنما يؤخذ من جيوب الشعب الذى كان من الممكن بغير الفائدة أن يملك النقد الذى تطرده ، وأن جميع رأس المال المستعمل فى المضاربات الورقية مجدب لا نفع فيه ، وهو مثل المال على مائدة القمار لا ينتج أية إضافة إلى نفسه ومسحوب من التجارة والزراعة حيث كان من الممكن أن ينتج إضافة للثروة العامة . وهم يرون أنه يربى عند مواطنينا عادات الرذيلة والبطالة بدلا من عادات العمل والأخلاق الفاضلة وأنه قدم الوسيلة الفعالة لإفساد نسبة من الهيئة التشريعية كافية لقلب الميزان بين المقترعين الأمناء فى أى طريق وجه ، وإن هذه العصبة الفاسدة وقد أصبح فى مقدورها تقرير صوت الهيئة التشريعية أبدوا ميولهم نحو التخلص من القيود المفروضة بوساطة الدستور على الهيئة التشريعية العامة وهى القيود التى سلمت الولايات بناء على الثقة فيها إلى تلك الهيئة ، وأن الغرض النهائى من كل هذا هو تهيئة السبيل إلى تغير الشكل الجمهورى الحاضر للحكومة إلى نظام ملكى يتخذ من الدستور الإنجليزى نموذجاً لتقليده وأنه لم يعد سراً أن المؤتمر قد فكر فى هذا المشروع لأن أنصاره استغلوا ذلك كثيراً . وأن تنفيذه أمر غير عملى ولكنهم لا يزالون متحمسين لتحقيق غرضهم ويوجهون كل شىء لبلوغه فى النهاية . . .

وإن الأمل الوحيد فى النجاة يتعلق الآن بالتمثيل النيابى المتعدد الذى سيأتى فى السنة المقبلة . . . فمن المتوقع أن جمهرة الشعب العظيمة ستنضم إلى الحزب الجمهورى . وأن الحكمة الحقة سوف تعلمهم أن يكونوا معتدلين ومسالمين ولكن انقسام العاطفة والمصلحة صادف أن كان لسوء الحظ جغرافيا ولا يستطيع مخلوق أن يقول إذا أمكن ما هو أعظم حكمة واعتدالا أن يسود على ما هو أعظم يسراً ووضوحاً . وإننى قلما أتصور شراً أشد من تحطيم الاتحاد إلى قسمين أو أكثر . . . وهذا هو الحدث الذى يرسل الرعشة فى بدنى ، ولكى نمنع وقوعه اجعل استمرارك على رأس الحكومة أمراً ذا أهمية قصوى . فإن ثقة « الاتحاد » جميعه قد تركزت فيك . ووجودك على دفة الحكم سوف يكون أكثر من رد على كل حجة يمكن استعمالها لإيقاظ الشعب وقيادته فى أى حى من الأحياء لاقتراف العنف والانفصال . وإن الشمال والجنوب سوف يتحدان ويتعلق كل منهما بالآخر إن هما وجداك ليتحدا حولك ويتعلقا بك .

الفصل العاشر

الطريق الشائك للحياد

وبينما كان يعمل جيفرسون كأول وزير للدولة وجد راحة من مرارة النزاع الحزبى وذلك باشتغاله بضروب نشاطه وأعماله غير الحزبية المتعددة . فلقد قام مع صديقه جيمز ماديسون (الذى قاد المعركة فى الكونجرس ضد الفيديراليين أنصار هاميلتون) برحلة فى العطلة إلى الشمال فى سنة ١٧٩١ وجمع نماذج نباتية واصطاد وجال فى البلاد . وساعد لانفانت L' Enfant فى تصميم المدينة الاتحادية الجديدة فى واشنطون وأثر ذوقه المعمارى فى أسلوب بيت رئيس الجمهورية والكابيتول . وإذ أنه كان من واجباته إصدار رخص الامتياز وحقوقه فقد أنفق ساعات سعيدة فى اختبار رسومات المخترعات التى اشتملت على رسم محلج القطن الذى اخترعه ايلى هويتنى Eile Whitney وحاول أن يقنع الكونجرس بأن يطبق النظام العشرى على الموازين والمكاييل واستورد للزرع فى الولايات المتحدة أشجار الزيتون وأرز المرتفعات معتقداً أن أعظم خدمة يقدمها شخص لبلده هى إدخال نبات مفيد .

ولقد كتب من العاصمة فيلادلفيا خطابات كثيرة وودية لأسرته فى مونتيسلو إلى ماريا (كما كانت مارى تدعى بعد مقامها فى باريس) وإلى مارثا وزوجها توماس مان راندولف . وعبر المرة تلو الأخرى عن شوقه العميق لأن يعتزل العمل ويلجأ إلى قصره على قمة الجبل . وإذ قد تعرض لهجمات صحف هاميلتون واشترك فى معارك الأحزاب المتصارعة فإن إلحاح الرئيس واشنطون وحده هو الذى جعله يقبل البقاء فى منصبه حتى اليوم الأخير من سنة ١٧٩٣ .

فى سنة ١٧٩٣ الصاخبة كان للحوادث فى الخارج تأثير قوى على الولايات المتحدة فتأسيس الجمهورية الفرنسية وإعدام الملك الفرنسى اتبع فى فبراير سنة ١٧٩٣ بافتتاح الحرب العظمى التى أعلنتها بريطانيا العظمى وملوك أوربا المتحدون ضد فرنسا الجمهورية . كما اشتد داخل البلاد النضال بين أنصار جيفرسون من المتحيزين

لفرنسا وبين أنصار هاميلتون من المتحيزين لبريطانيا وواجهت إدارة واشنطون مشكلات خطيرة للحياد .

ولو أن جيفرسون أسف على ما صاحب الثورة الفرنسية من أعمال متطرفة فقد فرح لكل خطوة فى تقدمها . فقد كان مقتنعاً بأن قضية الحرية والحكم الذاتى فى داخل البلاد وفى جميع أنحاء العالم مرتبطة بنجاح أو فشل فرنسا المناصرة للحرية والمساواة والإخاء . وقد ألح وهو وزير للدولة فى دعوته للاعتراف بالجمهورية الفرنسية (ضد مشورة هاميلتون) وأقر المبدأ الأمريكى الدائم بأن الاعتراف ينبغى أن يمنح لأية حكومة جديدة تقوم على رضا الشعب . وكوزير للدولة أيضاً وقع على كاهله تنمية نظام الحياد الأمريكى وصيانته فى الداخل وكذلك فى الخارج ضد الجبهتين المتحاربتين العظيمتين .

ولقد كان هذا واجبا عسيرا جدا . ومع ذلك فقد نفذه بقدرة بارزة وأمانة دقيقة رغم عطفه الخاص على فرنسا ورغم تبعية هاميلتون المتحيزة لبريطانيا وتقابلهما يوميا فى مجلس الوزراء فاحتج على أسر بريطانيا للسفن الأمريكية وتسخير البحارة الأمريكيين وإعلانها الرسمى المضاد للحياد والذى يقرر أن المواد الغذائية من تجارة الحرب المحظورة . ولكن فى الوقت نفسه حارب وجوه النشاط العدائى الذى قام به الأمريكيون الموالون لفرنسا ضد السفن البريطانية ، وطلب فى أغسطس سنة ١٧٩٣ استدعاء المواطن جينيت Genet أول وزير من الجمهورية الفرنسية . وإن إعلانه القوى للحقوق الأمريكية فى مسألة جينيت أبطل دعوى الفيديراليين بأنه فرنسيا أكثر منه أمريكيا ، وكسب احترام أشد نقاده إمعانا فى الذم .

وقد وضع جيفرسون — بتأييده لحقوق بلاده وسيادتها ضد هجمات كلا المتحاربين — السياسة التى حاولت بها أمريكا المحايدة لمدة العشرين السنة التالية منع الانخراط فى الحرب الأوروبية العظيمة وهى حرب « لا نتدخل فيها ونرغب فى تجنبها لو أن العدل نحو جميع الأطراف ومن جميع الأطراف سوف يساعدنا على أن نتجنبها . »

رحلة فى عطلة لمشاهدة النباتات وصيد الأسماك

لقد زرت أنا ومستر ماديسون المشاهد الرئيسية للنوازل التى حلت بالجنرال برجوين والمعسكرات التى أقيمت فى ساراتوجا Saratoga والموقع الذى كوم البريطانيون فيه أسلحتهم وميدان معركة بنينجتون Bennington وزرنا أيضا حصون وليام هنرى William Henri وجورج George وتيكونديروجا Ticonderoga وكراون بوينت Crowm Point التى كانت مشاهدة لإراقة الدماء من زمن بعيد فى تاريخنا . ولقد سررنا أكثر مع ذلك برؤية المناظر النباتية التى عرضت لنا باستمرار كشجر الاسفندان Maple السكرى النامى بوفرة كبيرة ، وشجر الشوح Fir الفضى ، وأنواع شجر الصنوبر المختلفة ، وشجيرة بسيقان مستلقية يسمونها العرعرة Juniper وشجيرة محملة بعناقيد كبيرة جداً من الأزهار مجتمعة بغزارة على الفروع ذات لون أحمر قان وشذى قرنفلى فواح . وهى أغنى شجيرة رأيتها . ورأينا كذلك ياسمين الحدائق النامى نمواً برياً على شواطئ بحيرة جورج Lake Greorge والسندرة والحور ذات الأوراق المخملية وشجرة الصفصاف ذات الأزهار الزغبية وشجـيرات الكريز والفريز المنتشرة .

وإن بحيرة جورج هى دون منازع أجمل ماء رأيته فى حياتى ، وهى مكونة من حوض تحيط به الجبال وطوله خمسة وثلاثون ميلا ، وعرضه يتراوح بين ميلين وأربعة أميال ، وقد انتثرت فيها الجزر انتثاراً جميلا ، وماؤها صاف كالبلور ، والجوانب الجبلية مغطاة بالأحراج الغنية بأشجار الشوح والصنوبر والحور والسندر حتى حافة الماء ، كما توجد هنا وهنالك منحدرات من الصخر تنوع المنظر وتنقذه من السأم . ولقد أضاف وجود وفرة من أسماك الأطروط المزركش والسلمون وغيرها إلى متعنا الأخرى تسلية اصطيادها .

وضع تخطيط للمدينة الفيدرالية الجديدة فى واشنطون

لقد بحثت فى أوراقى ووجدت خرائط مدن فرانكفورت ــ ادن ــ ذى مين Frankfort-on-the-Myne وكارلزروه Carlsruhe وامستردام Amsterdam

وستراسبورج Strasburg وباريس Paris واورليان Orleans وبوردو Bordeaux وليون Lyons وموميليبه Monpelier ومارسيليا Marseilles وتورين Turin وميلان Milan وإنى لأرسلها بطريق البريد . وهى مرسومة بمقاييس كبيرة ودقيقة وقد حصلت عليها بنفسى حين كنت فى تلك المدن . وإذ أنها متصلة بالمذكرات التى كتبتها فى رحلاتى وكثيراً ما تكون ضرورية لتوضيحها لنفسى فإنى لأرجو أن تعنى بها وأن تردها حين تفرغ من حاجتك إليها (ماجور لانفانت) .

وإننى أقترح ألا يكون هنالك شارع أضيق من مائة قدم بطرق للمشاة سعتها خمس عشرة قدماً . وحيث يكون الشارع طويلا ومستوياً فقد تكون سعته مائة وعشرين قدماً . وأفضل أن يكون كل جانب من جوانب الميادين المربعة مائتى ياردة على الأقل مما يجعل كلا منها حول الثمانية الأفدنة . . . وإنى أشك كثيراً فيما إذا كان الالتزام ببناء البيوت على بعد معين من الشارع يضيف إلى جماله ، فذلك ينتج منظراً مطرداً يدعو إلى الاشمئزاز وجميع الناس يقدمون هـــذه الشكوى ضد فيلادلفيا Philadelphia .

ومن الممنوع فى باريس بناء بيت فيما بعد ارتفاع معين ، ومن المعترف به أن هذا تحديد محمود . فهو يخفض ثمن الأرض ويجعل البيوت متطامنة ومريحة والشوارع منيرة وطلقة الهواء . وإن النيران يمكن السيطرة عليها بطريقة أيسر كثيراً حيث تكون المنازل منخفضة .

وحينما يقترح تحضير خرائط لتصميم الكابيتول فإنى أوثر اتباع نموذج من نماذج التاريخ القديم التى نالت استحسان آلاف السنين ، أما بيت رئيس الجمهورية فإنى أفضل الواجهات المشهورة للمبانى الحديثة التى حازت استحسان جميع القضاة من ذوى الرأى الصائب مثل « جالرى دى لوفر » Galerir du Louvre و « جارد موبل » Gardes Meubles وواجهتين لهوتل دى سالم Hotel de Salm . فحين كنت فى أوروبا اخترت حوالى اثنتى عشرة أو أربعا وعشرين من واجهات المبانى الخاصة التى احتفظت بصورها . وربما تقرر ذوق المدينة الجديدة لو أنها طبعت هنا ووزعت مجاناً بين سكان جورج تون . وان التكاليف سوف تكون زهيدة .

وإن صورة الدكتور وليام ثورنتون William Thornton لتصميم الكابيتول تمت وسرت أعين الجميع ، وكان رأيهم مما لم يترك شكاً فى أفضليتها على جميع الرسوم التى وضعت . فهى بسيطة ونبيلة وجميلة وموزعة توزيعاً رائعاً ومعقولة فى الحجم .

محلج قطن والنظام العشرى

لقد حقق قانون الكونجرس الذى يخول سلطة إصدار براءات الابتكار للمكتشفات الجديدة وثبة للاختراع تفوق ما كنت أتصوره . ولما كنت أداة فى منح براءات الابتكار فإنى على علم بهذه المستكشفات ، فكثير منها فى الحق ذو قيمة طفيفة ولكن بعضها ذو نتائج عظيمة . . . ولقد كان معى أمس الرجل الذى بنى الجسر المشهور من بوستون Boston إلى شارلزتون Charlestown وهو يسأل عن براءة ابتكار لآلة بناء من تركيبه الخاص .

إن رسمك (إيلى هويتنى) لمحلج القطن قد وصلنى . . ولما كانت ولاية فيرجينيا التى أنتسب إليها تقوم بصناعات بيتية للقطن إلى حد كبير كما أفعل أنا أيضاً ، وأن أحد العوائق العظيمة عندنا هو تنقية القطن من البذر فإنى أشعر برغبة كبيرة فى نجاح اختراعك لتستعمله الأسر . ولهذا أرجو أن تسمح لى بأن أطلب معلومات منك عن هذه النقط . هل جربت الآلة تجريباً تاماً فى حلج القطن أم لا تزال آلة من الناحية النظرية ؟ وما هى كمية القطن الذى نظفته فى متوسط عدة أيام ؟ وهل هى تدار باليد ؟ وكم عدد الأيدى ؟ وكم يتكلف صنع آلة منها تدار باليد ؟ فإن الإجابات الملائمة عن هذه الأسئلة سوف تغرينى باستخدام آلة من هذه الآلات .

إن التجربة التى قام بها الكونجرس فى أنه يجب أن يكون هنالك نقد للحساب والدفع فى جميع أنحاء الولايات المتحدة وأن أجزاءه ومضاعفاته يجب أن تكون بنسبة عشرية قد نالت استحساناً عاماً فى الداخل والخارج حتى إنه لم يعد ينقصها شىء سوى أن تطرد العملة الحقيقية الجنيهات والشلنات والبنسات والفاردات المتنافرة من الولايات المختلفة ، وتقيم مكانها أشكال العملة الجديدة . وهل يدور بالخلد أن نطبق تحسيناً مشابهاً على مقاييسنا وأوزاننا وأن نرتبها أيضاً بنسبة عشرية ؟ فإن السهولة

التى سوف يدخلها هذا النظام فى الحساب الشائع سوف تكون دون شك سريعة ومحسوسة عند جمهرة الشعب جميعه . . . ولندع القدم تقسم إلى عشر بوصات ، والبوصة إلى عشرة خطوط ، والخط إلى عشر نقط : ودع الأقدام العشر تكون « ديكاد » والديكاد العشرة تكون « رود » والرودات العشرة تكون فيرلونج والفيرلونجات العشرة تكون ميلا .

لقد وصلنى فى بالتيمور Baltimore من مارسيليا أربعون شجرة زيتون من أحسن نوع فى مارسيليا وصندوق من البذر وذلك لتستعمل البذور فى استنبات أصول الشجر وقطع الأشجار المستورة فى تطعيم الأصول بها . ولقد طلبت إرسالها حالا إلى تشارلستون وإن شحنة أخرى مرسلة فى طريقها من بوردو وإنى آمل القيام ببدء هذه الزراعة ونقلها عن خير الأنواع ولقد حصلت فى سنة ١٧٩٠ على برميل من أرز المرتفعات الثقيل من نهر دينبغ Denbigh فى أفريقيا وذلك أملا فى أن يحل محل زراعة الأرز الرطب الذى جعل كارولينا الجنوبية وجورجيا موبوءة خلال الصيف . وقد انتشر فى الأجزاء العليا من جورجيا حتى كاد يصبح عاماً ولقى تقديراً كبيراً . وربما ينجح ويؤدى غرضه فى تنيسى Tennessee وكنتاكى فإن أعظم خدمة يمكن تقديمها لأى بلد هى إضافة نبات نافع إلى زراعته خاصة ما ينتج حبوب الخبز وما يلى الخبز فى القيمة هو الزيت .

قلنسوات فيلادلفيا ؛ سقراط على عصا

إننى أرسل إليك (مارثا) مجلة الأزياء الحديثة لشهر يولية . ولقد وصل أثاثى من باريس ولكن بيتى (فى فيلادلفيا العاصمة من ١٧٩٠ إلى ١٨٠٠) لن يكون مستعداً لاستقباله لمدة بضعة أسابيع . ولقد وصل بيتى Petit (مدير أعماله الفرنسى فى أثناء مقامه فى باريس) هنا منذ ثلاثة أو أربعة أيام وحيانى بتأكيده أنه أتى ليقيم دائماً معى . وأن الأخبار الصغيرة الهامة التى يحملها هى أن « بانثيمونت » Panthemont (حيث وضعت باتسى وبولى فى أثناء إقامتنا فى باريس) هو أحد الأديرة التى

يحتفظ بها للتعليم : وأن رئيسة الدير العجوز لا تزال حية ، وأن بعض الراهبات قد اخترن أن يعدن للدنيا ، وأن أخريات فضلن أن يبقين . وربما تظنين أنه ليس عندك شيء تقولينه لى .

ولكن شيئاً عظيما بالنسبة لى أن تقولى إنكم جميعاً بصحة جيدة أو أن واحداً عنده برد ، أو آخر عنده حمى وغير ذلك . وإلى جانب ذلك فليس هنالك فرع من العشب الذى ينمو غير ممتع لى ، كما يهمنى أى شيء يتحرك متدرجا منك إلى أسفل حتى بيرجير وجريزل (وهما كلبا الرعاة اللذان أحضرا من فرنسا) .

وبدلا من الانتظار لإرسال النقابين إلى أختك وإليك مع الأشياء الأخرى فإنى أرفقهما بهذا الخطاب . ولاحظى أن أحد الخيطين يشد بقوة حول قاعدة تا القبعة ؛ وأن النقاب الذى يتدلى حينئذ على حافة القبعة يسحب بالخيط الأدنى بشدة أو رخاوة كما تشائين حول الرقبة . وعندما لا تفضلين أن يكون النقاب مسدلا فإن الخيط الأدنى يربط أيضاً حول قاعدة التاج حتى يعطى مظهر العصابة الهفهافة للقبعة .

ولما كان ليس لدى يا عزيزتى مارثا أى موضوع خاص لخطاب فإنى لا أجد موضوعاً أشد تلطيفاً لذهنى من أن يستغرق فى تعبيرات عن الحب الذى أكنه لك والمتعة التى أذكر بها المشاهد المتنوعة التى مررنا بها معاً فى تجوالنا فى أرجاء العالم : فهذه الأخيلة تخفف المتاعب والهموم التى تحيط بى فى موقفى الراهن وتتركنى دائماً متأثراً بالرغبة فى أن أكون فى بيتى مرة ثانية ، وأن أستبدل الراحة والعمل المنزلى وحب الأسرة ومجتمعها بما أنا فيه الآن من جهد وحسد وحقد ، وأن أقيم حيث يمكن لى أن أكون ثانيـــة سعيداً معك ومع المستر راندولف والصغيرة العزيزة آن Anne (حفيدته الأولى) ممن سوف يركب معهم حتى سقراط على عصا دون أن يبدو مضحكا .

لقد كتبت إليك فى خطابى الماضى أن الضفادع قد بدأت أغانيها فى السابع من هذا الشهر ، ومنذ ذلك التاريخ حيتنا العصافير فى السابع عشر ، وبدأ الصفصاف الباكى يورق فى الثامن عشر والليلك والجوسبرى فى الخامس والعشرين ، والصفصاف

الذهبي فى السادس والعشرين . وإننى أرفق بهذا لأختك ثلاثة أنواع من الفول المزهر وهى جميلة جداً ونادرة جداً . ويجب عليها أن تزرعها وتغذيها بيدها هذا العام حتى توفر بذوراً كافية لنفسها ولى . وأعتقد أنك عرفت أوتشاكتز Otchakitz الهندى الذى عاش مع المركيز دى لافاييت . فقد جاء هنا حديثاً مع بعض النواب من قومه ومات هنا من التهاب فى الرئة . وكنت فى جنازته أمس ودفن وافقا حسب عادتهم . وهنا الآن أحد الرؤساء الهنود وقد تذكرين أنك رأيته فى مونتيسلو يوماً أو يومين قبل أن يرحل بنا تارلتون Tarleton وهو يذكرك وقد سأل عنك . وهو من قوم « بيوريا Pioria » وربما تذكرين أنه أطلق اسمك على طفل من أبنائه كان حينئذ معه وأصبح الآن حسب قوله لى صبياً جميلا . ولقـــد سررنا هنا أخيراً بصعود مستر بلانشارد Blanchard فى منطاد . وإن الأمن الذى يمتاز به بلغ من العظم مبلغا جعل كل شخص يرغب فى منطاد يسافر به . وإنى أرغب مخلصا فى الحصول على واحد ؛ إذ أنه بدلا من عشرة أيام فإنى سأكون على بعد خمس ساعات من بيتنا .

فى العام المقبل سنزرع محصولنا من الكرنب معاً

لقد كان رأسى مليئاً بالفلاحة إلى درجة جعلتنى لا أستطيع مقاومة توجيه رسائلى الأسبوعية الأخيرة إلى مستر راندولف وإضجاره بمشروعاتى ، وتكتب ماريا (بوللى) إليك اليوم . . . فهى تقضى يومين أو ثلاثة أيام فى الأسبوع معى تحت الشجر لأنى لا أدخل مطلقاً المنزل (على ضفاف الشولكيل Schuylkill وقد استؤجر مدة الصيف) إلا فى ساعة النوم . ولم أعرف من قبل مطلقاً الضجر بمعناه الكامل . فمنزلى محتضن احتضانا تاما بين أشجار السهل العالية ويحف بأسفله العشب الجميل ، وإنى أتناول تحتها طعام فطورى وغدائى وأكتب وأقرأ وأستقبل أصحابى . وإننى لمستعد لأن أبذل أى شيء حتى يكمل نمو الأشجار المزروعة حول منزلى فى مونتيسلو :

إننى أهنئك بإخلاص على وصول الطائر الحاكى . فعلمى أطفالك أن يحترموه ككائن متفوق فى شكل طائر أو ككائن سوف يتابهم طيفه إن أصابه أو أصاب بيضه أى ضرر . وإنها لراحة أن ينسحب الواحد من عذاب المشاهد التى نعيش وسطها :

وأن نشاهد حرارة الأحزاب المتصارعة وصخبها فإنه لا يسعنا إلا أن نشارك فى مشاعرها . ولقد كنت لأحسدك على أعمال مركزك الهادئة لولا أننى أقدر سعادتك الخاصة فوق ما أقدر سعادتى ؛ ولكنى سأحظى أيضا بدورى ، فالعام الحالى سيكون أطول عام فى حياتى وآخر عام فى مثل هذه الجهود البغيضة . وأما العام الذى يليه فسوف نزرع محصولنا من الكرنب معا .

تعرضه لهجمات هاميلتون

وعند قبولى منصب الوزارة الذى أشغله عرفت أننى سأجعل من نفسى هدفا للوم : لا على أخطائى وحدها ولكن على أخطاء أولئك الذين سوف يضطلعون بالحكم على . . . ولهذا كان على أن أعزى نفسى بأن اللوم قد بدا توجيهه إلىّ فى وقت متأخر إلى حد وفر لى فترة رضا — أطول مما كنت أتوقع — وإنه (مع أن الآخرين قد يودون بحرارة اعتزالى منصبى وعكوفى فى بيتى وشئونى الخاصة) فإنه إذا خامرت هذه الرغبة أى واحد منهم مرة فإنها تخامرنى ألف مرة .

ولو أننى أرى قلم وزير المالية واضحاً فى الهجوم على إلا أننى لست حراً فى أن ألاحظ أنه قلمه ، وذلك لأنه لم يختر أن يضع اسمه على ما يكتب فلقد استمسكت طوال حياتى بقرار وضعته فى الجزء الباكر جداً منها ، وهو ألا أكتب فى صحيفة عامة دون إثبات اسمى . وإن الاشتباك علنا مع خصم لا يسمح لنفسه بالظهور هو مخاطرة بكل شىء مقابل لا شىء . كما أن السفاهة التى تبدو فى المشاجرة على صفحات الصحف بين وزيرين من وزراء الدولة قد دعت فوق إدراكى لها إلى صدور ما يشبه الأمر بمنعها من جهة أخرى . فكل حقيقة زعمت ونسبت إلىّ زائفة ، ويستطاع إثبات زيفها ، وربما سوف يتحقق ذلك يوما ما .

وكتب إلى الرئيس واشنطون فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، أن ما نسب إلىّ من أننى تآمرت لخذلان مشروعات وزير المالية أمر مناقض لكل حقيقة . . . أما أننى فى أحاديثى الخاصة قد استهجنت استهجاناً تاماً النظام الذى يتبعه وزير المالية فإنى أعترف

بذلك وأقره ولم يكن هذا مجرد اختلاف نظرى . فنظامه صدر عن مبادئ معارضة للحرية وقصد بها تقويض النظام الجمهورى وتحطيمه .

وعند ما توليت هذا المنصب قررت أن أعتزله حالما أستطيع ذلك بأسلوب لائق . وقد ظهر لى مبكراً أن اللحظة المناسبة سوف تكون أول عهد من تلك العهود التى يحاول الدستور فيها أن يجرى تغييراً دورياً أو تجديداً للموظفين العموميين . . . وإنى أتطلع إلى ذلك العهد بشوق البحّار الذى أعيته الأمواج وتراءت الأرض أمامه فى النهاية ، وسأحصى الأيام والساعات التى لا تزال قائمة بينى وبينه .

وإننى أميل إلى أن أهيئ كل شىء للراحة التى أعتزل عملى من أجل الركون إليها عن أن أزعجها بالمخاصمات الصحفية . وإذا لم يكن مع ذلك من المستطاع تفاديها تماماً فإن تقديرى لراحتك (واشنطون) سيكون دافعاً كافياً لتأجيل الخصام حتى أصبح مجرد مواطن عادى . . كما أنى بذلك أتجنب تهمة إساءة استخدام ذلك الوقت الذى يملكه أولئك الذين عينونى فى هذا المنصب والذى ينبغى أن يوهب كله لخدمتهم . . . وإنى لأجمع إلى الاستخفاف الكامل بكل ما يضفيه المنصب من شرف وكسب قيمة عظيمة لتقدير أبناء وطنى ، إدراكى أنى حقيق بكل هذا بما عرف عنى من نزاهة لا يستطاع الغض منها ، وولاء حامى لحقوقهم وحريتهم ، فإنى لن أسمح لعزلتى أن تحاط بسحب السباب التى يطلقها رجل تاريخه هو نسيج من الكيد ضد حرية البلاد التى لم تستقبله وتعطه الخبز فقط وإنما كومت مراتب شرفها على رأسه . وإنى مع ذلك لا أزال أكرر الأمل فى أنه لن يكون ضرورياً أن أقوم بمثل هذا البيان .

واشنطون يغريه بألا يستقيل

لقد حدثت هذا الصباح (أول أكتوبر سنة ١٧٩٢) فى مونت فيرنون Mount Vernon المحادثة الآتية بينى وبين رئيس الجمهورية .

افتتحها بالتعبير عن أسفه للقرار الذى ظهر أننى ثابت عليه وهو قرار اعتزال الشئون العامة . وقال إنه سوف يأسف أشد الأسف وانه لا يستطيع أن يرى أين يجد شخصية

أخرى لملء منصبي ، وعبر بعدئذ عن قلقه للخلاف القائم بين وزير المالية وبيني وود لو أنه استطاع أن يكون الوسيط لوضع حد له . ورأى أنه من المهم أن أحافظ على الحد من آرائى فى الإدارة الحكومية لإبقاء الأمور فى مجراها الملائم ومنعها من الشطط . أما عن فكرة تحويل هذه الحكومة إلى ملكية فإنه يؤمن بأنه ليس هنالك عشرة رجال فى الولايات المتحدة ممن تستحق آراؤهم الاهتمام ، يعتنقون مثل هذه الفكرة .

فأخبرته أن هنالك من المؤيدين للملكية أكثر مما يتصور ، وأن وزير المالية واحد من هؤلاء . ولقد سمعته يقول إن هذا الدستور شيء متأرجح مكون من مجرد لبن وماء مما لايستطيع أن يبقى ، ولكنه صالح فقط وخطوة إلى شيء أفضل . وإذا ما تأملنا محاولته فى المؤتمر (الدستورى) أن يجعل من دستورنا دستوراً إنجليزياً . وما رأينا من جميع إجراءاته التى تستهدف تحويله إلى الشيء نفسه بعد فشله فى محاولته : كان من الطبيعى لنا أن نكون غيورين وخاصة حين رأينا أن هذه الإجراءات قد أقرت الفساد فى الهيئة التشريعية حيث وجدت فرقة موالية تستجيب لكل إشارة تصدر عن وزارة المالية وتفعل كل ما أمر به ؛ ومستعدة لأن تفعل ما سوف يأمر به . وقال إن وجود الروح المغرضة فى الهيئة التشريعية أمر لا يستطاع تجنبه فى أية حكومة ما لم تستبعد أنواعاً خاصة من الناس مثل حاملى سندات الدين العام من تولى جميع المناصب . . . وعالج مزايا نظام التحويل ولاحظ أن هنالك اختلافاً فى الرأى حوله ؛ فالبعض يرون أنه سيئ جداً ؛ ويرى الآخرون أنه صالح جداً وأن التجربة هى المقياس الوحيد الذى يختبر به الحق وأنها وحدها سوف تقرر أى رأى هو على حق . أما عن نفسه هو فقد رأى أن شئوننا فى حالة يأس ؛ وأن الثقة فى ماليتنا قد ضاعت ، وأن هذا بلغ فجأة وبدرجة غير عادية أقصى غاية . فأخبرته أن كل ما هو ضرورى لإقرار الثقة فى ماليتنا يقوم على تأليف حكومة ذات كفاية وأمانة تعلن أنها سوف تحرص بقداســـة على دفع ديوننا وتفرض الضرائب لهذا الغرض وتستخدمها فى تحقيقه . وتجنبت الاستطراد فى الموضوع . وقد

أنهى حديثه بنداء آخر إلىّ مؤداه ألا أقرر فى إيجاب قوى اعتزال منصبى ، وهنا نودينا إلى تناول الفطور .

متحمس لحقوق الإنسان

هل تعتقد (مخاطباً توماس بين Thomas Paine) أنه من الممكن فى هذا البلد أن توجد شخصيات عالية وهامة يحتاجون إلى دروسك فى المذهب الجمهورى ويحفلون بها ؟ فحقاً عندنا طائفة تدعو إلى دستور من ملك ، ولوردات ، وعامة ، وتشتاق رؤوسها إلى التيجان والتتويجات والقلانس . ولكن شعبنا يا صديقى العزيز ثابت ومجمع على مبادئه الجمهورية ، وليس هنالك دليل على ذلك أفضل من حبهم لما تكتب وقراءته بمتعة . وإن أصحاب الصحف يحلون صحفهم بمقتبسات من الجزء الأخير مثلما اقتبسوا من قبل من الجزء الأول من كتابك « حقوق الإنسان » ، ولقد كان لهذا الكتاب أول الأمر وآخره الفضل فى فصل القمح عن التبن وإثبات أن الأخير وإن ظهر على السطح فإنما هو على السطح وحسب ؛ فالجسم الموجود فى أسفل سليم وتقى . فاستمر إذن فى أن تفعل بقلمك ما كان فى الأزمان الأخرى يفعل بالسيف ، وبين كيف أن الإصلاح يكون بالتأثير على عقل الإنسان أشد نفاذاً منه بالتأثير على بدنه .

فرنسا تصبح جمهورية

إننا نعيش فى ظل التأثير الأول لأنباء هرب الملك من باريس وأسره مرة ثانية . وسوف يكون من سوء الحظ لو أنه كان فى قدرة أى رجل واحد أن يهزم نتيجة مثل هذه الثورة الجميلة . فتلك هى ثمار ذلك الشكل من نظم الحكم الذى يمنح الأهمية للحمقى ، والذى يحاول المحافظون عندنا أن يحببونا فيه بالدعوة إليه بيننا . ولا أزال آمل أن الثورة الفرنسية ستنتهى بنجاح وتوفيق . وأشعر أن دوام ثورتنا يستند إلى درجة ما على ذلك ، وأن فشلا هنالك سوف يكون حجة قوية لإثبات أنه لا بد من حدوث فشل هنا .

لقد بلغنا الآن فقط (مارس سنة ١٧٩٣) نبأ إعدام ملك فرنسا . فإذا لم ينتج الهياج الحاضر فى أوروبا جمهوريات فى كل مكان فإنه على الأقل سوف يخفف من

قسوة الحكومات الملكية بجعل الملوك خاضعين للعقاب مثل المجرمين الآخرين . وبالقضاء على تلك الوقاحة والظلم المتمثل فى عصمة شخص الملك من الاعتداء . وقد تكون (مخاطبا الوزير الأمريكى فى باريس) فى أثناء الانتقال من شكل الحكم الأخير إلى الشكل الجديد لسلطة شرعية أخرى فى حيرة من أمر تقريرك مع من تنجز أعمالك . . وإنه لمن المؤكد أننا لن نستطيع أن ننكر على أية أمة ذلك الحق الذى تقوم عليه حكومتنا وهو أن لكل أمة أن تحكم نفسها حسب أى شكل ترتضيه وأن تغير هذه الأشكال بمحض إرادتها الخاصة وأن تنجز أعمالها مع الأمم الأجنبية عن طريق أى عضو تراه مناسبا سواء أكان ملكا ، أم مؤتمراً ، أم مجلساً ، أم لجنة ، أم رئيس جمهورية ، أم أى شىء آخر تختاره . فإرادة الأمة هى الشىء الوحيـــد الجوهرى فى الاعتبار .

تبرير إراقة الدم — عودة روح سنة ١٧٧٦ للاشتعال

لقد سقط فى الصراع (فى فرنسا) الذى كان ضرورياً أشخاص مذنبون كثيرون دون أن تتوافر لهم إجراءات المحاكمة وسقط معهم بعض الأبرياء . وإنى لأرثى لهؤلاء قدر ما أرثى لأى شخص آخر : وسوف أرثى بعضهم حتى يوم وفاتى . ولكنى أرثيهم كما لو كنت أفعل لو أنهم سقطوا فى المعركة . ولقد كان ضرورياً أن يستعمل سلاح الشعب ، وهو أداة ليست عمياء مثل القنابل ، ولكنها عمياء إلى درجة ما . فلاقى عدد قليل من أصدقائهم الحميمين على أيديهم ما لاقاه الأعداء . ولكن الزمن والحقيقة سوف ينقذان ذكرياتهم ويحفظانها بينما سيتمتع أحفادهم بنفس الحرية التى ما كانوا ليترددوا مطلقاً فى أن يبذلوا حياتهم من أجلها . وإن حرية الأرض جميعاً كانت تتوقف على نتيجة الصراع ، وهل حدث أن أحرزت مثل هذه الغنيمة بمثل هذا القدر القليل من الدم البرىء ؟

ولقد جرحت مشاعرى الخاصة جرحاً عميقاً من أثر استشهاد بعض الشهداء فى سبيل هذه القضية ، ولكن كنت أوثر أن أرى نصف الأرض مقفراً من السكان على أن تفشل . فلو أنه كان قد ترك آدم وحواء فى كل بلد ، وتركا حرين لكان ذلك

أفضل من الحالة التى هى عليها الآن . ولقد عبرت عن عواطفى لأنها حقيقة عواطف تسعة وتسعين فى المائة من مواطنينا ، فالمحافل والأفراح التى أقاموها أخيراً بسبب ما أحرزه الفرنسيون من نجاح (ضد ملوك أوربا المتحالفين) قد أبانت الفيض الحقيقى لقلوبهم .

وإن الروح القديمة التى انبثقت فى سنة ١٧٧٦ وقد أذكت من جديد حماسة الصحف من بوستون إلى شارلستون تثبت هذا ، فحتى الصحف المناصرة للحكم الفردى اضطرت لأن تنشر أشد المقالات حنقاً فى مهاجمة إنجلترا . فلقد أخذت بارجة فرنسية سفينة بريطانية عند رءوس ديلاوير Delaware فى المدة الأخيرة وأرسلتها إلى هنا . وحين اقتربت وأمكن رؤيتها احتشد آلاف وآلاف من أعيان العامة فى المدينة وملأوا أرصفة الشواطئ . ولم ير مثل هذا الجمهور هناك من قبل ، وحين رئيت الأعلام البريطانية مقلوبة والأعلام الفرنسية مرفرفة فوقها ، انفجروا فى قصف من التهليل والابتهاج .

الانقسامات الحزبية — التنازع اليومى مثل ديكين

وإنى آمل أن نستطيع ضبط روح الشعب داخل حدود حياد نزيه . وفى الوقت نفسه يحس هاميلتون بالذعر إذا رفضنا تقديم ظهرنا لكل رفسة تشاء بريطانيا إعطاءها إياه . فهو يؤيد الإعلان مباشرة لأشد المبادئ انحطاطاً مما يدعو إلى الإهانات التى يصبح جديراً بها . وفى الحق أنه لابد لنا أن نكافح كفاحا مستميتا فى مجالسنا من أجل كل شبر من الأرض لنحافظ على وجه الحياد . . . ولقد صدرت عنه بعض المقترحات التى تدهش مستر بيت Pitt نفسه بجرأتها . ولو أننا احتفظنا حتى بحياد قليل فسندين به لرئيس الجمهورية وليس لمستشاريه . . . فبريطانيا العظمى لم تتنازل حتى الآن لتقدرنا بأية حال إذا لم ترسل أية إجابة عن أى نوع على شكوى واحدة للاعتداءات اليومية التى وقعت على بحاريتا وسفننا . وفى الحق أننا نسارع فى تقديم الوعود سلفاً حتى لم يعد لديها وقت لتطلب أى شيء . وفى هذه المناقشات أتنازع وهاميلتون كل يوم فى مجلس الوزراء كما يتنازع ديكان .

ولو أن شيئاً يمنع حيادنا من أن يكون حياداً إنجليزياً فذلك لأن ميل رئيس الجمهورية لا يتجه تلك الوجهة . وفوق كل شيء روح المواطنين الحماسية . وقد رسم الخط الآن بوضوح يبين على جانب منه :

١ — الدوائر الأرستقراطية فى فيلادلفيا ونيويورك وبوستون وشارلستون وهى تتألف من الأرستقراطيين الطبيعيين .

٢ — التجار الذين يتاجرون برأس المال البريطانى .

٣ — أصحاب الأوراق المالية .

ويوجد جميع المحافظين القدماء فى نوع من الأنواع الثلاثة . وفى الجانب الآخر يوجد :

١ — التجار الذين يتاجرون برأس مالهم الخاص .

٢ — رجال التجارة الأيرلنديون .

٣ — التجار والميكانيكيون والفلاحون وكل نوع آخر من أنواع المواطنين .

أما عن سلوكنا كأمة محايدة فإنه يبرز فى معاهداتنا مع فرنسا وهولندا وهما دولتان من الدول المشتركة فى الحرب . وإذ أن واجبات الحياد تتطلب سلوكاً واحداً نحو الطرفين فإنه ينبغى على هذا الأساس أن نتصرف وفق نفس المبادئ تجاه بريطانيا العظمى . وإنا لنظن أن هذا الإجراء سوف يكون مرضياً لها لأنه يقوم على المساواة ولأنها أيضا قد أجازت نفس المبادئ فى معاهدتها مع فرنسا . . ويراد منك (الوزير الأمريكى فى لندن) أن تثابر حتى تحصل على قاعدة تنظيمية تحمى سفننا من أن يجبر عمالها على الخدمة الإجبارية فى سفن أجنبية وتمنع ضباط البحرية البريطانية من أخذهم استناداً إلى أنهم رعايا بريطانيون . ويبدو أنه ليس هنالك سوى قاعدة عملية وهو أن السفينة إذا ما كانت أمريكية قام هذا دليلا حاسماً على أن العمال كذلك بعدد يتناسب مع حمولتها .

المواطن جينيت — الحياد طريق شائك

وكان هنالك ارتياب فى أن رأى مستشارى رئيس الجمهورية لم يكن واضحا

من ناحية استقبال جينيت (المواطن ادموند جينيت الوزير من الجمهورية الفرنسية الذى وصل إلى فيلادلفيا فى مايو سنة ١٧٩٣) ولكن المواطنين قرروا مع ذلك أن يستقبلوه . . فاستقبله جمهور غفير من الشعب . . . وإنه لمن المستحيل على أى شىء أن يكون أكثر وداً وأكثر ترفعاً من مضمون رسالته ؛ فلقد قال جينيت : « إننا نعرف أنه فى ظل الظروف الراهنة لنا حق فى أن نطالب (أمريكا) بضمان جزائرنا (فى الهند الغربية بمقتضى المعاهدة الفرنسية الأمريكية لسنة ١٧٧٨) .

ولكنا لا نرغب فى ذلك . إنا لا نريد منكم أن تفعلوا شيئاً سوى ما يتفق وصالحكم فارعوا سلمكم ورخاءكم الخاص . ولقد عبرتم عن رغبة فى أن تدخلوا فى معاهدة تجارية معنا تكون أكثر تحرراً ، وإنى أحضر معى سلطات كاملة لعقد مثل هذه المعاهدة . . . وفى إيجاز يقدم كل شىء ولا يطلب شيئا . ومع ذلك فإنى أعرف أن عروضه سوف تعارض وأشك فى أنها لن تقبل . . . فمن المستحيل تصور ما يجرى فى أذهان مجمع ساستنا . ومن الواضح أن واحداً أو اثنين على الأقل تحت ادعاء تجنب الحرب فيما يتصل بأحد الجانبين لا ينفران نفوراً كبيراً من الدخول فيها لصالح الجانب الآخر والاشتراك فى عصبة الأمراء ضد الحرية الإنسانية .

إن الحرب تسبب ارتباكا عظيما لحكومتنا كل يوم ؛ فميل مواطنينا نحو فرنسا يجعل من العسير جداً إخماد جهودهم فى التجول ضد الإنجليز على المحيط وإنصاف الإنجليز فى الحالات التى يستحقون فيها ذلك .

وكتب جيفرسون فى يولية سنة ١٧٩٣ يقول :

إنه لم يحدث أبداً تعيين محفوف بالنكبات مثل تعيين الوزير الحالى لفرنسا هنا ؛ فهو ثائر : وخيالى ، ولا رأى له ، وعاطفى . كما أنه لا يحترم رئيس الجمهورية بل إنه غير مهذب فى مخاطباته المكتوبة والشفوية معه . وهو يتحدث عن نداءات منه إلى الكونجرس ومن الكونجرس إلى الشعب مطالبا بأشد المقترحات بعداً عن العقل ، وأوهاها فى الأساس ، وذلك فى أعنف الأساليب طغيانا . . . ولقد جعل مركزى غاية الحرج .

لا بد من استدعاء جينيت الوقح

إن مستر جينيت لم يقم بيننا إلا وقتاً صغيراً ، وليست هناك حاجة إلا لوقت أكثر قليلا لينمى عنده شخصية وسلوكا غير متوقع وغير عادى إلى درجة تضعنا فى ورطة أشد ما تكون إيلاماً بين تقديرنا الدائم والمخلص لأمته وتقديرنا لقوانيننا . . . فحين تحرم الحكومة على مواطنيها أن يتسلحوا وأن يشتبكوا فى الحرب ، يضطلع هو بتسليحهم وإدخالهم فيها . وعندما تمنع الحكومة السفن من أن تجهز فى موانيها للتجوال فى البحار ضد أمم تسالمها : فهو يأمرها بالاستعداد والتجوال . وحين تمنع الوكلاء الأجانب من أن يمارسوا سلطانا غير مخول لهم داخل البلاد فهو يضطلع بمناصرة تلك الممارسة ويعترف بذلك صراحة . . فالسفينة الخاصة الجوالة « ليتيل ساراه » أو « ليتيل ديموكرات » سلحت وأعدت وعبئت بالرجال فى ميناء فيلادلفيا تحت بصر الحكومة ؛ إنه قصد بها إهانتها . وعنـــدما أخذت تتحرك إلى أسفل النهر وكانت على وشك الارتحال للتجوال أرسلت خطابا فى ١٢ من يولية سنة ١٧٩٣ باسم رئيس الجمهورية إلى مستر جينيت ليحجزها حتى نقوم بتحقيق ونصل إلى قرار بشأن هذه الحالة . ولكن ما إن مضت ثلاثة أو أربعة أيام بعد ذلك حتى أرسلت للتجوال بأمر من المستر جينيت نفسه ، وهى فى هذا الوقت تطوف حول سواحلنا كما يبدو من احتجاج قبطان سفينة من سفننا أساءت معاملته ! !

ولم يكتف مستر جينيت باستعمال قوتنا ، سواء أردنا أم لم نرد ، فى الناحية العسكرية ضد أمم نحن فى سلم معها ، بل أخذ أيضا يقوم بتوجيه الحكومة المدنية وبين طريقة مباشرة السلطات بين الهيئات التنفيذية والتشريعية . . . ولقد أسدلنا ستاراً على المشاعر التى تثيرها هـــذه التصريحات . وإن الألفاظ لتعجز عن التعبير عنها . ولكنها لن تخفى عن إدراك أمة صديقة . شريفة سوف تنصفنا . . . وإذ نحس من جانبنا بنفس الميول الودية والمخلصة فإننا نستطيع بحق أن نؤكد باسم أمتنا وحكومتنا أننا لم نغفل مناسبة معقولة لإظهارها . . ولقاء هذه الأشياء يكافئنا بجهود لإثارة

الشقاق وعدم الثقة بين مواطنينا وأولئك الذين عهدوا إليهم بحكمهم وبين الفروع المختلفة لحكومتنا وبين حكومتنا وحكومته .

ولكنا نأمل ألا يكون فى مقدوره أى شيء من هذه الأشياء . وإن الصداقة التى تملى علينا أن نصبر على سلوكه مدة من الزمن خشية أن تتعرض مصالح أمتـــه هنا للضرر سوف تدفعهم بسرعة إلى أن يبعثوا إلينا بوكيل عنهم بدل الوكيل الذى تعد ميوله صورة مشوهة لميولهم والذى يتناقض استمراره هنا مع النظام والسلام والاحترام ، وذلك الاتصال الودى الذى نأمل أن يبقى دائما بين الأمتين .

يتعرض جينيت للوم العام — حالات الأسر البريطانى

وإن الشواهد من أجزاء القارة المختلفة قد أصبحت كافيـــة لتبين أن غالبية الجمهوريين لا تتردد فى عدم الموافقة على هذا التدخل من أجنبي وأنهم أميل إلى ذلك كلما وضح أن غرضه على عكس تصريحاته يستهدف دفعنا إلى الحرب . وإن سلوكه قد أعطى فرصة لأعداء الحرية وأعداء فرنسا لأن يكشفوا عن حقدهم على تلك الأمة مما لم يكونوا ليجرءوا أبدا على فعله من قبل . فلوم الوكيل يمتزج بلوم أمته ومع ذلك فإن الشعب إذا ما رأى دائماً أنصاره الجمهوريين معه فإن اجتماعاً عارضاً مع أنصار الاستبداد لن يكون ائتلافاً منه معهم .

وإنه لمن الصفات الجوهرية للحياد ألا يزود طرف بمساعدات (غير مشروطة بمعاهدة) لسنا مستعدين لتقديمها على قدم المساواة للطرف الآخر . فإذا سمحنا بإرسال الحبوب إلى بريطانيا العظمى وأصدقائها فإننا ملزمون كذلك أن نسمح بإرسالها إلى فرنسا . فإن حجزها سوف يكون تحيزاً قد يؤدى إلى الحرب مع فرنسا ، ولا فرق بين أن نحجزها أنفسنا وبين السماح للأعداء بحجزها بطريقة غير قانونية . . . ومن ثم فإننا سوف نرى أنفسنا وقد انغمسنا بهذا العمل غير المشروع من جانب بريطانيا فى حرب لم نتدخل فيهـــا ونرغب فى تجنبها إذا ساعدنا إنصافنا لجميع الأطراف وإنصاف جميع الأطراف لنا على أن نتجنبها .

فى الحالة التى وجدنا أنفسنا فيها مضطرين بمقتضى المعاهدة أن نمنع عن أعداء

فرنسا حق التسلح فى موانينا رأينا عدلا أننا ملزمون بمنع الحق نفسه عن فرنسا أيضاً ، وقد فعلنا هذا ولو أننا منعنا عنها إمدادات المؤن فإننا نكون كذلك ملزمين بمنعها عن أعدائها أيضا ، ومن ثم نغلق على أنفسنا جميع موانئ أوربا حيث الحبوب مطلوبة ، أو نجعل أنفسنا طرفاً فى الحرب . وهذه ورطة ليس لبريطانيا حق فى أن تفرضها علينا ولا يمكن أن يوجد مبرر لها فى أى جانب من سلوكنا . وقد تشعر حقاً بالرغبة فى تجميع أمة معادية لها ولكن لا يمكن أن يكون لها حق فى أن تفعل ذلك على حساب خسارتنا أو أن تجعل منا أدوات لتحقيق ذلك .

إننى عائد إلى فيرجينيا

إن خطابك (خطاب مسز إنجيليكا تشيرش عن أصدقاء جيفرسون فى باريس) يعطينى النبأ الأول بأن صديقتنا العزيزة « مدام دى كورنى » قد كانت بالنسبة لمصيرها من ضحايا الظروف الحاضرة . وإنها لظروف محزنة حقاً وإنها لضحية مأسوف عليها كثيراً . . . ومدام كوزواى فى دير ، لقد كنت أعرف أنها كانت تجمع إلى طيبة قلب كبيرة حماسة وديناً ، ولكنى كنت أظن أن تلك الحماسة نفسها قد كانت لتمنعها من أن تحبس عبادتها لإله العالم داخل جدران دير ؛ وتدفعها إلى أن تؤثر على ذلك اللجوء إلى قمة جبل . وكم كنت أكون سعيداً لو أنك وهى ومدام دى كورنى قد سعيتن إلى قمة جبل .

إننى ذاهب إلى فيرجينيا . ولقد استطعت آخر الأمر أن أحدد ذلك ببدء العالم الجديد . فإنى سأكون حينئذ قد تحررت من أعمال السياسة البغيضة وسأبقى بين أحضان أسرتى وضيعتى وكتبى .

فعندى بيتى أبنيه (أعيد تنظيم مونتيسلو) ، وحقولى أفلحها ، كما أرعى سعادة أولئك الذين يكدون من أجلى . لدىّ بنت قد تزوجت رجلا من رجال العلم والعقل والفضيلة والكفاية ، وفى الحق أنى لا أود فيه مزيداً من المزايا . وهما يعيشان معى . ولو أن الأخرى (ماريا) كانت حسنة الحظ مثل أختها وتزوجت فى الوقت المناسب فإنى سأتخيل نفسى مباركاً كأشد ما يكون عليه البطارقة فضلا وبركة :

فى كل برعم يتفتح ، وفى كل نفس يهب

وإذا كان لى شرف إبلاغكم (الرئيس واشنطون) عن غرضى فى اعتزال منصب وزير الدولة فى نهاية شهر سبتمبر فقد شئتم لأغراض خاصة تأجيل ذلك حتى انتهاء العام . أما وقد بلغنا ذلك التاريخ وأصبحت ميولى إلى اعتزال الخدمة تزداد كل يوم مناعة وقوة فإنى الآن (٣١ من ديسمبر سنة ١٧٩٣) أستبيح لنفسى تقديم الاستقالة من ذلك المنصب بين يديك . . وإنى لأحمل فى اعتزالى العمل إحساساً حياً بطيبتك وسأظل أذكر ذلك بالتقدير وعرفان الجميل .

لقد قضيت حتى الآن فى الخدمة العامة أربعة وعشرين عاماً وقمت بدورى . . ولقد أتى زمن حين كان تقدير الدنيا ذا قيمة أعلى فى نظرى من كل شىء فيها . ولكن السن والتجربة والتأمل احتفظت لذلك فقط بقيمة مناسبة وأضفت على الهدوء قيمة أعلى . فحركة دمى لم تعد تساير صخب العالم . وهى تقودنى إلى أن ألتمس السعادة فى حجر أسرتى وحبها وفى مجتمع جيرانى وكتبى ، وفى الأعمال الصحية لضيعتى وشئونى ، وفى الاهتمام أو الميل لكل برعم يتفتح وفى كل نفس يهب حولى ، وفى حرية كاملة من الراحة والحركة والفكر لا أدين بحساب إلا لنفسى وحدها عن ساعاتى وأفعالى .

الفصل الحادى عشر

الصراع من أجل الديمقراطية

وحين عاد توماس جيفرسون إلى مونتيسلو فى يناير سنة ١٧٩٤ أعلن أنه قد قطع الصلة نهائياً بشئون السياسة العامة . وإذ كان سعيداً مرة ثانية بعمله كمزارع فى فيرجينيا فقد شغل نفسه بتحسين مزارعه المهملة وإعادة تعديل مونتيسلو ووضع قبة عليه وتنمية حرفته الجديدة الخاصة بصنع المسامير واختراع محراث أصبح مشهوراً شهرة عالمية . أما عن السياسة فقد حاول أن يقصر نفسه على إبداء الرأى من وقت لآخر دفاعاً عن قضية الديمقراطية المحاربة .

ومع ذلك فلم يمض عليه وقت طويل حتى أخذ يعطى النصح والتشجيع لماديسون وآخرين فى معركتهم ضد الفيديراليين أو « الحزب الإنجيلى الملكى الأرستقراطى » ، ولقد غضب لمحاولات إلغاء النوادى السياسية المسماة « الجمعيات الديمقراطية » وأصابه الفزع لإرسال جيش كبير من خمسة عشر ألف رجل لسحق فلاحى الغرب الذين ثاروا ضد المكوس التى فرضها هاميلتون على شرابهم الويسكى . وكان يرى أن المعاهدة التى تفاوض جون جاى John Jay بشأنها مع بريطانيا العظمى فى سنة ١٧٩٤ معاهدة شائنة ممقوتة ؛ إذ وافق فيها على الأعمال البحرية البريطانية ، ومن ثم أعطى فرنسا المختصة تبريراً لقيامها بأعمال سلب مشابه ضد تجارة أمريكا .

وفى سنة ١٧٩٦ عين الجمهوريون جيفرسون مرشحاً عنهم لرياسة الجمهورية ضد الفيديرالى جون آدمز John Adams . وبعد أن حصل على العدد الثانى من عدد الأصوات (٦٨ صوتاً ضد ٧١ صوتاً نالها آدمز) فقد انتخب نائباً لرئيس الجمهورية حسب النظام السائد فى ذلك العهد . ومن هذا المكان المتفوق نظم القوى الديموقراطية ووجهها فى أثناء سنى إدارة آدمز الأربع العاصفة .

ولقد كان هنالك فى الفترة الأولى من حكمه فى فيلادلفيا ضغط فيديرالى قوى لإعلان الحرب على فرنسا ؛ فالشهوات الحزبية اشتدت ولكن فى النهاية قرر آدمز

أن يرسل مبعوثين خاصين ليتفاوضوا بشأن الخلافات فى باريس ؛ ووجد جيفرسون فى أثناء هذه الفترة والفترات الأخرى من الهدوء فى العاصمة السياسية وقتاً يهيئ له أن يكتب للجمعية الفلسفية الأمريكية (التى كان رئيساً لها من ١٧٩٧ إلى ١٨١٥) وصفاً لحيوان من نوع الأسد إلا أنه ذو حجم هائل جداً ، وأن يبتكر استعمالات جديدة للآلة البخارية ، وأن يؤلف موجزاً برلمانياً للكونجرس . ولكنه كان مضطراً لأن ينفق معظم وقته فى التقريب بين مستأجرى الأرض من الفلاحين وأصحاب المزارع والصناع فى الأقاليم (التى كانت حينئذ زراعية بنسبة كبيرة) ومزجهم فى حزب معارضة قوى شديد وفى القيام بصراع يائس لتأييد الحقوق الدمقراطية والدستورية ضد الحزب الفيديرالى الذى أصبح متغطرساً بعد مسألة « اكس — واى — زت » [x,y,z] .

وأعلن رئيس الجمهورية آدمز فى ربيع سنة ١٧٩٨ أن الحكومة الفرنسية قد رفضت الاعتراف الرسمى بمبعوثيه الخاصين إلى باريس وأن الوكلاء الفرنسيين (الذين سماهم « اكس » و « واى » و « زت ») قد طلبوا كثمن للعلاقات الدبلوماسية قرضاً لفرنسا ورشاوى لتاليران Talleyrand والأعضاء الآخرين فى حكومة الإدارة الفرنسية ، فاستولى على الأمة جنون الحرب . ووفق فى الكونجرس بعجلة على تشريعات خاصة بالجيش والبحرية وفرض الضرائب وعقد القروض ، وبدأت حرب بحرية غير معلنة ضد الجمهورية الفرنسية . وسن الفيديراليون عندئذ القوانين الاضطهادية الخاصة بالأجانب وإثارة الفتن . وأصبح فى مقدور رئيس الجمهورية آدمز أن يسجن أو ينفى برأيه وحده واختياره الخاص « الأعداء الأجانب » وأصبح منح الجنسية الأمريكية ممكناً الآن فقط بعد إقامة أربعة عشر عاماً للإنجليز المنفيين والأحرار الإيرلنديين الذين كانت تتهيأ أمامهم السبيل لأن يصبحوا رؤساء تحرير للصحف وساسة من أنصار جيفرسون . وكان أبغض شىء فعلوه قانون إثارة الفتن الذى حاول أن يسحق كل معارضة سياسية بجعل النقد الموجه إلى الموظفين الفيديراليين أو سياستهم جريمة من الجرائم . وتلا ذلك الآن حكم إرهاب قام به المحافظون ؛ فكان جيفرسون يهان إهانات عنيفة ، ويلقى أنصاره السخرية على يد الجماهير ، ويرسل

رؤساء التحرير الجمهوريون بعد اتهامهم بإثارة الفتن إلى السجن وسط التصفيق والتهليل ؛

وقد أدار جيفرسون — بشجاعة عظيمة ومهارة ونشاط — الهجوم الجمهورى المضاد ويتمثل فى حملة حوربت مدة عامين وانتهت بانتخابه لرياسة الجمهورية . فضد التوسع والاعتداء الذى قام به الفيديراليون لتركيز السلطة وتحويلها إلى دكتاتورية كتب هو بنفسه قرارات كنتكى التى أعلنت أن قوانين الأجانب وإثارة الفتن قوانين غير دستورية تنتهك « قانون الحقوق » وحقوق الولايات ، واستخدم استخداماً كاملا الصحافة واستغل الشقاق الذى حدث بين الفيديراليين عندما عقد آدمز الصلح مع فرنسا . ولكن الفيديراليين وهم الحزب الذى كان يسمى نفسه حزب « الأغنياء والعقلاء وأبناء الأسر الراقية » كانوا لا يزالون أقوياء . وبالرغم من أن جيفرسون قد هزم جون آدمز فى معركة رياسة الجمهورية التى اتسمت بالعنف وتبادل الطعن فى سنة ١٨٠٠ إلا أن خصومه حاولوا فى يأس أن يقاوموا إرادة الشعب . فهو وآرون بير زميله المتنافس فى معركة الانتخاب قد حصلا على نفس عدد الأصوات الانتخابية ؛ وبحكم الدستور (حتى عدل فى سنة ١٨٠٤) تركت هذه العقدة القرار النهائى لمجلس النواب . فتآمر الزعماء الفيديراليون فى المجلس وأمعنوا فى التدبير لكى يجعلوا « بير » رئيساً للجمهورية . ولم يتأكد انتصار جيفرسون إلا بعد أن تمت ستة وثلاثون اقتراعاً سرياً . وكان انتصاره نبأ رائعاً لجميع أصدقاء حقوق الإنسان . فقد نجحت « ثورة ١٨٠٠ » وفى جميع أنحاء البلاد أنشد شباب أمريكا الديموقراطى الجمهورى فى انتصار الأغنية التالية :

« ابتهجوا ابتهجوا يا أبنـــاء كولومبيا

فللطغاة لا تحنـــوا مطلقاً الرءوس

ولكن اتحدوا بالقلب والنفس والصوت

من أجــل جيفرسون والحرية »

لقد وضعت روزينانت فى مكانه

إننى أعود الآن إلى فلاحة الأرض بحماسة قلما عرفتها فى شبابى ، وقد استفاض حبى

للدراسة : فبدلا من كتابتي عشر رسائل أو اثنتي عشرة رسالة كل يوم كما تعودت فعله بطبعي فإني أؤجل الإجابة على رسائلي الآن على نهج الفلاحين حتى يأتي يوم ممطر وعندئذ أجد أن ذلك يؤجل أحياناً بالأعمال الضرورية الأخرى . وأظن أن مونتاني Montagne هو الذي قال إن الجهل أنعم وسادة يستطيع الإنسان أن يسند رأسه عليها . وإني لمتأكد من أن هذا صحيح بالنسبة لكل شيء سياسي وسأحاول أن أبعد نفسي عن كل شيء من ذلك النوع : ولقد وضعت روزينانت Rosinante في مكانه .

وإذا أنت (وليام ب . جيلز Giles سياسي من فيرجينيا) زرتني كفلاح فيجب أن يكون ذلك كتلميذ زميل لأني لست سوى متعلم . وإن كنت في الحق متعلما متحمساً إلا أنني يائس ، فقد بلغت من الكبر الآن مبلغاً يحول بيني وبين تعلم فن جديد . ومع ذلك فإني مسرور ومشغول كثيراً به كأني أعظم حاذق فيه . وسأتحدث معك عنه من الصباح حتى الليل وأقدم إليك بعد استئذانك لفترة قصيرة غذاء سياسياً ؛ فمن وقت لآخر نسوق ملاحظات بريئة عن الجمهوريين الفرنسيين والهولنديين ونعود بسرعة مناسبة إلى التحدث عن البرسيم والبطاطس والقمح وغير ذلك .

وإني لمقتنع بأن الفرنسيين سيحرزون نصراً كاملا على الدول الأجنبية ، ولا يسعني إلا أن آمل أن النصر والخزى اللذين سوف يحيقان بالمستبدين من الغزاة نتيجة لذلك كفيل في مجرى الحوادث بأن يشعل سخط شعوب أوربا ضد أولئك الذين جرءوا على أن يجلبوا عليهم ذلك الشر ، وأن يرسلوا في النهاية الملوك والنبلاء والقسس إلى المشانق التي غمروها طويلا بالدم الإنساني . وإني لا أزال أشعر بالحرارة كلما فكرت في هؤلاء الأوغاد ، ولو أني أفعل ذلك بندرة قدر ما أستطيع مفضلا تماماً أن أتأمل النمو الهادئ لما أزرع من برسيم وبطاطس .

إن ضيعتي ضيعة كبيرة بالنسبة للإقليم فهي تزيد عن عشرة آلاف فدان من الأرض الثمينة على الأجزاء الصالحة للملاحة من نهر جيمز وتشتمل على مائتي زنجي ولم يخرج منها شلن واحد أبداً لسداد دين أو تعرض لأي عائق من عوائق الدين . وإني لأجد بعد دراستي لما أملك من أرض دراسة تفوق في دقتها ما قد سبق أن قمت

به من دراسات فى أثناء زياراتى القصيرة من قبل أن هجرها مدة عشر سنين وتركها لتخريب الملاحظين لها قد جلب عليها درجة من الانحطاط أبعد مما كنت أتوقع . وكما أن هذا قد اضطرنى لأن أتبع نظاماً فى زرع المحصولات أكثر اعتدالا فإنى أجد أنهم مكنونى من أن أفعل ذلك بفتحهم قدراً كبيراً من الأراضى فى أثناء غيابى . ولقد صممت لهذا على تقسيم ضيعتى إلى ستة حقول توضع حسب هذا الترتيب الدورى :

السنة الأولى قمح — السنة الثانية حنطة وبطاطس وبسلّى — السنة الثالثة الجودار أو القمح حسب الظروف — السنتان الرابعة والخامسة البرسيم حيث الحقول تنتجه والحنطة السوداء حيث لا تنتجه — السنة السادسة طى وحشو من الحنطة السوداء :

ولكن البدء فى هذه الخطة وتنظيمها سيحتاجان منى إلى مدة بين الثلاث والست السنين .

اختراع محراث ذى شهرة عالمية

إننى لم أقم منذ اعتزالى الخدمة ببحوث فى أى شىء سوى ما يتصل بالزراعة . وبهذه الطريقة أصبح عندى شىء صغير لإبلاغه (للجمعية الفلسفية الأمريكية) ، وسأفعل ذلك قبل مضى وقت طويل . وهو شكل لوح من الخشب للتراب الناعم من النوع الأقل مقاومة . ولقد وصلت إلى المبدأ الذى يقوم عليه منذ بضع سنين : » وحولت الفكرة منذ ذلك الوقت إلى حيز التطبيق ، وعندى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن النظرية مؤيدة تأييداً تاماً .

فلقد تخيلت وصنعت لوح خشب للتراب الناعم يمكن إثبات أنه كامل من الناحية الرياضية على قدر ما يتوقف الكمال على مبادئ الرياضة » ومما يزكيه تزكية كبيرة هو أنه قد يصنع بوساطة أشد النجارين غباء ولا يمكن أن يختلف عرض شعرة فى شكله إلا بالإهمال الشديد . . وهو يقوم على مبدأ الاسفينين المجتمعين فى زوايا قائمة : الأول فى الاتجاه المباشر للحفر ليرفع الأرض العشبية بالتدريج ، والثانى عبر الحفر ليقلبها بالتدريج . ولتحقيق هذين الغرضين نرى أن الاسفين

هو الأداة الأقل مقاومة . ولقد نال استحساناً عظيماً (فى فلادلفيا) كما نال من قبل استحسان بعض أصحاب الرأى السديد فى منزلى حيث استعملته بالموافقة التامة .

إعادة بناء مونتيسلو — حرفتى الجديدة فى صناعة المسامير

إن الشتاء عندنا جميل ، ويبدو القمح يانعاً ، والحنطة نادرة وغالية ، فسعرها هنا اثنان وعشرون شلناً ، وفى آمهرست Amherst ثلاثون شلناً . وان أزهارنا قد أخذت تتفتح ، وبدأت تقويض منزلى وآمل أن نواصل إعادة بنائه فى الصيف . وكنت آمل أن أنهى جدران منزلى فى الخريف وأن أغطيها مبكراً فى الشتاء ، ولكنى لم أتمها مطلقاً ولهذا فواجب علىّ أن أستأنف العمل فى الربيع وأن أرفع سقف الجزء القديم فى أثناء الصيف لأغطيه كله .

وعند عودتى إلى موطنى بعد غياب عشر سنين وجدت أن مزارعى قد اختل نظامها إلى درجة جعلتنى أرى بوضوح أنها ستكون عبئاً علىّ بدلا من كونها سنداً لى إلى أن أجددها ، وانه من الضرورى لى نتيجة لذلك أن أجد مورداً آخر فى الوقت نفسه . ولقد فكرت بعض الوقت فى أن أقوم بصناعة البوتاس التى لا تتطلب سوى مقادير صغيرة من المال . ومع ذلك فقد قررت فى النهاية أن أبدأ صناعة المسامير التى تحتاج إلى رأس مال صغير أو لا تحتاج إلى رأس مال ، وان حرفتى الجديدة الخاصة بصناعة المسامير هى بالنسبة إلىّ فى هذه البلاد أشبه بلقب إضافى من ألقاب النبلاء ، أو هى شبيهة بشارات مرتبة جديدة فى أوربا .

الجمعيات الديمقراطية وثورة الويسكى

إن اتهام « الجمعيات الديمقراطية » هو أحد أعمال الجرأة الذى رأينا صدور الكثير منها عن عصابة الاستبداديين . وإنه لأمر عجيب حقاً أن يسمح رئيس الجمهورية لنفسه بأن يكون أداة لمثل هذا الهجوم على حرية المناقشة وحرية الكتابة والطبع والنشر .

وإنه لموضوع من موضوعات حب الاستطلاع النادر أن نصل إلى التعديلات

التى يقترحون إدخالها على هذه الحقوق ، وأن نرى الفاصل الذى يريدون وضعه بين الجمعيات الديمقراطية التى يقوم هدفها على تغذية المبادئ الجمهورية فى دستورنا وبين « جمعية السينسينانى » Society of the Cincinnati وهى جمعية خلقت نفسها بنفسها وشقت لنفسها امتيازات وراثية ، ويقلل أعضاؤها دائماً من شأن دستورنا ويجتمعون معاً فى جميع أجزاء الاتحاد الأمريكى خلف أبواب مغلقة ؛ ويجمعون رأس مال فى خزانتهم الخاصة ، ويتبادلون الرسائل سراً وبانتظام ، وأشخاصها الذين يتهمون الديمقراطيين هم أنفسهم آباء الاتحاد الأمريكى ومؤسسوه وضباطه الكبار . ولا بد من أن بصرهم قد بهر تماماً بوساطة تلألؤ التيجان والتتويجات حتى لم يعد يرى إسراف الاقتراح الذى يعمل على كبت أصدقاء الحرية العامة ، على حين أنه يسمح لأولئك الذين يريدون قصر تلك الحرية على القلة بأن يستمروا فى مبادئهم وأعمالهم .

أما عن الإجراءات التى اتخذت ضد « قانون المكوس » (ضريبة هاميلتون على الويسكى) فإننا لا نعرف أن أى إجراء منها — حسب تعريفات القانون — كان شيئاً أكثر من أنه عمل من أعمال الشغب . . . وإن خبر قوتنا العسكرية العائدة من الغرب منتشر ؛ فرغم أن الناس هنالك قد تركوا أعضاءها يمرون بهدوء إلا أنهم كانوا موضع ضحكهم لا خوفهم ، وإنه كان من الممكن أن يقطع ألف رجل جميع قوتهم فى ألف مكان من الليجهانى وإن مقتهم لقانون المكوس ظاهرة عامة وقد صاحبه الآن مقتهم للحكومة وإن انفصال (سكان الغرب) الذى ربما كان حدثاً مشكلاً وبعيداً جداً قد أصبح الآن أمراً مؤكداً وقريباً وحازماً فى عقل كل رجل .

معاهدة جاى — أشياع الإنجليز ضد الفلاحين والعمال

إن أشهر حدث سياسى عندنا هو المعاهدة مع انجلترا التى لم يوجد أى رجل فى الولايات المتحدة له من الوقاحة ما يؤكد معه أنها ليست سيئة جداً سوى ألكساندر هاميلتون وإنى أرى أن المعاهدة شىء لعين ، وآمل أن الفرع الشعبى فى الهيئة التشريعية سيرفضها ومن ثم ينقذنا من هذا العمل الشائن الذى هو فى الحقيقة ليس أكثر من

معاهدة تحالف بين إنجلترا وأشياع انجلترا فى هذه البلاد ضد الهيئة التشريعية وشعب الولايات المتحدة .

ولو أن أشياع انجلترا قد نجحوا فى النهاية فى إبرام معاهدتهم وانتصروا من هذه الناحية على قضية النظام الجمهورى إلا أنها كانت انتصاراً اشتروه بالنسبة لهم بثمن غال ؛ فلقد أعطت لحزبهم أعظم صدمة جوهرية أصابتهم . وهم يرون أنهم لا يستطيعون أن يجدوا تأييداً فى شىء سوى الهيكل الهائل لمزايا رئيس الجمهورية فى نظر الشعب ، وإنه عند ما يعتزل الخدمة سيجد خليفته إن كان من أنصار الحكم الفردى نفسه مقهوراً بالشعور الجمهورى لدى ناخبيه ، وإن كان من أنصار الحكم الجمهورى فسوف ينصف ذلك الشعور ويقود الأمور فى مجرى الانسجام بين الحكام والمحكومين ، وفى الوقت نفسه علينا بالصبر .

لقد تغير وجه السياسة عندنا تغيراً عجيباً منذ أن تركتنا « فيليب مازى Philip Mazzei » فبدلا من ذلك الحب النبيل للحرية والحكومة الجمهورية الذى حمدناه خلال الحرب نشأ حزب إنجيلى ملكى أرستقراطى هدفه المعلن عنه أن يجلب إلينا مادة الحكم البريطانى وجوهره كما سبق له أن جلب أشكاله . ومع ذلك فإن الهيئة الأساسية لمواطنينا تظل مخلصة لمبادئها الجمهورية . . . فضدنا تقف فى صف واحد الهيئة التنفيذية ، والهيئة القضائية ؛ وفرعان من ثلاثة أفرع الهيئة التشريعية ، وجميع موظفى الحكومة ؛ وجميع الذين يريدون أن يكونوا موظفين ، وجميع الناس الحذرين الذين يفضلون هدوء الحكم الاستبدادى على بحر الحرية الصاخب ، والتجار البريطانيون ، والأمريكيون الذين يتاجرون برأس مال بريطانى ، والمضاربون وأصحاب الأسهم فى البنوك والاعتمادات العامة ، وهو تدبير ابتكر لأغراض الفساد وتهيئتنا فى جميع النواحى لقبول الأجزاء الفاسدة والسلمية فى النموذج البريطانى .

وسوف تصيبك الحمى لو أننى ذكرت لك أسماء المرتدين الذين انتقلوا إلى الإيمان بهذه الضلالات ، وهم رجال كانوا أشبه بسامسون Samson فى الميدان ،

وسليمان فى مجلس الشورى ، ولكن حلقت رءوسهم بوساطة إنجلترا البغى . وفى إيجاز أنه من المرجح أن نحافظ على الحرية التى كسبناها ولكن لا بد من مجهود كبير والتعرض لأخطار لا تنتهى . ولكننا سنحافظ عليها . فليس علينا سوى أن نستيقظ ونخطف حبال ليليبوت Lilliputian التى طوقونا بها فى أثناء النوم الأول الذى أعقب جهودنا .

وإن الجزء الجمهورى من اتحادنا الأمريكى يشتمل على :

١ — جميع أصحاب الأراضى فى جميع الولايات المتحدة .

٢ — مجموعة العمال من غير أصحاب الأراضى سواء فى الزراعة أو الفنون ، ويحتمل أن تكون نسبة مجموع الجمهوريين إلى مجموع الفيديراليين كنسبة خمسمائة إلى واحد ، ولكن نسبة الثروة بين الفريقين ليست بهذا التفاوت ولو أنها أيضاً متفوقة تفوقاً عظيما ، وهى فى الحق أساس ثروة خصومهم .

ومع أن أعداد الحزب المعادى للجمهوريين ضئيلة إلا أن هنالك ظروفاً تعطيهم مظهر القوة والتفوق فى العدد ، فهم جميعاً يعيشون فى مدن معاً ويستطيعون أن يعملوا بهمة فى مجموع متعاون وفى كل الأوقات ، وهم يعطون عملا رئيسياً للصحف ، ولذلك فهم يسيطرون على معظمها .

انتخب نائباً لرئيس الجمهورية فى ١٧٩٦

كنت قد اعتزلت الخدمة بعد خمس وعشرين سنة من العمل المتواصل فى شئون السياسة العامة والهجر الكلى لشئونى الخاصة ، وقد اعتزلت وأنا أفقر كثيراً مما كنت عليه حين دخلت الخدمة العامة ولم أرغب فى شىء سوى الراحة والنسيان . ومع ذلك فإن اسمى قد ذكر فى ميدان الحياة العامة دون تدبير أو توقع من جانبى (وأقسم على صحة ذلك) .

وإنه ليبدو ممكناً مما نسمع عن الأصوات فى الانتخاب الأخير أننى قد أكون فى فيلادلفيا حول بدء مارس تماماً فى تلك الصفة التى لو أننى عدت للظهور فى فيلادلفيا لفضلتها على كل الصفات الأخرى (أى أن أكون نائباً لرئيس الجمهورية) . وإنى

لأعرف صعوبة الحصول على الإيمان بتصريحاتى عن عدم ميلى إلى مراتب الشرف . . ولكن لا تعوزنى الحجج لإقناعى بترك المنصب الأول فى الدولة أو التسليم بتولى المنصب الثانى . فليست عندى الرغبة فى أن أتدخل ثانية فى شئون السياسة العامة ، وإنى أقل ما أكون رغبة فى ذلك فى لحظة توشك فيها العاصفة التى تتجمع أثناء الأعوام الأربعة الأخيرة أن تنفجر . وإذا كان علىّ أن أستأنف مع ذلك العمل فإنه ما كان ليمكن أن يوجد منصب لى أكثر هدوءاً وأقل تكديراً مثل هذا المنصب فسيعطينى أمسية فلسفية فى الشتاء وأياماً ريفية فى الصيف . إذ أن المنصب الثانى فى الحكومة شريف ويسير ، وأما الأول فليس إلا شقاء باهراً .

وإن رسائلى تنبئنى أن مستر آدمز يتكلم عنى بود عظيم ورضا ، عن أمل إدارة الحكومة فى التعاون معى . وإنى لمسرور من هذا النبأ الأول لأنى وإن كنت أرى أن صداقتنا القديمة قد تأثرت بقليل من الجفوة نتج من ناحية عن مزاجه ، ومن ناحية أخرى عن تدبير الآخرين ، إلا أنى لم أشعر أبداً بنقص فى ثقتى بنزاهته واحتفظت بود ثابت نحوه . أما عن مبادئه فى الحكم فإنى أعرف أنها قد تغيرت ولكنها تغيرت عن تفكير وضمير . وأما عن اشتراكى فى الإدارة إن كان قد قصد بذلك الوزارة التنفيذية فإن واجبى وميلى سيغلقان ذلك الباب بالنسبة لى . فلا أستطيع أن تكون عندى الرغبة فى أن أرى مناظر سنة ١٧٩٣ تتجدد فيما يتصل بى وأن أنزل يومياً إلى الساحة مثل المقاتلين الرومان لأعانى الاستشهاد فى كل صراع .

ولا أعتقد أن مستر آدمز يريد الحرب مع فرنسا كما لا أعتقد أنه سيذعن لإنجلترا بخنوع كما حدث من قبل . وإن هو وقف هذا الموقف مباشرة وأظهر أنه يقصد رعاية احترام النفس والكرامة القومية مع كلتا الأمتين فربما يوضع حد بطريقة ودية لضروب التدمير التى ينزلها الطرفان بتجارتنا .

الفيدراليون يعدون للحرب مع فرنسا

سوف ترى خطاب رئيس الجمهورية (فى مايو سنة ١٧٩٧) وكيف اتجه نحو الحرب . ورأينا هنا هو أن الهيئة التنفيذية كانت تفكر فى هذا ، وأنها كانت تتوقع

أن الهيئة التشريعية قد تصيبها عدوى الحماسة للحرب . وإن جزءاً قوياً منها أظهر ميلا لأن يذهب إلى أبعد الحدود مع الهيئة التنفيذية . . . فأعضاؤها وافقوا على تكملة ثلاث بوارج وتجهيزها بالرجال والاستمرار فى إعداد الحصون . أما أعضاء مجلس الشيوخ فقد ذهبوا إلى أبعد من هذا كثيراً إذ أنهم قدموا تشريعات لشراء سفن أتم تسليحاً وإرسالها هى والبوارج إلى الخارج كقوة لحراسة تجارتنا ، وتعبئة عدد من الفرسان أكثر ، ومحاربين بالمدفعية أكثر ، وإعداد جيش عظيم ليشترك فى الخدمة الفعلية فقط عند الضرورة .

أما أولئك الذين ليست لديهم رغبة إلا فى سلام بلدهم واستقلاله عن جميع النفوذ الأجنبى فأمامهم صراع شاق فعلا ، ويصم آذانهم صراخ بالغ الارتفاع والروعة كأنه حقيق ، مؤداه أننا واقعون تحت النفوذ الفرنسى . وقد أثار هذا الصراخ عصابة مؤلفة من الرعايا الإنجليز الذين يعيشون بيننا ، أو غيرهم ممن هم انجليز فى جميع علاقاتهم وعواطفهم .

وإنى لأود مخلصاً أن نتمكن من الوقوف موقفاً تام الحياد والاستقلال عن جميع الأمم ولقد كان هذا هدفى الدائم طوال حياتى العامة . أما فيما يتصل بالانجليز والفرنسيين على وجه الخصوص فلقد عبرت كثيراً جداً للأولين عن رغباتى وقدمت لهم من الاقتراحات شفوياً وكتابياً ورسمياً وبصفة خاصة ، وللشخصيات الرسمية والخاصة ، بما لا يسمح لهم بأى شك فى وجهة نظرى إن هم قنعوا بالمساواة . . . ولكنهم أرادوا أن يحتكروا تجارتنا والنفوذ فينا وقد بلغوا هذا فى الواقع .

إن السلام دون شك هو الهدف الأول لأمتنا فى الوقت الحاضر ، فضروب الإهانة والأذى التى ألحقها بنا كلا الطرفين المتحاربين من بدء سنة ١٧٩٣ حتى هذا اليوم ، والتى لا تزال مستمرة ، لا يمكن الآن أن تسمح بالاشتباك فى حرب مع أحد منهما . . ولقد انقسم مواطنونا بمثل هذه العواطف القوية نحو الفرنسيين والانجليز حتى لم يعد شىء يحمينا فى الداخل سوى الانفصال عن كلتا الأمتين .

لقد رأيت من قبل مناقشات حارة وعواطف سياسية ثائرة ، ولكن كان من عادة السادة الذين يدينون بسياسات مختلفة حينئذ أن يكلم الواحد منهم الآخر وأن

يفرقوا بين عمل مجلس الشيوخ وبين عمل المجتمع . وليس الأمر كذلك الآن ؛ فالأشخاص الذين كانوا على ود طوال حياتهم ، يعبرون الشوارع ليتجنبوا المقابلة ويديرون رءوسهم فى اتجاه آخر حتى لا يضطروا لأن يلمسوا قبعاتهم تحية لزملائهم . وقد يجوز هذا بين الشباب الذين تعد عندهم العاطفة متعة . ولكنه مؤلم للعقول الهادئة . فالهدوء شيمة الرجل الكهل . وإنى لأذهب للاستمتاع بهذا فى بضعة أيام ، ولاستبدال خوار العجول وصخبها بلغو أطفالى .

أشعة من النور — زواج ماريا

ينبغى ياعزيزتى مارثا أن أتسلم منك رسائل أكثر مما تبعثين بها ، وذلك لما تهبنى من سرور عظيم جداً خاصة حين تعبرين عن عواطفك نحوى لأنه ولو أنى لا أستطيع أن أشك فيها ، إذ هى من الحقائق التى لا يشك فيها ، إلا أنى أحب أن أراها تتكرر . وهى هنا أيضاً تقوم مقام أشعة النور التى تؤنس منظراً موحشاً حيث يستخدم الحسد والبغض والحقد والانتقام وجميع العواطف السيئة ليجعل كل واحد الآخر شقيا بقدر ما يمكن .

إنى أستقبل بسرور لا يمكن التعبير عنه النبأ الذى يحتويه خطابك ؛ فبعد زواجك السعيد ، الذى أعطانى صديقاً لا يقدر أستطيع أن أترك له رعاية كل شىء أحب ، كان القلق الوحيد الذى بقى عندى هو ان أرى ماريا Maria أيضاً مقترنة كذلك بقران يضمن لها سعادتها . وما كان من المستطاع أن تبلغ أكثر مما بلغت ، وأن تتحقق تمنياتى على هذا النحو لو أن الأرض جميعاً كانت تحت تصرفى لأختار قريناً لها (فإن ماريا تزوجت جون وايلزابس John Wayles Eppes فى ١٣ من أكتوبر سنة ١٧٩٧) ولكى نحافظ على بقائنا جميعا معاً أرى أن نفتح ونعيد توطين ضيعة بانتوبس Pantops من أجلهما . وعندما أنظر إلى مسرات مجتمع أسرتى التى لا توصف أزداد شعوراً بالاشمئزاز من العواطف الحقودة الخبيثة التى تسود مسرح السياسة هنا :

إن السياسة والبغضاء الحزبية تدمران سعادة كل كائن هنا ؛ إذ يبدو أنهم هنا مثل السمندر يعدون النار عنصرهم الذى خلقوا منه . وأخشى أن الأطفال سوف ينسونني . ومع ذلك فإن ذاكرتي قد تعلق على « لعبة الإوزة » التي سأحملها إليهم قبليهم من أجلى . ولقد غيرت دائرة المجتمع الذى أعيش فيه هنا حسب رغبتي إذ أهجر الأغنياء وأرفض الدعوة إلى موائدهم وحفلاتهم وأجتمع اجتماعاً كلياً بطبقة رجال العلم .

ميجالونيكس جيفرسوني واللغات الهندية

وإنى أكتب وصفاً للجمعية الفلسفية عن بعض عظام حيوان من نوع الأسد إلا أنه ذو حجم هائل جداً . فماذا نرى فى مخلوق طول مخالبه ثمانى بوصات على حين أن مخالب الأسد ليست سوى بوصة ونصف بوصة : وقطر عظم فخذه ست بوصات وربع بوصة ، على حين أن قطر عظم فخذ الأسد ليس سوى بوصة ونصف بوصة ؟ وما لم تكن هذه الأشياء داخلة فى نطاق القياس بالمسطرة والفرجار والدراسة البصرية لما أمكن تقديرها التقدير الملائم . ولقد أصابتنى خيبة أمل فى الحصول على عظم الفخذ حتى الآن ولكن سأحضر العظام التى أملكها (والتى اكتشفت فى مقاطعة جرنبرير Greenbrier بفرجينيا) لتقديمها للجمعية الفلسفية . ولا يسعنى إلا الإيمان بأن هذا الحيوان (الذى أطلق عليه اسم « ميجالونيكس جيفرسونى ») والماموث لا يزالان موجودين :

لقد اعتقدت طويلا أننا لن نستطيع مطلقاً الحصول على أى أنباء عن تاريخ الهنود القديم وعن أصلهم وأبنائهم إلا من معرفة لغاتهم ودراستها دراسة مقارنة . ولهذا لم أقصر مطلقاً فى أن أستغل كل فرصة سنحت للحصول على تراثهم اللغوى . ولقد كونت منها الآن مجموعة كبيرة أوشك أن أطبعها ؛ إذ أخاف أن أخاطر بها بعد اليوم خشية أن تضيع بمصادفة ما . ولكن لا تزال تعوزنى اللغات الجنوبية العظمى مثل الشيروكى Cherokee والكريكس Creeks والشوكتاو Choctaw والشكاسو Chickasaw وإنى أرفق الألفاظ الخاصة التى أريدها .

آلات بخارية فى البيت — موجز برلمانى للكونجرس

إن هنالك غرضاً كثيراً ما رغبت فى أن تتكيف الآ لة البخارية لتحقيقه ؛ فأنت تعرف كيف أنه من المرغوب فيه فى المدينة والريف أن نقدر على أن تكون لنا خزانات كبيرة من الماء على قمة بيوتنا،لا للاستعمال بوساطة أنابيب فى الشقق وحسب ولكن كمورد ضد النار . وهذا الاستعمال الأخير هو على وجه الخصوص أمنية من أمانى الريف . فى الحق أننا قد نحمل الماء من وقت لآخر فى دلاء إلى أحواض على قمة البيت ، ولكن هذا متعب ، ولهذا فإننا لا نفعله أبداً . ونتيجة لذلك فإننا لا نجد مورداً حين تحدث نار . وإن أمكن استعمال أداة لا تكلف نفقة أو تعباً إضافياً ، أو تكلف من ذلك القليل ما عدا الشراء الأول ، فسوف يمكن فعله . وكل أسرة لديها مثل هذه الأداة وهى نار مطبخها . وهى صغيرة حقاً ، ولكن إن أمكن تجميع فعلها الصغير الثابت لإعطاء دفعة من وقت لآخر مما قد يقذف بكمية صغيرة من الماء من قاع البئر إلى قمة البيت (ولنفرض مائة قدم) فإنها ستزود بأكثر مما يضيع بالتبخر أو ما يستعمل بوساطة الأسرة . . ولقد تصورت أن الجانب الخلفى الحديدى للمدخنة يمكن أن يكون صهريجاً يسع الماء الذى يمد بالبخار ويحفظ باستمرار فى حالة غليان بوساطة النار .

إن العناية بالفرع البرلمانى للقانون قد كانت ضئيلة إلى درجة جعلتنى لا أجد هنا شخصاً ، بل لا أجد حتى كتاباً يساعدنى فى رياستى لمجلس الشيوخ . وسبق لى أن قرأت فى فترة مبكرة من حياتى قدراً كبيراً عن الموضوع وبسطت ما قرأت . وقد أصبحت هذه المعرفة المبسطة وسادتى . وحاولت هنا أن أجمع وأن أنظم كثيراً بقدر ما يستدعيه التطبيق العادى والحاجة العملية فنسقت القواعد البرلمانية وقواعد مجلس الشيوخ فى كلا موضعى اتفاقها واختلافها . وفعلت هذا لأجعلها معدة لحكومتى الخاصة ، ولأودع فى مجلس الشيوخ دستور قواعد قد يكون من نتائجه الدقة فى العمل والاقتصاد فى الزمن والنظام والتناسق وعدم التحيز .

تنظيم المعارضة

لو أن الأمل فى تسرب الحقيقة إلى الولايات الشرقية قد فتح أمامنا لأمكن لنا أن نتوقع النجاة ، وأن نتوقع قدومها من الشرق كما حدث قديماً . . وهل تستطيع الولايات الوسطى والجنوبية والغربية أن تستمسك بموقفها حتى تستيقظ ؟ إن هذه أسئلة مؤلمة ومفعمة بالشك ، وإن أنت (آرون بىر من نيويورك) استطعت أن تعطينى حلا مرضياً لها فإنه سيريح عقلا وهب نفسه لحفظ حكمنا الجمهورى فى الشكل والروح الحقيقى اللذين أقيم بهما ، ولكن يكاد الضجر يصيبه من الخوف من أن الغش سينتج فى النهاية ما لم تستطع القوة أن تفعله ، واننا بتأثير التيارات والتيارات المضادة سنساق فى النهاية إلى الخلف ونعود إلى الأرض التى بدأنا منها منذ عشرين عاماً : وفى الحق يا سيدى العزيز لم نكن سوى سمكة قوية معلقة فى شص صياد يدعنا نترنح حتى تنفق قوتنا ليرفعنا فوق الماء فى النهاية .

ولقد نشأ بيننا ، أو بالأحرى ، أتى بيننا حزب يحاول أن يفصلنا عن كل علاقة ودية مع فرنسا ، وأن يوحد مصائرنا مع مصائر بريطانيا العظمى ، وأن يوجه حكومتنا الوجهة التى تتخذها حكومتها . وان تساهلنا فى السماح بعودة الحافظين القدماء كون المجموعة الأولى المؤسسة لهذا الحزب والتى أخذت بمساعدة نظام الأوراق المالية فى إغناء نفسها على حساب تخريب بلادنا وتوجيه الحكومة بامتلاكها المطابع التى تسيطر عليها ثروتها : : : ولكنى آمل أن الشعب قد بدأ يرى المنناء الذى يقوده زعماؤه إليه فى أثناء نعاسه ، ولا يزال هنالك من الزمن ما يكفى لتغيير وجهة السفين إن استطعنا تجنب الحرب مع فرنسا . ويمكن أن يتم كل هذا بسلام إذا ما قصر الشعب اختياره لنوابه وشيوخه على الأشخاص المتمسكين بالحكم الديمقراطى ومبادئ سنة ١٧٧٦ ، لا طلاب المناصب بل الفلاحين الذين تقوم مصالحهم كلها على الزراعة ، فمثل هؤلاء الأشخاص هم الممثلون الحقيقيون لمصلحة أمريكا العظيمة ، وهم وحدهم الذين يمكن الاعتماد عليهم للتعبير عن العواطف الأمريكية المناسبة . فإننا ندين بالجميل لفرنسا والعدالة لإنجلترا والنية الطيبة للجميع ولا ندين بالخضوع لأحد ما :

مسألة اكس — واى — زت — ضربة أصابت الجمهوريين

إن الآثار الأولى التى نجمت عن قيام رئيس الجمهورية آدمز بإعلان رسائل المبعوثين الأمريكيين إلى فرنسا فى إبريل سنة ١٧٩٨ آثار غير ملائمة ومضطربة . ومع ذلك فإن التفكير والتحليل يفسرانها فى هذا ، وهو أن خطاب مستر آدمز إلى الكونجرس فى مايو سنة ١٧٩٧ قد عد إهانة قومية إلى درجة أنه لا يمكن الدخول فى شرح للموضوعات الأخرى حتى يمسح أثره كخطوة تمهيدية بإنكار أو إقرار مهين : فإن اقتراح الفرنسيين على مبعوثينا الخضوع لغرامة تفوق مليون جنيه استرلينى قد جاء فى اجتماع متأخر كبديل يمكن الموافقة عليه ان قدم منا . وكانت هذه العروض عن طريق وكلاء غير رسميين (السادة المرموز لأسمائهم بالحروف اكس — واى — زت) وصاحب هذه العروض بعض المقترحات الوضيعة من جانب تاليران عن طريق أحد وكلائه ، وهى تقوم على رغبته فى أن يبيع نفوذه على حكومة الإدارة فى سبيل تذليل الصعاب معها لقاء مبلغ كبير (خمسين ألف جنيه استرلينى) وإن الحجج التى لجأ إليها وكيله للإغراء بقبول هذا الطلب غير جديرة مطلقاً بأمة عظيمة (إن أمكن نسبتها إليها) ومقصود بها إثارة الاشمئزاز والسخط عند الأمريكيين على وجه العموم والعداوة عند الجمهوريين على وجه الخصوص الذين أخطأوا حتى الآن فهمهم فزعموا أن عاطفتهم الأولى تقوم على الولاء لفرنسا والبغض للحزب الفيديرالى وليس على حب بلادهم . ولم يعبر عن أى صعوبة نحو إصلاح جميع الخلافات وألوان سوء التفاهم أو حتى فى النهاية دفع تعويض عن ضروب السلب والنهب إذا ما مسحت أولا الإهانة التى صدرت عن هيئتنا التنفيذية .

ومع ذلك فن الواضح لدى التفكير أن هذه الأوراق لا تقدم دافعاً واحداً جديداً يبعث على إعلان الحرب . ولكن تأثيرها على عقول الشخصيات المترددة قد بلغ مبلغاً يجعلنى أخشى أنهم — من أجل أن يُنفى الاتهام بأنهم أنصار الفرنسيين — سيتحولون إلى الأخذ بإجراءات الحرب فى غضب مدفوعين بالحزب الآخر . . . ولقد نشرت الصور المشوهة لمحتويات هذه الأوراق بطريقة ماكرة أمس وأنتجت صدمة فى أذهان الجمهوريين مما لم يسبق أن شوهد منذ استقلالنا .

إن الحركة الشعبية فى الولايات الشرقية قد توقفت كما توقعنا ، وخطب الحرب أخذت تنهمر من نيو جيرسى New Jersey والمدن التجارية العظيمة . وإن الروح المشتعلة فى المدن رائعة . فهؤلاء يتدفقون فى خطبهم وهم يقدمون فى تضحية الحياة والمال . وحتى هذه الخطب ليست أسوأ الأشياء لأن التصريحات الحمقاء وتعبيرات العاطفة يمكن الصفح عنها بالنسبة للجمهور الذى يتصرف بدافع اللحظة . ولكننا لا نستطيع أن نتوقع من أمة أجنبية أن تظهر ذلك التبلد إزاء إجابات رئيس الجمهورية التى فاقت الخطب فى الزهو . وإن أية فرصة للسلام كانت قد تركت لنا بعد نشر الرسائل ، فقدت تماماً بوساطة هذه الإجابات . ولم يقتصر الأمر على فرنسا وحدها بل شمل أيضا زملاءه من المواطنين الذين أعلن ضدهم تهديداته ؛ فهو يقول فى فى خطابه من نيوآرك Newark : « إن الأوهام وصور التعبير المشوهة التى أضلت كثيراً من المواطنين يجب أن تعارض بوساطة السلطة والمواطنين على وجه العموم . »

حرب بحرية غير معلنة ضد فرنسا

إن مشروع قانون التسلح البحرى (اثنتا عشرة سفينة) قد ووفق عليه بأغلبية نحو أربعة إلى ثلاثة فى مجلس النواب ، وأما جميع القيود التى فرضت على الأغراض التى ينبغى استخدام السفن من أجلها فقد حذفت . كما ووفق على قانون إنشاء مصلحة لوزير البحرية بسبعة وأربعين ضد واحد وأربعين . . إلا أن الجيش المؤقت المؤلف من عشرين ألف رجل سيقابل بعض الصعوبة ؛ فمن المؤكد أنه سيرفض إذا كان جميع أعضائنا هنا ، ولكن جيلز Giles وكلوبتون Clopton وكابيل Cabell ونيكولاس Nicholas قد ذهبوا ، وكلاى Clay سيذهب غدا . . . ، وان باركر Parker قد انتقل إلى حزب الحرب . ووسط هذه الحالة التى بلغتها الأمور هنا فإنهم سينفذون ما يريدون .

وإن مشروع القانون الصادر من مجلس الشيوخ والخاص بأسر السفن المسلحة الفرنسية التى ترتاد ساحلنا قد ووفق عليه فى يومين بوساطة المجلس الأدنى دون تغيير واحد ، ونزلت إلى النهر مباشرة « جانجيز » Ganges وهى سفينة حربية تحمل

عشرين مدفعا لتقوم بالتجوال . . . وأشك فى أنهم سيرون أن إعلان الحرب أمر حكيم ، إذ قد ينشر الفزع ، كما أن جميع أغراض الحرب تتحقق بالتشريع الذى يمنح سلطة الأسر .

وإنه لا يزال من واجبنا أن نحاول تجنب الحرب ولكن إن هى حدثت فعلا فإنه من الواجب أن ندافع عن أنفسنا دون نظر إلى من جلبها علينا . فإذا رأينا بيتنا وقد شتعلت فيه النار فإنه يجب علينا أن نحاول إطفاءها ، دون أن نسأل عما إذا كان قد احترق من الداخل أو الخارج ، وفى ذلك لا أشك فى أننا سنعمل كرجل واحد ؛

يبدأ المحافظون حكما إرهابيا

إن الحرب فى الوقت الحاضر تتغنى بالحديث عن سفك الدماء والنفى وقمع الفتنة ، وأصبح كل ما فى العقل الإنسانى من حزم وتصميم الآن فى حالة تعبئة . وقد وضع مستر هيلهوس أمس على مائدة مجلس الشيوخ اقتراحا بإعطاء السلطة (لرئيس الجمهورية آدمز) ليبعد الأجانب المرتاب فيهم . ولا ينقص الآن سوى قانون لقمع الفتن ، ومن المؤكد أننا سنراه حالا مقترحا . وإن غرض ذلك القانون هو مصادرة صحافة الهويج : ولو أن هـــذه الصحف تسقط فسيكون ذلك تعنيفا وزجرا للمذهب الجمهورى .

وإن العواطف الحزبية حقاً ثائرة وليس هنالك من يدرى أسبابها مثلى فإنى أستقبل كل يوم أدلة مرة عن ذلك ، فقد تغتلى جميع العواطف فى لحظة ؛ ومن يحتفظ بهدوء نفسه ويبتعد عن العدوى لا يجد مجالا للحديث العادى ويجد نفسه معزولا فى كل مجتمع .

وليس هناك حدث مهما كان فظاً لا يمكن توقعه ، ولقد تأملت كل حدث يستطيع المتطرفون أن يقترفوه ، وإنى لمستعد لمقابلة كل واحد بطريقة لا تنتقص من الحرية العامة أو من شرفى الشخصى . وقدموا فى المجلس الأدنى مشروع قانون لقمع الفتن ، ويعتبر بين أعماله الفاضحة بعض شئون الطبع (مثل نقد إدارة الرئيس آدمز) أمراً إجرامياً ، مع أن تعديلا من تعديلات الدستور قد استبعد فى صراحة الدين

والمطبوعات من سلطتهم القاهرة . وفى الواقع أن هذا القانون وقانون الأجانب كلاهما متضمن فى الدستور مما يدل على أنهم يقصدون عدم احترامه .

ولكن حل الاتحاد ليس العلاج

إننا نرزح تحت سرج مساشوستس وكونيكتيكت ، وتركباننا بعنف ، وتهينان بقسوة مشاعرنا ، كما ترهقان قوتنا وعيشنا . . . ولكن إذا لجأ طرف - بسبب التفوق الوقتى الذى يحرزه الطرف الآخر - إلى حل الاتحاد الأمريكى وقطعه فإنه لا يمكن مطلقا أن توجد حكومة فيديرالية ، فإذا حطمنا الاتحاد لنتخلص أنفسنا من السيطرة الحاضرة لمساشوستس وكونيكتيكت فهل سيقف الشر هنالك ؟ ولنفرض أن ولايات نيو انجلاند وحدها قد انفصلت فهل ستتغير طبيعتنا ؟ ألسنا بشراً إلى جانب ذلك وننطوى على جميع عواطف البشر ؟ وإننا ما نلبث أن نرى نشوء حزب لبنسلفانيا وفيرجينيا فى الاتحاد الكونفيديرالى الباقى ، وستصيب الحيرة الرأى العام بسبب الروح الحزبية نفسها . وما أعظم الحجة التى ستكون أيضاً فى أيدى حزب من الأحزاب بتهديده دائما الحزب الآخر بالانضمام إلى جيرانهم الشماليين ما لم يفعل كذا وكذا . وإن نحن قصرنا اتحادنا على فيرجينيا ونورث كارولينا فإن الصراع سيقوم مباشرة بين ممثلى هاتين الولايتين وستنتهيان بالانقسام إلى وحدتيهما البسيطتين .

هجوم الجمهوريين المضاد

إن قانونى الأجانب وقمع الفتن يعملان بقوة ولهما أثر ملحوظ بين الشعب ، ويبدو لى أن بعض الهيئات التشريعية فى الولايات ستتخذ موقفا قويا فى هذه المناسبة ؛ أما عنى فإنى أعد تلك القوانين مجرد تجربة للعقل الأمريكى لنشاهد كيف يتحمل اعتداء صريحا على الدستور . ولو استقر هذا فإننا سنرى من فورنا محاولة تشريع قانون آخر من الكونجرس يعلن أن رئيس الجمهورية سيظل فى الحكم مدى الحياة ، وأن يحتفظ لمناسبة أخرى بنقل ولاية الحكم إلى ورثته وجعل عضوية مجلس الشيوخ مدى الحياة .

وإنى أرفق بهذا نسخة من مسودة قرارات كنتكى (التى كتبها جيفرسون سراً

معلناً أن قانونى الأجانب والفتن غير دستوريين ، وهما اغتصاب لحقوق الولايات وباطلان غير نافذين) وأرى أنه يجب أن نؤكد بوضوح كل المبادئ الهامة التى يشتملان عليها وحتى يمكن التمسك بذلك الأساس فى المستقبل ، كما يجب أن نعالج الأمر معالجة تسمح لنا بألا نلتزم التزاما مطلقا بالسير فيه إلى النهاية ومع ذلك نستطيع أن نكون أحراراً لدفعه إلى الدرجة التى ستجعلها الحوادث تصرفا حكيما .

إن الكونجرس يستقبل كل يوم شكاوى ضد قوانين الأجانب والفتن والجيوش الدائمة . ولقد كان رد الفعل فى عدة أجزاء من بنسلفانيا عنيفا إلى درجة نخشى معها قيام فتنة . وسوف يقوم بها بعض الأهلين إن استطاعوا . وهذا هو الشيء الوحيد الذى يجب علينا أن نخافه . فإن ظهور هجوم بالقوة ضد الحكومة سوف يصد التيار الحاضر للولايات الوسطى ويجمعها حول الحكومة على حين أنه لو سمح له بالاستمرار فإنه سيتحول إلى إصلاح لوجوه النقص والمساوئ . وتتلخص هذه الوجوه فى قانونى الأجانب والفتن ومتاعب قانون الدمغة والخصائص المزعجة للضريبة المباشرة والجيش الإضافى دون وجود عدو وحشد الموظفين الذين يقضون وقتهم متكاسلين فى كل ناد لإغواء العامل وإبعاده عن العمل فى محراثه والبحرية المؤلفة من خمسين سفينة والملايين الخمسة التى ستجمع لبنائها على أساس دفع فائدة ربا قدرها ثمانية فى المائة ، والمثابرة على الحرب من جانبنا حين تظهر الحكومة الفرنسية مثل هذه الرغبة القوية فى المحافظة على السلم معنا ، والضرائب التى قيمتها عشرة ملايين ويدفعها الآن أربعة ملايين من الأفراد ، ومع ذلك فهنالك ضرورة بعد عام أو عامين لجمع خمسة ملايين أكثر للنفقات السنوية .

وإنه لينقصنا الآن مجمل عن القصة كلها يمتاز بالقصر والبساطة والملاءمة لكل مستوى من القدرات ويكون من الإيجاز بدرجة لا تغفل شيئاً هاماً وتسمح بطبعه فى منشورات يمكننا أن نطبع منها ونوزع عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف نسخة فى شكل رسائل فى جميع أنحاء الولايات المتحدة بوساطة أعضاء الكونجرس حين يعودون إلى مواطنهم .

وإنه لمن المعترف به من كل جانب ومن المقرر بوساطة شركات التأمين أن السلب

البريطانى فى أثناء الأشهر الستة الماضية قد فاق السلب الفرنسى ، ومع ذلك فلم تذكر كلمة عن ذلك بطريقة رسمية غير أن جميع هذه الأشياء تعمل وتؤثر فى الرأى العام . وإنا لندرك أن هذا هو الموسم الذى تبذل فيه ضروب النشاط والتضحيات ، والأداة هى الصحافة ، فيجب على كل رجل أن يضع ماله وقلمه تحت المساهمة .

آدمز يعقد الصلح مع الجمهورية الفرنسية

لقد علمنا بحدث عظيم أمس (١٨ من فبراير سنة ١٧٩٩) فرئيس الجمهورية أبلغ رسالة من تاليران يؤكد فيها أن أى معتمد فوق العادة قد ترسله إلى فرنسا ليفاوض فيما بين الدولتين من اختلافات سوف يستقبل بالاحترام اللائق بممثل أمة حرة مستقلة وقوية . . . ونتيجة لهذا أرسل ترشيح لوزير معتمد فوق العادة لدى الجمهورية الفرنسية أمس إلى مجلس الشيوخ ، وهذا يجعل جهودهم فى سبيل الحرب يائسة ، ويخرس كل إنكار بعد ذلك لإخلاص الحكومة الفرنسية .

ومن الواضح أن هذا النبأ قد احتفظ به سراً عن الفيديراليين فى كلا المجلسين ، كما يبدو من رعبهم وخيبة أملهم . . . ويقال إنهم منشقون على أنفسهم ومنقسمون (بين أتباع آدمز من الفيديراليين طلاب السلام وأنصار هاميلتون من صقور الحرب ودعاتها) .

إن الغضب العجيب الذى نتج فى عقول مواطنينا بوساطة قصة العملاء الفرنسيين الثلاثة المرموز لهم بحروف « اكس » و « واى » و « زت » قد سكن إلى حد عظيم ، وإذا تركنا فى سلام فإنى لا أرتاب فى أن الاتجاه الرائع فى الرأى العام الذى أخذ الآن يحدث ويزداد بسرعة سوف يصبح عاماً وهاماً إلى درجة أن الصداقة فى الخارج والحرية فى الداخل ستستقران بنفوذ الشعب على وجه العموم وسلطاته الدستورية ، وأن روح مواطنينا التى أخذت الآن ترتفع بسرعة مثلما كانت آخذة من قبل فى التهور ، وتسمو بقوة وجلال يبينان جمال الحزبية ، سوف تجعل هذه الحكومة فى التطبيق مثلما هى فى المبدأ نموذجاً لحماية الإنسان فى حالة حرية ونظام .

مرشح لرياسة الجمهورية فى سنة ١٨٠٠ ضد جون آدمز

لقد بدأ الفيديراليون ينزعجون جدياً بشأن انتخابهم . . . وعلى وجه العموم أعتقد أنه أكثر تعرضاً للشك من الانتخاب الماضى الذى لم أخدع عندما قدرت نتيجته فى أكثر من صوت أو صوتين . وإذا ما اقترعت بنسلفانيا فإن جرسى أو نيويورك تقرر نتيجة الانتخاب إن أعطت أى واحدة منهما صوتها للجمهوريين ، وإذا لم تعط بنسلفانيا صوتها فستقرر نيويورك الانتخاب وعلى أية حال يمكن لنا أن نقول انه إذا كان انتخاب مدينـــة نيويورك فى صالح التذكرة الجمهورية فالنتيجة ستكون نصراً جمهورياً .

ومن الواجب أن يكون لدينا « إعلان بمبادئ الدستور » تقوم طبيعته على إعلان للحقوق خاص بجميع النقط التى انتهك فيها . وإن الناس فى الولايات الوسطى قد أوشكوا جميعاً على الالتفاف حول فيرجينيا ، وأما الولايات الشرقية فقد أخذت تعود إلى التردد الذى أوقفه كشف الفضيحة الفرنسية المرتبطة بالعملاء الثلاثة المرموز إليهم بالحروف « اكس » و « واى » و « زت » . وإن كارولينا الشمالية لفى حالة خطرة جداً الآن ويجب أن يكون الدواء لتلك الولاية معتدلا جداً وأن يعطى بطريقة سرية . ولكن ينبغى ألا يترك شىء فى سبيل تقديم الأنباء الصادقة للأهلين .

ومن اللحظة التى نظر إلى عدد من زملائى المواطنين كمرشح لأعلى مناصب الدولة فتحت على أبواب فيضان القذف والافتراء وإنى لأعرف أنه قد كان فى إمكانى أن أملأ محاكم الولايات المتحدة بقضايا لهذه الافتراءات وربما أحطم أشخاصاً كثيرين ليسوا أبرياء ، ولكن هذا لن يكون معادلا لخسران الشخصية . ولهذا سأتركهم لتوبيخ ضمائرهم . وإذا لم تدنهم ضمائرهم فسيأتى يوم حين يقابل الشاهد المزيف قاضياً أعلى لم ينم عن افتراءاتهم .

ولو أن « كوتون ماثر سميث » قسيس شارون فى كونيكتيكت Cotton Mather Smith of Sharon, Connecticut آمن بهذا بقوة كما أومن به فمن المؤكد أنه ما كان ليؤكد مطلقاً أننى « حصلت على ثروتى بالغش والسرقة ، وأننى فى إحدى الحالات

قد خدعت أرملة وأطفالا لا أب لهم وسرقت ضيعتهم التى قيمتها عشرة آلاف جنيه استرلينى حين كنت وصياً عليها . . . وإن كل هذا يمكن إثباته » ؛ وكل نقطة من هذا خرافة فلم يوجد ظرف واحد فى حياتى يمكن أن ينسب إليه أى جزء من هذا الادعاء . . . فكل ثروتى موروثة ما عدا مساحة من الأرض قيمتها حوالى سبعمائة أو ثمانمائة جنيه اشتريتها بنفسى ودفعت ثمنها .

العداء الأبدى لكل شكل من أشكال الاستبداد

أما عن اتهامى بالإلحاد فقد رضت نفسى على تقبل الافتراءات من كل نوع إلى حد يجعلنى أغفلها إغفالا تاما . إذ أصبح من المستحيل أن أناقض جميع أكاذيبهم حتى إننى صممت على ألا أناقض أى أكذوبة لأنه فى الوقت الذى أشغل فيه بواحدة منها سوف ينشرون عشرين كذبة جديدة . ولقد مكثت ثلاثون عاما من اشتغالى بالسياسة العامة معظم الذين يقرءون الصحف من أن يصدروا حكمهم عنى بأنفسهم .

وإن الضلال الذى أبانت مكيدة عملاء فرنسا الثلاثة (اكس — واى — زت) أنه من الممكن دفع الشعوب إليه ، والتجربة الناجحة التى طبقت تحت هيمنة ذلك الضلال على مادة الدستور التى تضمن حرية الصحافة وتحقق حرية الدين كذلك ، قد أعطت لرجال الدين أملا معسولا جدا فى الحصول على إقرار شكل خاص من أشكال المسيحية فى جميع أرجاء الولايات المتحدة . وإذ أن كل طائفة تؤمن بأن مذهبها الخاص هو الحق ، لذلك أمّل أعضاء كل منها — خاصة أصحاب مذهب الابسكوباليان Episcopalians والكونجريجاشن Congregationalists — فى إقامة مذهبهم وإقرار أسسه . ولكن عودة رجحان العقل الذى امتاز به بلدنا يهدد بضياع آمالهم ، وهم يؤمنون أن أى قدر من السلطة يوكل إلىّ سوف يستخدم فى معارضة مشروعاتهم . وانهم فى هذا الإيمان صادقون ، لأنى أقسمت على محراب الله بالعداء الأبدى ضد كل شكل من أشكال الاستبداد المفروض على عقل الإنسان ، ولكن هذا هو كل ما يخشونه وهو فى رأيهم فوق الكفاية ؟

إعلان مذهب سياسى

إننى أرغب بحماسة مخلصة فى المحافظة التامة على دستورنا الفيدرالى الحاضر حسب المعنى الحقيقى الذى أخذته به الولايات والذى دافع به عنه أصدقاؤه هادمين المعنى الذى فهمه به أعداؤه الذين أصبحوا بضلالهم أعداءه . وإنى معارض لإضفاء طابع الملكية على خصائصه بوساطة أشكال إدارته بقصد التمهيد للانتقال أولا إلى مرحلة تعيين رئيس الجمهورية ومجلس الشيوخ لمدى الحياة ، ومن ذلك إلى مرحلة تولى هذه المناصب حسب نظام وراثى ، وعلى هذا النحو يقضى على المبدأ الانتخابى بوسائل منحرفة . وإنى أناصر مبدأ الاحتفاظ للولايات بالسلطات التى لم تتنازل عنها للاتحاد الأمريكى وللهيئة التشريعية فى الاتحاد بنصيبها الدستورى فى تقسيم السلطات . ولست مناصراً لنقل جميع سلطات الولايات إلى الحكومة العامة وجميع سلطات تلك الحكومة إلى الفرع التنفيذى منها .

إنى أريد حكومة تقوم على الاقتصاد الصارم والبساطة وتستخدم كل المدخرات الممكنة للإيراد العام فى دفع الدين القومى ، لا فى سبيل مضاعفة الموظفين والمرتبات لمجرد جمع الأنصار وزيادة الدين العام بكل حيلة سيراً على مبدأ كونه نعمة عامة . وإنى أدعو إلى الاعتماد فى الدفاع الداخلى على منظماتنا العسكرية فقط إلى أن يحدث الغزو الفعلى ، وإلى إنشاء قوة بحرية تكفى فقط لحماية سواحلنا وموانينا من مثل ضروب السلب والنهب التى جربناها ، ولست مؤيداً لقيام جيش دائم فى وقت السلم مما قد يرهب الرأى العام ، أو بحرية تطحننا بالأعباء العامة وتغرقنا تحتها بما تكلف من نفقات خاصة وما تورطنا فيه من حروب دائمة .

وإنى أريد التجارة الحرة مع جميع الأمم وعدم الارتباط السياسى بأمة ما ، وإقامة علاقات دبلوماسية محدودة ، أو عدم إقامتها بتاتاً . ولست من المؤيدين لربط أنفسنا بمعاهدات جديدة مع منازعات أوربا ، ودخول ميدان المذابح لنحفظ توازن قواهم والاشتراك فى حلف الملوك لشن الحرب ضد مبادىء الحرية .

وإنى أناصر حرية الدين وأعارض جميع المناورات لتحقيق سيادة قانونية لمذهب على آخر ، وأريد حرية الصحافة ، وأعارض كل انتهاك للدستور يقصد به استعمال القوة لا العقل فى إسكات الشكاوى وضروب النقد الصادرة عن عدل أو عن ظلم ، والتى يقدمها مواطنونا ضد سلوك وكلائهم . وإنى أرى تشجيع تقدم العلم فى جميع فروعه ، وأعارض إثارة الضجيج والصراخ ضد اسم الفلسفة المقدس من أجل إرهاب العقل الإنسانى بقصص مخيفة وصور مزعجة ، وذلك للارتياب فى رأيه والارتكان ضمنياً إلى رأى الآخرين ، والسير إلى الوراء بدلا من الأمام للبحث عن الحسن ، والإيمان بأن الحكم والدين والأخلاق وكل علم آخر كانت فى أسمى كمال فى أثناء عصور الجهالة المظلمة ، وانه لا يمكن مطلقاً ابتكار شىء أكمل مما أقام بنيانه أسلافنا ،

وسأضيف إلى هذه الآراء رأياً آخر وهو أنى كنت أتمنى فى إخلاص نجاح الثورة الفرنسية ، ولا أزال أتمنى أن تنتهى بإقامة جمهورية حرة ومنظمة ، ولكن لم أك فاقدا الشعور إزاء ألوان النهب الشنيعة التى اقترفوها فى اعتدائهم على تجارتنا ، فإن هدف قلبى الأول هو وطنى . ففيه أسرتى ، وثروتى ، ووجودى نفسه . وليس عندى أدنى مبلغ من الربح أو خيط واحد من الولاء خارج حدوده ، أو دافع واحد لتفضيل أمة على أخرى إلا بالنسبة إلى مقياس صداقتها أو عدم صداقتها لنا .

ثورة سنة ١٨٠٠ — انتصار للمبادئ يا مستر آدمز

إن ثورة سنة ١٨٠٠ كانت ثورة حقيقية فى مبادئ حكمنا ، مثلما كانت ثورة سنة ١٧٧٦ ثورة فى شكل الحكم ولم تنفذ فى الواقع بالسيف كالثورة الأخرى بل نفذت بأداة الإصلاح العقلية والسلمية وهى اقتراح الشعب . ولقد أعلنت الأمة إرادتها بطرد الموظفين الممثلين لمبدأ وانتخاب موظفين ممثلين لمبدأ آخر ، فى الهيئتين التنفيذية والتشريعية الخاضعتين لانتخابها . أما الهيئة القضائية فقد حرم الدستور الأمة من السيطرة عليها .

ولقد حكمت الأمة فى النهاية حكماً دان المبادئ السياسية التى يمثلها الفيدراليون برفضها السماح لمستر آدمز بالاستمرار فى رياسة الجمهورية ، وزرت مستر آدمز بشأن

بعض العمل الرسمى فى اليوم الذى علمنا فيه أن صوت مدينة نيويورك الذى كان معروفاً أنه سوف يقرر صوت الولاية وأنه سيقرر أيضاً نتيجة الاقتراع فى الاتحاد الأمريكى فكان متأثراً تأثراً ظاهراً وخاطبنى بقوله : « إننى فهمت أنك ستهزمنى فى هذه المباراة ولن أقول شيئاً سوى أننى سأكون مخلصاً لك كأحسن ما تكون عليه رعيتك » .

فقلت له : « يامستر آدمز ليست هذه معركة انتخابية شخصية بينك وبينى ؛ فمجموعتان من المبادئ عن موضوع نظام الحكم تقسمان مواطنينا إلى حزبين وأنت تؤيد مجموعة ، أما أنا فأؤيد الأخرى . وإذ أننا قد أمضينا وقتا أطول على مسرح السياسة العامة مما قضاه معظم أولئك الذين يعيشون الآن فقد اتفق أن أسماءنا أصبحت معروفة على نطاق واسع . ولهذا وضع حزب من هذين الحزبين اسمك على رأسه ، ووضع الحزب الآخر اسمى . ولو أن كلينا مات اليوم فان غدا سيوجد اسمان آخران فى مكان اسمينا دون أى تغيير فى حركة الآلة . فحركتها تصدر عن المبدأ الذى تقوم عليه ، لا عنك ولا عنى »

فقال : « أعتقد أنك على صواب ، وأننا لسنا إلا أداتين سلبيتين ، وينبغى ألا نسمح لهذا الموضوع بأن يؤثر فى ميولنا الشخصية »

ولكن الانتصار يعرض للخطر

إن الانتخاب فى كارولينا الجنوبية قد قرر إلى حد ما نتيجة المعركة الانتخابية العظيمة ، ونعتقد أن الأصوات ستكون على وجه العموم كما يأتى :

جيفرسون ثلاثة وسبعون ، بر (المرشح الجمهورى لمنصب نائب رئيس الجمهورية) ثلاثة وسبعون ، وآدمز خمسة وستون . وبينكنى Pinckney أربعة وستون . . . وسوف تتحقق بذلك مساواة مطلقة بين المرشحين الجمهوريين الاثنين . وقد أحدث هذا هلعا عظيما وكآبة بين السادة الجمهوريين هنا (فى مدينة واشنطون العاصمة الجديدة) وابتهاجا عند الفيديراليين الذين أعلنوا صراحة أنهم سيمنعون الانتخاب وسيرشحون رئيساً للجمهورية من مجلس الشيوخ بما يزعمون أنه سيكون

مجرد « امتداد » للدستور . . . ولهذا فإن شهر فبراير سيجلب علينا عواصف من نوع جديد .

لقد ووجهنا بورطة نتيجة للمساواة فى عدد الأصوات بين المرشحين الجمهوريين الاثنين ، ويعتزم الفيديراليون فى الكونجرس أن يستغلوا هذا الموقف بأن يمنعوا الانتخاب منعاً باتاً أو يقلبوا رأساً على عقب ما قد فهم بأنه رغبات الشعب فيما يتصل بانتخاب رئيس الجمهورية ونائب الرئيس ، وهى رغبات لم يسمح لهم الدستور خاصة بأن يقرروها . أما الاختيار الأخير فسيعطينا إدارة وحكومة جمهورية ، ولكن الاختيار الأول سيؤدى إلى وقف الحكومة الفيديرالية لعدم توافر رئيس للجمهورية . وان هذا يفتح لنا هوة لابد أن يرتعد إزاءها كل وطنى مخلص .

إن لدينا ثمانية أصوات مؤكدة فى مجلس النواب ، ولو أن شخصاً واحداً تحول لتأييدنا من أى ولاية من ثلاث ولايات أخرى : ماريلاند وديلاوير وفيرمونت ، لحلت المشكلة ، ولكنى أبعد ما أكون عن الثقة فى أن يتحول صوت واحد لتأييدنا إذ يبدو أنه ليس هنالك ما يثنى روح خصومنا .

المباراة الدقيقة مع آرون بير

هذا هو صباح الانتخاب بوساطة مجلس النواب (١١ فبراير سنة ١٨٠١) ، ولقد أعلن فرد واحد منذ مدة مضت أنه بصوته سيجلب إلى تأييدنا الولاية التاسعة . ولكن غير رأيه يوم السبت وأصبح الموقف يتلخص الآن فى أن ثمانى ولايات فى جانب وستا فى جانب آخر واثنتين منقسمتان كل ولاية على نفسها . وإنى لأرى أنه أمر معضل تماماً أن يتنبأ الواحد بأى الجانبين سيفوز بالانتخاب . غير أنى كونت رأيى عن الموقف الذى على أن أتخذه فى أى حالة من هذه الحالات .

إن الاقتراع طوال أربعة أيام لم ينتج أى تغيير واحد لصوت من الأصوات ولو أنه كان من الممكن السماح لهم بأن يشرعوا قانوناً لوضع الحكومة فى يدى موظف لكان من المؤكد أن يمنعوا إجراء الانتخاب . ولكنا رأينا جميعاً أنه من الأفضل أن نعلن صراحة وفى تصميم أنه فى اليوم الذى يشرع مثل هذا القانون فإنه

الولايات الوسطى سوف تتسلح وأنه لا يمكن الخضوع ولو يوماً واحداً لمثل هذا الاغتصاب . ولقد هزهم هذا أول الأمر وذعروا تماماً لهذا الإجراء الذى أعلناه مطالبين بعقد مؤتمر ليعيد تنظيم الحكومة ويعدلها . فإن نفس لفظ المؤتمر يروعهم ؛ لأنهم يخشون أنهم فى ظل الروح الديموقراطية الراهنة فى أمريكا قد يفقدون بعض أجزاء الدستور الأثيرة لديهم . وبذلوا محاولات كثيرة للحصول على شروط ووعود منى ، ولكنى أعلنت لهم دون تردد أننى لن أقبل الحكم مقابل التسليم بشروط خاصة ، وأننى لن أتولاه ويداى مقيدتان .

أخبرنى الجنرال أرمسترونج Armstrong — (فى ١٤ من فبراير سنة ١٨٠١) أن جوفرنير موريس Morris (وهو من الفيديراليين فى نيويورك) فى أثناء حديث معه اليوم عن المشهد الذى يجرى قد عبر عن نفسه على النحو الآتى قائلا : « كيف يحدث أن بير الذى يقيم على بعد أربعمائة ميل فى أولبانى Albany له وكلاء هنا يعملون بنشاط عظيم على حين أن مستر جيفرسون الذى يقيم فى نفس المكان لا يفعل شيئاً ؟ » وقد عبر ماتيو ليون Matthew Lyon (وهو من أنصار جيفرسون فى فيرمونت) عن رغبته فى أن يعلن كل شىء يعرفه ، وأنه سيظهر حينئذ من يزايد ويتنافس فى شراء الأصوات ،وقرر أن جون براون John Brown من رود إيلاند وهو يلح عليه فى أن يعطى صوته للكولونيل بير استعمل هذه الألفاظ . « أى شىء تريد يا كولونيل ليون ؟ أتريد منصباً أم مالا ؟ فقط أذكر ما تريد وستناله » .

لن أدخل رياسة الجمهورية بالتسليم بشروط

وبينما كنت خارجاً من قاعة مجلس الشيوخ ذات يوم وجدت جوفرنير موريس على السلالم . فاستوقفنى وبدأ محادثة عن حالة الأشياء الغريبة القائمة فى ذلك الوقت والتى تنذر بالخطر ، واستطرد فى قوله إلى : أن لاحظت أن الأسباب التى جعلت أقلية الولايات تعارض نجاحى فى الانتخاب تقوم على خوفهم من :

(١) أنى سوف أفصل جميع الفيديراليين من مناصبهم الحكومية (٢) وأخفض البحرية (٣) وألغى الدين العام ؛

وكل ما أحتاج إليه هو أن أعلن أو أعطى السلطة لأصدقائى لأن يعلنوا أننى سوف لا آخذ هذه الخطوات وسوف يتقرر بذلك حدث الانتخاب فى الحال .

فأخبرته أنه يجب على أن أترك العالم يحكم على السلوك الذى أعتزم اتباعه بذلك السلوك الذى اتبعته حتى الآن : معتقداً أن من واجبى أن أكون سلبياً وصامتاً فى الموقف الحاضر . ومن المؤكد أنه ينبغى ألا أعقد شروطاً : ولا أتولى أبداً منصب رئيس الجمهورية بالتسليم بشروط ، أو بيدين مقيدتين بأى شروط تعوقنى عن اتخاذ الاجراءات التى أرى أنها تخدم الصالح العام . وقد كان مفهوماً أن جوفرنير موريس كان له التوجيه التام لصوت لويس موريس من فيرمونت Lewis Morris of Vermont الذى إن تحول إلى صف ماثيوليون فإنه سوف يضيف صوتاً آخر ويقرر الانتخاب .

وحول نفس الوقت زرت مستر آدمز وتحدثنا عن الحالة ، وقلت له ان هنالك تفكيراً فى الإقدام على تجربة خطورة لهزيمة الانتخاب الرياسى بتشريع قانون فى الكونجرس يعلن حتى مجلس الشيوخ فى أن يرشح رئيساً لمجلس الشيوخ ويفوض له الحكم لمدة أية فترة يخلو فى أثنائها منصب رياسة الجمهورية من شاغله . وذكرت له أن مثل هذا الإجراء من المحتمل أن يؤدى إلى مقاومة بالقوة ونتائج لا يمكن التكهن بها ، وإن فى وسعه أن يمنع كل هذا برفض مثل هذا التشريع . ولكن ظهر أنه يرى أن مثل هذا التشريع يمكن تسويغه ، ولاحظ أنه فى استطاعتى أن أقرر نتيجة الانتخاب نهائياً بتصريح فى الحال ، وذلك بأن أعلن أننى لن أطرد الموظفين الفيدبراليين ، أو أخفض البحرية أو ألغى الدين القومى . وإذ وجدت أنه قد كون رأياً فيما يتصل باغتصاب الحكم بوساطة رئيس مجلس الشيوخ فلم ألح عليه فى مناقشة الموضوع أبعد من ذلك ،وذكرت أن على العالم أن يحكم على تصرفى فى المستقبل بما عرف عن تصرفى فى الماضى ، وحولت المحادثة إلى شىء آخر :

النصر فى الاقتراع السادس والثلاثين

لقد ظهر فى النهاية — بعد قضاء أسبوع كامل فى إجراء الاقتراع على رياسة الجمهورية — أن عشر ولايات تؤيدنى ، وأربع ولايات تؤيد بير ، وولايتين لم تميزا

صوتيهما ، وقد تم هذا دون أن يتحول إلينا صوت واحد ، إذ انسحب موريس نائب فيرمونت فأصبح صوت ليون هو صوت الولاية ، وانسحب من اتفاق مستر هوجر Huger نائب كارولينا الجنوبية (الذى اقترع باستمرار لصالحى) إذ أن زملاءه وافقوا على أن يقترعوا دون تمييز « على بياض » فى تلك الحالة . ولقد تباحثوا من قبل فيما إذا كانوا يتحولون إلى الجانب الجمهورى جماعة ، ولكنهم رأوا أنه ليس فى استطاعتهم أن يفرضوا بير على الجمهوريين ، أو يحتفظوا بجماعتهم كاملة وغير منقسمة للعمل عصبة واحدة على مثل هذا الأساس من المعارضة حسبما يستطيعون إثارة ذلك فى المستقبل . ولقد أظهر اقتراعهم حقيقة ما عقلوا العزم عليه ، وهو يعد إعلاناً للحرب الدائمة ، ولكن سلوكهم قد تركهم تماماً دون نصير .

إن ترك الرأى العام على حالة معلقة من ١١ إلى ١٧ من فبراير سنة ١٨٠١ ، والذعر الذى ألقى فيـــه كل الجانب الوطنى من الفيديراليين ، وخطر حل اتحادنا الأمريكى والنتائج المجهولة لذلك ، جعلت غالبيتهم تود — فى قلق ورجاء — اختيار قرار عارضته من قبل معارضة قوية . وفى هذه الحالة من التفكير انفصلوا عن زعمائهم فى الكونجرس وتحولوا إلى مناصرتنا . وإن الطريقة التى أعطى بها الاقتراع الأخير — وهو السادس والثـــلاثون — قد رسمت خطا ثابتاً للفصل بينهم وبين زعمائهم . . . وهم فى حالة من التفكير تهيئ انضمامهم إلينا إذا لم تصدر من جانبنا أية إجراءات متطرفة تثيرهم مرة ثانية . وإنى لمقتنع بأن أسابيع من السلوك الذى أسيء فهمه هنا قد قوتنا أكثر مما كانت تفعل سنون من الحكم الحصيف الودى . وإذا استطعنا أن نعيد مرة ثانية الاتصال الاجتماعى إلى انسجامه القديم فإنى أعتقد أننا لم نعش سدى ، وأن ذلك يمكن تحقيقه بما آمل مخلصا من جمعهم حول المبادئ الجمهورية الحقيقية التى ألقاها ظهريا قليل منهم .

ولو كان الاقتراع قد انتهى بتولى مستر بير لكان من المؤكد أن يرضى بذلك كل جمهورى فى الحال لأن ذلك بالرغم من أنه مخالف لنوايا الناخبين إلا أنه كان يساير قواعد الدستور . وماكان ليخضع لهذا امرؤ فى سرور أكثر منى . . . ولكن فى حالة اغتصاب السلطة كنت من المؤكد مع أولئك الذين صمموا على ألا يسمحوا به ؛

لأنه لو وضعت تلك السابقة مرة واحدة لأعيد وضعها بطريقة صناعية وانتهت حالا بإقامة دكتاتور وأعتقد أن فيرجينيا فى هذه الحالة كانت تفوز .

سأضع سفينتنا فى مجرى جمهورى

إن العاصفـــة التى اجتزناها كانت هائلة حقاً . وإن الجوانب القوية لسفينتنا الضخمة قد امتحنت امتحانا دقيقا ، ولكن قوتها قد احتملت الأمواج التى سيرت فيها رجاء إغراقها . وإنا سنضعها فى مجراها الجمهورى وستظهر بجمال حركتها مهارة بنائيها . . . فإن الاحتفاظ هنا بحكومة جمهورية عادلة قوية سيكون نصباً ونموذجا قائما يستهدف تحقيقه ومحاكاته شعوب البـــلاد الأخرى . وإنى أشارك فى الأمل والإيمان بأن التفكير الذى استثير بين جمهرة البشر بوساطة ثورتنا ونتائجها سيؤدى إلى تحسين حالة الإنسان فى جزء عظيم من الكرة الأرضية .

ما أعظم الرضا الذى نستشعره ونحن تتدبر الآثار الخيرة لجهودنا إذا ما قورنت بآثار الجهود التى بذلها الزعماء فى الجانب الآخر ممن استهجنوا كل تقدم فى العلم كبدعة خطرة وحالوا أن يجعلوا الفلسفة والجمهورية مصطلحات لوم وعار وأن يقنعونا بأن الإنسان لا يمكن حكمه إلا بالعصا ، وإنى سأحظى بسعادة العيش والموت فى الأمل بإثبات خطأ هذا الرأى .

الفصل الثانى عشر

الرئيس الفيلسوف

لقد ترك توماس جيفرسون فى ظهر اليوم الرابع من شهر مارس سنة ١٨٠١ مسكنه فى مدينة واشنطون الجديدة المديدة وانتقل فى بساطة جمهورية إلى الكابيتول ، الذى لم يكن قد تم بناؤه ، لينصب رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة . ولم يكن هنالك أى شيء حول هذا الرجل الطويل النحيل البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً يوحى بالصور المخيفة التى صور بها فى الحملة الحديثة .

وقال أحد سكان مدينة واشنطون إنه من المستحيل أن يؤمن المرء بأن « هذا الرجل الوديع الحليم الوقور فى هيئته ، وصاحب الصوت الغض الخفيض ، والمحيا اللطيف الذكى ، لا يمكن أن يكون الدعقراطى العنيف ، ومهيج الغوغاء ، والملحد الجرىء ، والشخص المستهتر الذى كثيراً ما سمعت الفيديراليين يشهرون به » . وإن خطاب رئيس الجمهورية الافتتاحى الذى ألقاه فى ذلك اليوم ، وإدارته للشئون العامة أثناء السنين الثمانى التى تلت ، أقنعا هذا المراقب من واشنطون ومعظم الأمريكيين بأن توماس جيفرسون هو « حقاً فيلسوف ، وحقاً رجل خير ، وشخص عظيم » .

وإذ كتب خطاب جيفرسون الافتتاحى الأول بنفس البلاغة التى كتب بها « إعلان الاستقلال » مبيناً « مذهبنا السياسى » فقد بلغ مرتبة « إعلان سنة ١٧٧٦ » فى تعبيره عن روح الشعب الأمريكى وآماله . وأخذ جيفرسون — وهو مزود بالمثالية والواقعية السياسية — يعمل فى همة لتنفيذ مبادئه . وإن السياسة التى اتبعها فيما يتصل بشاغلى المناصب كانت تتفق مع نغمة المصالحة التى امتاز بها خطاب رياسة الجمهورية وكسبت عدداً كبيراً من عامة الفيديراليين . وأنصف برضا عظيم ضحايا قوانين الأجانب والفتن . فأطلق سراح كل شخص محكوم عليه بالسجن ، أو متهم فى ظل ذلك « الإجراء الباطل » أو قانون الفتن ورحب بدعوته إلى شواطىء أمريكا

أجانب بارزون مثل جوزيف بريستلى Joseph Priestley العالم الإنجليزى الذى سبق أن أغضب الزعماء الفيديراليين بتحرره فى الدين والسياسة . وإذ وجد جيفرسون عوناً كفوءاً من جيمز ماديسون James Madison وزير الدولة والسويسرى المولد البرت جالاتين Albert Gallatin وزير المالية، فقد وضع خطة برنامجه عن السلام و الاقتصاد والإصلاح ، وترجم بنجاح كبير فى دورة اجتماع الكونجرس سنة ١٨٠١ – ١٨٠٢ وعوده السياسية إلى حقائق .

وإن سياسته التى اتسمت بالمصالحة والإصلاح المرسوم قد أسهمت كثيراً فى شفاء الجروح التى نجمت عن عقد من النزاع السياسى المر . فالفيديراليون المتعصبون وحدهم ظلوا فى معارضة بذيئة ، وهم الزعماء الحزبيون ، وأولئك الذين ربحوا من نظام هاميلتون ، ورجال الدين فى نيوانجلند الذين واصلوا هجومهم على إلحاده المفترض ، وأنصار إنجلترا الذين صدموا بقواعد الإتيكيت والآداب الديمقراطية التى أدت إلى حرب اجتماعية مع الوزير البريطانى وزوجته السليطة .

ولقد ألغى جيفرسون مظاهر الفخامة والرسميات التى أخذ بها رؤساء الجمهورية الذين سبقوه . فألغى المركبة الرسمية بخيولها الست وركابها الخارجيين ، وكان يمتطى فى تنقلاته صهوة جواد دون حراسة . وبدلا من الاستقبالات الرسمية ذات المظهر الملكى كان يستقبل ضيوفه كل يوم تقريباً فى حفلات عشاء صغيرة يعد طعامها بوساطة طاهيه الفرنسى ، وكانت الخمور التى تقدم ممتازة ، والأحاديث مثيرة . وكان الحديث يتنقل بين الموضوعات العديدة التى كان المضيف يهتم بها ؛ كأثر الجو فى الخلق ، أو تخطيط المدن ، أو آلة النسخ الجديدة ، أو الكتب لمكتبة الكونجرس . وإذ أنه مما لا مندوحة عنه فى جمهورية من الفلاحين أن يتناول الحديث عن الزراعة فإن رئيس الجمهورية كان يناقش المحصولات وربما يتحدث عن الخزان والمطحن اللذين بناهما فى مونتيسلو .

أما التهانى التى استقبلها جيفرسون فى هذه السنوات الأولى من توليه رياسة الجمهورية على السير الموفق الهادئ والنمو السريع والازدهار العظيم الذى تمتعت به البلاد

فى ظل النظام الجمهورى فإن ما سره منها أعظم سرور أنى من أصدقائه من الثوار القدامى . فلقد شعر معهم أن آمال سنة ١٧٧٦ قد تحققت ، وأن الشعب الأمريكى فى نجاحه وهو يجرب الحكم الذاتى إنما كان « يعمل لصالح جميع البشر » .

الخطاب الافتتاحى — ٤ من مارس سنة ١٨٠١

إن حرارة المناقشة والجهود فى أثناء معركة الرأى التى مررنا بها قد اتخذت أحياناً مظهراً يخدع الغرباء الذين لم يتعودوا أن يفكروا فى حرية وأن يتكلموا ويكتبوا ما يعتقدون . ولكن إذ تقررت هذه المعركة الآن بصوت الأمة الذى أعلن حسب قواعد الدستور فإن جميع المواطنين سينظمون أنفسهم بالطبع تحت إرادة القانون ويتحدون فى جهود مشتركة من أجل الصالح العام . وإن الجميع كذلك سيذكرون هذا المبدأ المقدس وهو أنه بالرغم من أن إرادة الأغلبية تسود فى جميع الأحوال ، فإن تلك الإرادة — لكى تكون عادلة — يجب أن تقوم على العقل ، وأن الأقلية لها حقوقها المتساوية التى يجب أن تحميها القوانين المتساوية ويعد انتهاكها ظلما . فدعونا إذن أيها الإخوة المواطنون نتحد بقلب واحد ، وعقل واحد . دعونا نعيد للاتصال الاجتماعى ذلك الانسجام والود اللذين بدونهما تصبح الحرية وحتى الحياة نفسها أشياء موحشة ، ودعونا نفكر فى أننا — وقد طردنا من أرضنا ذلك التعصب الدينى الذى عانت البشرية بسببه وسالت دماؤها زمناً طويلا — إنما نكسب قليلا إن نحن أيدنا بيننا تعصباً سياسياً يشبه التعصب الدينى فى خاصيته الاستبدادية الشريرة وقدرته على خلق اضطهادات مرة ودامية .

كلنا جمهوريون ، وكلنا فيدراليون

إنه ، فى أثناء اضطرابات العالم القديم وشدائده ، وفى أثناء تشنجات الاحتضار التى أصابت الإنسان الحانق وهو يبحث خلال الدماء والمذابح عن حريته التى طال افتقادها ، لم يكن عجيباً أن يصل هياج الأمواج حتى إلى هذا الشاطئ البعيد المسالم ، وأن يتفاوت الناس فى الشعور به والخوف منه زيادة ونقصاناً وأن تنقسم الآراء فيما

ينبغي تدبيره من إجراءات الأمن . ولكن كل اختلاف فى الرأى ليس اختلافاً فى المبدأ . فلقد سمينا بأسماء مختلفة اخوة يعتنقون نفس المبدأ ؛ إذ نحن جميعاً جمهوريون ونحن جميعاً فيديراليون . وإذا كان هنالك بيننا من يريد أن يحل « الاتحاد الأمريكى » أو أن يغير شكله الجمهورى فدعهم يقوموا غير منزعجين كمثل للأمن الذى عكن به لخطأ الرأى أن يعامل بتسامح حيث يترك العقل حراً ليحاربه . وإنى لأعرف حقاً أن بعض الأشخاص المخلصين يخشون أن حكومة جمهورية لا تستطيع أن تكون قوية ، وأن هذه الحكومة ليست قوية بدرجة كافية . ولكن هل للوطنى المخلص فى أثناء المد الكامل للتجربة الناجحة أن يهجر حكومة حفظتنا حتى الآن أحراراً ثابتين على أساس خوف نظرى وخيالى من أن هذه الحكومة — وهى خير أمل للعالم — قد يعوزها التمكن من القوى اللازمة لحفظ نفسها ؟ إنى آمل ألا يكون ذلك ، فإنى على النقيض أومن أن هذه الحكومة هى أقوى حكومة على وجه الأرض . وأومن أنها الحكومة الوحيدة التى يسارع فيها كل إنسان عند نداء القوانين إلى لواء القانون ويقابل الاعتداءات على النظام العام كأمر يعنيه شخصياً . ويقال أحياناً ان الإنسان لا يمكن أن يوكل إليه حكم نفسه . فهل يستطاع إذن أن يوكل إليه حكم الآخرين ؟ أو هل وجدنا ملائكة فى أشكال ملوك ليحكموه ؟ دع التاريخ يجب على هذا السؤال .

مجمل الحكم الصالح

دعونا إذن بشجاعة وثقة نسر على مبادئنا الفيديرالية والجمهورية ، وولائنا لنظامنا الاتحادى وحكومتنا النيابية ، وإذ أننا قد انفصلنا بوساطة الطبيعة ومحيط واسع عن التدمير الماحق لربع من الكرة الأرضية وأوتينا من صلابة التفكير ما يحول بيننا وبين احتمال تحقير الآخرين ونملك بلداً مختاراً تكفى سعته لتوطين أحفادنا حتى الجيل المائة والألف ، ولدينا إدراك مناسب لحقنا المتساوى فى استعمال قدراتنا الخاصة ، وثمرة عملنا ، واستحقاق التمجيد والثقة من زملائنا المواطنين — مما لا ينشأ عن مولدنا بل عن أعمالنا — وتقديرهم إيانا ، ونستنير بدين رفيق وإن كان حقا يعتقد فيه ويمارس بأشكال مختلفة إلا أنها جميعا تشتمل على الأمانة والصدق والعفاف والاعتراف بالجميل

وحب الإنسان ، وتعترف بعناية إلهية قادرة تعبدها وتثبت تدبيراتها جميعا أنها ترمى إلى سعادة الإنسان هنا وسعادته العظمى فى الآخرة . فما هو الشيء الضرورى لنا إذن بعد كل هـــذه النعم ليجعلنا شعبا سعيداً ومزدهراً ؟ ولا يزال هنالك أيها الإخوة المواطنون شيء واحد يجب توافره ، وهو حكومة مقتصدة حكيمة تمنع الناس من إيذاء بعضهم بعضا وتتركهم فيما عدا ذلك أحرارا لينظموا مساعيهم فى العمل وتحسين أحوالهم ، وسوف لا تأخذ من فم العاملين الخبز الذى كسبوه . وهذا هو مجمل الحكومة الصالحة ، وهذا ضرورى ليتم دائرة خيراتنا وهناءتنا .

مذهبنا السياسى

وإذ أوشك — أيها الإخوة المواطنون — على أن أمارس واجباتى التى تشمل كل شيء عزيز وقيم لديكم ، فمن الملائم أن تفهموا ما أرى أنه يؤلف المبادئ الجوهرية لحكومتنا ، وبالتالى تلك المبادئ التى ينبغى أن تشكل إدارتها . وإنى سألخصها فى أضيق مجال تحتمله ذاكراً المبدأ العام دون إحصاء لجميع حدوده وقيوده وهى :

١ — العدل المتساوى الدقيق لجميع الناس مهما كانت مراتبهم أو معتقداتهم دينية كانت أو سياسية ٢ — السلم والتجارة والصداقة المخلصة مع جميع الأمم وعدم الارتباط بأحلاف مع أى أمة ٣ — تأييد حكومات الولايات فى جميع حقوقها كأكفأ منظمات إدارية لشئوننا الداخلية وأوثق الحصون ضد النزعات المعادية للجمهورية ٤ — الاحتفاظ بالحكومة العامة فى كل حيويتها الدستورية كعماد لسلامنا فى الداخل وأمننا فى الخارج . ٥ — الرعاية الغيور لحق الانتخاب بوساطة الشعب — وهو علاج معتدل ومأمون للمساوئ التى تشذب بسيف الثورة حيث لا تتوافر العلاجات السلمية ٦ — الطاعة المطلقة لقرارات الأغلبية وهى المبدأ الحيوى الذى تقوم عليه الجمهوريات والذى ليس هنالك أى استئناف منه إلا إلى القوة وهى المبدأ الحيوى والأب المباشر للاستبداد ٧ — وميليشيا حسنة التنظيم — وهى خير عماد لنا فى السلم فى اللحظات الأولى للحرب إلى أن ينجدها الجنود المنظمون ٨ — وسيادة السلطة المدنية على السلطة العسكرية ٩ — والاقتصاد فى المصروفات العامة حتى يخف العبء عن كاهل العمل . ١٠ — والسداد

الأمين لديوننا والاحتفاظ المقـــدس بالثقة العامة ١١ – وتشجيع الزراعة وكذلك التجارة كخادمتها ١٢ – ونشر الأنباء ومحاكمة جميع المساوئ أمام محكمة العقل العام ١٣ – وحرية الدين ١٤ – وحرية الصحافة ١٥ – وحرية الشخص تحت حماية القانون الذى لا يبيح السجن دون محاكمة ١٦ – والمحاكمة بوساطة هيئة محلفين تختار دون تحيز .

وإن هذه المبادئ تؤلف كوكبة النجوم التى سارت أمامنا وقادت خطواتنا خلال عصر الثورة والإصلاح . وإن حكمة عقلاء القوم فينا ودم أبطالنا قد وقفا على بلوغها . فينبغى أن تكون مذهبنا السياسى الذى نؤمن به – ومرجع تعليمنا المدنى – والمحك الذى به نقيس خدمات أولئك الذين نثق فيهم وإن نحن بعدنا عنها فى لحظات الخطأ أو الذعر فدعونا نسارع إلى إعادة اقتفاء خطواتنا واستعادة السير فى الطريق التى تقود وحدها إلى السلم والحرية والأمن .

الاتحاد عن طريق المصالحة

وإننى أصبحت سعيداً جداً حين علمت أن العواطف التى عبرت عنها فى خطابى الافتتاحى لرياسة الجمهورية قد أعطت رضا عاماً وتقيم أساساً يجتمع عليه إخواننا المواطنون ويتحدون مرة أخرى . وانى لأكثر سعادة لأن هذه العواطف هى عواطفى الخاصة منذ زمن طويل ، ولهذا فإنى سأسير عليها بأمانة ودقة .

وإننى لمملوء أملا بأنى سأستطيع إعادة الوحدة إلى بلادنا . وليس معنى هذا أن زعماء الفيديراليين يمكن كسبهم وإقناعهم . فهم جاملون لا يستطاع التغلب عليهم ولكنى آمل حقاً أن ينضم أتباعهم إلى صفوفنا . إذ أن أغلبية هؤلاء الأتباع كانوا أصلا جمهوريين وهجرونا إلى الجانب الفيديرالى بسبب ما اقترفته الثورة الفرنسية من أعمال متطرفة ولقد أغرانى هذا بتقديم مذهب سياسى والدعوة إلى المصالحة أولا ، وإنى لمسرور إذ أسمع بأنهم قد اعترفوا بهذه المبادئ ولم يعدوها حائلا يفضى إلى الانفصال .

لقد رفضت فى حزم أن أتبع نصائح أولئك الذين رغبوا فى منح مناصب لبعض زعماء

الفيدراليين من أجل المصالحة . ومنحت المناصب وسأمنحها للجمهوريين وحدهم فى ظل الظروف الراهنة . ولكنى أعتقد مع غيرى أن الحرمان من تولى المناصب إن أقيم على أساس المبادئ السياسية وحدها فإنه سيثير أتباعنا الجدد الذين أتوا إلينا من الجانب الفيدرالى ويعطى أنصاراً لزعماء يقفون الآن وحدهم . وإنى أعرف بعض حالات الحرمان من المناصب الحكومية يجب أن تتم . ولكن يجب أن تكون قليلة ما أمكن ، وأن تتم بطريقة تدريجية ، وأن تقوم على أساس من سوء السلوك أو عدم الصلاحية الذاتية . ولهذا فإنه من بين آلاف الموظفين فى الولايات المتحدة سيفصل أفراد قليلون جداً قد لا يبلغ عددهم العشرين .

تعيينات جون آدمز فى منتصف الليل

ولكنى مع ذلك لا أضع بين طائفة حالات الفصل من المناصب الحكومية التعيينات الجديدة التى حشدها مستر آدمز بسرعة ، منذ الثانى عشر من ديسمبر ، حين عرفت نتيجة الانتخاب . ومن ثم فقد أخذ يقوم بالتعيينات لا من أجل نفسه وإنما لخلفه حتى الساعة التاسعة من الليلة التى كان عليه أن يغادر منصب رياسة الجمهورية فى الساعة الثانية عشرة منها .

وإن الناس جميعاً قد استهجنوا مناظر هذا التعيين فى منتصف الليل . فإن آخر يوم من سلطته السياسية ، وآخر ساعات ، وحتى فيما بعد منتصف الليل ، قد استعملت فى ملء جميع الوظائف وخاصة الوظائف الدائمة بأشد الفيدراليين مرارة ، ومواجهتى بأن أختار إما إدارة الحكومة بأعدائى الذين يكون همهم إحباط جميع إجراءاتى وهزيمتها ، وإما أن أجلب على نفسى المقت من مثل هؤلاء الموظفين العديدين المفصولين مما قد يثقل كاهلى . وإن هذا الانتهاك لحرمة الآداب والتقاليد لن يبلغ أثره إلا فيما يتصل بالتعيينات مدى الحياة التى لا يمكن فصل شاغلها . أما عن الوظائف الأخرى فإنى أعد التعيينات فيها إجراءات باطلة ملغاة ، وسوف لا أنظر إلى الأشخاص المعينين حتى كمرشحين لوظائفهم ، وإذن فإنى لا أعدهم مالكين إياها بأى حق جدير بالاحترام .

العدالة لضحايا الأجانب والفتن

ولقد ظن البربريون حقاً أنهم سيقدرون على أن يعيدوا أزمان التوحش حين وضع الجهل كل شيء فى أيدى أصحاب السلطة والكهنة . . فأولئك الذين يعيشون بالغموض والتدجيل ؛ إذ يخشون أنك (دكتور جوزيف بريستلى) ستجعلهم عديمى النفع بتبسيط الفلسفة المسيحية — وهى أسمى مذهب أضاء على الإنسان ، وأعظم المذاهب خيراً وإحساناً إلا أنه أكثرها انحرافاً — قد حاولوا أن يقضوا على شهرتك التى كسبتها بحق وكنت جديراً بها عن حق . ولكن موقفهم منك هو موقف أهل « ليلبيوت » من « جاليفر » فلن يستطيعوا أن ينالوا منك شيئاً . . وإنه لمن دواعى الرضا القلبى أنه فى اللحظات الأولى من ممارستى لشئون الحكم أستطيع أن أحييك بالترحيب بك إلى أرضنا وأن أقدم إليك ولاء احترامها وتقديرها . وأن تحميك بتلك القوانين التى وضعت من أجل الحكماء والخيرين مثلك وتزدرى شرعية قانون الأجانب .

لقد أطلقت سراح كل شخص معاقب أو مدعى عليه فى ظل « قانون التحريض على الثورة » لأنى اعتبرت ذلك القانون إجراء باطلا ، وإنه كان من الوضوح بحيث بدا كأن الكونجرس أمرنا به أن نسجد ، وأن نعبد صنما ذهبياً ؛ وإن من واجبى أن أقف تنفيذه فى كل مرحلة بقدر ما كان من واجبى أن أنقذ من الأتون المحرق أولئك الذين سوف يلقون فيه لامتناعهم أن يعبدوا الصنم . وقد تم هذا على النحو المذكور فى كل حالة دون أن تسأل عما فعل المذنبون ، أو عمن أساءوا إليهم ، وإنما كان سؤالنا عما إذا كانت الآلام التى يعانونها قد نزلت بهم فى ظل « قانون التحريض على الثورة » المزعوم .

فالقضاة — وهم يعتقدون أن القانون دستورى — لهم الحق فى أن يحكموا بالغرامة والسجن ، لأن تلك السلطة قد وضعت فى أيديهم بمقتضى الدستور . ولكن الهيئة التنفيذية — وهى تعتقد أن ذلك القانون غير دستورى — ملزمة بوقف تنفيذه ، لأن تلك السلطة قد خولت لها بوساطة الدستور . فالأداة الدستورية قصدت أن تكون

فروعها المتناسقة قوى تراقب وتحد من سلطة بعضها البعض . ولكن الرأى الذى يعطى القضاة الحق فى أن يقروا أى القوانين دستورى وأيها غير دستورى ، لا لأنفسهم وحدهم فى مجال عملهم الخاص ، ولكن للهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية أيضاً فى دوائرهما ، سوف يجعل من الهيئة القضائية فرعاً مستبداً .

لا إصلاح أكثر مما تستطيع الأمة أن تحتمل

إننى مدرك إلى أى حد سوف أقصر عن تنفيذ جميع الإصلاح الذى يوحى به العقل وتدعو إليه التجربة لو أننى كنت حراً فى أن أفعل كل ما أراه صالحاً ، ولكن حين تتأمل كم من الصعب أن نحرك أو نوجه آلة المجتمع العظيمة ، وكم من المستحيل أن نرفع من آراء شعب كامل فجأة حتى تبلغ الحد المثالى ، فإننا نرى الحكمة فى ملاحظة صولون Solon وهى أنه يجب ألا نحاول تحقيق خير أكثر مما تستطيع الأمة أن تحتمله ، وإن كل مجهود سوف ينفق على وجه الخصوص فى إصلاح ما قد تصاب به المالية العامة من إهمال ، ومن ثم تطرد العقبان التى تهاجمها وتفترسها ، وفى التحسين قليلا لطرق الإدارة الرتيبة القديمة . وربما يكون من المستطاع إقامة بعض الحواجز الجديدة لتأمين الحقوق الدستورية بمساعدة هيئة تشريعية صالحة .

ولقد ألغيت الاستقبالات الرسمية ، وإن الاتصال الأول بالكونجرس القادم سيكون مثل الاتصالات التالية بوساطة رسالة لا ينتظر لها رد . أما عن التمثيل الدبلوماسى فى أوربا فسيخفض إلى ثلاثة وزراء ، كما أن الجيش لا بد له أن يصلح إصلاحاً دقيقاً . وستخفض البحرية إلى الحد القانونى قبل نهاية هذا الشهر . وإن الإدارات الحكومية سيعاد النظر فى تنظيمها . وسندفع الكونجرس إلى الدرجة القصوى فى الاقتصاد . وقد أصدرت توصية منذ البدء إلى المدير العام للبريد بألا يعين فى أية وظيفة من وظائفه طابعاً أو أجنبياً أو أحد أعضاء حزب المحافظين من الثوار .

الوزارة ومدينة واشنطون — مجتمع ساحر

إن وصول مستر جالاتين يجعل تنظيم إدارتنا الجديدة كاملا ، ويمكننا من أن نقر نظامنا فى العمل . ويسكن مستر ومسز ماديسون معنا إلى أن يجدا منزلا . وقد عبر

من معنا عن رغباتهم العظيمة فى أنه ينبغى أن تجئ باتسى وماريا إلى هنا : وإنى لمتأكد من أن سلوكى لا بد وأنه قد أثبت أفضل مما يستطيعه ألف تصريح . إن ثقتى فى أولئك الذين سعدت بمشاركتهم إياى فى الوزارة ثقة غير محدودة أو مشروطة أو منقوصة (وهم الوزراء جيمزماديسون للدولة والبرت جالاتين للمالية وهنرى ديربورن Henry Dearborn للحرب وروبرت سميث Robert Smith للبحرية وليفى لنكولن Levi Lincoln نائباً عاماً) وإنى لمطمئن إلى أن كل شىء يسير بحكمة وسداد فى أحسن طريق يمكن أن أؤمله . ولو أنه كان لدى العالم أجمع لأختار منه فإنى لا أستطيع أن أغير واحداً من زملائى حسب رأيى واقتناعى .

إن الإقامة هنا لطيفة جداً ، وإنها ساحرة حقاً ؛ فالجميع يعيشون فى ود متبادل وعلاقات لا تثقلها المراسيم والطقوس ، وليس فى الإمكان أن يرتبط الواحد بزملاء أكثر لطفاً من هؤلاء الزملاء . وقد يعد هذا مقراً ريفياً جميلا ساراً بعدد من القرى الصغيرة الأنيقة التى تنتشر حولنا فى نطاق ميل ونصف ميل ، والتى تؤلف مجتمعاً يمتاز فى جوهره بالبساطة والخير : فلقد بدءوا مبانيهم فى نقط أربع أو خمس مختلفة ، ويوجد من المبانى فى كل منها ما يكفى لأن يعد قرية ، ويبلغ عدد السكان جميعاً حول الستة الآلاف .

قليلون من أصحاب المناصب يموتون ولا يستقيل أحد

لقد تنبأت منذ سنين بأن الرئيس الجمهورى الأول الذى يتولى منصب رياسة الجمهورية بعد أن يتم شغل جميع الوظائف فى الحكومة بوساطة الفيديراليين وحدهم سوف يواجه بعمل فظيع عليه أن يؤديه ؛ إذ ليس من المتوقع أن يوافق الجمهوريون على استمرار كل شىء فى أيدى الفيديراليين ؛ لأن هذا ليس أمراً عادلا أو حصيفاً ؛

وسيقع على عاتقه إذن مهمة الجلاد التى تقوم على البتر . وإننى لا أستطيع أن أقول إن تلك كانت فى الواقع أشق مما توقعت ، وإننى مقتنع بأن توجيه الشتائم والسباب إلىّ بصفة شخصية قد كان بقصد وأمل إثارتى حتى أفصل فصلا شاملا

جميع الفيديراليين من وظائفهم . ولكن بما أنى لا أتأثر بأية عاطفة فى تنفيذ هذا الواجب البغيض فإنى لن أسمح لأحد بأن يثار .

فمن بين آلاف كثيرة من الموظفين فى الولايات المتحدة فصل تسعة فقط للمبدأ السياسى ، واثنا عشر لقصورهم خاصة من الناحية المالية . ولقد صرخ كل القطيع كأن رقابهم جميعاً قد قطعت . وهل يتصور أن هذا الاحتكار للوظائف لا يزال باقياً فى أيدى الأقلية ؟ وهل هنالك اعتداء على « حقوقهم المتساوية » إذا ما أعلن أن للأغلبية أيضاً بعض الحقوق ؟ وإذا كانت المشاركة المناسبة فى تولى الوظائف حقاً من الحقوق فكيف يمكن الحصول على مناصب خالية ؟ إن المناصب التى تخلو بالموت قليلة ، وبالاستقالة معدومة .

الفيدرالية محصنة فى البنك والمحاكم

إننا نستطيع أن ندفع دين (هاميلتون) فى خمسة عشر عاماً ولكننا لا نستطيع أبداً أن نتخلص من نظامه المالى . إنه يؤلمنى أن أقوى مبادئ أراها مؤذية تماماً ، ولكن هذه الرذيلة نتجت عن الغلطة الأولى .

إنى ألاحظ فكرة إنشاء بنك فرعى للولايات المتحدة فى نيو أورليانز . وهذه المؤسسة هى إحدى المؤسسات القائمة التى تنطوى على عداء مميت لمبادئ دستورنا وشكله : وإن الأمة فى هذا الوقت لمن القوة والوحدة فى عواطفها حتى إنه لا يمكن أن تصاب باضطراب فى هذه اللحظة . ولكن مؤسسة مثل هذه المؤسسة التى تنبث بفروعها كل جزء من أجزاء الولايات المتحدة وتعمل مجتمعة تحت إمرة قيادة موحدة قد تزعج الحكومة فى لحظة من اللحظات الحرجة . وإنى لأرى أن ليس هنالك حكومة تستشعر الأمن إذا ما كانت تابعة لسلطات مكونة تكويناً ذاتياً أو لأى سلطة أخرى غير سلطة الأمة أو موظفيها المنتظمين .

وأى عقبة لا يستطيع أن يكونها مصرف الولايات المتحدة ومصارفه الفرعية فى وقت الحرب ؛ فقد يملى علينا السلم الذى يجب أن نقبله أو يسحب مساعداته . وهل يجب علينا إذن أن نضيف أخرى إلى مؤسسة على مثل هذه القوة وهذا العداء ؟

أما عن عدائه فإننا نعرفه (أولا) من معرفة مبادئ الأشخاص الذين يؤلفون هيئة المديرين فى كل بنك رئيسياً كان أو فرعياً ومبادئ أغلب حملة الأسهم ؛ و (ثانياً) من معارضتهم لإجراءات الحكومة ومبادئها ولانتخاب أولئك الذين يعطفون عليها ، و (ثالثاً) من ميول الصحف التى يؤيدونها . وإن أعظم واجب ندين به الآن ونحن أقوياء نحو سلامة دستورنا هو أن نخضع هذا العدو القوى إخضاعاً تاماً لسلطاته .

وإن أعظم ما يقلقنى فى الوقت الحاضر هو أن نفيد أنفسنا من سيادتنا فى إقرار المبادئ المحمودة ، والإجراءات العملية المحمودة ، وفى تحصين المبدأ الجمهورى خلف حواجز عديدة حتى يمكن للاستحكامات الخارجية أن تصمد وأن تعطى من الوقت ما يهيئ الفرصة للتجمع وإنقاذ القلعة إن تعرضت مرة ثانية للخطر . أما من ناحيتهم فقد لجأوا إلى السلطة القضائية واتخذوا منها حصناً . فهنالك تصان بقايا الفيدرالية وتغذى من خزانة المالية ومن تلك الفرقة تضرب جميع منشآت الجمهوريين بالمدافع وتمحى . وباستخدام الخداع للدستور الذى جعل القضاة دائمين أكثروا من تعيين القضاة التافهين ليقووا فيلقهم .

حملة الشتاء

إن حملة الشتاء قد افتتحت بروح أفضل مما توقعت . فبإرسال رسالة بدلا من إلقاء خطاب عند افتتاح الدورة البرلمانية منعت الصراع الدامى الذى كان لابد أن يتعرضوا له فى محاولة الرد ، ومن ثم فقد استطاع الأعضاء أن يبدأوا العمل الحقيقى مباشرة دون أن يفقدوا عشرة أيام أو اثنى عشر يوماً فى معارضة الرد . ولم يحدث حتى الآن أية مشاجرات غير مرضية . ولكن إلغاء الوظائف التى لاجدوى منها وقطع النبات الطفيلى (وهو القانون الذى يزيد عدد القضاة الفيدراليين) الذى طعم فى أثناء دورة البرلمان الماضية فى الهيئة القضائية سوف يحدث من المحتمل بعض المشاجرات . فذوو الأحقاد لا يرضون بإلغاء الضرائب . وإذ أنهم لا يجرءون على مهاجمة الإجراء فى ذاته فهم يهاجمون الدافع إليه ، وهم من المكر بحيث لا يعزونه إلى الدافع الأمين القائم على تحرير مواطنينا من أعباء الوظائف غير الضرورية ونظمها غير الضرورية كذلك ، بل إنهم يعزونه إلى رغبة فى نيل الشهرة . ولكن كل رجل أمين سوف يفترض أن الأعمال

الأمينة إنما تصدر عن المبادئ الأمينة ، وقد يسخر الأوغاد دون انقطاع .

وأعتقد أن من الأعمال ذات الأهمية العظيمة أن تبسط نظام ماليتنا ، وأن نجعله فى متناول فهم كل عضو من أعضاء الكونجرس ، أما هاميلتون فقد اتبع خطة مختلفة : فلكى تتوافر له السيطرة التامة على أداة الحكم صمم على أن يعقدها إلى درجة تجعل من غير المستطاع لرئيس الجمهورية أو الكونجرس أن يفهمها أو يسيطر عليها . : وقد نأمل أن نرى مالية الولايات المتحدة من الوضوح والجلاء مثل دفاتر حساب التاجر حتى يمكن لأى عضو من أعضاء الكونجرس أو أى رجل عاقل فى الولايات المتحدة أن يفهمها ليدرس العيوب ويسيطر عليها نتيجة لذلك .

الوعود السياسية تصبح حقائق

إن الدورة البرلمانية للكونجرس الأول الذى اجتمع منذ أن استرد الجمهوريون تفوقهم أخذت تقترب الآن من الانتهاء . ولقد كاد أعضاء البرلمان يحققون تماماً جميع رغبات الشعب ؛ إذ خفضوا الجيش والبحرية إلى ما يكاد يكون ضرورياً . وهم يجردون السلطة التنفيذية من رعايتها وتفوقها بإلغاء نصف وظائف الولايات المتحدة التى لم تعد بعد ضرورية . وإن هذه الإجراءات الاقتصادية مكنتهم من إلغاء الضرائب الداخلية كافة ومن رسم الخطة مع ذلك لدفع دينهم العام وسداده فى ثمانية عشر عاماً . ولقد بتروا عضواً طفيلياً غرسه من سبقوهم فى هيئتهم القضائية لأغراض حزبية وإنهم يفتحون أبواب الضيافة للاجئين من اضطهادات البلاد الأخرى . ولقد أبطلنا كل الطقوس والمراسيم التى عملت على تعويد عين الشعب على مقدمات شكل آخر من أشكال الحكم ويكاد الشعب يكون جميعاً متحداً . وإن زعماءه السابقين فى غضبهم من الإحساس بعجزهم سوف يرون أو يسمعون فقط فى الصحف التى تؤدى عمل المداخن فى حمل الأبخرة والدخان السام بعيداً ، وكل شىء الآن هادىء وثابت وحسن كما ينبغى أن يكون .

لقد نفذت الهيئة التشريعية بانتظام تقريباً جميع المقترحات التى قدمت إليهم فى رسالتى ، وكانت نسبة أغلبيتنا فى مجلس النواب حول اثنين إلى واحد ، وفى مجلس

الشيوخ ، ثمانية عشر إلى خمسة عشر . وستكون بعد انتخاب آخر اثنين إلى واحد فى مجلس الشيوخ ، ولن يكون من مصلحة الجمهور أن تزداد عن ذلك . فإن الأقلية المحترمة مفيدة كرقباء . أما الأقلية الحاضرة فليست محترمة ، إذ أن شأنها شأن الرواسب فى الكوب المذهب الفيديرالى ؛ وقد أفقدها اليأس الأمل وجعلها حانقة .

الفيدراليون الرجعيون ورجال الدين فى نيوانجلند

إننى لم أحلم مطلقاً بأن تقف كل المعارضة . فرجال الدين الذين فقدوا اتحادهم مع الدولة ، وأشياع الإنجليز الذين فقدوا اتحادهم مع إنجلترا ، والمغامرون السياسيون الذين فقدوا فرصة الغش والسلب فى ضياع المال العام للدولة ، سوف لا يمتنعون عن الصياح للمطالبة بتحطيم معبدهم . ولكن الشقاق بين الشعب قد انتهى ، وبالعلاج الرقيق سوف لا يعود فتح الجرح .

إننى لا أتوقع أية رحمة من رجال الدين . فلقد صلبوا منقذهم الذى دعا إلى أن مملكتهم ليست من هذا العالم ، وإن جميع الذين يسيرون على تلك الوصية يجب أن يتوقعوا جام غضبهم . فقوانين الوقت الحاضر تمنع أيديهم من سفك الدم ولكن لا يزال لهم سلاح الأكاذيب والنميمة . ولكنى آمل أن عقلهم الراجح سوف يملى عليهم الرأى بأنه ما دام الجبل لن يأتى إليهم ، فمن الأفضل أن يذهبوا إلى الجبل ، وإنهم سيجدون أن صالحهم فى قبول حرية وطنهم وعلمه ، وإن الدين المسيحى حين يجرد من الثياب البالية التى كسوه بها ويعاد إلى النقاء والبساطة الأصلية التى اتصف بها مؤسسه المحسن يصبح من بين الأديان جميعاً أكثرها صداقة للحرية والعلم والتوسع الحر للعقل الإنسانى .

آرائى الدينية

إن آرائى نتيجة حياة من البحث والتأمل ، وهى مختلفة جداً عن الفلسفة المعادية للمسيحية التى يعزوها إلى أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن آرائى . وفى الحق أنى معارض للفساد الذى طرأ على المسيحية ، لا للمبادىء الحقيقية التى يمثلها المسيح نفسه :

فأنا مسيحى بالمعنى الوحيد الذى رغب هو أن يكون عليه أى شخص متعلق فى إخلاص بمبادئه ، وأوثرها على سواها ، وإنى أنسب إليه كل فضيلة « إنسانية » وأعتقد أنه لم يدع أبداً أية فضيلة غيرها .

وإن نسبه غامض ، وحالته فقيرة ، وتعليمه معدوم ، ومواهبه الطبيعية عظيمة ، وحياته مستقيمة وبريئة . وكان وديعاً ، محسناً ، صبوراً ، حازماً ، نزيهاً ، وذا بلاغة سامية . وإن الظروف غير الملائمة التى ظهرت فيها مبادئه مشهورة :

فأولا : هو مثل سقراط Socrates وابيكتيتيس Epictetus لم يكتب هو نفسه شيئاً .

ثانياً : ولكن لم يكن عنده مثلهما رجل مثل زينوفون Xenophon أو أريان Arrian ليكتب له . وإنى لا أذكر أفلاطون الذى استعمل فقط اسم سقراط ليغطى خيالات ذهنه الخاص ، وعلى عكس ذلك فكل علماء وطنه وقد تحصنوا بقوتها وغناها كانوا معارضين له خشية أن تقوض جهوده مزاياهم . ولقد وقع تدوين حياته ومبادئه من نصيب رجال غير متعلمين لم يكتفوا بالجهل ، بل كتبوا من الذاكرة أيضاً ، وبعد أن مضى وقت طويل على حدوث الحوادث .

ثالثاً : وحسب المصير العادى لأولئك الذين يحاولون أن ينيروا ويصلحوا البشرية ، سقط ضحية مبكرة لحسد مذبح الكنيسة وعرش الملك وتآمرهما ، وهو فى الثالثة والثلاثين من سنه تقريباً ، ولم يكن عقله قد بلغ بعد أقصى نشاطه ، كما أن مدى دعوته التى استمرت ثلاث سنين على الأكثر لم يهيىء فرصاً لتطوير نظام كامل للأخلاق .

رابعاً : ومن ثم فإن المبادىء التى نادى بها حقاً كانت ناقصة ككل ، ولم ينحدر إلينا سوى أجزاء مما بشر به ، جاءت إلينا مشوهة ، وقد أسيئت صياغتها فبدت غالباً غير مفهومة .

خامساً : ولقد زاد من تشويهها فوق ذلك ما أصابها من تزييف الأتباع المنشقين على أنفسهم الذين وجدوا متاعاً فى تحريف المبادىء البسيطة التى علمها ، وتنميقها

وذلك بتطعيمها بالفلسفة الصوفية لسوفسطائى اغريقى ، وتقطيعها إلى نزعات تدق على الفهم ووضعها فى أسلوب يخفى حقيقتها حتى دفعت خيار الناس إلى أن يرفضوا الكل فى اشمئزاز ، وأن ينظروا إلى المسيح نفسه كدجال .

وبالرغم من هذه الظروف غير الملائمة فإن فلسفة أخلاقية تقدم إلينا لو صُبَّت فى أسلوب القطع الفنية التى تركها لنا ، وفى روحها : لكانت أكمل وأسمى ما علمه إنسان .

الجو والأخلاق — تخطيط المدن

قد لا تكون هنالك حالة ترتبط فيها العادة باختبارنا أو رأينا أكثر مما يحدث فى حالة الجو ، فالكندى يفيض بالسرور فى مزلقته وجليده : بيد أن مجرد الفكرة نفسها تصيبنى بالرعشة . وإن مقارنة الجو بين أوربا وأمريكا الشمالية إن نحن أخذنا معاً الأجزاء المتماثلة ، تقوم خاصة على ثلاث نقط عظيمة : أولا : التغيرات بين الحرارة والبرد فى أمريكا أعظم وأكثر حلوثاً . ثانياً : سماؤنا صحو دائماً أما سماء أوربا فدائماً ملبدة بالغيوم : ومن ثم ينجم هنا تجمع أعظم للحرارة . ثالثاً : التغيرات بين الرطوبة والجفاف أكثر حلوثاً ومفاجأة فى أوربا عنها فى أمريكا . ولو أن عندنا ضعف ما عندهم من مطر فإنه يسقط فى نصف الزمن . ولو أخذنا كل هذه الأمور فى جملتها فإنى أفضل كثيراً جو الولايات المتحدة . . وأعتقد أنه أكثر بهجة . فسماؤنا الخالية من الضباب هى التى اجتثت من كياننا كل ميل إلى إعدام أنفسنا ، مما كنا فى ظروف أخرى قد ورثناه عن أجدادنا الإنجليز :

ولقد أثبتت التجربة أن الحمى الصفراء تنشأ هنا فى الأجزاء المنخفضة المزدحمة القذرة من مدننا الكبيرة . . . وإنى أرى أن العلاج العملى لمنع تولدها هو بناء مدننا على خطة أكثر رحابة وخلاء . وخذ مثلا لوح الشطرنج كمثال لهذه الخطة . ودع المساحات المربعة السوداء فقط تكوّن ميادين للبناء ، والبيضاء منها تترك خالية مفتوحة تزرع بالخضرة والأشجار . فكل مساحة مربعة من البيوت ستحاط بأربع مساحات خالية ، وكل منزل سيواجه ميداناً مربعاً خالياً . وإن جو مثل هذه المدينة سوف

لا يكون قابلا للأبخرة الموبوءة التى تنتج الحمى الصفراء . ومن ثم فقد اقترحت أن تكون التوسعات فى مدينة نيو أورليانز على نمط هذه الخطة .

إننى أعتقد تماماً أن خطة المدينة التى شرفتنى (المحافظ وليام هنرى هاريسون من انديانا Gov. William Henry Harrison of Indiana) بتسميتها باسمى ، وخططتها حسب فكرة سبق أن ذكرتها لك ، سوف يكتشف أنها رشيقة وسارة . . . ففى أوربا يستطيعون أن يبنوا مدينتهم فى كتلة متراصة دون أن يتعرضوا لعقاب ، ولكن التهوية هنا ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها .

آلة النسخ المتعددة والكتب لمكتبة الكونجرس

لقد اخترع شخص يدعي مستر هوكنز Hawkins آلة يسميها آلة النسخ المتعددة (لأنها تنسخ بقلم ، بينما أنت تكتب بالقلم الآخر) وتحمل قلمين أو ثلاثة أقلام أو أربعة . أما الآلة بقلمين التى أكتب بها الآن فهى أحسنها ، وقد بلغت من الكمال درجة جعلتنى ألقى جانباً مطبعة النسخ وأكتب دائماً بآلة النسخ المتعددة . . وإن الأوراق التى تسلمتها هى أوراق مكتوبة بقلم النسخ الموجود فى الآلة الناسخة ، لا بالقلم الذى كتبت به .

ويمكن تحسين صندوق آلة النسخ التى اخترعها مستر هوكنز تحسيناً كبيراً . . . فالغطاء الأعلى يمكن أن يصمم على شكل زاوية من ناحية الواصلة (المفصلة) ، وحينئذ عندما ترغب فى استعماله لا للنسخ ولكن كمكتب عادى للكتابة ، فإن الغطاء يقدم سطحاً مائلاً للكتابة عليه بقلم حر . وأعتقد أنه أرقى اختراع فى العصر الحاضر . . . فهو كسكرتير ينسخ لنا ما نكتب دون القدرة على كشفه ، أجده ملكاً ثميناً جداً لرجل يشتغل بالشئون العامة .

لقد أعددت قائمة كتب لمكتبة الكونجرس . . . وقصرت قائمة الكتب على فروع العلم التى تخص مناقشات الأعضاء كرجال سياسة ، وحذفت من هذه الفروع تلك الكتب المحببة قديمة وحديثة التى يقتنيها السادة عادة فى مكتباتهم الخاصة ولكنها لا تستطيع أن تدعى لها مكاناً مناسباً فى مجموعة أعدت فقط كمراجع لأغراض الاستشارة . . .

وإن هذه القائمة بالكتب ستساعدكم (الكونجرس) على أن تكونوا فكرتكم العامة وأن تختاروا من بينها كل عام بمقدار الاعتماد السنوى أشد الكتب حاجة إليها .

قواعد الآداب الديموقراطية

١ — لجمع أعضاء المجتمع معاً لأول مرة ، ذهبت تقاليد البلاد إلى أن على المقيمين أن يقوموا بالزيارة الأولى للغرباء ، وبين الغرباء يزور الوافدون أولا الوافدين أخيراً من أجانب ووطنيين ، وتزول صفة الغربة بعد تبادل الزيارات الأولى . ولكن هنالك استثناء واحد لهذه القاعدة : فالوزراء الأجانب من ضرورة تعريفهم أنفسهم يقومون بالزيارة الأولى لوزراء الأمة ، وترد لهم هذه الزيارة .

٢ — وعندما تهيأ لهم فرصة التقابل فى المجتمع يكون جميعهم متساوين تماماً سواء أكانوا أجانب أم وطنيين من أصحاب الألقاب أو من غير ألقاب ، فى مناصب حكومية أم خارج الحكومة .

وإن كل العادات المرعية الأخرى ما هى إلا صور لهذين المبدأين ، وللمحافظة على مبدأ المساواة ومنع نمو الأسبقية من المجاملة ، فإن أعضاء الهيئة التنفيذية سيمارسون فى بيوتهم الخاصة ويزكون رعاية تقليد بلادنا القديم وهو أن الرجال بالجملة يعطون الأسبقية للسيدات بالجملة ، وهم يمرون من قاعة إلى أخرى عند اجتماعهم .

حرب اجتماعية مع زوجة الوزير البريطانى

إن مستر انتونى ميرى **Anthony Merry** نعتقد أنه من الناحية الخاصة شخصية محبية ، ولا نطمح إلى أن يرسل إلينا شخص أفضل منه . ولكنه مقترن لسوء الحظ بزوجة من نوع مناقض لخلقه فى كل شىء . إذ أزعجت انسجامنا غاية الإزعاج ؛ فقد بدا بادعاء الحق فى الزيارة الأولى من الوزراء الوطنيين . وصحح نفسه فى هذا : ولكن لا يزال متمسكا بادعاء أسبقيته فى مآدب الطعام وغيرها على جميع الآخرين : ولقد أخبرناه أن مبدأ المجتمع مثل مبدأ الحكم عندنا يقوم على المساواة بين الأفراد الذين يكونونه . ولن يحضر شخص هنا حفل عشاء حيث ينظر إليه على أنه أدنى من

أى عضو آخر . ولو جاز له أن يطبق مبدأ الأسبقية فى بلادنا لحاولنا بالمثل أن نفرض مبدأنا فى المساواة على بلاط سنت جيمز St. James .

لقد اعتدت حين كنت أدعو صحبة من النساء أن أطلب إلى سيدة من قرينات الوزراء الأربعــة أن تأتى وتعنى بضيفاتى (لأنه لم تكن فى أسرتى سيدة) وإذ أنها كانت تقوم بأعمال المائدة الشرقية كنت أقودها بنفسى إلى حفل العشاء . ولقد أبطلت هذه العادة حتى لا يفسر مستر ميرى أننى بهذا أعطيهن أسبقية على قرينته . وإننا نلتزم هنا عادة الاختلاط المتساوى ، كما نلتزمها فى البيوت الخاصة . وقد أقنعوا يرويو Yrujo الوزير الإسبانى بأن يأخذ دوراً حماسياً فى ادعاء الأسبقية ،وقد أثار هذا على وجه العموم مشاعر الاحتقار العظيم والسخط (التى يشارك فيها بحكمة أعضاء الهيئة التشريعية) من أن وكلاء الأمم الأجنبية يطالبون بأن يملوا علينا ما ستكون عليه قوانين مجتمعنا .

قرينة المستر ميرى يجب أن تأكل حساءها فى البيت

وستكون النتيجة أن سيوضع مستر ميرى وقرينته فى كوفنترى Coventry ، وأن ســيفقد النصف الأفضل من نفعه لأمته المستمد من الاختلاط الودى الخاص بالوزراء وبى . أما قرينة ميرى فتأكد أنها سليطة وقد خلقت درجة من الكره بين جميع الطبقات فى وقت قصير ، وأجمع الكل على أنها لا تحتمل . . . وإنه ليؤسفنى أن أفقده طالما تبقى فرصة لإمكان استعادته إلى ممارسة ميوله الخاصة : ولو استمرت قرينته على هذا المنوال فلا بد من أن تأكل حساءها فى البيت وسنحاول أن نجذبه إلى المجتمع كأنها لم توجد . وإنه لمن سوء الحظ أن حسن التفاهم بين الأمم يتعلق على هوى فرد لا دخل له مطلقا بها .

الجهود والنفقات التى تستتبعها الضيافة فى البيت الأبيض

تبدأ حملتنا الشتوية بعد أربعة أسابيع من تاريخ غد . وإنى لأخشاها بسبب متاعب المائدة التى نقدمها دوريا للصحاب والضيفان ، وإنى لأعد تلك المتاعب أخطر المحن التى أتعرض لها . وكم كنت أتمنى أن أحول هذا العبء إلى أيدى من هو أصغر منى سنا وألا أكون نفسى سوى ضيف على المائدة وأن أكون حراً فى أن أتركها كما يفعل الآخرون : : .

تحليل المصروفات من ٤ من مارس سنة ١٨٠١ إلى ٤ من مارس سنة ١٨٠٢

سكرتير	٤٥٠ر٠٠	
مـؤن	٤ر٥٠٤ر٨٤	
وقـود	٦٩٠ر٨٨	
متنـوعات	٢٩٥ر٨٢	
خـدم	٢ر٦٧٥ر٨٤	
بضاعة البقالة (وليس الخمر)	٢ر٠٠٣ر٧١	
خمـور	٢ر٧٩٧ر٢٨	
اصـطبل	٨٨٤ر٤٥	
ملبس ، سراجة وغيرها	٥٦٧ر٣٦	
نفقات خيرية (نقداً)	٩٧٨ر٢٠	
طوارئ	٥٥٧ر٨١	
كتب وأدوات كتابية	٣٩١ر٣٠	١٦ر٧٩٧ر٥٩
ديون سابقة لـ ٤ مارس ١٨٠١ مدفوعة	٣ر٩١٧ر٥٩	
قروض	١٧٠ر٠٠	
ممتلكات (أراض – خيول – عربات)	٤ر٧١٢ر٧٤	
بناء (في مونتيسلو)	٢ر٠٧٦ر٢٩	
أثـاث	٥٤٥ر٤٨	١١ر٤٢٢ر١٠
مصروفات بيت في مونتيسلو	٦٥٢ر٨٢	
مصروفات مزارع	٣ر٧٤٢ر٢٣	٤ر٣٨٥ر٠٥
مساعدات عائلية	١ر٠٣٠ر١٠	١ر٠٣٠ر١٠
	٣٣ر٦٣٤ر٨٤	٣٣ر٦٣٤ر٨٤

دخـل

بالمرتب	٢٥ر٠٠٠ر٠٠
تبـغ	٢ر٩٧٤ر٠٠
أرباح من صناعة المسامير المفترض ورودها	٥٣٣ر٣٣
دين معقود مع بارنز	٤ر٣٦١ر٠٠
	٣٢ر٨٦٨ر٣٣
خطأ	٧٦٦ر٥١
	٣٣ر٦٣٤ر٨٤

وإنى أفتقدكم جميعاً (مارثا وأسرتها) فى كل الأوقات ولكن خاصة عند الإفطار والغداء والمساء حين كنت متعوداً أن أتراخى من عناء اليوم . ولدىّ هنا من الصحاب ما يكفى ؛ فبعضهم يودنى كثيراً وبعضهم يميل إلى ميلا كافيا وآخرون يضمرون لى العداء وهنالك تتابع مستمر من الغرباء . ولكن هذا يعمل فقط على التخلص من الحياة لا على الاستمتاع بها . ففى حب الأسرة فقط تعرف السعادة الحقيقية التى يستشعرها القلب . وإنى لأشعر بهـا حين نكون معاً وأكون منفرداً فوق ما يمكن تصوره .

مذكرة لادموند بيكون Bacon المدير فى مونتيسلو

إن أول عمل يعمل هو إنجاز كل شىء المطحن ، أعنى الوفاء أو الحجر الذى لا يزال ناقصاً فى الدعامة الجنوبية جاعلا ضفاف القناة آمنة فى كل مكان . . . ويجب أن يزوع حقل النهر بالذرة التى توجد فى علبة من الصفيح فى غرفتى . . . ومن الواجب استئناف تمهيد الحديقة . . ولقد استأجرت تسعة عمال . . ؟ وسيعمل مع هؤلاء بالاشتراك إزاك ، وشارلز ، وبن ، وشبرد ، وإبرام ، وديفى ، وجون وصانع الأحذية فيل . وهم بذلك يكونون سبعة عشر عاملا . ومارتين هو الطحان وجيرى سوف يسوق عربته . وأولئك الذين يشتغلون فى وضع المسامير هم موريس ، وورملى ، وجيمز هبارد ، وبارنابى ، وايزبلز ديفى ، وبدفورد جون ، وبدفور ديفى ، وفيل هبارد ، وبارتلت ، ولويس . وهم كافون لنارين ، كل خمسة منهم يشرفون على نار . . . وتودع رسوم المطحن فى الخزانتين . . وإن مستر راندولف معنى من رسوم الرحى والمطحن .

وتختار مسز راندولف دائماً الملابس لخدم البيت ، أعنى لبيتر همنجز وبيرويل وادوين وكريتا وسالى . وتعطى الأقيسة « السادة » الملونة لبيتى براون ، وبيتى همنجز ، ونانسى ، وأورسولا . وفى الحق لجميع الآخرين . ويمكن لصانعى المسامير والعمال والأجراء أن يحصلوا عليه إن فضلوه على الأقمشة القطنية . ويعطى الصوف لصنع الجوارب ، لأولئك الذين يغزلونه ويعدونه لأنفسهم . ويمكن الحصول دائماً على السمك

من ريتشموند . . . وبعد رؤية ما تستطيع أن تقدمه المزرعة (نحو الألفين أو الألفين وخمسمائة رطل من الخنزير المطلوبة سنوياً) والثلاثة الخنازير فى المطحن يجب أن تشترى . ويجب الحصول على برميل من الشراب الروحى المصنوع من قصب السكر ، وإعطاء كوب صغير لكل فرد على حدة مرة أو مرتين فى الأسبوع .

ويشتغل جو مع مستر ستيوارت الحداد وجون همنجز ولويس ومستر ديترمور النجار الدقيق ورئيس النجارين ، ويزخرف بيرويل البيت ويعنى به . . . ويقوم ستيوارت وجو بجميع عمل المزرعة : وعندما ينصرف ستيوارت إلى لهوه ومجونه : فمن المستحسن أن ينضم موريس أو إيزبلز ديفى إلى جو للقيام بالعمل الضرورى . ويجب أن يحصل الخدم الذين يعيشون على قمة الجبل على حمولة عربة من الخشب ترسل إلى أبواب مساكنهم مرة كل أسبوع خلال الشتاء . . . وينبغى ألا يقصر مستر بيكون عن الحضور إلى قمة الجبل كل يومين أو ثلاثة أيام ليرى أن ليس هنالك شىء يسير سيراً معوجاً وأن الأبواب سليمة وتحفظ الأسوار الشوكية فى حالة منتظمة فى كل الأوقات .

السلام فى أوربا — القرصان البربر يتفرقون

انها لحالة من أحوال الرضا المخلص عندى أن أستطيع الإعلان عن أن الحروب والمتاعب التى حلت بشقيقاتنا من الأمم قد بلغت أخيراً نهايتها (بمعاهدة آميان التى عقدت نهائياً فى مارس سنة ١٨٠٢ والتى أعطت السلم لأوروبا حتى مايو سنة ١٨٠٣) .

ولكن يستثنى من السلم العام الذى نعمنا به وجود حالة واحدة فقط : فطرابلس — وهى أقل دول البربر اعتباراً — تقدمت بمطالب لا أساس لها فى الحق أو فى العقد مما لا يسمح إلا بإجابة واحدة ؛ إذ أرسلت أسطولا من السفن إلى البحر الأبيض مع التأكيدات لتلك الدولة بأننا نود مخلصين البقاء فى سلم ولكن بأوامر لحماية تجارتنا ضد الهجوم الذى تهدد به . . . وإن وصول أسطولنا قد بدد الخطر . فإحدى بوارج الطرابلسيين التى التقت واشتبكت بالسفينة الصغيرة انتربريز Enterprise أسرت بعد قتل رجالها دون فقدان رجل واحد من جانبنا . وان الشجاعة التى أظهرها مواطنونا

فى البحر ستكون فيما أعتقد شهادة أمام العالم بأن سعينا لتحقيق السلم لا يصدر عن افتقارنا لتلك الفضيلة .

النمو السريع والرفاهية العظيمة

إن ازدياد أعدادنا فى السنين العشر الأخيرة وصعوده بنسبة هندسية ينبىء بتضاعف فى أكثر من اثنتين وعشرين سنة بقليل ، ونحن نتأمل هذا النمو السريع والأمل الذى يبشرنا به ، لا ارتقاباً للأذى الذى قد يمكننا من إلحاقه بغيرنا يوماً ما فى المستقبل ، ولكن لاستيطان البلد الممتد الذى لا يزال خالياً داخل حدودنا ، ولتضاعف الناس القابلين للسعادة والمتعلمين فى حب النظام ، والمتعودين على الحكم الذاتى ، والمقدرين نعمه فوق كل ثمن .

و مهما قيدتنا مصالحنا الحاضرة داخل حدودنا الخاصة فإنه من المستحيل ألا نتطلع إلى الأزمان البعيدة حين سيمتد تزايدنا السريع وراء تلك الحدود ويغطى جميع القارة الشمالية ، إن لم يغط الجنوبية ، بشعب يتكلم بنفس اللغة ويحكم بأشكال متشابهة ، وقوانين متشابهة ، كما لا نستطيع أن نتأمل بالرضا وجود الرق أو الاختلاط العنصرى فى تلك الرقعة .

إن إيرادات رسوم الجمارك الخارجية لسنة ١٨٠٢ قد فاقت إيرادات أية سنة سابقة . . وساعدنا هذا على أن نقوم بجميع مقتضيات الحكم العادية ، وأن ندفع من الخزانة ما يزيد عن ثمانية ملايين دولار أصلية ، وربحاً من الدين العام ، وأن يكون عندنا الآن فى الخزانة أربعة ملايين ونصف مليون دولار . . . إذ بمجرد تجنب الأغراض المزيفة للإنفاق استطعنا ، بغير الضريبة المباشرة فى الضرائب الداخلية والاقتراض ، أن ندفع مبالغ كبيرة وفعالة نحو أداء ديننا العام ، وتحرير أحفادنا من تلك الآفة المعنوية ، فإنه لتشجيع من أعلى طراز أن نواصل السير كما بدأنا بأن نحل الاقتصاد محل فرض الضرائب .

طريقنا السعيد الهادى*

لقد فتح الفيديراليون أبواب قدحهم وقذفهم . فهم يقولون إننا أخرجناهم من الحكم بالدعاية الكاذبة ويصرحون علنا بأنهم سيفعلون معنا ما فعلنا بهم . ولكن لم تكن الأكاذيب أو الحجج من ناحيتنا هى التى أنزلتهم عن عرشهم ، وإنما هى أعمالهم الحمقاء من قوانين التحريض على الفتنة وقوانين الأجانب والضرائب والإسراف والبدع . . . وإن كل رجل فاضل بينهم يثور على مثل هذه الأعمال القذرة ولا يمكن أن يكون هنالك شك فى أنه لو حدث انتخاب لرياسة الجمهورية فى هذا اليوم فإنه من المؤكد ألا يحصلوا إلا على أصوات ثلاثة من ولايات نيوانجلند ، غير أنها ثلاث من ست عشرة ولاية . وهذه الولايات الثلاث آتية إلينا ببطء . وسوف لا آخذ أى ثأر آخر إلا بمتابعتى المستمرة للاقتصاد والسلم وإقامة المبادىء الجمهورية فى الجوهر والشكل لإغراق المذهب الفيديرالى فى هوة لن تكون له بعدها عودة روح .

إن الطريق الذى نسلكه طريق هادىء جداً حتى أصبح من النادر أن يكون لدينا شىء نقترحه على الهيئة التشريعية . وإن الطريق الخالى من الصخب الذى لا يتدخل فى شئون الآخرين ولا يجتذب اهتماما لهو علامة على أن المجتمع يسير فى سعادة ؛ ولو استطعنا أن نمنع الحكومة من تضييع جهود الشعب تحت الادعاء بأنها ترعاهم فلا بد من أن يصبحوا سعداء : وإن أمور الشعب المالية تسير الآن على سياسة تطبيقية لا يمكن أن يخل بنظامها سوى الحرب أو المذهب الفيديرالى .

العمل من أجل البشرية جمعاء

إن استحسان أصدقائى من الثوار القدماء هو فوق كل شىء أعظم الأشياء إرضاء لقلبى . فهم يعرفون لأى الأغراض هجرنا مسار المجتمع البيتى والهدوء والعلم وصممنا على خوض محيط الثورة لنستهلك الحياة الوحيدة التى وهبنا إياها الرب فى مشاهد ستعود منافعها فقط على أولئك الذين يخلفوننا .

ليس لأى فرد حق فى أن يدعى لنفسه أى نصيب كبير فى العمل العظيم الذى أنجز فى أمريكا ، فشعبنا فى هيئته كلها شعب حكيم، لأن أفراده يعملون بقيادة فهمهم الخاص الذى لا يعوقه كبت أو اعوجاج . . . وإن أمة مؤلفة من مثل هذه المواد وخالية فى جميع أعضائها من الحاجات الموجعة تقدم أدوات مبشرة بالأمل فى تجربة الحكم الذاتى الممتعة ، ونحن نشعر أننا نعمل تحت التزامات غير مقتصرة على حدود مجتمعنا الخاص . ومن المستحيل ألا ندرك أننا نعمل من أجل البشرية جميعها ، وإن الظروف الممنوعة على غيرنا والوفيرة عندنا قد فرضت علينا واجب إثبات إلى أى مدى تستطيع الحرية والحكم الذاتى أن تؤدى لمجتمع ارتضاها ونبذ حكم الفرد .

الفصل الثالث عشر

شراء لويزيانا

إن الهدوء الذى امتازت به الفترة الأولى من رياسة جيفرسون للجمهورية قد تحطم بقسوة بفعل الأنباء الهائلة التى هددت بتغيير مصير الولايات المتحدة جميعه. فاسبانيا الضعيفة المتحلة التى سيطرت طويلا على مصب المسيسبى، وهو المنفذ الوحيد لغربى أمريكا إلى المحيط، قد ردت سرا إلى فرنسا القوية المعتدية ميناء نيو أورليانز وإقليم لويزيانا Louisiana الواسع الممتد من المسيسبى إلى سلاسل جبال روكى؛ إذ انتهز القنصل الأول بونابرت، دكتاتور فرنسا وسيد أوربا، فرصة التوقف فى الحرب العظمى ليعيد بناء الامبراطورية الفرنسية فى أمريكا التى يمكن أن تبتلع كندا البريطانية والمكسيك الاسبانية وربما العالم الجديد كله فى النهاية. وقد بلغ التهديد للولايات المتحدة من العظم درجة جعلت جيفرسون الذى ألقى تحذيراً جدياً ضد « الاشتباك فى محالفات » يصرح فى ابريل سنة ١٨٠٢ أنه من اللحظة التى استولى فيها بونابرت على نيو أورليانز يجب علينا أن نزوج أنفسنا بالأسطول والأمة البريطانية.

وعندما أغلق الوكيل الاسبانى فى نيو أورليانز النهر للملاحة فى أكتوبر (منتهكا بذلك حقاً منح فى سنة ١٧٩٥) طلب الأمريكيون الغربيون الحرب وغزو الميناء الجوهرى قبل وصول جنود بونابرت المدربين. ولكن الأمريكيين الغربيين — وهم من أنصار جيفرسون بالإجماع — وافقوا على سياسة زعيمهم التى ترمى إلى البدء بالمفاوضة فى باريس لشراء نيو أورليانز؛ إذ كان ولوعا بالسلم، كما ذكر ذلك كثيراً، وسوف يحاول أول الأمر كل طريقة غير الحرب.

ولقد انتظرت أمريكا شهوراً وهى فى قلق. وبعدئذ جاءت الأنباء من باريس؛ وكم كانت أنباء مجيدة، فعندما وجد نابليون أنه مواجه بشبح تجدد الحرب الأوربية لم يبع فى سنة ١٨٠٣ للولايات المتحدة نيو أورليانز فقط، وإنما باع جميع إقليم لويزيانا الرائع — وهو امبراطورية جرداء غير مرسومة المعالم ضاعفت مساحة الجمهورية،

وأزالت تهديدات خطيرة لاستقلالها، وضمنت منفذ المسيسبي الحيوى، وجعلت عظمتها كدولة قارية أمرا ممكنا. وكل هذا قد تم الحصول عليه بالشراء لا بالحرب، ومقابل خمسة عشر مليون دولار سوف ترد فى سنوات قليلة من حصيلة الرسوم الجمركية فى نيو أورليانز. وقد كان هذا، كما اعترف جيفرسون، عملا عظيما.

ولما كان الدستور لم يمنح فى أى بند فيه سلطة صريحة للحصول على أقاليم من الأرض، فقد فكر جيفرسون، وهو نصير المحافظة على النص الدقيق للدستور، فى أن يقترح تعديلا. ولكن كان هذا يستغرق شهوراً ثمينة ان لم يكن سنين، وقد جاءت تحذيرات من باريس أنه يجب التصديق على المعاهدة بسرعة قبل أن يغير بونابرت رأيه. ولقد خضع جيفرسون وزملاؤه الجمهوريون للضرورات العملية، وألقى جانباً « الدقائق الميتافيزيقية »، وعلى أساس نظرية هاميلتون عن السلطات المتضمنة أكمل صفقة شراء الأرض الجسيمة التى أعطت الولايات المتحـــدة نصف قارة.

ولقد نادى الأمريكيون المبتهجون بعد ذلك بشهور بحياة « جيفرسون الخالد » جيفرسون الذى سرعان ما غرق فى أعمق كآبة لمرض بنته الصغرى « ماريا » وموتها:

وإن الشراء العظيم لإقليم لويزيانا كان القمة فى إدارة عدد أعمالها بفخار يمكن اغتفاره له. فبالرغم من الشتائم البذيئة التى كان لا يزال الرجعيون المحافظون والهيئات المالية فى المدن الكبيرة يقذفونه بها، قد أعيد انتخابه بنسبة هائلة، إذ نال أصوات السبع عشرة الولاية ما عدا اثنتين من ولايات الاتحاد الأمريكى؛ إذ أن شهرة « رئيس جمهورية الشعب » كانت واسعة لا تقاوم:

سحب الحرب بسبب لويزيانا

إن تنازل اسبانيا عن لويزيانا وفلوريدا إلى فرنسا يؤثر تأثيرا أليما فى الولايات المتحدة. ولقد كتب وزير الدولة إليك (روبرت ر. لفنجستون الوزير الأمريكى فى باريس) بإسهاب عن هذا الموضوع، ومع ذلك فإنى لا أستطيع أن أتجنب العودة إليه شخصياً للأثر العميق الذى تركه فى تفكيرى. فهو يقلب تماما كل العلاقات

السياسية للولايات المتحدة وسيكون عهداً جديداً فى مجرى حياتنا السياسى ؛ ففرنسا من بين جميع الأمم الهامة هى الأمة الوحيدة التى قدمت حتى الآن أقل الأمور التى يمكن أن تثير بيننا وبينها أى نزاع ، وأكثر الأمور التى تتصل بوحدة المصالح . ومن هذه الأسباب نظرنا إليها دائماً كصديقنا الطبيعى وصديق لا يمكن أن تنشأ بيننا وبينه أية مناسبة للاختلاف . ولهذا نظرنا إلى نموها كنمونا ، و نوازلها كنوازلنا .

وهنالك على الكرة الأرضية بقعة واحدة يعد مالكها عدونا الطبيعى والتقليدى : إنها نيو أورليانز التى لا بد من أن يمر خلالها إلى السوق إنتاج ثلاثة أثمان أرضنا ، ومن خصبها سوف نتتج قبل مرور وقت طويل أكثر من نصف محصولنا جميعه ، وتشتمل على أكثر من نصف سكاننا . وإن فرنسا بوضعها نفسها فى ذلك الباب تقف بنا موقف التحدى . وقد كان فى إمكان اسبانيا أن تحتفظ به فى هدوء عدة سنين . فمزاجها السلمى ، وحالتها الضعيفة ، قد كانا ليغرياها بزيادة مرافقنا هنالك ، حتى لقلما كنا نشعر بامتلاكها للمكان ، وربما كان يأتى قبل مضى فترة طويلة الوقت الذى تسنح فيه الفرصة التى تجعل التنازل عنه إلينا ثمناً لشىء ذى قيمة أكثر لها . ولا يمكن أبداً أن يكون كذلك فى يدى فرنسا ، فتهور مزاجها ، ونشاط خلقها ، وقلقه الموضوع فى نقطة احتكاك أبدى معنا ومع خلقنا ، الذى يعد بالرغم من هدوئه وحبه للسلام وسعيه وراء الثروة ، خلقاً سامى المبادئ ، مزدرياً للثروة إذا ما قوبلت بالإهانة أو الأذى ، ومقداماً نشطاً كأية أمة على الأرض — يجعل من المستحيل أن تستطيع فرنسا والولايات المتحدة البقاء صديقتين مدة طويلة حين تلتقيان فى مثل هذا الموقف الثائر المتفجر . فهم ونحن كذلك لابد وأن يكونوا فى عمى ان لم يروا هذا ، ولا بد من أن نكون قصار النظر ان لم نبدأ بوضع الخطط على أساس ذلك الافتراض .

يجب أن نزوج أنفسنا للأسطول البريطانى

ان اليوم الذى تستولى فيه فرنسا على نيو أورليانز يقرر الحكم الذى سيقيدها إلى الأبد داخل أدنى حد لسلطتها ، إذ يعقد اتحاد أمتين تستطيعان معاً أن تحتفظا بالسيطرة

المنفردة على المحيط . ومن تلك اللحظة يجب علينا أن نزوج أنفسنا للأسطول والأمة البريطانية . ويجب أن نوجه جميع اهتمامنا إلى قوة بحرية تضعنا لها مواردنا فى مركز عال جداً . وإن تكويننا وجمعنا معاً قوة قد تجعل من المستحيل على فرنسا أن تعزز مستعمراتها هنا بجعل المدفع الأول الذى سوف يطلق فى أوربا الإشارة لتمزيق أية مستعمرة تكون قد أسستها ، وللإبقاء على القارتين الأمريكيتين فى حالة عزلة من أجل تحقيق الأغراض العامة للأمتين البريطانية والأمريكية المتحدتين .

وإن مثل هذه الحالة ليست أمراً نطلبه أو نرغب فيه . ولكنها حالة يفرضها علينا هذا الإجراء ، إن تبنته فرنسا ، فرضاً أشبه فى حدوثه الضرورى بما يفضى إليه من نتيجة لازمة ، نتيجة تحدث بفعل قوانين الطبيعة . . . وفى تلك الحالة ستكون فرنسا قد وضعت يدها على نيو أورليانز فى فترة سلم طويل أو قصير ، وستسلب منها فى نهايته . فهل سيكون هذا الامتلاك القصير الأمد معادلا عندها لتحول مثل هذا الوزن إلى كفة ميزان عدوها ؟ أولا يكون انضمام أمة ناشئة مزدهرة إلى ذلك العدو مصدراً لقوة جديدة لدولة تأخذ فى الانحدار ؟ وهل تضيف امتلاك نيو أورليانز مدة سنوات قليلة إضافة مماثلة إلى قوة فرنسا ؟ وقد تقول إنها تحتاج إلى لويزيانا لإمداد مستعمراتها فى جزائر الهند الغربية ولكنها لا تحتاج إليها فى وقت السلم ، وفى وقت الحرب لا يمكن أن تعتمد عليها لأنها سوف تحجب عنها فى يسر .

يجب أن نحصل على نيو أورليانز وفلوريدا على الأقل

وأرى أن جميع هذه الاعتبارات يمكن أن توضع فى شكل ملائم أمام نظر الحكومة الفرنسية . ولو أننا نحن نذكرها إلا أنه ينبغى ألا تحدث أية إساءة ؛ لأننا لا نقدمها كتهديد ولكن كنتائج لا يمكن لنا أن نسيطر عليها إذ هى محتومة من مجرى الأشياء . . وإذا اعتبرت فرنسا لويزيانا مع ذلك شيئاً لا غنى عنه لوجهة نظرها ، فربما تكون راغبة فى أن تبحث عن ترتيبات قد توفق بينها وبين مصالحنا . وإن كان فى استطاعة أى شىء أن يفعل هذا فإنه سيقوم على التنازل لنا عن جزيرة نيو أورليانز وفلوريدا . وإنه لمن المؤكد أن هذا يزيل إلى درجة كبيرة أسباب الاصطدام والإثارة بيننا ،

وربما لمدة من الزمن قد تكفى لإنتاج وسائل أخرى لجعل الإجراء موافقاً على الدوام لمصالحنا وصداقتنا . وسوف يريحنا على أية حال من ضرورة اتخاذ إجراءات مباشرة لمعارضة مثل هذه العملية بترتيبات فى جهة أخرى . ولكنا مع ذلك سوف نعتبر أن نيو أورليانز وفلوريدا ليستا معادلتين للمخاطرة بمعركة مع فرنسا تنشأ عن جوارها .

وإن كل عين فى الولايات المتحدة شاخصة الآن إلى شئون لويزيانا . وربما لم يحدث شىء منذ حرب الثورة الأمريكية أكثر إثارة للقلق فى جسم الأمة من هـــذا الموضوع . . . وقد رأيت أنه ليس من الخطأ أن أكتب إليك هذا الخطاب الخاص إلحاقا بخطابات وزير الدولة لأصور لك الأهمية التى نوليها هذه الصفقة .

جرثومة عاصفة

إننى أرغب إليك (دى بونت ده نيمور Du Pont de Nemours وهو صديق فرنسى) أن تلم بالموضوع لأنك قد تستطيع أن توضح لحكومة فرنسا النتائج المحتومة لاستيلائهم على لويزيانا ،ولو أن التنازل لنا عن نيو أورليانز وفلوريدا كما أذكرهنا . سوف يكون مسكناً إلا أننى أعتقد أنه لن يكون أكثر من ذلك ، وإن هذا الإجراء سوف يكلف فرنسا ــ وربما بعد وقت غير طويل من الآن ــ حرباً ستقضى عليها كقوة على المحيط وتضع ذلك العنصر تحت السيطرة المطلقة لأمتين مما لا أوافق عليه خاصة ، وإن أمتى ستكون إحداهما . أضف إلى هذا ما ينجم عن امتلاك متفرد لكلتا قارتى أمريكا . وإنى لأود أن يبقى النظام الحاضر للأشياء ، وأقدر من أجل تحقيق هذه الرغبة تقديراً كبيراً حالة من الصداقة بيننا وبين فرنسا . وإنك لتعرف جيداً كم كنت مخلصاً فى هذه الميول حتى ترتاب فيها . وتعرف أيضاً كم أقدر السلم .

فنى أوروبا لا يرى شىء غير أوروبا ، وقد يفترض أن لها حق النظر فى شئون الأمم ولكن هذا الحدث الصغير الذى ينطوى على امتلاك فرنسا لإقليم لويزيانا ، والذى يلقى كأنه لا شىء ، وكمجرد إضافة إلى الوزن فى التصفية العامة للحسابات ،وهذه البقعة التى تبدو الآن كنقطة لا تكاد تظهر فى الأفق ، هو جرثومة عاصفة ستنفجر على الأقطار على كلا جانبى الأطلنطى وتمس فى نتائجها أسمى مصائرها :

اسبانيا تغلق مصب المسيسبى

إن توقف تجارتنا فى نيو أورليانز الذى أحدثه الوكيل الاسبانى (فى أكتوبر سنة ١٨٠٢) مضافاً إلى تغير المالكين الذى لا بد أن تعانيه مباشرة لويزيانا ، ومن الممكن أن تمر به فلوريدا ، قد أثار الرأى العام إثارة عظيمة هنا . . . وإننا لا نستطيع أن نتكهن بما إذا كنا ننجح فى الحصول على جزيرة نيو أورليانز وفلوريدا بطريقة سلمية مقابل ثمن آخر غير تكاليف الحرب . ولكن لن يرغمنا شىء على الخروج عن طريق السلم . لندخل فى خصام أوروبا ومنازعاتها ونصبح دولة تابعة لأية دولة هنالك ، لن يرغمنا على ذلك سوى الفشل فى استخدام كل أسلوب سامى لإزالة هذا الاعتداء علينا والحاجة المروعة لسلوك هذا السبيل .

ومع ذلك فلا بد من أن هذا سيكون النتيجة إن فشلنا فى كل وسيلة ممكنة لإعادة حقوقنا لو أننا دخلنا الحرب وحدنا . فسوف يحاصر المسيسبى على الأقل فى أثناء استمرار الحرب بوساطة دولة بحرية متفوقة وتحرم جميع ولاياتنا الغربية من تجارتها ما لم تسلم نفسها للدولة المحاصرة . ولقد بذلت جهود من هذا الجانب لاستثارة سكان الولايات الغربية حتى يستولوا على نيو أورليانز دون نظر إلى مدى انتفاعهم بها مع نهر محاصر .

جيمز مونرو أرسل إلى فرنسا

إن هياج الرأى العام ، لمناسبة التوقف الأخير لحقنا فى الإيداع فى نيو أورليانز ، كان متطرفاً . وهو طبيعى فى الإقليم الغربى وقائم على دوافع أمينة . أما فى الموانى البحرية فهو ناشئ من الرغبة فى الحرب التى تزيد من فرص التجارة وعند الفيديراليين على وجه العموم وخاصة بين أعضاء الكونجرس منهم ، فالغرض هو إجبارنا على الدخول فى حرب إن أمكن وذلك لإحداث ارتباك فى ماليتنا أو إن لم يستطع فعل ذلك لربط الإقليم الغربى بهم على أنهم خير الأصدقاء لهم ، ومن ثم يعودون ثانية

إلى الحكم . فالاحتجاجات والمذكرات وغير ذلك تتداول الآن فى جميع أرجاء الإقليم الغربى .

فمن الجوهرى إذن إيفاد وزير فوق العادة لينضم إلى الوزير العادى يكون متأثراً تماماً بجميع آرائنا ، ويكون لهذا صالحاً لأن يقابل وأن يعدل — حسب هذه الآراء — كل شكل من أشكال المقترحات التى يمكن أن تأتى من الطرف الآخر . . وأنت (جيمز مونرو James Monroe) قد حزت ما لا حد له من ثقة الحكومة وسكان الولايات الغربية ؛ وعلى وجه العموم الجمهوريين فى كل مكان ، ولو أنك رفضت أن تذهب فلن يمكن التوفيق إلى رجل آخر يقوم بهذا . وإن الإجراء قد أخرس الفيدراليين هنا . وسوف لا يحتاج الكونجرس بوساطتهم بعد اليوم ، وستصبح البلاد هادئة بسرعة انتشار النبأ فى أرجائها . فكل العيون وكل الآمال معلقة الآن عليك . . لأن على نتيجة هذه المهمة تتوقف مصائر هذه الجمهورية فى المستقبل ».

اسبانيا تعيد فتح الميناء — السلم هو عشق

إن لدينا الآن فترة راحة من ناحية ذلك الموضوع إذ أعادت اسبانيا دون تأخير حقنا المعتدى عليه وضمنت لنا إنقاذه الصريح بتنازلها عن لويزيانا إلى فرنسا . ولو أننى لا أعتمد بوثوق على أخذ نيو أورليانز من فرنسا مقابل مال ، إلا أننى واثق من سياسة تأجيل يوم النزاع عليها حتى نكون قد قللنا الارتباك الذى نستشعره من جراء الدين الذى كومه سابقونا بدلا من قيامهم بأدائه ، وحتى نحصل على مزيد من تلك القوة المتزايدة حولنا بسرعة كبيرة ، وخاصة حتى نكون قد زرعنا شعبا على المسيسبى نفسه ، يكون كافياً ليقوم بعمله الخاص دون تسيير رجال ألفا وخمسمائة ميل من شواطىء الأطلسى ليهلكوا بالإرهاق والأجواء غير الملائمة . وسوف يحدث هذا سريعاً .

وفى الوقت نفسه نلنا فى أربعة أشهر باعتمادنا على العدالة السلمية ما لم نكن لنحصل عليه فى ظل سبع سنين من الحرب ودون أن نفقد مائة ألف حياة ومائة مليون من الدين الإضافى وما يساوى مئات كثيرة من الملايين من المحصول والممتلكات المفقودة

بسبب الحاجة إلى سوق أو فى البحث عنها ، وذلك الفساد المعنوى الذى تفرضه الحرب على العقل الإنسانى .

إننى أعتبر الحرب بين فرنسا وإنجلترا أمرا لا يمكن تجنبه ؛ ففرنسا تنفر منها نفوراً شديداً ، ولكن إنجلترا ترى أن وجودها نفسه يتوقف على إعادة تعديل وجه أوربا الذى بسطت عليه فرنسا سلطانها بقدر أكبر منذ معاهدة « اميان » عنه قبلها . . . وفى هذا الصراع سيشترى حيادنا شراء رخيصاً بالتنازل عن جزيزة نيو أورليانز وفلوريدا لأننا إن اشتركنا فى الحرب فإننا من المؤكد تستطيع الاستيلاء عليهما والاحتفاظ بهما وبأكثر منهما فى أمان .

ولو أنه يكون من غير الحكمة فينا أن ندع مثل هذه الفرصة تمر دون الحصول على المدخل الضرورى لإقليمنا حتى بالقوة إن لم يستطع الحصول عليه بطريق آخر ، فإننا لأكثر رغبة فى أن نحصل عليه بنعمة الحياد عن أن نبلغ ذلك بنقمة الحرب .

إن الحوادث التى وقعت فى فرنسا (والتى انتهت بأن أصبح بونابرت قنصلا مدى الحياة وتوج نفسه بعد ذلك فى ديسمبر سنة ١٨٠٤ إمبراطورا للفرنسيين) قد قللت فى العقل الأمريكى دوافع الاهتمام التى استشعرها نحو تلك الثورة ، وتعتمد صداقته لتلك البلاد على حبها للسلم والتجارة . ونحن ننظر — فى الوقت نفسه — بقلق عظيم إلى الموقف الذى وضعت فيه بريطانيا العظمى ، وسوف نتألم ألما كبيراً لو أن أية نازلة حرمت البشرية من فائدة ذلك الحصن القائم ضد السيل الذى حتى منذ مدة كل شىء أمامه . فالسلم هو عاطفتنا وقد تبعدنا المظالم عنه . وإننا نفضل أن نحاول دائماً الأخذ بمبادئ عادلة أخرى ، كالحق والأمن قبل أن نلجأ إلى الحرب .

مساحة الجمهورية تتضاعف بصفقة واحدة

إننى أتقبل بسرور ، وبسرور أبادل التهانى على امتلاك لويزيانا ، لأن هذا موضوع للتهنئة المشتركة ؛ فهو يهم كل شخص فى الأمة . وإن الإقليم الذى حصلنا عليه (فى سنة ١٨٠٣ مقابل ١٥ مليون دولار وسعته حول ٨٢٨٫٠٠٠ ميل مربع ثمن كل فدان منه حول

الثلاثة السنتات) ؛ لشموله جميع ميـــاه الميسورى والمسيسبى ، قد أضاف إلى مساحة الولايات المتحدة أكثر من ضعفها وليس الجزء الجديد أدنى من القديم فى التربة والجو والمنتجات والمواصلات الهامة .

وإن الحصول على نيو أورليانز قد كان فى ذاته شيئاً عظيماً ، إذ كان يضمن لإخواننا الغربيين وسيلة تصدير إنتاجهم ، ولكن الحصول على لويزيانا لا يمكن تقديره لأنه بانفرادنا بالسيطرة على المسيسبى أصبحنا بعيدين عن تلك المنازعات مع الدول الأجنبية التى تعرف معرفة أكيدة أنها كانت تؤدى بنا إلى حرب مع فرنسا مباشرة كما أصبح هذا يضمن لنا حياة أمة مسالمة .

سنحصل على فلوريدا أيضاً فى الوقت المناسب

إن الحدود التى أعتقد أنها لا تقبل المناقشة هى الأراضى العالية (جبال روكى) . على الجانب الغربى للمسيسبى محيطة بكل مياهه . . ولدينا بعض المطالب للتوسع على شاطئ البحر نحو الغرب إلى ريونورت Rio Norte أو برافو Bravo (أى ريو جراند Rio Grande فى المكسيك الاسبانية) وأفضل أن نذهب نحو الشرق إلى ريو بيرديدو Rio Perdido بين موبيل Mobile وبنساكولا Pensacola الحد القديم للويزيانا . وإن هذه المطالب ستكون موضوع التفاوض مع إسبانيا،وإن نحن فكرنا أن ندخل فى الحرب فإننا سوف ندفعها فى قوة بإحدى اليدين ونمسك بالثمن باليد الأخرى ، وبهذا يصبح من المؤكد أن نحصل على فلوريدا فى الوقت المناسب .

إن اعتراضات تقوم فى الشرق ضد الامتداد الواسع لحدودنا ، وتقوم اقتراحات باستبدال فلوريدا بلويزيانا أو أى جزء منها . ولكن ، كما قلت ، سوف نحصل على فلوريدا بدون ذلك ، ولن أعطى بوصة واحدة من مياه المسيسبى لأية أمة ، لأنى أرى من وجهة نظر هامة جداً لسلمنا أن لنا الحق المتفرد فى ملاحته وعدم السماح لأية أمة بالمشاركة فيه إلا كما نسمح بالدخول فى البوتوماك أو ديلاوير برضانا وفى ظل حراستنا ، وإن هؤلاء الفيديراليين يرون فى هذا الامتلاك تكوين اتحاد كونفيديرالى جديد يضم جميع مياه المسيسبى على كلا جانبيه ، وفصل مياهه الشرقية عنا . وإن هذه الاتحادات

تتوقف على ظروف كثيرة لا نستطيع أن نتنبأ بها حتى إننى لا أثق إلا قليلا بها ؛ ومن يستطيع أن يحدد المدى الذى قد يصل إليه عمل المبدأ الفيديرالى بطريقة فعالة ؟ فإن اتحادنا كلما كبر قل تأثره بالعواطف المحلية ، ومهما اختلف الرأى أليس من الأفضل أن نستوطن الشاطئ المقابل للمسيسبى بإخواننا وأطفالنا عن أن يستوطن بالغرباء من أسرة أخرى .

المتذمرون الفيديراليون — سياستنا الخارجية

إن هؤلاء المتذمرين أيضاً قلقون جداً خشية أن تنال الحكومة بعض التقدير الصغير للحصول على لويزيانا ، وينسبون ذلك إلى مصادفة الحرب ، وسوف يحسون المهانة لو أنهم رأوا سجل أعمالها منذ مايو سنة ١٨٠١ ، وهو تاريخ التنظيم للإدارة الحكومية . ولكن — خاصة منذ ابريل سنة ١٨٠٢ — سوف يرون أنه بالرغم من أننا لم نستطع تحديد الوقت الذى تنشأ فيه الحرب إلا أننا قررنا بقوة ما سوف يحدث عندما تنشأ . إننا لم نثر بمؤامراتنا الحرب ولكنا أفدنا أنفسنا بها حين حدثت . ولقد رأى الطرف الآخر القضية القائمة الآن التى أعلنا عنها بياناتنا وحكمة التضحية فى الوقت المناسب . ولكن حين يجعل هؤلاء الناس الحرب تعطينا كل شىء فإنهم يخولون لنا الحق فى أن نسألهم عما أعطتنا الحرب فى عهد حكمهم ؟

لقد كانت لديهم حرب ، فماذا جعلوها تجلب إلينا ؟ فبدلا من اتخاذهم من حيادنا أساس كسب لبلادنا كانوا من أنصار إغراقنا فى الحرب . ولو أنهم كانوا الآن فى الحكم لكانوا الآن فى حرب ضد فرنسا ؛ إذ كانوا من المؤيدين لجعل بلادهم تابعة لإنجلترا . أما نحن فأصدقاء فى ود وإخلاص ولسنا معادين لفرنسا ، وسنلتزم العدالة الصارمة والصداقة المخلصة لكليهما .

ونحن حريصون على أن نرى انجلترا محافظة على مركزها ، ولا نرغب إلا فى أن تستخدم قوتها على المحيط بعدل . ولو أنها فعلت هذا فيما مضى فإن الأمم الأخرى ما كانت لتقف جانباً وتنظر بعدم اكتراث إلى صراع يهدد وجودها . وإننا لسنا غير محتفلين بنتيجته ؛ كما لا ينبغى ألا نكون كذلك فيما يتصل بصراع يتعرض بسببه

وجود فرنسا للخطر . فنحن نعد كلا منهما أداة ضرورية لوقف ميل الأخرى للسيطرة المستبدة على غيرها من الأمم .

إلقاء الدقائق الميتافيزيقية جانبا

إن هذه المعاهدة يجب أن تعرض بالطبع على كلا المجلسين ؛ لأن لها كليهما وظائف هامة يمارسانهما فيما يتصل بها ؛ وأعتقد أنهما سيريان واجبهما نحو بلادهما فى التصديق عليها ودفع نفقاتها حتى يحققا خيراً قد لا يكون فى قدرتهما أبداً فعله عن غير هذا الطريق . ولكنى أرى أنه لا بد من أنهما يخاطبان الأمة من أجل إدخال مادة إضافية فى الدستور لتؤيد وتوافق على عمل لم تخول سلطة مباشرته من قبل ؛ فالدستور لم يضع أى إجراء احتياطى لاستيلائنا على إقليم أجنبى ؛ وأقل من ذلك لضم أمم أجنبية لاتحادنا . وإن أعضاء الهيئة التنفيذية فى انتهازهم لحدث وقتى يخدم صالح بلادهم خدمة جليلة قد أقدموا على عمل خارج حدود الدستور . وإن الهيئة التشريعية فى إلقائها ظهريا الدقائق الميتافيزيقية ومخاطرة أعضائها بأنفسهم كموظفين أمناء لابد وأن يصدقوا على المعاهدة ويدفعوا نفقاتها ، وأن يلتجئوا إلى بلدهم لقيامهم من أجلها دون سلطة مخولة لهم بما نعرف أنهم قد كانوا يفعلونه لأنفسهم لو أنهم كانوا فى مركز يمكنهم من ذلك .

وهى حالة الوصى الذى يستثمر نقود القاصر الذى يرعاه فى شراء أرض هامة مجاورة ، ويقول له عندما يبلغ سن الرشد : « إننى فعلت هذا لصالحك ، وإنى لا أدعى أى حق لإلزامك ؛ إذ يمكن لك أن ترفض ما أبرمت ؛ وعلىّ أن أخرج من المأزق بقدر ما أستطيع ، ولقد رأيت أن من واجبى أن أخاطر بنفسى من أجلك » . ولكن الأمة لن تنكرنا ، وإن إعفاءها لنا من الخسارة سيؤيد الدستور ولا يضعفه ، وذلك بتبيان خطوطه بمزيد من القوة .

صدقوا على المعاهدة قبل أن يغير نابليون رأيه

هنالك من الأسباب ما يدعو إلى الخشية من أن حكومة فرنسا قد تكون غير

مقتنعة تماماً بصفقتها معنا وأنها ستنتهز أى عذر تستطيع أن تضع يدها عليه لتلغى المعاهدة . وإنها بذلك تجعل من الضرورى أن يقوم كلا مجلسى الكونجرس بأدوارهما الخاصة دون تأخر يوم واحـــد ، وأن يقال أقل قدر ممكن من الكلام عن الصعوبة الدستورية .

وإنى لأعترف أنى أرى من المهم فى هذه الحالة أن نضرب مثلا ضد التزام النص الدستورى وتنسيق الكلام وتنميقه بالاستئناف إلى الشعب لمنح سلطة جديدة . ومع ذلك إن رأى أصدقاؤنا غير ذلك فمن المؤكد أنى أقبل رأيهم برضا معتقداً أن رجاحة عقل بلادنا سوف يصلح شر النص حين ينتج آثاره السيئة . وكلما قل الكلام عن الصعوبة الدستورية كان ذلك أفضل ، وإنه لمن المرغوب فيه أن يفعل الكونجرس ما هو ضرورى فى صمت .

إننى أعترف بأنها عمل عظيم

لقد كان « حل العقدة » موفقاً ، وإنى لأعترف أننى أعد تضاعف المساحة لامتداد حكومة حرة واقتصادية مثل حكومتنا عملا عظيما لعظم السعادة التى ستنتج عنه . ولقد تقرر الموضوع عند التصديق عليه فى مجلس الشيوخ بأربعة وعشرين صوتاً ضد سبعة أصوات ، مما جعل المجموع يزيد عشرة عن العدد الكافى . كما أن الاقتراع فى مجلس النواب لإعداد العدة لتنفيذه قد تم بتسعة وثمانين ضد ثلاثة وعشرين بأغلبية ستة وستين ، وتمر القوانين اللازمة فى المجلسين بأغلبيات أعظم .

ومع ذلك فإن بعض الفيديراليين الجامدين قد جرءوا على مقاومة الرأى العام . وإن هذا الموقف سيقرر خلقهم مع العالم ومع أحفادنا الذين لتجردهم عن النزول إلى نقط الخلاف الأخرى بيننا سيحكمون عليهم بهذه الحقيقة المحسوسة بدرجة تجعلها تتكلم عن نفسها فى جميع الأزمان والأماكن؛ فشراؤنا لويزيانا صفقة محفوفة بالبركات لملايين الناس الذين لم يولدوا بعد .

فطالما تضمن ملكية المسيسبى والسيادة عليه وعلى مياهه منفذاً مستقلا لمحصول

الولايات الغربية ، وملاحة غير مقيدة خلال جميع مجراه ، وحرة من الاصطدام بالدول الأخرى ، ومن الأخطار التى تتهدد سلامنا من ذلك المصدر ، فإن خصب الإقليم ومناخه وسعته تبشر فى الوقت المناسب بمساعدات هامة لخزانتنا العامة ، وإمداد وفير لأحفادنا ، ومجال واسع لنعم الحرية والقوانين المتساوية .

موت ماريا بين هذه الانتصارات

إننى لم أعرف كنه مرضك يا عزيزتى ماريا سوى هذا الصباح . ولم يكن ليحول بينى وبين الحضور إليك إلا استحالة تقدم الكونجرس خطوة واحدة فى أثناء غيابى . فالله يباركك يا ابنتى العزيزة ويحفظك سالمة لبركتنا جميعاً .

إن خطابك يا عزيزتى مارثا قد أعاد إلىّ الحياة مرة ثانية ، فلقد استولى علىّ فى الأربعة الأيام الأخيرة قلق لا يمكن التعبير عنه . فأخبرى عزيزتى ماريا بأن تكون مستبشرة وتواصل الكتابة إلينا عن صحتها مع كل بريد .

إن ضعف ماريا سيحتاج إلى عناية خشية أن تتحول الحمى إلى تيفوس إذا عادت . . . وإن شراب الشرى فى مونتيسلو قديم ونقى ، كما أن البدرو اكسيمنيس Pedro Ximenes أكثر قدماً ونافع لعلاج المعدة . والبيت ومحتوياته وملحقاته وخدمه خاضعة لك (زوج ماريا جون ويلز أبس John Wayles Eppes) خضوعها لنفسى ، وإنى لأرجو تبليغ أخلص حبى إلى ماريا وباتسى وجميع الأطفال الصغار .

إن خسارتى (بموت ماريا فى ١٧ من إبريل سنة ١٨٠٤) خسارة عظيمة حقاً . إن الآخرين قد يخسرون من وفرتهم ، ولكنى من عوزى فقدت حتى نصف جميع ما كان عندى . فآمال مسائى تتعلق الآن على خيط دقيق لحياة واحدة . وربما يكون مقدراً علىّ أن أرى حتى هذا الحبل الأخير للحب الأبوى ينبتّ . وإن الأمل الذى تطلعت به إلى اللحظة التى فيها أسلم مقاليد السياسة العامة إلى أيدى الشباب وألجأ إلى الراحة البيتية التى منها تؤخذ الخطوة العظيمة الأخيرة ، قد ذبل ذبولا مروعاً .

ثمار ثورة ١٨٠٠

إن الاستغناء عن ضريبة الأراضى ، وضريبة الدمغة ، والضرائب الداخلية الأخرى ،

ومليء مكاتها باتباع سياسات اقتصادية تسند الحكومة بطريقة ملائمة ، وتخصص سبعة ملايين وثلاثمائة ألف ريال سنوياً بطريقة منتظمة لدفع الدين العام ، وقطع نسبة كبيرة من النفقات على الجيوش والبحرية ، ومع ذلك تحمي بلادنا وتجارتها بما يتبقى ، وشراء بلد واسع سعة البلد الذى كنا نملكه من قبل وأكثر منه خصباً ، ومع ذلك لا نطلب ضريبة جديدة أو جندياً آخر يضاف إلى قوتنا العسكرية ، ولكن نهيئ الوسائل التى بها سيدفع ذلك البلد بدخله الخاص نفقاته الخاصة قبل أن يحل ميعاد دفع نقود الشراء ، وحفظ السلام مع جميع الأمم وخاصة الصداقة المتساوية مع الدولتين العظيمتين المتنافستين فرنسا وانجلترا ، وصيانة الثقة المالية للأمة وخلقها على أعلى مستوى بلغته — كل هذه إجراءات أرى أنها يجب أن تصالح المجموعة الكبيرة من أولئك الذين ظنوا أنفسهم أعداءنا ولكنهم فى الحقيقة أعداء فقط لبعض الشخصيات الثائرة الملحدة الفوضوية الخيالية التى لم توجد إلا فى أرض الأشباح والكائنات المخلوقة لتخويف السذج والبسطاء .

إننى حقاً أعرف بعض الشخصيات التى بلغت من الشهرة درجة لم تحاول معها التراجع والانسحاب ، وكانت من الكبرياء والحماسة بحيث لم تستطع معها أن تلين ، ومن الجشع فى طلب المنصب والكسب حتى عجزت عن أن تهجر أمانيها ، والتى غطت ولاءها للملكية تحت رداء الفيديرالية والتى لا يمكن أن تشفى أبداً من عداواتها . وهؤلاء من المجانين الذين لا يرجى لهم شفاء والذين تستعد أبواب مستشفى المجانين الكريهة لاستقبالهم .

إننى سعيد إذ أسمع أن هيئاتنا المالية على الأقل لا تحتفظ بروح المعارضة للإرادة القومية . فكل هدف من أهدافنا فى الداخل أو الخارج قد تحقق بطريقة مرضية ما عدا نقص العداء للمصلحة العامة الذى يبقى فى مدننا التجارية العظيمة . . فلو أنها ليست جزءاً من خمسة وعشرين من الأمة إلا أنها تسيطر على ثلاثة أرباع صحفها العامة ، أما أنها تذعن لإرادة الأغلبية الكبيرة فليس سوى أمل معقول ، ومع ذلك فإنى الهدف الوحيد لعداوتها المتجمعة . وإنى لا أحفل بهذا الآن . فهى لا تستطيع أبداً

أن تثير ألماً في ذهني بأي شيء شخصي ولكني أريد أن أوحد الأمة وأن أرى أفراد هذه الهيئات مجردين ، إما من الرغبة في إيذاء بلادهم وإما من القدرة على ذلك .

المحافظون الرجعيون — الحمر والبيض

لقد نظرت إلى السكان الأصليين بالحنان الذي يوحي به تاريخهم ، فعلى حين أنهم وهبوا قدرات الإنسان وحقوقه ، وكانوا يتنفسون حباً قوياً للحرية والاستقلال ، ويشغلون بلداً لم يترك لهم رغبة سوى طلب الهدوء وعدم الإزعاج ، اتجه إلى هذه الشواطئ تيار فياض من السكان القادمين من أقاليم أخرى . وإذ كانوا مجردين من القوة لتفاديه ، أو العادات لمقاومته فقد اجتاحهم التيار أو ساقهم أمامه ، والآن وقد نقص عددهم واضطروا للانكماش داخل حدود أضيق من أن تتسع لممارستهم الصيد فإن الإنسانية تفرض علينا أن نعلمهم الزراعة والفنون المنزلية .

ولكن الجهود المبذولة في تعليمهم وإنارتهم قد لقيت مقاومة من نفوذ أفراد مغرضين وماكرين من بينهم من يشعرون أنهم شيء في النظام الحاضر للأشياء ، ويخشون ألا يصبحوا شيئا في أي نظام آخر ؛ فهؤلاء الأشخاص يعلمون الإجلال المقدس لعادات آبائهم ، وان أي شيء يعملونه يجب أن يعمل طوال الزمن ، وأن العقل دليل زائف ، وان السير بقيادته في الحالة المادية أو المعنوية أو السياسة بدعة خطرة ، وان واجبهم هو أن يظلوا كما صنعهم خالقهم ؛ فالجهل هو السلامة ، والمعرفة مملوءة بالخطر . وبالإجمال — يا أصدقائي — يرى بينهم العقل ورد الفعل لرجحان العقل والتعصب . فهم أيضاً لديهم أعداء الفلاسفة الذين يرهبون الإصلاح ويبذلون كل قواهم ليحافظوا على سيادة العادة على واجب تحسين عقلنا وطاعة أوامره .

مرشح لرياسة الجمهورية لفترة ثانية

إنني آسف فعلا إذ اضطرتني افتراءات الحزب الفيدرالي التي لا حد لها إلى أن أحتكم إلى بلادي لتقضي في هذا الاتهام بعد أن كانت رغبتي العظمى تتجه نحو الاعتزال في نهاية فترة الحكم الراهنة إلى حياة يسودها الهدوء ، وقد كان ذلك

غرضى المقرر حين دخلت المنصب : فهم فرضوا علىّ الاستمرار . ولو استطعنا أن نحتفظ بسفينة الدولة ثابتة فى مجراها مدة أربع سنين أخرى فإن أغراضى الدنيوية سوف تتحقق .

إن الروح الجمهورية ليست بالغة قوتها القديمة ؛ فخمسة أسداس الشعب معنا . وإن أربع عشرة من السبع عشرة ولاية تناصرنا مناصرة تامة ، وستؤيدنا اثنتان من الثلاث الباقية بعد سنة واحدة . وقد كنت لأعتزل الحكم فى نهاية فى السنين الأربع الأولى لولا الحمل الكبير من افتراءات المحافظين الرجعيين التى اختلقت عنى وملأت الأسواق الأوربية ، الأمر الذى اضطرنى إلى أن أستأنف مرة أخرى لبلادى التماسا لتبرير مسلكى . ولا خوف لدىّ إلا أننى سأحصل على شهادة شريفة بحكمهم على هذه الافتراءات . أما فى نهاية الأربع السنين التالية فمن المؤكد أننى سأعتزل الحكم . فالسن والميل والمبدأ كلها جميعاً تملى هذا .

لفترة ثالثة فقط إن هددنا بعودة الملكية

لقد كان رأيى الأول أنه ينبغى أن ينتخب رئيس جمهورية الولايات المتحدة لمدة سبع سنين وألا يصلح للترشيح بعد ذلك أبداً . ولكنى أدركت منذ ذلك الوقت أن سبع سنين طويلة طولا يجعله ثابتاً ، وأنه يجب أن تكون هناك وسيلة سلمية لعزل الرجل الذى يقع فى الخطأ فى منتصف الطريق ؛ فالخدمة مدة ثمانى سنين مع القدرة على الانسحاب فى نهاية السنين الأربع الأولى تقترب من مبدئى كما تصححه التجربة ؛ وإننى اتباعاً لذلك المبدأ أقرر الانسحاب فى نهاية فترتى الثانية . والخطر فى أن حب الشعب وتعلقه سوف يبقى الشخص فى كرسى الحكم بعد أن يصبح خرفا ، وإن إعادة الانتخاب خلال الحياة سوف يصبح عادياً ، ويتبعه الانتخاب مدى الحياة . وقد وضع الجنرال واشنطون المثل للاعتزال الاختيارى بعد ثمانى سنين وسأتبعه ، وإن مزيداً من سوابق قليلة سيقاوم عقبة العادة لدى أى شخص بعد حين إذا ما حاول مد فترته . وربما يلد ميلا إلى إقراره بتعديل الدستور :

ولقد عزمت على أن أعلن قصدى ولكن وافقت على أن ألتزم الصمت بناء على رأى أصدقائى الذين يرون من الخير ألا أخرج احتمال الاستمرار من قدرتى تحدياً لجميع الظروف . ومع ذلك فليس هنالك سوى ظرف واحد يفرض قبولى انتخاباً آخر ، وأعنى بذلك وجود انقسام حول خلف لى مما قد يأتى بملكى إلى منصب رئيس الجمهورية . ولكن ذلك الظرف مستحيل ، ومن ثم فعلى حين أننى لن ألقى بياناً رسمياً للشعب عن غرضى ، فإنى جعلت ذلك مفهوماً فى حديثى الخاص .

أعيد انتخابه بكثرة ساحقة فى سنة ١٨٠٤

إن الحزبين اللذين سادا عن طريق العنف كادا يندمجان فى حزب واحد ؛ فلقد حصلت فى انتخاب رياسة الجمهورية الأخير على مائة واثنين وستين صوتاً ضد أربعة عشر فقط (نالها المرشح الفيديرالى شارلز بنكنى من كارولينا الجنوبية Charles C. Pinckney) ولا تزال كونيكتيكت فيديرالية بأغلبية صغيرة وديلاوير لا تزال مترددة كما كانت منذ سنة ١٧٧٥ ، وستبقى كذلك حتى يتحول أنصار الإنجليز فيها إلى الإيمان بأمريكيتهم . وستكون كونيكتيكت معنا بعد وقت قصير . فمع أن الناس فى مجموعهم قد انضموا إلينا إلا أن زعماءهم ذهبوا شوطاً بعيداً فى العداء يصعب عليهم معه أن يتراجعوا . وإن الكبرياء تبقيهم أعداء لنا فهم يديمون التفكير فى شهواتهم الخانقة ويعبرون عنها فى الصحف التى يصدرونها : ولا يزالون يحدثون ضوضاء شديدة كأنهم الأمة بأجمعها :

إن مدفعية الصحافة قد صوبت نحونا وهى محشوة بكل ما تستطيع إباحيتها أن تبتكر أو تجسر عليه فى هذه الفترة من حكمنا بقصد الإزعاج ونشر الاضطراب ؛ فهذه الافتراءات التى تصدر عن مؤسسة مثل الصحافة بالغة الأهمية للحرية والعلم ، تثير من الأسف العميق قدر ما تنزع إلى تقليل نفعها والقضاء على سلامتها . . . كما أنه ليس من اليسير أن تعمل تجربة بطريقة كاملة نزيهة (إذا كانت حرية الصحافة غير مكفولة ، أو كانت من الهزال بحيث لا تجرؤ على نشر الحقيقة وحمايتها ، وإنه من اليسير للصحافة الدنيئة أن تثير حملة بالباطل للتشهير بحكومة تستهدى فى سياستها الروح الحقيقية للدستور بحماسة وطهارة ، ولا تأتى فعلا لا ترغب فى أن يشاهده العالم كله) ؛

وقد تمت التجربة وشاهدها زملاؤنا من المواطنين فى هدوء ورباطة جأش ، ورأوا المنبع الخفى الذى تصدر عنه هذه الاقتراءات ، واجتمعوا حول موظفيهم العاملين ، وعند ما ناداهم الدستور لإصدار قرار بالاقتراع أعلنوا حكمهم وهم شرفاء للذين خدموهم مؤيدين صديقهم الذى يعتقدون أنه يمكن أن يؤتمن على شئونه الخاصة .

إن همنا أن نسير فى استقامة إلى الأمام نحو الهدف الذى شغلنا مدى ثمان وعشرين سنة دون التفات إلى اليمين أو إلى الشمال ؟ . وعند ما ننتهى من ذلك فأنت (جورج كلينتون نائب رئيس الجمهورية المنتخب حديثاً George Clinton) وأنا قد نعتزل الحكم إلى الهدوء الذى بدأت أعمارنا تنادى به ونعيد النظر برضى إلى جهود العصر الذى صادف أننا ولدنا فيه وهى متوجة بالنجاح الكامل . وفى ساعة الموت سيكون لدينا العزاء فى أن نرى أروع عمل للحكمة والوطنية النزيهة ظهر فى العالم وقد استقر فى أرض آبائنا .

الفصل الرابع عشر

أعشق السلام

إن الصلاة من أجل السلام التى رتلها جيفرسون فى خطابه الثانى لافتتاح رياسة الجمهورية فى ٤ من مارس سنة ١٨٠٥ كانت صلاة رددها قسرا مرات كثيرة أثناء السنين الأربع التالية . وحتى فى ذلك الوقت كانت سموات أمريكا المفعمة هدوءاً ورفاهية ملبدة بغيوم العلاقات المضطربة مع اسبانيا حول حدود لويزيانا الغامضة المعالم ، وقد جدد استئناف الحرب الأوروبية فى سنة ١٨٠٣ تهديدات خطيرة لحقوقها الحيادية والقومية .

فإن جيفرسون — وهو توسعىّ متحمس — أصر على أن لويزيانا تشمل فلوريدا الغربية (من نيو أورليانز إلى بينساكولا) وربما تكساس . وفوق ذلك فقد أمل فى أن يقنع اسبانيا بأن تتنازل عن فلوريدا الشرقية (شبه جزيرة فلوريدا) مقابل ادعاءات السلب التى يطالب بها الأمريكيون ضدها . وحاول عدة مشروعات ليحصل على فلوريدا وما يمكن الحصول عليه من تكساس . وفكر فى سنة ١٨٠٥ فى اقتراح حلف مؤقت مع انجلترا ينفذ فقط إذا اضطررنا للدخول فى حرب مع اسبانيا وحليفها نابليون . وحاول بعد ذلك حلا سلميا بتقديم ثمن نقدى عن طريق فرنسا . ولو أنه لم ينجح بسبب تيارات السياسة الأوروبية المتغيرة فقد وضع أساس سياسة أكملت فى سنوات قليلة الحدود الجنوبية ، وجعلت خليج المكسيك بحيرة أمريكية .

وحين توترت العلاقات مع انجلترا بسبب السخرة التى فرضتها بحريتها التى كانت تنقصها الأيدى العاملة والأسر الذى قامت به فى ظل المبادئ « الدخيلة على قانون الأمم » لجأ جيفرســون إلى أسلحته المفضلة التى تقوم على الدبلوماسية والقهر الاقتصادى . وبدأ فى سنة ١٨٠٦ المفاوضات فى لندن ، وجعل الكونجرس يوافق على تشريع بالمقاطعة الجزئية ضد الواردات البريطانية (وإن كان مع ذلك لم يضعه موضع التنفيذ حتى سنة ١٨٠٧) . ولسوء الحظ رفضت انجلترا أن تسلم بالنقطة

الواحدة التى تمسك بها جيفرسون . وهى إلغاء العادة الوحشية المهينة المنافية للإنسانية التى كان يباشرها الإنجليز فى القبض على البحارة الأمريكيين (على أساس أنهم كانوا رعايا بريطانيين) وتسخيرهم فى السفن الحربية البريطانية . وإن رفضها كان نذيراً بالشؤم بالنسبة لمستقبل العلاقات الإنجليزية والأمريكية .

وفى هذه الأثناء كان جيفرسون مصمما على سحق المؤامرة الغامضة التى دبرها آرون بر Aaron Burr وهى « أغرب مؤامرة منذ أيام دون كيشوت » ؛ فقد صدم صدمة عنيفة بتفسير و مناورات رئيس القضاة جون مارشال John Marshall الفيديرالى الرجعى وعدوه الشخصى اللدود الذى برأ « بر » على أساس أنه لم يثبت ضده أى فعل علنى للتآمر . ومع ذلك فقد وجد رضا نفسيا كبيراً ؛ إذ أثبتت مسألة بر إثباتاً قوياً جعل الشعب المتحمس يتعلق بالاتحاد الأمريكى .

وبالرغم من الصعاب الأجنبية والداخلية فإن السنتين الأوليين من فترة حكمه الثانية امتازتا باستمرار السلم والرخاء بصورة لم يسبق لها مثيل بحيث عم خيرها الجميع . فجمهورية العالم الجديد المكونة من الفلاحين كانت مخزن حنطة للمتحاربين فى العالم القديم . وبحريتها التجارية لم تكن ثابتة إلا للبحرية البريطانية فى الحمولة ، كانت تنحو نحواً خاطفاً وتكسب أرباحاً خيالية . وقد كان الدخل من التجارة النامية عظيما حتى تجمع قبل سنة ١٨٠٧ فائض فى الخزانة العامة ، واستطاع جيفرسون أن يخرج مشروعاً رائعاً للأشغال العامة قومياً فى مجاله ربط الاتحاد الأمريكى بروابط جديدة لا تنفصم عراها . ولو أمكن للسلم أن يبقى لأمكن استخدام الدخل الفائض فى إقامة جامعة قومية وبناء الطرق والقنوات والتحسينات الداخلية الأخرى لدفع التقدم السريع لأمريكا المزدهرة الناجحة التى سماها جيفرسون (وهو يقدم تقريراً عن مكتشفات ميريويذر لويس Meriwether Lewis ووليم كلارك William Clark) : « الآن بفخار قارتنا » .

وإن رئيس الجمهورية الفيلسوف كان مهتما غاية الاهتمام بكل تفصيل من تفاصيل المسح العلمى الذى أشار على لويس وكلارك بأن يقوما به لصحراء لويزيانا الشاسعة . وخطر له أن « المعزى المكسوة بالصوف » قد تكون حقيقة « اللاما » الخاصة بأمريكا

الجنوبية . ودعا الدكتور وستار Wistar من فيلادلفيا ليدرس عظام « الماموث » التي أرسلها كلارك إلى البيت الأبيض . وداوم على عادته من أداء عمليات الزراعة والتحسينات في مونتيسلو ووجد وقتاً من واجباته الرياسية ليكتب خطابات ودية إلى أحفاده ، إلى كورنيليا راندولف التي بدأت تتعلم كيف تكتب ، وإلى توماس جيفرسون راندولف الذي أرسله إلى فيلادلفيا لتلقي تعليمه بمقال عن أهمية روح المرح . واعترف قبل أن تبلغ فترة حكمه الثانية منتصفها بأنه « مشوق لاعتزال الحكم » واللجوء إلى مونتيسلو ، وعلى أساس من الاعتبارات الشخصية والعامة لم يشجع مطالب الطالبين إليه بأن يخدم فترة ثالثة .

وإن الاعتداء البريطاني في يونية سنة ١٨٠٧ على السفينة الحربية « تشيزابيك » Chesapeake قد دفع مسألة السخرة إلى الأمام وجعلها تبلغ أقصى حد من التأزم ، وأثار ضجيجاً ومطالبة على نطاق قوي بالحرب . فقاوم جيفرسون الدعوة إلى الحرب وطلب تعويضات ونهاية السخرة . ولم يحصل على أي من المطلبين من بريطانيا الرجعية التي كان مسلكها نحو المستعمرات السابقة « غير ودي » و « متعال وفظ » . وقبل أن تستطيع أمريكا أن تشفي من هذه الضربة التي بلغت أعماق المهانة القومية نفسها ، هوجمت بقرارات مضادة للحياد من كلا الفريقين المتحاربين ؛ وهددت أوامر المجالس البريطانية والقرارات الفرنسية بإبعاد تجارتها من المحيط أو بإجبارها على الحرب مع كلتا الدولتين . فلم تكن إجابة جيفرسون على هذه القرارات إعلان الحرب ، ولكن المقاطعة التي وافق عليها الكونجرس في ديسمبر سنة ١٨٠٧ ، وقد قصد بها حماية السفن والبضائع والبحارة بإبقائهم في الميناء ، وكان يأمل بهذا أن يحقق غرضاً هاماً جداً وهو أن منعه المواد الغذائية والمؤن الأخرى عن المتحاربين قد تضطرهم لأن ينصفوا أمريكا .

وكانت المقاطعة تجربة جريئة في القهر الاقتصادي القائم على التضحية بالنفس ، وهي آخر ورقة تسبق الحرب ، ولو أنها عورضت بشدة وأغفلت على نطاق واسع بوساطة التجار الفيدراليين في الشمال الشرقي ، إلا أن الشعب في سنة ١٨٠٨ أظهر موافقته بأن انتخب لرياسة الجمهورية الخليفة الذي اختاره جيفرسون وهو صديقه

جيمز ماديسون ، ومع ذلك فإن المقاطعة عجزت عن فرض إلغاء أى من الأوامر البريطانية أو القرارات الفرنسية . وكان جيفرسون يرى شخصياً أن الحرب هى البديل الوحيد (ولم يفكر فى الخضوع أو الجزية) ولكن بعد الانتخاب اتبع سياسة عدم اقتراح إجراءات كان على خلفه أن ينفذها ، فالقرار ترك للكونجرس ؛ ففى الأيام الأخيرة من إدارته استبدل الكونجرس بدافع الخوف من تهديدات الانفصال فى نيو انجلند بالمقاطعة شكلا أضعف كثيراً من أشكال القهر الاقتصادى المتمثل فى قانون عدم الاتصال لسنة ١٨٠٩ . وأعاد هـذا فتح التجارة مع جميع الأمم عدا انجلترا وفرنسا ، وخول السلطة فى التعامل مع المتحاربين عندما يلغون قرارتهم فقط . وتستمر الاستعدادات الحربية فى الوقت نفسه .

وقد أنهى جيفرسون سنيه الثمانى فى رياسة الجمهورية فى ٤ من مارس سنة ١٨٠٩ ممهداً السبيل أمام صديقه وتلميذه جيمز ماديسون ، وأسف أنه لم يستطع أن يترك الأمة فى ظل التأكد من السلم والرفاهية المتصلة ، ولكنه وجد العزاء فى اعتقاده أنه فعل كل شىء فى مقدوره ليكفل تلك النعم . وكان هذا اعتقاداً آمن به معه كثرة عظيمة من الأمريكيين الذين انتهزوا هذه الفرصة ليراجعوا ويثنوا على أعماله التى حققها ، لا فى سنى رياسته للجمهورية وحسب وإنما فى السنين الأربعين من حياته العامة . وإذ كان يستعد ليركب عائداً إلى بيته فى مونتيسلو « سجيناً أطلق سراحه من سلاسله » أحس قلبه الدفء بثناء إخوانه المواطنين الشاكرين فى جميع أنحاء الجمهورية التى خدمها طويلا وأحسن خدمتها .

صلاة من أجل السلام

إننى سأستأنف الآن القيام بواجباتى التى انتخبنى إخوانى المواطنون مرة ثانية لأدائها ، وسأواصل ذلك بروح تلك المبادئ التى وافقوا عليها . . وسوف أحتاج فى هذا إلى كل التسامح الذى جريت عليه من قبل . . وسأحتاج أيضاً إلى عون ذلك « الكائن » الذى نحن فى يديه ، والذى قاد أجدادنا كما قاد إسرائيل فى القديم من أرضهم الأصلية ، وأقرهم فى بلد يفيض بجميع ضروريات الحياة ومقومات راحتها ،

والذى شمل طفولتنا بعنايته ، وسنى نضجنا بحكمته وقوته ، والذى إلى فضله أطلب إليكم أن تشاركونى فى التوسل أن ينير عقول موظفيكم ويهدى مجالسهم ويوفق إجراءاتهم ، وإن أى شىء يفعلونه سينتهى بتحقيق الخير لكم ، وسيكفل لكم السلام والصداقة والثناء من جميع الأمم .

العلاقات المضطربة مع اسبانيا

إن مفاوضاتنا مع اسبانيا لتسوية الخلافات لم تصل إلى نتيجة مرضية . فقد رفضت دفع التعويض عن أعمال السلب فى أثناء الحرب السابقة والتى اعترفت رسمياً بمسئوليتها عنها . . . وإن نفس الأعمال تجددت فى الحرب الحاضرة وبلغت الآن قدراً كبيراً : فتجارتنا المارة بنهر « موبيل » لا تزال تعطل بالرسوم المجحفة والتفتيشات المزعجة . ولم يوافق على الاقتراحات بتسوية حدود لويزيانا بطريقة ودية . . . ، وحدثت غزوات حديثاً فى إقليمى أورليانز والمسيسبى ، وقبض على مواطنينا وسلبت ثروتهم فى نفس أجزاء الإقليم الأول التى تنازلت عنها اسبانيا لنا ، وقام بكل هذا الضباط والجنود النظاميون فى تلك الحكومة . فوجدت لهذا أن من الضرورى أخيراً أن أعطى الأوامر لجيوشنا على هذه الحدود لتكون مستعدة لحماية مواطنينا ، وأن ترد بالسلاح أية اعتداءات مشابهة فى المستقبل .

إننى أستنتج من الأوراق التى تسلمتها (من وزيرنا فى مدريد) أنها تعتمد فى وثوق على قوة بونابارت ، وأنها ترغب فى المماطلة حتى يتركنا السلم فى أوربا دون حليف . وإننى متأثر تأثراً قوياً بالاعتقاد أن هنالك نوايا عدائية وغادرة ضدنا من جانب فرنسا ، وأنه يجب علينا ألا نضيع وقتاً فى الحصول على شىء أكثر من صداقة متبادلة مع إنجلترا :

محاولة توسع آخر

يبدو الآن مؤكداً أن الحرب فى القارة الأوربية ستمتد وتتسع ، وأن السلم سوف يتأجل سنة على الأقل ، فأصبحنا الآن فى موقف مريح من ناحية الزمن .

وقد نقوم بمحاولة أخرى لإجراء تسوية سلمية مع اسبانيا دون خطر من أن نترك وحدنا لمنازلة كل من فرنسا واسبانيا ، وحتى ان دفعنا إلى الحرب فهنالك الآن ما يدعو إلى النظر فيما إذا كان من الأفضل لنا أن ندخلها دون تقييد أنفسنا بحلف مع إنجلترا حتى يمكن لنا أن نكون أحراراً فى الانسحاب عندما نحصل على شروطنا : وسؤالنا هو : بأى طريق نعطى اسبانيا فرصة أخرى لتسوية الموقف ؟ أليست باريس المكان ؟ وفرنسا الوكيل ؟ وشراء فلوريدا الوسيلة ؟

واقترحت (على مجلس الوزراء فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٨٠٥) أن نتقدم بخطابنا إلى فرنسا وأن نخبرها أن ذلك محاولة أخيرة للوصول إلى تسوية ودية مع اسبانيا ، وأن نقدم إليها أو عن طريقها :

١ — مبلغاً من المال مقابل حقوق اسبانيا شرقى ايبرفيل Iberville أى فلوريدا .

٢ — التنازل عن الجزء من لويزيانا من « ريو برافو » (أى ريو جراند) إلى جوادالوپ .

٣ — أن تدفع اسبانيا فى حدود وقت معين تعويضاً عن أعمال السلب التى اقترفت بعلمها الخاص ، والتى ووفق عليها بوساطة المؤتمر (وتقدر بمائة سفينة قيمتها مليونان) وعن أعمال السلب التى تلت ذلك (وهى تساوى نحو القيمة الأولى) وأن ترهن لنا مقابل دفع تلك المبالغ الإقليم من جوادالوب إلى ريو برافو . . . وإن الاقتراح الأول سيكون دافعاً مثيراً مع فرنسا ، إذ أن اسبانيا متخلفة فى دفع إعانات مالية إليها ، كما أن فرنسا ستسر أيضاً كى تضمن عدم انضمامنا إلى كفة ميزان إنجلترا . والاقتراح الثانى سيكون دافعاً مسكناً مع اسبانيا وسوف تؤيده فرنسا بإخلاص لأنها ادعت الحق فى ريو برافو . والاقتراح الثالث يقصد إلى تهدئة تجارنا .

وقد ووفق على هذه الاقتراحات بالإجماع واستقر الرأى على ألا يزيد المبلغ المقدم على خمسة ملايين دولار . ولم يمل مستر جالاتين Gallatin إلى شراء فلوريدا فى ظل الخوف من الحرب خشية أن يظن بنا أننا فى الواقع نشترى السلم . ورأينا أن هنالك ما يرجح هذه الحجة فى انتهازنا لفرصة قد لا تحدث ثانية وهى الحصول على إقليم جوهرى لسلامنا ولأمن تجارة المسيسبى .

أعمال الأسر والسخرة البريطانية

إن شواطئنا قد ابتليت وموانينا روقبت بالسفن المسلحة مما أدى إلى الاضطهاد العظيم لتجارتنا والإساءة إليها . وأدخلت كذلك مبادئ جديدة على قانون الأمم : . ووفق هذه المبادئ يستبيح المحارب (مثل بريطانيا العظمى فى أسر السفن الأمريكية المشتغلة بالتجارة غير المباشرة بين فرنسا واسبانيا ومستعمراتهما فى الهند الغربية) لنفسه التجارة مع عدوه الخاص مما ينكره على محايده على أساس معاونته ذلك العدو فى الحرب ، ولكن العقل يثور على مثل هذا التناقض .

لقد كان من المعتقد أن حقوق الحايد فى أن يواصل التعامل التجارى مع كل جزء من ممتلكات المحارب التى تسمح بها قوانين البلاد (ما عدا الموانى المحاصرة وتجارة الحرب المحظورة) قد تقررت بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بوساطة ما دفعته بريطانيا من تعويض فعلى للخسائر التى نجمت عن انتهاكها لذلك الحق . ولهذا عندما رئى أن نفس المبدأ قد تجدد مع مبادئ أخرى أكثر جدة ، وامتد الضرر ، أعطيت التعليمات لوزير الولايات المتحدة الخاص فى بلاط لندن ليصمم على التمسك بالحقوق التى تبلغ من الوضوح والأهمية مبلغا لا يمكن معه التسليم بها ... أما عن أعمال التسخير لبحارتنا فإن احتجاجاتنا لم تتوقف أبداً . . . فإن هذا الإجراء وإن خفت ممارسته أحيانا فى البحار البعيدة يتبع باستمرار فى البحار المجاورة لنا .

ليس هنالك بلدان على وجه الأرض لديهما من نواحى الاشتراك فى المصلحة والصداقة مثلما يقوم بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ، ولا بد من أن يكون حكام البلدين مهملين إهمالا عظيما إن هم حطموها . وإن التنافس الوحيد الذى يستطيع أن ينشأ مجاله المحيط . ويمكن لانجلترا باعتراضها طريقنا لسرقة ممتلكاتنا الخاصة أن تعطلنا قليلا على متن البحار ، ولكن ليس فى استطاعة شيء تفعله أن يعطلنا هنالك سنة كاملة . فسوف تساعدنا هنالك الأمم الأخرى ، وسنلقى بثقلنا فى كفة ميزانها لنكون جزءاً من القوة المضادة لبحريتها . أما إذا كانت من الجانب الآخر عادلة معنا وراغبة فى الصلح وفى تشجيع عاطفة الأسرة وسلوكها ، فلن تعجز عن تأييد الأمن لكل منا :

وإننا بإخلاص نود أن نكون محايدين حقا . . . ولو أن أملنا هو السلم إلا أن سياستنا وغرضنا يقومان على أن نستعد للدفاع بكل الوسائل التي تستطيعها مواردنا .

رفض معاهدة بريطانية يستحيل قبول شروطها

إن مفاوضينا (في لندن جيمز مونرو ووليام بينكني) كانا يعزمان على توقيع معاهدة لا تشتمل على أي إجراء احتياطي ضد تسخير بحارتنا ، فأصدرنا في الحال في ٢ من فبراير ١٨٠٧ تعليماتنا إليهما بألا يفعلا هذا ، وإن مثل هذه المعاهدة إذا ما قدمت فإنه لا يمكن أن يصدق عليها ، وإنه لهذا يجب عليهما أن يستأنفا مباشرة المفاوضات لسد ذلك النقص الذي لا يمكن التغاضي عنه . وإذ أن مثل هذه المعاهدة قد وصلتنا فإننا بالطبع نؤجلها . . . وفي الوقت نفسه قد عملت بقرارات جمهورية على مواصلة تأجيل قانون عدم الاستيراد (لسنة ١٨٠٦ وهو مقاطعة جزئية ضد الواردات البريطانية) كدليل على استمرار ميولنا الودية .

وليس لدي سوى أمل ضئيل في أن الحكومة البريطانية سوف تعدل عن اعتداءاتها علينا بتسخير بحارتنا وإني لمتأكد من أنه بدون ذلك سوف لا نقيد أبداً أيدينا بمعاهدة تمنعنا من حق تشريع قانون بعدم الاستيراد أو عدم التعامل التجاري ، مما يجعلها تقتنع بأنه من مصلحتها أن تصبح عادلة . وقد يؤدي هذا إلى حرب متبادلة من القيود التجارية . . . وإن هذه الحالة للأشياء يجب أن تفهم في باريس ، وأن يبذل كل مجهود لتسوية خلافاتنا مع اسبانيا تحت إشراف فرنسا التي يهمها كل الأهمية أن نقف موقف الود الدقيق . وفي الواقع أننا سنعتمد عليها وعلى روسيا لتأييد حقوق الحياد التي من بينها ينبغي أن يقرر ألا يؤخذ أشخاص بوساطة أي محارب من سفينة محايدة مالم يكونوا جنوداً تابعين للعدو .

مؤامرة نائب رئيس الجمهورية السابق بير

لقد بلغتني في الجزء الأخير من سبتمبر (١٨٠٦) بعض الأنباء الخاصة عن أن هنالك تدبيرات تثار في الإقليم الغربي غير شرعية ومعادية للسلم في اتحاد الولايات

الأمريكية المتحدة وأن المحرك الأول فى هذه التدبيرات هو آرون بير ولم تبدأ أغراض المؤامرة فى الظهور إلا فى الجزء الأخير من اكتوبر ، ولكن لم تزل مضطربة ومحوطة بالغموض ، حتى كان من غير المستطاع تحديد أى شيء للبحث والدراسة . . . وبخطاب وصل من (الجنرال جيمز ويلكنسون General James Wilkinson) فى الخامس والعشرين من نوفمبر ، لكنه مؤرخ فى ٢١ من اكتوبر ، علمنا أن وكيلا خاصاً عن آرون بير قد أوفد إليه برسائل ، بعضها مكتوب بطريقة رمزية وبعضها شفوى ، شارحا تدبيراته ومبالغا فى وصف موارده ، ومقدماً إليـــه عروض كسب وسلطة لإشراكه هو والجيش فى مشروعه غير الشرعى ؛ إذ كان قد أقنع نفسه بأنه سوف ينجح .

وبدا أنه كان يفكر فى غرضين متميزين يمكن تحقيقهما إما مجتمعين وإما منفصلين ، والبدء بالأول أو الثانى منهما حسبما تملى الظروف . وأول هذين الغرضين يقوم على فصل اتحاد هذه الولايات بجبال الليجهانى ، والثانى على مهاجمة المكسيك . وكان هنالك غرض ثالث قدم احتياطا وهو مجرد غرض ظاهر أى تسوية صفقة مصطنعة لشراء قطعة من الأرض على الواشيتا Woshita ادعاها شخص يدعى بارون باسټروب Baron Bastrop وإن هذا يخدم كتبرير لكل استعداداته ، وإغراء لأتباعه ممن يرغبون حقيقة فى الحصول على مستعمرات فى تلك البلاد ؛ وستار يتقهقر تحته فى حالة الفشل النهائى لفرعى تدبيره الحقيقى .

فاكتشف فى الحال أن ولاء الإقليم الغربى للاتحاد القائم لا يزعزع ، وأن حله لا يمكن إجراؤه برضا سكانه ، وأن امداداته وموارده لم تبلغ الحد الكافى لتنفيذ ذلك بالقوة . وقد سار عندئذ على نهجه فى الحال ، فصمم على أن يستولى على نيو أورليانز ؛ وأن يسلب البنك هنالك ، وأن يضع يده على المخازن العسكرية والبحرية ، وأن يواصل حملته إلى المكسيك . ووجه الآن إلى تحقيق هذا الغرض كل وسائله واستعداداته . فجمع كل الأشخاص المتحمسين القلقين اليائسين الساخطين الذين كانوا على استعداد للقيام بأى مشروع مطابق لشخصياتهم . وأغرى مواطنين صالحين وحسنى النية مقنعا

بعضهم بالتأكيدات أنه حاز ثقة الحكومة ، وأنه يعمل تحت رعايتها السرية ، وهو ادعاء نال بعض الثقة من حالة اختلافاتنا مع اسبانيا . . .

وقد أصدرنا أوامر لكل نقطة تجتازها الحملة العسكرية على أوهايو ومسيسبي من بتسبرج إلى نيو أورليانز ، لاستخدام القوة المناسبة من الجنود النظاميين أو الميليشيا بما قد يمكنها من سحق أى تقدم للمغامرة بعد ذلك . . . وحقاً انتشر ذعر كبير فى نيو أورليانز بسبب ما نشره الرسل من بيانات مستر بير المبالغة عن الجيوش والبحرية التى سيجمعها هنالك . وكان الجنرال ويلكنسون قد وصل بنفسه هنالك فى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر ، وأعد مباشرة إمدادات المكان وموارده لغرض الدفاع ، وفى العاشر من ديسمبر لحقت به جيوشه .

أسر الإمبراطور أرون الأول

إن مغامرة بير هى أغرب مؤامرة منذ أيام دون كيشوت ؛ فهى مسرفة إسرافاً يجعل أولئك الذين يعرفون فهمه لا يصدقونها إذا سمحت الأدلة بالشك . إذ قصد أن يضع نفسه على عرش مونتيزوما **Montezuma** وأن يمد إمبراطوريته حتى الليجهانى مستولياً على نيو أورليانز كأداة للقهر لولاياتنا الغربية .

وإن بير نفسه – بعد أن جرد بجهودنا من كل أتباعه – لجأ إلى الفرار ، ولكن قبض عليه قرب فورت شتودرت **Fort Stoddert** (فى فبراير سنة ١٨٠٧) وهو متجه إلى موبيل بوساطة بعض الأشخاص الريفيين الذين أحضروه كسجين إلى ريتشموند حيث هو الآن تحت قيد المحاكمة .

وإن عصبة صغيرة من المغامرين الأمريكيين الذين هربوا من ديونهم ، والذين كانوا مشتاقين إلى أن يغمسوا أيديهم فى مناجم المكسيك ، سجلوا أسماءهم فى مشروع مستر بير المزدوج لمهاجمة ذلك الإقليم وفصل اتحادنا . ولو أن بير كان قد أصاب أى نجاح ضئيل فى الإقليم الأعلى لانضم إليه قتلة آبائهم . ومع ذلك فإن بياننا بسيطاً أخبر الشعب عن هذه التجمعات أقام تجمهراً إجماعياً من المواطنين حيثما ظهر أى شىء لوضع يدهم عليه وسحق كل شىء فى لحظة واحدة .

وإن بير الآن تحت المحاكمة وما لم يعطه رعاته الفيدراليون فرصة الهرب فسوف يدان دون منازع . ومن سوء الحظ أن الفيدرالية لا تزال سائدة فى هيئتنا القضائية التى تقف نتيجة لذلك موقف المعارضة من الفرعين التشريعى والتنفيذى وتقدر غالباً على إحباط إجراءاتهما .

الفيدراليون يتخذون من قضية بير قضية خاصة بهم

ليس من العجيب أن يكون هنالك قلق وشك فى الرأى العام بسبب عدم توافر الأدلة على المؤامرة فى الوقت الحاضر . وقد عملت على تشجيع هذا حيل القضاة لغرض المحاكمات قبل إمكان جمع الدليل المبعثر خلال خط طوله ألفا ميل من مين Maine إلى أورليانز Orleans وان الفيدراليين أيضاً يعطون كل عونهم متخذين من قضية بير قضية خاصة بهم ولا يحزنهم شيء سوى أنه لم يقسم الاتحاد أو يقلب الحكومة ومثبتين أنه لو كان قد أصاب قليلا من النجاح لانضموا إليـــه فى تحقيق غرضه وهو ملكيتهم المفضلة كما كانوا لينضموا إلى أى عدو آخر ، أجنبياً كان أم وطنياً ، يستطيع أن يخلصهم من هذه الجمهورية البغيضة ، وأن يبدلهم بها أية حكومة أخرى .

ولقد كان الأساس الأول للشكوى هو إغفال الإدارة الحكومية وعدم مبالاتها بخيانة تسرى فى البلاد فى وضح النهار . أما الخيانة الحاضرة فقد سحقوها قبل أن تنضج للتنفيذ حتى لا يستطاع القيام بأعمال علنية ، وإذ أننا لا نلقى عوناً من أى إجراء أو تسهيلات من المحاكم « الفيدرالية » ، بل نلقى العبوس من تحمسهم الجديد لحرية أولئك الذين لن نسمح لهم بقلب حريات بلادهم ، فإننا لا نستطيع أن نتوقع أى إباحة للسر من المتواطئين فى الخيانة مع المذنب الرئيسى . أما عن نوايا الخيانة فقد اضطر القضاة للاعتراف بأن هنالك امارات محتملة عن ظهورها . ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالمهرب الذى سوف يجدونه فى القضية حين تأتى للمحاكمة .

أما عن بير فإننى لم أحمل له مطلقاً من الناحية الشخصية أية عاطفة عدائية . وفى الواقع أننى لم أعتقد أبداً أنه رجل أمين صريح فى معاملته ، ولكننى كنت أنظر إليه كبندقية معوجة ، أو أية آلة منحرفة لا تتأكد مطلقاً من هدفها أو طلقتها . ومع

ذلك فطالما كان حائزاً على ثقة الأمة فإننى رأيت من واجبى أن أحترم فيه ثقتهم وأن أعامله كأنه يستحقها .

جون مارشال يحكم ببراءة بير — لم يثبت أى عمل مكشوف من أعمال الخيانة

إن المناظر التى مثلت فى ريتشموند Richmond مناظر لم تعرض مطلقا فى أى بلد لم يلق فيه جانباً كل اعتبار للمصلحة العامة ؛ فهى معادلة للإعلان عن النجاة من العقاب لكل عصبية خائنة قد تتكون لتدمر الاتحاد الأمريكى ، وهى تبقى على رأس كل العصابات التى قد تتكون فى الداخل ومركز لكل المؤامرات والمكائد التى قد تغذيها الحكومات الأجنبية لتزعجنا ولكنها ستنتج تعديلا للدستور لن يترك القضاة مستقلين عن الأمة وإن أبقاهم مستقلين عن الهيئة التنفيذية .

كنا نظن أن لدينا قوانين ثابتة تحمينا على حد سواء من الخيانة والاضطهاد . ولكن يبدو الآن أنه ليس لدينا أى قانون سوى إرادة القاضى . ولم يجابه الاحتيال أبداً بعمل أشق مما تم الآن ليطوع نص القانون لإرادة من يقوم بتفسيره . وإن موقفنا أيضاً ليزداد تعقيداً ، إذ أن محاولتنا أن نجعل القانون أكثر وضوحاً بتعديل الدستور لن تنتهى إلا بتقديم مواد جديدة للمغالطة .

الثقة بالشعب وبجيش الشعب

إن الدليل الذى رأيناه أخيراً عن قوة حكومتنا الداخلية من أبرز الأدلة التى سجلها التاريخ ويبين أننا شعب قادر على الحكم الذاتى وجديرون به . ففى اللحظة التى أعلن بيان على المواطنين يخبرهم بأن هنالك خونة بينهم ويوضح غرضهم انقضوا عليهم (عن طريق جند الميليشيا من المواطنين) فى كل مكان اختبأوا فيه وسحقوا بقوتهم الخاصة ما قد كان يفضى إلى تيسير الجيوش والحرب الأهلية فى أى بلد آخر فالحكومة التى تستطيع أن تستعمل سلاح الشعب لا بد وأن تكون أقوى حكومة ممكنة ، وإن هذا المشروع قد أنتج خيراً بإثبات أن ولاء الشعب فى الغرب ثابت ثبات الولاء فى الشرق لاتحاد بلادنا ، وبإقامة ثقة متبادلة وعامة .

إن تصنيف جند الميليشيا عندنا هو الآن أشد الأمور جوهرية مما يجب على الولايات المتحدة أن تفعله . . . فهو السر الحقيقى لنجاح بونابارت . فما فوق ثلاثمائة ألف رجل قادر الجسم بين أعمار الثمانية عشر والستة والعشرين سوف يقدم عدد كفء للهجوم أو الدفاع فى أى مكان حيث تقوم الحاجة إليهم وسوف يعطى الزمن لتجنيد القوات المنظمة بعد أن تصبح الحاجة إليها أمراً مؤكداً . ولا يمكن أبداً أن يستعمل جند الميليشيا للخدمة البعيدة وفق أى خطة أخرى وسيغزو بونابارت العالم إذا لم يتعلم سر تكوينه الجيوش من الشباب فقط الذين تمكنهم حماستهم وصحتهم من تخطى جميع العقبات .

وإن روح هذا البلد معارضة تماماً لتكوين قوة عسكرية كبيرة . ولقد حاولت لمدة دورين من انعقاد الهيئة التشريعية أن أقنع الهيئة بأن تسمح لى بوضع ثلاثين ألفاً من المتطوعين المختارين اختياراً جيداً على الأراضى المهداة فى الجانب الغربى للمسيسبى كقوة من جنود الميليشيا تكون دائماً على استعداد للدفاع عن نيو أورليانز ولكنى لم أنجح حتى الآن . . . وان الأمن العظيم لذلك الإقليم ينشأ من التأكد المعنوى بأن فرنسا وإنجلترا سوف لا تتدخلان فى شئون ذلك الإقليم طالما تستمر حالة أوربا على ما هى عليه ونحن لا نخشى اسبانيا .

السلام والرخاء غير المسبوق

ان الحروب والمنازعات حقاً تملأ صفحات التاريخ بمادة كثيرة ولكنها مباركة تلك الأمة التى تستمتع بحياتها فى صمت وسعادة ولا تشارك من هذا القبيل بشىء يذكره التاريخ . وان هذا ما أتطلع إلى تحقيقه لبلادى وما استمتعت به لحسن الحظ على حين أن أوربا قد كانت ثوران بركانى مستمر .

إن هذه المدفوعات (لسنة ١٨٠٧) بالإضافة إلى المدفوعات فى الخمس السنين ونصف الماضية قد استنفدت من الدين خمسة وعشرين مليوناً ونصف مليون من الدولارات ، وهذا المبلغ هو كل ما يمكن دفعه أو شراؤه فى حدود القانون وعقودنا وقد ترك لنا فى خزانة المالية ثمانية ملايين ونصف من الدولارات . ولهذا فإن السؤال

الآتى يواجهنا الآن — لأية أغراض سوف تخصص هذه المبالغ الفائضة وجميع الفائض من الرسوم الجمركية بعد التسديد التام للدين العام عندما لا تتطلبها أغراض الحرب ؟ هل لنا أن نلغى الرسوم الجمركية وتعطى الأفضلية للصناعات الأجنبية على الصناعات الوطنية ؟ إنه من المؤكد أن الوطنية ترجح استمرارها واستخدامها فى الإنفاق على الأغراض العظيمة كالتعليم العام والطرق والأنهار والقنوات وغير ذلك من شئون الإصلاح العام التى قد يرى من المناسب أنها تقوى من الناحية الدستورية السلطات الفيديرالية : فهذه الأعمال سوف تفتح طرق اتصال جديدة بين الولايات وستختفى خطوط الانفصال وستتفق مصالحها وسيدعم اتحادها بروابط جديدة لا يمكن حلها .

ولقد وضع هنا التعليم بين المواد التى تعنى بها الدولة . وليس هذا معناه اقتراح سلب فروعه العادية من أيدى المؤسسات التعليمية الخاصة التى تدير أحسن الإدارة كل الشئون التى هى كفء لها ولكن مؤسسة عامة (أى جامعة قومية) تستطيع وحدها أن تمدنا بتلك العلوم التى ولو أنها قليلا ما تطلب إلا أنها مع ذلك ضرورية لإكمال الدائرة ، فكل أقسامها تساهم فى تقدم البلاد وبعضها يساهم فى حفظها .

كشف قارتنا

إن بعثة السادة مستر لويس ومستر كلارك لكشف نهر الميسورى وغيره من وسائل الاتصال المفيدة إلى المحيط الهادى كللت بكل النجاح الذى كان يمكن توقعه لها . إذ تتبعا نهر الميسورى إلى منبعه تقريباً ، ونزلا من هضبة كولومبيا إلى المحيط الهادى ، وتحققا بدقة من جغرافية تلك المواصلات الممتعة عبر قارتنا ، ودرسا خصائص ذلك الإقليم وتجارته وسكانه ، واستحقا بهذه الخدمة الشاقة الثناء من بلادهما .

وقد أضاف الضابط بيك Pike إضافات نافعة إلى معرفتنا عن المسيسبى ؛ إذ صعد إلى منبعه وان هذه المشروعات الهامة للمسح ، بالإضافة إلى ما عندنا من دراسات أخرى سابقة ، تزودنا بمواد للبدء فى عمل مصورة « خريطة » دقيقة لنهر المسيسبى ومياهه الغربية ، ومع ذلك فلا يزال يبقى لدينا بعض الأنهار الرئيسية التى تحتاج للكشف .

عظام الماموث فى البيت الأبيض

إننى لم أعرف مطلقاً إلى أية أسرة نسبت (دكتور كاسبار ويستار Doctor Caspar Wistar) النعجة البرية أو المعزى المكسوة صوفاً كما سماها جوفرنر لويس Governer Lewis وإن تذكرت جيداً تلك القرون فإنها مع الجزة الصوفية سوف تغرى الواحد بالشك فى أنها هى اللاما ، أو على الأقل من فصيلة اللاما .

ولقد عين الجنرال كلارك عمالا للعمل عدة أسابيع فى « بيج بون ليك » Big Bone Lick وبعث النتيجة بالسفينة . . . فأرسل (أولا) من « الماموث » — كما يسميه — عظام الجبهة والفك والأنياب والأسنان والضلوع وفخذاً وساقاً وبعض عظام وكف حيوان من ذوات المخالب ؛ وأرسل (ثانيا) من الحيوان الذى يسميه الفيل عظمة فك وأنياباً وأسناناً وضلوعاً ، وأرسل (ثالثا) من حيوان من نوع الجاموس رأساً وبعض العظام الأخرى غير المعروفة . . . وهنالك يوجد ناب وعظمة فخذ حصل عليهما الجنرال كلارك تلبية لطلب خاص منى . ولكن أكثر نماذج المجموعة ما هى إلا مجرد نسخ مكررة مما فى فيلادلفيا التى أريد أن أقدم منها هدية إلى المعهد القومى فى فرنسا الذى أعتقد أنه قلما يملك أية نماذج من بقايا هذه الحيوانات . ولكن كيف أقوم باختيار مجموعة هذه الهدية دون التعرض لخطر إرسال شىء قد يكون نافعاً للجمعية الأمريكية الفلسفية ؟ حقاً يا صـــديقى يجب أن تخصص أسبوعاً لهذا الغرض .

وإن العظام منتشرة فى حجرة كبيرة حيث تستطيع أن تعمل حسبما تهوى دون أن يزعجك أى مخلوق من الصباح حتى المساء ، وتتناول فطورك وعشاءك معنا : وهى مجموعة ثمينة تشتمل على ما يزيد عن ثلثمائة عظمة .

ميدالية ذهبية وحدائق زهور فى مونتيسلو

لقد تسلمت « الميدالية » الذهبية التى سر الجمعية الزراعية فى باريس أن تعلن يمنحها لى عن تقديرها لشكل لوح المحراث الذى اقترحته ، وكذلك لقب عضو أجنبى

مشترك فى جمعيتهم . ومنذ رسم الشكل الأول المستعمل أدخلت تغييراً على شكل أصبع اللوح مما يقصر سكة المحراث ست أو ثمانى بوصات بينما يحفظ المبدأ القائم عليه دون أى تعديل . وإنى أرفق هنا وصفاً لهذا التغيير ، كما أرسل أيضاً نموذجا .

ويجب أن يوجه وورملى Wormley (وهو أحد خدمه فى مونتيسلو) إلى تنقية أحواض الزهر المحيطة بالبيت والمشتل وحدائق الكروم من الحشائش . واهتم كثيراً بالخنازير والغنم . وإنه لمن الواجب علينا أن نحصل على عدد كبير منها يهيئ لنا ثلاثين خنزيراً للذبح سنوياً وخمسين نعجة . . . وإنى أفضل إنهاء كل شيء متصل بالمطحن على كل نوع آخر من العمل . ويلى ذلك فى المرتبة حتى لإنهاء أعمال الحديقة .

إننى أجد أن العدد المحدود من أحواض الزهر عندنا سوف يقيد تنوع الأزهار ، الأمر الذى أهفو إلى الاستمتاع به ، ولهذا فقد استأنفت فكرة إقامة ممشى دائرى محيط بالمرج أمام المنزل بسياج ضيق من الأزهار على كل جانب ، وسوف يعطينا هذا مجالا وفيراً لنمو زهور متنوعة تنوعا عظيما وإن تجوفات الممشى سوف تعطى مكانا لأحواض بيضاوية من الشجيرات المزهرة . ولقد أرسل إلى صديقى القديم « توان » Thouin الذى يعمل بالحديقة القومية بباريس سبعمائة نوع من البذور . وأعتقد أنها ستشتمل على جميع الأزهار الجميلة فى فرنسا وستملأ كل المكان الذى نحجزه لها .

كوارث فى الرحلة — حفيد يتعلم كيف يكتب

إن رحلتى إلى (واشنطون) لم تكن خالية من الحوادث العارضة كالعادة ؛ فلقد كنت على وشك فقدان « كاستور » فى نهر الرابيدان Rapidan برقوده فيه حيث كان عمق النهر يبلغ الخصر فأصابه اضطراب بسبب عرض المركبة وجهاز الخيل حتى كاد يغرق قبل أن يستطيع الخدم ، وهم يقفزون فى الماء ، أن يرفعوا رأســه إلى الخارج وينزعوه من المركبة . وتبع هذا فقدانى نقود السفر ، كما حدث لى على الأريكة فى أثناء الصباح الذى غادرت فيه مونتيسلو عندما أعطيت لى ثانية بوساطة أحد الأطفال .

عزيزتى كورنيليا Cornelia :

إننى وجدت الليلة الماضية فى إحدى الصحف الأربع أبياتاً من الشعر التى أرفقها الآن فى خطابى ؛ وإذ أنك تتعلمين كيف تكتبين فإنها ستكون درساً طيباً يقنعك بأهمية العناية بعلامات الوقف فى الكتابة . وإنى لأسمح لك بيوم واحد لتكتشفى بنفسك كيف تقرئين هذه السطور بطريقة صحيحة . فإذا لم تستطيعى أن تفعلى هذا فى ذلك الوقت يمكن لك أن تطلبى المعونة ، وفى الوقت نفسه سأعطيك أربعة أبيات أخرى من الشعر تعلمتها عند ما كنت أكبر منك قليلا ولا أزال أذكرها :

إنى رأيت البحر كله فى لهيب من النار
إنى رأيت بيتـاً عاليـاً كالقمر وأعلى
إنى رأيت الشمس الساعة الثانية عشرة من الليل
إنى رأيت الرجل الذى رأى هذا المنظر العجيب

ولكن هذا حق مهما يكن رأيك فيه عند أول قراءة . . . أخبرى أمك أننى أخشى أننى لن أرحل بالسرعة التى توقعتها . . . قبليها عنى وقبلى كل أخواتك : وإلى جيفرسون أعطى يدى ولأبيك تحياتى الودية . ولك دائماً حبى .

إننى أهنئك يا عزيزتى كورنيليا على تعلمك فن الكتابة القيم . فما أمتع أن يتمكن الواحد منا به أن يتحدث مع صديق غائب كأنه حاضر ، ونحن جميعاً مدينون لهذا بكل قراءتنا ، لأنه لابد من أن تكتب قبل أن تستطيع قراءتها . ولهذا نحن مدينون بالإلياذة ، والاينيد ، والكولمبياد ، والهنرياد ، والانسياد ، والآن بأروع القصائد جميعها التيرابينياد (وهى قصيدة ساخرة ضد جيفرسون) التى أرفقها بهذا إليك . . وإنى لمسرور أنك تعلمت كيف تكتبين لسبب آخر ؛ فأنت الآن تعرفين قيمة الاوزة لأنك تكتبين بريشة اوزة ، وبالطبع ستساعدين إلىّ فى العناية بالاوزات الست الرمادية الجميلة التى سأرسلها مع دينى .

مقال عن روح الفكاهة والمرح

إننى سأرسل حفيدى توماس جيفرسون راندولف وعمره خمسة عشر عاماً إلى فيلادلفيا ليتعلم هنالك . . . وإذ أنه لا يتوافر لديه ذلك الخيال الذى يخلب الألباب فإنى أعلم أنه يملك الحكم السديد والقدرة الكبيرة على الملاحظة ، أما ما أقدره أكثر من هذا جميعه فروح المرح التى أحب أن يتمتع بها ، لأنى أفاضل بين صفات العقل على النحو الآتى : (١) روح المرح ، (٢) الكمال والصلاح ، (٣) الاجتهاد فى العمل ، (٤) العلم . وقد لا يوافق بعضهم بادئ الأمر على تفضيل الصفة الأولى على الثانية ، ولكن من المؤكد أننا جميعاً نؤثر معاشرة رجل مرح ذى مبادئ غير جادة على معاشرة رجل سيئ الطبع متزمت فى الخلق .

لقد ذكرت روح المرح (يا حفيدى العزيز) كصفة من الصفات الحافظة لسلامنا وهدوئنا . فهى من أكثرها تأثيراً ، وإن تأثيرها يحاكى ويساعد بطريقة مصطنعة بوساطة حسن الأدب حتى يصبح هذا كسباً ذا قيمة من الطراز الأول : وفى الحق أن حسن الأدب هو روح المرح المصطنعة ، وهو يعوض افتقادها الطبيعى وينتهى بأن يجعل أمراً معتاداً بديلا عنها مساوياً تقريباً لها فى الفضيلة الحقيقية . وهى ممارسة التضحية من أجل أولئك الذين تقابلهم فى المجتمع كل أمور الراحة والتفضيل الصغيرة التى سوف ترضيهم ولا تحرمنا من شيء جدير بلحظة تفكير واحدة وهى إعطاء تعبيراتنا لوناً ساراً ومطرباً . يصالح الآخرين ويجعلهم مسرورين بنا وبأنفسهم كذلك . وما أرخص هذا من ثمن نقدمه لنحصل على حسن نية الغير نحونا ، وحين تكون هذه المعاملة مقابلة لقول خشن من شخص آخر فإنها تعيده إلى صوابه وتذله وتصلحه بأحمد طريق ، وتضعه عند قدم طبيعتك الخيرة أعين الصحاب .

ولكن عند ذكر القواعد الحصينة لحكم أنفسنا فى المجتمع يجب على ألا أغفل القاعدة الهامة التى تقوم على عدم الدخول مطلقاً فى جدل أو محاجة مع آخر :

فلم أر أبداً حالة شخص أو شخصين متجادلين يخضعان الغير بالحجة ، ولكنى رأيت أشخاصاً كثيرين يصبحون عند ما يتهيجون سيئى الأدب ويهاجمون بعضهم بعضاً . فالاعتقاد هو نتيجة تفكيرنا الخاص الخالى من العاطفة ، إما فى العزلة أو بوزننا فى أنفسنا بطريقة مجردة من العاطفة ما نسمعه من الآخرين ونحن متخذون من المحاجة موقفاً غير ملزم أو متحيز . وإن هذه القاعدة كانت إحدى القواعد التى فاقت غيرها فى جعل الدكتور فرانكلين أحب الناس فى المجتمع ، وتتلخص فى القول : « لا تناقض أبداً أى شخص » وإذا ما كان يضطر إلى إعلان رأى فإنه كان يؤثر أن يفعل ذلك بتوجيه الأسئلة ، كأنه يطلب المعرفة ، أو باقتراح الشكوك .

وحين أسمع شخصاً آخر يعبر عن رأى لا يتفق مع رأيى أقول لنفسى إن له الحق فى اعتناق رأيه كما أن لى الحق فى اعتناق رأيى ، فلماذا أنازعه الرأى؟ إن خطأه لا يصيبنى بضرر وهل سأصبح دون كيشوت Don Quixote لدفع الناس بقوة الحجة إلى الإجماع على رأى واحد ؟ وإذا ما أساء التعبير عن حقيقة فمن المحتمل أنه يجد رضا فى الإيمان بها وليس لى الحق فى أن أحرمه من الرضا . .

الحيوانات السياسية التى تهز قرونها

وهنالك طبقتان للمتنازعين على الرأى ، كثيراً ما نقابلهما بيننا : الأولى تتألف من الطلبة الصغار الذين دخلوا حديثاً عتبة العلم ورأوا أول ما رأوا إطاراته ولم يملأوها بعد بالتفاصيل والتعديلات التى سوف تجلبها إلى معرفتهم الخطوات التالية من التقدم . وتشتمل الثانية على الأشخاص الوقحين سيئى الخلق فى المجتمع ممن ولعوا بالسياسة . . .

وستكون أكثر تعرضاً من غيرك لهذه الحيوانات التى تهز قرونها فى وجهك بسبب العلاقة التى تصلك بى ، فلامتلائهم بالسم السياسى ، ولاستعدادهم أن يرونى وأن يبغضونى كزعيم فى الحزب المعارض ، سيكون وجودك بالنسبة إليهم أشبه بحشائش الاستفراغ بالنسبة للكلب المريض ودواء سرياً لإنتاج الصراخ ، فانظر إليهم بالضبط بتلك العين ، وارث لهم كأشياء يمكن لك أن تمنحها فقط راحة وقتية ، إذ

أن الحكم على خلقى ليس فى مقدورهم . فذلك فى أيدى زملائى من المواطنين بوجه عام ، وسينال الشرف أو العار بما تقضى به جمهرة الجمهوريين فى بلادنا حسبما يكونون أنفسهم قد رأوه ، لا حسبما يقوله أعداؤهم وأعدائى .

لن أرشح نفسى لرياسة الجمهورية فترة ثالثة — إننى نزّاع إلى اعتزال الخدمة

إننى متشوق إلى اعتزال الخدمة ، ولكننى أبعد حتى الآن عن ذلك الهدف بعامين تقريباً ، وإن الالتماسات العامة التى تسلمتها لرجائى أن أستمر فترة أخرى تعطينى عزاء عظيما ، ولكن اعتبارات عامة وخاصة كذلك تجعلنى أصمم على تنفيذ ذلك الإجراء . وأرى واجباً علىّ أن أنزل عن كاهلى تبعة الحكم فى الوقت المناسب قدر ما كنت أرى واجباً على أن أحملها بإخلاص . . وهذه التغييرات ضرورية أيضاً لضمان الحكم الجمهورى . فإذا لم تحدد فترة معينة ، إما بوساطة الدستور ، أو التطبيق لخدمات الحاكم الأول فى الولايات المتحدة ، فإن منصبه — ولو أنه اسمياً ، انتخابى — سوف يكون فى الواقع لمدى الحياة ، وسينحط حالا إلى نظام وراثى . ولهذا رجوت زملائى المواطنين أن يفكروا فى خلف لى أسلمه مقاليد الشئون العامة بسرور أعظم مما تسلمتها به .

أما أن يفضل بعض الفيديراليين استمرارى على عدم التأكد من وجود خلف فهذا ما أستطيع أن أصدقه بيسر . . . وهنالك من يعرفنى منهم شخصياً ويعطون من الثقة لمقاصدى ما ينكرونه على فهمى . وقد يخشى بعضهم خلفاً مفضلين مجداً عسكرياً لأمة على رفاهية أفرادها وسعادتهم ، ولكن ليس أقل صدقاً من هذا أن اليوم الرابع من شهر مارس سنة ١٨٠٩ سيكون بالنسبة لجمهرة ذلك الحزب السياسى يوم عيد ، إلا أنه سيكون يوماً أعظم سروراً بالنسبة لى .

بأيد نظيفة وخالية

لقد كنت آمل أن أبقى على نفقات منصب رياسة الجمهورية داخل حدود مرتبه حتى أستخدم دخلى الخاص كله فى تحسين ضيعتى والإضافة إليها ، ولكنى لم أستطع أن أفعل ذلك . وإنه ليعزينى أننى لم أضف شيئاً إلى ثروتى الخاصة فى أثناء خدمتى

العامة ، وإننى أعتزل الخدمة بأيد نظيفة وخالية . وأحس الآن بالمستقبل الكئيب فى اعتزال العمل تحملا بالديون الثقيلة التى سوف تؤثر تأثيراً محسوساً فى هدوء حياتى عند ذلك . وإذ أنى غير قادر مع هذا على أن أجلب الهمّ لنفسى بشرور قبل أن تحدث فإنى آمل أن أتغلب على هذه الصعاب وأن يسير كل شىء سيراً حسناً .

وإنى أذكر متاعبى (يا عزيزتى مارثا) كسبب فقط لعجزى عن مساعدة مستر راندولف . فنواحى الاقتصاد التى قد أباشرها هذا العام فيما يتصل بمحصولاتى سوف لا تترك مصاعب كبيرة أمامى . . . وإن عودتى حالا إلى الأسلوب الخاص فى العيش هو أمر طبيعى ، وسوف أكون قادراً على مقابلة تكاليفه دون تدخل كما ذكرت فى منتجات مزارع مستر راندولف التى أود أن يستطيع استخدامها كاملة لتيسير شئونه الخاصة . وفى الحق أنى لا أعرف فرقاً بين شئونه وشئونى الخاصة . وإن السبب الوحيد للقلق على أن أحفظ ثروتى فى حالة سليمة هو رغبتى فى أن أتركها كثروة لكم ولأسرتكم . وآمل أننى سأكون قادراً على أن أفعل هذا ، واننا سنستطيع العيش فى الوقت نفسه فى حب ودعة .

وإذا استطعت أن أبيع قطع الأرض المنفصلة التى أملكها لأدفع الديون التى اقترضتها هنا (حول العشرة آلاف الدولار) وهى تكفى لأداء هذه الديون فإنى بعد ذلك أرغب فى أن أعيش فى حدود دخل ممتلكاتى فى البيارس ؛ إذ سوف تغل ألفى ريال إيجارا إلى جانب أرباح أراضى مونتيسلو وتافتون Tufton وزنوجها ، ورسم الطاحون ، ومصنع المسامير ، وإن إيرادى من ضيعتى فى بدفور Bedford بفيرجينيا — وهو يتراوح بين ألفى ريال وألفين وخمسمائة دولار — سوف يكون حينئذ طلقا ليساعد الأطفال وهم ينمون ويريدون بناء معيشتهم . وفى كل هذا لا أنظر إلى شىء سوى سعادتك وسعادة مستر راندولف والأطفال الأعزاء . وحاجاتى الخاصة سوف لا تتجاوز تقريبا حاجات صديق للأسرة وحبى لأطفالك وفوق كل شىء لك .

الهجوم البريطانى على البارجة الحربية تشيزابيك

فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونيه سنة ١٨٠٧ هوجمت بأمر رسمى من الادميرال البريطانى البارجة « تشيزابيك » وهى تترك ميناءها للخدمة فى مكان بعيد بوساطة بارجة من تلك البوارج البريطانية التى كانت موجودة فى مرافئنا مستظلة بتسامح ضيافتنا وقد أصيبت بعطب أعجزها عن الاستمرار فى رحلتها وقتل عدد من بحارتها ، كما أخذ أربعة من بحارتها للعمل المسخر على البارجة البريطانية « ليوبارد » Leopard التى قامت بهذا الهجوم المفاجئ . . . ، فأصدرت مباشرة قراراً بتحريم موانينا ومياهنا على جميع السفن البريطانية المسلحة ، ومنعت الاتصال بها . ولما كنت غير متأكد من مدى قصدهم من العدوان ، وكانت مدينة نورفولك مهددة بالهجوم المباشر ، فقد أمرت قوة كافية بحماية ذلك المكان ، كما أخذنا فى تجهيز إعدادات أخرى ، والاستمرار فى الاستعداد حسبما تقضى الضرورة ، وأوفدت سفينة مسلحة من سفن الولايات المتحدة بتعليمات لوزرائنا فى لندن لمقابلة تلك الحكومة من أجل تقديم الرضا والأمن اللذين يستلزمهما الاعتداء .

وإننى لم أر مطلقاً منذ موقعة لكسنجتون Lexington فى هذا البلد مثل هذه الحالة من السخط كما هو الآن ، وحتى تلك الموقعة لم تنتج مثل ذلك الاجماع ، وإن الفيدراليين أنفسهم متفقون معنا على الهدف ، ولو أنهم سوف يعودون إلى تجارتهم فى نقد كل إجراء يتخذ لتحقيقه . فالتعويض عن الماضى ، والأمن فى المستقبل ، هو شعارنا ، ولكننا سنرى أيسلمون بذلك طوعا ، أم يتطلبون الالتجاء إلى قطع العلاقات ، أو الحرب . وإننا نستعد للحرب ؛ فلدينا فى الواقع ألفا رجل فى الميدان يستخدمون على وجه الخصوص فى حراسة الساحل المعرض للخطر ، وقطع كل التموين عن السفن البريطانية .

التعويض عن الماضى والأمن للمستقبل

إن الحماسة التى يبديها مواطنونا تعطينا ثقة قوية لتأييدنا فى مطلب التعويض عن الماضى والأمن للمستقبل ، أى وضع حد لتسخير بحارتنا على السفن البريطانية . فإذا حققت ذلك دوافع العدالة أو المصلحة من بريطانيا العظمى فإنه سيوفر حربا ، ولكنهم إن رفضوا فإننا نكون بذلك قد كسبنا وقتاً لاستقبال سفننا وأملاكنا ، وعلى الأقل عشرين ألف بحار يتجولون الآن فى المحيط ويمكن لهم أن يزودوا بالرجال مائتين وخمسين سفينة خاصة . وإن فقداننا لهؤلاء سوف يساوى بالنسبة لبريطانيا العظمى انتصارات كثيرة من أمثال النيل والطرف الأغر . وقد يستعمل هذا الوقت أيضاً فى إعدادات تمكننا من توجيه ضربات سريعة وعميقة .

ويعلم الله أنهم كثيراً ما أعطونا سبباً للحرب من قبل ، ولكن كان هذا بشأن مسائل لم تكن لتوحد الأمة ، ولكنهم الآن لمسوا وتراً يتردد فى كل قلب ، والآن إذن هو وقت تصفية القديم والجديد .

مما يدعو إلى الحسرة أن نتمنى النصر لبونابارت

إن ما اعتدى به البريطانيون علينا من سلب جديد بالإضافة إلى هذا الهجوم على « تشيزابيك » ، ودعوتهم للبرتغال أن تعلن وقوفها إلى جانب أو آخر : يثبت أنهم قدروا فى هدوء أنه سيكون لصالحهم أن يستولوا على كل شىء فوق المحيط غنيمة عادلة ، وأن يؤيدوا بحريتهم بسلب البشرية جمعاء . . . وإنه لما يدعو إلى الحسرة حقاً أن نجبر على تمنى النصر لبونابارت ، وأن نعد انتصاراته نجاة لنا : وسيكون لمعركة فريدلاند Friedland والهدنة مع روسيا ، وغزو بروسيا ، أثر غير ملائم فى البريطانيين حين تصلهم أنباء الاعتداء الذى اعتدوا به علينا . ومع ذلك فإنهم قد بدأوا سياسة جعل أملاك الأمم جميعاً نهباً مشروعاً لتأييد بحرية لا تستطيع مواردهم القيام بحاجاتها ، فإنى أشك فى أنهم سيعدلون عنها بيسر . ويمكن استنتاج أن تلك الحرب معنا كانت مقررة من قبل من أسلوب أمر الأميرال باركلى ، وذلك لتوقيتها حتى تجدنا فى

وسط ثورة بير كما توقعوا ، وفى أثناء الانتشار الواسع والمفاجئ لحملات سلبهم فوق البحار .

إننى لم أتوقع مطلقاً أن أضطر إلى تمنى النجاح لبونابارت . ولكن وقد أصبح الإنجليز مستبدين فى البحر استبداد نابليون على الأرض ، وأخذ استبدادهم يؤثر فينا فى كل ناحية من نواحى الشرف أو المصلحة ، فإنى أقول : « تسقط إنجلترا » وأما فيما يتصل بما سوف يفعله حينئذ بونابارت معنا فدعنا نثق بما تأتى به الأحداث . وإنى لا أستطيع أن أوثر كما يؤثر أنصار إنجلترا شراً مفترضاً فى المستقبل ، على شر قائم فى الحاضر . ونحن الآن ننتظر من ساعة إلى أخرى وصول أنباء من وزرائنا فى لندن بعودة السفينة « ريفنج » الموفدة إلى إنجلترا . وسواء أجلبت علينا الحرب أم السلام أم الحالة الوسطى لقطع العلاقات ، فإن ذلك يبدو أمراً معلقاً فى الميزان .

تصر بريطانيا على تسخير البحارة وإصدار أوامر جديدة

إن خطاب جورج كاننج وزير الخارجية البريطانى هو فى وجهته وأسلوبه خطاب غير ودى ومتعال وخشن . وإنه يبدى اكتراثاً قليلا بتجنب الحرب . وسوف يناقش الكونجرس سياستنا ويقرر إما إعلان الحرب وإما الحظر وإما ألا يقرر شيئاً . والاقتراح الوسط هو أكثرها ترجيحاً . وفى الوقت نفسه : (أولا) يوجد ميل للموافقة على عدد كاف من المراكب الحربية الصغيرة ، (ثانياً) مبلغ كاف (٧٥٠٠٠٠ دولار) لأعمال الدفاع و (ثالثاً) تصنيف الميليشيا و (رابعاً) تأسيس ميليشيا بحرية و (خامساً) إعطاء منحة من الأرض فى أورليانز على الجانب الغربى للنهر لإقامة مستعمرة قوية من الأمريكيين كميليشيا .

وإن التعليمات البريطانية قد اضطرتنا من قبل للاقتصار على رحلة مباشرة إلى ميناء واحد من موانئ أعدائهم ، ومن المعتقد الآن أنهم سوف يحرمون كل تجارة مهما كانت معهم . ويبدو أن قرار تلك الحكومة الآمر بالقبض عنوة على كل من يزعمون أنه من البحارة البريطانيين الذين يعملون على سفن تجارية محايدة فى أعالى البحار قد أوصد الباب أمام كل المفاوضات معنا فيما عدا ما يتصل بالعدوان الوحيد على « تشيزابيك » .

تحرم التجارة على العالم جميعه بوساطة المتحاربين

ومجمل كل هذه الاعتداءات المتبادلة على حقوقنا الوطنية هو أن فرنسا وحلفاءها بعد أن كانوا يدرسون منعنا من نقل أي شيء إلى الأراضي البريطانية قد نفذوا هذا فعلا بتقييدهم إحضارنا بضاعة فى العودة منها . كما أنه من المعتقد الآن أن بريطانيا العظمى بعد تحريمها نسبة كبيرة من تجارتنا مع فرنسا وحلفائها قد حرمت كل تجارة ، ومن ثم فإن العالم جميعه قد خضع لقيود الحظر التجارية التى وضعتها هاتان الأمتان ، وسوف تؤخذ سفننا وحمولتها وبحارتها بواحدة أو بأخرى مهما كان المكان المتجهة إليه خارج حدودنا الخاصة . وإذا كان من المؤكد ، نتيجة لهذا ، أننا ستفقدها عند تركها موانينا أفلا يكون من الأفضل أن نحتفظ فى بلادنا بالسفن والبضائع والبحارة ؟ وهذا معروض على حكمة الكونجرس الذى تتوافر له وحده الكفاية لتقديم العلاج .

وإن هذه القرارات والأوامر إذا ما أخذت معاً تكاد تكون إعلانا بأن كل سفينة محايدة توجد فى أعالى البحار ، مهما كانت حمولتها ، ومهما كان الميناء الأجنبى الذى خرجت منه أو تتجه إليه ، سوف تعد غنيمة مشروعة . وهى تثبت حصافة سياسة الاحتفاظ بسفننا وبحارتنا وثروتنا داخل موانينا الخاصة حتى يستطاع إزالة الأخطار التى تتعرض لها أو الحد منها .

الحظر فى سنة ١٨٠٧ هو آخر ورقة نلعبها دون الحرب

ان الأمر الرسمى بالاحتفاظ فى بلادنا بسفننا وبضائعنا وبحارتنا يوفر علينا ضرورة جعل أسرها سبباً فى الحرب المباشرة ، وذلك لأنها إذا ذهبت إلى انجلترا فإن فرنسا قد عزمت على أخذها ، وإن هى ذهبت إلى أى مكان آخر فإن إنجلترا ستأخذها . وإننا لهذا السبب سنلزم ديارنا حتى يعود المتحاربان إلى استشعار الواجب الأخلاقى ، وهذا يعطى وقتاً وقد ينتج الوقت السلام فى أوربا ، ويزيل السلام فى أوربا جميع أسباب الخلاف حتى قيام حرب أوربية أخرى ، وإلى أن يحين ذلك الوقت فإن ديننا قد يدفع وتصفو مواردنا وتزداد قوتنا .

ويبدو أن الأمر الرسمى بمنع سفننا من السفر قد ووفق عليه حتى بوساطة الفيدير اليين من كل ناحية ما عدا نيو انجلند . ولم يكن أمامنا إلا أن نختار بين إصدار ذلك الأمر وبين الحرب ، وفى الواقع إنه آخر ورقة نلعبها دون الحرب ، ولكن إذا لم يتم السلام فى أوربا ، وإذا لم توافق فرنسا وإنجلترا على أن تقفا تنفيذ قراراتهما وأوامرهما علينا فإنه سيكون لزاماً على الكونجرس عندما يجتمع فى ديسمبر سنة ١٨٠٨ أن يدرس فى أية لحظة من الزمن يصبح استمرار أمر منع سفننا من السفر شراً أعظم من الحرب .

وإننا لم نغفل أمراً عادلا أو معتدلا إلا وأتيناه من جانبنا لنؤخر هذا الاختيار الذى لا جدوى منه أو نتجنبه . وإن موقفنا سيزداد غرابة عندما قد تواجه بالاختيار بين عدوين قدم كلاهما سبباً للحرب . ولن نستطيع أن نتصل مطلقاً بأحدهما ، أما بالآخر فإننا قد نصيبه بأضرار عظيمة ، كما تلحقنا منه كذلك أضرار مماثلة . فدعنا مع ذلك نأمل فى تجنب لقائهما بينما نستعد لذلك اللقاء .

ومن الواضح جداً أن أمرنا الرسمى بمنع سفننا من السفر ، بالإضافة إلى استبعاد التجارة البريطانية مع القارة الأوربية ، سيكون شديد الأثر فى انجلترا وإيرلندا . وقد أخذت ليفربول تحتج على ذلك وتحاول أن تثير الموانى الأخرى وتشركها فى حركة الاحتجاج . . . ولقد سن الكونجرس قانوناً إضافياً بمنع سفننا من السفر ، فإن تصرفنا بجرأة ، كما أود ، فإننا سنجعله فعلا نافذ الأثر ؛ إذ سيبين لشعبنا أنه بينما يحد وقف التجارة مع أوربا من غذائنا فإنه يميت أعداءنا جوعاً . وفى الوقت نفسه على حين أن السوق الأمريكى قد أوصد فى وجه بريطانيا فإن ضروباً عظيمة من التقدم قد تمت فى تأسيس الصناعات .

التجار الفيدراليون يعارضون ويتفادون الحظر

إن التجار الفيديراليين يلعبون الآن لعبة من أخبث اللعب وأشدها إيذاء ، وربما يفعلون ذلك دون إدراك لنتائجها . فهم يحاولون أن يقنعوا انجلترا بأننا نقاسى أثر قرار منع السفن من السفر أكثر مما يقاسون ، وأنهم إن صمدوا فترة من الزمن فإننا

سنلغيه . وحقاً سيأتى الوقت الذى يجب علينا أن نلغيه فيه ، ولكن إذا حدث هذا قبل إلغاء أوامر المجلس فإنه لا بد من أن نلغيه فقط لنستبدل به حالة حرب : وإذا دخلنا فى حرب مع انجلترا فإنها ستكون نتيجة لمناوراتهم وحدها .

وإنى لأرى أنه ينبغى ، بتجربة معقولة ، أن نعرف قوة هذا السلاح العظيم ، وهو منع الاتجار مع الدول المتحاربة . ولهذا فإنه ينبغى لنا أن نجيب فى شجاعة على المقترحات بحمل الدقيق إلى تشيزابيك وديلاوير وهدسون وأماكن التصدير الأخرى بقولنا إنه غير مطلوب هنالك للاستهلاك وإن حمله إليها يثير من الريب ما لا يسمح به .

إن حالات مخالفة القانون بمنع سفر المراكب التجارية من الموانى الأمريكية مكشوفة واضحة . وإن المحافظين فى بوستون يهددون علناً بالعصيان إن وقف استيرادهم للدقيق . ولكن سوف يقف هذا فى الحال . وقد رجوت الجنرال ديربورن Dearborn أن يكون على أهبة الاستعداد ويطير إلى المكان الذى ستبدأ فيه أية معارضة علنية وقهرية ويسحقها فى المهد .

إن هذا القانون بمنع مغادرة سفننا التجارية لموانينا هو بالتأكيد أدعى القوانين التى نفذها للارتباك والحيرة . فإننى لم أتوقع أن يستطيع محصول له هذا النمو المفاجئ الخصب من الاحتيال والمعارضة العلنية بالعنف أن ينشأ فى الولايات المتحدة . وإنى مقتنع بأنه إذا لم تلغ الأوامر والقرارات وفضل استمرار الحظر على السفن على إعلان الحرب (وهذه عاطفة سائدة هنا) فإنه لا بد من أن الكونجرس يشرع كل « الوسائل » التى قد تكون ضرورية لبلوغ « غايته » .

إن حقوق الأفراد يجب أن تخضع للصالح العام

إن العواطف التى عبر عنها الجمهوريون فى بوستون تبين أن أولئك الذين شاركوا فيها قد حكموا بإخلاص زائد على نوايا حكومتهم ، وأعتقد أنها ستكون العواطف السائدة كذلك بين المواطنين فى مساشوستس على وجه العموم عندما يمكن للحقيقة أن تصلهم إذن ، فهى تشترك مع شقيقاتها من الولايات فى حكومة واحدة يقوم مبدؤها الأساسى على سيادة إرادة الأغلبية وتدرك أن هذه الإرادة لم تتقرر بأية مصالح

أو منافسات محلية ، وإنه لإنقاذ الحقوق الدائمة تصبح التضحيات المؤقتة أمراً ضرورياً ، وان هذه التضحيات قد نزلت بالجميع بقدر ما يستطاع من نزاهة فى مثل هذا الموقف الغريب ، فإنها سوف ترى فى الإجراءات القائمة ممارسة مشروعة وأمينة لإرادة المجموع وحكمته :

الشعب يوافق وينتخب ماديسون رئيسا للجمهورية

لقد اغتبطت أشد الاغتباط بالتعبيرات العامة الأخيرة عن العاطفة الشعبية لتأييد إجراء كان له وحده الفضل فى إنقاذنا من الحرب المباشرة ، وإعطائنا وقتاً لاستدعاء ثمانين مليوناً من الممتلكات ، وعشرين أو ثلاثين ألفاً من البحارة ، وألفى سفينة ؛ فكل هذه تكاد تكون الآن فى بلادنا وتزودنا برأس مال عظيم سيذهب كثير منه فى الصناعات ، ويقود البحارة أسطولا من المراكب الخاصة عندما يفضل مواطنونا الحرب على استمرار أطول فى حظر السفن من مغادرة موانينا . ومع ذلك فربما قد يتعب حوت المحيط من الوحدة التى نشرها على ذلك العنصر ، ويعود إلى المبادئ الأمينة . وقد يرى أخوه اللص على الأرض أن الأعناب مرة بالنسبة له ، كما هى مرة بالنسبة لنا . وأرى أن حرباً واحدة كافية لحياة رجل واحد ، ولكن إذا أصبحت ضرورية فإنه يجب علينا أن نقابلها كرجال ، وحقاً كرجال كهول ، إلا أننا مع ذلك صالحون لشيء ما .

إن مستر ماديسون هو خليفتى (إذ حصل فى سنة ١٨٠٨ على أكثر من ثلثى الأصوات الانتخابية) وهذا يضمن لنا إدارة عاقلة وأمينة . ففى الانتخاب تكلمت بنسلفانيا حقاً بصوت يشبه الرعد إلى الملكيين فى بلادنا ، ومتى استمرت تلك الولاية على مثل هذا الثبات مع مجموعة الجمهوريين المتماسكة إلى الجنوب والغرب فإن أمثال الجهود التى رأيناها أخيراً فى القسم المعادى للجمهوريين من بلادنا لا تستطيع فى النهاية أن تؤثر فى أمننا . وقد يحاول أعداؤنا ألواناً من تملقهم مع خليفتى . وسيجدونه ثابتاً على مبادئه الجمهورية ثبات ذلك الذى شرفوه بعداوتهم الخاصة .

ضغط المتحاربين علينا

إن حملة الدعاية فى الكونجرس قد افتتحت . وهنالك ثلاثة حلول فقط للاختيار من بينها :

(١) فرض الحظر على مغادرة السفن لموانينا

(٢) الحرب

(٣) الخضوع والجزية .

ومن العجيب أن نذكر أن الحل الأخير سوف لا يحتاج إلى دعاة أو مدافعين . وان الموضوع الحقيقى مع ذلك سوف يكون أحد الحلين الأولين اللذين سيدور حولها انقسام كبير فى الرأى . . وإنى أرى فى هذه المناسبة أنه من النزاهة أن أترك لأولئك الذين عليهم أن ينفذوا وضع القرارات التى يفضلونها ،فلست أنا نفسى سوى متفرج ، وإنى لا أشعر بأن هنالك ما يسوغ توجيهى لإجراءات لا يوافق عليها أولئك الذين عليهم أن ينفذوها . فموقفنا حقاً موقف صعب . فلقد بلغ ضغط المتحاربين علينا مبلغاً دفع بنا إلى أقصى ما يمكن من التراجع ، وكل تقهقر بعد ذلك غير عملى .

إن فكرة إرسال بعثة خاصة إلى فرنسا أو انجلترا لا يؤخذ بها مطلقاً هنا . فبعد ما بذلته الدولة الأولى من اهتمام ضئيل بنا وما وجهه إلينا كانتج من إجاباب مهينة فإن علامة من علامات الاحترام ، مثل إيفاد بعثة فوق العادة ، سوف تكون تحقيراً تثور ضده هنا كل العقول . . وإن السياسة التى تعنى الهيئة التشريعية باتباعها يمكن استنتاجها من الاقتراح المعروض أمامها بإلغاء الحظر على مغادرة السفن الموانى الأمريكية فى يونية سنة ١٨٠٩ : والاستئناف بعد ذلك لحقنا فى الملاحة والمحافظة عليه بالقوة ..

وإن هذه المحاولة الأخيرة من أجل السلام لا تعد محاولة يائسة . فلو أن بونابارت انتصر كما هو متوقع فى اسبانيا ، مع أن كل عاطفة فاضلة وتحريرية تثور ضد هذا الانتصار ، فإن ذلك قد يغرى كلتا الدولتين بأن تكونا أكثر استعداداً للاتفاق معنا . فإنجلترا سوف ترى فى هذه البلاد الملجأ الوحيد لتجارتها ومصنوعاتها ، وإنه يساوى بالنسبة إليها أكثر مما تساوى أوامرها التى أصدرها مجلسها . : . وإذا أنتج تغير

فى الموقف الأوربى هذا الميل عند كلتا الدولتين فإن سلامنا ورخاءنا قد يتجددان ويستمران زمناً طويلا . وإذا لم يتحقق هذا فلا بد من أن نعود إلى ميدان القتال كما فعلنا فى سنة ١٧٧٦ تحت ظروف أكثر نحساً . . . وإذا استطعنا أن نعيش فى سلم ثمانية أعوام أخرى فإن إيرادنا وقد تحرر من الدين سيكون ملائماً لأية حرب دون ضرائب أو ديون جديدة ؛ وإن مركزنا وقوتنا المتزايدة سيضعاننا فى مأمن من إهانة أية أمة .

قطع العلاقات يحل محل الحظر

كنت أظن أن الكونجرس قد اتخذ موقفاً حازماً بشأن استمرار حظرهم على السفن حتى يونية وبعدئذ الحرب . ولكن حدثت ثورة مفاجئة وغامضة فى الرأى فى الأسبوع الماضى ، خاصة بين أعضاء نيو انجلند ونيويورك وفى نوع من الذعر وافقوا على الرابع من شهر مارس لأن يكون تاريخاً لإلغاء الحظر ؛ وذلك بأغلبية تبرر الاعتقاد بأنهم لن يوافقوا على الحرب أو قطع العلاقات . وتم هذا بعد أن اقتنعنا بأن المتصرفين من زعماء الفيديراليين فى نيوانجلند قد عرفوا عدم إمكان تحقق أملهم فى تحريض الشعب هنالك على الانفصال أو المعارضة بالعنف ؛ وأن أغلبية الكونجرس مع ذلك قد احتشدت لإلغاء الحظر فى الرابع من شهر مارس ، وقطع العلاقات مع فرنسا وبريطانيا العظمى ، والتجارة فى كل مكان آخر ؛ والاستمرار فى الإعداد للحرب .

وإن قرار الحظر على السفن كان له وقع شديد فى البلاد . فهو فى الواقع قد حول ثلاثا من ولايات نيو انجلند إلى الحزب الفيديرالى . وكانت كونيكتيكت كذلك من قبل . وقد أحللنا محله قراراً بالمقاطعة مع فرنسا وانجلترا والبلاد التابعة لهما والتجارة مع جميع الأماكن الأخرى . ومن المحتمل أن المتحاربين سوف يستوليان على سفننا تنفيذاً لقراراتهما ، وفى هذه الحالة قد نعلن الحرب ضدهما . فبعد استعمالنا كل مجهود ممكن أن يمنع اشتباكنا فى حرب أوربا أو يؤخره فإن هذا يبدو الآن أنه ملجؤنا الوحيد ؛ وذلك لأن الخمسين المليون من الصادرات التى يضحى بها كل عام هى ثلاثة أضعاف ما قد تكلفه إيانا الحرب ، وإلى جانب

ذلك فإن الحرب ستكسبنا شيئاً ، ونخسر بها أقل مما نخسر فى الوقت الحاضر . . ؛ ولكنى أترك الآن جميع هذه المسائل ليفصل فيها صديقى مستر ماديسون .

سجين أطلق سراحه من سلاسله

فى بضعة أيام أعود إلى أسرتى وكتبى ومزارعى ، وإذ أنى نفسى قد بلغت الميناء فإنى سأنظر حقاً إلى أصدقائى الذين لا يزالون يواجهون العاصفة بقلق ، لا بحسد ، فلم يستشعر سجين أطلق سراحه من سلاسله مثل الراحة التى سوف أحس بها عند التخلص من قيود السلطة . إذ أن الطبيعة قد أعدتنى لأعمال العلم الهادئة ، وذلك بجعلها هذه الأعمال متعتى السامية . ولكن أهوال الأزمان التى عشت فيها وإلزام نفسى بالعمل فوق محيط العواطف السياسية الهائج قد ألزمتنى طريقاً غير طريقى . وإنى لأشكر الله على أن هيأ لى فرصة اعتزال السياسة من غير لوم ، وأن أحمل معى ما يعزينى من براهين الثناء التى قدمها إلى الشعب . وإنى أترك كل شىء فى أيدى رجال لهم من القدرة ما يتيح لهم أن يعنوا بها حتى إذا كان مقدراً علينا أن نقابل النوازل فإن ذلك سوف يحدث ؛ لأن الحكمة الإنسانية لا تطيق تجنب هذه النوازل .

كنت جديراً أن أستشعر عزاء عظيما لو أننى تركت الأمة وأنا واثق من استمرار السلم . فإن شيئاً لم يغفل لتحقيقه ، وما كان من الممكن أن تعجز مثل هذه الجهود فى أى عهد آخر من عهود التاريخ عن أن تضمنه وتوفره . وذلك لأنه لا يستطيع أى فريق من المتحاربين أن يقول إننا فى أية حالة قد انثنينا عن طريق الحياد المستقيم . وإنه لمن المؤكد أنه لن يستطيع أحد أن يتهمنا بفقدان الحلم ورحابة الصدر ، أو بأننا رغبنا فى غير السلم ، ولكن فى وثوق تام بالأمن صادر عن وحدتنا ومركزنا ومواردنا سأعتزل العمل وألجأ إلى ولايتى الأصلية المحببة إلى بكل رابطة تستطيع ربط القلب الإنسانى .

. . .

إلى جيرانى فى البمارس

وإذ أعود إلى مناظر موطن ميلادى وحياتى الأولى ، وإلى مجتمع أولئك الذين نشأت بينهم والذين كانوا دائماً أعزاء على ، فإنى أستقبل يا إخوانى المواطنين وجيرانى

بسرور لا يستطاع التعبير عنه الترحيب الودى الذى تفضلتم بإسدائه إلىّ . وإذ قد طال غيابى وأنا مشغول بواجبات فرضها تاريخ عهد عجيب على أولئك الذين قدر عليهم أن يقوموا بها فإن أبهة الحكم وضوضاءه وصخبه ولألاءه لم تثر سوى الحسرات العميقة على أعمال الحياة الخاصة الهادئة غير المسئولة ، وعلى الاستمتاع بالمعاشرة الودية لكم أيها الجيران والأصدقاء ، والإعزاز الصادر من الحب العائلى الذى وهبتنا إياه الطبيعة ليسعد كل ساعة فى حياتنا . ومن أجل هذه الأشياء كلها أنزل فى سرور عن كاهلى عبء السلطة وأبحث مع إخوانى المواطنين عن الراحة والسلامة فى ظل الرعاية اليقظة والجهود والمشاق التى تضطلع بها عقول أكثر شباباً وقدرة .

إن الدور الذى لعبته على مسرح الحياة العامة قد كان أمامهم وإنى أعرضه عليهم لإصدار حكمهم ولكن شهادة إقليمى الأصلى وشهادة الأفراد الذين عرفونى فى الحياة الخاصة عن سلوكى فى واجباته وعلاقاته المتنوعة لأبعث على الرضا الزائد إذ أنها تصدر عن شهود عيان ومراقبين وعن مجربين من المنطقة المجاورة . ويمكن لى إذن أيها الجيران أن أسأل فى وجه العالم « ثور من أخذت ، أو من خدعته ؟ ومن ظلمت أو من يد من تسلمت رشوة ليعمى بها عينى ؟ » فاعتماداً على حكمكم سأركن إلى الراحة وأنا مستشعر الأمن . وإنى قد استقبلت بأصدق التقدير والإدراك أمانيكم بسعادتى وأبتهل إلى الله أن يهبكم الهناءة والرخاء .

الفصل الخامس عشر

حكيم مونتيسلو

لقد وصل الملاح الذى أجهدته الأمواج إلى المرفأ آخر الأمر . وإن سيد مونتيسلو الذى أحاط به هياج الثورة ، وركب محيط العواطف السياسية الصاخب ، عاد الآن فى السادسة والستين من سنه إلى هدوء الحياة الخاصة ، وإلى تلك الأعمال الأدبية والعالمية التى كان يعتقد أن الطبيعة قد أعدته لممارستها .

وإن مونتيسلو وأسرته لم يبعدا مطلقا فى فترات غيابه عن أفكاره . أما الآن فقد أصبحا مركز حياته ؛ إذ كان يقوم دائما بتحسين قصره الكلاسيكى المصنوع من الطوب وتزيينه مما جعله أثراً شاهداً على ذوقه المعمارى وعلى مهارته . فمزرعته — وهى عالم صغير فى نفسها — قد زودته بكل ما تطلبه بدنه الذى ما زال نشطاً ، وروحه المبتكرة ، من عمل . وألفى بنفسه سعيداً فى الأعمال المناسبة من تجديد لحقوله المهملة وإدارة لصناعاته البيتية ، ومتاجره ، وطواحينه ، وبناء حدائق مسامتة لطول الجانب الجبلى . وعند انتهاء عمله اليومى كان يتسلى باللعب ، حتى إنه كان يشترك فى مسابقات الجرى على المروج الخضراء مع أحفاده الصغار ، وهم بنات ابنته مارثا ، الأطفال ، وفرانسز إبس Francis Eppes وهو ابن ابنته ماريا المتوفاة . وفيما عدا زياراته فى المنطقة المجاورة ورحلاته إلى مزرعة « بوبلار فوريست » فى إقليم بدفورد (حيث بنى بيتاً صغيراً مثمن الجوانب من الطوب) فإنه لم يترك جبله فى السبع عشرة السنة الباقية من حياته .

وكان حتما أن يطلق عليه الأمريكيون لقب « حكيم مونتيسلو » ؛ فقد كان الرئيس ماديسون ورجال السياسة فى جميع أنحاء الاتحاد الأمريكى يكتبون إليه طلباً لنصيحته ، وكان روبرت فولتون والمخترعون الآخرون يعرضون عليه مشروعاتهم ، كما كان رجال التعليم والاقتصاد والعلم والأدب يسألونه رأيه فى مسائلهم ، ولم يترك خطاباً

دون رد . وعبر عن رأيه فى عدد متنوع عجيب من الموضوعات ، وكشف عن عقل كان لا يزال فتياً باحثاً غير مقيد ؛ فالسن والتجربة لم يكن لهما من أثر سوى توسيع أفق تفكيره التقدمى ، وتعميق إيمانه الديموقراطى . ورحب بالتجديدات سواء أكانت علمية أم اجتماعية ، مرتئياً فيما أنها تبشر بتحسين حال البشرية . وكان ينصح المشرعين الشبان بأنه ينبغى أن تغير قوانين الأجيال السابقة ونظمها ، أو تلغى إذا لم تقابل الحاجات الحالية ؛ وإنه يجب أن يوكل إلى كل جيل بإدارة شئونه الخاصة بطريقته الخاصة ؛ إذ أن الأرض ملك للأحياء لا للأموات . ومهما اختلفت الوسائل والمناهج المستعملة فإن الهدف فى كل عصر هو دائماً فى نفس الهدف ، إذ الأغراض الأساسية للتعليم و « الأهداف الوحيدة لكل حكومة شرعية » هى دائماً وأبداً « حرية الإنسان وسعادته ».

ولم يسر بشىء قدر سروره باستئناف صداقته القديمة مع جون آدمز الذى تحقق عن طريق الجهود التى بذلهـــا وطنى آخر من الثوار هو الدكتور بنجامين راش Benjamin Rush من فيلادلفيا . ففى تراسل لم ينته إلا بموتهما تبادل الصديقان القديمان من حكمتهما الناضجة آراء عن كل شىء تحت الشمس ؛ فقد قارنا عدد ذريتهما وتناقشا فى ود حول طرق معالجة الأرستقراطية الكاذبة للثروة والمولد ، وتحدثا عن أفلاطون والدين ، واسترجعا ذكريات صحبتهما فى أثناء الثورة . والآن وقد اتحدا مرة ثانية مثلما كانا فى سنة ١٧٧٦ فقـــد صليا من أجل نجاح حرب الاستقلال الأمريكية الثانية .

فبعد محاولة الولايات المتحدة سنين طويلة أن تحافظ على الحقوق الحيادية والقومية بإجراءات القهر الاقتصادى ، كان عليها فى سنة ١٨١٢ أن تختار بين الحرب أو الخضوع المهين لبريطانيا . ولم يكن لدى جيفرسون أى شك فيما سوف يكون عليه الاختيار ، أو فيما ينبغى أن يكون . فإن الاعتداءات القاسية التى قامت بها انجلترا فى أثناء حكم المحافظين الرجعيين قد اضطرته إلى أن يتخلى عن هوايته السلم .

وقد تتبع حرب سنة ١٨١٢ باهتمام قوى ، وشجع ماديسون وأيده ، وهاجم فى صراحة متطرفى الفيدير اليين من أنصار الإنجليز الذين عد مؤتمرهم فى هارتفورد سنة ١٨١٤ تمهيداً للانفصال عن الاتحاد ، ولم ييأس قط من وحدة الجمهورية أو من قدرتها على

إعلان الحرب بنجاح . وتقبل بسرور الخسائر الخاصة التى سببتها الحرب ، وعندما أحرق البريطانيون الكابيتول فى واشنطون ، ودمروا مكتبة الكونجرس ، قدم إلى الحكومة أعز ما يملك — وهو مكتبته الكبيرة القيمة .

وقد نصح حكيم مونتيسلو مواطنيه بعد انتصار نيو أورليانز وصلح جنت Peace of Ghent بأن مصالح الأمتين تتطلب اعتبار عداوات الحرب فى عداد التاريخ ، وإطفاءها فى عقول الأحياء . أما عن المسلك إزاء العدو الحديث فقد دعا إلى سياسة تبلغ من التسامح والحكمة ما بلغت السياسة التى اتبعت فى سنة ١٨٠١ ، والتى أعادت الوحدة السياسية إلى وطنه المنقسم على نفسه . وقد نظر جيفرسون إلى الأمام فى أمل متوقعاً تغييرا فى الروح والحكام فى انجلترا مما يسمح بقيام ما تمناه بقوة من علاقات الأخوة الإنجليزية الأمريكية فى المستقبل .

مزارعى ، وحديقتى ، وأحفادى

لقد اعتزلت العمل وعشت فى مونتيسلو فى أحضان أسرتى ، وإنى وأنا محوط بكتبى أستمتع براحة كنت غريبا عنها زمنا طويلا . فأوقات الصباح مخصصة للمراسلة ، وأمضى وقتى من ساعة الإفطار حتى الظلام فى الاجتماع والتسلية مع جيرانى وأصدقائى وأطالع على ضوء الشموع حتى وقت النوم المبكر . وإن صحتى تامة ، وقد ازدادت قوتى جداً بما يمتلئ به النظام الذى أتبعه من نشاط ، وربما وهن من العظم بقدر ما يتهيأ عادة لنصيب من يبلغ سن السابعة والستين عاماً تقريباً .

إننى أتحدث عن المحاريث والأخاديد والزرع والحصاد مع جيرانى ، وعن السياسة أيضا ، إن هم اختاروا ، بتحفظ قليل مثل بقية إخوانى من المواطنين ، وأشعر فى النهاية بنعمة الحرية فى أن أقول وأن أفعل ما يرضينى دون أن أكون مسئولا عن ذلك أمام أى مخلوق .

وليس هنالك عمل ممتع لدى مثل زراعة الأرض ، كما أنه ليس هنالك زراعة يمكن مقارنتها بزراعة الحديقة . فما أكثر التنوع فى المزروعات ، إذ يوشك أحدها

دائماً على بلوغ الكمال ويكفى فشل أحدها تعويضاً بنجاح آخر ، وبدلا من محصول واحد يوجد محصول مستمر خلال العام . ولا أزال موجها كل همى للحديقة بسبب انعدام الطلب إلا فيما يتصل بمائدة أسرتنا .

لقد استمتع فرانسز ابس بصحة متصلة كاملة ، وهو سعيد سعادة حقيقية . ولم يحظ إلا بنجاح ضئيل حتى الآن فى استعمال مصايده ، أو قوسه وسهامه . وهو الآن مشغول بمسابقة أدبية مع قريبته فيرجينيا إذ كلاهما قد بدآ يكتبان معاً . وإن أسرتك المكونة من ديدان القز (يا عزيزتى كورنيليا Cornelia) قد انخفض عددها حتى أصبحت فرداً واحداً . وهو الآن ينسج خيوطه ، ولكى أشجع فيرجينيا ومارى على أن تعنيا به فإنى أخبرهما بأنه حالما تستطيعان الحصول على أزياء العرس من هذا النساج فإنهما ستتزوجان . وإنى أقترح نفس الشيء عليك ؛ إذ لكى نعجل عمله فإننا نرجو أن تسارعى بالحضور إلينا لأننا نتمنى جميعاً أن نراك ، وأن نعبر شخصياً ، لا بالمراسلة ، عن حبنا القلبى الأكيد .

(ملاحظة) إن البنات يرغبن إلىّ أن أضيف ملاحظة بعد الانتهاء من كتابة هـذا الخطاب لأخبرك بأن مسز هيجينبوثام Mrs. Higginbotham قد أعطتهن عرائس جديدة .

إننى أود منك (توماس جيفرسون راندولف وكان عندئذ فى فيلادلفيا) أن ترسل إلىّ تسع أقدام من سلسلة نحاس لتعليق المصباح الرخامى ، وثمانيا وأربعين قارورة لحفظ بذور الحديقة . ولا بد لى من أن أرجوك أن تضع ستة أرطال من النورة « بودرة » الشعر المعطرة فى نفس الصندوق ؛ إذ لا يمكن الحصول عليها هنا وهى تكاد تكون ضرورة من ضرورات الحياة عندى .

تربة البيمارس وجيرانها — الحرث

إن هذا الإقليم أحمر وملىء بالتلال ، وهو يشبه كثيراً إقليم شامبانى Champagne وبيرجاندى Burgandy فى طريق سنس Sens وفيرمانتون Vermanton وفيتو Vitteuax وديجون Dijon وعلى جانب كوت Côte إلى شانى Chagny ومهيأ أعظم

التهيؤ لزراعة القمح والذرة والبرسيم ، وهو مثل جميع الأقاليم الجبلية صحى تماماً . . . وتتوافر الملاحة للسفن حمولة ستة أطنان من شارلو تسفيل إلى ريتشموند وهى السوق الرئيسية لإنتاجنا . وهذا الإقليم هو ما نسميه آهلا بالسكان ؛ فى إقليمنا البيارل يعيش حول عشرين ألف ساكن أو سبعة وعشرين لكل ميل مربع ، ومع ذلك فنصفهم أناس ملونون سواء من الرقيق أو الأحرار . وإن المجتمع هنا أفضل كثيراً مما هو شائع فى الأقاليم والريف . وقد لا يكون هناك مجتمع إقليمى خير منه فى الولايات المتحدة . ولكن لا تتصور أن هذا مجتمع باريسى أو أكاديمى ؛ فهو يشتمل على جيران بسطاء وأمناء وعقلاء ؛ بعضهم من الأشخاص العارفين المطلعين ، ولكنهم جميعاً يشرفون على مزارعهم ويمتازون بالكرم والود .

.. إن الجو الحاضر الممتع قد اجتذبنا جميعاً إلى مزارعنا وحدائقنا . ولقد نزل عندنا أشد ما عرفنا من الأمطار تدميراً . . . فإنى لم أر مطلقاً الحقول وقد أصابها مثل هذا الضرر الكبير . وإن مزرعة مستر راندولف (أدجهيل) هى المزرعة الوحيدة التى لم تتعرض للضرر ؛ فالأخاديد الأفقية التى صنعها قد أوقفت الماء عند كل درجة حتى غاض ، أو على الأقل حتى رسب التربة التى حملها . ولقد أخذ كل شخص فى المنطقة يتبع طريقته فى الحرث .

إن المحراث بالنسبة للفلاح أشبه بالعصا السحرية عند الساحر . فتأثيره حقاً مثل السحر . . ولقد اكتشفنا استعمالا جديداً له يكاد يماثل فى القيمة خدماته المعروفة من قبل . . . فنحن الآن نحرث بطريقة أفقية متبعين انحناءات التلال والوديان ؛ إذ قلما تنقل الآن أوقية تربة من مزرعة تحرث بعمق وبطريقة أفقية ، ولا يستطيع شىء من ناحية الجمال أن يفوق جمال الخطوط والسطور المتموجة وهى تنعطف على طول وجه التلال والوديان :

إننى لا أخشى المخترعات — المحاريث والغواصات

إن الجمعية الزراعية للسين Seine أرسلت إلى أحد محاريث « جويوم «Guillaume المشهورة والتى اشتهرت لاقتصارها على أخذ نصف القوة المحركة مما كان يتطلبه

استعمال أفضل محاريثهم من قبل . وقد طلبوا إلى فى الوقت نفسه أن أرسل إليهم محراثاً من خير محاريثنا ومركبا به لوح التراب الناعم : . . ولقد صنعت المحراث ، وإنى لأكون مخدوعاً جداً إن لم يكتشف أنه يعطى مقاومة أقل من محراثهم . وفى الواقع أرى أنه أدق محراث صنع فى أمريكا . وسوف يمضى بعض الوقت (ربما شهر) قبل أن يتوافر لعمالى الوقت لصنع المحراث الذى سأرسله إليك (شارلز و . بيل Charles W. Peale) ولك الحرية التامة فى أن تستخدم شكل لوح التراب الناعم ؛ كما أن للعالم جميعه تلك الحرية ، إذ لم يخطر ببالى مطلقاً أن أحتكر بوساطة حقوق الاختراع أية فكرة مفيدة يصادف أن تطرأ لى .

إن علم الدكتور فرانكلين قد نال تقديراً عادلا ، لأنه كان دائماً يحاول أن يوجهه إلى شىء نافع فى الحياة الخاصة . وإن الكيمويين لم يعنوا عناية كافية بالأشياء المنزلية مثل الإنبات بالنقع مثلا ، وصنع الجعة ، وشراب التفاح ، والتخمير ، والتقطير على وجه العموم ، وإعداد الخبز ، والزبد ، والجبن ، والصابون ، وتفريخ البيض ، وغير ذلك لجعل كيميا هذه الموضوعات سهلة الفهم عند ربات بيوتنا الصالحات .

إننى لست خائفاً من المخترعات أو التحسينات الجديدة ، كما أنى لست متعصباً ضد عادات أجدادنا ؛ فإن ذلك التعصب هو الذى يبقى الهنود فى حالة بربرية . ولا يزال يبقى على ذلك كونيكتيكت حيث كان أسلافهم عندما نزلوا بهذه الشواطئ . فحيثما يعتمد اختراع جديد على المبادئ المعروفة ، ويبشر بأن يكون نافعاً ، فإنه ينبغى أن يجرب . أما أن يكون المحافظون ضدك (روبرت فولتون) فهذا أمر منتظر منهم ؛ فسفنك البخارية ستكون مصدر نعمة دائمة لوطنك . وإنى لآمل أن نسافاتك سوف تنتصر على أصدقائك المتشككين وأعدائك المدعين . وإذ أننا لا نستطيع أن نقابل البريطانيين بقوة مادية مساوية لقوتهم فإنه يجب أن نزود قوتنا بمبتكرات أخرى مثل المدافع التى تطلق من تحت الماء أو النسافات أو الغواصات . وأعترف أن عندى آمالا أكبر فى السفينة الغواصة : . . فلا يعارض ذلك أى قانون من قوانين الطبيعة ، وفى تلك الحالة لا ييأس الاختراع الإنسانى من شىء .

الغنم المستوردة وصناعاتى المنزلية

إننى أشكرك (ماديسون) لمــا وعدت به من عناية بنصيبى من غنم المرينو . : فماذا تفعل بها ؟ إننى ضقت ذرعاً بالاغتصابات الشائنة التى طبقت أخيراً فى بيع هذه الحيوانات ، وبوصف البائعين بالوطنية والثناء عليهم ، حتى أصبحت ميالا لأن أعد كل ما يناقض ما فعلوا صواباً وحقاً وان القليلين الذين يستطيعون القيام بذلك سوف يتحملون نفقة جميع التحصينات الجديدة ويتعرضون لمخاطراتها . وإنى أقدم فكرة أولى : فلنعط جميع الذكور القوية التى نستطيع تربيتها للمقاطعات المختلفة فى ولايتنا ، بأن نعطى واحداً لكل منها بالسرعة التى نستطيع بها إنتاجها . . فيمكن لولاياتنا جميعها أن تملأ على هذا النحو فى مدى سنين قليلة بهذا النوع القيم من الغنم ونحس بذلك من الرضا ما يعجز المال وحده عن تحقيقه . وسوف يكون هنالك خطر من أن ما تقترحه هنا ولو أنه عمل يوحى به الواجب العادى قد يساء فهمه ويظن أنه من أعمال الزهو ، ولكن الخبث سيعزو دائماً الأعمال الطيبة إلى نوازع سيئة . فهلا نمتنع لهذا السبب امتناعاً مطلقاً عن فعل الخير ؟

إن صناعاتى المنزلية قد أخذت فى العمل على نطاق آلة للحلج والتمشيط تكلف ٦٠ دولاراً فقط ، ويمكن أن تدار بوساطة فتاة فى سن الثانية عشرة ، وآلة للغزل يمكن صنعها بعشرة دولارات تحمل ستة مغازل للصوف وتدار بوساطة فتاة أيضاً ، وآلة يستطاع صنعها بخمسة وعشرين دولاراً تحمل اثنى عشر مغزلا للقطن ، ونول « بمكوك » ينسج عشرين ياردة يومياً . وإنى أحتاج لكساء أسرتى إلى ألنى ياردة من الكتان والقطن والصوف سنوياً التى سوف يزودنا بها هذا الجهاز الذى يكلف مائة وخمسين دولاراً فقط ويدار بوساطة امرأتين وفتاتين .

أما عن البضائع الدقيقة الجميلة فهنالك مؤسسات عديدة تقوم بصنعها فى المدن الكبيرة ، وينمو إلى جانبها عدد كبير منها كل يوم : وأما عن غنم المرينو فلدينا منها بضعة آلاف ، وهذه تتضاعف بسرعة ، وإننا نرى أن نعجة واحدة كافية للملبس الصوفى لكل شخص . . . ونحن متقدمون تقدماً مماثلا فى السلع الأخرى حتى إنه

أصبح من المحقق أننا لن نتجه ثانية إلى إنجلترا للشراء بشلن حيث كنا نذهب إليها لشراء ما قيمته دولار . فسوف تنمو نعمة عظيمة لنا من شرور التسخير و « أوامر المجلس » . ولم أكن من قبل داعية إلى إنشاء المصانع الكبيرة ولكن اعتبارات أخرى قد دخلت فى هذا الموضوع وقضت على ما كان يساورنى من شك .

لدى عملان عظيمان أقدرهما من كل قلبي

لقد أصبح جزء من عملى — وليس أقل أجزائه إمتاعاً — قائماً على توجيه دراسات الشباب ممن يطلبون إلى ذلك . فهم يقيمون فى القرية المجاورة ، ولهم الحق فى استعمال مكتبتى والاستنارة برأيى ويقضون بعض الوقت فى الاجتماع بى . . وإنى أحاول أن أجعل اهتمامهم مركزاً فى الأهداف الرئيسية للعالم كله متمثلة فى تحقيق حرية الإنسان وسعادته . ولذلك عندما يحين الوقت لأن يحملوا نصيباً فى مجالس بلدهم وحكومتها فإنهم سيجعلون منها دائماً الأغراض الوحيدة لكل حكم شرعى .

إن لدى حقين مشروعين أقدرهما أعمق التقدير ، فبدونهما لا تستطيع جمهورية أن تحافظ على نفسها فى قوة : وأولهما مشروع التعليم العام ليمكن كل فرد من أن يحكم لنفسه على ما سوف يكفل حريته أو يعرضها للخطر ، ثانيهما مشروع تقسيم كل مقاطعة إلى مائة قسم يبلغ كل منها حجماً يهيئ لأطفاله أن يكونوا على مقربة من مدرسة مركزية فيه . ولكن هذا التقسيم يستهدف تحقيق أغراض أساسية أخرى كثيرة . فكل مائة قسم ينبغى أن تكون هيئته تدير جميع مرافقها كما يفعل أعضاء بلديات المدن فى الولايات الشرقية . . وإن هذه الجمهوريات الصغيرة سوف تكون القوة الأساسية لجمهوريتنا العظيمة . ونحن ندين لها بالحيوية التى زودت بها ثورتنا فى أثناء بدئها فى الولايات الشرقية ، وبوساطتها تمكنت الولايات الشرقية من إلغاء أوامر الحظر على مغادرة السفن لموانينا معارضة للولايات الوسطى والجنوبية والغربية ، وأقسامها الكبيرة الخرقاء من مقاطعات لا يستطاع مطلقاً أن تجتمع . فالأوامر العامة تعطى من مركز لرئيس كل مائة قسم ، كما تعطى لكل « جاويش » فى الجيش فتأخذ

الأمة كلها فى العمل النشط وفى نفس الاتجاه فى لحظة واحدة وكرجل واحد ، وتصبح بذلك قوة لا يمكن مقاومتها على الإطلاق .

المكتبات العامة والقرية الأكاديمية

لا يقوم شيء بفعل خير كبير بثمن صغير على نطاق واسع أكثر مما تفعله مكتبة متنقلة صغيرة فى كل مقاطعة تشتمل على كتب قليلة مختارة لتعار للناس مما يعطيهم فكرة عامة عن تاريخ البلاد الأخرى ، وفكرة خاصة عن تاريخ بلدهم ، ومعرفة معقولة للجغرافيا ، وعناصر الفلسفة الطبيعية والزراعة والميكانيكا . وإن خدماتى فى هذا السبيل رهن الطلب .

ولا يوجد أحد نشر المعرفة فى إخلاص بين البشرية أكثر مما أفعل ، وليس هناك من لديه ثقة أعظم منى فيما تقوم به هذه المعرفة من تأييد لنظام الحكم الصالح الحر ؛ ولهذا فإنى مبتهج حقاً بأن أجد اعتماداً كبيراً قد جمع لهذا الغرض النبيل فى تنيسى . ؟ وإنى أرى أن التصميم العام (للكليات) المتبع فى هذا البلد من إقامة بناء واسع عظيم التكاليف أمر لسوء الحظ مجاف للصواب ، فإنه من الأفضل كثيراً أن نبنى مسكناً صغيراً ومنفصلا لكل « أستاذية » أو فرع من فروع التخصص العلمى مكون من بهو فى الدور الأسفل لإلقاء المحاضرات وغرفتين خاصتين بالأستاذ فى الدور الأعلى ، وأن نصل هذه المساكن بمنازل لنسبة معينة من الطلبة ، وأن تفتح فى طريق مغطى ليهيئ طريقاً محمياً من المطر بين جميع المدارس . وإن مجموعة هـــذه المبانى المرتبة حول مربع مفتوح من الخضرة والأشجار سوف يجعل منها ما سوف يكون فى الواقع قرية أكاديمية . ولقد أقنعتنى منذ مدة الملاحظة الكثيرة والتأمل الطويل عن هذه المؤسسات بأن المبانى الكبيرة المزدحمة التى يحشر فيها الشباب ليست على السواء موافقة للصحة والدراسة والعادات والأخلاق والنظام . وإن هذا النظام لا يسود إلا بلادنا .

زنوجنا وهنودنا

ليس هنالك من الأحياء من يود فى إخلاص أكثر مما أود أن أرى تفنيداً كاملا

للشكوك التى ساورتنى وعبرت عنها بشأن درجة الفهم التى خصت بها الطبيعة الزنوج . . ولكن مهما كانت درجة موهبتهم فهى ليست معياراً لحقوقهم . فتفوق السير إسحق نيوتون على الآخرين فى الفهم لا يعنى لهذا السبب أنه سيد الآخرين فى أشخاصهم وأملاكهم . أما عن موضوع الرق فإن آرائى أصبحت منذ زمن طويل ملكاً للجمهور ومعروفة له ، وقد أثبت الزمن صدقها وقوى جذرها . وإن حب العدالة وحب الوطن يقفان كذلك إلى جانب هؤلاء الناس ويدافعان عن قضيتهما ، وإنه لمن العار الأخلاقى علينا أنهما قد دافعا عنها طويلا دون جدوى . . ومع ذلك فإن ساعة التحرير آخذة فى التقدم فى ركب الزمن . . وسوف تأتى .

إن مشروع نقل الهنود إلى حالة الحضارة هو من غير شك أفضل كثيراً من المشروع القديم الذى لا أثر له ، والذى كان يبدأ أول ما يبدأ بالمبشرين الدينيين . ولقد أثبتت تجربتنا أن هذه الخطوة يجب أن تكون آخر خطوة فى العملية . وإن المشروع الآتى هو ما ثبت نجاحه : (أولا) تربية الماشية وغيرها وبذلك يحصلون على معرفة بقيمة الملك (ثانياً) الحساب ليحصوا تلك القيمة (ثالثاً) الكتابة ليحفظوا الحسابات وهنا يبدأون فى تسييج المزارع ، ويبدأ الرجال فى العمل ، والنساء فى الغزل والنسج (رابعاً) قراءة أساطير إيسوب Aesop's Fables وروبنسون كروزو Robinson Crusoe هىّ متعتهم الأولى . وقد بلغ الكريك Creeks والشيروكى Cherokees هذه المرحلة من التقدم وأخذ الشيروكى الآن فى إقامة حكومة نظامية .

الرياضة كانت دائماً دراستى المفضلة

إننى أكتب من بوبلار فوريست وهى قرية من نيو لندن فى هذه الولاية وتبعد تسعين ميلا عن مونتيساو . وإنى أزور هذا المكان ثلاث أو أربع مرات سنوياً ، وأقيم مدة تتراوح بين أسبوعين وشهر كل مرة ؛ ولقد هيأت كل وسائل الراحة للمقام ، وأحتفظ ببعض الكتب هنا ، وأحضر معى بعض الصحاب من حين لآخر وأعيش فى عزلة الناسك ، وأجد من الفراغ ما يسمح لى برعاية أصدقائى الغائبين . . وإذ كان علىّ أن أشرف على حفيدى فى دراسته للرياضة فقد استأنفت تلك الدراسة

بإقبال عظيم . ولقد كانت دائماً دراستي المفضلة ، فليس عندنا ثمة أية نظريات ولا يكتنف ذهننا أي غموض ؛ فكل شيء يعتمد على البرهان والإقناع . وإني أقوم بعملي بسرور ونجاح يفوقان ما كنت أتوقع ، وذلك للأساس الطيب الذي وضع في الكلية بوساطة أستاذي القديم وصديقي سمول ؛ وعندي آلة جيب (لقياس ارتفاع الشمس لمعرفة الطول والعرض) ذات دقة عجيبة إذا ما نظرنا إلى تقسيمها الميكروسكوبي إلى درجات . ولقد حققت بهذه الآلة خط عرض بوبلار فوريست — أي نيولندن — بالملاحظات المضاعفة ، وحققت أخيراً خط عرض جبال ويليس Willis .

الصداقة مثل الخمر

إن رحلتي إلى « بوبلار فوريست » في مركبة صغيرة صعبة قد سببت لي آلاماً كبيرة . . . وإن فقدان القدرة على التريض سوف يكون محنة قاسية لي ؛ فقلة الحركة التي استلزمتها وظيفتي قد أضعفت بدناً كان بالطبيعة سليماً ومليئاً بالحيوية ، وهي تسوقه الآن إلى نهاية مبكرة . ولكنه مع ذلك سيبقى طالما أريد له البقاء . وهنالك مرحلة من الحياة إذا ما جاء أوانها وجب على الناس أن يذهبوا وألا يشغلوا طويلا المجال الذي يحق للغير أن يتقدموا إليه . ويجب أن نستمر طالما نتبادل هنا من وقت لآخر تمنياتنا الطيبة . وإني أجد الصداقة مثل الخمر غير ناضجة في جدتها وناضجة في قدمها ، وأجدها اللبن الصافي للرجل الكهل وشرابه المقوى لقلبه والمجدد لصحته .

لقد تسلمت بالتقدير ملاحظاتك عن انقطاع المكاتبة الودية بين مستر آدمز وبيني والعناية التي تبذلها (دكتور بنيامين رش) في إعادتها ، وإن هذا الانقطاع لم يصدر عني ، فأنت تعرف الاتفاق التام في المبدأ والعمل في أثناء الجزء الأول من الثورة بين مستر آدمز وبيني . . ولو أنه مال بعد ذلك نحو مبادئ الدستور الإنجليزي فإن صداقتنا لم تفتر بسبب ذلك . . كما أن قليلا من الوقت والتأمل قد محا في ذهني خيبة الأمل المؤقتة التي نجمت عن التعيينات التي أصدرها آدمز في منتصف الليلة التي غادر فيها منصب رياسة الجمهورية . . وإذ أني بعد ذلك بعامين فقدت

لسوء الحظ ابنة كان بينها وبين مسز آدمز علاقة ود قوية فقد انتهزت تلك الفرصة لتكتب إلى خطاباً يشتمل على أرق عبارات الحزن لذلك الحادث ، وتجنبت بدقة ذكر أى تعبير ودى نحوى ، بل وختمته بتمنيات « تلك التى كانت يوماً تشعر بالسرور أنها صديقتك ابيجايل آدمز Abigail Adams » ورغم أن مظهر هذا الخطاب لم يكن مشجعاً فقد عزمت أن أبذل جهداً نحو تبديد السحب من بيننا . . فسرعان ما وجدت أن محاولة الصلح محاولة يائسة ، وأننى من المؤكد لن يعوزنى أى شىء من قبلى مما قد يعزز جهودك .

إن كل عواطفى القديمة قد تجددت نحو جون آدمز الأمين

إننى أعود إلى موضوع خطاباتك الرقيقة المتصلة بالمستر آدمز وبى الذى أثاره مرة ثانية حدث قريب ، فاثنان من جيرانى وأصدقائى قد اجتمعا فى الصيف الماضى (١٨١١) بالمستر آدمز وقضيا يوماً معه فى برينترى Braintree بدعوة منه . وقد أفصح لهما عن كل شىء ثار بذهنه حسب وروده بخاطره . . . وبين موضوعات أخرى كثيرة أشار إلى فحش الصحافة فى مهاجمتى ، وأضاف إلى ذلك قوله : « إننى أحببت دائماً جيفرسون ولا أزال أحبه » .

وهذا كاف بالنسبة إلى ، فإننى كنت محتاجاً فقط إلى هذه المعرفة لأجدد نحوه كل عواطف الود التى ارتبطت بحياتنا . . . إذ عرفته دائماً رجلا أميناً وعظيماً فى أغلب الأحيان ، وإنما يكون أحياناً غير دقيق ومتعجلا فى أحكامه . . . ولقد عملت شخصياً على إنصافه دائماً ودافعت عنه حين كان يهاجمه الآخرون إلا بالاستثناء الوحيد فيما يتصل بآرائه السياسية إذ لماذا نقاطع رجلا ذا صفات قيمة أخرى لمجرد اختلافنا معه فى الرأى فى السياسة أو فى الدين ، أو فى الفلسفة ، أو أى شىء آخر ؟ فآراؤه قد تكونت بأمانة مثلما تكونت آرائى . وإن وجهات نظرنا المختلفة هى نتيجة اختلاف فى بنياننا العضوى وفى تجربتنا . ولم أتخل أبداً عن صداقة أى شخص لهذا السبب ، وإنه لأبعد من ذلك أن أتخلى عن صحبة رجل رافقته باليد والقلب خلال المحن الكثيرة .

لقد ركبنا خلال العاصفة بقلب جسور ويد قوية

إن خطاباً منك (جون آدمز) يستثير فى ذهنى ذكريات عزيزة جداً إلى نفسى . فهو يعيد إلىّ الماضى ، ويحملنى إلى أزمان حين كنا ونحن مواجهون بالصعاب والأخطار زملاء نعمل معاً فى خدمة قضية واحدة ، ونجاهد لتحقيق أثمن شيء للإنسان ، وهو حقه فى الحكم الذاتى . وإذ كنا نعمل جاهدين بنفس المجداف ، وهنالك دائماً موجة أمامنا تهدد بسحقنا وإغراقنا ، ومع ذلك تمر تحت مركبنا دون إلحاق أذى بنا فإننا لم ندر كيف ركبنا خلال العاصفة بقلب جسور ويد قوية ، وبلغنا الميناء فى توفيق وأمان . وإننا مع ذلك لم نتوقع أن نخلو من النوازل والصعاب ، وفعلا قوبلنا بها . فأولا الاحتفاظ بالمراكز الغربية وبعدئذ تحريم التجارة مع فرنسا . . وفى عهدك السلب والنهب الفرنسى : وفى عهدى مراسيم انجلترا وبرلين وميلان ، والآن الأوامر الإنجليزية التى صدرت فى المجلس وأمور القرصنة التى تكفلها . . . وهكذا سرنا ، وظللنا ، وهكذا سنستمر حيارى ومزدهرين دون أن يجارينا فى ذلك مثيل فى تاريخ الإنسان .

وإنى أعتقد أننا سنستمر فى النمو والازدياد والنجاح حتى نبنى مجتمعاً قوياً حكيما وسعيداً فوق ما شهده الناس حتى الآن ، أما فرنسا وانجلترا رغم تفوقهما فى العلم فإن إحداهما مغارة للصوص ، والأخرى للقراصنة . وإذا لم ينتج العلم ثماراً أفضل من الاستبداد والقتل والسلب والحرمان من الخلق القومى فإنى أوثر أن تكون بلادنا جاهلة أمينة محترمة كما هى عليه حال جيراننا غير المتحضرين .

ولكن إلى أين يقودنى هذر الشيخوخة ؟ هل إلى السياسة التى تركتها نهائيا ؟ إننى أفكر الآن قليلا فيها وأتكلم عنها أقل . وقد عـــدلت عن قراءة الصحف واستبدلت بها الاطلاع على تاسيتوس Tacitus ، وثيوسيديدز Thucydides ، ونيوتون ويوكليد Euclid ، وإنى أجد نفسى أسعد بذلك كثيراً . وإنى أحياناً أنظر إلى الوراء ، إلى الأحداث السابقة متذكراً أصدقائى القدماء ، وزملائى العاملين معى ، الذين سقطوا فى

الجهاد قبلنا ؛ فمن بين الموقعين على إعلان الاستقلال الأمريكى لا أرى الآن ممن يعيشون منهم أكثر من ستة على جانبك من البوتوماك ، وعلى هذا الجانب أرى نفسى وحيداً . فأنت وأنا قد بقينا ، وإنى أستمتع بصحة ملحوظة ، ونشاط كبير فى البدن والعقل . وأقضى ثلاث أو أربع ساعات كل يوم على صهوة جوادى ، وأزور ثلاث أو أربع مرات كل عام مزرعة أمتلكها على بعد تسعين ميلا ، وأقوم برحلة الشتاء راكبا الجواد . وأمشى مع ذلك قليلا ، فإن ميلا واحداً كثير جداً على ، وأعيش وسط أحفادى وقد رقا أحدهم أخيراً إلى مرتبة الجد الكبير .

ولقد سمعت بسرور أنك تحتفظ بصحة جيدة ، وقوة على التريض بالسير أعظم منى . ولكنى كنت أوثر أن أسمع هذا منك شخصياً . ويسرنى ، وأنت تكتب إلى خطاباً مليئاً مثل خطابى بالأنباء الذاتيـــة والتفاصيل عن صحتك وعاداتك وأعمالك ومسراتك ، أن أعلم أنك فى سباق الحياة لا تحتفظ فى انحدارها البدنى بنفس المسافة التى كنت تسبقنى بها فى أعمال السياسة ومراتب شرفها . فلم تقلل أية ظروف الاهتمام الذى أستشعره نحو هذه التفاصيل الخاصة بك ، ولم تعطل لحظة واحدة تقديرى الخالص لك ، وإنى أحييك الآن بحب واحترام لم يتغير .

إن ملاحظة رقيقة فى آخر خطاب المستر آدمز تذكرنى بواجب تحيتك (ابيجايل آدمز) بالصداقة والاحترام . . . وإننى لم أجد نفسى مثقلا ومشغولا بالعمل فى أى فترة من فترات حياتى كما أجد نفسى فى الوقت الحاضر . ويرجع الكثير من هذا إلى شئونى الخاصة ، وكثير منه إلى زيارات الآخرين مما يترك وقتاً ضئيلا للاستغراق فى أعظم المتع عندى وهى القراءة . وقد اعتاد الدكتور فرانكلين أن يقول إنه حين كان شاباً وكان يتوافر عنده الوقت للقراءة لم تكن لديه الكتب ، والآن حين أصبح شيخاً وامتلك الكتب ليس لديه أى وقت . وربما يعود ذلك إلى أنه حين تقوى العادة إحساسنا بالواجبات فإن أداءها لا يترك لنا وقتا للقيام بالأشياء الأخرى ، ولكننا فى عهد الشباب نغفلها ، ومن ثم فإن هذا يعطينا وقتا لأى شىء .

ومع ذلك فإنى الآن أنتهز الفرصة لأسألك عن كيف تسير صحتك ، وكيف سارت

من قبل ؟ كما أنتهزها لأعبر عن الاهتمام الذى آخذه فى كل ما يتصل بسعادتك : ولقد قارنت بعض المذكرات مع مستر آدمز عن بيان الذرية وإنى أجد أننى متفوق عليه ، وأعتقد أن هناك ما يساعد على احتفاظى بذلك التفوق ، فعندى عشرة ونصف من الأحفاد ، واثنان وثلاثة من الأحفاد الكبار ، وسوف تصبح هذه الكسور آحاداً صحيحة قبل مضى وقت طويل .

الأرستقراطية الحقيقية

إننى أوافقك (جون آدمز) على أن هنالك أرستقراطية طبيعية بين الناس . وأن أساسها هو الفضيلة والمواهب . فقديما كانت القوة البدنية تعطى صاحبها مكاناً بين الأرستقراطيين ، ولكن منذ أن سلح اختراع البارود الضعفاء والأقوياء كذلك بموت القذيفة لم تعد القوة البدنية مثل الجمال والمرح واللطف وغيرها من الصفات المهذبة إلا أساساً ثانوياً للامتياز . وهناك أيضاً أرستقراطية مصطنعة قائمة على الثروة والمولد من غير فضيلة أو مواهب ؛ إذ بهما سوف تتبع النوع الأول ، أما الأرستقراطية الطبيعية فإنى أعدها أثمن منحة من الطبيعة لتعليم المجتمع وحمل أماناته وحكمه . ولو أن الإنسان قد صور ليعيش فى حالة اجتماعية دون أن يزود بفضيلة وحكمة كافيتين لإدارة شئون المجتمع لعـــد ذلك أمراً متناقضاً حقاً فى الخلق . بل إن لنا أن نقول إن خير شكل للحكم هو ذلك الذى يقدم أحسن الفرص وأفعلها للانتخاب الخالص لأولئك الأرستقراط الطبيعيين فى مناصب الحكم ؟ فإن الأرستقراطية المصطنعة عنصر ضار فى الحكم ويجب أن يوضع التدبير الذى يحول دون سيادتها .

أما خير تدبير يستعان به فإننى وأنت نختلف على ذلك ، ولكننا نختلف كأصدقاء عقلاء . . . فأنت ترى من الخير أن يوضع أشباه الأرستقراط فى مجلس تشريعى منفصل حيث يمكن منعهم من الاضرار بالشعب بفروعهم المتبارزة ، وحيث يمكن أن يكونوا حصناً للثروة ضد ما تقدم عليه أكثرية الشعب من مشروعات الزراعة والنهب . وإنى أعتقد أن منحهم سلطة لمنعهم من الاضرار بالأمة إنما هو تسليح لهم للإقدام على هذا الاضرار ومضاعفة للشر بدلا من علاجه : . وأرى أن خير علاج

هو نفس العلاج الذى تهيئه جميع دساتيرنا وهو أن يترك للمواطنين الانتخاب الحر وفصل الأرستقراط عن أشباه الأرستقراط والقمح عن القش . .

وإنه لمن المحتمل أن اختلافنا فى الرأى قد ينشأ إلى حد ما باختلاف أخلاق أولئك الذين نعيش بينهم . . . إذ يبدو أن هنالك فى مساشوستس وكونيكتيكت إجلالا تقليديا لبعض الأسر مما يكاد يجعل موظفى الحكومة وراثيين . . ولكن بالرغم من أن هذا قد يؤسس إلى حد ما على مزايا حقيقية للأسر إلا أنه قد نشأ إلى حد أكبر على ما لديكم من تحالف دقيق بين الكنيسة والدولة . فهذه الأسر قد بلغت مرتبة التقديس فى أعين الشعب على أساس المبدأ العام : « أنت تساعدنى وأنا أساعدك » .

أما فى فيرجينيا فليس عندنا شىء من هذا . . فإن القوانين التى وضعتها قد أعملت الفأس فى جذر الأرستقراطية المزيفة . . ولو أن قانونا آخر أعددته قد ووفق عليه لكان عملنا قد كمل . فكان مشروع قانون لنشر التعليم على نطاق أعم وأوسع . . وكان يمكن على هذا النحو أن نبحث عن الجدارة والعبقرية فى كل طبقة من طبقات المجتمع وأن نعدهما بالتعليم إعدادا تاما لهزيمة تنافس الثروة والمولد لتولى المناصب العامة . . وإن عندى أملا عظيما فى أن شخصا ما وطنيا سوف يحييه ويجعله الحجر الرئيسى فى بنيان حكومتنا .

إن كل جيل ينبغى أن يحكم نفسه

إن الفكرة القائلة بأن النظم الموضوعة لخدمة الأمة لا يمكن أن تمس أو تعدل حتى لجعلها تؤدى غرضها بسبب الحقوق المفترضة فى أولئك الذين يوظفون لإدارتها لصالح الجمهور ، قد تكون تدبيرا نافعا ضد سوء التصرف الذى يصدر عن ملك من الملوك ، ولكنه تدبير غير معقول ضد الأمة نفسها . ومع ذلك فإن المحامين والقسس عندنا يعلمون عادة هذه النظرية ويفترضون أن الأجيال السابقة كانت تملك الأرض بحرية أكثر مما تفعل ، ولها الحق فى أن تفرض القوانين علينا دون أن نستطيع تغييرها بأنفسنا وإننا كذلك نستطيع أن نشرع القوانين وأن نفرض الأعباء على الأجيال المقبلة التى ليس لها حق فى تغييرها ، وبالإيجاز إن الأرض ملك للموتى لا للأحياء .

إن الأرض ملك للأحياء لا للموتى . وإن إرادة الإنسان وقوته تنتهيان بانتهاء حياته حسب قانون الطبيعة . . . وكل جيل له حق الانتفاع بالأرض مدة العهد الذى يستمر فيه . وحين ينتهى وجوده ينتقل حق الانتفاع إلى الجيل الذى يعقبه حرا دون أن يعتاقه عائق . . . وإن عهد جيل من الأجيال أو مدة حياته يتقرر بقوانين الحياة والموت .

وإنى أرجع مثلا إلى جداول بيفون Buffon وأجد من بين الكبار الذين يعيشون فى لحظة ما وتعمل أكثريتهم فى خدمة المجتمع أن نصفهم سيموت فى مدى ثمانية عشر عاماً وثمانية أشهر . وقد اكتشف أنه من الملائم أن نسمح لقوانين أسلافنا أن تستمر برضا ضمنى منا . . . ولكن هذا لا يقلل من حق الإلغاء كلما تطلب ذلك تغير فى الظروف أو الإرادة ؛ فالعادة وحدها هى التى تخلط ما هو تطبيق مدنى بما هو حق طبيعى .

الدين والأخلاق — الخير الاجتماعى هو مقياس الفضيلة

إنى أعتقد (دون استناد إلى الوحى) أنه حين ننظر إلى العالم فى أجزائه العامة أو الخاصة فمن المستحيل على العقل الإنسانى ألا يرى ويشعر بالاعتقاد أن هنالك تدبيراً ومهارة بالغين منتهى الكمال ، وقوة غير محدودة فى كل ذرة من تكوينه . فحركات الأجرام السماوية التى تسير بدقة فى مجراها بتوازن القوى الصادر عن المركز والمنجذبة إليه ، وتركيب الأرض نفسها بما تشتمل عليه من توزيع الأراضى والمياه ، والجو والأجسام الحيوانية والنباتية إذا ما درست فى جميع ذراتها الدقيقة ، والحشرات ، وهى مجرد ذرات للحياة ، ومع ذلك فهى منظمة بنفس الكمال الذى ركب عليه الإنسان أو الماموث ، والمواد المعدنية فى تكوينها ومنافعها — كلها تقنع العقل الإنسانى أن فيها جميعاً تدبيراً وعلة ونتيجة تتصل بعلة نهائية ووجود « صانع » لجميع الأشياء من المادة والحركة ، و « حافظ » و « منظم » لها .

وقد أقنعنى الاطلاع والتأمل والزمن أن مصالح المجتمع تتطلب مراعاة تلك الأوامر الأخلاقية التى تتفق فيها جميع الأديان (لأنها جميعاً تحرم القتل أو السرقة أو السلب

أو شهادة الزور) وأنه يجب علينا ألا نتدخل فى العقائد الخاصة التى تختلف فيها كل الأديان والتى لا ترتبط أبداً بالأخلاق ؛ ففيها جميعاً نرى رجالا صالحين . ونرى فى كل منها كثرة من هؤلاء مثلما نرى فى الدين الآخر ، وإن الأنواع المختلفة فى تركيب العقل الإنسانى وتصرفه كالأنواع المختلفة فى بنيان الجسم وحركته هى من صنع خالقنا الذى لا يستطاع أن نفرض عليه كواجب دينى إقامة معيار التشابه . ومن الناس من ينتابهم هم غريب من أنه ينبغى أن نفكر جميعاً على نسق متشابه . فهل كان العالم يكون أكثر جمالا لو كانت وجوهنا متشابهة ، ولو كانت طباعنا ومواهبنا وأشكالنا ورغباتنا ونزعات الكره فينا ومساعينا مصبوبة بدقة فى نفس القالب؟ وإذا لم تكن هناك أنواع مختلفة فى خلق الحيوان أو النبات أو المعدن ، بل كانت جميع الكائنات تتحرك بدقة فى تشابه واستقامة وشمول ، فأى عالم من الاطراد المادى والمعنوى يكون هذا العالم ؟

إنه لمن المؤكد أن الحقيقة فرع من الأخلاق ، وفرع مهم جداً للمجتمع ، ولكن اعتبارها أساس الأخلاق أشبه بالشجرة المقتلعة من جذورها حين يكون جذرها مقلوباً فى الهواء ، فأحد فروعها مغروس فى الأرض . وقد جعل بعض المفكرين « حب الله » أساساً للأخلاق ، وان هذا أيضاً ليس إلا فرعاً من واجباتنا الأخلاقية . . فإن نحن فعلنا عملا طيباً من مجرد حب الله فمن أين تنشأ الأخلاق عند الملحد ؟ . . . ولقد فضلت المصلحة الذاتية ، أو بالأوضح حب النفس أو الأنانية على المبادئ السابقة كأساس للأخلاق . ولكنها حقاً ليست ســوى جانبها المقابل . . . فالأعمال الطيبة تعطينا اللذة ، ولكن كيف أمكن لها أن تعطينا اللذة ؟ إن ذلك يرجع إلى أن الطبيعة قد غرست فى صدورنا حب الآخرين ، أى إحساساً بالواجب نحوهم ، وبإيجاز غرست فينا الطبيعة غريزة أخلاقية تدفعنا دون مقاومة لأن نشعر بمصائبهم ونساعدهم عليها . . . فالطبيعة قد كونت « المنفعة » عند الإنسان مقياساً للفضيلة واختباراً لها .

أوهام أفلاطون ولغوه

لقد عدت مباشرة بعد انقضاء فترة طويلة من فترات غيابى لأنى كنت فى بيتى الآخر مدة الأسابيع الخمسة الماضية . وإذ كان لدى هنالك وقت فراغ أطول للقراءة

مما لدىّ هنا فقد سليت نفسى بقراءتى قراءة جدية « جمهورية » أفلاطون . ومع ذلك فإنى مخطىء فى تسميتها تسلية لأنها كانت أثقل عمل قمت به . ولقد حاولت من قبل أن أطلع من وقت لآخر على بعض مؤلفاته الأخرى ، ولكن قلما كان عندى الصبر لإنجاز محاورة كاملة . وبينما كنت أخوض فى أوهام هذا المؤلف وصبيانياته ولغوه غير المفهوم كثيراً ما كنت أسأل نفسى : كيف حدث أن العالم قد قبل طوال هذا الزمن أن يمنح الشهرة لمثل هذا اللغو ؟

ففى الحقيقة أنه أحد السوفسطائيين الممتازين ، وقد استطاع أن يتفادى النسيان الذى غمر زملاءه أولا بأناقة أساوبه ، ولكن خاصة بإدماج أوهامه وتضمينها فى صلب المسيحية المصطنعة وان عقله الملبد بالضباب يقدم دائماً أشباه الأشياء التى ترى رؤية غامضة خلال السحاب فلا يستطاع تعريفها ووضعها فى الشكل أو الأبعاد . ومع ذلك فإن هذا الذى كان ينبغى أن يسلمه للنسيان المبكر قد أكسبه حقاً خلود الشهرة والإجلال . فالكهنة المسيحيون — وقد وجدوا عقائد المسيح ميسرة ومعدة لكل منهم ، وواضحة وضوحاً لا يحتاج إلى شرح — رأوا فى صوفية أفلاطون مواد يمكن لهم بها أن يبنوا نظاماً فكرياً مصطنعاً قد يسمح غموضه بالمناقشة الأبدية ، ويعطى عملا لهيئتهم ، ويهيىء لها الكسب والسلطة والصدارة . وان العقائد التى صدرت عن شفاه السيد المسيح هى فى دائرة فهم طفل ، ولكن آلافاً من المجلدات لم توضح بعد الأفلاطونيات المطعمة فيها ، ولهذا السبب الواضح فإن ذلك اللغو لا يمكن أبداً أن يوضح . . .

ولكن لماذا أجرعك (جون آدمز) هذه الموضوعات السابقة للطوفان ؟ إن ذلك مرجعه إلى أنى مسرور بأن يكون هنالك من هو ملم بها ، ولن يستقبلها كأنها نازلة من القمر . فشباب ما بعد الثورة عندنا قد ولدوا فى ظل نجوم أسعد مما ولدت فى ظلها أنت وأنا ؛ إذ أنهم يكتسبون كل التعلم وهم فى أرحام أمهاتهم ويجلبونه إلى العام جاهز الصنع . وآمل أن يوجه خلفاؤنا اهتمامهم إلى مزايا التعليم . وأقصد التعليم على نطاق واسع وليس تعليم « الأكاديميات » الصغيرة كما تسمى نفسها ، حيث يوجد رجل أو رجلان على إلمام باللغة اللاتينية ، وأحياناً باللغة اليونانية ، ومعرفة

بالكرة الأرضية ، والكتب الستة الأولى ليوكليد ، ويتصور أن هذا هو جماع العلم ويقومان بتعليمه ونقله .

فى اللغة الأمريكية

إن الأساس اللغوى الضئيل الذى وضع فى المدرسة قد ساعدنى خلال حياة مليئة بالكتابة المتعجلة ، وإنى أدين فى أسلوبى للمطالعة والذاكرة بدين أكبر مما أدين به لقواعد اللغة . فأنا أعتمد على الاصطلاح والاستعمال كحكم فى اللغة ، وأعتبر ذلك مانح القانون لقواعد اللغة ، وليست قواعد اللغة هى مانحة القانون للاصطلاح والاستعمال . وإن اللغويين المدققين سوف يدمرون كل قوة الأسلوب وجماله بإخضاعه للسير الصارم على قواعدهم . فإن أنت ملأت المضمر والمجاز فى أسلوب تاسيتوس وسالوست Sallust وليفى Livy وغيرهم فإن أناقة إيجازهم البليغ وقوته ستخبوان . وإن أنت مددت هذه التعبيرات بملء التركيب النحوى كله والمعنى ، فإنها ستصبح تأويلات جامدة عن عواطف غنية . ولكى أشرح المعنى الذى أقصده بمثال إنجليزى فإنى سأذكر شعاراً واحداً من قاتلى شارل الأول (وهو أيضاً الشعار على خاتم التوقيع لجيفرسون) « الثورة بالمستبدين هى طاعة لله » فإن أنت صححت تركيبه النحوى بقولك « الثورة ضد المستبدين طاعة لله » فإنه سيفقد كل التناقض فى اللفظ وجماله .

ولست لهذا صديقاً لما يسمى « التدقيق » فى انتقاء الألفاظ ؛ ولكنى صديق متحمس « للتجديد » اللغوى ، فإنى أعتبر أحدهما مقوضاً لحيوية اللغة وجمالها ، على حين أن ثانيهما يحسن كليهما ويضيف إلى غزارتها .. وإن نقاد أدنبره Edinburgh Reviewers — وهم أقدر نقاد العصر — قد حاربوا إدخال الكلمات الجديدة فى اللغة الإنجليزية ، كما أنهم خائفون على وجه الخصوص من أن يفسدها كتاب الولايات المتحدة . ومن المؤكد أن شعباً نامياً بهذا الاطراد ، ومنتشراً على مثل هذه المساحة الواسعة من البلاد ، وله مثل هذا التنوع فى الأجواء والمنتجات والفنون ، لابد وأن يوسعوا لغتهم لجعلها تحقق غرضها من التعبير عن جميع الأفكار ، جديدة كانت أم قديمة . فالظروف الجديدة التى وضعنا فى ظلها تتطلب كلمات جديدة ، وعبارات جديدة ،

وتحويل الكلمات القديمة لأغراض جديدة . . وإنى أخشى أن يؤدى الخوف من التجديد هنالك إلى موات روح التحسين . أما هنا حيث كل شيء جديد فإننا لا نخشى أى تجديد يقدم لنا خيراً . . وإن استمرت لغة انجلترا جامدة فإنه من المحتمل أننا سنوسع استعمالنا لها ، حتى إن صفتها الجديدة قد تفصلها اسماً وقوة عن اللغة الأم .

تملك أمريكا نصف الكرة الأرضية

إن هنالك مثالا آخر للإنسان ، وقد نهض فى قوته وحطم أغلال مستعمره الظالم ، وذلك فى نصف الكرة الأرضية الذى نعيش فيه . فأمريكا الإسبانية كلها فى ثورة . ولقد أحرز الثوار النصر فى كثير من الولايات ، وسوف يحرزونه أيضاً فى جميعها . ولكن لا يزال هنالك خطر كامن فى أن فنون مستعمريهم القاسية قد كبلت عقولهم بالأغلال وأبقتهم فى مستوى الأطفال من ناحية جهلهم وعجزهم عن ممارسة الحكم الذاتى .

ولكن مهما كانت الحكومات التى ينتهون إليها فسوف تكون حكومات أمريكية لا تشتبك بعد ذلك فى اضطرابات أوربا التى لا تقف عند حد . : فأمريكا لها نصف كرة أرضية خاصة بها ، ويجب أن يكون لها نظام منفصل من المصالح غير خاضع لمصالح أوربا . وإنه ينبغى أن تفيد القارة الأمريكية من الحالة المنعزلة التى وضعتها فيها الطبيعة حتى لا تطير إلينا شرارة حرب تشتعل فى مناطق الكرة الأرضية الأخرى عبر المحيطات الواسعة التى تفصلنا عنها . وسيتحقق هذا الأمل :

وما موقف أوربا بإيجاز نحو أمريكا إلا موقف الاستبداد الشنيع المهين : فأحد نصفى الكرة الأرضية ، وهو منفصل عن الآخر بالبحار الواسعة على كلا الجانبين وله نظام مختلف من المصالح منبثق من الأجواء المختلفة ، والتربات المختلفة ، والمنتجات المختلفة ، وطرق الحياة المختلفة ، وعلاقاته وواجباته المحلية الخاصة قد اضطر لأن يكون تابعاً لجميع مصالح نصف الكرة الأرضية الآخر الحقير ، ولقوانينه ، وتنظيماته ، وأهوائه ، وحروبه ؛

إن السلم هو مبدؤنا ومصلحتنا

إن الإعصار الذى يلفح الآن العالم مادياً ومعنوياً قد حنى ربى العقل والحق فى الوقت نفسه . ففى ثورة العصور الخالدة وضعت الأقدار نصيبنا من الحياة وسط مشاهد اضطراب وعدوان بالغة مبلغاً لم يقدمه عصر آخر من العصور التى نعرفها ، إذ أن كل حكومة ما عدا واحدة فى القارة الأوربية قد قوضت ، وهنالك غاز يتجول فى الأرض بالهلاك والخراب ، وقرصان ينشر البؤس والدمار على وجه المحيط . ولو أننا اضطلعنا برفع جميع المظالم الموقعة على عالم يعلن رفضه لكل تقدير للحق لكان ذلك منا خيالا بالغ الحمق . فبقينا لهذا فى سلم نعانى الأضرار العديدة ، ولكننا على وجه العموم نزداد ونتحسن ونزدهر دون نظير . . . وحين يرهق هؤلاء المتقاتلون بعضهم بعضاً ، ويدفع كل منهم الآخر إما إلى الخراب وإما إلى العقل ، فإننا سنكون قد اكتسبنا نمواً وقوة يضعاننا فى منأى عن الإهانة والاعتداء ، بدلا من الرقاد بين الموتى فى ساحة الحرب الدامية . ومن ثم كان السلام مبدأنا ، وكان السلام مصلحتنا ، كما أنقذ السلام العالم هذا النبات الوحيد الذى أنبتته الحكومة الحرة العاقلة القائمة الآن فيه .

وإذا أمكن الاستمرار فى الاحتفاظ به فإننا سنرى حالا القضاء النهائى على ديننا القومى وتحرير دخلنا لاستخدامه فى الدفاع عن بلادنا وتحسينها ، وسيجمع هذا الدخل كله من الأغنياء الذين يستعملون وحدهم السلع المستوردة ؛ وستفرض عليهم وحدهم جميع ضرائب الحكومة العامة . وإذا ما تحرر دخلنا واستخدم فائضنا فى بناء القنوات والطرق والمدارس وغيرها فإن الفلاح سيرى حكومته تسير ، وأطفاله يتعلمون ، ووجه بلاده يصبح جنة بمساهمات الأغنياء وحدهم دون أن يدعى لإنفاق « سنت » واحد من مكاسبه . ومهما يُعَبْ علينا لهذا أننا اتبعنا منهجنا المسالم فإن الزمن سيدمغ طابع الحكمة عليه ، وستثبت سعادتنا ورخاؤنا جدارته .

الأمل الأخير للحرية الإنسانية

إن المذهب الفيديرالى — وقد تجرد الآن تقريباً من أنصاره العمال وأصحاب الأرض — أصبح نظاماً ملكياً ، ونظاماً كنسياً إنجيلياً ، ومتى يفتح الشقاق بيننا الطريق لهجوم هذين النظامين علينا فإن آخر شعاع للحكم الحر سوف يخبو فى أفق العالم .. فالسحب التى بدا أنها تتجمع منذ مدة حولنا قد سببت لى قلقاً من خشية أن عدواً مترقباً على الدوام ، ومستعداً وحازماً دائماً ، وعاملا فى جماعة منظمة تنظيما حسناً سوف يجد ثغرة ينفذ منها لتبديد آمال إن هى ضاعت فإنى أرجو أن تضيع معها الحياة نفسها . وإن بلادنا فى موقف يتطلب اتحاد جميع أصدقائها لمقاومة أعدائها فى الداخل والخارج . فإن نحن انقسمنا على الناس أو الأشياء ، وإن نحن لم نعمل فى جماعة متحدة كما فعلنا عندما أنقذناها من أتباع النظام الملكى ، فإنى لن أقول إن « حزبنا » لأن الاصطلاح زائف ومهين ، ولكن « أمتنا » سيقضى عليها ، إذ الجمهوريون هم « الأمة » وأعداؤهم ليسوا سوى عصابة ضعيفة فى العدد إلا أنها قوية ، ونشطة فى السيطرة على المال ، ومؤيدة بأمة ، وسخية كذلك فى استعمال الوسيلة نفسها . . . وإن آخر أمل للحرية الإنسانية فى هذا العالم يعتمد علينا .

انجلترا المحافظة تفرض علينا اختيار الحرب أو الخضوع

فهل علينا أن نحارب إذن ؟ إنى أعتقد هذا ، وإن ذلك ضرورى . فكل أمل منبعث من الوقت ، والصبر وحب السلام قد نفدا ، ولم يبق لنا سوى اختيار الحرب ، أو الخضوع المرذول . إننى مضطر إلى التخلى عن هوايتى — وهى السلم .

ولم يحدث مطلقاً من قبل أن تحملت أمة الكثير مثلما تحملنا ، وان مظلمتين فى قائمة المظالم التى وقعت علينا تكفيان وحدهما لتبرئتنا إلى الأبد من تهمة العدوان ؛ وهما تسخير بحارتنا للعمل على السفن البريطانية ، وإبعادنا عن المحيط . وسوف تتقوض الأسس الأولى للعقد الاجتماعى لو أننا رفضنا أن نكفل لأعضـــائه حماية أشخاصهم وأملاكهم فى أثناء مباشرتهم لأعمالهم المشروعة . . . ونحن لا نؤمن بادعاء

نابليون أنه يحارب فقط من أجل حرية البحار ، أكثر من إيماننا بادعاء بريطانيا أنها تحارب من أجل حريات البشر . . . وإنا نقاوم أعمال إنجلترا لأنها أولا تمس حياتنا فى الصميم . وثانياً لأن مشاعرنا تنفر من المنطق القائل بتحمل سوط چورچ الثالث خشية تعرضنا لسوط نابليون فى يوم من الأيام المقبلة . فحين تصلنا مظالم فرنسا بتأثير مساو لما تحدثه مظالم إنجلترا فإننا ستقاومها أيضاً . ولكن يكفينا أن نعادى دولة واحدة فى كل مرة ، ولما كنا قد عرضنا على الفارسين الاختيار بين عداثنا أو صداقتنا فقد قبلت إنجلترا المبارزة .

وتفترض الصحف الإنجليزية أننى العدو الشخصى لأمتهم . ولست كذلك . فأنا عدو لما تنزله بنا من أضرار ، مثلما أنا عدو لأضرار فرنسا . . . ولو أننى كنت شخصياً عدواً لإنجلترا ومتحيزاً لصالح شخصية عدوها الكبير أو آرائه ، فإن مسألة Chesapeake قد وضعت الحرب فى يدى.. فما كان علىّ إلا أن أفتحها وأن أطلق الدمار . ولكن الآن وقد جعل تمسكها الثابت بتسخير بحارتنا وقرارات مجلسها الحرب أمراً لا يمكن تجنبه بعد ذلك فإن رجائى المخلص هو ألا تدخل حكومتنا فى أى تعاقد لضمان المصالح المشتركة مع الدولة المتحاربة الأخرى ، بل تبقينا أحراراً فى أن نعقد صلحاً منفصلا عندما تعطينا إنجلترا على انفصال السلم والأمن المستقبل .

حرب سنة ١٨١٢ هى حرب ثانية من أجل الاستقلال

لو أننا أعلنا الحرب على كلتا الدولتين لكان ذلك أمراً مضحكاً . ولهذا فلكى نواجه عدواً واحداً عرضنا على كلتيهما أنه لو أن إحداهما قد ألغت قراراتها المعادية وأن الأخرى رفضت فإننا سوف نحرم كل اتصال مهما كان مع الأخرى . وهذا يعنى الحرب بالطبع ؛ إذ يتضمن خروجاً صريحا على مبدأ الحياد . وقد قبلت فرنسا العرض وألغت قراراتها فيما يتصل بنا . . وإننا لم نقرر أن الحرب التى شنتها إنجلترا علينا منذ سنين يمكن أن تكون كذلك حرباً من الجانبين ، إلا بعد أن أخذت انجلترا ألفا من سفننا ، وسخرت فى خدمتها أكثر من ستة آلاف من مواطنينا ، وبعد أن أعلنت بقرار من الوصى على العرش أنها لن تلغى أوامرها العدوانية فيما يتصل بنا حتى يلغى

بونابرت أوامره فيما يتصل بجميع الأمم ، وبعد أن أعلن وزيرها فى مؤتمر رسمى معنا أن أى اقتراح بحماية بحارتنا من التعرض للتسخير على السفن البريطانية بحجة التذرع بأخذ بحارتهم ليس أمراً عملياً أو مسموحاً به ، وبعد أن أغلق الباب فى وجه العدل وكل تدبير ودى وأصبح التفاوض يائسا ومخلا بالشرف .

وإنى لا أخشى نتيجة ما أقدمنا عليه ، وأعتقد أن هذا التحول الثانى عن المبادئ البريطانية ، وأواصر الود البريطانية ، وآداب السلوك والصناعات البريطانية ، سوف يكون أمراً حميداً ، وسوف يخلق عهداً تسوده روح الوطنية والرخاء ، مما لم يكن ينتج مطلقاً من التبعية المستمرة لمصالح انجلترا ونفوذها .

وإن المؤامرات الدنيئة التى تدبرها انجلترا لتدمر حكومتنا (عن طريق جون هنرى والعملاء الآخرين المرسلين بين الفيديراليين فى نيو انجلند) وما يقوم به الهنود من تقتيل لنسائنا وأطفالنا ، يثبت أن التنازل عن كندا مركز هذه التدابير الميكيافيلية اللاأخلاقية يجب أن يكون أمراً لا غنى عنه فى أى معاهدة للصلح . « فالتعويض عن الماضى ، والأمن للمستقبل » ينبغى أن ينقشا على أعلامنا . إذ مقابل ألف سفينة مأخوذة ، وستة آلاف بحار مسخرين ، أعطونا كندا للتعويض ؛ والضمان الوحيد الذى يستطيعون أن يعطونا إياه ضد أتباعهم من أمثال هنرى والمتوحشين ، ووافقوا على أن العلم الامريكى سوف يحمى أشخاص أولئك الذين يبحرون تحت لوائه ، وذلك بأن يتبادل كلا الطرفين التعهدات بألا يستقبل أى واحد منهما بحارة الآخر على سفنهما .

هزائم فى البر وانتصارات فى البحر

إن الأعوام الثلاثين التى قضيناها فى سلام قد أدت إلى موت جميع ضباطنا الثوار من أصحاب التجربة والرتبة والكفاية أو تقاعدهم عن العمل ، وإن أول فصيلة من الجند اخترناها بالقرعة من بين الأشخاص غير المدربين : قد كانت سيئة الحظ إلى أبعد حد . وإن تسليم حصن وجيش ديترويت بفعل الخائن « هل » Hull والعار الذى لحق بنا تحت « فان رنسيلير Van Rensselaer » والمذبحة فى فرنشتون تحت ونشستر

Winchester واستسلام « بورستلر » Boerstler فى ميدان مفتوح لجيش يعدل ثلث عدد جيشه ، كانت أحداث البدء المشئوم للسنة الأولى من حربنا .

وفى كل حالة عمل رجالنا ، من ميليشيا وجند نظاميين ، ببسالة يمكن أن تشرف الجيوش المضرسة فى الحروب ، وأثبتوا أنه لو أن ضباطهم كانوا قد فهموا واجبهم جيداً مثلما فهمه ضباط بحريتنا الصغيرة لأمكن لهم أن يظهروا أنهم كذلك أكثر تفوقاً من عدونا الذى اجترأ على أن يزدرينا . وإنى أعترف أن البوارج الثلاث التى أسرت بوساطة بحريتنا الصغيرة المقدامة لا توازن فى رأيى ثلاثة جيوش فقدت بفعل الخيانة أو الجبن أو عجز أولئك الذين أسندت قيادتها إليهم . وإنى أرى أن رجالنا صالحون وهم يحتاجون فقط إلى قادة .

وإن الخالق لم ير من الملائم أن يضع علامة فى جباه أولئك الذين صوروا من مادة تصلح لصنع قادة صالحين . ولهذا فإننا نبحث عنهم أول الأمر ونحن معصوبو الأعين ، وندعهم بعد ذلك يتعلمون المهنة على حساب الخسائر العظيمة . ولكن دورنا فى النجاح سيأتى شيئاً فشيئاً . . . وإنه لمن المؤكد أن سفننا قد قامت بروائع الأعمال ؛ فهى قد أنقذت سمعتنا العسكرية التى ضحى بها على شواطئ كندا ، ولكن من ناحية ما أصاب العدو من ضرر حقيقى وتخريب فإن سفننا المتجولة المحاربة العدو قد كان لها من غير شك أثر فعال .

المـــد يتحول

إننا فى حملتنا الثانية — ولو أننا لم نفعل كل ما كانت تستطيعه قوتنا — قد فعلنا الكثير ؛ إذ استولينا على جميع كندا العليا ما عدا المركز الوحيد فى كنجستون Kingston ، وعلى المحيط حيث تتكون قوتنا فقط من عدد قليل من البوارج والمراكب الحربية الصغيرة استطعنا — فى ستة أو سبعة اشتباكات بين مركب بحرى وآخر مساو له أو يكاد يساويه فى القوة — أن نأسر مركبهم فى كل حالة ما عدا واحدة ، وفى معركة مشهورة على بحيرة « أرى » Lake Erie بين ثمانية إلى عشرة مراكب حربية من حجم كبير وصغير يتدرج من السفن إلى القوارب ويزيد عدد

المدافع والرجال عندهم على ما عندنا ، أخذنا كل أسطولهم ولم يهرب مركب أو رجل واحد . وستفتح حملتنا الثالثة على هذه الحال من الأشياء .

لقد أخذنا كندا العليا وسنضيف إليها كندا الدنيا عندما يسمح بذلك الموسم والفصل وإني آمل أن نزيلهم تماماً ونهائياً من قارتنا . ولقد نفذنا ما سوف يشعرون به شعوراً أكثر عمقاً لأنهم يقدرون مستعمراتهم فقط من أجل أكداس « بالات » القماش التي تأخذها منهم إذ أسسنا صناعات لا تكفي لسد حاجتنا منهم وحسب ، وإنما تنافسهم كذلك في الأسواق الخارجية . فلدينا الآن ما يقرب من المليون مغزل تعمل في غزل القطن والصوف مما يكفي لكساء الثمانية ملايين من أفراد شعبنا وهي تتضاعف يومياً ولديَّ حول مائة مغزل تشتغل لكساء أسرتنا الخاصة .

ولقد أثبتنا لأولئك الذين يملكون الأساطيل أن الإنجليز ليسوا ممن لا يقهرون في البحر ، كما أثبت الإسكندر Alexander في روسيا أن بونابارت ليس ممن لا يقهرون في البر . وإنه لما يثير الأسى أن العالم لا يستطيع أن يتحد ويدمر هذين الوحشين في البر والبحر .

سقوط بونابارت

هل تبقى أنت (جون آدمز) وأنا حتى نرى المجرى الذي ستتخذه عجائب الأزمان السبع ؟ فإن أتيلا Attila عصرنا قد جرد من عرشه ، وان المدمر الذي لا رحمة عنده لعشرة ملايين من الجنس البشري الذي ظهر أن ظمأه إلى سفك الدماء لا يطفأ ، والمضطهد الكبير لحقوق العالم وحرياته ، قد سجن في نطاق جزيرة صغيرة من جزر البحر الأبيض ، وتضاءل حتى وصل إلى حالة من يعيش عيشة وضيعة مهينة على نفقة أولئك الذين أساء إليهم أكبر إساءة . فما أبأسها وأحطها من نهاية وضعها هو لحياة التي تجاوزت الحد ، وما أغربه من مثال للتهكم يقدمه التاريخ ! ! لقد كان ينبغي أن يهلك على سيوف أعدائه تحت أسوار باريس . .

ولكن بونابارت كان أسداً في الميدان فقط ، أما في الحياة المدنية فقد كان بارد الدم ، مدبراً ، مغتصباً ، لا مبدأ له ، مجرداً من الفضيلة ، ولم يكن رجل سياسة

ولا يعرف شيئاً عن التجارة أو الاقتصاد السياسى أو الحكومة المدنية ، وكان يضيف إلى جهله الصلف الجرىء . ولقد كنت أظنه رجلا عظيما حتى هدم الجمهورية الفرنسية، فاعتبرته من ذلك التاريخ وغدا كبيراً فقط . .

وإنى أعترف أنه على حين أننى أبتهج من أجل صالح البشرية لخلاص أوربا من من الدمار الذى ما كان ليقف طالما كان يعيش بونابارت فى قوة ويستمر فى الحكم ، إلا أننى أشاهد بقلق طاغية المحيط باقياً فى نشاط وقوة ، ومساهماً حتى فى مزية سحق أخيه الطاغية . . وفى الحق أن كل الأسباب القوية تضعنا فى جانب السلم من مصالح القارة الأوربية وميولها الودية وحتى مصالح انجلترا . فعواطفها وشهواتها فقط معارضة له ، وسوف يبدو السلم الآن أمراً سهل التحقيق بعد أن زالت أسباب الحرب . . وإذ أن الحرب قد انتهت فإن تسخيرها لبحارتنا سينتهى بالطبع .

انجلترا تجعل من الحرب حرب غزو

ولو أننا لم نتوقع أو نرغب فى أى عمل ودى من بونابارت ، واحتقرناه دائماً كمستبد ، إلا أنه كان يشغل جانباً كبيراً من قوة الأمة التى كانت عدواً مشتركاً لكلينا . وإن سقوطه جاء فى وقت غير مناسب لنا حتى الآن ، إذ أعطى لانجلترا فرصة الهجوم علينا دون أن يشغلها شاغل .

ولقد أعلن الإنجليز أن الحرب التى قام بها الطرفان لإقرار مسائل التسخير وأوامر المجلس قد تغير هدفها بعد أن وضعت الأحداث حداً لتلك الأغراض وأصبحت حرب غزو تشن حتى تغزو منا مصايدنا وإقليم مين Maine والبحيرات والولايات والمناطق شمال الأوهايو Ohio واستعمال المسيسبى للملاحة ، وبتعبير آخر حتى تجبرنا على الخضوع غير المشروع .

ولا يهمنا ذلك فنحن نستطيع أن نهزمها على أرضنا تاركين قوانين المحيط لتحل مشكلتها بوساطة الدول البحرية فى أوروبا ، تلك الدول التى تعانى مثلنا الاضطهاد والإهانة بما تباشره انجلترا من اغتصابات على ذلك المحيط . فظلامتنا الخاصة والمنفصلة ليست إلا تسخير مواطنينا . ويجب أن تضحى بآخر دولار وقطرة دم لنتخلص

أنفسنا من شعار الرق ، وعلى انجلترا وحدها أن تقول : أذلك يستحق الحرب الأبدية ، لأنها لا بد من أن تكون حرباً أبدية إن هي أصرت على الخطأ وإيقاع الظلم بنا .

إننا لن ننكص على أعقابنا أمام أعداء من الخارج أو الداخل

لقد أخذت منا « أوامر المجلس » ما يقرب من ألف سفينة . وإن قائمة ما أسرناه منهم هي الآن ألف وثلاثمائة إن كنا قد أدركنا أخيراً أن السفن الصغيرة وليست الكبيرة هي التي تغيظهم أشد الغيظ ، فإنه من المحتمل أننا سوف نضيف ألف غنيمة كل سنة لخسائرهم الماضية . . ولقد كلفهم كل أمريكي أخذ عنوة واضطر للسخرة على سفنهم حتى الآن عشرة آلاف دولار ، وسوف يضيف كل عام خمسة آلاف دولار فوق ذلك إلى ثمنه ، ولو أننا اتبعنا الاختيار الآخر وقررنا الخضوع فإنه ما كان ليستطيع مخلوق أن يتنبأ بالثمن الذي كنا سندفعه .

وإنا حقاً سنعيش ونتخطى ذلك الصراع . . وسوف نحتفظ ببلدنا ، وستمكننا التحسينات السريعة في فن الحرب قريباً من أن نهزم عدونا ، وربما نخرجه من القارة ، ولدينا لذلك ما يكفي من الرجال . . ولكني أود أني كنت أستطيع أن أرى حالة مالية أفضل . فمشروعات البنوك لا جدوى منها ، وهي أشبه بمعالجة الاستسقاء بالماء . .

أما بالنسبة لي فإن هذه الحالة تسبب لي تضحية في الهدوء والراحة فيما بقي من حياتي . وذلك لأنه بالرغم من أن ضعف الشيخوخة يعجزني عن خدمات الميدان وآلامه إلا أنه بالانهيار التام في قيمة المحصول الذي كان ليعطيني القوت والاستقلال فإني سأكون مثل « تانتالوس Tantalus » غارقاً في المـــاء حتى الكتفين ، ومع ذلك أموت ظمأ . وإننا نستطيع حقاً أن ننتج ما يكفي لأن نأكل ونشرب ونكسو أنفسنا ، ولكن لن يتوافر لنا شيء من أجل ملحنا ، وحديدنا ، وبقولنا ، وضرائبنا التي يجب أن تدفع نقداً ، فماذا نستطيع أن ننتج للسوق ؟ القمح ؟ إننا نستطيع أن نعطيه فقط لخيولنا كما نفعل منذ الحصاد . التبغ ؟ إنه لا يساوي « البيبة » التي يدخن فيها . والبعض يقول « الويسكي » ولكن لا بد من أن يصبح العالم كله مدمناً للخمر حتى تستهلكها . .

لكن ولو أننا نشعر إلا أننا لن ننكص على أعقابنا . ويجب أن نعتبر الآن كما فعلنا حرب الثورة أنه لو أن مساوئ المقاومة عظيمة إلا أن مساوئ الخضوع سوف تكون أعظم . ويجب أن نقابلها كما نقابل حوادث العواصف والزلازل ، وأن ندرك أنها تنتج بالضرورة مثلها من نظام العالم وتكوينه . .

ويخشى البعض الخطر من ارتداد مساشوستس . وإنها لحالة غير ملائمة ولكنها ليست خطرة فإذا أصبح أهلها محايدين فإننا نكفى للقاء عدو واحد من غيرهم ، وفى الواقع أننا لا نحصل على عون منهم الآن . وإذا قررت حكومتهم أن تحالف العدو فإن قوتهم سيقضى عليها بتساوى الانقسام بينهم . . ولا بد من أن كل واحد يعرف أيضاً أننا نستطيع فى أية لحظة أن نعقد الصلح مع انجلترا على حساب مصايد مساشوستس والملاحة فيها . ولكن الأمر لن يبلغ هـــذا الحد . فإن شعبهم سوف يقضى على هؤلاء المنشقين .

نواة مكتبة الـــكونجرس

لقد علمت من الصحف أن توحش عدونا قد انتصر فى واشنطون بتدمير المكتبة العامة والمبنى الجليل (الكابيتول) الذى كانت مودعة فيه . أما عن هذا العمل فإن العالم لن يقابله إلا بعاطفة واحدة . . . وأظن أنه سيكون من بين الأغراض الأولى للكونجرس أن يعيد بدء جميع محتوياتها . وإن هذا سيكون صعباً ما دامت الحرب مستمرة ، ويحاط الاتصال بأوربا بمثل هذه المخاطرة الكبيرة .

وإنى أجمع مكتبتى منذ خمسين سنة ولم أترك جهداً أو فرصة أو نفقة لأجعلها على ما هى عليه . فحينما كنت فى باريس خصصت كل وقت لم أكن مرتبطاً فيه بعمل مدة صيف أو اثنين لفحص جميع مخازن الكتب الرئيسية مقلباً كل كتاب بيدى ، ومحتفظاً بكل شيء يتصل بأمريكا ، وحقاً بكل شيء نادر وذى قيمة فى كل علم . وبجانب هذا فقد كنت على اتصال مستمر فى أثناء إقامتى كلها فى أوربا بجميع تجار الكتب الرئيسية خاصة أمستردام وفرانكفورت ومدريد ولندن وقدمت لهم طلبات قائمة ليزودونى بكل المؤلفات التى تتصل بأمريكا ولا يمكن وجود مثلها فى باريس . .

وفى أثناء العهد نفسه ، وبعد عودتى إلى أمريكا عملت على أن أحصل أيضاً على كل ما يتصل بواجبات أولئك الذين يشغلون المناصب الكبيرة فى الدولة .

ولذلك فإنه على حين أن مجموعة كتبى التى أظن عددها يتراوح بين تسعة وعشرة آلاف مجلد تشتمل على ما هو قيم خاصة فى العلم والأدب على وجه العموم ، فإنها تمتاز على وجه الخصوص بأن تحوى كل ما يهم رجل السياسة الأمريكى .

ولقد أدركت منذ وقت طويل أنه لا ينبغى أن تكون ملكاً خاصاً وعملت على أنه عند مماتى لن يستطيع الكونجرس رفض الحصول عليها . ولكن الخسارة التى أصابتهم الآن تجعل الوقت الحاضر المناسبة الملائمة لأخذها . . . وقد عرضتها على لجنة مكتبة الكونجرس . . . وإن جميع كتبى تقريباً مجلدة تجليداً جيداً ، وكثيراً منها مجلد تجليداً أنيقاً ، وهى من أفضل الطبعات الموجودة . ويمكن أن تقدر بوساطة أشخاص يعينون ، ويخصص الثمن لصالح الجمهور وذلك لنرضى حاجات بلادنا الحاضرة وننتظر أيام سلمها ورخائها . ويمكن لهم رغم ذلك أن يبدأوا الاستعمال المباشر لها ؛ إذ تستطيع ثمانى عشرة عربة أو عشرون نقلها إلى واشنطون فى رحلة واحدة تستغرق أسبوعين .

الانتصارات فى البر والبحر

إن شئون الحرب قد اتخذت خير اتجاه يمكن توقعه بالنسبة لنا ، فلقد كانت السنة الثالثة سلسلة متصلة من الانتصارات ؛ أعنى انتصار براون **Brown** وسكوت **Scott** فى شيبوا **Chippewa** ، وانتصارهما فى نياجارا **Niagara** ، وانتصار جينز **Gaines** على درموند **Drummond** فى فورت ارى **Fort Erie** ، وانتصار براون على درموند فى المكان نفسه ، وأسر أسطول آخر على بحيرة تشامبلين **Champlain** بوساطة ما دوناو **M'Donough,** ، والهزيمة التامة لجيشهم بقيادة بريفوست **Prevost** فى اليوم نفسه بوساطة ماكومب **M'Comb** ، وحديثاً هزائمهم فى نيو أورليانز بوساطة جاكسون **Jackson** وكوفى **Coffee** وكارول **Carroll** مع فقدان أربعة آلاف جندى من بين تسعة آلاف وستمائة ، وقتل قائدين من قوادهم هما : باكنهام

Pakenham وجيبز Gibbs. وجرح قائد ثالث هو كين Keane جرحاً قاتلا كما يقال .

وإن هذه السلسلة من النجاح الذى أحرزناه قد كدر صفاءها الحريق فى واشنطون . . . ومع ذلك فإن هذا العمل قد ساعدنا ولم يضرنا بما أثار من سخط بلدنا ، وبما أظهر لبلاد أوربا من توحش الحكومة الإنجليزية وضعتها البهيمية .

وفوق ذلك فإن خلال فترة الحرب كلها قد هزمناهم وحدنا فى البحر ، ومن ثم أكدنا تماماً تفوقنا عليهم عند لقاء قوى متعادلة ، حتى إنهم عدلوا عن الدخول فى مثل ذلك النوع من النزال ، ولا يسمحون لبوارجهم مطلقاً بأن تتجول فى البحر منفردة . . . وإن الكشف للعالم عن السر القاتل بأنه يمكن هزيمتهم فى البحر بقوة متعادلة والبرهان الذى قدمته عملياتنا الحربية فى السنة الماضية بأن التجربة تربى لنا ضباطاً سيغرسون علمنا عندما نستطيع استخدام كل امكانياتنا على جدران كويبيك Quebec وهاليفاكس Halifax ، وكارثتهم الحديثة البارزة فى نيو أورليانز ، وتبخر آمالهم من مؤتمر هارتفورد الذى عقده الفيديراليون من أنصار الإنجليز ، من المحتمل أن تثير جميعها الضجيج فى الأمة البريطانية التى ستجبر وزارتها على عقد السلم .

أسمنت الاتحاد الأمريكى فى دم قلبنا

وإنى أستعمل كلمة « تجبر » لأن أعضاء الوزارة البريطانية لن يقدموا مختارين على السلم . . . فقد وجدوا بعض الآمال عن حالة ماليتنا . . . ولكن أسس سلامة ماليتنا لا تزال فى مقدورنا ولا تحتاج إلا إلى المهارة التى سوف تنتجها التجربة قريباً لتدخل عليها النظام الذى قد يساعدنا على الصمود لأى مدة من الحرب . ولكنهم توقعوا أملا أكثر فى مؤتمر هارتفورد . . وإنهم يلعبون هنا نفس اللعبة التى لعبوها أثناء الثورة الفرنسية لنشر الاضطراب والفوضى . . . ولكنهم هنا يقابلون مواد مختلفة للعمل عليها . فالأعيان من عامة الشعب فى الولايات المتحـــدة غيرهم فى باريس . . . وإن « أسمنت » هذا الاتحاد الأمريكى فى دم القلب عند كل مواطن . ولا أعتقد أن هنالك على الأرض حكومة مؤسسة على أساس ثابت مثل حكومتنا .

ولهذا فلا تكن لديك أية مخاوف علينا يا صديقى « لافاييت » ؛ فلا توجد أسس هذه الإشاعات إلا فى الصحف الإنجليزية . . . وإن أبطالهم العسكريين فى البر والبحر قد يغرقون سفن المحار « أم الخلول » ، ويسرقون « عشش » فراخنا ، ويحرقون أكواخ الزنوج عندنا ويفرون . ولكن حملة أو حملتين ستخلصهم من بذل جهد أو نفقة بعد ذلك فى الدفاع عن ممتلكاتهم الأمريكية .

السـلام

٢٦ من فبراير سنة ١٨١٥ . لم أكد أختم خطابى حتى وصلتنى أنباء عن صلحنا مع إنجلترا ، وإننى مسرور به وخاصة أننا أنهينا حربنا بلألاء الموقعة فى نيو أورليانز .

وإن ما أحرزناه من نجاح فى نيو أورليانز قد أثبت حقائق تبلغ من الأهمية مبلغاً لا يسعنا معه إلا أن نقدره ، ففرق الميليشيا فى شجاعتها واستماتتها تعدل بذلك عددهم فى الحركات العسكرية ، ولدينا ضباط من ذوى العبقرية الطبيعية ينشأون الآن من بين الجماهير ، وأننا إن وضعنا جميع معاركنا معاً فإننا نستطيع أن نهزم البريطانيين فى البحر والبر بأعداد متساوية ، وإذ ثبت كل هذا الآن فإنى مبتهج بصلح « غنت » Ghent وسيزيد ابتهاجى إن هم تمكنوا من الاتفاق على تدبير معقول ضد تسخير بحارتنا على سفنهم أن يجعلوه حقيقة معاهدة للسلم .

الأخوة الإنجليزية الأمريكية فى المستقبل

وإن هم اتخذوا سياسة ودية معنا فإن تجارة مائة مليون من الناس التى سوف يعيش بعض من ولدوا الآن ليروها هنا ستبقيهم إلى الأبد كوحدة عظيمة فى الأسرة الأوروبية . ولكن إن هم استمروا فى إعاقتنا وإغضابنا وإيذائنا ومعاداتنا فإنهم سيجبروننا على أن نصطنع الشعار « يجب أن تمحى قرطاجنة » وإن سكيبيو Scipio أمريكا سيترك للأحفاد مشكلة التخمين عن موقع مدينة لندن القديمة الرائعة التى كانت قائمة يوماً ما .

وإنى لآمل فى الله أن يتغيروا فليست هناك أمة على وجه الأرض رغبت فى جد أن نقيم معها علاقة ودية على قدم المساواة مثلما رغبت مع الأمة الإنجليزية ؛ إذ لست على استعداد لأن أمد يد الصداقة لأية دولة على أسس غير أسس المساواة فى التعامل .

ولو أنهم حكموا يوماً بوساطة حكومة تعاملنا بعدل ومساواة فى الحقوق فإنى أشعر فى نفسى شعوراً قوياً بالروابط التى تربطنا معاً من أصل ولغة وقوانين وعادات، وأعتقد أن شعبينا سيصيران فى المستقبل إلى ما كان عليه الإغريق القدماء ؛ فقد كان يعاب على الإغريقى أن يوجد وهو يحارب إغريقيا فى جيش أجنبى ، وإن حكومة أنقى من هذه الحكومة ستحاول – بدلا من أن تجعل منا أعداءهم الطبيعيين – أن ترى فينا أصدقاءهم وإخوتهم الطبيعيين ، وإننا أشد اهتماماً بإقامة رابطة أخوية معهم أكثر من أى أمة أخرى على الأرض ، وهذا ما نستشعره حقاً نحوهم .

ولا يشعر أحد بالغضب أكثر مما أشعر حين أتأمل الإهانات والأضرار التى ألحقها بنا ذلك البلد . ولكن مصالح الطرفين تتطلب أن تترك هذه للتاريخ وأن تدفن فى الوقت نفسه فى العقل الحى . وإننى حقاً لا أهتم بهذا اهتماماً شخصياً ، فالزمن يسدل ستاره علىّ . ولكننى سأحنى رأسى برضا أكثر إذا توافر لى الأمل فى أن أرى بلدينا يتصافحان فى ود .

الفصل السادس عشر

التراث الأمريكي

لقد ألقى توماس جيفرسون ببصره على أمريكا من قمة جبله فى سنة ١٨١٦ ورضى بما رأى ؛ فلقد خرجت البلدة من الحرب قوية ومتحدة ، وبدأ انتخاب جيمز مونرو James Monroe كخلف لجيمز ماديسون عهداً مزدهراً من الشعور الطيب . أما فى الخارج فإن الحروب الطويلة انتهت ، وبونابارت دكتاتور أوربا البغيض « وأتيلا العصر » نفى نهائياً وإلى الأبد . وإذ سر « حكيم مونتيسلو » بحالة العالم ، ووثق بالمستقبل ، قال إنه مستعد عندئذ لأن يقوم بانحناءته الأخيرة . ومع ذلك فإنه فى الواقع كان ممتلئاً بالحماسة للحياة ؛ فقد كان لا يزال هنالك أشياء كثيرة نافعة وممتعة يود أن يفعلها ؛ مثل اختراع آلة لدرس القنب ، أو قياس مرتفعات « أوتر » Peaks of Otter التى كانت مرئية من بيته فى « بوبلار فوريست » Poplar Forest ، ومع مضى الزمن اتخذت زياراته إلى « بوبلار فوريست » التى كان يقوم بها مع واحد أو اثنين من أحفاده طابع البعد عن جموع الغرباء التى بدأت تغزو « مونتيسلو » ؛ إذ نشأ جيل جديد من الأمريكيين جمع إلى إجلاله « للآباء المؤسسين للاتحاد الأمريكى » حب استطلاع لرؤية واحد من القلائل الذين لا يزالون أحياء ، وخاصـــة مؤلف « إعلان الاستقلال » ؛ فقد أصبح جيفرسون فى حياته أسطورة . فحاصره كتاب السير للحصول على مواد لكتابة حياته ؛ وجند الفنانون لرسمه وإبراز معالم حياته للأجيال المقبلة . وكان لا يزال قليل من الرجعيين الذين ينتمون للجيل القديم يعدونه « غولا » شريراً متحرراً ، ولكنه أخذ مكانه بين الجمهرة العظيمة من الأمريكيين كتوماس جيفرسون الخالد الذى أنجبته الديموقراطية .

ولو أن الجو قد تحسن إلا أن واضع « قانون فرجينيا للحرية الدينية » كان لا يزال يضيق برجال الدين المعقدين الذين حاولوا سنين طويلة أن يصوروه « كملحد أو شيطان أو منكر للوحى مع إيمانه بالله » وقد اعتبر جيفرسون أن جمعه لمقتطفات من كتاب

العهد الجديد » التي سماها « فلسفة المسيح » (والتي نشرت بعد موته كإنجيل جيفرسون) وثيقة تثبت أنه كان واستمر دائماً « مسيحياً حقيقياً » وعند نظره إلى الوراء إلى الأيام التي كان يناضل فيها لمحو القيود القانونية من عقول الناس وضمائرهم سره أن أمريكا أصبحت « هذه الأرض المباركة للبحث والاعتقاد الحر »، ومع ذلك فإنه كان ينظر إلى الأمام أكثر مما كان ينظر إلى الوراء مدركا أن المعركة من أجل حقوق الإنسان يجب أن تحارب على الدوام « وأن القوانين والنظم يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تقدم العقل الإنساني » .

وما إن جاء عام ١٨١٦ حتى كان غارقاً في مشروعه الأخير العظيم ؛ وهو اشتغاله في فرجينيا ببناء ذلك النظام للتعليم العام الذى اقترحه أول ما اقترح في سنة ١٧٧٩ . وبالرغم من سنه المتقدمة فقد استأنف « حملته الصليبية ضد الجهل » بحماسة الشباب ووضع مشروعات القوانين التشريعية ورسم خططاً للدراسة وبدأ بناء «كلية مركزية» قرب شارلوتسفيل اختيرت في سنة ١٨١٩ كموقع لجامعة فرجينيا . ولم تكن الجامعة مستعدة لفتح أبوابها قبل مرور ستة أعوام بعد ذلك . وقد وضع جيفرسون مديرها وحقاً أبوها الرسوم المعمارية « لقريته الأكاديمية » ورعى كل تفصيل من تفاصيل الرسم والبناء وحارب للحصول على الاعتمادات التشريعية الضرورية لإتمام « هـذه المؤسسة الجميلة المبشرة بالأمل وهي في المهد » والتي قصد بها أن تقوم « على الحرية غير المحدودة للعقل الإنساني في أن يكشف ويعرض كل موضوع قابل للدرس والتأمل» .

ولقد أصيب في الوقت نفسه إصابة شديدة بوساطة الذعر المالي في سنة ١٨١٩ . فاحتمل خسائره المالية بقوة احتمال فلسفية ، وزاد في إزعاجه ما حدث من مناقشات عنيفة في الكونجرس حول طلب ميسوري Missouri أن تدخل الاتحاد الأمريكي كولاية قائمة على الرق . ولم تكن الولايات الشمالية الأعضاء والمعادية للرق راغبة في أن تسمح لها بالعضوية على هذا النحو ولكن تم في النهاية توفيق دخلت بوساطته ميسوري كولاية معترفة بالرق ، ودخلت « مين » Maine كولاية حرة، وحرم الرق في المنطقة الباقية شمال خط عرض ٣٦٫٣٠ . وبدا لجيفرسون أول الأمر أن مسألة ميسوري قد قرعت جرس انتهاء الاتحاد الأمريكي . ولكن ما لبث مزاجه الحماسي المتفائل أن أعلن عن نفسه ثانية واستمد العزاء من اعتقاده أن الأمريكيين لا يملكون

الوسائل وحسب ، وإنما يملكون المزاج لوأد خـــلافاتهم دائما دون اللجوء إلى حرب أهلية .

ولقد أسف للعواطف السقيمة السريعة الانفعال التى عملت على إضعاف الاتحاد الأمريكى الذى اعتمدت عليه أكثر من أى شىء مضى آمال البشرية جمعاء . وكانت حينئذ دول أوربا الرجعية ، بعد أن اتحدت معاً فيما سمى بالحلف المقدس ، تقضى على مذهب الأحرار ونزعتهم فى العالم القديم وتهدد بسحق جمهوريات أمريكا الاسبانية فى العالم الجديد . وإزاء هذا التهديد أخذ يوضح فكرته التى طالما عبر عنها ؛ وهى أن الأمريكتين الشمالية والجنوبية ينبغى أن تتحدا فى نهج سياسى أمريكى مستقل تماماً عن أوربا وغير مرتبط بها ، وحين اقترحت انجلترا إعلان بيان إنجليزى أمريكى مشترك ضد أى محاولة للحلف المقدس أن يتدخل فى أمريكا الجنوبية نصح جيفرسون الرئيس مونرو (فى خطاب أثر فى مبدأ مونرو بعد ذلك) بأن يرحب ترحيباً ودياً بالتعاون الإنجليزى فى حفظ أمن العالم القديم .

واستقدم الأساتذة لجامعة فرجينيا من انجلترا « موطن لغتنا وعاداتنا وآدابنا العامة » ولقد وجه إليه لهذا كثير من النقد « ولكنه كان يريد أن يحسن التعليم الأمريكى كما تحسنت الزراعة والصناعات الأمريكية بفعل المهارة المستعارة » . والآن وهو فى الحلقة الثامنة من العمر كرس كل مواهبه وجوانب نشاطه للجامعة . وجمع كل قوته الواهنة لشن معركة نهائية عنيدة للحصول على اعتمادات مالية حتى تكون المبانى — وهى متفردة فى أمريكا بالجمال والأسلوب المعمارى الكلاسيكى الخالص — جديرة بمرتبة التعليم العالية التى كان يطمح إلى أن يهبها لشباب بلده . واستمر بعد كسب المعركة وفتح الجامعة فى مارس ســـنة ١٨٢٥ يشرف عليها بالاهتمام العطوف للأب . وكان مشغولا فى الشهور الأخيرة من حياته بوضع رسم ساعة للروتاندا Rotunda وتصميم لمرصد وتنظيم الساحة بالأحراج والأزهار وحائط مبتكر جميل لولبى .

وإن « يوم حياته الطويل الرصين » وهو يقترب من نهايته قد أحاطت به سحب الكوارث المالية . فاضطر — وهو يحس إحساساً عقلياً كبيراً بالمهانة والألم — إلى أن يسأل الهيئة التشريعية أن ترخص له فى أن يبيع باليانصيب ما يكفى من أملاكه لسداد

ديونه . فليس سوى ذلك إلا البيع الجبرى بالأثمان السائدة المنخفضة وأن يجلب ما يكفى للسماح له بالاحتفاظ بمونتيسلو ، وقد باع مسكنه فى « بوبلار فوريست » فهدأ قلقه كثيراً بالموافقة على طلبه ، كما أن العروض الطبيعية بالمساعدة المالية أتت من أفراد المواطنين فى كارولينا الشمالية ونيويورك وعدة ولايات أخرى قد أسهمت فى توفير السلم والهناءة لأيامه الأخيرة على قمة الجبل .

وقد أخفى – إلى أن اضطر إلى أن يلزم فراشه فى وقت متأخر من يونية سنة ١٨٢٦ – عن أسرته الهبوط السريع فى صحته وإحساسه الخاص بقرب رحيله إلى ذلك الشاطئ الذى ينتظره عليه ، كما كتب على فراش موته فى خطاب الوداع إلى مارثا وراندولف أن « ملكين » هما زوجه وبنته ماريا تنتظرانه ، وفى ٢٤ من يونيه كتب آخر خطاب . وكان ذلك الخطاب نداء إلى مواطنيه الأمريكيين ليجددوا بإخلاص غير منقوص إيمانهم بحقوق الإنسان ونعم الحكم الذاتى . ومات فى ٤ من يوليه سنة ١٨٢٦ وهو العيد الخمسينى « لإعلان الاستقلال » الأمريكى .

ونقش على مقبرته البسيطة فى مونتيسلو الرثاء الذى كتبه بنفسه . وهو يحيى ذكر ثلاث من خدماته الكثيرة لبلده وللنوع البشرى . ورغب الديمقراطى العظيم الذى حارب ضد كل شكل من أشكال الاستبداد السياسى والدينى والفكرى ، فى أن يذكر كواضع لإعلان الاستقلال ، ولقانون فيرجينيا للحرية الدينية ، وكأب لجامعة فيرجينيا . ولخص على هذا النحو حياة طويلة نافعة ، وحماة صليبية عظيمة مثابرة من أجل حرية الإنسان وسعادته .

أمريكا بعد الحرب

إن الحرب البريطانية قد تركتنا فى دين ، ولكن ذلك ثمن رخيص للخير الذى فعلته لنا ، فإقامة الصناعات الضرورية بيننا ، وقدرة حكومتنا على أن تثبت أنها قوية تستطيع أن تحتمل صدمة الحرب وتسمو حتى على الانقسام المدنى ، هما حقيقتان ثميتتان بالنسبة لنا ، وقد زودنا بأقوى البراهين عنهما . . ولكن خير نتيجة لها كانت القضاء التام على الروح الحزبية . . .

فحتى كونيكتيكت كولاية وآخر ولاية ينتظر أن تتنازل عن عاداتها الثابتة (التى كانت تقوم فى جوهرها على التعصب فى السياسة وكذلك الدين) قد اختارت حاكما جمهوريا وهيئة تشريعية جمهورية . أما مساشوستس فلا تزال متخلفة . فإن من كان من أبنائها مرشحا لمرتبة الدوق واللورد يؤرقهم الشوق إلى ارتداء تيجان الأشراف ، فمحاموها إلى ارتداء ثوب المحاماة من فرو الفاقوم الأبيض ، وقسيسوها إلى ارتداء أكمام من نسيج الكتان الرقيق والانتساب إلى مؤسسة دينية قد تعطيهم الثروة والسلطة واستقلال الكفاية الشخصية . ولكن مواطنيها الذين كان عليهم أن يجمعوا بعرق جبينهم الكنوز التى كان يعتمد عليها هؤلاء الكسالى من أشباه ذكور النحل فى إرضاء ملذاتهم لا يستطيعون أبدا أن يروا شيئاً يتطلعون إليه فى مظالم انجلترا وتسولها . ونحن لا نستطيع أن نرتاب بعد أن انفجرت قيود الأرستقراطية عند المحامين ورجال الدين بوساطة كونيكتيكت فى عودة مساشوستس إلى صدر الأسرة الجمهورية .

وليس انتخاب مونرو (فى سنة ١٨١٦) مناسبة محدودة الأثر فيما نشعر به من سرور . فإن الأربع والعشرين السنة التى سوف يتمها فى الإدارة على مبادئ ونظم جمهورية ستعمل على تقديسها فى أعين الناس إلى درجة تحفظها من خطر التغير . كما أن زوال الانقسامات الحزبية قد أضفى على العلاقات انسجاماً ، والمجتمع عذوبة فوق التصور . وقد حققت لنا الحرب إذن كل هذا الخير ،وأضافت إلى ذلك أن أكلت للعالم أنه بالرغم من حرصنا على السلم بواعز من إدراكنا لنعمه فإننا سنقابل الحرب حين تصبح ضرورية .

إننا متجهون إلى الإصلاحات العامة . فالمدارس والطرق والترع هى فى كل مكان إما فى حيز التنفيذ أو التفكير . وإن أضخم مشروع اقترح حتى الآن هو مشروع نيويورك لسحب مياه بحيرة ارى فى الهدسون Hudcson ، وإن نفقاته ستكون كبيرة ، ولكن أثره سيكون قوياً قوة لا تقدر . . . فالملاحة الداخلية بالسفن البخارية تنتشر انتشاراً سريعاً خلال جميع ولاياتنا وسينظر إلى الملاحة بالشراع والمجداف قبل مضى وقت طويل كأنها تحفة من تحف الآثار القديمة .

إنى أقود سفينتى متطلعاً إلى الأمل نابذاً من ورائى الخوف

إنك (جون آدمز) تسألنى عما إذا كنت أوافق على أن أعيش السبعين السنة : أو بالأحرى الثلاث والسبعين مرة ثانية ؟ وإنى أجيب على هذا السؤال بقولى : نعم . فأنا أرى معك أن هذا عالم طيب على وجه العموم ، وأنه صيغ على أساس من مبدأ الخير والإحسان ، وإننا قد أعطينا من اللذة أكثر مما أصابنا من الألم ، وهنالك حقاً من قد يجيب بقوله « لا » من أصحاب العقول القاتمة السوداوية ، والأبدان السقيمة ، المشمئزين من الحاضر ، واليائسين من المستقبل ، والذين يحسبون دائماً أن الأسوأ سيحدث لأنه قد يحدث . وإنى لأقول لهؤلاء : كم من الألم كلفته إيانا الشرور التى لم تحدث أبداً ؛ فمزاجى حماسى متفائل . وإنى متطلع إلى الأمل نابذ من ورائى الخوف ، وحقاً إن آمالى تفشل أحياناً ولكنها لا تتعرض غالباً لفشل مثلما تتعرض له تنبؤات المتشائمين أصحاب الأمزجة القاتمة .

وإذ أخذت أتدبر سؤالك عما إذا كنت أوافق على أن أعيش الثلاث والسبعين السنة التى بلغتها مرة بعد مرة إلى الأبد فإنى أتردد فى الإجابة . . . فمن الخمس والعشرين إلى الستين قد أقول نعم ، وقد أذهب إلى أبعد من هذا نحو الوراء ، ولكن لا أنزل أكثر من ذلك . . . إذ هناك أوان للموت ينطبق على غيرنا كما ينطبق علينا حين يكون من المعقول أن نفنى لنفسح المجال لنشء آخر . وحين نخلص من الحياة المقررة لجيلنا ينبغى ألا نعتدى على الحياة فى جيل آخر . وإنى لأستمتع بصحة جيدة ، وسعيد فى كل ما يحيط بى ، ومع ذلك أؤكد لك أنى أصبحت ناضجاً ومستعداً لترك كل شىء هذا العام ، بل هذا اليوم ، بل هذه الساعة .

ولا يثبت شىء أكثر من هذا ؛ وهو أن الكائن الذى يرأس العالم جرهرياً محسن ، فهو إذ يسرق منا قدرات الاستمتاع واحدة فواحدة ، ويخفف إحساساتنا ، ويقودنا مثل الحصان فى طاحونة حول نفس الدائرة المطروقة مرة بعد مرة « لنرى ما قد رأينا ، ونذوق ما قد ذقنا ، وفى كل دور يبدو ما نفعل أقل لذة ، وعلى مشاربنا نسكب خمراً أخرى » حتى نشبع ونرهق بهذا التكرار الثقيل ، وهو إذ يفعل بنا ذلك

تستأذن للرحيل . ولقد سمعت ذات مرة صديقاً تقدمت به السن كثيراً جداً ولم يشغل نفسه بالشعراء أو الفلاسفة ، يقول نفس الشيء فى نثر واضح ، وهو أنه قد تعب من خلع حذائه وجواربه فى الليل ، ولبسهما مرة ثانية فى الصباح .

فالرغبة فى البقاء هنا تخبو تدريجياً على هذا النحو ، ولكن ليس من اليسير أن تخبو الرغبة فى العودة إلى الحياة بعد الموت مرة كل حين ليرى الواحد منا كيف سارت الأمور . ومع ذلك فربما يقوم أحد عناصر الهناءة فى المستقبل على النظرة الثابتة غير العاطفية إلى ما يجرى هنا . وإن كان الأمر كذلك فإن هـــذا قد يعطى الرغبة فى الزيارات الوقتية من حين لآخر .

الخمور الجيدة ، والعلم ، ورياضة المشى عند الشفق

لقد وعدتك (الرئيس مونرو) بأننى حين أتسلم وأجرب الخمور التى طلبتها من فرنسا وإيطاليا أن أكتب إليك عن الأنواع التى أرى أنها جديرة بأن تحصل عليها . . . وهى كالآتى : نبيذ المسيو جوردان أتانيس الأبيض المسكر . . . ونبيذ ليداريون (فى لانجويدوك) وهو من نوع « البورت » ولكنه أقوى مذاقاً وأكثر رقة وأقل حدة .. ونبيذ روسيلون . وأحسنها نبيذ بربيجنان أو ريفز من محصول المسيو ديوراند . ويوجد كذلك خمر فلورنس المسمى مونتبولشيانو ، وهنالك نوع خاص من أجود الأنواع أستورده كل عام منذ عشرة أو اثنى عشر عاماً .

وحين قمت أخيراً بقياس ارتفاع قمة بيكس أوف أوتر بحساب المثلثات كان قصدى إشباع حب الاستطلاع الشائع فيما يتصل بارتفاع تلك الجبال التى نظن أنها أعلى جبالنا . . وإن سلسلة الجبال التى يعد مونتيسلو واحداً منها هى عادة منخفضة ، ومع ذلك فهنالك واحد فيها يسمى جبل بيتر Peter's Mountain وهو أعلى كثيراً من السلسلة العادية . ويقع هذا على بعد اثنى عشر ميلا منى إلى الشمال الشرقى ، وأظن أننى سأقيسه فى الربيع من هذا العام ، وقد يكون فى هـــذا تجريب آخر للنظرية اللوغارتمية .

وربما يكون من الممكن أن يوفر البخار الناشئ من قدر عادية يستمر وهى

تغلى على نار المطبخ حتى يكون تجمعه كافياً ليحدث خفقة أو حركة ، وبالرغم من أن الحركات قد لا تكون سريعة إلا أنه سيكون هنالك منها ما يكفى فى اليوم لرفع الماء الضرورى للاستعمال اليومى من بئر مجاورة لغسل الأبيض من الملابس أو أثاث المنزل ، وعجن الخبز ، وضرب جريش الذرة ، ومخض اللبن لإنتاج الزبد ، وإدارة السفود ، وعمل جميع الحاجات المنزلية التى تتطلب فقط حركة آلية منتظمة .

ولقد خطرت لى طريقة لإزالة صعوبة تحضير القنب . . فبالنسبة لشخص لديه آلة لدرس الحبوب تصبح إضافة آلة لتكسير القنب مصنوعة حسب الرسم الذى وضعته ذات أهمية كبيرة ؛ إذ أنها ستساعد على ضربه بطريقة أكمل مما رأيت فعله باليد . . وإنى لأتوقع أن يقوم حصان واحد بما يقوم به عشرة رجال من تكسير وضرب . وقد كان زراع القنب يحتاجون منذ زمن طويل إلى شىء من هذا القبيل ، حتى إننى سأصف ذلك الاختراع فى الصحف العامة مع إغفال اسمه وذلك للسبق فى منع استعماله بوساطة صاحب امتياز متطفل يقدم على تسجيله .

لقد وصلنا جميعا هنا (فى بوبلار فوريست) بدون التعرض لحادث ما . . فشاعت مباشرة قصة فى المنطقة مؤداها أننى أحضرت جمعا من العمال لإعداد منزلى بسرعة لاستقبال بونابارت . ولو أنه وجد مثل هؤلاء الناس ممن يعتقدون فى هذا فإن الوطنية سوف تكون عاطفة مثيرة للسخرية . أما إلين Ellen وكورنيليا فهما أكثر التلاميذ الذين قابلتهم اجتهاداً ؛ فهما لا تتركان غرفتهما إلا لتأتيا لتناول وجبات الطعام . وإننا نخرج عند الشفق فى المساء مع البوم والخفاش ونأخذ رياضتنا المسائية على الشرفة .

جميع بحوثنا تنتهى بأربعة ألفاظ : « كن عادلا و كن خيرا »

إن نتيجة مطالعاتك الدينية (جون آدمز) مدة خمسين أو ستين عاماً التى تلخصها فى قولك « كن عادلا وخيرا » هى ما يجب أن تنتهى إليه كل بحوثنا . فما يتفق عليه الجميع قد يكون صحيحاً . وما لا يتفق عليه اثنان هو فى الأغلب خاطئ . وقد سألنى أخيراً فى ود حقيقى أحد كتاب سير الحياة المشهورين بالمبالغة فهو ممن يصورون صغار الناس كأنهم عظماء جداً عما إذا كان يصدق ما يتحدث عنه كثيراً فى بعض الدوائر

عن التغير فى اعتقادى ودينى . فكانت إجابتى « لا تقل شيئاً عن دينى . فهو معروف لربى ونفسى وحدهما . وإن الدليل عليه أمام العالم يمكن البحث عنه فى حياتى ، فإن كانت أمينة ومؤدية الواجب نحو المجتمع فإن الدين الذى نظمها لا يمكن أن يكون دينا سيئا » .

ولقد رأى القسس من قبل أنه من الملائم أن ينسبوا إلىّ عواطف دينية ، أو بالأحرى معادية للدين الذى هو من صنعهم الخاص ، مما يهدئ أحقادهم ضد قانون فيرجينيا لضمان الحرية الدينية . فهم أرادوا للقانون أن يظن به أنه ملحد أو منكر للوحى أو شيطان يستطيع الدعوة إلى التحرر من أوامرهم الدينية . . أما وقد فقدت اتهاماتهم لى بعــــدم التدين قوتها فقد ظنوا أن اتهاما بالتغير قد يصلح الآن تبريراً كسند لأضاليلهم .

إنجيل جيفرسون

لقد وضعت كتاباً صغيراً جداً أسميته « فلسفة المسيح » وهو نموذج لمبادئه ألف باختيار النصوص من (العهد الجديد) وترتيبها على صفحات كتاب أبيض حسب نظام معين زمنى أو موضوعى . وإن المادة التى من الواضح أنها مادته يمكن تمييزها مثل اللآلئ فى كوم من السباخ . ونتيجة هذا الاختيار هو كتاب ثمانى الحجم من ست وأربعين صفحة يشتمل على المبادئ الخالصة غير المفتعلة مما آمن به وسار عليه الأنبياء غير المتعلمين والآباء الرسوليون ومسيحيو القرن الأول .

وإننى لم أر مطلقا قطعة من الأخلاق أجمل وأثمن من هذه القطعة . وهى مستند يثبت أننى « مسيحى حقيقى » أى أننى تابع من أتباع عقائد المسيح ومختلف جداً عن أتباع أفلاطون الذين يسموننى كافراً ويسمون أنفسهم مسيحيين ووعاظ الإنجيل ، على حين أنهم يستقون جميع عقائدهم الخاصة مما لم يقله مطلقاً مؤلفها أو يره . . ولو أنه توافر لى الوقت فإننى كنت أضيف إلى كتيبى النصوص اليونانية واللاتينية والفرنسية فى أعمدة جنباً إلى جنب . وإن هذا سيكون عمل الشتاء المقبل (شتاء ١٨١٦–١٨١٧) . .

ولو أمكن إضافة تاريخ حياته مكتوباً بنفس النظرة إلى الموضوع فإن العالم سوف يرى أخيراً المزية الخالدة لهذا الحكيم الأول بين حكماء الإنسانية .

ولو كانت عقائد المسيح قد عُلمت دائماً بالنقاء نفسه الذى أتت به من شفاهه لكان العالم المتمدين جميعه الآن مسيحياً . ويسرنى أن فى هذا البلد المبارك الذى يسود فيه البحث والاعتقاد الحر ، والذى لم يسلم عقيدته وضميره للملوك أو قسيسين أخذت العقيدة الحقيقية القائلة بأن ليس هنالك سوى إله واحد تحيا وتتجدد ، وإنى لواثق من أنه لا يوجـــد « شاب » يعيش الآن فى الولايات المتحدة لا يموت موحداً . أما سكان منطقتى فهم قليلون ومنقسمون كثيراً فى الوقت نفسه إلى طوائف أخرى ، حتى إنهم لا يستطيعون أن يكفلوا قسيساً واحداً كفالة لائقة ، ولا بد لهذا من أن أقنع بأن أكون نفسى موحداً .

ويوجد فى رتشموند تعصب كبير إلا أنه يزداد خاصة بين النساء ؛ إذ لهن اجتماعاتهن الليلية ومحافل صلاتهن حيث يحضرها قساوستهم وأحياناً زوج من الأزواج الخاضعين لنسائهم وهنالك يتدفق فيض حبهن للمسيح بمصطلحات تبلغ من العشق والشهوة ما يسمح لهن تواضعهن باستعماله مع مجرد حبيب أرضى . وهنالك فى قريتنا « شارلوتسفيل » يوجد قدر كبير من الدين مع بهار صغير من التعصب . ولدينا أربع طوائف ، ولكن بدون أية كنيسة أو دار للاجتماع . فدار المحكمة هى المعبد المشترك ، ويخصص يوم من أيام الآحاد فى الشهر لكل طائفـــة . وهنا يجتمع معا طائفة الابيسكوباليان ، والبرسبيتيريان ، والمثوديست **Methodist** والبابتيست **Boptist** ويشتركون فى تسبيح خالقهم ويستمعون باهتمام وتعبد لوعاظ كل طائفة من الطوائف الأخرى ويختلطون جميعاً فى مجتمع واحد بانسجام تام . وقد اشتركت بالتبرع لبناء كنيسة لطائفة الابيسكوباليان بمائتى دولار ولكنيسة البرسبيتيريان بستين دولاراً ، ولكنيسة البابتيست بخمسة وعشرين دولارا .

مذهب رجل تقدمى

وقد كتب فى سنة ١٨١٦ عن تعديل مقترح لدستور فيرجينيا « ليس عليك إلا أن تضع أمامك مبادئ صحيحة ، وأن تلتزم السير عليها بثبات . ولا تهلع حتى تتنازل عنها بما تلقاه من إنذار الجبناء أو تذمر الثورة ضد سيادة الشعب . . . فإن الأساس الصحيح للحكومة الجمهورية يقوم على الحق المتساوى لكل مواطن فى شخصه وماله وفى إدارتهما . وقس بهذا كمعيار كل إجراء من إجراءات دستورنا وانظر إذا ما كان يتعلق مباشرة على إرادة الشعب .

وينظر بعض الناس إلى الدساتير بإجلال أشبه بالتقديس ، ويعدونها مثل سفينة العهد مقدسة إلى درجة أنها لا تمس . وهم ينسبون إلى رجال العصر السابق حكمة أسمى من حكمة الإنسان ، ويظنون أن ما فعلوه فوق التعديل . وإننى عرفت ذلك العصر معرفة جيدة ، فأنا أنتسب إليه ، وعملت معه . وهو يستحق التقدير من بلده ، ولقد كان يشبه كثيراً الحاضر ولكن بدون تجربة الحاضر ، وان أربعين عاماً من التجربة فى الحكم تعدل قرناً من مطالعة الكتب . . . ولست بالتأكيد داعياً إلى التغيرات الكثيرة وغير المجربة فى القوانين والدساتير . . . ولكنى أعرف أيضاً أن القوانين والنظم يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع تقدم العقل الإنسانى . وكلما أصبح ذلك أكثر نمواً وأكثر استنارة ، كشفت كشوف جديدة ، وأميط اللثام عن حقائق جديدة ، وتغيرت الآداب العامة والآراء مع تغير الظروف ؛ ويجب أن تتقدم النظم أيضاً ، وأن نحافظ على السير مع الزمن . وإذا كان لنا أن نطلب من الرجل أن يستمر فى ارتداء المعطف الذى كان يناسبه وهو صبى فإن لنا أن نطلب من المجتمع المتمدين أن يبقى إلى الأبد محكوماً بنظم أجداده المتبربرين .

المعرفة قوة وسلامة وسعادة

إننى الآن مستغرق استغراقاً تاماً فى مجهودات لتنفيذ إقامة نظام عام للتعليم ولايتى الأصلية على الأساس الثلاثى :

١ — إنشاء مدارس أولية تعطى أطفال كل مواطن مجاناً تعليما جيداً فى القراءة والكتابة والحساب العادى والجغرافيا العامة . ٢ — إنشاء مؤسسات على نظام الكليات للغات القديمة والحديثة وللتعليم العالى فى الحساب والجغرافيا والتاريخ ، ووضع كلية لهذه الأغراض فى نطاق ركوب يوم لكل ساكن فى الولاية ، وإضافة إجراء لتوفير التعليم الكامل على حساب الدولة للرعايا الممتازين من بين أطفال الفقراء الذين يظهرون فى المدارس الأولية أبرز الدلائل على القدرة على الحكم والمزاج السليم . ٣ — إنشاء جامعة تعلم فيها على أعلى مستوى جميع فروع العلم التى يظن أنها نافعة فى هذا العصر .

ومع ذلك فإن آمالى تعاق بفعل الهيئة التشريعية فى ولايتنا ، إذ أن أعضاءها لا يرون على وجه العموم الحقائق الهامة من أن المعرفة قوة ، وأن المعرفة أمن ، وأن المعرفة سعادة .

وإننا فى الوقت نفسه ، وفى حالة فشل المشروع الأكبر ، أخذنا نبنى فى الموقع ذاته قرب شارلوتسفيل كلية مركزية (أصبح جيفرسون عميداً لها فيما بعد) ذات مساحة محدودة بالضرورة ، وذلك لأنها تعتمد على التبرعات الخاصة فقط . . . فإذا عجزنا حينئذ عن فعل كل الخير الذى نوده فإننا على الأقل نفعل كل ما نستطيع .

ونحن نقترح أن نخصص مساحة مربعة حول سبعمائة أو ثمانمائة قدم ، وأن نرتب خارجها أبنية منفصلة ، ونقيم بين كل بناء وآخر سلسلة من غرف النوم للأولاد علوها طابق واحد ، على أن يعطى كل ولد غرفة . . . ويوجد وسط الأبنية جميعها بهو ذو أعمدة من الأمام بارتفاع الطابق الأدنى من الأبنية حيث يمكن للتلاميذ أن يذهبوا تحته دون أن يبللهم المطر من مدرسة إلى مدرسة . وستكون أعمدة البهو من الآجر المربّع بأسلوب « تسكان » . . . وهذه الأبنية ستكون نماذج للذوق والمعمار الجيد ، كما تكون ذات مظهر متنوع فلا يتشابه اثنان منها حتى تقوم أمثلة للمحاضرات المعمارية .

يلقى العون مرة ثانية من ماديسون ومونرو

وإننى لا أشاركك (جون آدمز) فى مخاوفك من أجل سعادة أخينا ماديسون فى حالة اعتزاله العمل . فعقل مثل عقله لا يمكن مطلقاً أن يعرف الضجر ، فمثلا هو ومونرو رئيس الجمهورية قد حضرا هنا الآن (مايو ١٨١٧) بشأن العمل ؛ وهما وأنا ثلاثة من ستة زوارها ، ولو أن هذه الكلية نجحت ستنشئ أطفالا للمستر ماديسون يشغلون اهتمامه مدى الحياة . وأقول « إذا نجحت » لأن لدينا شيئين جوهريين جداً فى طريقنا : أولهما الوسائل لتنفيذ آرائنا ، وثانيهما الأشخاص المؤهلون لتحقيقها . وسوف توافقنى أن هذين الشيئين جوهريان حقاً .

وإن كليتنا المركزية تعطينى من العمل أكثر مما أنا أهل له ، فبطء العمال يسبب لى عناء مستمراً ، إذ ألقى بعض الشك على أن يتم هذا العام البناء الذى بدئ ، وهذا يجبرنى على أن أكون مع العمال يوماً بعد يوم . وإنى أتابعه لإدراكى الأثر الذى سوف يتركه توقيع تنفيذه المباشر فى الهيئة التشريعية وقد وضعت تصميما لكلية بغرف نومها حسبما يتطلب مشروع القانون لأثبت أنها لن تتكلف أكثر من المبلغ المخصص .

طفلى الذى قمت على تربيته أربعين عاماً

هل أدعى إلى نجاح المؤسسة أن أكون داخلها أو خارجها ؟ خارجها على ما أعتقد فهنالك متعصبون فى الدين والسياسة ممن تعودوا دون أن يعرفونى شخصيا على أن يعدونى غولا مخيفاً شريراً ، ونحن لا نستطيع أن نفقد أى أصوات لتأييدنا . (وقد كتب إلىّ جوزيف كابيل Joseph C. Cabell عضو مجلس الشيوخ للولاية من منطقته) أرجو أن تكتب إلىّ عند ما يوافق على أى اقتراح يقدم دليلا على نجاح المشروع العام أو سقوطه . فليس لدىّ سوى هذا القلق الوحيد فى الدنيا ؛ فهو طفل يبلغ أربعين عاماً فى ميلاده وتربيته ، وإن استطعت أن أراه واقفاً على قدميه فإنى سأغنى بإخلاص وسرور « والآن فلترحل » .

وإن بناء نظام للتعليم العام يشمل كل نوع من المواطنين من أغناهم إلى أفقرهم سيكون آخر المشروعات العامة التى سأسمح لنفسى بالاهتمام به . وإن مشروع القانون الذى قدمته هو فى واقع الأمر الفكرة التى اقترحتها منذ أربعين سنة ولكنها معدلة لملاءمة هذه الأيام بدلا من تلك الأيام . . وقد يكون حلمى حلماً مثالياً ، ولكن إذ أنه برىء فقد رأيت أن أعكف عليه حتى أذهب إلى أرض الأحلام وأنام هنالك مع الحالمين فى جميع الأزمان الماضية والمقبلة .

جعل الحلم حقيقة

لقد وافقت الهيئة التشريعية (فى ٢١ من فبراير سنة ١٨١٨) على قانون بإنشاء جامعة وقد منحتها فى الوقت الحاضر إعانة سنوية خمسة عشر ألف دولار وطلبت إلى أعضاء اللجنة الإدارية أن يجتمعوا لاقتراح موقع لها ومشروع لمبانيها وغير ذلك . وإن أعضاء اللجنة الإدارية (الذين كان جيفرسون رئيساً لهم) باقتراع من ستة عشر للكلية المركزية ، ومن اثنين لمكان آخر ، ومن ثلاثة لمكان ثالث قد انتهوا إلى تبنى الكلية المركزية لتكون موقعا للجامعة . وقد وافقوا بالاقتراع الإجماعى على مشروع البناء الذى بدئ فى ذلك المكان واتفقوا على توزيع العلوم حسب نظام رأوا أنه قد يجعلها جميعاً فى نطاق سلطة عشرة أساتذة ، ولا شك أن هذا ينتظر تأييداً من الهيئة التشريعية (وقد منح هذا التأييد فى ٢٥ من يناير سنة ١٨١٩ وانتخب جيفرسون فى ٢٩ من مارس من ذلك العام مديراً لجامعة فيرجينيا) .

وإن مشروع البناء لا يستهدف إقامة بناء واحد رائع يشمل كل شخص وكل شىء ولكن يستهدف أن يجعل منه قرية أكاديمية يكون لكل أستاذ فيها دار منفصلة تشتمل على حجرة مطالعة ، وحجرتين أو ثلاث أو أربع لمسكنه الخاص حسبما تكون له أسرة أو لا تكون له أسرة ، مع مطبخ وحديقة إلى غير ذلك ، وأن يكون فيها غرف نوم مستقلة للطلاب ، على ألا يكون أكثر من اثنين فى غرفة ، وأن تكون هنالك كذلك بيوت منفصلة لتقديم الطعام لهم بوساطة مشرفين خاصين عليها . وقد قررنا ألا نعين أستاذاً ليس من الطراز الأول فى العلم الذى يتخذه مهنة له ، فحين نجد مثل هذا الأستاذ

فى بلادنا سنفضله ، وحين لا نستطيع أن نجده سنحصل عليه حيثما يوجد .

وإن جامعتنا وهى على بعد أربعة أميال تهيئ لى فرصة الرياضة الكثيرة وتهيأ لى تلك الفرصة أكثر إذ أشرف على معمارها ؛ فتصميمها متفرد وقد صار هدفاً لحب استطلاع الرحالة . وان البيت رقم X سوف يبنى على الأسلوب « الدوريك الشرقى » لمسرح مارسيلوس Marcellus ولن يكون للأعمدة أية قواعد . . . وإننى لم أر مطلقاً عموداً مربعاً أثينياً تعبر فيه مقاييس أجزائه تعبيراً دقيقاً ما عدا العمود المربع فى معبد نيرفا تراجان Nerva Trajan كما يظهر ذلك فى « بالاديو الكتاب الثالث اللوحة ١٨ Palladio, Book III, Plate 18 » ولكن زخارف ذلك المعبد زائدة عن الحد وعموده المربع مقسم بدقة متناهية فى حليه المصبوبة مما أضاع كل تأثير له . فعملت على تبسيط هذه الحلى المصبوبة لتناسب أسلوبنا الأكثر بساطة ، والاحتفاظ مع ذلك تقريباً بملامحها ونسبها العامة . وإن سبعة من العشرة البيوت المخصصة للأساتذة . وحول الثلاثين غرفة من غرف النوم المخصصة لطالب واحد سوف تتم فى سنة ١٨٢٠ ،وثلاث أخرى مع ستة فنادق للسكن ، وسبعين غرفة أخرى للنوم ستكمل فى العام المقبل . . . ولكن الوسائل لتنفيذ كل هذا وتسيير آلة العمل لابد من أن تأتى من الهيئة التشريعية .

عمــــل شاق

إن مؤسسة التعليم فى الولاية التى أنتسب إليها ، وهى هواية شيخوختى ، سوف تقوم على الحرية غير المحدودة للعقل الإنسانى فى أن يكشف ويعرض كل موضوع يدخل فى نطاق تأمله . ولقد قامت فى الوقت نفسه معارضة . . . والأعداء الخطرون هم قسس الطوائف الدينية المختلفة . فنابرهم تتجاوب الأصداء فيها بالاتهامات ضد تعيين الدكتور توماس كوبر Thomas Cooper الذى يتهمونه بأنه موحد وذلك على الضد من إيمانهم بالتثليث . . ولكن بالرغم من احتجاجاتهم ضد الجهود المبذولة لتنوير العقل العام وتحسين تفكير الشعب وتشجيعهم على استعماله فإن كرم هذه الولاية سوف ينصر هذه المؤسسة . . هذه المؤسسة الجميلة المبشرة بالأمل وهى فى المهد . ولن أيأس إذن من الإفادة بخدمات الدكتور كوبر فى مؤسسة أعتقد أنها ستكون حصن العقل الإنسانى فى هذا النصف من الكرة الأرضية .

وإذا لم تساعد هيئتنا التشريعية جامعتنا مساعدة قلبية فإنه لا بد من أن نرسل أبناءنا للتعلم إلى « كنتكى » أو كامبردج . وستعيدهم الأخيرة إلينا متعصبين ومحافظين جامدين ، أما الأولى فستبقيهم لتزيد من سكانها . . . وإن جميع الولايات ما عدا ولايتنا مدركة أن المعرفة قوة . . على حين أننا آخذون فى الانغماس فى بربرية الأهلين الأوائل من الهنود . فادع أصدقاءنا لأن يأخذوا فى أيديهم الموضوع جميعه . . . ورق فى كل طبقة من الناس درجة التعليم المناسبة لحالتهم ولآرائهم فى الحياة .

أزمان صعبة واحتمال أبيقورى

إن فقاعة الأوراق المادية إذن قد تفجرت (أى وقع الذعر المالى فى سنة ١٨١٩) إننا نعمل جاهدين فى ظل تضخم استسقائى للعملة المستعملة . ولقد سحب جميعها تقريباً بوساطة البنوك التى توجد فى أيديها صمامات الأمن المنظمة لثرواتنا والتى تجمدها وتفجرها حسب مشيئتها . . . وما لم يكن لهيئتنا التشريعية من الحكمة ما يكفى للقيام بعلاج للموقف ، وذلك بالإنقاص التدريجى فقط لوسيلة التعامل ، فإنه ستحدث ثورة عامة بين أصحاب الأملاك فى هذه الولاية . ولقد شرحت مشروعى والآن أرسل ملخصه كتابة (وعنوانه « مشروع لتخفيض العملة المستعملة ») وقد رفعت صوتى محتجاً ضد إنشاء البنوك فى البدء . ولكن صوتى مثل صوت كاساندرا **Cassandra** لم يلق إصغاء له . وعدنى مجنوناً أولئك الذين وقعوا منذ ذلك الوقت ضحايا لها ؛ ولم أفكر حينئذ فى مدى ما كان ينتظرنى شخصياً من عناء بسببها ؛ إذ أننى أيضاً قد خدعت بما أقلمت عليه من إقرارات التصديق ضماناً لصديق (ولسون كارى نيكولاس **Wilson Cary Nicholas**) بمبلغ يقدر بعشرين ألف دولار ، وسأضطر من أجل دفعه إلى أن أبيع ما يعدل ذلك المبلغ من أملاكى .

إننى من أتباع أبيقور . وإنى أرى أن مبادئ أبيقور الحقيقية (لا المنسوبة إليه) تشتمل على كل شىء يساير العقل فى الفلسفة الأخلاقية التى تركتها لنا اليونان وروما . . فالقدرة على الاحتمال — كما تعرف — هى إحدى فضائله الأربع الأساسية . وتعلمنا تلك الفضيلة أن نقابل الصعاب وتتغلب عليها لا أن نهرب منها مثل الجبناء ، فالهرب لن يجدى نفعاً أيضاً لأنها ستقابلنا وتقبض علينا فى كل انحناءة من انحناءات الطريق .

نظام الحياة اليومى فى السادسة والسبعين

إننى عشت مثل صديقى (الدكتور بنيامين رش) بطريقة معتدلة فلم آكل إلا قليلا من لحم الحيوان . . ومع ذلك فإنى أتناول ضعف كوب ونصف كوب من الخمر التى يحتسيها الدكتور ، بل أتناول ثلاثة أمثاله إذا كنت مع صديق ولكنى أنزل بآثاره إلى النصف بشرب الخمور الخفيفة فقط . أما الخمور الحادة فإنى لا أستطيع شربها ، كما أنى لا أستعمل المشروبات الروحية الحادة فى أى شكل . وإن « البيرة » المصنوعة من الشعير وشراب التفاح هى مشروبات مائدتى . . وقد أنعم علىّ بأعضاء للهضم تقبل وتدبر دون تذمر كل ما يختاره الذوق لتسليمه إليها ، وإنى لم أفقد سناً واحدة من أســـنانى بسبب الشيخوخة ، وقد كنت طالباً مجداً حتى دخلت ميدان الحياة العملية . . والآن وقد اعتزلتها فى السادسة والسبعين من سنى عدت طالباً جاداً مرة أخرى . وإن شغفى بالمطالعة والدراسة يجعلنى أضيق بالعناء الذى ألقاه فى كتابة الرسائل . وإن معصما جامداً يجعل الكتابة بطيئة ومؤلمة . أما عن نومى فلست منتظما فيه انتظامى فى أعمالى الأخرى إذ أخصص له من خمس إلى ثمانى ساعات حسبما تمتعنى الصحبة أو الكتب التى أقرؤها ، وإنى لا أذهب مطلقا إلى فراشى دون أن أطالع قبل ذلك ساعة أو ساعتين شيئاً أخلاقياً أتأمله أثناء فترات النوم . ولكن سواء آويت إلى الفراش مبكراً أو متأخراً فإنى أستيقظ مع طلوع الشمس .

وإننى أستعمل نظارة فى الليل ولكنى لا أجد ضرورة لاستعمالها فى النهار ما لم يكن ذلك لقراءة مطبوعات بحروف صغيرة . وإننى أسمع بوضوح المحادثة الخاصة إلا أن سمعى يضطرب عندما تعترض عدة أصوات بعضها بعضا مما يجعلنى غير صالح لمجتمع المائدة . ولقد كنت أسعد من صديقى من ناحية الصحة ؛ إذ بلغت سلامتى من الزكام مبلغاً جعلنى لا أصاب به مرة واحدة (فى الصدر كما أقصد) كل ثمان أو عشر سنين فى المتوسط خلال الحياة . وإنى أعزو هذا الخلو منه جزئيا إلى عادة وضع قدمى فى ماء بارد كل صباح لستين سنة مضت . وإنى أستمتع بصحة جيدة فيما عدا مناسبة أخيرة من توعك المزاج كما أنى ضعيف حقا إلى درجة أعجز معها عن المشى الكثير

ولكنى أستطيع الركوب بدون إرهاق ستة أميال أو ثمانية فى اليوم ، وأحياناً أركب ثلاثين أو أربعين ميلا . ويمكن لى أن أختتم هذه الملاحظات المتصلة بشخصى بالقول إن حياتى قد شابهت كثيراً حياة الناس الآخرين ، حتى إننى قد أقول مع هوراس إلى كل واحد « ولو أننا مختلفان فى الاسم إلا أن قصتنا واحدة » .

سيرة حياتى فى رسائلى

وليس لدى حقاً سوى إجابة واحـــدة على أى طلب أو رجاء لإمداد كتاب التراجم بمواد لكتابة سيرة حياتى ، وهى أننى غير كفء لمثل هذا العمل . فإنى لم أحتفظ بأى وصف للأعمال العامة التى أسهمت فيها وذلك بالنظر إلى التاريخ . ولكن رسائلى — وكلها محفوظ — ستحظى بإقناع أكثر من أى شىء كان يمكن لى أن أكتبه بعد اعتزالى الحياة العامة ، إذ لم يمر يوم فى أثناء ذلك العهد من غير رسالة إلى شخص ما ، كتبت أيضاً فى لحظة الحقيقة والشعور وفى حرارتهما وجدتهما . ولقد سمحت لنفسى فى كتابة هذه الرسائل أن أستغرق فى تأملات عن الأمور التى كانت تجرى ؛ وربما يمكن بعد موتى القيام باختيار منتخب من بين هذه المجموعة الضخمة يؤلف من رسائل قليلة بدرجة تصلح معها لقراءة واحدة . فرسائل شخص ما — خاصة من يؤدى عمله بوساطة الرسائل — تكون الجريدة الكاملة الحقيقية الوحيدة لحياته .

وإنى لا أدرى إلى أى حـــد قد تعانى أنت (آدمز) كما أعانى تحت اضطهاد الرسائل . . فقد ثار عندى حب استطلاع لإحصاء ما تسلمته منها فى سنة واحدة . . فوجدت العدد (لسنة ١٨٢٠) ألفاً ومائتين وسبعاً وستين رسالة ، يتطلب الكثير منها إجابات قائمة على البحث المفصل ويرد عليها كلها بالاهتمام والتقدير المناسبين . . فهل هذه حياة ؟ إنها على أحسن وجه ليست سوى حياة حصان يعمل فى طاحون .

بطريق يكتب إلى ماريا كوزواى

لقد جاء فى خطابك المحبوب يا صديقتى العزيزة (ماريا كوزواى) قولك : « على طول الصمت أنزل ستارا » . ويبدو أننى فى حاجة للانتفاع به شخصياً ، ولكن

لا حاجة لى إلى ذلك فى الحقيقة . . فمعصمي الذى خلع فى باريس ، عندما كان لى سرور صحبتك هنالك ، قد تصلب الآن من أثر السنين ، حتى أصبحت الكتابة عملية بطيئة ومؤلمة جداً . . ولكنى لم أغفل مطلقاً عن خطابك ، وإننى أعطيه الآن المكان الأول بين خطابات أصدقائى عبر المحيط . . ويسعدنى فى المكان الأول أنك بصحة جيدة ، وثانياً أنك شغلت بطريقة نافعة وممتعة بإعداد عقول الآخرين ليستمتعوا بالنعم التى استقيتها أنت من نفس المصدر ؛ وهو العقل المهذب . . وسأتكلم عن مونتيسلو وبعدئذ عن بلدى حسب الرغبة التى عبرت عنها فى خطابك . فبنتى باندولف التى عرفتها فى باريس فتاة صغيرة هى الآن أم لأحد عشر طفلا ، وجدة لستة آخرين ، وتستمتع بالصحة والروح المرحة ، وتشاهد قيمة زوجها وقد تأيدت بتعيينه الحاكم الحالى للولاية التى نعيش فيها . وإننى أعيش بين هؤلاء كبطريق من بطارقة الأزمان الماضية .

إن صديقنا ترمبول Trumbull بصحة حسنة وقد وكلت إليه بلاده عملا شريفا نافعا وهو تخليد ذكرى بعض جوانب الفخار فى الثورة الأمريكية فى لوحات مرسومة بقلمه الرصاص ، وإنى لا أسمع شيئاً عن مدام دى كورنى Corny — وهذه هى حال صحبتنا السابقة بين موتى ومرضى ومفترقين فى الأرض . ولكن يقول المثل الفرنسى : « ليس كل من اختلف قد هلك » . ويخبرنا الدين الذى تعتنقينه بإخلاص أننا سوف نجتمع مرة ثانية ، ولقد عشنا جميعاً على نحو يؤكد لنا أننا سنكون فى سعادة ، وإن دورى هو الدور التالى وسأقابله بنية خالصة لأنه بعد أن يرحل جميع أصدقاء الواحد منا تتخلى عنا قدراتنا أيضاً الواحدة بعد الأخرى ، فلماذا نرغب فى أن نتأخر لنعيش حياة ذابلة مثل جذع الشجرة المنعزل فى حقل مخرب مهجور اختفى منه سائر الأشجار السابقة ؟ أما أنت فلا تزال تبقى لك سنون كثيرة طيبة تسعدين فيها نفسك وتسعدين كذلك أولئك الذين يحيطون بك : إننى أتمنى يا صديقتى العزيزة أن تكون تلك السنون من الكثرة مثلما ترغبين ، وأن تملأ جميعها بالصحة والسعادة . وإن هذه الأمنية ستكون من بين آخر وأحر أمانى صديق لا يتغير .

قد ودعت اللوحات المصورة وخاصة القناعات الحية

لقد طلبت إلى جيلبرت ستيوارت Gilbrt Stuart فى مايو سنة ١٨٠٠ أن يرسم صورتى ، ودفعت له أجره مائة دولار . . . وقد أخبرنى فى سنة ١٨٠٥ أنه ليس راضياً بها ، ولهذا رجانى أن أجلس مرة ثانية ورسم صورة أخرى . . . وقد طلبت إليه مباشرة بعد ذلك أن يرسمنى على نمط رسوم « الميدالية » ففعل ذلك على الورق بالقلم الرصاص . . . وإن هذه الصورة عندى ، وهى شىء رائع جداً مع أنها قابلة جداً للتلف .

وإنى لأخشى مع ذلك أن مستر « سالى » Sally سيعد استخدام قلمه الرائع فى تصوير رجل فى الثامنة والسبعين أمراً يجانبه التوفيق . فإن ڤولتير Voltaire حين طلبت إليه سيدة صديقة أن يجلس لعمل تمثال نصفى له بوساطة النحات بيجال Pigalle أجابها بقوله : « إن عمرى سبعة وسبعون عاماً ، ويقال إنه ينبغى أن يأتى مسيو بيجال لعمل تمثال لوجهى ولكن يا سيدتى يجب أن يكون لى وجه . . . » وإنى مع ذلك سأضيف إلى قوله إن ما يتبقى هو فى خدمة مستر « سالى » .

وقد خدعت بوساطة مستر براوير Browere إذ قال لى إن عملية صنع قناع حى ستستغرق حول العشرين الدقيقة وإنها أقل تعباً من طريقة هودون Houdon فوافقت من غير استفسار . ولكنها كانت تجربة جريئة من ناحية على صحة شيخ فى الثمانين من عمره قد أرهقه المرض والسن . فإن وضع طبقات من الأسمنت المجبس على رأس عار ، وحفظه هنالك مدة ساعة ، تجربة قاسية جداً على رجل شاب قوى . وقد سمح للجبس أن يصبح أيضاً من الجفاف بدرجة أصبح معها فصله عسيراً ، بل خطرا . واضطر أن يستعمل بحرية المطرقة والأزميل ليكسره إلى قطع ويزيل قطعة واحدة فى كل مرة ؛ وإن ضربات المطرقة قد كانت لتوثر حتى فى رأس بليد فأصاب الأسرة الذعر وأصابه الاضطراب حتى كدت أرهق ، وظهر حينئذ خطر حقيقى تمثل فى تعرض أذنىّ للتمزق من الرأس قبل أن تتمزقا من الجبس . وإنى الآن قد ودعت إلى الأبد التماثيل النصفية وحتى اللوحات المصورة .

مسألة الميسورى مثل جرس الحريق فى الليل

إن مسألة الميسورى الخطيرة مثل جرس الحريق فى الليل أيقظتنى وملأتنى بالرعب. ولقد عددتها فى الحال أنها جرس موت الاتحاد الأمريكى، وفى الحق أنها هدأت مؤقتاً فى هذه اللحظة، ولكن هذا الهدوء إرجاء فقط وليس حكماً نهائياً. فإن خطأ جغرافيا يقسم المنطقة الحرة والمنطقة الآخذة بالرق إذا ما استقر فى التصور، وكان من أهداف عواطف الناس الثائرة، فإنه لن يمحى أبداً، وكل سخط جديد سيثبته ويعمقه شيئاً فشيئاً . . . وليس هنالك شخص على وجه الأرض مستعداً ليضحى بأكثر مما أنا مستعد للتضحية به فى سبيل إنقاذنا من سبة الرق الثقيلة بأى طريقة «عملية» فإن التنازل عن ذلك النوع من الملكية لا يكلفنى ثانية واحدة من التفكير إن كان بهذه الطريقة يمكن تحقيق التحرير العام للرقيق وإبعادهم عن الوطن، وأعتقد أنه يمكن ذلك بالتدريج وبالتضحية. ولكننا بالحالة الراهنة نحن أشبه بمن يقبض على الذئب بأذنيه؛ فلا نستطيع أن نمسكه، كما لا نستطيع فى أمن أن نتركه يذهب. وإن العدل فى كفة ميزان والمحافظة على النفس فى الكفة الأخرى.

وإننى متأكد من شىء واحد وهو أن انتشارهم فى مساحة أكثر سيجعلهم فردياً أسعد ونسبياً يسهل تحريرهم . . . وإن الزهد أيضاً فى مباشرة هذا الجانب من جوانب السلطة سوف يزيل الغيرة التى تثار بوساطة اضطلاع الكونجرس بتنظيم حالة الناس الذين يكونون ولاية من الولايات . . . وإننى آسف أننى سأموت الآن وأنا معتقد أن تضحية أبناء جيل سنة ١٨٧٦ بأنفسهم ليحصلوا على الحكم الذاتى والسعادة لبلدهم ستبددها عواطف أبنائهم غير الحكيمة والجديرة بهم، وإن عزائى الوحيد هو ألا أعيش حتى أذرف الدمع عليها. فإن هم وزنوا فى هدوء النعم التى سيبددونها مقابل التمسك بمبدأ مجرد يرجح تحقيقه بالاتحاد أكثر من القطع والانفصال، فإنهم سيتأنون قبل أن يقترفوا الانتحار والخيانة ضد آمال العالم.

هنالك وسائل أخرى غير المدفع

إن مسألة ميسورى هى مجرد خدعة حزبية . فإن زعماء الفيدرالية يستغلون مشاعر الشعب الفاضلة ليقيموا التقسيم بين الأحزاب بوساطة خط جغرافى . ولكنهم لا يزالون يؤيدون القضية الخاسرة ، فهم يضيعون المرتبات والدموع على بؤس الرق وَتأتنا الداعون إليه و المدافعون عنه ، وإنه لينبغى أن يجمع الإخلاص آراءهم وآراءنا لتدبير خطة معقولة وعملية للتخلص منه . ولقد توافر للمستر راندولف (زوج بنت جيفرسون) الشجاعة فى أن يقترح على هيئتنا التشريعية مشروعاً لتحرير رقيقنا تحريراً عاماً وإبعادهم عن الوطن . ولو أن هذا الاقتراح ليس من النضج بدرجة تسمح بتطبيقه مباشرة ، فإنه سيوجه اهتمام مواطنينا توجيها جاداً لهذا الغرض . وفى الحق أن بحر الحرية الصاخب لا يخلو أبداً من موجة ؛ وإن الموجة القادمة من ميسورى سنتخطاها كما تخطينا الأمواج الأخرى من قبل .

وإننى مبتهج إذ أصبحت ولاية ميسورى فى النهاية عضواً فى الاتحاد الأمريكى . ولا أدرى أكانت المسألة التى أثارتها قد ماتت أو هى نائمة فقط . ولا أزال أعتقد أن امتداد اتحادنا الأمريكى نحو الغرب سيكفل استمراره ، وذلك بالتغلب على الفتن والانقسامات المحلية التى قد تهز اتحاداً أصغر . وإنه لضلال فتاك أن يظن أن حكومات الولايات عنـــدنا أسمى من الحكومة الفيدرالية ، أو أن الحكومة الفيدرالية أسمى من حكومات الولايات . . وينبغى أن يمتنع كل حزب بحصافة من كل اقتراب من الخط الفاصل بدلا من التعجل فى القفز فوقه ؛ أو التآمر لتوجيه الأمور توجيهاً خاصاً فى المستقبل . ولكن التوفيق الخاص الذى امتاز به نظام حكمنا المبارك يقوم على أنه فى حالات الاختلاف فى الرأى يستأنف الحكم بالالتجاء إلى الشعب صاحب السيادة ، وهو مجتمع اجتماعاً سلمياً فى شكل مؤتمر مؤلف من نوابه . وهذا النظام يساير العقل أكثر مما يسايره « حكم الأقوى » أو فوهة المدفع ، وهى أسلوب الملوك الوحيد النهائى .

أمريكا والأمريكتان تتحدان

إننا ندين للبشرية جميعها بتضحية تلك العواطف السقيمة القائمة التى تهدد بتحطيم اتحادنا الأمريكى ، وهو المرساة الوحيدة التى ترتبط بها آمال العالم . فهنالك ثلاثة عهود فى التاريخ عرفت بالقضاء التام على الخلق القومى . وإن أول هذه العهود عهد خلفاء الإسكندر دون إغفال لشخصه ، وثانيها عهد القيصر الأول ، وثالثها عصرنا الخاص الذى تحدث فيه مؤامرة الملوك وهم خلفاء بونابارت الذين يطلقون على أنفسهم تجديفاً اسم الحلف المقدس . وإنى إزاء المنظمات الأوربية التى تؤلف لتحارب حقوق الإنسان أشارك رجلا ايرلندياً أميناً من منطقتنا فى قوله حين شرب نخب الرابع من يوليه : « أما عن الحلف المقدس فإلى الجحيم مع كل أعضائه وأشباهه » .

وهل سنتنازل عن آمالنا السارة فى أن نرى تحسناً فى حالة الإنسان الأخلاقية والفكرية ؟ إن الحوادث فى أوربا تلقى سحاباً قاتماً على ذلك الأمل . . . ومع ذلك فإنى لن أعتقد بأن جهودنا قد ضاعت . فسوف لا أموت من غير أمل فى أن النور والحرية فى تقدم منتظم . . وحتى إن شملت سحابة البربرية والطغيان مرة ثانية بالظلام عالم أوربا وحرياتها فإن هذا البلد باق ليحافظ على النور والحرية ويردهما إليها . وبالإجمال فإن الجذوة التى أوقدت فى اليوم الرابع من شهر يوليه سنة ١٧٧٦ قد انتشرت على نطاق واسع من الأرض سعة لا تسمح لآلات الطغيان الراهنة بأن تطفئها ، بل إنها على النقيض من ذلك ستهلكها وتهلك كل الذين يدبرونها .

إننى أود أن أرى تآخياً ودياً بين جميع الأمم الأمريكية واتحادها فى نظام أمريكى لوضع سياسة مستقلة تماماً عن سياسة أوربا وغير مرتبطة بها . وليس اليوم ببعيد عندما نتطلب رسمياً خط طول للانفصال خلال المحيط يفصل نصفى الكرة الأرضية فلا يسمع مطلقاً مدفع أوربى على جانبه القريب ، كما لا يسمع مدفع أمريكى على الجانب الآخر . . . وآمل ألا يغفل وطنى أمريكى السياسة الجوهرية القائمة على تحريم منازعات أوربا الوحشية الدموية على بحار الأمريكتين وأراضيهما . وإنى أود أن أرى

هذا التحالف وقد بدأ ، فسوف يسرنى أن أرى أساطيل البرازيل والولايات المتحدة تركب البحار معاً كإخوة من نفس الأسرة ، وتستهدف تحقيق نفس الغرض .

التعاون مع إنجلترا لتوفير أمن العالم الجديد

إن المسألة التى أثارتها الخطابات التى أرسلتها أنت (الرئيس مونرو الذى طلب النصح فى سنة ١٨٢٣ عندما كان يعد ما أصبح فيما بعد مبدأ مونرو) إلىَّ ، هى أخطر مسألة عرضت لتأملى منذ مسألة الاستقلال الأمريكى . فتلك جعلت منا أمة . أما هذه فهى تشكل بوصلة سيرنا وتشير إلى الطريق الذى يجب علينا أن تتخذه سفيننا خلال محيط الزمن الذى يفتح أبوابه علينا . وما كان فى استطاعتنا أن ننزل فيه سفيننا فى ظل ظروف أكثر ملاءمة وتوفيقاً . وينبغى أن يكون مبدأ سياستنا الأول والأساسى هو ألا نزج بأنفسنا أبداً فى اضطرابات أوربا ومنازعاتها . ومبدؤنا الثانى هو ألا نسمح مطلقا لأوربا بأن تتدخل فى شئون هذا الجانب من جانبى المحيط الأطلسى وأن أمة واحدة تستطيع أكثر من أية أمة أخرى أن تزعجنا فى هذه السياسة التى نستهدفها وهى الآن تعرض علينا أن تقود ، وأن تساعد ، وأن ترافقنا فيها . وإنه بالموافقة على اقتراحها (اقتراح إنجلترا لإصدار بيان إنجليزى — أمريكى مشترك ضد أى محاولة للحلف المقدس فى أن يسحق الثورة الإسبانية الأمريكية) نفصلها عن العصابات الأوربية ونجلب وزنها القوى إلى كفة ميزان الحكومة الحرة ونحرر قارة بضربة واحدة . . فبريطانيا العظمى هى الأمة التى تستطيع أكثر من أية أمة أخرى ، أو أمم الأرض جميعاً أن تلحق بنا أشد الأذى ، فإن هى كانت إلى جانبنا فإننا لن نكون فى حاجة لأن نخشى العالم بأجمعه .

ومن ثم ينبغى علينا أن نحرص أشد الحرص على عقد صداقة ودية بيننا وبينها ولن يعمل شىء على توثيق عواطفنا مثلما تفعل محاربتنا مرة ثانية جنباً إلى جنب فى سبيل قضية واحدة . كما أننى لا أشترى حتى صداقتها بالمشاركة فى حروبها ثمناً لذلك . ولكن الحرب التى قد يجرنا للاشتباك فيها هذا الاقتراح إن كانت تلك هى نتيجته ليست حرب إنجلترا بل هى حربنا . فغرضها هو إقامة النظام الأمريكى الذى يشتمل

على إبعاد جميع الدول الأجنبية عن أرضنا وعدم السماح مطلقاً لدول أوربا بأن تتدخل في شئون أممنا . فهي حرب المحافظة على مبدئنا الخاص لا للتخلي عنه . وإن نحن بتيسيرنا هذا نستطيع أن نحقق انقساماً في هيئة الدول الأوربية ونجتذب إلى جانبنا أقوى عضو فيها ، فمن المؤكد أنه يجب علينا أن نتقدم على فعله . فإذا ما انسحبت بريطانيا العظمى من كفة ميزانهم وتحولت إلى كفة ميزان قارتينا ؛ فإن كل أوربا مجتمعة لن تضطلع بمثل هذه الحرب . إذ كيف تستطيع أن تتغلب على أي عدو بدون أساطيل بحرية أكثر تفوقاً ؟

آخر عمل نافع أستطيع أن أقدمه

إن قدرتي على المشي ضئيلة جداً ولكني أستطيع أن أركب من غير إرهاق ، وليس هنالك دليل أفضل مما قمت به أخيراً من زيارة إلى « ناتشورال بريدج » كنت فيها ستة أيام متعاقبة على صهوة جواد من الشروق حتى غروب الشمس : وإن المعاصم والأصابع الكسيحة تجعل الكتابة بطيئة ومجهدة ، ولكني حين أكتب إليك (جون آدمز) أفقد الإحساس بهذه الأشياء في تذكرى الأزمان القديمة . . فأنسى لحظة من الزمن شتاء العمر وشيب الشيخوخة عندما لا نستطيع أن نفكر في شيء سوى كيفية الاحتفاظ بأنفسنا في دفء والتخلص من ساعاتنا الثقيلة حتى تخلصنا يد الموت الصديقة من كل شيء دفعة واحدة ، ولكني إزاء ضجر الحياة أمتطي لحسن الحظ صهوة هواية كنت في الحق أستطيع أن أمارسها منذ ثلاثين أو أربعين عاماً مضت خيراً مما أفعل الآن ، ولكن سيرها اللين لا يزال يعطي بعض الرياضة والمتعة لراكب في الثمانين من العمر . فالجامعة ستهيئ للسنين الباقية من حياتي ما يشغلها من عمل ، وما يكفي كذلك لقدراتي في عهد الشيخوخة . إنها آخر عمل نافع أستطيع أداءه ولو أنني استطعت أن أراها تفتح أبوابها فإنني لن أطلب بعد ذلك ساعة أكثر من الحياة .

قلق والد وفخاره وأمله

إن ميعاد فتح جامعتنا لا يزال غير مؤكد كما كانت عليه الحال فى أى وقت مضى ؛ فجميع الأبهاء والمساكن وغرف النوم قد تم بناؤها . ولا ينقص الآن شىء سوى المبنى الرئيسى (روتندا) المخصص للمكتبة والأغراض العامة الأخرى . وليست لدينا لهذا أية اعتمادات مالية ، وقد رفضت الهيئة التشريعية الأخيرة كل عون . ولكن أسوأ الأحداث التى ألمت بنا هرب خيرة أصدقاء المؤسسة ؛ لأنه لا بد من أن أسمى ذلك « هربا » ! فأى غرض له مثل هذه الأهمية من أغراض حياتنا نقترح تنفيذه ؟ وأى مصلحة من مصالحنا الخاصة ينبغى ألا نؤجلها من أجل هذا الغرض ؟ ولأى شىء فى الحياة الواحدة التى منحتنا إياها الطبيعة يمكن أن تخصص الصحة والوقت والجهد أكثر مما تخصص لتحقيق هذه الهبة الخالدة لبلدنا ؛ فالجهود والمتاعب موقتة ، أما الفوائد فباقية على الزمن . وإن أمكن لأى عضو من أعضاء اللجنة القائمة على تنفيذ المشروع أن ينسحب انسحابا له ما يسوغه من هـــذا الواجب المقدس فإن شخصى الذى لم يبق له نشاط فى البدن أو الذهن سيظل واقفاً فى الميدان ، وإن أمت فسأموت فى آخر خندق .

لقد سرنا من البدء على التصميم السليم بأن تتم المبانى قبل فتح المعهد ؛ لأنه عندما يفتح فإن جميع الاعتمادات المالية سوف تستغرق ولن يبقى شىء لإتمام المبانى ، وإن الصبر والمثابرة المنتظمة من ناحيتنا سيحققان الغاية المباركة ، والرأى العام فى تقدم وسيدفع المعهد إلى بلوغ درجة الكمال . ولقد كان غرضنا من البدء أن نجعل من الجامعة أشهر مؤسسة فى الولايات المتحدة لكى تجتذب إليها شباب كل ولاية ، خاصة شباب الجنوب والغرب . فاقترحنا لهذا أن ندعو إليها شخصيات من الطراز الأول فى العلم من أوربا وكذلك من بلادنا ؛ ولو أننا بنينا مخزنا ليكون كلية وأكواخا من الخشب للسكن فهل كانت تتوافر لدينا الثقة فى أن نقترح على أستاذ أوربى من ذلك الطراز أن يأتى إليها ؟ إنها سوف تكون مؤسسة فاخرة ، وسوف يكون ذلك رأى الأوربيين فيها كما أنها بنقاء معارها وذوقها الكلاسيكى ستبز كل شىء فى أمريكا ؛

فتح الجامعة

لقد أطلقت هيئتنا التشريعية سراح إيراد جامعتنا ، ونحن نقترح افتتاحها فى بدء سنة ١٨٢٥ ، ونحتاج إلى ما لدينا من وقت حتى ذلك التاريخ للبحث عن أساتذة وتعيينهم ، وسيكون هذا عن بعضهم على الأقل فى بريطانيا العظمى أرض لغتنا وعاداتنا وآدابنا العامة . ففى بعض فروع العلم نعتقد أن أوربا متقدمة علينا ، وإنه مما يؤدى إلى تقدمنا أن نختار منها معلمين فى تلك الفروع ونحسن بذلك علمنا ، كما فعلنا فى صناعاتنا بالمهارة المستعارة : ولقد وجه إلىّ طعن كثير لهذا السبب ؛ وهل كان من الوطنية أو الأمانة أن ننزل بشباب ولايتنا إلى درجة أنصاف المتعلمين ؛ بأن نعهد بهم إلى تعليم منحط ؛ وهل هذه هى الطريق لتحسين الشخصية الأمريكية ؟ لقد رأينا غير ذلك .

إن وصول أساتذتنا من الخارج قد مكننا فى النهاية من بدء العمل فى جامعتنا ؛ فقد بدأنا فى السابع من شهر مارس سنة ١٨٢٥ ؛ وإن الأساتذة الإنجليز الخمسة يعطوننا رضا تاما ، أما أساتذة الكيميا والفلسفة الأخلاقية عندنا فقد اختيروا من بين إخواننا المواطنين ، وسيكون أستاذ القانون كذلك من بينهم . ولقد أحرز المعهد فى النهاية تقدماً موفقاً نحو الكمال ؛ وبدأ فى ظل ظروف مواتية بلغت فى ملاءمتها ما كنت أتوقع . وهو يشتمل على بعض جوانب التجديد ؛ ففيه أستاذية لمبادئ الحكم ، وأستاذية للزراعة ، وأستاذية للأنجلو — ساكسون .

ولابد أن الأساتذة الذين أحضرناهم من بريطانيا العظمى سيكونون الوسيلة الفعالة لتنمية تلك الإرادة الطيبة الودية التى تستلزم مصلحة كلتا الأمتين الاعتزاز بها ؛ فعندما تربط الصداقة بين هاتين الأمتين وتصبحان يداً واحدة فإنهما لن تجدا ما تخشيانه من العالم إن اتحد ضدهما ، وستكونان مثالين لإحياء حالة الإنسان ، ومصدرين تنبثق منهما الحكومة النيابية فتغمر الأرض جميعاً .

العصور والمناهج تتغير ولكن حقوق الإنسان لا تتغير

فى سن الثانية والثمانين ، بقدم فى القبر والقدم الأخرى مرفوعة لتتبعها ، لا أسمح لنفسى أن أشارك فى أية مشروعات جديدة ، حتى فى ذلك المشروع العظيم لتحرير الرقيق الذى كان طوال الحياة مثار أعظم قلق عندى . فإن سير الحوادث لم يكن على مثال يجعل إتمامه أمراً عملياً داخل حدود الوقت المقدر لى ، وإنى لأترك إنجازه لعمل جيل آخر . . . وإلغاء الشر ليس أمراً مستحيلا وينبغى لهذا ألا يتطرق بشأنه اليأس إلينا أبداً ؛ فكل خطة ينبغى أن تتبع ، وكل تجربة لا بد من محاولتها مما قد يقربنا من الغرض النهائى .

وإننا لم نصل بدساتيرنا بعد إلى مرتبة الكمال حتى نجرؤ على جعلها غير قابلة للتغير . ولكن هل يمكن أن نجعلها غير قابلة للتغير ؟ . . . إننى لا أرى ذلك ، فالخالق قد صنع الأرض للأحياء لا للموتى ؛ إذ يمكن للحقوق والسلطات أن تكون ملكاً فقط للأشخاص لا للأشياء . وقد يلزم جيل نفسه ما بقيت أكثريته فى الحياة ، وحين تختفى تحل أكثرية أخرى محل الأولى وقد تغير قوانينها ونظمها لتلائم نفسها ، ومن ثم فليس هنالك شيء لا يتغير سوى حقوق الإنسان الجوهرية والتى لا يستطاع التنازل عنها .

إن الأحزاب رقيبة على سلوك بعضها بعضاً ، وهى حرس نافع للجمهور ، فالناس بتكوينهم منقسمون بالطبيعة إلى حزبين : (١) أولئك الذين يخشون الشعب ولا يثقون به ويودون أن يسحبوا كل السلطات منه ويعهدون بها إلى الطبقات العليا (٢) وأولئك الذين يعدون أنفسهم من الشعب ويثقون به ويقدرونه ويعتبرونه أكثر المحافظين أمانة وأمناً على المصالح العامة وإن لم يكن أكثرها حكمة . ويوجد هذان الحزبان فى كل بلد ، وحيثما يجدان فى بلد حرية التفكير والكلام والكتابة فإنهما سيعلنان مبادئهما ويكشفان عن نفسيهما . فأطلق عليهما إذن أسماء . . . الهويج والتوريز والجمهوريين والفيدراليين والأرستقراط والديمقراطيين ، أو أى اسم ترضاه ، فهما لا يزالان نفس الحزبين ، ويسعيان لتحقيق نفس الغرض .

إن تضاعف الوظائف العامة وازدياد النفقات فوق ما يتحمله الدخل ونمو الدين العام ووقف دفعه على الأجيال القادمة لهي علامات تنادى باستعمال سكين التشذيب . وإن أعظم ما أخافه هو هيئة القضاء الفيديرالية . فتلك الهيئة مثل الجاذبية ، وهى تعمل دائماً بقدم لا تسمع لها وقعاً ، وتقدم لا يزعج أحداً ، إنما تطبق بمكر على الحكومات الخاصة بين فكى تلك الحكومة التى تطعمها .

إننى أرى ، وأنا فى أعمق الأسى ، الخطوات التى بها يتقدم الفرع الفيديرالى نحو تركيز جميع السلطات أجنبية كانت أو داخلية فى نفسه . . . وعلام نعتمد للمحافظة على دستورنا ؟ . . هل علينا أن نلجأ إلى أسلحتنا ؟ لا . إنه من الواجب أن يكون ذلك آخر موئل لنا . . . فلو أن كل كسر لاتفاق مؤلف من أطراف كثيرة يقاوم فى الحال مثلما يقاوم الإقدام على حله فلن يستطاع مطلقاً أن يعقد اتفاق يمكن له أن يستمر عاماً واحداً ، فيجب أن يكون عندنا صبر وتحمل أطول ، وألا ننفصل عن أصدقائنا إلا حين يكون جانبا الاختيار المتروكان لنا هما حل اتحادنا معهم ، أو الخضوع لحكومة مطلقة لا حدّ لسلطاتها . وحين يتحتّم علينا أن نختار بين هذين الشرين ، فإنه لا يمكن أن يكون هنالك أى تردد .

سير الحضارة فى أمريكا

إن الرحلة الممتعة التى قامت بها حفيدتى إلين راندولف كوليدج فى سنة ١٨٢٥ تكاد تكون نفس الرحلة التى قمت بها أنا ومستر ماديسون فى مايو ويونيه سنة ١٧٩١ ولكن الطريق من ساراتوجا حتى عدنا إلى نورثامبتون كان حينئذ صحراء تقريباً . أما الآن فهو ما صنعته أربع وثلاثون سنة من الحكم الحر الصالح . وهذا يبين كيف يكون من الممكن سريعاً أن يجعل جهد الناس جنة على الأرض كلها لو لم يعق ذلك سوء الحكم وتحول جميع نشاطهم عن هدفهم الملائم وهو سعادة الإنسان إلى المصالح الأنانية للملوك والنبلاء والقسس .

ودع مراقباً متفلسفاً يبدأ رحلة من المتوحشين فى جبال روكى شرقياً نحو ساحل بحرنا ، فإنه سيلاحظ أن هؤلاء فى أولى مراحل الاجتماع لا يعيشون فى ظل قانون

سوى قانون الطبيعة ويقتاتون بلحم الحيوانات المفترسة ويغطون أنفسهم بجلودها . وسوف يجد بعد ذلك أولئك الذين يعيشون على حدودنا فى حالة رعى يربون الحيوانات الأليفة لتزودهم بما ينقصهم من الصيد . ثم يتلوهم مواطنونا الذين هم أشبه بالبرابرة رواد تقدم المدنية . ومن ثم فإنه فى تقدمه سوف يقابل الظلال المتدرجة للإنسان فى تحسنه حتى يصل إلى أحسن حالة بلغها حتى الآن فى مدن الموانى عندنا . ويعدل هذا فى الواقع تسجيلا فى الزمن لتقدم الإنسان من طفولة الخلق حتى اليوم الحاضر .

ولقد لاحظت سير الحضارة وهو يتقدم من ساحل البحر ماراً فوقنا مثل سحابة من نور ، منمياً معرفتنا ومحسناً حالتنا بالقدر الذى به ازددنا الآن هنا تقدماً فى الحضارة عما كانت عليه الموانئ حين كنت صبياً . ولن يدرى أحد أين يقف هذا التقدم . ففى نفس الوقت أخذت البربرية تتراجع أمام خطوات التحسن الثابتة وأتمنى أنها فى الوقت المناسب ستختفى من الأرض .

بالجامعة أختتم المشاهد الأخيرة فى الحياة

إننى وقد انسحبت بتأثير السن من جميع الخدمات العامة والاهتمامات بالشئون العامة فإننى أختتم المشاهد الأخيرة فى حياتى بإنشاء مؤسسة لتعليم أولئك الذين سيأتون بعدنا وبالإشراف عليها ، وآمل أن يكون تأثيرها على فضيلتهم وحريتهم وسمعتهم وسعادتهم تأثيراً محموداً وباقياً . وإن جامعتنا تسير سيراً حسناً ؛ فنحن نتجنب الحكم والسلطة الزائدة ؛ إذ نعامل تلاميذنا كرجال وسادة يهتدون على وجه الخصوص برأيهم وتصرفهم ، وهم ينظرون إلى أنفسهم على هذا النحو ويعملون بفخر على كسب تلك الصفة لمعهدهم . . . وإنى أتوقع الحصول على الساعة للروتاندا (وهى ساعة صممها جيفرسون تصميما ماهراً بجرس يدق الساعات بطريقة أوتوماتيكية ويسمح مع ذلك بدقة بطريقة مستقلة) وكل من هنا بخير ما عدا نفسى . . . فالرحلة ذهاباً وإياباً فوق الطرق الخشنة إلى الجامعة خمسة أيام متعاقبة قد جلبت على مرة ثانية قدراً كبيراً من العناء . . .

... لقد كنت مشغولا بالحصول على أستاذ رسم من الأساتذة الصالحين فى التخصص العسكرى، أو رسم الطبيعة للجامعة . وإن هذا المرصد (الذى وضع تصميمه ومواصفاته جيفرسون) مقترح للأغراض العادية التى يتطلبها أستاذ الفلك ومدرسته ؛ فلقد اشترى الجبل بقصد استخدامه لمرصد دائم بفلكى مقيم فيه . وقمت باختبار جميع المواقع (واخترت موقعاً مناسباً ووضعت تصميما لحدائق نباتية وشرفات وأحراج) وسوف نحيط الأرض بجدار لولبى من الآجر ارتفاعه سبع أقدام . وسيأخذ هذا حول ثمانين ألف « قالب » من الآجر ، ويكلف ثمانمائة دولار . أما عن بذور النباتات فإن لدى مورداً خاصاً وهو صديقى القديم تووان Thouin المشرف على حديقة النباتات فى باريس ، وأقترح أن تكون الأشجار أجنبية ذات نفع ملحوظ . . ويمكن الحصول على شجر اللاريس Larch من شجرة فى مونتيسلو ، وأستطيع أن أحصل على شجر المارون وشجر بلوط الطين من فرنسا .

وإننى أعتقد حقاً أنه يمكن الآن الحصول على درجة من التعليم هنا تعادل فى مرتبتها العالية ما يمكن الحصول عليه فى إنجلترا . ولم أر مطلقاً مثل مجموعة شبابنا المهذب الذين اجتمعوا لتلقى العلم ، ولقد ارتكبوا بعض الشذوذ فى البدء إلى أن تعلموا الحدود القانونية التى ينبغى ألا يتجاوزوها فى أعمالهم . . . وإن نسبة عظيمة منهم يخصصون وقتهم للدراسة الجادة ، ولا أخشى أن أقول إنهم سيظهرون بلدهم على درجة من الاحترام السليم لم يعرفها أبداً فى أيامنا وأيام أجدادنا ، وإننى لا أستطيع أن أعيش حتى أراها . ويجب أن تكون بهجتى فقط هى بهجة التوقع .

المشاهد النهائية تحاط بسحب الكارثة المالية

وإنى قد ضعفت فى البدن من أثر الوهن ، وفى العقل من أثر السن ، وبلغت من العمر الثالثة والثمانين ، فإنى غير قادر على أن أسهم بالرأى فى الحالات المشكلة .. وأمس أتم اليوم الأخير من العام (١٨٢٥) السنين الواحدة والستين من خدماتى المتصلة للجمهور .

ولقد أصبحت ديونى الخاصة كبيرة ، ولكنها لم تجاوز الحد الذى أستطيع سدادها باقتطاع بعض أملاكى وبيعها ، ١٠ لم يكن يحسن إلا قليلا عند ما أقدمت على ضمان صديق ولسون كارى نيكولاس ، فمنذ ذلك الوقت أقوم بدفع ألف ومائتى دولار فى العام كفائدة على دينه ، وقد سبب ذلك بالإضافة إلى دينى الخاص هجمات عميقة وسريعة على رأس مالى . . . ولو استمرت المحصولات والأسعار عدة سنين بدرجة تحفظ المنافسة المنتظمة بين المزايدين المهمين فى السوق لكان كل شىء آمناً . ولكن تعاقب سنين طويلة من المحصولات غير النامية ، والأسعار المنخفضة ، والهبوط العام فى تجارة الزراعة ، قد أتخم سوق الأرض ، فخطر لى أن ألجأ إلى ما هو متبع من البيع بتسعير معقول وعن طريق اليانصيب ، مما يلجأ إليه غالباً ، ولا يزال مستعملا باستمرار فى كل ولاية . وإذا ما رخص بهذا فى حالتى فإن أرضى هنا وحدها مع المصانع وغير ذلك ستكفى لدفع كل شىء ، وتترك فى مونتيسلو مزرعة خالية من الدين . وإن رفض هذا الإجراء فلا بد لى من أن أبيع كل شىء هنا وربما أبيع قدراً كبيراً فى بدفورد Bedford ثم انتقل هنالك مع عائلتى حيث لا أملك حتى كوخاً من الخشب أضع فيه رأسى .

ولكن لماذا أحزنك (ماديسون) بهذه التفاصيل ؟ إننى لا أستطيع حقاً أن أعلل ذلك ما لم تخف الآلام بالاتصال بصديق ؛ فالصداقة التى دامت بيننا لمدة نصف قرن والانسجام فى مبادئنا ومساعينا السياسية كانا مصدرين للسعادة المستمرة بالنسبة لى خلال ذلك العهد الطويل . وإن انتقلت بعيداً عن نطاق الاهتمام بالجامعة أو بعيداً عن غدير الحياة نفسها كما لا بد من أن أفعل حالا ، فإنه من الراحة لى أن أترك ذلك المعهد فى رعايتك .

ولقد كان عزاء عظيما لى أن أعتقد أنك مشغول بكتابة تاريخ تؤيد به لذريتنا النهج الذى سلكناه لكى نحافظ من أجلهم فى نقاء على نعم الحكم الذاتى التى شاركتنا أيضاً فى الحصول عليها . فإن قدر للأرض أن تشاهد على الإطلاق نظاماً للإدارة يقوم على استهداف تحقيق المصلحة والسعادة العامة فهو ذلك النظام الذى وهبنا

حياتنا له . ولقد كنت لى عماداً للعون خلال الحياة . فارعنى عندما أموت وثق أننى سأترك معك مودتى وحبى .

بنتى المحبوبة وأحفادى

إن هنالك شكوكاً أعظم مما كنت أظن فيما إذا كانت الهيئة التشريعية سترخص لى بطلبى (البيع باليانصيب) . . . وأرى فى فشل هذا الأمل ريحاً عاتية تقضى على هدوء ذهنى فى أثناء أيامى الباقية . . . وإنى لأضيق جداً بتصور ما ستكون عليه الحال التى قد أترك فيها أسرتى . فتصورى أن العزيزة المحبوبة رفيقة حياتى الأولى وممرضة شيخوختى وأطفالها الذين أصبحوا من تأثير معيشتى معهم منذ مهدهم أعزاء على كأنهم أطفالى ، قد يتركون فى موقف لا راحة فيه تصور لا يحمل إلى شيئاً سوى الكآبة فى المستقبل . وإنى لا أحفل بما إذا كانت حياتى لتنتهى مع هذه السطور التى أكتبها لولم أظن أننى قد لا أزال أكون مفيداً للأسرة ، فولاؤهم الودود نحوى يجعل الاستعداد لتحمل الحياة واجباً طالما يمكن أن تكون ذات نفع لهم . . .

وحتى مع ذلك فربما فى هذه الحالة قد لا يكون لى الحق فى أن أشكو ؛ إذ أن هذه الكوارث لم تحدث إلا فى أيامى الأخيرة عندما لم يبق لى منها إلا القليل ، وإنى أعترف فى الوقت المناسب بأننى قضيت حياتى الطويلة بظروف من الألم أقل من تلك الظروف التى كانت من نصيب أغلب الناس ؛ فلقد أوتيت صحة متصلة وقدرة على إرضاء كل حاجة معقولة ونفعاً لإخوانى من المواطنين وقدراً كبيراً من تقديرهم ولم أحس بشكوى ضد العالم الذى شرفنى تشريفاً كافياً وهيأ لى فوق كل شىء أسرة باركتنى بعطفها وودها ولم تعطنى مطلقاً بسلوكها لحظة ألم واحدة ، ولو تحقق لى هذا الطلب الأخير الذى تقدمت به لأمكن لى أن أختتم بشمس لا يشوبها سحاب يوماً طويلا هادئاً من الحياة .

مصدر سعادة ما كنت لأعرفه من غير هذا السبيل

إن الإذن الوحيد الذى منحتنى إياه الهيئة التشريعية بشأن أسلوب البيع الذى يكفل لى قيمة معقولة لما يجب أن أبيعه سوف يترك لى مع ذلك مورداً كافياً للعيش . فلقد

تلقيت طلباً من أشخاص فى كارولينا الشمالية يعربون فيه عن رغبتهم فى إظهار حسن نيتهم نحوى بتقديم المساعدات نقداً إن كان ذلك مقبولا ويعرضون التصرف فى قدر من الأوراق ان فضل أسلوب اليانصيب . . . وليس لى بالتأكيد أن أعين الشكل الذى سيتخذه إخوانى من المواطنين لإظهار عطفهم على . فالهبات التى تقدم من بلد الواحد منا وتعبيرات الاستحسان هى مراتب شرف يعد من الوقاحة رفضها خاصة حين تصدر عن « الراغبين » فقط . ومع ذلك فإن نفس الاستحسان الذى يقوم على بذل الجهد لإنجاح اليانصيب سوف تكون له مزية الإنقاذ من النفور الذى نستشعره بحق ضد صيرورتنا عبئاً على أصدقائنا .

وإن الضرورة التى أملت هذه الذريعة كلفتنى إذلالا لا يمكن وصفه . ولكن الاتجاه الذى اتخذته قد فاق كثيراً ما كنت أتوقع ، ووازى كل ما عانيته وأصبح مصدر سعادة ما كنت لأعرفه أبداً عن غير هذا السبيل .

الصفاء والحب على قمة الجبل

عزيزتى إلين Ellen (قرينـــة جوزيف كوليدج من بوستون) : إن شراب البراندى والسمك والألسن والألحان متوافرة لدينا وقد نالت الاستحسان . وإن البيانو موضعه : وصادف أن كانت قرينة كارى Carey هنا وأظهرت لنا قواته الكاملة وهى فعلا عظيمة . ولم ينم أحد فى الليلة الأولى ، كما أن الضوضاء لم تنته بعد فى هذا اليوم الثالث من نقله ووضعه فى مكانه . والجميع هنا بصحة جيدة ، ويزيد حبهم لك على الدوام ، ولكن لا يفوق أحد ما يحمله شيخهم لك من حب .

وإننى أكتب إليك قليلا لأنى أجد من الأيسر على أن أكتب عشرة من خطابات العمل ، عن أن أكتب خطابا عن عواطف الذهن غير المحسوسة . فلو أن الواحد قد أغرق فى كتابة الرسائل للتعبير عن العواطف كلما أحس بندائها ، فإن حبى لك سوف يحتكر أعمال قلمى المتصلة . . وقد كان أمس (٤ يونيه ١٨٢٦) نهاية زيارة امتدت ستة أسابيع من الأعضاء الشبان فى أسرة مجاورة ، وأشعرتنا فى أثنائها جاذبية أشخاصهم بالتقدير لها . وحسب مظاهر الأشياء تهيأت لهم فرص كثيرة للقضم والعض ، ولكن

سواء اصطادت « صناراتهم » شيئا معينا أم لا فإن ذلك سر لم يبلغ إلى . . وهل لى أن أقول لك شيئاً عن صحتى ؟ إنها كأحسن ماكنت دائماً أتوقع أن تكون . وهى الآن حسنة ولكنها خاضعة لانتكاسات من الألم الوقتى . . وقد خلصت الآن فقط من إحداها . . أما عن مستر كوليدج فإنى قد أودعت عواطفى نحوه فى خطابى الذى كتبته إليه . وأبلغى ودى إلى كورنيليا بألف قبلة منى وخذى لنفسك تلك القبل التى أطبعها على هذه الورقة إليك .

قادة ١٧٧٦

إن حفيدى توماس ج . راندولف ، حامل هذا الخطاب سوف يعتقد أنه فى زيارته لبوستون لم ير شيئاً إن هو غادرها من غير رؤيتك (جون آدمز) . . فهو مثل الشبان الآخرين يرغب فى أن يكون قادراً فى أثناء ليالى الكهولة الباردة على أن يقص لمن حوله ما سمعه وما علمه عن عصر البطولة السابق لميلاده وأن يذكر لهم أسماء من رآهم من قادة الثورة شخصيا .

ولقد كان من حظ السنين الأولى فى حياتنا ألا تشاهد شيئاً سوى المنظر المطرد البليد لبلادنا وهى خاضعة للمستعمر ، ومن حظ سنى النضج أن تواجه الجهود والأخطار التى تحف بمحاولة التخلص من ذلك الخضوع . وإن حياتهم لتمثل الهدوء الذى يعقب العاصفة التى قاومتها سفيننا بقوة وشجاعة . فأرض طموحه إذن باستقبال أطيب انحناءاته وتحياته وأخلص تمنياتى لصحتك . . أما عن صحتى فهى متقلبة ولكن صداقتى واحترامى لك ثابتان .

العيد الخمسينى ليوم ٤ يوليه — وداع على سرير الموت — ما يكتب على ضريحى

إن الدعوة الكريمة التى تسلمتها من أهالى مدينة واشنطون لأكون حاضراً معهم فى احتفالهم بالعيد الخمسينى للاستقلال الأمريكى كأحد الموقعين الأحياء على وثيقة حبلى بمصيرنا ومصير العالم قد كان لها أجمل الأثر فى نفسى . . وإنه لمما يضيف كثيراً إلى آلام المرض أننى حرمت بسببه من المشاركة الشخصية فى أفراح ذلك اليوم . . وأدعو الله أن يكون للعالم ما أعتقد أنه سيكون (لبعض الأجزاء حالا

ولبعضها بعد ذلك ولكن فى النهاية للجميع) الإشارة لإيقاظ الناس كى يحطموا الأغلال التى أغراهم الجهل الرهبانى والخرافة بأن يقيدوا أنفسهم بها ، وأن يتخذوا بدلا منها نعم الحكم الذاتى وأمنه . فذلك الشكل الذى أحللناه محلها يعيد الحق الحر فى ممارسة العقل حرية الرأى إلى غير حدّ .

إن كل العيون قد فتحت ، أو آخذة فى الفتح على حقوق الإنسان . وإن الانتشار العام لنور العلم قد كشف أمام كل بصر الحقيقة المحسوسة من أن جمهرة البشر لم تولد بسروج على ظهورها ، وإن أقلية مختارة خصت بانتعال الأحذية ، وجهزت بالمهامز ، وهى مستعدة لتركبهم على نحو مشروع ببركة الله . وهذه أسس للأمل للآخرين . أما عن أنفسنا فدع العودة السنوية لهذا اليوم تجدد إلى الأبد ذكرياتنا لهذه الحقوق ، وولاءنا الذى لا ينتهى لها .

وداع على سرير الموت من توماس جيفرسون إلى م . ر

إن خيالات الحياة اختفت ، وأحلامها تبددت ، فيا أصدقائى الأعزاء لماذا تشرقون بالدموع ؟ إننى أذهب إلى آبائى ، وإنى أرحب بالشاطئ الذى يتوج جميع آمالى ، أو الذى يدفن همومى .

وإذاً ، وداعاً يا ابنتى العزيزة المحبوبة ! .

فالألم الأخير للحياة هو فى فراقك !

وإن ملكين ينتظراننى طويلا ، وهما مغشى عليهما من الموت . وسأحمل لهما حبك على آخر نفس ألفظه قبل الفراق :

وإن أمكن للموتى أن يحسوا أى اهتمام بالنصب التذكارية ، أو ضروب التذكار الأخرى لهم ، فإن فعل ما يأتى سيرضى روحى أعظم الرضا : فعلى القبر يقام مكعب بسيط من ثلاث أقدام ، من غير زخارف مصبوبة ، يعلوه عمود ارتفاعه ٦ أقدام ، كل منها يتكون من حجر واحد ، وعلى وجه العمود يحفر هذا النص دون إضافة لفظ آخر :

هنا دفن

توماس جيفرســـون

واضع إعلان الاستقلال الأمريكى

وقانون فيرجينيا للحرية الدينية

وأبو جامعة فيرجينيا

لأن بهذه الأعمال — كشهادات تزكية — قد عشت ، وأود بذلك أن أذكر .

هـذا الكتـاب

لا يزال عند توماس چيفرسون الكثير من القول الذى يمكن للعالم فى محنته المعاصرة أن يسترشد به فى تنظيماته القومية وعلاقاته الدولية على حد سواء. فهو يمثل فى تاريخ الفكر السياسى الأمريكى الاتجاهات المضيئة التى تنبثق من مذهب التحرير والمثالية فى حضارة صناعية مادية قوية. ومن ثم أصبح فى صدق تفكيره وتحرره ملكا للعالم أجمع، وتراثاً مشتركاً للبشرية يحاول الساسة والمفكرون من شتى أنحاء الأرض إحياءه والاهتداء به. ويرجع الاعتزاز الدولى بتوماس چيفرسون إلى أن الرجل ذو قلب كبير اتسع لأسرته ولإقليمه وأمته والعالم كله، واستطاع بعقله أن يوجه عواطف ذلك القلب الغنية حتى وفق بين الحياة الشخصية والمصلحة الإقليمية وبين القومية والعالمية. فهو فى صراعه من أجل التعبير عن الروح الأمريكية فى دولة قومية ذات سيادة، لم يغفل متابعة روح الإنسان ومحاولة التعبير السياسى عنها فى إطار يوفق بين الحرية الفردية والحرية الجماعية وبين التنافس القومى والتعايش السلمى فى العالم بأجمعه.

من مقـدمة

الدكتور محمد عبد المعز نصر



